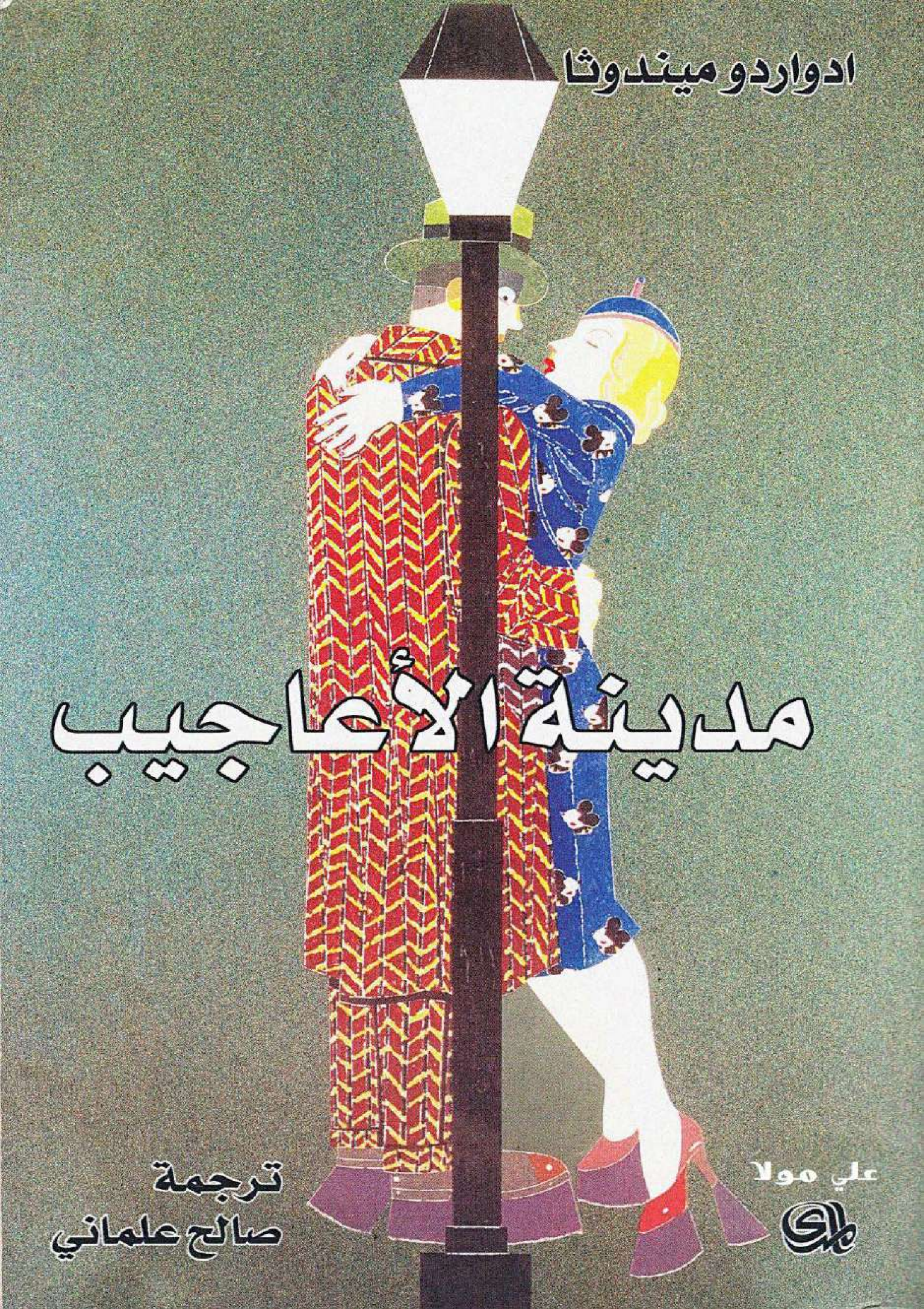

ادواردو ميندوثا
مدينة الأعاجيب
ترجمة
صالح علماني
علي مولا


mohamed khatab

مدينة الأعاجيب

إدواردو ميندوثا

مدينة الأعاجيب

ترجمة

صالح علماني





Author: Eduardo Mendoza
Title : LA CIUDAD DE LOS PRODIGIOS
Translator:Saleh Almani
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : إدواردو ميندوثا
عنوان الكتاب : مدينة الأعاجيب
المترجم : صالح علماني
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٢
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

إلى آنا

إذا خرج الروح النجس من إنسان، هام في القفار يطلب الراحة. وعندما لا يجدها يقول: أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه. فيرجع ويجده مكنوساً مرتباً. لكنه يذهب ثم يجيء بسبعة أرواح أشرّ منه، فتدخل وتسكن فيه، فتصير حال ذلك الإنسان في آخرها أسوأ من حاله في أولها.

لوقا، 11-23

الفصل الأول

– 1 –

في السنة التي وصل فيها أونوفري بوفيلا إلى برشلونة كانت المدينة في ذروة حمى التجديد. تقع المدينة في الوادي الذي تخلفه جبال السلسلة الساحلية عندما تتراجع قليلاً نحو الداخل، ما بين مالغرات وغَرّاف، لتشكل بذلك ما يشبه المدرج. المناخ فيها معتدل ودون تقلبات: فالسماء صافية ومشرقة عادة؛ والغيوم، بالرغم من قلتها، بيضاء؛ والضغط الجوي ثابت؛ والمطر قليل، لكنه غادر وطوفاني أحياناً. ومع أن أمر إنشائها بقي موضع أخذ ورد بين هذا الفريق وذاك، إلا أن الرأي السائد ينسب تأسيس برشلونة الأول والثاني إلى الفينيقيين. ونحن نعرف على الأقل أنها دخلت التاريخ باعتبارها مستعمرة لقرطاج، التي كانت بدورها حليفة صيدا وصور. ومن الثابت أن أفيال هنيبعل قد توقفت لتشرب ولترج الأرض بأقدامها على ضفاف نهري البيسوس أو اليوبريغات وهي في طريقها إلى جبال الألب، حيث أهلكها البرد ووعورة الأرض. لقد ذهل البرشلونيون الأوائل لرؤية تلك الحيوانات. وكانوا يقولون: يا لهذه الأنياب، وهذه الآذان، ويا لهذه الأبواق أو الخراطيم. تلك الدهشة المشتركة والتعليقات التالية، التي استمرت سنوات طويلة، هي التي أنبتت شخصية برشلونة كبؤرة عمرانية؛ وحين ضُيِّعت تلك الشخصية قليلاً، انهمك برشلونيو القرن التاسع عشر في استعادتها. أما الفينيقيون فقد تلاهم الإغريق واللاتينيون. فخلّف الأولون لدى مرورهم آثاراً فنية وأصبحنا ندين للآخرين بعلامتين مميزتين لسلالتنا، كما يقول الاثنولوجيون: نزوع الكتالانيين إلى حني رؤوسهم نحو اليسار حين يتظاهرون بأنهم يصغون، وميل الرجال إلى إطلاق شعور طويلة في فتحات أنوفهم. وأولئك اللاتينيون، الذين لا نعرف عنهم إلا القليل، كانوا يتغذون أساساً على أحد مشتقات الحليب الذي يرد ذكره أحياناً باسم **مصل** وفي أحيان أخرى **ليمونادة** وهو لا يختلف كثيراً عن **اللبن** الشائع حالياً. وعلى الرغم من كل شيء فإن الرومان

هم الذين طبعوا برشلونة بطابع المدينة، ونظموها بصورة نهائية؛ وهذه الصورة التي سيكون من الممل التحدث عن تفاصيلها، هي التي رسمت وحددت تطورها الحالي. ومع ذلك، فإن كل شيء يشير إلى أن الرومان كانوا ينظرون إلى برشلونة بازدراء متعجرف. ويبدو أن المدينة لم تكن تهمهم، لا لأسباب استراتيجية ولا لأي أسباب من نوع آخر. ففي سنة 63 قبل الميلاد، كتب شخص يدعى موسيو أليساندينو، وكان قاضياً رومانياً، إلى حميه نادباً حظه لأنه أُرسل إلى برشلونة: إذ كان قد طلب وظيفة في بيلبيلس أغوسطا السعيدة، وهي كالاتايود الحالية. أما اتاولفو فهو الملك القوطي الهزيل الذي غزاها وبقيت قوطية إلى أن استولى عليها المسلمون دون قتال سنة 717 من تقويمنا. وانسجاماً مع عاداتهم، اكتفى العرب بتحويل الكاتدرائية (ليست الكاتدرائية التي نُعجب بها اليوم، وإنما أخرى أقدم منها، كانت تنتصب في مكان آخر، وكانت مسرحاً لارتدادات دينية وعذابات كثيرة) إلى مسجد، ولم يفعلوا شيئاً آخر. وقد أعادها الفرنسيون إلى الإيمان سنة 785، وبعد قرنين من ذلك بالضبط، في سنة 985، أعادها إلى الإسلام ثانية المنصور أو المنثور، التقي، القاسي، الذي كان له ثلاث أسنان فقط. وقد أثرت حروب الفتح والاسترداد تلك في سماكة أسوارها وتكوينها. فكانت شوارعها المحشورة بين حصون واستحكامات مركزية، تزداد ضيقاً وتعرجاً؛ مما جذب يهود خيرونا القباليين السريين ليؤسسوا فروعاً لمذهبهم هناك، وليحفروا سراديب تقود إلى مجالس سرية وإلى أحواض لتطهير الأضاحي اكتشفت في القرن العشرين، عند إقامة مترو الأنفاق. وما زال بالإمكان قراءة كتابات مبهمة، على عتبات أبواب الحي القديم الحجرية، هي عبارة عن إشارات لأتباعهم، أو صيغ سرية للوصول إلى ما هو غير متوقع، وأشياء من هذا القبيل. ثم عرفت المدينة بعد ذلك سنوات من الازدهار وقروناً من الظلام.

– ستكون حضرتك هنا على ما يرام، وسترى ذلك. الغرف ليست فسيحة، ولكنها جيدة التهوية ونظيفة تماماً، لا يمكن طلب المزيد. الطعام بسيط، ولكنه مغذّ – هذا ما قاله صاحب النزل الذي حلّ فيه أونوفري بوفيلا فور وصوله إلى برشلونة. والذي يقع في كاريرو دل اكسوب. وهذا الدرب الذي

يمكن ترجمة اسمه إلى «زقاق الجُبّ»، كان يبدأ بارتفاع خفيف بعد قليل من بدايته ثم ما يلبث أن يزداد إلى أن يشكل درجتين، ثم يواصل بعد ذلك مستوياً إلى أن يموت بعد أمتار قليلة مصطدماً بجدار قائم فوق أنقاض سور قديم، ربما كان رومانياً. وكان ذلك الجدار ينز باستمرار سائلاً كثيفاً وأسود جعل درجتي الزقاق على امتداد القرون مكورتين وملساوين لامعتين؛ فأصبحتا زلقتين. بعد ذلك يستمر انسياب السائل نحو أسفل في أخدود مواز لحافة الرصيف إلى أن يهوي مثيراً خريراً متقطعاً عبر مصرف مفتوح عند التقاطع مع شارع المانجا (شارع الاجاصة سابقاً)، وهو الطريق الوحيد الموصل إلى شارع كاريرو دل اكسوب. وهذا الشارع الأخير، القبيح و الكئيب بكل المعايير، يمكنه أن يفاخر (بالرغم من أن أركاناً أخرى في الحي تنازعه هذا الشرف المشكوك فيه) بأنه كان مسرح حدث رهيب: ألا وهو تنفيذ حكم الموت على السور الروماني بالقديسة ليوكريثيا. وهي القديسة التي تُذكر في سجل القديسين باسم سانتا ليوكريثيا أحياناً وباسم ليوكراتيا أو لوكاتيس في أحيان أخرى، وربما كانت أقدم عهداً من القديسة ليوكريثيا الأخرى، القرطبية. وأصلها من برشلونة أو من مكان قريب منها، وهي ابنة حلاج صوف، اعتنقت المسيحية مذ كانت طفلة صغيرة. وقد زوجها أبوها دون رضاها من رجل تيبورسي أو من تيبور، يشغل وظيفة خازن في الجيش الروماني. فقامت ليوكريثيا، يدفعها إيمانها الديني، بتوزيع أملاك زوجها على الفقراء وأعتقت العبيد. أما الزوج، الذي تصرفت دون موافقته، فقد استشاط غضباً. وبسبب فعلتها تلك، ولأنها لم تنكر دينها، قطع رأسها في المكان المذكور. وتضيف الأسطورة أن رأسها بقي يتدحرج على الدرب ولم يتوقف عن التدحرج، دائراً عند المنعطفات، مجتازاً الشوارع وناشراً الذعر بين المارة إلى أن سقط في البحر، حيث حمله دولفين أو سمكة كبيرة أخرى. ويجري الاحتفال بعيدها في السابع والعشرين من كانون الثاني. وفي أواخر القرن الماضي كان يوجد نزل عند نهاية درجات الزقاق العلوية. وهو محل يمر بظروف ضيق شديدة، وإن كانت مزاعم أصحابه مختلفة. كان بهوه ضيقاً: لا يتسع إلا لمنضدة كونتوار من خشب فاتح اللون عليها علبة أدوات كتابة من نحاس أصفر ودفتر تسجيل، مفتوح دائماً لكي يستطيع كل راغب أن يتأكد

من شرعية المحل بمجرد إلقائه نظرة، تحت ضوء المصباح الشاحب، على قائمة الألقاب والأسماء المستعارة التي يتضمنها كشف النزلاء، وكان هناك ركن للحلاق، وحمالة مظلات خزفية وتمثال للقديس كريستوبال، شفيع المسافرين قبل أن يصبح، مثلما هو اليوم، شفيع سائقي السيارات. ووراء طاولة الكونتوار تجلس على الدوام السيدة آغاتا. وهي سيدة بدينة، نصف صلعاء وذات مظهر منطفئ؛ يمكن لمن يراها أن يظنها ميتة لولا أن آلامها، التي تضطرها إلى إبقاء قدميها في طست ماء دافئ، تجعلها تصيح بين حين وآخر قائلة: «الطست يا ديلفينا». فعندما يبرد الماء، تبدو وكأنها استعادت الحياة لتنطق بتلك الكلمات. عندئذ تسكب ابنتها في الطست ماءً يتصاعد منه البخار تأتي به في قدر. ولكثرة ما كانت تسكب قدوراً في الطست، كان الطست يطفح بالماء ويهدد بالطوفان وغمر الردهة. لكن ذلك الخطر لم يكن، كما يبدو، يقلق صاحب النزل الذي يدعوه الجميع باسم السيد براوليو. ومعه كان حديث اونوفري بوفيلا الأول ذاك. – لو كان النزل في موقع أفضل، لأمكن اعتباره في الحقيقة فندقاً على قدر من الأهمية – هذا ما أضافه الرجل. فالسيد براوليو، زوج السيدة آغاتا ووالد ديلفينا، هو رجل ذو قامة لافتة للنظر وتقاطيع عادية، فيه شيء من الوجاهة المتصنعة. وكان يعهد هو وزوجته إلى ابنته بكل أعمال النزل. ويكرس معظم النهار في قراءة الصحف اليومية والتعليق على الأخبار مع زبائن النزل الثابتين. كانت المستجدات تبهره، وبما أن ذلك العصر كان سخياً بالاختراعات، فقد كانت الساعات تنقضي قبل أن يقول «آوه!» و «آه!» وبين حين وآخر، يلقي الجريدة جانباً، وكأن هناك من يناشده بإلحاح لعمل ذلك، ثم يصيح قائلاً: سأخرج لأرى حالة الجو. فيخرج إلى الشارع، ويمعن النظر إلى السماء. ثم يدخل ثانية ويعلن: صحو، أو: غائم، بارد، الخ... ولا يُعرف له نشاط آخر – هذا الحي السافل هو الذي يجبرنا على قبول أسعار أدنى كثيراً من درجة المحل – قال ذلك متحسراً. ثم رفع إصبعه محذراً:– ومع ذلك، فإننا ننتقي زبائننا بحذر شديد.

حين سمع أونوفري بوفيلا ما قاله صاحب النزل، فكر في نفسه: أيكون في هذا التعليق نقد مضمر لمظهري؟ ومع أن سلوك صاحب النزل الودّي كان ينفي هذا الافتراض، فأن حساسية أونوفري بوفيلا كانت مسوّغةً تماماً:

ففضلا عن صغر سنه، كان قصر قامته يُلاحَظ بمجرد رؤيته؛ ولكنه كان عريضَ المنكبين بالمقابل. وكانت بشرته ذات صفرة ضاربة إلى الخضرة، وتقاطيعه صغيرة وخشنة وشعره أسود مشعثاً. وكان يرتدي ملابس مهلهلة، مجعدة ومتسخة جداً: وكل ما فيه يشير إلى أنه سافر لعدة أيام دون أن يبدل تلك الملابس، وإلى أنه لا يملك سواها، اللهم إلا غيار ملابس داخلية في الحزمة الصغيرة التي وضعها فوق منضدة الكونتوار عند دخوله، والتي كان يسترق إليها الآن نظرات متتالية مختلسة. وفي أثناء ذلك، كان السيد براوليو يشعر بالراحة. لكن نظرة الفتى لا تلبث أن تتجه إليه ثانيةً فينتابه القلق من جديد. وقد قال صاحب النزل لنفسه: هنالك شيء في عينيه يشنج أعصابي. ثم فكر بعد ذلك: ياه، إنه الوضع المعهود: الجوع، الارتباك، والخوف. لقد رأى أناساً كثيرين يأتون في هذه الحال نفسها: فالمدينة لا تني تتوسع. وفكر: إنه شخص آخر، سردينة صغيرة سيبتلعها الحوت دون أن يشعر بها. وتحول قلق السيد براوليو إلى رقة. وقال لنفسه: إنه أقرب إلى أن يكون طفلاً، وهو يائس كذلك.

ثم أضاف قائلاً له:

– وهل يمكنني أن أسألك يا سيد بوفيلا عن سبب مجيئك إلى برشلونة.

كان يريد بهذه الصيغة العويصة أن يُحدث تأثيراً كبيراً في الفتى. وقد أصاب هذا الأخير البكم فعلاً للحظات؛ حتى إنه لم يفهم جيداً مضمون السؤال.

– إنني أبحث عن عمل – أجاب بارتباك. ثم عاد يغرس نظرته الحادة في وجه صاحب النزل فوراً، خشية أن يتلو جوابه شيء يُلحق الأذى به. لكن السيد براوليو كان قد بدأ يفكر في شيء آخر وهو لا يكاد يوليه اهتمامه.

– آه، هذا جيد! – اكتفى بقول ذلك وهو ينفض بقعة تلوث كتف معطفه. وشكره أنوفري بوفيلا في قرارة نفسه لعدم مبالاته تلك. فهو يشعر بالخجل من أصله، ولا يريد أن يكشف، بأي ثمن، عن السبب الذي دفعه للتخلي عن كل شيء والمجيء إلى برشلونة يائساً.

لم يولد اونوفري بوفيلا، كما قال بعضهم فيما بعد، في كتالونيا المزدهرة،

الصافية، الجذلة والمتحذلقة بعض الشيء التي يحممها البحر، وإنما في كتالونيا الوعرة، المكفهرة والفظة التي تمتد إلى جنوب غرب سلسلة جبال البيرينيه، وتمضي على سفحي سلسلة كادي وتمتد إلى حيث نهر السيغري، الذي يرويها في المرحلة الأولى من مجراه ويتلقى هناك روافده الرئيسية، ويتحد بنهر نوغيرا بالياريسا لينطلق في المرحلة الأخيرة من حياته ويذهب ليصب في نهر الإيبرو عند ميكينينثا. الأنهار في المناطق الواطئة سريعة التدفق، وفيضاناتها السنوية، في الربيع، قوية جداً؛ وعند انحسار مياه الفيضان تتحول الأراضي المغمورة إلى مستنقعات موبوءة، لكنها خصبة، تعيث فيها الثعابين وتكون جيدة للصيد. إنها مناطق كثيفة الضباب ومتشابكة الأحراج، ومناسبة لانتشار الخرافات. وبالفعل، لم يكن هناك من يجرؤ على التوغّل في ذلك الضباب المعتم في بعض أيام السنة؛ ففي تلك الأيام المعلومة يمكن سماع قرع أجراس حيث لا وجود لكنائس أو صوامع، وسماع أصوات وقهقهات بين الأشجار ورؤية أبقار ميتة في بعض الأحيان ترقص رقصة السردانا: ومن يرى ويسمع هذه الأشياء كان يصاب بمسّ في الحال. الجبال التي تحيط بتلك الوديان هي جروف تغطيها الثلوج على مدار السنة تقريباً. والبيوت هناك تقوم على دعائم خشبية، وقد كان نظام الحياة قبلياً، وكان رجال المكان، القساة الخشنون، ما يزالون يستخدمون جلود الحيوانات في ملبسهم. ولم يكن أولئك الرجال ينزلون إلى الوديان إلا مع ذوبان الثلوج، ليبحثوا هناك عن عروس لهم في حفلات موسم قطاف العنب أو ذبح الخنازير. في تلك المناسبات كانوا يعزفون على نايات مصنوعة من العظم ويرقصون رقصةً تحاكي قفز الخروف. وكانوا يأكلون طوال الوقت خبزاً مع الجبن ويشربون نبيذاً ممزوجاً بالزيت والماء. وعلى قمم الجبال كان يعيش أناس أشدّ فظاظةً من هؤلاء: فهم لا ينزلون أبداً إلى الوديان ويبدو أن شاغلهم الوحيد هو ممارستهم نوعاً من المصارعة اليونانية الرومانية. أما أهل الوادي فكانوا أكثر تحضراً؛ يعيشون على زراعة الكرمة، والزيتون، والذرة (للبهائم) وبعض الأشجار المثمرة، وعلى تربية المواشي ونحل العسل. فقد أُحصي في هذا المكان منذ مطلع القرن الحالي خمسة وعشرون ألف نوع مختلف من النحل، لم يبق منها اليوم سوى خمسة أو ستة آلاف نوع. وهم

يصطادون هناك الأيِّل الأسمر، والخنزير البري، وأرنب الجبل، والحجل؛ وكذلك الثعلب، وابن عرس والغرير، ليحموا أنفسهم من هجماتها المتوالية. ويصطادون من الأنهار أسماك الترويت بالذبابة، وكانوا ماهرين جداً في هذا الأسلوب. وكانوا يأكلون جيداً: فوجباتهم لم تكن تخلو من اللحم والسمك، والحبوب، والخضار، والفاكهة؛ فكانوا بالتالي سلالة طويلة القامة، قوية ونشيطة، مقاومة جداً للإجهاد، ولكنها عسيرة الهضم وضعيفته. وقد كان لهذه الخصائص الجسدية أثر في تاريخ كتالونيا: فأحد الأسباب التي جعلت الحكومة المركزية تعارض المطالب الاستقلالية للبلاد هو أن مثل هذا الأمر سيؤدي إلى تدني متوسط طول القامة لدى الإسبانيين. ففي تقريره إلى دون كارلوس الثالث، بعيد وصوله من نابولي، أطلق ر. دي ب. بينيوبيلا على كتالونيا لقب مقعد إسبانيا. كما كان لدى الأهالي كميات وفيرة من الأخشاب، والفلين وقليل من المعادن. وكانوا يعيشون في ضياع متفرقة في الوادي، لا يربط بينهم سوى الأبرشية أو مكتب الكاهن. وكان هذا سبباً لعادة شاعت بينهم: عادة إطلاق اسم الأبرشية أو الدير بدلاً من اسم مكان الولادة. فهم يقولون مثلاً، بيير ليبر، من سانت روك؛ جواكيم كوليبروكيل، من ماريه دي ديو دي روسير، الخ. ولهذا كانت تقع على كاهل الكهنة مسؤولية كبيرة. فهم الذين يحافظون على الوحدة الروحية والثقافية، وحتى اللغوية للمنطقة. كما كانت تدخل ضمن اختصاصهم المهمة الحاسمة بحفظ السلام في الوديان وبين كل وادٍ وجواره، ومنع انفجار العنف والثارات الدامية التي لا تنتهي. وأدى ذلك إلى بروز نموذج من الكهنة مجّده الشعراء فيما بعد: فهم رجال بعيدو النظر ورابطو الجأش، قادرون على مواجهة أكثر الظروف الجوية قسوةً، وعلى المسير لمسافات غير معقولة وهم يحملون قدح القربان بيد والطبنجة باليد الأخرى. وربما يعود الفضل إليهم كذلك في أن المنطقة كلها تقريباً بقيت على هامش الحروب الكارليستية[1]. وعند انتهاء تلك الحرب

---

[1] الحروب الكارليستية: حروب أهلية نشبت في إسبانيا على اثر موت الملك فيرناردو السابع بسبب الخلاف على عرش إسبانيا. وقد استمرت الحرب الكارليستية الأولى منذ 1833حتى 1849، وبدأت في مدينة بلباو ثم امتدت إلى مناطق أخرى، وأشعلها أنصار دون كارلوس شقيق الملك المتوفى، ثم تجددت الحرب مرة أخرى بين عامي 1873-1879.

استخدمت عصابات كارليستية المنطقة كملجأ، وثكنة شتائية ومركز تموين. وتركهم الناس يفعلون ذلك. وبين الحين والحين، كانت تظهر جثة شبه مدفونة بين الأخاديد أو بين الأحراج، مصابة بطلق ناري في الصدر أو في العنق. وكان الجميع يتظاهرون بأنهم لا يرونها. ولم تكن تلك الجثث لأحد الكارليستيين أحياناً، وإنما لضحية نزاع شخصي جرى حله في كنف الحرب.

الشيء الوحيد المؤكد هو أن أنوفري بوفيلا قد عُمِّد في يوم عيد القديس ريستيتوتو والقديسة ليوكاديا (9 كانون الأول، ديسمبر) من سنة ألف وثمانمئة وأربع وسبعين أو ست وسبعين، وأنه تلقى ماء العماد على يد الكاهن «دوم سيرافي دالماو»، وأن أبويه هما جوان بوفيلا وماريا مونت. ولا يُعرف بالمقابل سبب إطلاق اسم اونوفري عليه بدلاً من اسم القديس الذي كان يُحتفل بعيده في ذلك اليوم. وفي شهادة العماد التي استقيت منها هذه المعلومات، يثبت أنه من رعية أبرشية سان كليمنت وأنه الابن البكر لأسرة بوفيلا.

– رائع، رائع، ستكون هنا مثل ملك حقيقي – كان السيد براوليو يقول ذلك وهو يُخرج من جيبه مفتاحاً صدئاً ويشير بحركة تفخيم إلى الممر المظلم والنتن في النزل –: الغرف، كما ترى... آي، يا للهول!

هذه الصرخة الأخيرة أطلقها عندما انفتح فجأة، من الداخل، الباب الذي كان يستعد لإدخال المفتاح في قفله. وظهر شبح ديلفينا في فراغ الباب بفضل الضوء المتسرب من الشرفة. فقال السيد براوليو بعد أن استرد أنفاسه من المفاجأة:

– هذه ابنتي ديلفينا. لا شك في أنها كانت ترتب الغرفة لكي تجدها حضرتك على هواك. أليس كذلك يا ديلفينا؟ – ولأن ديلفينا لم ترد عليه، فقد واصل كلامه متوجهاً إلى أونوفري بوفيلا من جديد:– بما أن أمها المسكينة، زوجتي، عليلة بعض الشيء، فإن أعمال النزل كلها ستُلقى على كاهلي لولا مساعدة ديلفينا، إنها كنز حقيقي.

كان أونوفري قد رأى ديلفينا قبل لحظات، في البهو، عندما هرعت لتملأ بالماء الساخن طست السيدة آغاتا. ولم يكد يدقق بها آنذاك. أما الآن

فتفحصها بتمعن أكبر ووجدها منفرة حقاً. كان عمر ديلفينا مقارباً لعمر أونوفري بوفيلا؛ كانت نحيلة وبلا جاذبية، أسنانها ناتئة، وبشرتها مشققة، وعيناها زائغتا النظرات؛ ولحدقتي تينك العينين خاصية الظهور بأنهما صفراوان. وأدرك أونوفري على الفور أن ديلفينا هي من تقوم في الواقع بكل أعمال النزل. فهي عابسة، قذرة، مشعثة الشعر، رثة الملابس وحافية القدمين، تركض على مدار الساعة من المطبخ إلى الغرف، ومن الغرف إلى المطبخ وقاعة الطعام، حاملة دلاء ماء ومكانس ومماسح. وهي تُعنى فضلاً عن ذلك بأمها وطلباتها المتواصلة، لأن الأم لا تستطيع الاعتماد على نفسها، وتخدم الموائد في موعد الفطور والغداء والعشاء. وتخرج من أجل المشتريات كل صباح، في وقت مبكر جداً، حاملة سلتين كبيرتين مصنوعتين من فروع الصفصاف، تجرهما عند عودتها بجهد جهيد. ولم تكن تتوجه بكلمة إلى أي من النزلاء على الإطلاق، وكان هؤلاء بدورهم يتجاهلون وجودها. وفضلاً عن كونها خشنة المعشر، فقد كان يرافقها، ملتصقاً بكعبيها على الدوام، هر اسود لا يتسامح إلا مع اقتراب سيدته منه، أما مع الآخرين فإنه يعمل عضاً وخمشاً. وكان هذا الهر يدعى بعلزبول[1]. تظهر على أثاث النزل وجدرانه آثار شراسته. لكن هذا كله انزلق من ذهن أونوفري بوفيلا في تلك اللحظة. فقد دخل الحجرة التي خُصّصت له وراح يتأمل للمرة الأولى ذلك الحيز المكعب الضيق والمتقشف. وفكر بتأثر واضح: إنها غرفتي، يمكن القول الآن إنني رجل مستقل، برشلوني حقيقي. وبينما هو ما يزال تحت تأثير الواقع المستجد؛ أحس مثل جميع حديثي المجيء، بذلك الانبهار بالمدينة الكبيرة. لقد عاش حياته في الريف ولم يزر بلدة مهمة سوى مرة واحدة. وهو يحتفظ الآن بذكرى حزينة من تلك الزيارة. اسم تلك البلدة باسورا وهي تبعد ثمانية عشر كيلومتراً عن سان كليمنتي أو سانت كليمنت، الأبرشية التي ولد فيها. عندما زار أونوفري بوفيلا باسورا كانت قد شهدت للتو تقدماً باهراً. إذ تحولت في ذلك الحين من مركز زراعي، ومرتع لتربية المواشي بشكل خاص، إلى مدينة

---

[1] بعلزبول Belcebú: مخلوق شيطاني في الإنجيل، يعدّ زعيم الأرواح الشريرة ورئيس الشياطين.

صناعية. فقد كان في باسورا عام 1878، حسب الإحصاءات، ست وثلاثون منشأة صناعية، واحدة وعشرون منها متخصصة في فرع المنسوجات (قطنية، حريرية، صوفية، نسيج مطبوع، سجاد، الخ)، وإحدى عشرة صناعة كيماوية (كبريت وأحماض، كلوريدات، أصبغة وصابون)، وثلاث صناعات معدنية، وواحدة من فرع الصناعات الخشبية. وكان هناك خط حديدي يربط باسورا ببرشلونة وميناتها، ومنه كانت تخرج المنتجات التي تصدرها باسورا إلى ما وراء البحار. وكان ما يزال هناك عدد محدود من عربات السفر في الخدمة النظامية، لكن الناس عموماً كانوا يفضّلون القطارات. وكانت عدة شوارع مضاءة بمصابيح الغاز، وكان فيها أربعة فنادق أو خانات، وأربع مدارس، وثلاثة كازينوهات ومسرح واحد. وكانت هذه البلدة وأبرشية سانت كليمنت متصلتين بدرب وعر غير ممهد يخترق الجبال عبر اختناق أو مضيق تسده الثلوج عادة في فصل الشتاء. وعلى هذا الدرب كانت هناك عربة تذهب وتجيء عندما تسمح الظروف الجوية بذلك. وكانت العربة تقطع الثمانية عشر كيلومتراً التي تفصل بين سان كليمنت وباسورا دون أي انتظام في المواعيد أو أي توقيت أو تبليغ، فتجلب إلى الضياع أدوات زراعية وإمدادات من كل نوع، ورسائل إن وجدت؛ وتحمل معها في عودتها الفائض المتوفر مما تنتجه الحقول. وكان ذلك الفائض يُرسل من رئيس أبرشية سانت كليمنت إلى خوري آخر في باسورا، صديق له، يتولى بدوره تسويق المنتجات، وإرسال الأرباح المحصلة من المبيع، على شكل بضائع بشكل عام، ويرفق بها حسابات لم يكن أحد يطلبها أو يفهمها أو يهتم بمراجعتها. وكان اسم حوذي العربة، أو الاسم الذي عرف به، هو العم تونيت. وكان يبيت لدى وصوله إلى سانت كليمنت على أرضية حانة تستند إلى أحد جدران الكنيسة الجانبية. ويروي قبل أن ينام ما رآه وسمعه في باسورا، بالرغم من أن قلة هم الذين كانوا يهتمون بما يرويه: فقد كان مشهوراً بأنه مولع بالنبيذ والتبجح بالأوهام. كما أن أحداً لم يكن يرى الطريقة التي يمكن بها لكل تلك الأعاجيب التي يرويها أن تبدل من مسار الحياة في الوادي.

ومع ذلك، فإن باسورا نفسها تبدو له الآن تافهة وبلا معنى حين يقارنها في ذهنه ببرشلونة التي وصلها للتو، والتي لم يعرف عنها أي شيء بعد. هذا

الموقف الذي كان يبدو ساذجاً من نواحٍ كثيرة، لم يكن غير مسوّغ بالكامل: فاستناداً إلى إحصاء عام 1887 للسكان في ما نسميه اليوم «منطقة العاصمة»، أي المدينة والتجمعات المتاخمة لها، كان عدد السكان 416،000 نسمة، وقد راح هذا العدد يزداد بمعدل 12،000 نفس في السنة. ومن الرقم الذي يورده الإحصاء (ويدحضه بعضهم) كان نصيب مدينة برشلونة بالذات، أي ما كان يعرف ببلدية برشلونة في ذلك الحين، 272،000 نسمة. أما الباقون فكانوا موزعين على الأحياء والقرى الواقعة خارج محيط السور القديم؛ وعلى امتداد القرن التاسع عشر تطورت في هذه الأحياء والقرى الفعاليات الصناعية الكبرى. وخلال ذلك القرن كله بقيت برشلونة في طليعة التقدم. ففي عام 1818 أقيم بين برشلونة وريوس أول خط سفريات نظامي لعربات الجياد في إسبانيا. وفي 1826 أُجريت في فناء «لونخا» أول تجربة للإنارة بالغاز. وفي 1836 صنع أول «محرك بخاري»، وكانت تلك هي المحاولة الأولى للمكننة الصناعية. وكان أول خط سكة حديد في إسبانيا هو الذي يغطي طريق برشلونة- ماتارو ويرجع إنشاؤه إلى عام 1848. كما أن أول محطة لتوليد الكهرباء في إسبانيا أقيمت في برشلونة سنة 1873. والفرق في هذا المنحى بين برشلونة وبقية شبه الجزيرة كان عميقاً جداً، وكان الانطباع الذي تثيره المدينة في القادم الجديد قوياً جداً. ولكن الجهود التي تطلّبها هذا التطور كانت هائلة وجبارة. وبرشلونة الآن، مثل أنثى من جنس غريب أنجبت لتوها مواليد كثيرين، ترقد منهوكة نازفة؛ يسيل من شقوقها سيلان نتن، وأبخرة موبوءة تجعل هواء الشوارع والبيوت غير صالح للتنفس. يسيطر على سكانها الإرهاق والتشاؤم. باستثناء بعض البليدين من أمثال السيد براوليو الذين يرون الحياة بلون وردي.

– الفرص في برشلونة وفيرة لمن يملك المخيلة والرغبة في انتهازها – هذا ما قاله السيد براوليو في تلك الليلة بالذات في مطعم النزل لأونوفري بوفيلا، بينما كان يرشف الحساء الحامض عديم اللون الذي قدمته إليه ديلفينا –، يبدو عليك أنك رجل شريف ومتيقظ ومحب للعمل. ولستُ أشك في أنك ستجد عما قريب حلاً لوضعك على نحوٍ مرضٍ تماماً. فكر أيها الشاب بأن تاريخ الإنسانية لم يعرف فترة مثل هذه: الكهرباء، الإرسال

التليفوني، الغواصة... وهل نحتاج إلى مواصلة تعداد الأعاجيب؟ الله وحده يعلم إلى أين سننتهي. وبالمناسبة، هل ترغب في أن تدفع مقدماً؟ فزوجتي، وأنت قد عرفتها، دقيقة جداً في أمور الحسابات. بما إنها مريضة جداً.. أليس كذلك؟

سلّم اونوفري بوفيلا كل ما لديه للسيدة آغاتا، وبذلك المبلغ دفع أجرة أسبوع مقدماً، ولكن لم يبقَ لديه ريال واحد. وفي صباح اليوم التالي، وفور بزوغ النهار، انطلق إلى الشارع بحثاً عن عمل.

- 2 -

على الرغم من أنه كان شائعاً القول، في أواخر القرن التاسع عشر، إن برشلونة تعيش «مولية ظهرها للبحر»، إلا أن الواقع اليومي لم يكن يعزز هذا التأكيد. فقد كانت برشلونة على الدوام، مثلما هي في ذلك الوقت، ميناء بحرياً: عاشت من البحر وللبحر؛ تتغذى من البحر، وتسلم للبحر ثمرة جهودها؛ شوارع برشلونة تقود خطا السائرين إلى البحر ومن خلال البحر كانت تتصل ببقية العالم؛ ومن البحر كان يأتيها الهواء والمناخ، والروائح التي لا تكون لطيفة على الدوام، والرطوبة والملح اللذان ينخران الجدران؛ وصخب البحر الذي يهدل لقيلولة البرشلونيين، وصفارات السفن التي تشير إلى مرور الوقت، ونعيب النوارس الكئيب والحاد الذي ينبه إلى أن عذوبة ظلال الأشجار في الشوارع ليست سوى ضرب من الوهم؛ ويملأ البحر الأزقة بشخصيات غير سوية ذات لغات أجنبية، ومشية مترددة وماض غامض، شخصيات مستعدة لإشهار الخناجر أو المسدسات أو الهراوات؛ والبحر يتستر على من يفلتون بأجسادهم من قبضة العدالة، فيهربون عبر البحر تاركين وراءهم صرخات مؤثرة في الليل وجرائم لن يطولها عقاب؛ لون بيوت برشلونة وساحاتها هو لون البحر الأبيض والمبهر في الأيام الصافية، والرمادي القاتم في الأيام العاصفة. وكان لا بد لكل هذا من أن يستهوي أونوفري بوفيلا، القادم من الأراضي الداخلية. فكان أول ما فعله في صباح ذلك اليوم هو التوجّه إلى المرفأ للبحث عن عمل كحمال.

كان تطور برشلونة الاقتصادي قد بدأ في أواخر القرن الثامن عشر، وسيستمر حتى العقد الثاني من القرن العشرين، ولكن هذا التطور لم يكن ثابتاً وعلى وتيرة واحدة. ففترات الازدهار كانت تتلوها فترات ركود. ولم يكن تدفق الهجرة يتوقف في أثناء ذلك، لكن الطلب على اليد العاملة كان ينخفض بالمقابل؛ فكان العثور على عمل في تلك الظروف محوطاً بمصاعب لا يمكن تجاوزها أحياناً. وعلى الرغم مما قاله السيد براوليو في الليلة السابقة، فقد خرج أونوفري بوفيلا إلى الشارع للبحث عن عمل يتيح له كسب لقمة العيش في فترة كانت برشلونة تمر فيها منذ سنوات بواحدة من مراحل الركود تلك.

كان هناك حزام من رجال الشرطة سدّ الطريق أمامه إلى المرفأ. سأل عما يحدث، فأجابوه بأن هناك عدة حالات كوليرا بين عمال الميناء، وأن الداء قد انتقل دون شك من سفينة قادمة من شواطئ نائية، فاسترق النظر من فوق كتف أحد رجال الشرطة واستطاع أن يرى لوحة مأساوية: كان هناك عدد من الحمالين الذين سقطت البالات التي يحملونها عن كاهلهم وهم يتقيؤون على بلاط الرصيف؛ وآخرون يتغوطون تحت الرافعات سائلاً أصفر لزجاً. وما أن تنتهي النوبة حتى يعودوا إلى أعمالهم وسط التشنجات، كي لا يفقدوا أجرهم. أما الأصحاء فكانوا يبتعدون عند مرور المصابين قربهم؛ ويهددونهم بالسلاسل والعصي إذا ما حاولوا الاقتراب منهم. وكانت هناك جماعة من النساء يحاولن اختراق الطوق الصحي لمساعدة أزواجهن أو أصدقائهن، بينما رجال الشرطة يبعدونهن دون احترام.

واصل أونوفري بوفيلا المسير؛ مشى بمحاذاة البحر باتجاه حي برشلونيتا. كانت معظم السفن في ذلك العهد ما تزال سفناً شراعية. ومنشآت الميناء كانت ما تزال متخلفة أيضاً: فالأرصفة لا تتيح للسفن أن ترسو مجانبة، بل كان على السفن أن ترسو ومؤخرتها متجهة إلى الرصيف. وكان هذا الوضع يحيط أعمال الشحن والتفريغ بصعوبات بالغة، ويستدعي استخدام صنادل وزوارق نقل صغيرة. وكانت هناك قافلة من هذه الصنادل والزوارق تمخر مياه الميناء على مدار الساعة وهي تأتي بالبضائع وتأخذها. وعلى الأرصفة والشوارع المجاورة يتجمع بحارة مسنون لوّحت الشمس

وجوههم؛ وكان من عادة هؤلاء أن يرتدوا سراويل يشمرونها حتى الركبة، و قمصاناً مقلمة بخطوط أفقية ويعتمرون قبعات فريجية. وكانوا يدخنون في غلايين مصنوعة من القصب، ويشربون خمراً قوية ويأكلون لحماً مقدداً ونوعاً من الخبز المحمص الذي يجففونه لأسابيع؛ كما أنهم يمصون الليمون بشراهة؛ وقد كانوا شديدي الاقتضاب في حديثهم مع الناس، إلا أنهم يتحدثون فيما بينهم دون توقف؛ يتحاشون لقاء البشر ويميلون إلى العربدة والشجار، ولكنهم يمضون عادة برفقة كلب أو ببغاء أو سلحفاة أو حيوان آخر يسبغون عليه الدلال والاهتمام. والحقيقة أنهم كانوا يقاسون مصيراً مأساوياً: فقد أبحروا منذ طفولتهم للعمل كصبيان متدربين في السفن، ولم يعودوا إلا في الشيخوخة إلى مسقط رأسهم الذي لا تربطهم به إلا الذاكرة. وكان التجوال الدائم قد حال دون تشكيلهم أسراً أو عقد صداقات دائمة. وعند عودتهم الآن يشعرون بأنهم غرباء. ولكنهم بخلاف الغرباء الحقيقيين الذين يستطيعون التأقلم، إلى هذا الحد أو ذاك، مع عادات البلد الذي يحتضنهم، كانوا يجرجرون متاعاً مؤلفاً من بعض الذكريات الزائفة بفعل توالي السنين الطويلة، وساعات الفراغ المبددة في تخيل أحلام ومشروعات؛ وعندما يواجهون الآن الواقع المختلف، تمنعهم تلك الذكريات المثالية من التأقلم مع الوضع القائم. ولتفادي عدم التوافق هذا تحديداً، يختار بعضهم قضاء ما تبقى من أيامهم في ميناء أجنبي، بعيداً عن وطنهم. وكانت هذه هي حال ذئب بحر يقارب المئة من عمره يدعى ستورم، مجهول المنشأ، وقد اشتهر في تلك السنوات في برشلونة، حيث كان يعيش. كان يتكلم بلغة غير مفهومة للجميع، بمن في ذلك أساتذة كلية الفلسفة والآداب، الذين التقوا العجوزَ عندما حمله جيرانه إليهم. وكان كل رأسماله يتألف من رزمة من الأوراق النقدية التي لم يقبل أي مصرف برشلوني مبادلتها؛ ولأن تلك الرزمة كانت ضخمة، فقد كان يُعدّ ثرياً، وكانت حوانيت حيه وباراته توافق على تسليفه. كان يقال عنه إنه غير مسيحي، وإنه يعبد الشمس، وإن لديه في غرفته فقمةً وأطوماً.

كان حي برشلونيتا في ذلك الحين ضاحية صيادين ظهر إلى الوجود خلال القرن الثامن عشر، خارج أسوار برشلونة. وقد ضُمّ إلى المدينة فيما

بعد وأُخضع لعملية تصنيـع متعجلـة. فـأصبحت هنـاك فـي برشـلونيتا الآن أحواض بناء السفن. وبينما كان أونوفري بوفيلا يتمشـى هنـاك، وجد جماعة مـن النسـاء النشـيطات المربوعـات يفـرزن أصنـاف السـمك المختلطـة وهـن يضحكن. شجعته مظاهر مرحهن تلك، فاتجه إليهن متوسـلاً الحصـول على معلومـات، وفكر: ربمـا أمكـن لهؤلاء النسـوة أن يخبـرنني عـن مكـان أجـد فيـه عمـلاً؛ فالنسـاء يكّن أكثر تعاطفاً مـع فتـى مثلـي. ولكنـه سـرعان مـا أدرك أن طيب المزاج الذي بدا على وجوه أولئك النسوة فـي الظاهر، لم يكن فـي الواقع إلا اختلالاً عصبياً يجعلهن يضحكن بتشنج ودون سبب أو كـابح. فقـد كـن فـي أعماقهن منكدات ويتوقـدن بـالغضب: يشـهرن السـكاكين لأي سـبب ويقـذفـن الأسماك والسرطانات على رأس من يدنو منهن. وحين رأى ذلك خـرج هـارباً. ولم يكن أوفر حظاً عندما حاول تسجيل اسمه للعمل كبحار فـي أحـد المراكب الراسية هناك، والتي كانت خارج نطاق الحجـر الصحـي. ولكنـه مـا أن اقترب مـن أحـد تلـك المراكـب حتـى ثنـاه عـن ذلـك البحـارة الذيـن كـانوا يسـتندون بمرافقهم إلى حافة المركب. قـالوا لـه لا تصعـد إلـى مـتن السـفينة إذا كنـت لا تريد الموت أيها الفتى. وقالوا له إنهم هم أنفسهم ضحايا الاسـقربوط. وكانوا يُرونه أثناء الحديث لثتهم الدامية. وفـي محطـة القطـارات، قـال لـه الحمـالون وهـم يكـادون لا يقـدرون علـى المشـي بسـبب الرومـاتيزم، إن أعضـاء إحـدى الجمعيات وحدهم من يستطيعون التطلع إلى النجاح فـي الحصـول على ذلـك العمل العبـودي. وهكـذا علـى التوالـي. وعنـد الغـروب رجـع إلـى النـزل منهوكاً. وبينمـا هـو يلتهم العشـاء الزهيـد، أبـدى السـيد براوليـو الـذي كـان ينتقـل مـن طاولـة إلـى أخـرى، اهتمامـه بمعرفـة نتـائج مسـاعيه. فـأخبره أونوفـري بـأن الحظ لم يحالفه. وقد سمع الرجل الذي كان يعمل حلاقاً فـي البهو حديثهما، فلم يتوانَ عن التدخل. وقـال لأونوفـري بوفيـلا: يبـدو واضحـاً أنـك قـادم مـن الريـف؛ اذهـب إلـى سـوق الخضـار، وربمـا وجـدت هنـاك عمـلاً مـا. فشـكره أونوفـري متجـاوزاً مـا تضمنتـه النصيحـة مـن سـخرية، ووجـه فـي الوقـت ذاتـه ركلـة بقدمـه إلـى هـر ديلفينـا الـذي كـان قـد أنشـب مخالبـه فـي ربلـة سـاقه. فوجهت إليه الفتاة نظرة مملوءة بالحقد ردّ عليها بنظـرة ازدراء. وبـالرغم مـن أنه كان يرفض الاقرار بذلك، إلا أن مصـائب ذلـك النهـار أثّرت فـي حماسـه.

وكان يقول لنفسه: لم يخطر لي أن الأمور ستكون بهذه الصعوبة. ثم يضيف في دخيلة نفسه: ياه، ليس مهماً، غداً سأعيد المحاولة؛ ولا بد أن الصبر سيأتي بنتيجة ما. أي عمل يتيح له عدم الاضطرار إلى العودة إلى البيت. وكان هذا الاحتمال هو أكثر ما يقلقه.

وعملاً بنصيحة الحلاق، زار في اليوم التالي «بورنيه»، وهو الاسم الذي كان يطلق آنذاك على سوق الفواكه والخضار المركزي. ولكن الزيارة كانت عقيمةً؛ وهو ما حدث في الزيارات التي قام بها فيما بعد. وهكذا انقضت الأيام والساعات: دون التوصل إلى نتيجة ملموسة أو الحصول على أمل. كان يذرع المدينة من أقصاها إلى أقصاها تحت الشمس أو المطر. ولم يترك في تجواله باباً إلا وطرقه. حاول الحصول على أعمال كان يجهل وجودها حتى ذلك الحين: صانع سجائر، جبّان، غطاس، نحات رخام، منظف آبار... وغيرها. وفي معظم الأماكن التي قصدها لم يكن يوجد عمل؛ وفي الأماكن الأخرى كانوا يطلبون الخبرة. ففي دكان للحلويات سألوه إن كان يتقن صنع الفطائر؛ وفي بعض أحواض السفن إذا كان يتقن الجلفطة. وكان يجد نفسه مضطراً إلى الإجابة عن جميع تلك الأسئلة بكلمة لا. وسرعان ما اكتشف أموراً لم تكن تخطر بباله من قبل: فمن بين جميع الأعمال، كانت الخدمة المنزلية هي الأكثر استقراراً. وكان يعمل في هذا المجال يومئذ 16186 شخصاً في برشلونة. أما الأعمال الأخرى فكانت تخضع لظروف رهيبة: فأيام العمل طويلة جداً؛ وعلى العمال أن ينهضوا كل يوم في الرابعة أو الخامسة صباحاً ليصلوا إلى أعمالهم في المواعيد المحددة. وكانت الأجور متدنية جداً. وكان الأطفال يعملون منذ سن الخامسة في البناء أو النقل، بل وفي المقابر أيضاً، حيث يساعدون حفّاري القبور. وقد قابلوه في بعض الأماكن بلطف؛ وفي أماكن أخرى بعدائية مكشوفة. وكادت بقرة أن تنطحه في محل للألبان، وحرّض عليه بعض الفحّامين كلباً ضارياً. لقد رأى البؤس والأمراض في كل مكان. فهنالك أحياء بكاملها مصابة بالتيفوس، أو الجدري، أو داء الحُمْرة، أو الحمى القرمزية. والتقى بمصابين باليرقان وبازرقاق الجلد، والكزاز، والفالج، وأورام السوائل، والصرع، والدفتريا. وكان سوء التغذية والكساح متفشيين بين الأطفال، والسل بين الكبار؛ والسفلس بين الجميع. ومثل جميع

المدن، تعرضت برشلونة لزيارات دورية من أشد الأوبئة فتكاً. ففي سنة 1834 خلّفت الكوليرا 3521 ميتاً، وبعد عشرين سنة، في 1854، سقط 5640 شخصاً ضحية هذا المرض نفسه. وفي سنة 1870 انتشرت في برشلونيتا الحمى الصفراء القادمة من جزر الأنتيل الإسبانية. وقد جرى إخلاء الحي كله، وأحرق ميناء ريبا. وفي تلك المناسبات كان الذعر هو الذي يسود أولاً ثم يتلوه الخمود فيما بعد. وكانت تُنظّم مواكب ومهرجانات دينية لطلب المغفرة من الرب. وكان الجميع يشاركون في تلك التضرّعات، بمن فيهم من شاركوا قبل بضعة شهور في عملية إحراق الأديرة التي بدأت على شكل فتنة، أو من حرّضوا على تلك الأعمال البربرية. وأشد النادمين كانوا بالتحديد هم أولئك الذين ألقوا مشعلاً على ثوب كاهن مسكين، ولعبوا لعبة البيلبوكيتي (الكرة) بالصور المقدسة، وصنعوا - كما يقال - حساء من عظام القديسين. بعد ذلك تتضاءل الأوبئة وتبتعد، ولكنها لا تتلاشى نهائياً على الإطلاق: فهناك دوماً حصون يجد الوباء نفسه فيها مستقراً على هواه، بعد أن ضرب فيها جذوره. وهكذا كان الوباء يتلو الوباء قبل أن يكون سابقه قد اختفى تماماً. وكان على الأطباء أن يتخلوا عن معالجة آخر المصابين بأحد الأوبئة ليهتموا بالإصابات الأولى من الوباء التالي، ولم يكن لعملهم من نهاية. وقد وفر هذا الوضع ازدهاراً للمشعوذين والمداوين بالسحر والأعشاب والأطباء الدجالين. وكان هناك في جميع الميادين رجال ونساء يبشرون بمذاهب غامضة، ويعلنون عن مجيء المسيح الدجال، وعن يوم القيامة، وعن مسيح يهتم بشكل غريب ومريب بأموال الآخرين. وكان بعضهم يقدمون، دون سوء نية، وسائل علاج ووقاية غير مجدية، إذا لم تكن وخيمة النتائج، مثل إطلاق صرخات في الليالي التي يكون فيها القمر بدراً، أو ربط جلاجل بالرسغين أو نقش رموز دائرة الأبراج أو عجلات القديسة كاتالينا على جلد الصدر. وكان الناس المذعورون والعاجزون أمام أخطار المرض يشترون الطلاسم والتمائم التي تعرض عليهم ويتناولون، دون أن ينبسوا بكلمة، الأشربة السحرية أو يجبرون أبناءهم على تناولها، معتقدين أنهم يقدمون لهم جميلاً بذلك. كانت البلدية تختم بيوت الموبوئين الذين يموتون، ولكن نقص البيوت بلغ حداً دفع البعض بعد قليل إلى تفضيل المجازفة بالتعرض للعدوى على العيش في العراء،

فيحتل أحدهم البيت من جديد، فيصاب بالداء فوراً ويموت دون غفران. ومع ذلك، لم تكن الأمور تجري على هذا المنوال أحياناً. كما لم تكن تنعدم بعض حالات التفاني ونكران الذات، مثلما يحدث على الدوام في مثل هذه الظروف العصيبة. وهكذا فقد كانوا يتحدثون، على سبيل المثال، عن هذه الحالة المحددة: حالة راهبة متقدمة في السن تدعى تارسيلا، ذات شارب ظاهر، ما تكاد تسمع أن هذا الشخص أو ذاك قد سقط طريح الفراش يشكو من داء لا شفاء منه، حتى تهرع إلى جوار ذلك الشخص ومعها أكورديونها. وقد فعلت ذلك طوال عقود دون أن تنتقل إليها عدوى أي مرض، مهما أطلقوا من السعال باتجاهها.

في الليلة التي انتهى فيها الأجل المحدد للدفع، استدعى السيد براوليو نزيله أونوفري للتشاور، وقال له: الدفع، كما تعلم، يجب أن يكون مقدماً. عليك أن تسدد لنا «الأسبوعية». فتنهد أونوفري وقال: لم أجد عملاً بعد يا سيد براوليو، امنحني مهلة أسبوع وسأدفع لك كل ما هو مترتب عليّ حين أتقاضى أجري الأول.

فرد صاحب النزل:

- لا تظنني غير مقدر لوضعك يا سيد بوفيلا، ولكن عليك أنت أيضاً أن تقدّر وضعنا: فنحن لا نتكلف الكثير من المال من أجل إطعامك يومياً وحسب، بل إننا نخسر كذلك ما سيدفعه لنا نزيل آخر إذا ما تركت غرفتك. هذا مؤلم، أعرف ذلك، ولكنني لن أجد وسيلة أخرى سوى أن أرجوك بأن تغادر غداً منذ الصباح الباكر. صدقني أنني متأسف لاضطراري إلى هذا التصرف، لأنني أحببتك.

في تلك الليلة لم يتناول العشاء تقريباً. فالإنهاك المتراكم طيلة النهار جعله يستغرق في النوم فور استلقائه، ولكنه استيقظ فجأة بعد نحو ساعة. وعندئذ بدأت تداهمه أشد الأفكار شؤماً. ولكي يتخلص منها، نهض وخرج إلى الشرفة؛ وهناك تنفس باضطراب الهواء الرطب والمالح الذي يحمل من الميناء رائحة السمك والقار. وكان يأتي من هناك أيضاً وميض شبحي: إنها أعمدة مصابيح أنوار الغاز التي يخبو ضوؤها في الضباب. بقية المدينة كانت

غارقة في الظلمة المطبقة. بعد لحظة من ذلك كان البرد قد اخترق عظامه فقرر العودة إلى الفراش. وحين صار هناك أشعل عقب الشمعة الموجود على الكوميدينو وأخرج من تحت الوسادة ورقة مصفرة ومطوية بعناية. فتحها بحذر وقرأ على ضوء الشمعة المرتعش ما كان مكتوباً على تلك الورقة. وكلما كان يتقدم في قراءة ما يعرفه عن ظهر قلب، كانت شفتاه تتقلصان، ويتجعد ما بين حاجبيه، وتكتسب عيناه تعبيراً غامضاً، هو مزيج من الحقد والحزن.

في ربيع عام 1876 أو 1877 هاجر أبوه إلى كوبا. وكان عمر أونوفري بوفيلا آنذاك سنة ونصف السنة؛ ولم يكن الزوجان قد أنجبا مزيداً من الأبناء بعد. كان أبوه رجلاً متشدقاً، احتفالياً، وصياداً جيداً ومتقلب الطباع بعض الشيء، على حد قول من عرفوه قبل أن ينطلق في تلك المغامرة. وكانت أمه تنحدر من الجبال، وقد نزلت إلى الوادي لتتزوج من جوان بوفيلا؛ كانت طويلة القامة، ضامرة، صموتاً، ذات إيماءات عصبية وطباع فظة بعض الشيء، وإن كانت تكبحها؛ وكان لها قبل أن تشيب شعر كستنائي؛ ولعينيها كذلك لون رمادي تخالطه الزرقة، مثل عيني أونوفري، الذي كان يشبه أباه في كل شيء ما عدا ذلك. لم يكن الكتلانيون يذهبون إلى أميركا قبل القرن الثامن عشر، إلا في حالات نادرة، وكموظفين لدى التاج على الدوام؛ ولكن منذ القرن الثامن عشر، هاجر كتلانيون كثيرون إلى كوبا. والأموال التي كان يرسلها أولئك المهاجرون من المستعمرة أدت إلى تراكم رأس مال غير متوقع. وبرأس المال ذاك أمكن بدء عملية التصنيع، وإعطاء دفعة لاقتصاد كتالونيا الذي كان يحتضر منذ زمن الملكين الكاثوليكيين: دون فيرناندو ودونيا إيزابيل. وكان بعضهم، إضافة إلى إرسال الأموال، يعودون في نهاية المطاف؛ وهؤلاء هم الاندليانيون[1] المثرون الذين كانوا يشيدون بيوتاً غريبة الأشكال في قراهم. وكان أشدهم تكلفاً يحضرون معهم جاريات زنجيات أو خلاسيات يقيمون معهن بصورة مكشوفة علاقات حميمة. وكان ذلك يثير لغطاً كبيراً فينتهون، بضغط من الأقارب والجيران، إلى تزويج أولئك الجاريات من بعض الأجراء

[1] الاندليانو indiano: الإسباني الذي يعود من أميركا بعد أن حقق الثراء.

البلهاء. وقد خرج من تلك الزيجات أبناء ملونون، غير مستقرين، ينتهون عادة إلى الدخول في خدمة الدين. ويُرسلون عندئذ في مهمات تبشيرية إلى أقصى العالم: إلى جزر الماريانات أو جزر الكارولينات، التي كانت ما تزال تتبع للكرسي الرسولي في قادش أو اشبيلية. ومع تناقص تدفق الهجرة هذا فيما بعد، لم يُعدم من واصلوا اجتياز المحيط بحثاً عن الثروة، ولكنها كانت حالات فردية: ابن ثان انتهى إلى العوز بفعل نظام وراثة يعود بمقتضاه كل ميراث الأسرة إلى ابن واحد، يدعى الـ *hereu*، أي البكر، أو إقطاعي مفلس بسبب الفلكسرة[1]، ومن شابههم. لم يكن جوان بوفيلا ضمن أي من تلك الحالات: ولم يعرف أحد آنذاك، ولا في ما بعد، السبب الذي دفعه إلى الهجرة. البعض قالوا إنه تصرف بدافع الجشع؛ وقال آخرون إن السبب هو الخلافات الزوجية. وابتدع أحدهم هذه القصة: كان جوان بوفيلا قد اكتشف بعد قليل من زواجه سراً رهيباً له علاقة بزوجته، وقيل إنه كانت تُسمع في البيت صرخات وضربات مريعة في الليل، وإن تلك الصرخات كانت تُبقي الطفل مستيقظاً طوال الليل، وإنه كان يبكي حتى الفجر، حيث تهدأ تلك الجلبة. ويبدو أن شيئاً من ذلك لم يكن صحيحاً. فبعد أن غادر جوان بوفيلا، واصل كاهن سانت كليمنت استقبال زوجته، مارينا مونت، في الكنيسة؛ وكان يقدم لها أسرار القربان مثل أفراد الرعية الآخرين ويعاملها باحترام خاص. وقد أسكت بذلك الشائعات الخبيثة.

وكان جوان بوفيلا، بعد قليل من مغادرته، قد كتب رسالة إلى زوجته.

تلك الرسالة، المرسلة من جزر الأزور، حيث توقفت السفينة، حملها إلى الأبرشية العم تونيت في عربته الحنطور. وكان على الكاهن أن يقرأها، لأن الزوجة لم تكن تعرف القراءة. ولكي يُسكت نهائياً ألسنة السوء، قرأها في يوم أحد من المنبر قبل القداس. وكانت الرسالة تقول: ***عندما أحصل على عمل وبيت وقليل من المال سأرسل في طلبكما. لقد كانت رحلة اجتياز المحيط موفقة. اليوم رأينا أسماك قرش؛ إنها تلحق السفينة بصورة خطرة في أسراب، بانتظار أن يسقط أحد المسافرين إلى الماء؛ عندئذ تلتهمه في لقمة***

---

[1] الفلكسرة filoxera: مرض يصيب أشجار الكرمة.

واحدة: تطحنه كاملاً بأسنانها ثلاثية الصفوف؛ ومن تستطيع اقتناصه والتهامه لا تعيد منه شيئاً إلى البحر. ومنذ ذلك اليوم لم يعد إلى كتابة أي شيء آخر.

طوى أونوفري بوفيلا الرسالة من جديد بحذر شديد، دسها تحت الوسادة، أطفأ الشمعة وأغمض عينيه. واستغرق هذه المرة في نوم عميق، غير عابئ بقساوة الفراش وهجمات البق والبراغيث الضارية. ومع ذلك، أيقظه قبل انبلاج الفجر بقليل ثقلٌ على أسفل بطنه، وخرخرة، وإحساس مزعج بأن هناك من يراقبه. كانت الغرفة مضاءة بنور شمعة، ليست الشمعة التي أطفأها قبل عدة ساعات، وإنما شمعة أخرى يحملها شخص لم يستطع تحديده للوهلة الأولى، لأن شيئاً آخر كان يستقطب اهتمامه. ففوق الدثار كان يقبع **بعلزبول**، هرّ ديلفينا المتوحش. كان ظهره مقوساً وذيله منتصباً، وكان قد أبرز مخالبه. أما أونوفري بالمقابل، فكانت يداه مقيدتين بملاءات السرير، ولم يكن يجرؤ على إخراجهما لحماية وجهه: كان يخشى أن يستثير الحيوان الضاري بحركاته. بقي متجمداً دون حراك؛ وكانت تنبثق من جبهته وشفتيه قطرات من العرق. قال صوت هامس: لا تخف، لن يهاجمك، ولكنك إذا ما حاولت أن تفعل بي شيئاً فسوف يفقأ عينيك. تعرف أونوفري على صوت ديلفينا، ولكنه لم يرفع نظره عن القط ولم يتفوه بكلمة.

– أعرف أنك لم تجد عملاً – واصلت ديلفينا القول؛ وكانت في صوتها نكهة الرضا، ربما لأن إخفاق أونوفري قد جاء ليؤكد تنبؤاتها، أو لأنها تجد متعة في شدائد الغير، ثم تابعت قائلة:– الجميع يظنون أنني لا أعرف شيئاً، ولكنني أفهم كل شيء. يعاملونني كما لو أنني جزء من الأثاث، مثل متاع بلا فائدة، وحتى إنهم لا يحيونني عندما يمرون بجانبي في الممر. هذا أفضل: فجميعهم أشقياء. إنني واثقة من أن أقصى حلم يراودهم هو أخذي إلى السرير... وأنت تعرف ما الذي أعنيه. آه، ولكنهم إذا ما حاولوا ذلك، فإن **بعلزبول** سيمزق جلدهم نتفاً. ولهذا يفضلون التظاهر بأنهم لا يرونني.

وحين سمع القط اسمه أطلق زمجرة غادرة. أفلتت ديلفينا ضحكة متبجحة وأدرك أونوفري أن الفتاة معتوهة. وفكر: هذا ما كان ينقصني.

وتساءل: أين سينتهي كل هذا؟ آي، رباه، عسى ألا أنتهي إلى العمى...

– أنت لا تبدو مثلهم – واصلت الفتاة القول من بين أسنانها، متنقلة دون مقدمات من الضحك إلى الجد –، ربما لأنك ما تزال صغيراً. ياه، ستفسد فيما بعد. غداً ستنام في الشارع. وسيكون عليك أن تنام وإحدى عينيك مفتوحة على الدوام. وستستيقظ بعد ذلك متجمداً وجائعاً ولا تجد ما تأكله؛ وستصارع للبحث في القمامة. ستصلي لكي يتوقف المطر ولكي يأتي الصيف بسرعة. وهكذا ستأخذ بالتحول، وستصير إلى وغد، مثل الجميع. ماذا، ألا تقول شيئاً؟ يمكنك التكلم دون أن ترفع صوتك. ولكن لا تقم بأية إيماءات.

– ما الذي جاء بكِ؟ – تجرأ أونوفري على القول لها، وهو يشرق بالكلمات – ما الذي تريدينه مني؟

– يظنون أنني لا أنفع إلا في مسح الأرض وغسل الأطباق – ردّت ديلفينا مستردة الابتسامة المستخفة – ولكن لدي مواردي. ويمكنني مساعدتك إذا أردتَ.

– وماذا عليّ أن أفعل؟ – قال أونوفري وهو يحس بالعرق يسيل على ظهره.

تقدمت ديلفينا خطوة باتجاه السرير. فتصلب أونوفري، ولكنها توقفت هناك. وبعد هنيهة قالت: – اسمع ما سأقوله لك. لدي خطيب. وهذا أمر لا يعرفه أحد، حتى أبواي. ولن أخبر أحداً بذلك أبداً، وفي أحد الأيام، في يوم لا يخطر على بال، سأهرب معه. سيبحثون عني في كل مكان، ولكننا سنكون بعيدين. لن نتزوج مطلقاً، ولكننا سنعيش معاً إلى الأبد، ولن يعودوا لرؤيتي هنا. إذا ما كشفتَ سري فسأطلب من **بعلزبول** أن يمزق وجهك، هل فهمت؟، انتهت الفتاة إلى قول ذلك. فأقسم أونوفري بالله وبذكرى أمه إنه سيحفظ السر. وأرضى ذلك ديلفينا التي أضافت على الفور: – اسمع، خطيبي ينتمي إلى جماعة؛ وتلك الجماعة مؤلفة من رجال نبيلي الخلق وشجعان، مصممين على القضاء على الجور والبؤس اللذين يحيطان بنا. توقفت هنيهة لترى تأثير كلماتها على أونوفري بوفيلا، وحين رأت أنه لا يأتي بأي رد فعل، أضافت: هل سمعتَ بالفوضوية؟ فقال أونوفري «لا» بهز رأسه. وهل تعرف من هو باكونين؟ وعاد أونوفري إلى قول لا، وبدلاً من أن تقطب غاضبة، مثلما خشي أن يحدث، هزت كتفيها. ثم قالت أخيراً: هذا طبيعي، إنها أفكار جديدة؛ ولا

يعرفها إلا أناس قليلون. ولكن لا تقلق، فعما قريب سيعرفها الجميع: الأمور ستتغير.

في عقد سنوات 1860 قررت الجماعات الفوضوية الإيطالية التي ازدهرت خلال سنوات النضال من أجل توحيد إيطاليا، إرسال مندوبين إلى بلدان أخرى ينشرون أفكارها ويكسبون أنصاراً لها. والرجل الذي أُوفد إلى إسبانيا، حيث كانت الأفكار الفوضوية معروفة وتحظى بنفوذ كبير، كان يدعى فوسكاريني. ولكن الشرطة الإسبانية، بالتعاون مع الشرطة الفرنسية، أوقفت القطار الذي يسافر فيه فوسكاريني على بعد بضعة كيلومترات من مدينة نيس، وصعدت إليه. «ارفعوا أيديكم!»، قال رجال الشرطة ذلك وهم يوجهون بنادقهم إلى ركاب القطار، «من منكم هو فوسكاريني» فرفع الركاب كلهم أذرعهم قائلين بالإجماع: أنا فوسكاريني، أنا فوسكاريني، فليس هناك في نظرهم شرف أكبر من أن يعدّ أي واحد منهم هو ذلك الرسول. الشخص الوحيد الذي لم يقل شيئاً هو فوسكاريني نفسه. فقد علّمته سنوات العمل السري الطويلة كيف يتخفى في مثل هذه المناسبات، فكان ينظر من النافذة ويصفر بمرح، وكأن ذلك الأمر لا يعنيه. وهكذا استطاع رجال الشرطة التعرف عليه دون صعوبة. فأنزلوه جرجرة من القطار، وأبقوه بملابسه الداخلية، ثم ربطوه بحبل ومددوه على سكة القطار، رأسه على أحد الخطين وقدماه على الخط الآخر. عندما يأتي قطار الساعة التاسعة السريع، سيحولك إلى شرائح، هكذا قالوا له. ثم أضافوا: ستنتهي حياتك متحولاً إلى سجق يا فوسكاريني، وكانوا يقولون له ذلك بابتسامة شيطانية. ثم ارتدى أحد الشرطيين الملابس التي انتزعوها عنه وصعد إلى القطار. وعندما رآه المسافرون يدخل إلى إحدى العربات، ظنوا أنه فوسكاريني، وأنه قد خدع معتقليه، فراحوا يهتفون له بحماس. أما فوسكاريني المزيف، فكان يبتسم ويسجل أسماء أشد المسافرين حماسة بالهتاف. وعندما وصل إلى إسبانيا، أخذ يدعو إلى العنف الأهوج المنفلت لتعكير الأجواء وتعبئة الناس ضد العمال وتسويغ إجراءات القمع الرهيبة التي تتخذها الحكومة. وقالت ديلفينا: لقد كان في الواقع مُحرِّضاً عميلاً.

وبالتزامن مع تلك الأحداث تقريباً، نزل في مرفأ برشلونة شخص مناقض تماماً لفوسكاريني الحقيقي، والآخر المزيف. كان يدعى كونراد دي ويرد، وكان صحفياً رياضياً على شيء من الشهرة في الولايات المتحدة، وهي البلاد التي قدم منها. فهو ينحدر من أسرة ثرية ذات مسحة أرستقراطية من كارولينا الجنوبية، كانت قد فقدت في الحرب الأهلية، أو حرب الانفصال، ثروتها كلها، بما فيها الأراضي والعبيد الزنوج. وكان دي ويرد قد جرب ممارسة الصحافة، التي يشعر بميل إليها، في بلتيمور، ونيويورك، وبوسطن، وفيلادلفيا، ولكنه وجد الميادين كلها مغلقة أمامه لأنه جنوبي، باستثناء ميدان الرياضة. وقد تعرف شخصياً على أهم الشخصيات في زمنه، مثل جاك كيلرين وجون ل. سوليفان، ولكن حياته كصحفي، مضت عموماً في دروب شديدة البؤس. ففي منتصف القرن الماضي، لم تكن الرياضة سوى ذريعة لعقد المراهنات وإطلاق العنان لأكثر الغرائز انحطاطاً. وقد غطى دي ويرد أخبار مصارعات الديكة، والكلاب، والجرذان، والمصارعات المختلطة لثيران ضد كلاب، وكلاب ضد جرذان، وجرذان ضد خنازير، وغير ذلك. وكان عليه أن يحضر مباريات ملاكمة مهلكة ودموية، تستمر إلى خمس وثمانين جولة وتنتهي عادة بإطلاق الرصاص. وتوصل في نهاية المطاف إلى الاستنتاج بأن الطبيعة البشرية متوحشة ولا تعرف الشفقة في جوهرها، وأن التربية المدنية وحدها يمكن لها أن تحول الفرد إلى كائن مقبول ضمن أدنى الحدود. ومدفوعاً بهذه القناعة، تخلى عن عالم الرياضة وعكف على تأسيس جمعيات عمالية، بالأموال التي قدمها إليه بعض المقرضين اليهود ذوي الميول الليبرالية. وكان هدف تلك الجمعيات هو التعليم المتبادل للفنون وتعاطيها، ولا سيما الموسيقا؛ فهو يريد جمع شمل العمال في جوقات كبيرة. وكان يفكر: هكذا سيتخلون عن الاهتمام بمصارعات الجرذان. لقد عاش دي ويرد حياة فقيرة على الدوام؛ فكل ما كسبه أنفقه على رعاية الجوقات التي كان يؤسسها. وشيئاً فشيئاً، تسلل الأوغاد إلى تلك الجوقات وحوّلوها إلى جماعات ضغط. ولكي يتخلصوا من دي ويرد أرسلوه إلى أوروبا ليقوم بالتبشير فيها. ولأنه علم بوجود جوقة الموسيقي كلافيه[1]، فقد نزل من

---

[1] خوسيه كلافيه José Clave: موسيقي إسباني (1824–1874)، يعود له الفضل في إدخال الغناء الكورالي إلى إسبانيا.

السفينة في برشلونة يوم خميس الصعود سنة 1876. وهناك التقى أتباعَ فوسكاريني المزيف الشرسين الذين يقترفون المجازر دون تمييز ضد الأطفال عند مخارج المدارس. فكان لذلك أسوأ الأثر في نفسه.

وضمن هذا الخط نفسه - واصلت ديلفينا الكلام - كانت هناك شخصية مهمة أخرى، هي ريميديوس أورتيغا لوميريش، الشهيرة بلقب *لاتاغرنينا*، هذه النقابية الجريئة كانت تعمل بالمصادفة في مصنع للسجائر في اشبيلية. ولأنها يتيمة الأب والأم، كان عليها أن تتولى مسؤولية اخوتها الصغار الثمانية وهي في العاشرة من العمر. وقد مات اثنان منهم ضحية المرض، واستطاعت أن تمضي قُدماً بالآخرين ببذل جهود مضنية، وقد بقي لديها مع ذلك ما يكفي من القوة لتنشئة أحد عشر ابناً أنجبتهم من سبعة آباء مختلفين. وبينما كانت تعمل في لف السجائر، اكتسبت معارف راسخة عن النظرية الاقتصادية والاجتماعية بالمنهج التالي: بما أنه كان على كل عاملة أن تلف عدداً محدداً من السجائر في اليوم، فقد قررن أن يغطين فيما بينهن مجتمعات حصة إحدى زميلاتهن، ليحررنها بذلك من العمل وتتمكن من أن تقرأ لهن كتباً بصوت عالٍ. وهكذا عرفن بأمر ماركس، وآدم سميث، وباكونين، وزولا وكثيرين غيرهم. وكان موقفها أكثر نضالية من موقف دي ويرد، وأقل فردية من الفوضويين الإيطاليين. فهي لم تكن تدعو إلى تدمير المعامل، لأن ذلك، برأيها، سيُغرق البلاد في البؤس المطلق، وإنما دعت إلى الاستيلاء عليها وتحويلها إلى ملكية جماعية. وكان لكل زعيم أتباعه بالطبع، ولكن لا بد من التنويه إلى أن العلاقة بين الجماعات المختلفة كان يسودها الاحترام المتبادل على الدوام، مهما كان عمق خلافاتها النظرية. وكانت على استعداد للتعاون وتقديم بعضها المساعدة للبعض في أي وقت، ولم يحدث أن وقعت أيه مجابهة فيما بينها. ومنذ البداية كانت الاشتراكية بمختلف أشكالها هي عدوها اللدود، مع أنه لم يكن من السهل أحياناً التمييز بين عقيدة وأخرى، هكذا ختمت ديلفينا كلامها. وكلما استطردت في الكلام، ومضت في هذا العرض الساذج المفعم بالتناقضات والترهات، كانت حدقتاها الصفراوان تلمعان ببريق جنوني، لم يبدُ لأونوفري جذاباً في الحقيقة، ولكنه كان يفتنه، دون أن يستطيع معرفة السبب. كانت الفتاة تمسك الشمعة عالياً كما لو أنها

فنار، دون أن تهتم بقطرات الشمع التي كانت تتساقط على الأرض. ذلك الضوء الشحيح، وقميص النوم الخشن الذي يغطي تكوراتها الضامرة، كان يضفي عليها هيئة مينيرفا بروليتارية. أخيراً أبدى الهر مظاهر التململ فقطعت ديلفينا ثرثرتها:

– أما ما تبقى فسوف تتعلمه فيما بعد إذا نفَّذتَ ما أطلبه منك – قالت له ذلك، فسألها أونوفري ما الذي عليه أن يعمله. فقالت إن الأمر الأساسي هو التعريف بالفكرة، والنفخ في البوق الذي سيوقظ الجماهير النائمة. وانتهت الفتاة إلى القول: أنت جديد في برشلونة ولا يعرفك أحد، وأنت فتي جداً وتبدو بريئاً. يمكنك أن تساهم في خدمة القضية، وتستطيع في أثناء ذلك أن تكسب بعض النقود؛ ليس الكثير منها، لأننا فقراء جداً: ولكن ما هو ضروري لتستطيع الاستمرار في دفع أجرة النزل. ها أنت ترى أننا لسنا حالمين نعيش في الأوهام مثلما يدّعي بعضهم: فنحن ندرك أن الناس بحاجة لأن يعيشوا. حسن، ما هو جوابك؟

– متى أبدأ؟ – قال أونوفري. ومع أنه لم يكن ينظر إلى الأمر بحماس مفرط، إلا أن مداخلة ديلفينا تقدم في الواقع فرصة لالتقاط الأنفاس في محنته.

– غداً صباحاً ستذهب إلى الرقم 4 في شارع الموسغو – قالت ديلفينا وهي تخفض صوتها كثيراً – وهناك ستسأل عن بابلو. وهذا ليس خطيبي، ولكنه يعلم بأمرك. وهو ينتظرك. وسيخبرك بما عليك أن تفعله. كن حذراً جداً وتأكد من أنه ليس هناك من يتبعك؛ وتذكّر أن الشرطة متيقظة. أما بالنسبة لأبي وأجرة الأسبوع، فلا تقلق. أنا سأرتب الأمر. هيا بنا يا بعلزبول، فلننصرف!

ودون أن تضيف شيئاً آخر، أطفأت الشمعة، فغرقت الغرفة في الظلام. أحس أونوفري بأن ثقل الهر قد انزاح عنه، وسمع وقع قوائمه الأربع الخافت على البلاط. ثم رأى، عند الباب، وميض عيني ذلك الحيوان المخيف. وأخيراً، أُغلق الباب بتكتم.

راح يسأل من يصادفهم متقصّياً عن العنوان الذي أخبرته ديلفينا أنه في بويبلو نويبو، القريبة نسبياً من برشلونة. كان هناك ترام تجره البغال يعمل على ذلك الخط، ولكن ركوبه يكلف عشرين سنتافو، ولأن أونوفري بوفيلا لم يكن يملكها، فقد كان عليه أن يذهب ماشياً بمحاذاة سكة الترام. كان شارع الموسفو درباً كئيباً ومنعزلاً، يحاذي سور مقبرة مدنية مخصصة للمنتحرين. وكان الشارع يعج بكلاب ضالة أوبار فرائها قليلة ومتفرقة ووجوهها مدببة، تنبش بين قبور المقبرة ليلاً لتبحث عن طعامها. كان المطر قد هطل في الليلة السابقة وكانت السماء ملبدة بالغيوم، والضغط منخفضاً، والهواء رطباً ولزجاً. ولكن ذلك لم يؤثر في أونوفري بوفيلا الذي كان رائق المزاج: ففي ذلك الصباح بالذات، في موعد تناول الفطور، اقترب منه السيد براوليو وقال له: لقد تحدثت أنا وزوجتي هذه الليلة واتفقنا معاً، مثلما نفعل دائماً، على السماح لك بأن تقيم أسبوعاً آخر، بالدين. وحك السيد براوليو اذنه التي بدت بلون قرنفلي متوهج، ثم أضاف: الأحوال صعبة وعصيبة، وأنت ما تزال صغيراً على المضي دون مساعدة في دنيا الله الواسعة هذه. وانتهى إلى القول بتفخيم: نحن واثقان كذلك من أنك ستجد قريباً هذا العمل الذي تبحث عنه بلهفة، كما أننا مقتنعان بأنك ستتوصل على المدى الطويل، باستقامتك ومثابرتك، إلى تحقيق مستقبل لامع. فشكره أونوفري وهو ينظر بطرف عينه إلى ديلفينا؛ وكانت الفتاة تجتاز في تلك اللحظة قاعة الطعام حاملة دلواً مملوءاً بماء وسخ، متظاهرة بأنها لم تره، أو أنها لم تكن تراه فعلاً. طرقَ الباب الذي يحمل الرقم أربعة وفتح له دون تأخير شخصٌ ضعيف البنية، له جبهة محدبة وشفتان رفيعتان متكتمتان.

- أنا أونوفري بوفيلا، أبحثُ عن شخص يدعى بابلو.

فقال ذلك الشخص:

- أنا بابلو، أدخل!

دخل إلى مستودع يبدو مهجوراً. الجدران مغطاة بالعفونة وآثار الرطوبة البحرية، وعلى الأرض لطخات من البترول، وبعض الصناديق ولفائف حبال. ومن أحد تلك الصناديق أخرج بابلو رزمة. هذه هي النشرات التي يتوجب

عليك أن توزعها، قال ذلك وهو يناول أونوفري الرزمة، ثم سأله: هل أنت مستوعب للفكرة؟ فلاحظ أونوفري أن بابلو، مثل ديلفينا، يقول «الفكرة»، وكأنه ليس هناك فكرة سواها: فبدا له ذلك مسلياً. وحدس أيضاً بأن الصراحة هي أفضل استراتيجية للتعامل مع أناس مثل بابلو، وأجابه بالنفي. فكشر بابلو بغضب وقال: اقرأ إحدى هذه النشرات بانتباه، فليس لدي وقت لأعلمك، والنشرات تشرح كل شيء بوضوح كبير. ومن المناسب أن تكون مطلعاً، فقد يطلب منك أحدهم توضيحاً ما، هل تفهمني؟ فقال أونوفري نعم. فسأله الداعية الثوري: وهل أخبروك أين ستوزع؟ وقال أونوفري «لا» مرة أخرى. فزفر بابلو: آه، وهذا أيضاً لم تعرفه؟ مظهراً في تلك الزفرة أن عبء القيام بالثورة كله ملقى على كاهله، وأضاف: حسن، سأخبرك أنا بذلك: هل تعرف الموقع الذي يبنون فيه المعرض الدولي؟ فعاد أونوفري إلى القول: لا. فقال الداعية مستنكراً: ولكن، من أي كوكب أنت آت يا فتى؟ ودون أن يكف عن التذمر، أوضح له طريقة الوصول إلى هناك، وأخرجه إلى الشارع. وقبل أن يتمكن من إغلاق الباب، سأله أونوفري:

- وماذا عليّ أن أعمل، عندما تنفد هذه النشرات؟

فابتسم الداعية لأول مرة، وردّ بنبرة عذبة تقريباً: تعال لتأخذ المزيد. وقال له إن عليه المجيء إلى المستودع في الصباح، بين الساعة الخامسة والسادسة، وليس في أي موعد آخر على الإطلاق. ثم قال على الفور: وإذا ما التقينا في مكان ما، ستتظاهر بأننا لا يعرف أحدنا الآخر. ولا تعطِ هذا العنوان إلى أحد، ولا تتحدث عني أبداً، ولا عن الشخص الذي أرسلك، حتى ولو قتلوك، ثم أضاف بمهابة: وإذا سألك أحدهم عن اسمك، فقل له: غاستون، فهذا سيكون لقبك. والآن، انصرف: فكلما كانت لقاءاتنا أقصر، يكون ذلك أفضل. ابتعد أونوفري عن ذلك المكان الشبيه بالقبور. وعندما وصل إلى ساحة صغيرة، جلس على أحد المقاعد، فتح الرزمة وراح يقرأ إحدى النشرات. كان هنالك أطفال يتراكضون في الساحة، ومن ورشة حداد غير مرئية، ولكنها قريبة من الساحة، كان يصل دوي طرقات رتيبة. ولهذا السبب لم يستطع التركيز جيداً. فهو يكاد لا يتقن القراءة: إنه بحاجة إلى الهدوء والوقت كي يفهم ما يقرؤه. أضف إلى ذلك أن نصف الكلمات التي

كان يقرؤها لم تكن مفهومةً. وكان الأسلوب شديد التعقيد إلى حد لا يمكنه التوصل إلى فهم ما يعنيه ولو أعاد قراءة النص عدة مرات. فقال لنفسه: هل سأجازف بحياتي من أجل هذا الهراء؟ أعاد ربط الرزمة واتجه نحو المكان الذي دله عليه بابلو. وأثناء سيره، كان يتأمل بعيني قروي تلك الهكتارات التي كانت بساتين قبل بضع سنوات. أما الآن، بعد أن اجتاحها التقدم الصناعي، فهي تنتظر مصيراً مجهولاً، وقد تحولت إلى قفر أسود ومنتن، سممتها السواقي العفنة التي تطلقها المعامل القريبة. وحين تمتص الأرض العطشى تلك السواقي يتشكل وحل لزج يلتصق بصندل عابر السبيل ويعوق مسيره.

لا بد أن الأمر قد اختلط عليه في إحدى اللحظات، ولم يعد يميز سكة حديد القطار عن سكة الترام وضلّ الطريق. ولأنه لم ير أي كائن حيٍّ يمكنه أن يسأله، فقد صعد على أكمة، لعله يستطيع أن يتبين وجهته من هناك، أو أن يحدد على الأقل المكان الذي هو فيه. وقد أتاح له موضع الشمس، وحساب تقريبي للساعة، ومعارفه، أن يحدد الجهات الأربع الأصلية. ففكر: الآن أعرف أين أنا. كانت السحب قد تفرقت في جهة الشرق، ومن خلالها كانت أشعة الشمس تتسرب؛ فينبعث من البحر الذي يتلقاها وميض متلألئ؛ له بريق الفضة. وعندما أدار ظهره للبحر، رأى شبح المدينة المشوش من خلال الجو المثقل، ولمح أبراج أجراس الكنائس والأديرة وقبابها، ومداخن المصانع. كانت هنالك قاطرة بلا عربات تناور في مكان قريب، على خط حديدي ميت[1]. وكان عمود الدخان الذي تطلقه يتوقف عن الصعود على ارتفاع أمتار قليلة، فالهواء الرطب والكثيف هناك يدفع الدخان نحو الأرض. وكان ضجيج القاطرة وحده هو الذي يشق الصمت. تابع المشي. وكان كلما رأى أكمة صعد إليها وأمعن النظر في الأفق. واكتشف أخيراً، فيما وراء الخط الحديدي الذي رأى القاطرة تناور عليه قبل قليل، موقعاً فسيحاً يغص بالرجال، والحيوانات والعربات. وكانت هناك مبان قيد الإنشاء. وفكر أونوفري بوفيلا بأنه لا بد أن يكون المكان الذي يبحث عنه. أو أنهم سيدلونني

---

[1] الخط الحديدي الميت هو الذي يصبح خارج الاستخدام، ولا ينزع من مكانه، فيستخدم للتدريب أو كمستقر للقطارات التي خرجت من الخدمة.

عليه هناك، قال ذلك لنفسه. ونزل عن المرتفع الذي كان قد صعد إليه واتجه نحو الورشة ورزمة النشرات تحت إبطه.

القلعة التي ما تزال ذكراها المشينة حيّة، والتي ما زال اسمها مرادفاً للاضطهاد، ظهرت إلى الوجود واختفت منه بالطريقة التالية: في سنة 1701 تبنت كتالونيا الحريصة على حرياتها التي رأتها مهددة، قضية أرشيدوق النمسا في حرب وراثة العرش، وبهزيمة هذه الفئة، وتولي آل بوربون عرش إسبانيا، جرت معاقبة كتالونيا بقسوة. كانت الحرب طويلة ودامية، ولكن عواقبها كانت أشد سوءاً. فقد نهبت الجيوش البوربونية كتالونيا، ولم تبخل في إظهار أحقادها معتمدة على تواطؤ القيادات. ثم جاء بعد ذلك الاضطهاد الرسمي: فأُعدم الكتالانيون بالمئات، ومن أجل إذلالهم وجعلهم عبرة للآخرين، عُلقت رؤوسهم على رماح وعُرضت في أكثر الأماكن ارتياداً في الإمارة. وأُرسل آلاف الأسرى إلى أعمال السخرة الشاقة في أماكن نائية من شبه الجزيرة، بل وإلى أميركا أيضاً؛ وقد ماتوا جميعاً مقيدين بالأصفاد، دون أن يتمكنوا من العودة إلى وطنهم الحبيب. واستُخدمت النساء الشابات للترفيه عن الجند؛ فأدى ذلك إلى تناقص أعداد النساء اللواتي في سن الزواج، وهو نقص لا يزال قائماً في كتالونيا. وخُرب الكثير من الأراضي الزراعية، وغُطيت بالملح لكي تبور؛ واقتلعت الأشجار المثمرة من جذورها. وجرت محاولات لإبادة الماشية، ولا سيما البقرة البيرنية الثمينة جداً؛ ولكن تلك الإبادة لم تتحقق لأن بعض البهائم هربت إلى الجبال حيث عاشت بصورة برية حتى فترة متقدمة من القرن التاسع عشر؛ وبهذه الطريقة فقط نجت من غارات الخيالة الشرسة ومن قذائف المدفعية ومن حراب المشاة. وهُدمت القلاع واستخدمت أحجارها لاحاطة بعض القرى بالأسوار: فحوّلوها بذلك إلى سجون. أما النصب والتماثيل التي كانت تزين الشوارع والميادين فحُطِّمت، وحُوِّلت إلى هباء. وطليت جدران القصور والمباني العامة بالكلس، وعلى هذا الطلاء، رُسمت صور بذيئة وكُتبت عبارات وقحة أو مهينة. وحوّلت المدارس إلى حظائر، والعكس بالعكس؛ أما جامعة برشلونة التي تعلمت أو علّمت فيها شخصيات مشهورة، فقد أُغلقت؛ وراح البناء الذي كان يؤويها

بالتفكك حجراً حجراً، وبتلك الأحجار رُدمت السواقي والقنوات التي كانت تزود المدينة والبساتين المجاورة بالمياه. وزُرع مرفأ برشلونة بالصخور؛ وأُلقيت في البحر أسماك قرش جيء بها خصيصاً من الأنتيل في صهاريج لتُفسد مياه البحر المتوسط. ولحسن الحظ أن هذا الوسط البيئي لم يلائمها: ومن لم يمت منها بسبب المناخ أو ابتلاعها الرخويات، هاجر إلى مناطق أخرى عبر مضيق جبل طارق، الذي كان منذ ذلك العهد تحت سيطرة الإنكليز. وقد أحيط الملك علماً بكل هذه الإجراءات، فقال: ربما لم يكن هذا الدرس عبرة كافية للكتلانيين. لقد كان فيليبه الخامس، دوق أنخو، ملكاً مستنيراً. وصفه كاتب فرنسي بأنه *roi fou, brave et dévot*[1]. تزوج امرأة إيطالية، إيزابيل دي فارنيسيو، ومات مجنوناً. لم يكن دموياً، ولكن مستشارين خبثاء حدثوه بأهوال مريعة عن الكتلانيين، مثلما حدثوه عن الصقليين والنابوليتانيين، وعن الخلاسيين الذين فيما وراء البحار، وعن الكناريين، والفلبينيين، والهندو صينيين، وجميعهم من رعايا التاج الإسباني. ولهذا أمر ببناء حصن ضخم في برشلونه، يؤوي جيشَ احتلال جاهزاً للخروج وسحق أي تمرد. وأُطلق على هذا الحصن منذ البدء اسم «القلعة». كان يعيش فيها الحاكم، معزولاً تماماً عن السكان: وكانت تجري، في كل الأمور، محاكاة النظام الاستعماري، بأشد صوره تصلباً. ففي ساحة القلعة كان يشنق المتهمون بالتمرد؛ وتتحول هناك أجساد الوطنيين الذين أعدموا، إلى علف لنسور الرخمة. وفي ظل تلك التحصينات كان البرشلونيون يعيشون حياة العبودية، يبكون حنيناً وغيظاً. وقد حاولوا مرة أو اثنتين الاستيلاء على الحصن، ولكنهم دُحروا بسهولة؛ واضطروا إلى الانسحاب من الميدان المغطى بالضحايا. وكان المدافعون عن القلعة يسخرون من المهاجمين: فيطلّون من فتحات الرماية ويبولون على القتلى والجرحى. ومقابل تلك المتعة الجائرة لم يكن بإمكانهم الخروج من وراء أسوار الحصن ولا الاختلاط بالسكان المدنيين الذين يكرهونهم؛ لقد كانوا محرومين من أي متعة: إنهم أسرى ذلك الوضع. فكان الجنود المحرومون من مرافقة النساء، ينغمسون في ممارسة اللواط، ويهملون

[1] بالفرنسية في الأصل: «ملك مجنون، وشجاع وتقي».

النظافة الشخصية: فتحولت القلعة إلى بؤرة لكل أنواع الأمراض. وصار من هم في هذا الجانب وذاك ينظرون إلى الأمور بروية ويطالبون الملوك المتعاقبين بوضع حد لرمز العداء المشين ذاك. ولم يكن يدافع عن ضرورة بقائه سوى بعض المتعصبين. وكان الملوك يقولون للجميع «أجل»، ولكنهم يتركون الأمر بعد ذلك للزمن، فهكذا يتصرف عادة من يتباهون بامتلاك السلطة المطلقة. وفي أواسط القرن التاسع عشر، كانت القلعة قد فقدت معظم فاعليتها، فالتقدم العسكري الحربي جعل مهمتها غير مجدية: ولم يعد هناك مسوّغ لوجودها. وفي سنة 1848، في أثناء انتفاضة شعبية، قدر الجنرال ايسبارتيرو أن قصف برشلونة بالمدفعية من رابية مونتجويك هو أكثر فاعليةً من قصفها من القلعة. وهكذا، بعد قرن ونصف على وجودها، جرى هدم أسوار القلعة أخيراً. وأعطيت الأرض والمباني التي كانت هناك للمدينة، وكأنها لفتة لمحو كل تلك الآلام المتراكمة. هُدمت بعض المباني لأسباب مسوّغة؛ وبقي بعضها الآخر قائماً. وتقرر تحويل الساحة إلى حديقة عامة للترويح عن الجميع. لقد كان تناقضاً مؤثراً رؤية الأشجار تضرب جذورها، والأزهار تتفتح في تلك الساحة التي اقتُرفت فيها فظائع كثيرة، وحيث كانت تنتصب منصة الإعدام إلى ما قبل وقت قصير. وأقيمت هناك أيضاً بحيرة ونافورة كبيرة أطلق عليها اسم «الشلال». وسُمّيت الحديقة وما زالت تسمى «حديقة القلعة». وفي سنة 1887، عندما وضع أونوفري بوفيلا قدميه فيها، كان يجري هناك بناء ما سيصبح موقع المعرض الدولي. كان ذلك في أوائل أو أواسط شهر أيار (مايو) من تلك السنة. وكانت أعمال البناء قد بلغت مرحلة متقدمة آنذاك. فجيش العمال المستخدم فيها كان قد بلغ حده الأقصى، أي أربعة آلاف وخمسمائة رجل. وكان هذا الرقم هائلاً، لم يسبق له مثيل في ذلك العصر. ولا بد من أن يضاف إليه رقم آخر غير محدد، ولكنه ضخم أيضاً، من البغال والحمير. كما كانت هناك حينئذ رافعات، وآلات بخارية، وعربات نقل. كان الغبار يغطي كل شيء، والضجيج يصم الآذان، والفوضى مطلقة.

كان دون فرانثيسكو دي باولا ريوس إي تاوليت يشغل منصب عمدة برشلونة للمرة الثانية. وكان قد تجاوز الخمسين من العمر، متجهماً، يخطر

بصلعة تشي بسعة المخيلة، وبسالفين طويلين إلى حد يلامسان معه ياقة سترته الطويلة. وكان الصحفيون يقولون إن له مظهر نبيل روماني. وكان شديد الحساسية نحو كل ما يتعلق بسمعة مدينته وإدارته لها. وفي تلك الأيام الصيفية القائظة من عام 1886 كان يواجه معضلة صعبة. فقد زاره قبل شهور من ذلك رجل وقور يدعى أوخينيو سيرانو دي كازانوفا، وقال له: علي أن أُبلغ سيادتكم أمراً خطيراً. ودون أوخينيو سيرانو دي كازانوفا هذا، هو غاليسي مستقر في كتالونيا؛ وقد قاده إليها، وهو شاب، حماسه للقضية الكارلستية. ثم هدأت السنون فيما بعد من حماسه، ولكنها لم تُضعف نشاطه: فهو رجل رحّالة وصاحب مبادرات. وقد توفرت له خلال رحلاته فرصة حضور المعارض الدولية في أمبيرس[1]، وباريس، وفيينا، وبدت له تلك التظاهرات أمراً رائعاً. ولأنه لم يكن رجلاً ممن يتركون الأفكار تذوي، فقد وضع مخططاته وطلب الإذن من بلدية برشلونة لتسمح له بأن يعمل فيها ما كان قد رآه في تلك المدن الأخرى. فقدمت له البلدية حديقة القلعة. «إذا كان يريد توريط نفسه في مثل هذه الورطة، فليفعل ذلك، وهذا شأنه»، هكذا فكرت السلطات المختصة؛ وهو موقف ينطوي على الإهمال بقدر ما ينطوي على الخطر. ولم يكن هنالك في الواقع من هو قادر على تقدير ما يتطلبه تنظيم معرض دولي. لأن تلك المعارض كانت ظاهرة جديدة، لا توجد معلومات عنها أكثر من الأخبار التي توردها الصحافة. وعلى الرغم من أن مفهوم المعرض الدولي، بل وفكرة المنافسة نفسها، كانت قد ولدت في فرنسا، إلا أن أول معرض منها أقيم في لندن سنة 1851، ثم أقامت باريس معرضها سنة 1855. وكان التنظيم في باريس دون المستوى المرغوب: فقد فتح المعرض أبوابه متأخراً خمسة عشر يوماً عن الموعد المقرر، ولم تكن أعداد كبيرة من القطع المعروضة قد أُفرغت بعد في يوم الافتتاح. وبين الشخصيات الشهيرة التي زارته، كانت الملكة فيكتوريا، وهي في ذروة مجدها آنذاك. *Pas mal,*[2] *pas mal*، هذا ما كانت تتمتم به تلك الملكة وهي مقطبة، وكانت سعيدة دون

---

[1] امبيرس Amberes: تسمية أخرى لمدينة أنتورب البلجيكية.

[2] بالفرنسية في الأصل: «لا بأس، لا بأس»

شك في أعماقها لمظاهر القصور التي بدت لدى الفرنسيين. وكان يمشي وراءها جندي هندي يزيد طوله على المترين، دون حساب العمامة التي يعتمرها، يحمل على وسادة حرير قرمزية الـ «كوه-آي-نور»، وهي حتى ذلك الحين أكبر ماسة في العالم، فكان ذلك كما لو أن الملكة فيكتوريا تريد أن تقول: إن شيئاً واحداً من ممتلكاتي أثمن قيمة من كل ما هو معروض هنا؛ ولم تكن محقة في ذلك، لأن ما كان يعتد به هناك هو التنافس بالأفكار وبالتقدم. وقد أقيمت بعد ذلك منافسات أخرى في أمبيرس ، وفيينا، وفيلادلفيا، وليفربول. وكانت لندن قد أقامت معرضها الثاني في 1862، وباريس في 1867، عندما طرح سيرانو دي كازانوفا اقتراحه في برشلونة. ولكن ما كان يفيض لديه من اندفاع كان ينقصه في التمويل. فقد كانت برشلونة تجتاز أزمة مالية معتبرة، ولم تجد نداءات مُحَفِّز المشروع النشط أي صدى. نفدت الأموال التي دُفعت في البداية، وكان لا بد من التخلي عن المشروع. هرع سيرانو دي كازانوفا لمقابلة العمدة ريوس إي تاوليت. وبنبرة هامسة، كما لو أنه يبوح بسر، قال له: يجب علي أن أُبلغ سيادتكم أمراً شديد الخطورة؛ لقد قررت الاستسلام، وإن كنتُ أفعل ذلك بحزن عميق. كانت الأعمال التأهيلية في الحديقة قد بدأت؛ وكان الحدث، بين أمور أخرى، قد لقي دعاية واسعة. فصاح ريوس إي تاوليت: يا صواعق السماء! ثم قرع بإلحاح جرساً من الذهب والكريستال كان على منضدة مكتبه في مقر عمدة المدينة، وأمر أول من ظهر له (وهو ساعٍ)، دون أن ينظر إلى وجهه، باتخاذ كل الإجراءات اللازمة لاستدعاء الشخصيات البرشلونية البارزة إلى اجتماع فوري: الأسقف، الحاكم، القائد العسكري العام، رئيس الجماعة النيابية، رئيس الجامعة، ورئيس الأتينيو[1]: الخ... فأغمي على الساعي في المكتب، وكان على العمدة نفسه أن يُنعشه، مهوّياً له بمنديله. وعندما اجتمع الرجال المتنفذون أخيراً، كانت الثرثرة أكبر من توفر الإرادة لعمل شيء محدد؛ فالجميع كانوا مستعدين لإبداء آرائهم، ولكن لم يكن هناك من هو مستعد لأن يلتزم، أو يُلزم الهيئة التي يمثلها بشيء، وكان استعدادهم أقل مادام الأمر

[1] أتينيو Ateneo: مجمع أو مجلس أعلى لرعاية العلوم والآداب والفنون.

يتعلق بتقديم الدعم المالي لمشروع سيرانو دي كازانوفا غير العقلاني. وأخيراً، ضرب ريوس إي تاوليت المنضدة بمحفظة جلدية فانقطعت فجأة تلك الجلبة، وصرخ بملء رئتيه: *Hóstia, la Mare de Déu!*[1]. وقد سُمعت هذه العبارة المدوية في ساحة سان خيمي، وانتقلت إلى التداول العام، وهي منقوشة اليوم، إلى جانب أقوال مأثورة أخرى، على أحد جوانب النصب التذكاري المقام للعمدة الذي لم يكن يكل. ولم يستطع الأسقف عند سماع تلك العبارة إلا أن يرسم إشارة الصليب. ولكن العمدة ليس بالشخص الذي يمكن استمالته بالضحك. ففي أقل من ساعة حصل على موافقة الجميع وتعهدهم بالمساهمة اللازمة لمواصلة السير قدماً بالمشروع. قال لهم: التخلي عن المشروع الآن هو وصمة عار لبرشلونة، واعتراف منا بالعجز. واتفقوا على مواصلة العمل في المشروع تحت إشراف مجلس إدارة. كما تم تأسيس مجلس للرعاية مؤلف من السلطات المدنية والعسكرية، ورؤساء الجمعيات، والمصرفيين، وشخصيات من عالم الأعمال. وهكذا أُدخل الجميع بالتضامن في تلك المهمة التي لا بد من أن تكون جماعية لتكون ممكنة. وشُكلت لجنة فنية مؤلفة من مهندسين معماريين ومدنيين. ومع مرور الوقت تكاثرت المجالس واللجان (لجان اتصال مع الشركات الوطنية، لجان اتصال مع العارضين الأجانب المحتملين، ولجان مكلفة بالتحكيم في المسابقات وتقديم الجوائز، وغيرها) وهو ما سبب بلبلة وغير قليل من المشاحنات. وكان الجميع متفقين على اعتبار هذا التنظيم «عصرياً جداً». ولكن التوصل إلى إجماع الرأي العام حول جدوى المشروع كان أمراً آخر، فقد أشارت إحدى الصحف اليومية في تلك الفترة: ***أضف إلى ذلك، ان سكان المدينة لا يقدمون وسائل جذب لجعل إقامة الغرباء فيها بضعة أيام مبهجة***. وكان الجميع يعتقدون بأن برشلونة ستؤدي دوراً محزناً إذا ما حاولت أن تقارن نفسها بباريس أو لندن. ولم يكن هناك من يفكر بما كان يمكن أن تقدمه في تلك السنوات مدن أخرى مثل أمبيرس أو ليفربول التي أقامت معارضها دون كثير من هذا

---

[1] عبارة شائعة بالكتالانية، تحتمل أكثر من معنى، حسب النبرة التي تنطق بها، وهي هنا تحمل معنى التجديف على السيدة العذراء.

الإحساس بالعجز. أو أنهم كانوا يطرحون ذلك، ولكنهم يقولون: *فليضع الآخرون أنفسهم موضع السخرية إذا هم رغبوا في ذلك، أما نحن فلن نفعل.* وتقول رسالة ظهرت في صحيفة في تلك الأيام: *فيما عدا لطف مناخها، وروعة موقعها، وأوابدها الأثرية القديمة، ولولا بعض المبادرات الفردية، وهي قليلة جداً، فإننا في برشلونة لا نصل إلى مستوى المدن الأوروبية الأخرى المماثلة لنا في الأهمية. فكل ما له صبغة إدارية* – تواصل الصحيفة – *هو في مستوى أدنى. فشرطة المدينة منفرة عموماً. والأمن فيه الكثير، بل الكثير جداً من الثغرات؛ وهناك نقص أو عدم تنظيم في عدد كبير من الخدمات الضرورية في مدينة يربو عدد سكانها على 250000، وضيق الشوارع في المدينة القديمة، وافتقارها، هي والمدينة الجديدة كذلك، إلى ميادين واسعة، يعرقل حركة المرور، كما أنه لا توجد لدينا متنزهات جيدة ومتنوعة، ونفتقر إلى المتاحف، والمكتبات، والمشافي، والملاجئ، والسجون، الخ... التي تستحق الزيارة*. وتواصل هذه الرسالة التي تغطي عدة صفحات، قائلة بين أمور أخرى تطرحها: *لقد أنفقنا أموالاً كثيرة على حديقة القلعة، ولكن أبعادها بائسة، فهي تفتقر لغابة واسعة ومتنزه فسيح، وشيء مثل بحيرتها المضحكة.* ويبدو أن كاتب الرسالة، وهو يقول هذا، كان يفكر بالحدائق المشهورة في ذلك العصر مثل: غابة بولونية، والهايد بارك. وتضيف الرسالة إلى هذه الانتقادات: *قصور في التصور، وغرور أجوف، هما الصفتان اللتان تميزان تصرفات إدارتنا المحلية في الغالب. وقد أخذت برشلونة بالتحول، منذ بضع سنوات، إلى مدينة قذرة. فكم هي مقرفة في العادة واجهات البيوت القديمة بعض الشيء!* ومثل هذه الرسائل كانت كثيرة في الصحف المحلية آنذاك. وكانت هناك رسائل أخرى تعبّر عن تحفظاتها بأسلوب أكثر إيجازاً، كما في صحيفة صادرة في 22 أيلول (سبتمبر) سنة 1866، عنونت افتتاحيتها بالتساؤل: *فلنتحدث من وجهة النظر التجارية، هل سيكون المعرض نعمة أم نقمة؟* ومع ذلك، فإن المعارضة لتلك التظاهرة كانت ضعيفة بصورة عامة. وكانت غالبية المواطنين على استعداد، ظاهرياً، لمواجهة مخاطر المغامرة؛ وكان الآخرون يعرفون بالتجربة، أن ما تقرره السلطات يُنفذ دائماً؛ فعدة قرون من الاستبداد علمت الناس بأنه لا فائدة من تبديد الحبر ولا المواهب. وقد أثر

فـي الـرأي العـام أيضـاً، عـامل آخـر علـى جـانب كـبير مـن الأهميـة: فـالمعرض الدولـي الأول الـذي سـيقام فــي إسـبانيا، سـيكون فــي برشـلونة وليـس فــي مدريد. وكان هذا الأمر قد نُوقش من قبل فـي صحف العاصمة. وقد توصلت تلك الصحف نفسها إلى النتيجة المحزنة، إنما المُسلَّم بها، بأنه لا يمكن للأمـر إلا أن يكون علـى هـذا النحـو. وقـالت: *الاتصـالات بـين برشـلونة وبقيـة أنحـاء العـالم، سواء عن طريق البحر أو عن طريق البر، تجعلها أكثر ملاءمة مـن أي مدينـة أخـرى فـي شبه الجزيـرة، لجـذب الـزوار الأجـانب*. وقـد فرحـت تلـك الصحـف بذلـك، كمـا لـو أن اختيـار برشـلونة مقـراً للتظـاهرة، كـان مـن عملـها. ولكن هذه الحجج لم تكن كافية مع ذلك لإقناع الحكومة. فقد جاء مسؤولوها ليقولوا: أنتم ستقيمون المعرض، وأنتم ستدفعون. لقد كان اقتصـاد البـلاد فـي ذلك العهد مركزياً، مثل كل الشؤون الأخـرى. فكـانت ثـروات كتالونيـا، كثـروات أي منطقـة أخـرى فــي المملكـة، تذهـب مباشـرة لتمـلأ خزائـن مدريـد. وكـانت البلديـات تؤمـن حاجاتـها مـن خـلال تحصيـل ضرائـب محليـة، ولكنـها إذا احتاجت إلـى أي نفقـات اسـتثنائية، فـلا بـد لـها مـن اللجـوء إلـى الحكومـة لتحصل منها على معونة، أو قرض، أو على الخيبة، كما هـي الحـال فـي هـذه المرة. فكـان ذلـك يبعـث بـين الكتلانيـين شـعوراً بالتضـامن يُخـرس الانتقـادات. وقد علق ريوس إي تاوليت: إنهم يقدمون لنا جميلاً من هذه الناحيـة، أمـا مـن النواحـي الأخـرى فيخوزقوننـا. ولـم يكـن هنــاك خــلاف فــي هــذا الأمــر. مـع مدريد، لن نحصل على شيء، ولكننا دون مدريد لن نصل إلـى أي مكـان. هـذا مـا قالـه مـانويل جيرونـا. وهـو مـن رجـال المـال المشـهورين، وكـان يتولــى أيضـاً رئاسة الأتينيو. وقد اشتهر بأنه لا يفقد السيطرة على أعصابه أبداً. وهكذا اقترح: علينا أن نحتفظ بالهيجانات الانفعالية لمناسـبة أفضل، ونكتفـي اليوم بمواجهة الواقع: يجب أن نتفق مع مدريد، صحيح أنه سيكون فـي الأمر مذلة، ولكن القضيـة جديـرة بذلـك. بهذه الكلمـات اختتمـت المناقشـة وعُـدّت نهايـة الجلسـة التـي عقـدت فـي يـوم أربعـاء، فـي مطعـم الأبواب السبعة. وفــي يـوم الأحـد التـالي، بعـد سـماع القـداس المغنـى، خـرج مندوبـان مـن اللجنـة نحـو العاصمـة. سـافرا فــي عربـة وضعتـها البلديـة تحـت تصرفـهما، وكـان منقوشــاً على كل باب من أبواب تلك العربـة شـعار المدينـة. وقـد حمـلا الوثـائق المتعلقـة

بالمشروع فـي حقائب ضخمة من جلد التماسيح، كما حملا فـي عدة صناديق أخرى، حُزمت بالحبال على مؤخرة العربة، الكثير من الملابس الداخلية، لأنهما توقعا أن يطول غيابهما. وهو ما حدث فعلاً: فقد استقرا فور وصولهما إلى مدريد في أحد الفنادق. وفي صباح اليوم التالي توجها إلى وزارة الأشغال العامة. وقد أحدث وصولهما هرجاً ومرجاً عظيمين: إذ أحضرا معهما من برشلونة، وارتديا الآن، ملابس وعباءات تعود إلى جوان فيفيلير، ذلك المدافع الأسطوري عن المدينة. كان صوف تلك الملابس، بمرور القرون، قد أخذ في التحول إلى نفاية أوبار، وصار الحرير أشبه بنسيج عنكبوت. ولدى مرور المندوبين اللذين يحمل كل منهما الحقيبة بكلتا يديه، كما لو أنها تقدمات أو هدايا، كانت سجاجيد الوزارة تتغطى بطبقة من الغبار الداكن. وكان اسما هذين المندوبين على التوالي جيتاري وجيتارو، وهما اسمان، لو لم يكونا حقيقيين، لبديا مختلقين خصيصاً لهذه المناسبة. جرى اقتيادهما إلى صالون ذي سقف شديد الارتفاع، مزين بزخارف، ولا وجود فيه إلا لكرسيين من طراز عصر النهضة، غير مريحين، ولوحة عرضها ثلاثة أمتار وطولها تسعة، من مرسم الرسام الإسباني ثورباران، تمثل ناسكاً مسناً ذا بشرة مزرقة، تغطيه عقد درنية وتحيط به عظام وجماجم. وتركوهما ينتظران هناك زهاء ثلاث ساعات، وبعد انتهاء تلك الساعات، فُتح باب جانبي، شبه سري، وظهر منه شخص ذو وجه منتفخ، وسالفين كأنهما شفرة فأس، يرتدي سترة تغطيها الأشرطة والشارات. نهض المندوبان واقفين على الفور. وتمكن أحدهما من أن يهمس في أذن رفيقه: يا قديسة كيتيريا، نظرته وحدها تبث الرعب في النفس! كان طول الانتظار قد أوهن أعصابهما. وأومأ الاثنان بانحناءة احترام عميق. القادم الجديد، وهو لم يكن الوزير، بل حاجب الوزير، ابلغهما بجفاء أن السيد الوزير لن يتمكن من مقابلتهما اليوم، وأن يتكرما بالمجيء ثانية إلى الوزارة في اليوم التالي وفي الساعة نفسها. الاضطراب الذي أحدثته فيهما بدلة الحاجب الفخمة كان الأول في سلسلة طويلة من الاضطرابات: لقد كان مندوبا اللجنة يتحركان في وسط غريب عليهما، ولا يعرفان أي موقف عليهما أن يتخذا في مدينة الحانات والأديرة تلك، مدينة الباعة المتجولين، والأشقياء، والقوادات،

والعجزة والمتسولين، والتي يوجد في وسطها عالم أشد غرابة، عالم بهرجة واحتفالات، تهديدات واتاوات، يشغله جنرالات أفاقون، ودُوقةٌ محتالون، وقسس مدعو معجزات، وندماء، ومصارعو ثيران، وأقزام، ومشعوذون، وجميعهم كانوا يسخرون منهما، ومن لهجتهما الكتالانية، وتعابيرهما الخاصة. امضيا ثلاثة أشهر دون جدوى في الذهاب والإياب بين الفندق والوزارة، وانفقا في أثناء ذلك نقود المهمة التي أعطيت لهما، عندئذ كتبا إلى برشلونة لإعلامها بما جرى وللتزود بتعليمات. ومع عودة البريد وصلهما طرد مرسل من العمدة ريوس إي تاوليت بالذات، وكان فيه نقود، وتمثال من الجص لعذراء مونتسيرات ورسالة تقول: ***عليكم بالشجاعة والمثابرة، فأحد الجانبين يجب أن يرضخ، ويشهد الله أننا لن نكون نحن***. وكان المندوبان المسكينان يكادان لا يغادران الفندق، حيث تعوّد العاملون فيه وجودهما، واقتنعوا بأنه ليس هناك من أمل في أن يبديا شيئاً من مظاهر الكرم، فلم يعودوا يهتمون باستبدال مناشفهما أو ملاءات سريريهما أو نفض الغبار عن الأثاث القليل والمخلع في غرفتهما. فمن أجل الاقتصاد في النفقات تقاسما كلاهما، بمشقة كبيرة، الإقامة في الغرفة نفسها، وكانا يحضران الفطور والعشاء فيها، مستخدمين ماء الحمام الساخن. ولكن أكثر ما كان يؤلمهما مع ذلك، هو الزيارات الصباحية إلى الوزارة. ففريق المحتالين والطفيليين الذين يبدو أنهم يقيمون في ممرات الوزارة وأروقتها، نَظَمَ لهما بعض المقاطع الغنائية الجارحة التي يسمعانهم يترنمون بها أينما مرّا. وكان أكثرهم قرباً من الوزير يوجهون إليهما مداعبات أشد تنكيلاً، كأن يضعوا دلاء مملوءة بالماء في أعلى الأبواب التي عليهما أن يجتازاها، أو يعمدوا إلى مدّ أسلاك على الأرض، ليتعثرا بها، أو تقريب شموع مشتعلة من أذيال ملابسهما لتَسوَدَّ بالهباب. ولدى دخولهما إلى غرفة الانتظار في بعض الأيام، يجدان الكرسيين مشغولين وقد جلس عليهما مراجعان مبكران أكثر منهما، وخبيران في هذا النوع من المواقف، متمكنان منه بفضل حياة كاملة تعودا فيها الانتظار، والتوسل، والتملق، وملاحقة المعاملات والخيبات، فيتظاهران بأنهما لم ينتبها لحضورهما، ولا يتخليان لهما عن الكرسيين دقيقة واحدة طوال ساعات الانتظار الثلاث المعهودة. ويقي الوزير مصراً على عدم استقبالهما. ففي كل

يوم، بعد الانتظار في تلك القاعة، التي أصبحا يعرفان كل تفاصيلها عن ظهر قلب، يُفتح الباب شبه السري، ويدخل حاجب الوزير على رؤوس أصابعه، ويقدم إليهما ملاحظة عاجلة، موضوعة على طبق، يبلغهما الوزير فيها بأنه لا يستطيع مقابلتهما اليوم، مثلما كان يأمل. وكانت البلبلة التي يبث بها هنا وهناك بعض العبارات والكلمات المتداولة بين فئات معينة، تجعل تلك الملاحظات غير مفهومة في أحيان كثيرة، ما يزيد من غمّ المندوبين، فينصرفان وهما يتشككان في ما إذا كانا قد فهما أم لم يفهما جيداً تعليمات الوزير، ويحاولان تبين تقلبات مزاجه من خلال أبسط الإشارات. وكانا في بعض المناسبات، بعد تردد طويل، ونقاش بينهما، يردان على تلك الملاحظات بأخرى. ولهذا أوصيا على طباعة أوراق رسمية، في مطبعة متخصصة في شارع مايور، فطُبع في أعلاها، عن طريق الخطأ أو عمداً، شعار مدينة بلنسيا بدل شعار برشلونة الذي طلباه. وكان تصحيح ذلك يتطلب الانتظار شهراً، مما جعلهما يصرفان النظر عن الأمر. وعلى هذه الأوراق كتبا: ***نحن ندرك تماماً أن سعادتك حفظك الله، مشغول إلى أقصى الحدود، ولكننا نسمح لأنفسنا بأن نلحّ، مع بالغ الاحترام، نظراً لأهمية المهمة الموكلة إلينا،*** الخ. فجاء رد الوزير عليها في اليوم التالي، بعبارات مثل: «أمضي والساعة تطارد مؤخرتي» (كناية عن ضيق الوقت)، «أمضي وعضوي مشهر» (كناية عن كثرة العمل)، «أمضي وأنا أفلت أو أشخ حليباً» (كناية عن الإسراع في إنجاز العمل)، «قديس الجماع سقط يوم الاثنين» (وهذه دعوة للتحلي بالصبر) «تُنزل سروالها بالفصوص» (وهذه عبارة ذات معنى غامض) وغيرها، ثم ينهيها مودعاً بالقول: «حتى موسم الخيار» أو أي شيء من هذا القبيل. وانتهى الأمر بالمندوبين إلى الرد: ***ربما توفر لسعادتك مزيد من الوقت، لو أن سعادتك لا تبدده في الكلام المستملح***. وفي الليل، كانا يكتبان إلى أسرتيهما، في برشلونة، رسائل مثقلة بالغم والحنين. ويظهر الحبر أحياناً على شكل لطخات تسببها دمعة لا يمكن كبحها.

وفي أثناء ذلك، في برشلونة، لم يكن مجلس إدارة المعرض الدولي الذي يرأسه ريوس إي تاوليت يعرف النوم. ويبدو أن شعاره كان: فلنضع مديد

أمام الأمر الواقع. ذلك إن مشروعات الأبنية، والتماثيل، والتجهيزات وتوابعها التي ستشكل حرم المعرض، قُدمت عروضها، وأُعدت مخططاتها، وتمت الموافقة عليها، وبدأ العمال العمل بإيقاع لا يمكن للأموال المتوفرة أن تسمح بالاستمرار فيه وقتاً طويلاً. وعندما قُلبت حديقة القلعة رأساً على عقب، دعت البلدية مراسلي الصحف لزيارتها. ولاستثارة اهتمامهم أُقيمت لهم وليمة فاخرة، وكانت قائمة المأكولات التي قُدمت فيها دليلاً على ميول المضيفين الكوزموبوليتية: الحساء: شوربة سرطانات على الطريقة الأمريكية - المقبلات: سمك على طريقة جنيف - الطبق الأول: دجاج مانز مسمن على طريقة تولوز؛ شرائح فيليه على طريقة غودار - الخضار: بازيلاء بالزبد - المشاوي: فرخ حجل، ديك رومي بالفطر - التحلية: بسكويت مارتان مزين، أناناس وكيك، حلوى مشكلة - الأنبذة: أوبورتو، تشاكو إيكيم، بوردو، وشمبانيا تقدمة المحل. وخلال الخطابات التي اختتمت بها المأدبة، تم تأكيد الموعد النهائي للافتتاح (ربيع 1887)؛ وظهرت بعد ذلك تقارير تمتدح الاحتفال في مطبوعات عديدة. كما طُبعت بعض الملصقات الدعائية لتُعلق في محطات القطارات في كل أرجاء أوروبا؛ وأرسلت دعوات إلى المؤسسات والشركات الإسبانية والأجنبية تحثها على المشاركة في التظاهرة، وأُعلن كذلك، مثلما هي العادة في ذلك الحين، عن عدة مسابقات أدبية. وكانت ردود المشاركين المستقبليين فاترة، ولكنها ليست معدومة. وفي أواخر سنة 1886 ظهرت في الصحف أخبار عن تلزيم أول أعمال الخدمات. ***فخدمة دورات المياه والمغاسل عُهد بها، حسب الشروط العامة المعروفة، إلى السيد، فراكسيداس آي فلوريت. وينوي هذا المتعهد الذكي أن يوفر في تلك المرافق خدمة «قواليت» كاملة، وأن يُلحق بها مقصورات مزودة بكل الاكسسوارات المناسبة، من مناشف وصابون وعطور. وسيكون فيها جميعها كذلك قاعة خاصة لتنظيف الأحذية، كما أنه سيتم توظيف عدد مناسب من السعاة الذين سيكونون تحت تصرف الجمهور والعارضين، لكي ينقلوا الرسائل ويوصلوا إلى المنازل ما سيشتريه الناس من المعرض. ونحن نهنئ السيد فراكسيداس آي فلوريت، لأنه بإدراكه مردودية المشروع وفائدته، أحسن صنعاً بالحيلولة دون استغلاله من قبل متعهدين أجانب.*** وانتهى الأمر بوزير الأشغال العامة إلى

الرضوخ. كان رجلاً بديناً، له مظهر مؤذٍ، وغير بشري تقريباً. وكانوا يدعونه في غيابه بلقب «الافريقي»، مع أنه لم يسبق له أن ذهب قط إلى أفريقيا أو كانت له أي علاقة بتلك القارة، بل أحرز ذلك اللقب بسلوكه وموهبته. وعندما علم بأمر اللقب لم يتضايق. وبدلاً من إظهار الاستياء، اكتسب عادة تعليق قرط بأنفه. استقبل مندوبيّ اللجنة بمنتهى الفتور، ولكن الزمن كان قد عمل لمصلحتهما دون أن يعلما بذلك؛ وبدا الوزير أعزل بحضورهما. فساعات الانتظار التي لا تحصى، والكروب والمعاكسات التي تحملاها، جعلتهما يشيخان، وبقدرة معيشتهما معاً، ليلاً ونهاراً، انتهى بهما الأمر إلى التماثل وإلى أن يشبه كل منهما الآخر مثلما تتشابه قطرتا ماء، وكلاهما صار يشبه القديس الناسك الذي في لوحة ثورباران بعد أن أمضيا شهوراً في تأملها. فأحس الوزير في حضورهما فجأة بأنه متعب، وبأن كل ثقل السلطة الهائلة التي يملكها قد هوى على كاهله. وما كان مقدراً له أن يكون مواجهة جبارة تحوّل إلى محادثة متعبة ومشحونة بالكآبة.

– 4 –

كان موقع حديقة القلعة قد أحيط بسياج يحمي ورش المعرض من تدخلات الفضوليين. ولكن السياج كان يضم مع ذلك الكثير من المنافذ؛ وكانت حركة المرور المتواصلة والصاخبة من أبواب الحاجز، وحركة الناس الذين يدخلون ويخرجون دون أي نوع من التنظيم أو الرقابة، تسمح باجتياز هذا العائق دون مشاكل. دسّ أونوفري بوفيلا خمس نشرات بين قميصه وصدره، وخبأ البقية بين لوحتين من حجر الغرانيت، بجانب الجدار المحاذي للخط الحديدي، وتسلل إلى ساحة المعرض. وعند ذلك فقط، عند رؤية كل ذلك الصخب الجهنمي، أدرك بوضوح الصعوبة الاستثنائية التي تنطوي عليها مهمته. لم يكن قد مارس أي عمل باستثناء مساعدة أمه في أعمال الحقل، ولم تكن لديه أي فكرة عن مدى التعقيد الذي قد يصل إليه التعامل المباشر مع أمثاله من البشر. وفكر: ياه، ها أنذا أنتقل من نثر الذرة للدجاج إلى الدعوة سراً للثورة. ثم قال لنفسه بعد ذلك: حسن، لا فرق، فمن ينفع في

العمل الأول سينفع أيضاً في الآخر. ومتحمساً لهذه الفكرة، وصل إلى جماعة من النجارين كانوا يسمرون ألواحاً خشبية على هيكلٍ ما سيصبح أحد أجنحة المعرض. ولكي يلفت أنظارهم، أطلق عدة صرخات: ايه! ايه! أنتم هناك، مرحباً! ليُصبِّحنا الله بالخير! وعبارات أخرى. وأخيراً انتبه أحد النجارين لوجوده بنظرة من طرف عينه؛ وبحركة خفيفة من حاجبيه سأله عما يريد.

– معي نشرات مهمة جداً! – صاح أونوفري وهو يُخرج إحدى تلك النشرات ويريها للنجار.

– ماذا تقول؟ – صرخ النجار بدوره؛ وكان دوّي ضربات مطرقته لا يسمح له بسماع شيء في تلك اللحظة، إن لم يكن قد حوّله إلى أصم تماماً. اراد أونوفري أن يكرر جملته، ولكنه لم يستطع: فقد أجبرته عربة تجرها ثلاثة بغال على الابتعاد بسرعة. وفرقع البغّال بسوطه في الهواء بينما هو يشد الأعنة غارساً كعبيه في الأرض ومرتداً بجسمه إلى الوراء، وهو يصيح: طريق! افسحوا الطريق! وكانت تتكوم على أرضية العربة أكداس من الأنقاض تُطلق سحباً من الغبار الأبيض مع الارتجاجات. وكانت عجلات العربة تتقافز بسبب الحجارة والحفر محدثة ضجيجاً معدنياً عميقاً كصوت الصنوج. وصرخ البغَّال: هيا، هيا، أيتها البغلة، أوه! قرر أونوفري بوفيلا الانصراف. وفكر للحظات برمي النشرات في إحدى برك الماء، والقول لبابلو بعد ذلك إنه قد وزعها كلها، ولكنه استبعد الفكرة بسرعة: فقد خشي أن يكون الفوضويون يراقبونه، في الأيام الأولى على الأقل.

– ماذا لديك يا فتى؟ – سأله بنّاء كان هو قد توجه نحوه؛ وكان هذا البنّاء ضمن فريق من عدة بنائين متوقفين عن العمل ليستريحوا، بينما أحدهم يقوم بالمراقبة. فإذا رأى المراقب قادماً يطلق صفيراً. ولدى سماع هذا الصفير يعود البناؤون بسرعة إلى العمل. وقد كانت هذه العادة سبباً في ظهور أغنية شعبية.

– هذا من أجل القيام بالثورة إذا كنتم تريدون القيام بها – أجاب أونوفري وهو يقدم له نشرة. فحوّل البنّاء النشرة إلى كرة وألقى بها إلى حيث توجد كومة من الحصى، وقال له: ولكننا لا نعرف القراءة ولا أي شيء يا

فتى. وفوق ذلك، ماذا يمكنك أنت أن تقول عن الثورة؟ إنها قضية جدية وخطيرة جداً. ثم أضاف قائلاً: انظر، من الأفضل لك أن تتصرف قبل أن يأتي المراقب ويراك.

بعد أن نبهه البنّاء، أمضى بعض الوقت في استطلاع المكان بدقة. وسرعان ما تعلم تمييز المراقبين. وتأكد كذلك من أن أولئك المراقبين يهتمون بإصدار الأوامر والتأكد من أنها تُنفذ أكثر من اهتمامهم بمراقبة الانحرافات الأيديولوجية المحتملة لدى مرؤوسيهم. وقال لنفسه: لا بد مع ذلك من التصرف بحذر. كان كل مراقب يشرف على قطاع، أو على جانب من إحدى الورش، وكانوا كثيرين، وكل واحد منهم له شخصيته وطريقته في العمل. وكان هناك أشخاص يروحون ويجيئون في المكان وهم يرتدون معاطف واقية، ويعتمرون قبعات، ويضعون نظارات، ويتفقدون سير الأعمال، فيأخذون قياسات مستخدمين عارضة خشبية مدرَّجة ومزولة وأدوات مسح أخرى، ويراجعونً خرائط ويوجهون المراقبين الذين يصغون إليهم بانتباه ويُبدون على الفور ملامح تدل على أنهم قد فهموا كل شيء. ويبدون وكأنهم يقولون بانحناءاتهم المتكررة: لا تقلق، سيتم التنفيذ بدقة. أولئك السادة رفيعو الشأن هم المهندسون المعماريون، ومساعدوهم وأعوانهم. وهم في حركة رواحهم ومجيئهم يحاولون تنسيق ما يجري عمله هناك. وباستثناء هذا الرابط غير الواضح، كان يبدو وكأن كل جماعة من العمال تعمل على هواها، غير عابئة بوجود الآخرين. البعض ينصبون سقالات وآخرون يفكّونها، البعض يحفرون الخنادق وآخرون يردمونها؛ البعض يصفّون الآجر وآخرون يهدمون جدراناً. وكل ذلك يجري وسط أوامر وأوامر مضادة، وصراخ، وصفير، وصهيل ونهيق، وشخير مراجل، ودوي عجلات، وقعقعة حديد، وقرقعة حجارة، واصطفاق ألواح خشبية، وطرق مطارق، وكأن مجانين البلاد كلهم قد اجتمعوا في تلك البقعة ليطلقوا لجنونهم العنان. كان العمل في بناء المعرض قد اكتسب آنذاك إيقاعه الخاص ولم يعد بإمكان أحد أو أي شيء أن يوقفه. ولم تكن تنقص الوسائل التقنية لإنجاز العمل: فقد كان في برشلونة يومذاك خمسون مهندساً معمارياً ومائة وستة وأربعون معلم ورشة، وضعت تحت تصرفهم عدة مئات من أفران الآجر، وصهر المعادن، ومناشر الأخشاب، وورش سباكة

الحديد الآلية. وكانت اليد العاملة متوفرة بكثرة أيضاً، بفضل البطالة المتزايدة التي سببها الركود الاقتصادي. والشيء الوحيد الذي لم يكن متوفراً بكثرة هو المال لدفع أجور كل أولئك الناس وتسديد مستحقات من يزودون المشروع بالمواد الأولية. وكانت مدريد، حسب عبارة صكتها جريدة ساخرة في ذلك العهد *تشد على تكة كيس نقودها بالأسنان*. وهذا الهجاء، الذي كان سمة السخرية المميزة حينذاك، يؤكد على البخل المتأصل في الحكومة. وقد قال العمدة ريوس إي تاوليت وهو يهز كتفيه: يا لسوء الحظ، سنزوغ من المشكلة بالتوقف عن الدفع. وستتحمل البلدية ديوناً باهظة تطبيقاً لهذا المبدأ. وكان من عادته أن يقول: هناك أمران فقط يُشعرانني بأنني عمدة: الإنفاق دون كابح وخرق القوانين. وقد تبنى من خلفوه في المنصب هذا الشعار. ولكن أونوفري بوفيلا كان لا يزال بعيداً جداً عن كل هذا. فبينما هو يتجول داخل السور، محاولاً التآلف مع أبعاده شيئاً فشيئاً، وقعت له عدة مفاجآت. أكبرها كان الظهور المفاجئ لرجال الحرس الأهلي. ولكنه، بعد أن زايله الخوف، قال لنفسه إن الحرس الأهلي، وسط هذه الفوضى العارمة، لن يهتم إلا بالمشاجرات، وأعمال التمرد وغيرها من الاضطرابات الخطرة، وربما لن يلحظ الحراس وجوده إذا ما توخى الحذر. وبعد أن استعاد الطمأنينة، واصل مهمته، ولكنه لم يكن قد تمكن عند انتهاء يوم العمل من توزيع نشرة واحدة. كان منهوكاً، معفراً، لم يأكل شيئاً منذ الفطور. استعاد الحزمة التي خبأها قبل أن يجتاز السور، ورجع إلى النزل ماشياً. هل من المعقول أن يكون أمر بسيط مثل إعطاء ورقة إلى شخص آخر أكبر من قدرتي؟ هذا ما كان يقوله لنفسه وهو يمشي، ثم يرد في سره: غير ممكن، هذا ما لا يمكنني تقبله! وإن كان كل شيء أكثر تعقيداً مما بدا للوهلة الأولى. وفكر: قبل قيام المرء بأي عمل لا بد له من دراسة جيدة للظروف، وللأرض التي سيطؤها. ولا شك في أنه مازال عليّ أن أتعلم الكثير. وأضاف على الفور بحماسة: إنما يجب التعلم بسرعة، لأنه لا يوجد فائض من الوقت. صحيح إنني ما زلت فتياً، ولكن عليّ منذ الآن أن أبدأ بشق طريقي إذا أردت أن أصبح غنياً. لأن الوقت سيكون قد فات فيما بعد. «أن يصير غنياً»، هذا هو الهدف الذي حدده لنفسه في الحياة. فعندما كان أبوه مهاجراً في كوبا، استطاع هو وأمه

البقاء على قيد الحياة بمشقة كبيرة. ففي أحيان كثيرة كانا يتضوّران من الجوع، ويعانيان عذاب البرد في كل شتاء. ولكنه منذ بلوغه سن الإدراك، صار يتحمل ذلك الحرمان وهو مقتنع بأن أباه سيعود محملاً بالمال. وكان يفكر: عندئذ سيتحول كل شيء إلى رفاهية، وهذه الرفاهية لن تكون لها نهاية أبداً. ولم تقل أمه أو تفعل شيئاً يمكن له أن يغذي فيه هذه الأوهام، ولكنها لم تصده عنها كذلك: لم تكن تتحدث في هذا الموضوع قط. وهكذا كان يطلق لأوهامه العنان. ولم يتساءل يوماً لماذا لم يرسل لهما أبوه بعض النقود من وقت لآخر إذا كان قد اغتنى حقاً، مثلما يتصور هو، ولماذا يرضى أن تعيش زوجته وابنه في البؤس بينما هو ينعم بالوفرة. وعندما أطلعَ آخرين ببراءة على هذه الأحلام، بدت محزنة لمستمعيه؛ ولهذا كفّ هو أيضاً عن التحدث في الموضوع. وعاشا على ذلك النحو سنة بعد سنة حتى اليوم الذي جاء فيه العم تونيت بخبر أن جوان بوفيلا سيرجع من كوبا مغتنياً بالفعل. لم يدرِ أحد من أين وصل هذا الخبر إلى أذني حوذي العربة. وكان الكثيرون يشكّون بصحته، ولكن كان عليهم أن يتراجعوا عن ذلك عندما جاء بعد بضعة أيام ومعه جوان بوفيلا بالذات. وكان هو نفسه قد أوصله قبل عشر سنوات إلى باسورا، إلى محطة القطار التي سافر منها إلى برشلونة، ليبحر من هناك. وها هو ذا يعيده الآن. وتجمع كل الجيران أمام الكنيسة لرؤيته حين يصل، ومن هناك كانوا يمعنون النظر إلى الرابية، وإلى الطريق الذي يتجه نزولاً عبر غابة السنديان. وكان أحد أطفال جوقة الترتيل ينتظر إشارة الكاهن ليقرع جرس الكنيسة. كان أونوفري هو الوحيد الذي لم يعرفه على الفور منذ أن ظهرت العربة عند أحد منعطفات الطريق. أما الآخرون فقد عرفوا على الفور أنه هو بالفعل، على الرغم من التغيرات الجسدية التي طرأت عليه خلال تلك السنوات العشر من المناخ القاسي وصروف الحياة. إنه يرتدي الآن بدلة من الكتان الأبيض تكاد تتلألأ تحت الشمس الخريفية، وقبعة قش عريضة الحواف. وكان يحمل على ركبتيه أيضاً علبة مكعبة ملفوفة بمنديل ذي مربعات. «أنت يجب أن تكون أونوفري»، كان هذا هو أول ما قاله حين قفز من العربة إلى الأرض. فرد عليه: أجل ياسيدي. جثا جوان بوفيلا على الأرض وقبل التراب. ولم يشأ النهوض إلى أن باركه الكاهن. راح ينظر إلى

ابنه بعينين زجاجيتين، ونظرة ملؤها التأثر، ثم قال: لقد كبرتَ كثيراً، ألم يقولوا لك من تشبه؟ فأجابه دون تردد: أشبهك أنت يا أبي! وفي تلك اللحظة، كان يعي الفضول الذي ينظر به إليه الآخرون، والتكهنات التي تدور في أذهانهم. وتناول جوان بوفيلا العلبة المكعبة من العربة. انظر ماذا أحضرت لك، قال ذلك وهو ينزع المنديل الذي يلف العلبة، وكشف عن قفص من الأسلاك في داخله قرد أكبر من أرنب بقليل، نحيل وله ذيل طويل جداً. كان القرد يبدو غاضباً يكشر عن أسنانه بضراوة لا تتناسب مطلقاً مع صغر حجمه. فتح جوان بوفيلا باب القفص وأدخل يده فيه؛ فتشبث القرد بأصابعه. ثم أخرج يده وقرّب القرد من وجه أونوفري الذي كان يتفحصه بحذر. فقال له أبوه: خذه دون خوف يا بني، فهو لن يؤذيك: إنه لك. أمسك به أونوفري، ولكن القرد تسلق ذراعه، واستقر على كتفه وراح يضربه على وجهه بذيله. وقال الكاهن مقاطعاً ذلك المشهد: لقد أعددتُ بعض تراتيل الشكر للرب على عودتك. فانحنى جوان بوفيلا انحناءة احترام خفيفة؛ ثم جاب بناظريه بعد ذلك واجهة الكنيسة من أعلى إلى أسفل. كان بناؤها الحجري خشن المظهر مؤلفاً من جناح واحد مستطيل؛ وكان برج الجرس مربع القاعدة. فقال جوان بوفيلا بصوت عالٍ: هذه الكنيسة تحتاج إلى عملية ترميم واسعة. ومنذ تلك اللحظة بدأ الجميع يسمونه «الأمريكي» وصاروا يأملون الآن بأن يُدخل تغييرات كبيرة على الوادي. كان قد خلع قبعته وقدم ذراعه لزوجته؛ ودخلا معاً إلى الكنيسة. وهناك كانت الشموع تتلألأ أمام المذبح. لم يكن هناك من رأى مثل تلك الاحتفالية من قبل. وأونوفري يتذكر الآن بوضوح تلك اللحظات الساحرة' بينما هو يرجع جائعاً ومتعباً إلى النزل. وكلما التقى عربات يحاول النظر إلى داخلها، فقد يكون فيها شخص يمكن لرؤيته العابرة أن تغذي أحلامه المشوشة. ولكن ظهور تلك العربات كان يتناقص أكثر فأكثر كلما كانت خطواته تقرّبه من حي النزل الكئيب. لكن ذلك لم ينل من عزيمته. فقد طلعت عليه أول أنوار صباح اليوم التالي وهو في موقع المعرض. وكان قد ترك النشرات في النزل؛ وراح يتشمم الآن هنا وهناك، مصمماً على أن يتعرف شبراً شبراً إلى هذا المكان الذي سيكون ميدان عملياته في الأيام القادمة. وهكذا عرف بسرعة أن المستخدمين الذين

يعملون في الورشات ليسوا جميعهم من فئة واحدة: فهناك حرفيون، وعمال مياومون، وثمة فرق أساسي بين هؤلاء وأولئك كما رأى. فالحرفيون رجال لهم حرفة، وهم منظمون وفق مراتب وتقاليد النقابات الحرفيه القديمة؛ يحظون باحترام أرباب العمل ويتكلمون مع المراقبين كلام الند للند تقريباً؛ ويشعرون باعتزاز يمكن مقارنته باعتزاز الفنانين، فهم يعرفون أنه لا يمكن الاستغناء عنهم، وهم ينأون بأنفسهم عموماً عن المطالب النقابية لأنهم يتقاضون أجوراً محترمة. أما العمال المياومون أو الأجراء اليدويون فهم قادمون من الريف ولا يتقنون أي حرفة؛ فقد قدموا إلى المدينة بدافع اليأس، مطرودين من أراضيهم بسبب الجفاف، أو الخراب الذي سببته الحروب والأوبئة، أو لأن الموارد المحلية لم تعد بكل بساطة توفر لهم ما يقيم أودهم. وهم يجرجرون معهم أفراد أسرهم، وبعض أقاربهم البعيدين أحياناً، وأقارب عاجزين لم يستطيعوا التخلي عنهم، ويتكفلون بإعالتهم بوفاء الفقراء البطولي؛ وهم يعيشون الآن في أكواخ من الصفيح والخشب والكرتون على الشاطئ الممتد من مرسى المعرض حتى معمل الغاز. النساء والأطفال يعجون بالمئات في ذلك المخيم الذي برز هناك في ظل القوالب الخشبية والهياكل التي بدأت ترسم ملامح الأبنية التي ستشكل عما قريب سرايات المعرض وأجنحته. بعض أولئك النسوة كن متزوجات من عمال مياومين؛ وغيرهن صديقات يرافقن بعضهم فقط؛ وأخريات هن أمهات، أو أخوات عازبات، أو حموات أو أخوات زوجات أولئك العمال. ومعظمهن كن حبلاوات في مرحلة حرجة ومتقدمة من الحمل. يمضين النهار في نشر الغسيل على حبال مثبتة على قصبتين مغروستين في الأرض ليجففه هناك نسيم البحر الدافئ وأشعة الشمس الساطعة. وكن يطبخن كذلك على مواقد عند أبواب الأكواخ، ويسعرن نارها بنشاط بمراوح من القش، أو يقمن بالترقيع والرفو. ويفعلن كل ذلك وهن يرعين أطفالهن. وكان أولئك الأطفال متسخين إلى حد يصعب معه تمييز ملامح وجوههم؛ بطونهم منتفخة، يمضون عراة، ويبادرون بقذف الحجارة على الجميع. وإذا اقتربوا من النساء اللواتي يطبخن فإنهم يجازفون بتلقي صفعة أو ضربة بمقلاة. هكذا كن يبعدنهم، ولكنهم سرعان ما يرجعون وقد اجتذبتهم رائحة الطعام. وكثيراً ما تقع بين النساء مشاجرات، وتبادل صراخ

وشتائم، ويصل الأمر إلى استخدام الأيدي في أحيان كثيرة. فيقف رجال الحرس الأهلي في مثل هذه المناسبات على مسافة حذرة، ولا يتدخلون إلا إذا لمعت السكاكين والشفرات. وكان أونوفري بوفيلا يمضي الأيام في تقصي هذه الأمور. ويستغل مظهره المسالم، وميزة كونه غير مقيد بمواعيد ولا تابع لأي قطاع، فيتنقل من مكان إلى آخر لكي يألف الناس حضوره. ولم يكن يسبب أي إزعاج لمن هم منهمكون في العمل، أما الذين يستريحون فيوجه إليهم أسئلة عن مهنتهم. وإذا ما وجد طريقة لتقديم أي مساعدة، فإنه يفعل ذلك. وشيئاً فشيئاً راح يكسب تقبل الجميع وتقدير البعض واحترامهم له.

عند انقضاء الأسبوع الأول، ومع أنه لم يكن قد وزع نشرة واحدة، فقد وجد على وسادة سريره النقود التي وعدته بها ديلفينا، والتي وضعتها هي نفسها بكل تأكيد. وقد هنأ نفسه في أعماقه لتفهم مستخدميه ونزاهتهم. وفكر: لن أخيب أملهم، ليس لأن هذه الثورة التي أبشر بها تهمني في شيء، وإنما لأنني أريد أن أُثبت أني أستطيع القيام بهذا العمل كأفضل من يقوم به. عما قريب سأتمكن من البدء بتوزيع هذه النشرات المزعجة: فمثابرتي وتكتمي بدأا يعطيان أولى ثمارهما؛ فقد تغلبت على الريبة الأولية التي قد أكون أوحيت بها في البداية بسبب ارتباكي؛ ثم إنه ليس هناك من يراقبني: فالجميع مستغرقون في حماقة هذا المعرض. وبالفعل، ففي سنة 1886، عندما كان ما يزال هناك سنتان على موعد الافتتاح، نبهت إحدى الصحف إلى أن *هناك أجانب يتوافدون باستمرار على برشلونة لتكوين فكرة عن جمالها وعن تقدمها*. وتضيف الصحيفة بناء على ذلك: *الزينة العامة، وما هو متعلق بتوفير الراحة والأمن الشخصيين، هي القضايا التي يجب أن تحظى في الظروف الحالية بكل أولوية الاهتمام الثمين الذي تبديه سلطاتنا*. ولم يكن يمر يوم مؤخراً دون أن تتقدم الصحف بالاقترحات: *إنشاء شبكة الصرف في المنطقة الجديدة*، تقترح إحداها. *إزالة الأكواخ التي تشوه منظر ساحة كتالونيا*، تقترح صحيفة أخرى. *تزويد شارع كولومبس بمقاعد حجرية؛ تحسين الأحياء المتطرفة مثل ضاحية بوبلي سيك التي لا بد أن يمر بها من سينتهزون فرصة وجودهم في برشلونة ليذهبوا إلى مونتجويك تجتذبهم إليه الينابيع التي توشي هذا الجبل*، وغيرها من الاقتراحات.

وتبدي بعضها قلقها من سلوك أصحاب الفنادق، والمطاعم، والمقاهي، والنزل العائلية وغيرها، وتحثهم لأن يدركوا أن ***الرغبة في الربح السريع والمفرط تؤدي في الغالب إلى نتيجة عكسية، وترتد ضرراً على الذات، لأنها تجعل الزائر يسرع بالمغادرة***. وكان اهتمام هذا القطاع من الصحافة بالانطباع الذي يمكن أن تحدثه المدينة، أقل من اهتمامه بالانطباع الذي قد يحدثه سكانها الذين تشك بوضوح في نزاهتهم وكفاءتهم وأساليبهم في التعامل.

- أعطني مزيداً من النشرات يا بابلو. - عندما قال أونوفري ذلك، دمدم المبشر الثوري متذمراً: لقد تأخرتَ أكثر من ثلاثة أسابيع في توزيع الرزمة الأولى، عليك أن تبذل مزيداً من الجهد. كانت الساعة الخامسة صباحاً، وكانت الشمس قد تجاوزت خط الأفق وبدأت تتسلل من شقوق أباجور نافذة الوكر. وعلى الضوء الأولي لذلك الشروق الصيفي، كان الوكر يبدو أكثر ضيقاً، مخلعاً ومعفراً.

- في البدء لم يكن الأمر سهلاً، ولكنك سترى كيف أن الحال ستتغير ابتداء من اليوم - قال له أونوفري. وبالفعل، وزع الرزمة الثانية خلال ستة أيام فقط. فقال له بابلو: سامحني يا فتى على ما قلته لك في المرة الماضية. فأنا أعرف أن البدايات تكون قاسية؛ ولكن نفاد الصبر يسيطر علي أحياناً، أتتفهم ذلك؟ إنه الحر، هذا الحر، وهذا الاحتجاز هنا، إنه يميتني. وكان الحر يفعل فعله أيضاً في موقع المعرض. فالأعصاب هناك تتوتر بسرعة، وسرعان ما ظهرت كذلك الإسهالات الصيفية المرهوبة جداً لأنها تقتل الأطفال بالعشرات.

وكان أكثر الناس تشككاً يقولون:

- سيسوء الأمر أكثر عندما تنتهي هذه الورشة ونصبح بلا عمل.

أما أكثرهم ثقة فيعتقدون بأنه ما أن يُفتتح المعرض حتى تتحول برشلونة إلى مدينة عظيمة؛ وسيكون هناك في المدينة عمل للجميع؛ والخدمات العامة ستتحسن بصورة ملحوظة، وسيتلقى الجميع الرعاية الضرورية. فكان الآخرون يضحكون مقهقهين من هؤلاء الحمقى. فينتهز أونوفري الفرصة ليتحدث عن باكونين وينتهي به الأمر دائماً إلى توزيع بضع

نشرات. وبينما هو يقوم بذلك لا يتوقف عن القول في نفسه: فليسامحني الرب، لستُ أدري كيف تحوّلتُ إلى داعية للفوضوية؛ فمنذ بضعة أسابيع لم اكن قد سمعت شيئاً عن هذه الترهات، وها أنذا أبدو اليوم مؤمناً بها طوال حياتي، وسيكون الأمر مضحكاً في المستقبل، إذا أنا لم أعرض حياتي للخطر. وكان ينتهي دائماً إلى القول لنفسه: سأحاول القيام بهذا العمل على احسن وجه، فالخطر لن يتبدل سواء أقمت به بصورة جيدة أم سيئة، ولكنني إذا قمت به بصورة جيدة فسوف أكسب ثقة هؤلاء وأولئك. وكانت فكرة اكتساب ثقة الغير دون أن يمنحهم ثقته بالمقابل تبدو له ذروة الحكمة.

– 5 –

– هكذا إذن أيها الشاب، أنت تعمل في ورشات المعرض الدولي، أليس كذلك؟ هذا جيد، جيد جداً – هذا ما قاله السيد براوليو عندما دفع له أونوفري أجرة الأسبوع الأول. وأضاف صاحب النزل: إنني مقتنع، وقد قلت ذلك لزوجتي، التي لا تسمح لي بالكذب، إن المعرض، إلا إذا قدر الله عكس ذلك، سيضع برشلونة في المكانة التي تستحقها.

– وهذا ما أفكر به أنا أيضاً يا سيد براوليو – ردّ عليه.

بالإضافة إلى السيد براوليو وزوجته السيدة آغاتا، وديلفينا وبعلزبول، راح يتعرف مع مرور الوقت على شخصيات أخرى في العالم الصغير. كان عدد النزلاء ثمانية أو تسعة أو عشرة في كل يوم. منهم أربعة نزلاء فقط دائمون: أونوفري، وكاهن متقاعد يدعى الأب بيثانسيو، ومُنَجِّمَة بالورق اسمها ميكائيلا كاسترو، والحلاق الذي كان يعمل في البهو، والجميع يدعونه مريانو وحسب. وهو رجل بدين متورد البشرة، ذو ماض خبيث، ولكنه لطيف المعشر، وقد كان ثرثاراً متمادياً، وربما كان هذا هو السبب في كونه أول من اقام أونوفري معه علاقة بين النزلاء. وقد أخبره الحلاق بأنه تعلّم المهنة في أثناء خدمته العسكرية، ثم عمل بعد ذلك أجيراً في عدد من صالونات الحلاقة في برشلونة، إلى أن رغب في تحسين وضعه وهو على أبواب الزواج من عاملة تشذيب أظافر في صالون للحلاقة، ففتح صالوناً لحسابه. وقال

له: ولكن الزفاف لم يتم قط. - وواصل مريانو قصته: - قبل أيام قليلة من حفل إعلان خطوبتنا، أجهشت الفتاة فجأة بالبكاء. وعندما سألها عما أصابها. اعترفت له بأنها كانت على صلة بسيد تعلق بها، وقدم لها هدايا كثيرة، ووعدها بأن يُعد لها شقة خاصة، فلم تستطع مقاومة كل ذلك الإلحاح وكل تلك الملاطفات. وهي الآن لا تستطيع الزواج منه دون أن تطلعه على الحقيقة. استولت الحيرة على مريانو. وكان السؤال الوحيد الذي استطاع أن يطرحه عليها هو: ولكن، كم من الوقت استمرت تلك العلاقة؟ كان يريد أن يعرف إذا ما كانت قد استمرت أياماً، شهوراً، أم سنوات؛ فقد بدا له أن هذا التفصيل هو أهم ما في القضية. ولكنها لم تكشف عن هذا اللغز. كانت مرتبكة إلى حد لم تعرف معه عم يسألها. وكانت تردد العبارة نفسها: إنني تعسة جداً، إني تعسة جداً. وقد ألح الحلاق فيما بعد على استعادة الخاتم الذي أهداه إليها بمناسبة الخطوبة. فرفضت أن تعيده إليه ونصحه المحامي الذي لجأ لاستشارته بألا يرفع القضية إلى المحاكم قائلاً له: لأنك ستخسرها. وهو الآن، بعد مرور عدة سنوات، يشعر بالسعادة لأن الأمور سارت على ذلك النحو. ويؤكد: النساء مصدر نفقات لا تنتهي. أما حياته المهنية بالمقابل، فكان يتحدث عنها دائماً بحماسة.

- في أحد الأيام، وكنت أعمل في صالون حلاقة في حي رافال - روى ذلك لأونوفري في مناسبة أخرى - عندما سمعتُ ضجة كبيرة في الشارع. فأطللت قائلاً: ما الذي يحدث؟ ما سبب كل هذا الصخب؟ فرأيت فرقة من الجند الخيالة يصطفون عند باب صالون الحلاقة. وفجأة ترجل مرافق القائد ودخل إلى المحل، ويخيل إلي أني ما زلت أسمع وقع كعبي جزمته والرنين الذي كان يُحدثه مهمازاه على البلاط. حسن، لقد نظر إلي وسألني: هل صاحب المحل موجود؟ فقلتُ: لقد خرج قبل لحظات. فقال: ألا يوجد هنا من يقص الشعر؟ فقلت: إنني في خدمتك، تفضل بالجلوس يا صاحب السعادة. فقال لي: «ليس من أجلي، بل من أجل سيدي الجنرال كوستا إي غاسول». فهل تتصور ذلك؟ لا، بالطبع، فأنت فتي جداً ولا يمكنك أن تتذكره. لأنك لم تكن قد ولدت بعد. حسن، لقد كان جنرالاً من الكارلستيين مشهوراً بشجاعته وقوته. استولى بحفنة من الرجال على تورتوسا وقضى على نصف

سكانها. وقد أعدمه إيسبارتيرو رمياً بالرصاص فيما بعد، وايسبارتيرو هو رجل عظيم أيضاً، كلاهما كان من النوعية نفسها، إذا ما أردت أن تعرف رأيي، مع ترك السياسة جانباً، لأنني لا أتدخل فيها. ما الذي كنتُ أقوله؟ آه، أجل، لقد رأيتُ كوستا إي غاسول بشخصه يدخل، متشحاً بالأوسمة من رأسه إلى قدميه، جلس على الكرسي، ونظر إلي وقال: قَصِّ الشعر وحلاقة الذقن. فقلت له وأنا أشخ في ثيابي: تحت أمر سيادتك يا سيدي الجنرال. وباختصار، عملت ما طلبه مني، وعندما انتهيتُ سألني: بكم أدين لك؟ فقلت: بالمجان لسيادتك يا سيدي الجنرال. فاستدار ومضى.

وكان يمكن لهذه الحكايات أن تتواصل لعدة ساعات، إلى أن يحدث شيء أو يقوم أحدهم بقطع سيل ثرثرته. وكان مريانو، مثل جميع حلاقي عصره، يقلع الأضراس، ويمارس التمريخ بالمراهم، ويضع اللصقات والكمادات، ويُجري عمليات الإجهاض. وكان يحاول أن يبيع إلى زبائنه القليلين مراهم نافعة. لقد كان رعديداً وخوّافاً جداً، يعاني آلاماً في المثانة والكبد، يتدثر بمبالغة على الدوام ويهرب من ميكائيلا كاسترو كما لو أنها الطاعون، لأنها تنبأت له بميتة مؤلمة على المدى القريب. كانت المنجمة امرأة متقدمة في السن؛ أحد جفونها شبه مغمض. وكانت محبة للعزلة والانزواء، لا تتكلم إلا للتنبؤ بالمصائب. وتؤمن إيماناً مطلقاً بنبوءاتها؛ ولا يتزعزع ذلك الإيمان إذا لم يتحقق فيما بعد ما كانت قد تنبأت به، ولا يصرفها عن مواصلة التنبؤ بالكوارث. حريق ماحق سيلتهم برشلونة، ولن يخرج أحد سليماً من المحرقة الرهيبة، هذا ما كانت تقوله وهي تدخل إلى الغرفة التي تستعمل كقاعة طعام. ولم يكن هناك من يعيرها انتباهه، ولكن معظمهم كانوا يسارعون خفية إلى لمس الخشب، أو القيام بإشارات الرقى بأصابعهم. ولم يكن هناك من يعرف كيف، أو لماذا، تخطر لمخيلتها كل تلك الفظائع. ستحدث فيضانات عارمة، أوبئة، حروب، وسيُفتقد الخبز، هذا ما كانت تقوله دون أن يكون هناك مسوّغ أو مناسبة. أما زبائنها الذين كانت تستقبلهم في غرفتها في النزل، بإذن خاص من السيد براوليو الذي كان كريماً معها، ويحبها كثيراً، فكانوا أشخاصاً من كل الأعمار، ومن الجنسين، ومن مستويات اجتماعية بائسة. وجميعهم كانوا يخرجون من تلك الاستشارات وهم قلقون دائماً.

ولكنهم يرجعون بعد وقت قصير ليتلقوا جرعة أخرى من التشاؤم واليأس. فتلك التنبؤات المشؤومة تضفي شيئاً من العظمة على حيواتهم الرتيبة، وربما كان هذا هو سبب مجيئهم إليها. وربما لأن انتظار مأساة وشيكة يجعل الحاضر البائس الذي يعيشونه أخف وطأة. وعلى أي حال، لم يكن يحدث فيما بعد شيء مما تتنبأ به، أو قد يحدث شيء خبيث مثل تنبؤاتها، ولكنه مختلف عنها. كان الأب بيثانسيو يتمتم بصوت خافت مردداً التعاويذ ضد سحرها وهو يجلس في الجانب الآخر من قاعة الطعام، ويُبقي نظره مثبتاً على شرشف المائدة. لم يكونا يجلسان متجاورين قط. وبما أنهما يعيشان كلاهما في عالم الأرواح، فقد كانا يتبادلان الاحترام، مع أنهما ينتميان إلى معسكرين مختلفين. وكانت ميكائيلا كاسترو في نظر الأب بيثانسيو عدواً جديراً بمهمته: ألا وهي تجسيد الشيطان. وكانت هي ترى في الراهب بيثانسيو مصدراً دائماً للأمان، لأنه يؤمن بمواهبها، وإن كان ينسبها إلى الشيطان. ولم يكن الأب بيثانسيو، الطاعن جداً في السن، يريد أن يموت قبل أن يذهب إلى روما، ليجثو، كما يقول هو نفسه، عند قدمي القديس بطرس. وكان يرغب كذلك في أن يرى بأم عينه البوتافوميرا[1] التي كان يعتقد خطأ أنها في الفاتيكان. وقد تنبأت له ميكائيلا كاسترو بأنه سيقوم قريباً بالرحلة إلى روما، ولكنه سيموت في الطريق، دون أن يتمكن من رؤية المدينة المقدسة. وكانت الكنائس القريبة (مثل كنيسة بريسنتاثيون، وسان إثكييل، وسيدتنا عذراء الذكريات وغيرها) تلجأ إلى الأب بيثانسيو، عندما يتطلب أحد طقوسها الاحتفالية شخصيات إضافية أو تعزيزات في الجوقة أو الدير؛ وكانوا يستدعونه كذلك للإنشاد، والترتيل، والترديد، والقراءة، بل ولمساعدة الكاهن في الاحتفالات، وهي أمور اختفت تقريباً في هذه الأيام، ولكن الأب بيثانسيو كان يعرفها، وإن لم تكن لديه كفاءة فائقة في أي منها. ومن تلك الأعمال، وبعض الأعمال الإضافية الأخرى كان يكسب بعض النقود، ما يكفيه للعيش دون ضيق. وكان الكاهن، والحلاق، والمنجمة، وأونوفري

---

[1] البوتافوميرا: مبخرة ضخمة معلقة في وسط كاتدرائية سنتياغو دي كومبستيلا في إسبانيا.

بوفيلا نفسه يشغلون غرف الطابق الثاني. ومع أن هذه الغرف ليست أكثر اتساعاً ولا أفضل من الغرف الأخرى، إلا أنها تتمتع بميزة لا تُقدَّر بوجود شرفة تطل على الشارع. وهذا يجعلها أكثر بهجة بالرغم من الشقوق التي في سقوفها، وعدم استواء أرضيتها، وبقع الرطوبة على جدرانها، وأثاثها الجنائزي المهلهل. كانت الشرفات تطل على الزقاق. المشهد الذي توفره كئيب، ولكنه مشرق أحياناً؛ وعلى حواجز هذه الشرفات الحديدية كانت تحط كل يوم يمامات ذات ريش ناصع البياض، يبدو أنها قد تاهت أو هربت وبنت أعشاشها في الجوار. وكثيراً ما كان الأب بيثانسيو يلقي لها خبزاً فطيراً يقتطعه من خبز القربان الذي مازال دون تقديس. ولهذا كانت تأتي كل يوم. أما الغرف الأخرى التي في الطابق الأول، وهي بلا نوافذ ولا شرفات، فيقيم فيها النزلاء العابرون.

وفي الطابق الثالث، تحت السقف، كان ينام السيد براليو والسيدة آغاتا و ديلفينا. وكانت دونيا آغاتا تعاني مزيجاً من داء النقطة الرثوي ونقرس القدمين، وهو ما يبقيها مسمرة على كرسيها، في حالة دائمة من النوم والصحو المتتاليين. ولم تكن تتنشط إلا عندما تتمكن من أكل الحلوى والفطائر المحلاة؛ ولأن الطبيب منعها من تناولها بتاتاً، فقد كان زوجها وابنتها يسمحان لها بأن تتذوق بعض فتات الحلوى في بعض الأعياد المعلومة. ومع أنها تعاني آلاماً دائمة، إلا أنها لم تكن تشكو منها أبداً، ليس بسبب قوة الإرادة، وإنما بسبب الضعف. ففي بعض الأحيان تتخضل عيناها وتنساب الدموع على خديها الأملسين والممتلئين، ولكن وجهها يظل جامداً دون أي تأثر أو تعبير. ويبدو أن هذه النكبة العائلية لم تكن تؤثر في السيد براوليو. فهو طيب المزاج دوماً، ومستعد للدخول في مناقشة حول أي موضوع؛ ويحب رواية المُلح وسماعها؛ ويحتفل بها، مهما كانت سيئة، بضحكة مكبوتة إنما مديدة؛ وقد تمر ساعة وهو لا يزال يضحك من طرفة رويت له؛ فلم يكن هنالك جمهور أكثر منه تملقاً. وكان يمضي نظيفاً جداً ومتأنقاً في أي وقت. يحلق له مريانو ذقنه في الصباح، ثم مرة أخرى بعد الظهر في بعض المناسبات. وباستثناء مواعيد الوجبات، التي يأتي إليها بهندام لا تشوبه شائبة، كان يتجول في النزل بسرواله الداخلي، لكي لا تتجعد بنطلوناته التي

تكويها له ابنته، باستياء، كل يوم. كان على صداقة جيدة مع الحلاق، ويتعاطى باحترام مع الكاهن، ويعامل المنجمة بشيء من المحاباة، ولكنه لا يجلس إلى المائدة التي تجلس إليها إلا نادراً، لأنها عندما تدخل في غيبوبة، تفقد التحكم بحركاتها، فتعرض هندام دون براوليو للخطر. والسمة المميزة البارزة فيه، فضلاً عن أناقته، هي نزوعه إلى إيذاء نفسه: فهو يظهر في أحد الأيام وإحدى عينيه متورمة، وفي يوم آخر بجرح ظاهر في ذقنه، وفي غيره بخدش في وجنته، وفي يوم تال بالتواء في يده. ولم يكن يظهر قط دون ضمادات، أو لصقات أو كمادات. وهو أمر لا يمكن إلا أن يبدو غريباً لدى شخص يغار إلى ذلك الحد على مظهره. وكان أونوفري يقول لنفسه عندما يفكر به: إما أنه أشد الرجال الذين عرفتهم خراقة، وإما أن شيئاً غير طبيعي يحدث هنا. ولكن ديلفينا هي اللغز في تلك الأسرة، وأكثر أفرادها إثارة لقلق أونوفري الذي كان يشعر بانجذاب نحوها لا يمكن تفسيره، ولكنه متزايد، ويكاد يكون هاجساً متسلطاً على عقله.

نجاح أونوفري في توزيع النشرات بلغ حداً استدعى منه التردد بكثرة على شارع الموسغو للحصول على نشرات جديدة، ولإثبات حضوره؛ فكان يلتقي هناك دائماً ببابلو. ولكثرة تلك اللقاءات تولّدت بوادر علاقة رفاقية وتضامن بين الداعية الثوري المجرَّب وموزّع النشرات المستجد. كان ذاك يشكو دون توقف من الحقد الذي تبديه الشرطة في ملاحقته منذ عدة سنوات؛ مما يضطره إلى أن يعيش حياة التخفي؛ فهو رجل ممارسة، يرى أن تقييد نشاطه هو أسوأ أنواع التعذيب، أو أن هذا ما كان يعتقده آنذاك؛ لقد كان مضطرباً وفاقداً التوازن، يحسد أونوفري على تمكنه من التواصل اليومي مع الجماهير العاملة، وكان يرى أن هذا لا يستفيد إلى أقصى مدى من تلك الهبة التي لا تُقدّر بثمن، فيؤنبه وينتقده مستغلاً أي سبب حقيقي أو متخيل. وكان أونوفري، الذي راح يتعرف عليه شيئاً فشيئاً، يتركه يتكلم؛ فهو يعرف أنه مجرد رجل بائس، ممن يشكلون لحم المدافع. كان بابلو يغضب بسهولة، ويعارضه بصورة منهجية، ويسعى لإثبات أنه دوماً على حق، وهي ثلاثة أعراض لا لبس فيها لضعف الشخصية. ولكنه يحتاج أيضاً إلى رفقته، وإلى

تأييده في آرائه قبل ذلك، حتى لا يفقد عقله. فبقاؤه في عالم العقلاء يعتمد على أونوفري. وبالرغم من تلك العيوب، فقد انتهى نهاية حزينة لا يستحقها. ففي سنة 1896، عندما كان معتقلاً منذ عدة سنوات في زنازين سجن قلعة مونتجويك، استخدمه سجانوه طعماً لحادثة إلقاء قنبلة الكوربوس كريستي. ففي صباح أحد الأيام أخرجوه من الزنزانة مقيداً بأحزمة من الجلد كانت تحز لحمه حتى العظم، ومعصوب العينين. ولم يكن اقتياده محمولاً يكلفهم أي مشقة، فالمرارة وسوء المعاملة اختزلته إلى لا شيء، ولم يعد وزنه يزيد على الثلاثين كيلو غراماً. عندما نزعوا العصابة عن عينيه وجد نفسه على بعد خطوات قليلة من الهاوية، كانت الأمواج تتكسر على صخور الشاطئ، وعندما يتراجع الماء تظهر الصخور السوداء المشحوذة كأنها شفرات فؤوس. فقد أوقفوه مكبل اليدين عند حافة إحدى كوى القلعة، وكعباه في الفراغ. وكانت هبة ريح كافية لجعله يفقد التوازن والقضاء عليه. وقد خطر له أن يلقي بنفسه إلى الوراء ويضع حداً لكل ذلك العذاب، ولكنه لم يشأ أو لم يجرؤ على عمل ذلك. وفكر وهو يضغط أسنانه: لن أفعل ذلك بإرادتي. تقدم منه ملازم له وجه جاف، وبشرة تميل إلى الزرقة، كأنه الجثة، وأسند رأس سيفه إلى صدره. وقال له: ستوقّع اعترافاً أو سأقتلك الآن فوراً. يمكن لك إذا ما وقّعت أن تخرج طليقاً في أحد الأيام. وعرض عليه تصريحاً يزعم فيه أنه قدمه هو نفسه وأنه كُتب بإملاء منه، يقول إنه أحد المسؤولين عن مأساة كوربوس كريستي، وإنه يدعى جياكومو بيمينتيلي، وإنه إيطالي. كل ذلك كان عبثياً: فهو في السجن منذ عدة سنوات ولا يمكن له بالتالي أن يكون قد شارك في عمل كالذي ينسبونه إليه، ارتُكب في الشارع منذ عدة أيام. وهو ليس إيطالياً كذلك، حتى ولا من بعيد، مع أن أحداً لم يتمكن حتى ذلك الوقت من معرفة اسمه الحقيقي أو أصله: فهو يكرر في أثناء جلسات الاستجواب بأن اسمه هو بابلو، وأنه مواطن العالم، وأخ للبشرية المستغَلة كلها. أعادوه إلى زنزانته دون أن يتمكنوا من انتزاع ذلك الاعتراف منه. وهناك علقوه من معصميه على الباب وأبقوه على تلك الحال ثماني ساعات. وبين حين وآخر كان أحد السجانين يقترب منه، ويبصق في وجهه ويلوي أعضاءه التناسلية بصورة وحشية. وفي كل يوم تقريباً يكررون معه عملية

الإعدام الوهمية: فـي بعض المرات يربطون حبلاً حول عنقـه، وفـي أحيـان اخرى يجبرونه على وضع رأسه على قطعة من جذع شجرة ويتظاهرون بأنهم سيفصلون رأسه عن جسده، وفي مرات أخرى يوقفونه أمام فصيلة الإعدام لرميه بالرصاص. وأخيراً، انهارت قواه ووقّع الإقرار، ووافق على جريمة كانت جريمته بطريقة ما، لأنه صار، عند ذلك الحد، يكره أي كائن بشري، وما كان ليتورع عن القتل دون تمييز لو أتيحت له الفرصة لعمل ذلك. وعندئذ أعدموه رمياً بالرصاص فعلاً عند خندق القلعة، مثلما أعدموا كثيرين غيره، بـأمر خـاص آت مـن مدريـد. والرجل الـذي أصـدر ذلـك الأمـر القاسـي هـو دون أنطونيـو كانوفـاس دل كاسـتييو، وكـان آنـذاك رئيسـاً لمجلس الـوزراء للمـرة الخامسة. بعد بضعة شهور من ذلك، بينما كان كانوفاس دل كاستييو يستحم فـي مياه حمة سـانتا أغويدا، قال لامرأته إنه التقى بشخص غريب، نزيل مثلهما في منتجع المياة الحارة، وإن الرجل حيّاه باحترام كبير. وقال رئيس مجلس الـوزراء: أود أن أعرف مـن يكـون. وكـانت عينـاه قـد غامتـا بسـحابة هاجس مشؤوم لم يشأ إطلاع زوجته عليه كي لا يُقلقها. كان كانوفاس يرتدي السواد على الدوام، ويهوى اقتناء وجمع لوحات الرسم، والمشغولات الخزفية، والعكاكيز الثقيلة، والعملات القديمة، وكان رصيناً جداً فـي كلامـه ويكره كل مـا يمكـن أن يبـدو مباهـاة، مثـل الذهـب والمجوهـرات. ولقلقـه مـن المشـاكل الداخلية والخارجية التي كانت تواجهها البلاد، صمم على قمع الفوضويين بيد من حديد. وكان يفكر: لدينا ما يكفي من أوجاع الرأس ليأتي ويضاف إليها هـذا القطيع من الكلاب المسعورة. وكـان يـرى أن الحـزم هـو الوسـيلة الوحيدة لتجنب الفوضى التي تلوح في أفق إسبانيا. الشخص الذي أثار قلقه فـي صيـف عـام 1896 ذاك، كـان إيطاليـاً بـالفعل فـي هـذه المـرة، يدعـى أنجيوليلو، وقد سُجل في سجل منتجع المياه الحارة على أنه مراسل لجريدة *إل بوبولو*؛ كان شاباً ذا شعر أشقر ضارب إلى الرمادي، في مظهره شيء من الانحطاط، ولكنه شديد اللباقة والتهذب في التعامل. وفـي يـوم كـان فيـه كانوفاس جالساً يقرأ الصحف، على كرسي من الخيزران، في ظل شجرة في حديقة المنتجع، اقترب منه أنجيوليلو، وقال له: مت يا كانوفاس، مت أيها الجلاد، أيها الدموي الأبله. وأخرج مسدساً من جيبه وأفرغ فيه ثلاث

رصاصات من مسافة قريبة، فقتله في الحال. انقضّت زوجة كانوفاس الهائجة على قاتل زوجها بمروحة من الصدف والدانتيلا معلقة بمعصمها، وصرخت به: قاتل! قاتل! فدفع أنجيوليلو عن نفسه هذه التهمة بالقول إنه ليس قاتلاً، وإنما القاتل هو جلاد رفاقه الفوضويين. ثم أضاف: «وليس لدي ما ابحثه معك أنت يا سيدتي.» فالرجال نادراً ما يستطيعون التعبير، وإذا فعلوا، فإنهم يفعلون ذلك بصورة سيئة.

كانت كمية المواد المستخدمة يومياً في ورش المعرض ضخمة جداً، وتشير صحيفة صادرة في ذلك الحين، *لقد استنفد تقريباً كل إنتاج أفران الآجر، وحدث الشيء نفسه بالنسبة للإسمنت الذي يأتي بكميات كبيرة من أماكن مختلفة من الإمارة ومن الخارج. ففي سرايا الصناعة وحدها يُستهلك كل يوم ثمانين قنطاراً من هذه المادة. كما أن مصنعي الحديد الكبيرين «لاماريتيما» وشركة «خيرونا» يعملان بنشاط لانجاز عقودهما من حديد التسليح والعوارض، والشيء نفسه يقال عن عدة ورش نجارة حيث يجري تصنيع بعض التجهيزات ذات الأهمية الحقيقية*. كانت مساحة موقع المعرض ثلاثمئة وثمانين ألف متر مربع. وقد بدأت تنتصب، وإن تكن غير ناجزة تماماً، المباني الأولى المشيدة خصيصاً للمعرض. والأبنية القديمة المتبقية من القلعة جرى تجميلها. والجزء المتبقي من السور تم تقويضه وجرى بناء ثكنات جديدة في شارع صقلية لتُنقل إليها آخر الآثار ذات الطابع العسكري. وهذا لا يعني أن الأعمال قد تقدمت كثيراً. فالواقع أن الموعد المبدئي المحدد للافتتاح كان قد مضى وتجاوزته الأيام. فحدد موعد جديد، *لا يمكن تأجيله هذه المرة*، في الثامن من نيسان (أبريل) 1888. وعلى الرغم من حسمية القرار، فقد جرت محاولة أخرى لتأجيله ولكنها لم تفلح: فقد كانت باريس تعد العدة لمعرضها في العام 89، والتوافق مع باريس سيعني الانتحار. فترت الحماسة التي كانت تطغى من قبل على الصحافة البرشلونية؛ وصارت التهجمات تزداد الآن. *نقول إنه ربما كان من المناسب أن توظف كل تلك الجهود وتلك الأموال في امور اكثر ضرورة والحاحاً، والا تبدد في منشآت عامة باذخة ذات تأثير آني ومنفعة زائلة، إن وجدت*. هذا ما استخلصته بعض

الصحف. وقالت بعضها ذلك بعبارات أشد قسوة: *Per qualsevol que coneixi la matéria, és clar I evident com la llum del dia que l'Eposició Universal de Barcelona tal I como la projecten els que s'has col-locat al front d'ella, o no arribará a realitzar-se o es fará en tals condicione, que posará en ridícul a Barcelona en particular I a Catalunya en general, produint la rüina completa del nostre Municipi.*[1]، إلى آخره. في ظل هذه الظروف زار ريوس إي تاوليت موقع العمل. ذهب برفقة عدد كبير من الشخصيات؛ وجميعهم كانوا يفعلون ما يستطيعون عمله: يقفزون من لوح خشبي إلى آخر، يتخطون حفراً، ويتجنبون أسلاكاً، ويبتعدون بأجسادهم عن البغال التي تفتح أفواهها لتقضم أذيال ستراتهم. وكانوا يحمون أفواههم من الغبار بقبعاتهم. فكان المشهد ممتعاً للعمدة النشيط، فقال: **لن أكون سعيداً قبل أن أصاب بالدوار.**

كان أونوفري بوفيلا قد تقدم أيضاً. فلكثرة ما اضطر إلى شرح مضمون النشرات التي يوزعها، توصل هو نفسه إلى الفهم؛ واستطاع أن يتبين إلى أي حد كان الثوريون محقين في مطالبهم. فأي شرارة كانت تبدو كافية لإشعال الحريق. وكان يتكلم عن كل هذا مستخدماً المنطق أحياناً والديماغوجية في أحيان أخرى. وقد ساعده بعض مستمعيه، المقتنعين، على الترويج للفكرة. وما ساعد في إعطاء دفعة لانتشار الفكرة: العواصف التي حولت في أوائل أيلول (سبتمبر) الحديقة إلى مخاضة من الوحل، وظهور بعض الإصابات بالتيفوئيد، فضلاً عن التأخر في دفع الأجور بسبب تباطؤ مدريد في تحويل الإعانات الهزيلة التي قدمتها الحكومة أخيراً للمعرض. أونوفري نفسه فوجئ بنجاحه. وكان يفكر: فأنا في نهاية المطاف ما أزال في الثالثة عشرة من

[1] النص بالكتلانية في الأصل: وأي شخص يعرف الموضوع، سيكون واضحاً وجلياً له كضوء النهار أن المعرض الدولي في برشلونة كما خطط له من نصّبوا أنفسهم مشرفين عليه، إما أنه لن يتحقق، وإما أنه سيقام في ظروف تجعل من برشلونة بخاصة، وكتالونيا بعامة، أضحوكة للجميع، وتوقع بلديتنا في إفلاس كامل.

عمري. وسمع بابلو لنفسه بواحدة من ابتساماته القليلة، وقال له: في الأزمنة الأولى للمسيحية، كان الأحداث يتمكنون من تحويل الناس إلى الدين الجديد أكثر من الراشدين، والقديسة إنيس كانت في مثل عمرك، ثلاث عشرة سنة، عندما قُتلت بحد السيف؛ والقديس فيتو استشهد وهو في الثانية عشرة. ثم أضاف: والأكثر غرابة من ذلك هو حالة القديس كيرزي، ابن القديسة جوليتا: ففي الثالثة من عمره أسكت ببلاغته القاضي أليخاندرو، ونتيجة لذلك ألقى هذا الأخير بالطفل على درجات القاعة بقوة هشمت رأسه، فخرج دماغه من جمجمته وتناثر على الأرض وفوق منضدة المحكمة.

– ومن أين تعرف أنت هذه الأمور؟ – سأله أونوفري.

– إنني أقرؤها. وماذا سأفعل وأنا محبوس في هذا القفص سوى القراءة؟ بالقراءة والتفكير أقتل الساعات والأيام. في بعض الأحيان تحرز أفكاري قوة تجعلني أنا نفسي أشعر بالخوف. وفي أحيان أخرى يتملكني الغم دون مسوّغ، أشعر وكأنني محشور في حلم أستيقظ منه مفعماً بالقلق. وفي مرات أخرى أنفجر بالبكاء دون سبب أو مبرر، وقد يستمر هذا البكاء عدة ساعات، دون أن أتمكن من كبحه، قال الداعية الثوري ذلك، ولكن أونوفري لم يكن يصغي إليه، لأنه كان بدوره فريسة قلق عظيم.

الفصل الثاني

– 1 –

لا يمكن أن يكون ما بي هو ذلك الشيء الذي يسميه الآخرون الحب، ومع ذلك، ما الذي أصابني؟ كان يتساءل. فطوال صيف 1878 وشطر لا بأس به من الخريف، كان الهاجس الذي تثيره فيه ديلفينا في ازدياد. لم يعد إلى تبادل كلمتين معها منذ تلك الليلة التي حضرت فيها إلى غرفته ومعها الهر، لتقترح عليه العمل في سبيل «**الفكرة**»؛ ومنذ ذلك الحين، يكادان لا يتبادلان أكثر من نظرة امتنان، أو إيماءة عندما يلتقيان في ممرات النزل. وفي كل يوم جمعة، يجد النقود على السرير؛ وهي نقود صارت تبدو له الآن قليلة بالمقارنة مع جهوده ونجاحاته، ومع جدارته. تلك المحادثة الليلية على ضوء الشمعة هي الشيء الوحيد الذي يملكه منها؛ وهو الآن يحلل الآن بتمعن، ومرة بعد أخرى، العبارات التي تلفظت بها، ويفعل ذلك بصورة منهجية، محاولاً أن يستخلص معلومات منها، وأن ينتزع معاني محتملة. الواقع أن ذلك كله يحدث في مخيلته فقط؛ لا شيء مما يعتقد أنه يتذكره قد حدث فعلاً؛ فهو يبني قلاعاً بالانطلاق من نتف ذكريات. من المحتمل أنه يمر بتجربة تفتح الحياة الجنسية، ولكنه لا يعرف ذلك: كان يحاول فهم كل شيء بالعقل؛ معتقداً أنه يستطيع بالتفكير أن يحل أي مشكلة. وها هو يدرك الآن أنه لا يصل إلى أي حل. ويتساءل: ما العمل؟ إنه متأكد من شيء واحد: لقد قالت له إن لديها خطيباً، وكان ذلك بالنسبة له مثل جرح. لم يكن يفكر إلا في تدميره. ولكن ذلك يتطلب منه أن يتقصى عما هو أكثر مما يعرفه: فمن هو ذلك الخطيب، أين ومتى يلتقيان، ما الذي يفعلانه عندما يكونان معاً، وغيرها من الأسئلة. ومن خلال الروتين الثابت لحياة النزل وواقع أن والدي ديلفينا لا يعرفان شيئاً عن مغامرات ابنتهما، استنتج أن الخطيبين يلتقيان في أوقات غير عادية، ربما في الليل. لقد كان حدوث ذلك أمراً استثنائياً في ذلك العصر. فحتى وقت متقدم من القرن العشرين، وباستثناء حالات معدودة، كان

كل نشاط يتوقف بعد وقت قصير من غياب الشمس؛ وما لا يتوقف يُعدّ غير نظامي ومشبوهاً سلفاً، دون الخوف من الوقوع في التجني. فالليل في المخيلة الشعبية مسكون بالأشباح ومزروع بالمخاطر؛ وأي عمل يُنجز على ضوء شمعة يكتسب صبغة مثيرة وغامضة. وكان يسود الاعتقاد بأن الليل كائن حي، وأن لديه القدرة العجيبة على اجتذاب الناس، وأن من يتوغل في الليل دون وجهة لا يرجع منه أبداً. وكان الليل يقارن من كل النواحي بالموت، والفجر بالانبعاث. ونور الكهرباء الذي كان مقدراً له أن يقضي على الظلام في المدن إلى الأبد، كان ما يزال في مهده، وكان استخدامه يستثير كل أنواع التحفظات. فقد جاء في مجلة صادرة سنة 1886: *لا ينبغي للنور الاصطناعي أن يبهر البصر أو أن يتذبذب، بل يجب أن يكون وفيراً دون أن يُسخّن العين. ويجب عدم استخدام الأنوار الساطعة مطلقاً ما لم تكن محجوبة بساتر من زجاج مطحون، بسبب تركز الضوء في السلك المقاوم.* وعلى خلاف ذلك، تؤكد صحيفة أخرى صادرة في برشلونة في السنة نفسها أن *نور الكهرباء، على حد قول طبيب العيون اللامع، البروفيسور تشون دي بريسلاو، سيكون المفضل على أي ضوء آخر من أجل القراءة والكتابة، إذا ما كان مستقراً ووافراً*. ولكن هذا كله لم يكن يهم أونوفري بعد. فقد كان يتخيل ديلفينا تغوص في أشد ظلمات الليل حلكة وهي تسعى إلى حبيبها، متحولة إلى كائن مخيف وجذاب في الوقت نفسه. طبعها المتكتم، بشرتها الحرذونية، حدقتاها البارزتان، شعرها المشعث والوسخ مثل مكنسةِ منظف مداخن، وملابسها الرثة والغريبة، تحولها خلال النهار إلى مسخ مضحك، وتتحول في رقية الظلمات إلى علامات حضور شبحي. وفي إصراره على مفاجأة العاشقين السريين، قرر قضاء الليالي ساهراً لهذا الهدف. وصار منذ ذلك الحين، عندما تهدأ آخر الأصوات في النزل ويذوي ضوء آخر قنديل، يخرج من غرفته ويربض متربصاً عند بسطة الدرَج. وكان يفكر: إذا ما خرجت من غرفتها فلا بد لها من أن تمر من هنا، ستمر من أمامي دون أن تراني، وهكذا سأتمكن من مراقبتها ومعرفة إلى أين تذهب ولماذا. تحولت ليالي السهر إلى أمر اعتيادي ومتواصل بالنسبة له. وكانت ساعات كنائس «بريسنتاثيون» و«سان إثيكيل»، و«سيدتنا عذراء الذكريات» تفرط الوقت ساعة فساعة

بتباطؤ يبعث على القنوط. لم يكن هناك ما يعكر سكون النزل. ففي الساعة الثانية فجراً على وجه التقريب يخرج الأب بيثانسيو من غرفته ليذهب إلى المرحاض. ثم يرجع بعد دقائق قليلة، وسرعان ما يُسمع شخيره. وفي الساعة الثالثة تبدأ ميكائيلا بالتكلم وحدها أو مع الأرواح؛ ويتواصل ترتيلها حتى بزوغ الفجر. وفي الساعة الرابعة، ثم في الساعة الخامسة والنصف، يعود الخوري لزيارة المرحاض. أما الحلاق فينام بصمت. وكان أونوفري بوفيلا يسجل، من مخبئه، تلك التفاصيل الصغيرة في ذاكرته. ففي ضجره ذاك، كان يمكن لأي تفصيل تافه أن يبدو له على قدر كبير من الأهمية. وكان أكثر ما يقلقه هو الهر، بعلزيول الغدار؛ ومجرد التفكير بأنه يتجول في البيت بحثاً عن فئران أو أن ديلفينا تأخذه معها في مغامراتها الليلية، كان يملؤه بالرعب. وبينما كان الليل يمضي، يستغرق هو في التفكير في طريقة مضمونة يتخلص بها من الهر دون أن يثير الشبهات. فيباغته الفجر وهو مستغرق في هذه التأملات، معانياً الخدر، والتعب وتعكر المزاج. فيعود إلى غرفته قبل أن يستيقظ الآخرون، ويتناول رزمة النشرات ويخرج متوجهاً إلى المعرض الدولي. كان يقول لنفسه: سأعود هذه الليلة إلى التربص في المكان نفسه، وسأعود كل ليلة على مدار السنة إذا اقتضى الأمر. ثم يغلبه الإنهاك بعد ذلك، فتُغمض عيناه وهو في ذروة ترصده، ويترنح رأسه بصورة لاإرادية.

أيقظه فجأة حفيفٌ صادر عن احتكاك أقمشة، حبس أنفاسه وسمع وقع أقدام تنزل الدرج بحذر، ففكر: ها هي ذي أخيراً. وبينما هو يقرفص عند حافة الدرج، أحس بمرور جسد على بُعد سنتيمترات قليلة من وجهه. ملأته بالاضطراب رائحة عطر كثيف، لم يفكر قط بأنه يمكن لديلفينا أن تنساق إلى مثل هذا التغنج، وأن تتجمل للذهاب إلى لقاء رجل، وقال في سره: لقد فعلت ذلك من أجله. وفكر: هذا هو الحب إذن. انتظر نحو ثانيتين وبدأ النزول؛ لم تكن خطوات المطارِد والمطارَدة تكاد تُصدر صوتاً على درجات الرخام الاصطناعي. وفكر بأقصى ما يمكن من الحذر بأنه إذا ما توقفت لأي سبب فسوف يحدث لقاء كارثي بينهما. لاحظ أن المسافة التي تفصل بينهما آخذة بالاتساع. فقال لنفسه: إذا استمر الأمر على هذه الحال فسوف أضيعها. ثم فكر: إنها تعرف البيت شبراً شبراً وقد قامت بهذا المشوار آلاف

المرات، أما أنا فإنني أحمق إلى حد لم يخطر لي معه أن أحتاط وأعدَ درجات السلم في كل طابق. وكان كلما وصل إلى بسطة في الدرج يجازف بتعرض أحد مفاصله للالتواء. ولاضطرابه بسبب هذه المشكلات التي لم يحسب لها حساباً من قبل، فقد الإحساس بالمكان والزمان: لم يعد يعرف إذا ما صار في الطابق الأرضي أم أنه في الطابق الأول، وإذا ما كان قد مضى عليه بضع لحظات أم ساعة في تلك المطاردة المجنونة. سمع صرير مفصلات الباب المؤدي إلى الشارع، فقال: يا للسماء، لقد أفلتت مني حقاً، وأنهى نزول الدرجات بأقصى سرعة؛ تعثر عندما وصل إلى البهو واصطدمت ركبته ببلاط الأرضية، ولكنه واصل المطاردة وهو يعرج. لم يكن ثمة قمر، وكان الشارع غارقاً في ظلمة مثل تلك التي في داخل النزل. وفي الفضاء المفتوح، تبددت رائحة العطر بعد خطوات قليلة. مشى حتى التقاطع الأول، ونظر إلى اليمين وإلى اليسار. كانت الريح الشرقية الرطبة تهب بشدة. ولم يعد يُسمع هناك أي صوت. مشى متسكعاً لوقت قصير إلى أن أقر بأن المطاردة قد أخفقت ورجع إلى النزل. وهناك احتل موقع مراقبته من جديد، ولكن الرطوبة كانت قد تغلغلت حتى عظامه، وبدأ يرتجف. قال لنفسه: كل هذا الذي أفعله لا معنى له. كان يبذل جهده لكي يكبح عطاسه؛ فلو عطس لكشف وجوده هناك.

أحس بأن قواه لم تعد تساعده على مواصلة الانتظار؛ فرجع إلى غرفته واندس في الفراش. لقد بدأ يشعر الآن بالشفقة على نفسه، وفكر: لقد ضللتني، وهي الآن بين ذراعي آخر وكلاهما يسخر مني؛ بينما أنا هنا، في الفراش، أرقد مريضاً. لا بد أنه نام، لأنه عندما فتح عينيه كان هناك رجل، هويته ليست مجهولة لديه، يتفحصه بتمعن. وسمعه يقول: لم يمت منذ وقت طويل. وكان واضحاً أنه يعنيه هو بالذات. وواصل ذلك الرجل قائلاً: رائحته لم تفح بعد، ومفاصله ما زالت تحتفظ بمرونتها. كان قنديل الزيت الذي يضيء المشهد يتلألأ على عدستي نظارته ويعملق ظله على الجدار. وقال أونوفري لنفسه: لقد عرفته الآن، ولكن ما الذي يفعله هنا ومع من يتكلم؟ فخرج أبو أونوفري من منطقة الظلمة، كما لو أنه يريد الرد على ذلك التساؤل بتجسيد حضوره، واقترب من الرجل ذي النظارة، وسأله: هل تظن

انه سيتحسن؟ كان يرتدي بدلة الكتان البيضاء نفسها، ولكنه كان قد خلع قبعة القش احتراماً لمهابة المناسبة. ورد الرجل: لا تقلق يا سيد بوفيلا، فعندما نسلمك إياه سيكون كما لو أنك لم تفقده أبداً بالفعل. فقال أونوفري لنفسه: إنني أحلم دون شك. ففي وقت سابق كان قد عاش مشهداً مماثلاً: في صباح يوم شتائي، وجدوا القرد الذي أحضره أبوه من كوبا ميتاً. كانت أمه هي أول من يستيقظ دوماً، وكانت هي من اكتشفت الجثة متكورة على نفسها في القفص.

لم تشعر يوماً بأي ميل نحو ذلك الحيوان القذر، المهووس، وخبيث النوايا، الذي لا يبدو عليه أنه يشعر بأي محبة تجاه الأشخاص الذين يطعمونه، ولكنها حين رأته ميتاً لم تستطع كبح نوبة إحساس بالشفقة عليه، فذرفت بعض الدموع. وفكرت: يأتي ليموت هنا، بعيداً جداً عن معشره، يا للعزلة! ووجدها زوجها أسيرة السخط. وقد قالت له: أنتَ المذنب في هذا، لأنك انتزعته من موطنه. فلسبب ما وضعه ربنا هناك. ولا أدري إلى أين سيؤدي بنا كل هذا الاندفاع وكل هذا الطمع، أضافت ذلك دون أن تكون قد فكرت فيه. كان أونوفري قد استيقظ وراح يستمع إلى هذا الحديث بين أبويه. وقد قال الأمريكي معترضاً: لا يمكنك أن تعرفي ما الذي كان سيحل به لو لم أحضره معي. ثم هتف بعد ذلك: لدي فكرة! وبعد أن استنفد كل منهما ما لديه من الحجج، توجه إلى أونوفري للمرة الأولى، وقال له: هل ترغب يا أونوفري في التعرف على باسورا؟ كان جوان بوفيلا يكثر من التردد على باسورا؛ وكان الجميع يقولون إنه يستثمر هناك جزءاً من ثروته، وإنه أودع الباقي في مصارف تلك المدينة. وكلما ذهب كان غيابه يستمر ثلاثة أو أربعة أيام؛ وعندما يعود لا يقول شيئاً عما كان يفعله أو عما رآه، أو عن سير الصفقات التي ذهب ليتفقدها. في بعض المرات، وليس في جميعها، كان يجلب معه بعض الهدايا التافهة: بعض الشرائط، بعض الحلوى، قطعة صابون معطرة أو مجلة مصورة. وفي مرات أخرى كان يعود جذلاً جداً، فلا يقدم سبباً لحماسه، ولكنه يبدو أثناء العشاء أكثر ميلاً إلى الثرثرة من المعتاد. ويقول عندئذ لامرأته إنهما سيقومان بالرحلة معاً، ثم يذهبان بعد ذلك، وقبل عودتهما إلى البيت، إلى برشلونة أو إلى باريس. ولكن هذه الوعود

التي يقدمها بتفخيم شديد، تتحول إلى لاشيء فيما بعد. أما في تلك المناسبة، وبسبب موت القرد، فقد ذهب أونوفري وأبوه معاً إلى باسورا. كان الوقت ما يزال بداية الشتاء، وكان الطريق سالكاً، ولكن الظلام كان قد بدأ يخيم عندما وصلا إلى المدينة. وحين صارا هناك ذهبا أولاً إلى مشغل مُحنِّط للحيوانات أعطاهما عنوانه شرطي بلدي. كانا يضعان جثة القرد في صرة أثارت اهتمام المُحنِّط المهني. «لم يسبق لي أن حنطتُ قرداً من قبل»، قال ذلك وهو يجس بيديه الخبيرتين جسد الحيوان الذي فارقته الحياة. كانت تسود المشغل عتمة خفيفة؛ وهناك كانت عدة حيوانات مصفوفة بجانب الجدار، كل واحد منها في مرحلة مختلفة من مراحل التحنيط: فأحدها انتُزعت عيناه، وغيره على الهيكل، وآخر ينقصه الريش؛ ومعظمها يظهر من شق في بطونها مسند من قصب مجدول يحل محل الهيكل العظمي؛ ومن خلال ذلك المسند القصبي تظهر أطراف عيدان من القش ونسالات من القطن. اعتذر المحنِّط لقلة الضوء، وقال لهما إنه من الضروري سدُّ كل الفتحات جيداً لمنع دخول الذباب والعث. وعند وداع المحنِّط للانصراف، دفع له الأمريكي مبلغاً من المال كعربون، فأعطاه المحنط بدوره إيصالاً بالمبلغ. ونبهه إلى أنه لن يتمكن من إنجاز العمل قبل عيد الغطاس. وقال لهما: إننا في أوج موسم الصيد، وقد شاعت الآن بين الناس عادة تحنيط الحيوانات التي يصطادونها ليزينوا بها قاعات الطعام والصالونات وغرف المعيشة. وأوضح: باسورا مدينة مرهفة الأذواق. وبينما كان يقول هذه الأشياء، أراد أونوفري أن يرى جسد القرد مرة أخرى. كانت المنضدة التي سجي عليها تعبق برائحة المعقمات. كان القرد يبدو وكأنه قد تقلص وهو مطروح على ظهره، وذراعاه وقائمتاه متشنجة، وكان تيار هواء رطب يُموِّج الشعر الرمادي الذي على قائمتي الحيوان المسكين. هيا يا أونوفري، قال له أبوه. ولدى خروجهما إلى الشارع، كان الظلام قد خيَّم، وكانت السماء حمراء مثل القبة السماوية للجحيم كما هي في رسوم كتاب ديني أراه إياه الكاهن في بعض المرات ليبث فيه مخافة الله القدسية. فأوضح له أبوه: أفران صهر الحديد تُحدث الآن مثل ذلك الوهج. وقال الأمريكي له: هذا هو التقدم يا بني. وأضاف أنه رأى مدناً في أمريكا لا يتيح دخان مداخن المصانع نفاذ ضوء

الشمس إليها مطلقاً. كان أونوفري بوفيلا قد أتم لتوه اثنتي عشرة سنة من العمر عندما أخذه أبوه إلى باسورا على إثر موت القرد. وقد ذهبا للتجول في مركز المدينة. ومشيا هناك في شوارع مضاءة بفوانيس الغاز، تجوبها جماعات من العمال الغادين والقادمين من منازلهم إلى المصانع. في تلك اللحظة كانت تدوي صفارات المعامل معلنة تبديل ورديات العمال. وفي وسط أحد الشوارع كان يمر قطار على سكة ضيقة؛ وكانت القاطرة تطلق حمماً في الهواء، فتسقط تلك الحمم بعد ذلك على المارة وتلطخ جدران الأبنية بالسواد. كانت وجوه الناس ملوثة بهباب الفحم. وكانت تجوب الشوارع دراجات، وبعض عربات الركاب، والكثير من عربات نقل الأحمال تجرها أحصنة هجينة قوية وهي تلهث. كانت الإنارة في الشارع الرئيسي أكثر حيوية والمشاة فيها أفضل ملبساً. وجميعهم تقريباً من الرجال؛ فموعد التنزه قد انقضى والنساء انسحبن إلى بيوتهن. كانت الأرصفة ضيقة: فالمطاعم والمقاهي اجتاحتها بشرفاتها الزجاجية المغلقة، ومن خلال زجاج تلك الشرفات يمكن تمييز أشباح روادها، وسماع صخب زبائنها. دخل أونوفري وأبوه أحد محلات المأكولات. وانتبه أونوفري هناك إلى أن الناس ينظرون باستهزاء إلى الأمريكي: فبدلة الكتان البيضاء، وقبعة القش، والمعطف الذي يحتمي به من البرد، كانت تشد الأنظار بقوة في تلك المدينة الداخلية في عز الشتاء. تظاهر الأمريكي بلا مبالاة بدا معها أنه أعمى. وراح يتفحص قائمة الطعام وهو مقطب الجبين وقد عقد الفوطة حول عنقه. طلب حساء معجنات، وسمكاً بالفرن، وإوزاً بالأجاص، وسلطة، وفواكه وحلوى بالكريما. كان أونوفري مذهولاً: فهو لم يتذوق مثل تلك اللذائذ من قبل. ولكن هذه الذكريات تثقل عليه الآن متحولة إلى كابوس استيقظ منه مستحماً بالعرق. لم يدر للوهلة الأولى أين هو، واستولى عليه خوف لا تفسير له. ثم تعرف بعد ذلك على غرفته في النزل، وسمع دقات ساعة كنيسة بريسينتاثيون؛ فأعادت إليه هذه التفاصيل المألوفة الطمأنينة. لم يعد الحلم بالمحنط هو الذي يقلقه، وإنما فكرة غائمة: فكرة أنه كان ضحية خدعة. وكانت هذه الفكرة تحوم في رأسه دون أن يتمكن من تفسير منشئها ولا سبب إلحاحها عليه. كان يراجع أحداث تلك الليلة مرة بعد أخرى، وفي كل مرة تتجذر الفكرة أكثر

فأكثر في وعيه. كان يقول: يمكنني أن أقسم إنني كنت شاهداً على واحد من هروبات ديلفينا، ومع ذلك، هناك شيء في هذا كله لا يستقيم، فإما أنني أخطأت كثيراً وإما أنه توجد هنا أسرار أكثر مما كنت أتصوره. كان راغباً في تحليل الوقائع ببرود أعصاب، ولكن رأسه يلف، وصدغيه ينبضان بقوة، وسرعان ما يختنق من الحر أو يقع ضحية برد جليدي يجعل أسنانه تصطك. وعندما يتمكن من النوم يظهر له المحنّط من جديد، ويستعيد بدقة مؤلمة وقائع تلك الرحلة إلى باسورا. وحين يستيقظ يستغرق مرة أخرى في الحدث الليلي الذي عاشه للتو. يبدو أن هناك علاقة ما تربط بين الحدثين. ما الذي حدث آنذاك؟ هكذا يتساءل أونوفري الآن، ماذا حدث آنذاك ويمكنه أن يقدم لي مفتاحاً لفهم ما حدث هذه الليلة؟ كانت هذه التساؤلات تحرمه من الراحة، فيقول: سأفكر في ذلك غداً، عندما يكون ذهني صافياً. ولكن الذهن يلح بعناد على تلك المهمة العقيمة والمنهكة؛ وكانت كل ساعة تمر تشكل عذاباً بلا نهاية.

- لا تخف يا بني، إنني أنا- قال الصوت الذي كان قد سمعه في الحلم. استيقظ أو ظن أنه استيقظ ورأى على بعد شبر من وجهه، وجهاً مجهولاً يتمعن فيه بجزع. كان سيصرخ لو لم يمنعه الوهن من ذلك. قطّب المجهول ملامح وجهه وواصل الكلام بعذوبة، كما لو أنه يتوجه إلى طفل أو إلى كلب صغير:- خذ، اشرب هذا، إنه مغلى فيه كينا؛ يخفض الحرارة، وسيجعلك تشعر بالتحسن.- وقرب من شفتيه فنجاناً يتصاعد منه البخار، فشرب أونوفري بنهم. «بهدوء، اشربه بهدوء يا فتى، وإلا ستغص به». وفي أثناء ذلك كان أونوفري قد تعرف على الأب بيثانسيو. وعندما لاحظ هذا الأخير أن المريض بدأ يسترد وعيه شيئاً فشيئاً، أضاف:- أنت محموم جداً، ولكنني لا أظن الأمر خطيراً. لقد كنتَ تعمل كثيراً وتنام قليلاً في الفترة الأخيرة، وأسوأ ما في الأمر أنك أصبت بعدوى زكام حاد، ولكن لا تقلق. الأمراض هي تعبير عن إرادة الله يجب أن نتلقاها بصبر، بل بامتنان، لأن ذلك كما لو أن الرب نفسه يكلمنا من خلال أفواه جراثيمه ليلقننا درساً في الخشوع. فأنا نفسي، على الرغم من تمتعي بصحة جيدة، أحمد الله عليها، فإنني مملوء

بالتوعكات، مثلما تفرضه علي سني: فكل ليلة أخرج إلى الحمام ثلاث أو أربع مرات لأُريح مثانتي التي لم أعد أتحكم بها، كما أنني أجد صعوبة كبيرة في هضم النشويات، وعندما يتبدل الطقس تداهمني آلام الفقرات. ها أنت ترى.

– كم الساعة؟ سأله أونوفري.

– إنها الخامسة والنصف تقريباً. – ردّ عليه الخوري، ثم أضاف وهو يرى أونوفري يحاول النهوض:–إيه، ماذا تفعل؟

– عليّ أن أذهب إلى المعرض. – أجابه أونوفري.

– انسَ المعرض. عليه أن يسير من دونك – قال الأب بيثانسيو – فأنت لست في حال تسمح لك بالنهوض، ناهيك عن الخروج. ثم إن الساعة ليست الخامسة والنصف صباحاً، وإنما مساءً. لقد أمضيتَ النهار كله وأنت تهذي وتتكلم في نومك.

فهتف أونوفري مذعوراً:

– كنت أتكلم؟ وما الذي كنتُ أقوله يا أبتاه؟

– ما يقال عادة في مثل هذه الحالات يا بني – رد عليه الخوري – لا شيء. أو على الأقل لا شيء مما يمكنني فهمه. نم مطمئناً.

عندما استعاد عافيته وتمكن من العودة إلى المعرض مع حمولته من المنشورات الثورية، بدا له ذلك العالم المعفر والصاخب غريباً، كما لو أنه يعود في الواقع من رحلة طويلة وليس من تغيب استمر يومين. وقال لنفسه: إنني أضيِّع الوقت هنا كأبله. وفكر في التحدث جدياً مع بابلو، والطلب منه أن يكلفوه بمهمة أكثر أهمية، ترفع من مكانته في المراتبية الثورية. ولكنه سرعان ما أدرك أنه لن يكون بمقدور بابلو ولا غيره من أفراد طائفته أن يتفهموا دوافع رغبته. فالقضية التي يدافعون عنها ليست شركة يدخلها المرء ليرتقي فيها: إنها مثل أعلى يجب التضحية في سبيله بكل شيء دون انتظار أي مقابل، دون المطالبة بتعويض أو بشكر. وكان أونوفري بوفيلا يحاكم الأمر عقلانياً: هذه المثالية الظاهرية، هي التي تتيح لهم استخدام الأشخاص دون الالتفات إلى مصالحهم المشروعة، ودون تلبية حاجاتهم الضرورية، فكل شيء يبدو جيداً في نظر أولئك المتعصبين ما دام أداة في خدمة الثورة. ولدى قوله ذلك

أقسم أن يفعل كل ما يمكن عمله من أجل القضاء على الفوضويين عندما تسنح له الفرصة. هذه الكراهية وهذا التعطش إلى الانتقام كانا يمنعانه من رؤية الحد الذي بلغه تأثره بطباع الفوضويين، وإلى أي حد كان متشرباً بها. وبالرغم من أن أهدافه اختلفت في ما بعد كثيراً، إلى حد التناقض، فإنه بقي يشاطر الفوضويين على الدوام الميل إلى الفردية المتطرفة، والإعجاب بالعمل المباشر، وحب المجازفة، والسعي إلى النتائج الفورية والتبسيط. وكانت غريزة القتل لديه قوية مثلما هي عندهم . ولكنه لم يعرف ذلك قطّ. بل كان يعتقد دوماً على العكس من ذلك، أنه عدوهم اللدود. وكان يعلن: إنهم حثالة يدعون إلى العدالة، ولكنهم لا يتورعون بعد ذلك عن تعريضي لكل المخاطر واستغلالي دون أدنى اعتبار؛ آه! كم هم أرباب العمل أكثر عدالة عندما يستغلون العامل دون مواربة، فيدفعون له مقابل عمله، ويتيحون له فرصة الازدهار بقوة المثابرة ويصغون، وإن باستياء، إلى مطالب العمال. وهذا الكلام الأخير كان يقوله لأن الاستياء كان يسود بين البنائين في المعرض. فقد طالبوا بزيادة أجرهم نصف بيزتا يومياً أو أن تخفض ساعة من مدة يوم العمل. فكان رد مجلس الإدارة سلبياً، وتذرع: لقد تم التصديق على الميزانيات، وليس بإمكاننا تعديلها. وكان هذا الرد مستهلكاً. وسرت شائعات عن إضراب أقلق المجلس. لم تكن الأمور على ما يرام: فالأرصدة كانت تتناقص بسرعة لا تتناسب مع تقدم العمل. ومن الثمانية ملايين بيزتا التي تعهدت الحكومة بتقديمها كمساعدة، لم يصل سوى مليونين. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1887 مُنحت بلدية برشلونة صلاحية إصدار سندات دين بقيمة ثلاثة ملايين بيزتا لتغطية العجز في المعرض. وفي تلك الفترة نفسها كان بناء المقهى-المطعم قد أنجز تقريباً؛ وبناء سرايا الصناعة قد قطع شوطاً كبيراً، وبُدئ ببناء ما سيكون قوس النصر. وفي ذلك الشهر بالذات نشرت إحدى صحف برشلونة الخبر التالي: ***لقد عُرض على مجلس إدارة المعرض مشروع مبنى على شكل كنيسة لعرض معروضات لها علاقة بالعبادات الكاثوليكية، يقام في موقع المعرض بالذات. المشروع مصمم بذوق رفيع وهو من إعداد المهندس الباريسي إميل جويف، الذي يعمل لدى شركة شارلوت وشركاه التي ستتحمل النفقات، الخ***. وبعد بضعة أيام من ذلك، ورد هذا الخبر

الآخر:

يمكننا أن نؤكد بصورة قطعية أن الصناعي البرشلوني المعروف دون أونوفري كابا، مُصنّع ومالك براءة اختراع الملح المنقّى الذي يحمل الماركة الصناعية «الابالوما»، يعد العدة لإقامة منشأة ضخمة وطريفة في المنافسة البرشلونية القادمة. وهي عبارة عن مجسم متكامل، من الملح الذي يُنتجه، وبارتفاع عشرة أشبار، لنافورة هرقل القائمة في شارع سان خوان القديم.

في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) انخفضت درجات الحرارة بصورة غير مألوفة. وسادت موجة برد دامت عدة أيام، فكانت نذيراً بالقسوة الرهيبة للشتاء الوشيك. وقد أثر ذلك البرد كثيراً على أونوفري الذي ما يزال ضعيفاً من الحمى، وفي طور النقاهة. وللمرة الأولى منذ قدومه إلى برشلونة أحس بالحنين إلى واديه وجباله. لقد مضت ستة شهور مذ خلّف وراءه ذلك العالم. حالة عدم الاطمئنان الدائم التي تبقيه ديلفينا، دون أن تدري، غارقاً فيها، كانت تضاف إلى هذا القلق. فقال لنفسه: يجب أن أفعل شيئاً، وإلا فإنني سأشنق نفسي على غصن شجرة.

ذهب إلى موقع المعرض مثلما يفعل كل صباح، ومعه رزمة النشرات المعهودة. وكان يحمل فوق ذلك، في هذا اليوم من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، كيساً من الخيش ثقيلاً بعض الشيء. كرّس الساعات الأولى للتجول بين ورش العمل، وتبادل الحديث مع الناس. أبلغوه بمطالب البنائين، وبمشروع الإضراب، وبالخلافات، وقالوا له: سنتصل بالأمور في هذه المرة إلى حلّ مناسب. سنوصل الهر في هذه المرة إلى الماء. وكان يقول للجميع «أجل»، ولكنه بدلاً من التفكير في الإضراب، كان يفكر في هر ديلفينا؛ فكل ما يسمعه أو يراه يدفعه إلى التفكير بها أو بشيء له علاقة بها، كما لو أن تفكيره مرتبط بها بحزام من المطاط، يتمدد حتى حدّ معين ثم يستعيد بعد ذلك شكله الأول. ولكنه يقول دوماً نعم بحركة من رأسه. كان قد اكتسب من قبل هذه العادة، التي لن يفقدها طوال حياته: عادة القول «نعم» دائماً بينما هو يعد العدة في دخيلته لأشد المناورات والخيانات فظاعة. وعندما ارتفعت الشمس وخفت حدة البرد، جمع حشداً من العمال وبدأ يخطب فيهم كما في

كل يوم. كان العمال منهوكين من الجهد الجسدي، وكانت أي وسيلة لإضاعة الوقت تبدو لهم جيدة، فالتفوا من حوله. لا بد له من العمل بسرعة، لأن مراقبي العمال قد يتصورون أنها حركة جماهيرية، ويستدعون الحرس الأهلي.

- ليس هذا هو ما أود أن أحدثكم به اليوم - قال بنبرة صوته المعهودة، كما لو أن الحديث سيتواصل في المنحى الذي كان يمضي فيه، وتابع:- لقد جمعتكم اليوم بالذات لتكونوا شهوداً على اكتشاف مثير يمكن له أن يغير مسار حياتكم مثلما تغيره تصفية كل أشكال الدولة، الذي أشرت إليه منذ أيام، وربما أكثر.

انحنى، فتح الكيس وأخرج منه قارورة صغيرة مملوءة بسائل عكر، عرضها على مستمعيه:

- مقوي الشعر ذو الفعالية المجربة والنتائج المضمونة هذا لن أبيعه ببيزتا، ولا بريال، ولا حتى بريالين، الخ - هكذا كانت بدايته في عالم التجارة والأعمال. بعد سنوات من ذلك، ستهز تقلبات مزاجه أسعار بورصات أوروبا وتجعلها تتأرجح، أما الآن فهو يبيع بضع قوارير مقوٍ للشعر سرقها في الليلة السابقة من خزانة مريانو، حلاق النزل. كان قد استمع إلى الباعة المتجولين والمحتالين الذين يمارسون أعمالهم في ساحة «بوابة السلام»، وهو يحاول الآن محاكاة أسلوبهم. وبعد انتهاء خطبته ساد المكان صمت مطبق. فقال في نفسه: أخشى أن أكون قد مضيتُ بعيداً، وأن أكون قد تجاوزت الحد. لقد قامرت بوسيلة عيشي الوحيدة في ورقة واحدة، وخسرت الرهان؛ فالفوضويون لن يغفروا لي ما فعلته؛ والعمال سيشعرون بأنهم قد أهينوا، وسيحطمون أضلاعي بالركلات؛ وربما يسلمونني إلى الحرس الأهلي وأنتهي سجيناً في قلعة مونتجويك، هكذا كان يفكر في لحظات الصمت تلك. وفجأة ارتفع صوت جهوري بين الجمهور: أنا أريد واحدة! كان المتكلم مارداً ذا تقاطيع مسطحة، وجبهة ضيقة، شق طريقه بمنكبيه؛ وكان يحمل بين أصابعه عشرة سنتات هي قيمة الدواء. تناول أونوفري عشرة السنتات، وأعطى المارد القارورة، ثم سأل إذا كان هناك من يريد واحدة أخرى. فقال كثيرون أجل. وراحوا يقدمون له قطعاً نقدية من فئة العشرة سنتات، وكانوا يتدافعون ويشد

بعضهم بعضاً حتى لا يضيعوا فرصة الحصول على الدواء. وفي أقل من دقيقتين كانت محتويات كيس الخيش قد نفدت. فطلب من المتجمهرين أن يتفرقوا. وكان هو نفسه قدوة في ذلك بذهابه للتواري في الزقاق الذي تشكله الواجهة الغربية للمبنى الذي سيضم متحف مارتوريل، والجدار الذي يفصل الحديقة عن سرايا الصناعة، وهو زقاق ضيق، لا يرتاده أحد. أخرج القطع النقدية من جيبه ونظر إليها بتلذذ. وفي أثناء ذلك رأى ظلاً ينعكس على الجدار. حاول عبثاً أن يدس النقود في جيبه. ولكنه وجد نفسه وجهاً لوجه مع المارد الذي اشترى منه قارورة مقوي الشعر الأولى. وكان ما يزال يحمل القارورة في يده. هل تتذكر من أنا؟ قال المارد. كان حاجباه ولحيته يضفيان عليه مظهراً مرعباً. وكان كثيف الشعر، يلتحم شعر صدره بلحيته تحت ذقنه.

– إنني أتذكرك بالطبع – قال أونوفري – ماذا تريد؟

– اسمي إفرين، إفرين كاستيلس. وأنا من كاليّا. ليس من كاليّا الافوجيل، وإنما من الأخرى، التي على الساحل – قال المارد – إنني أعمل هنا أجيراً منذ شهر ونصف فقط؛ ولهذا لم أرك قبل اليوم قط، وأنت أيضاً لم ترني؛ ولكنني أعرف من تكون. لقد لحقت بك لأطلب منك أن تعطيني بيزتتين.

فقال أونوفري وهو يحاول إظهار دهشة البراءة:

– ولماذا عليّ أن أعطيك إياهما، إذا كان لي أن أعرف؟

– لأنكَ كسبت أربع بيزتات بفضلي. فلو لم أشتر منك القارورة الأولى، لما استطعتَ أن تبيع شيئاً. إنك تتكلم جيداً، ولكن ذلك لا يكفي. أنا أعرف، لأن جدي لأمي كان تاجر خيول. هيا، أعطني البيزتتين، وسنكون شريكين. أنت تتكلم وأنا أشتري منك. وهكذا نشجع الزبائن. فتتكلم أنت لوقت أقصر، ويكون تعبك أقل، ولا تعرض نفسك للخطر. وإذا وقعت أي مشكلة، يمكنني الدفاع عنك؛ فأنا قوي جداً: يمكنني أن أهشم رأس أي شخص بضربة من قبضتي.

بقي أونوفري يحدق في المارد؛ أعجبته ملامحه. من الواضح أنه نزيه. كان مستعداً للاكتفاء بما طلبه، ولكنه مستعد كذلك لتحطيم رأسه. فقال

لنفسه إنه قوي جداً بالفعل. وقال له: ما لا أفهمه هو لماذا لا تنتزع مني البيزتات الأربع بدلاً من أن تقدم لي هذه التفسيرات. ثم أضاف: هنا لن يرانا أحد، وأنا لا يمكنني أن أشكوك إلى الشرطة حتى لو أردتُ ذلك. فانفجر المارد في الضحك.

- أنت ذكي جداً - قال بعد أن توقف عن الضحك - هذا الذي قلته يدل على مدى ذكائك. أما أنا فإنني قوي بقدر ما أنا أبله، فمهما أعملت تفكيري، لا أتوصل إلى أي شيء أبداً. وإذا ما سرقت منك الآن البيزتات الأربع، فلن أكسب سواها: أربع بيزتات. ولهذا فكرت على هذا النحو: أنت ستصير ذا شأن، وأنا أريد أن أكون شريكك وأن تعطيني نصف ما تكسبه.

فقال أونوفري للمارد الذي من كاليّا:

- انتبه، وإليك ما سنفعله: أنت ستساعدني في بيع مقوي الشعر وأنا سأعطيك عن كل يوم عمل بيزتا واحدة، سواء كسبت كثيراً أو قليلاً. وحتى لو لم أكسب شيئاً. أما عما سنفعله في المستقبل، فسوف نتكلم فيه عندما تحين الفرصة. هل توافق؟

فكر المارد هنيهة وقال إنه موافق. وصفقة مبرمة، قال ذلك لأونوفري، ثم اعترف له بأنه أحمق، وبأنه لم يفهم جيداً عرض أونوفري، وإن كان مقتنعاً بأن أونوفري قد خدعه بمهارته الفطرية. وقال: ولكن لا جدوى من المقاومة. فأنا أعرف محدودية إمكاناتي جيداً. تصافحا وتوافقا هناك بالذات على شراكة ستستمر لعدة عقود. وقد مات إفرين كاستيلس سنة 1943 بعد أن شرَّفه الجنراليسمو فرانكو بلقب مركيز مكافأة له على خدماته التي قدمها للوطن. وعلى الرغم من التدهور الجسدي الذي أصابه بفعل التقدم في السن والمرض، فقد بقي مارداً حتى موته، وكان لا بد من صنع تابوت على مقاسه. خلّف ثروة معتبرة من الأسهم والعقارات ومجموعة ثمينة جداً من لوحات الرسم الكتلاني؛ وقد تبرع بهذه المجموعة إلى متحف الفن الحديث الذي أقيم في تلك الفترة في ترسانة القلعة القديمة. هذا البناء الذي جرى ترميمه وتجميله بمناسبة المعرض الدولي في عام 1888 تحديداً، كان على بعد أمتار قليلة من المكان الذي عقد فيه أول اتفاق له مع الشخص الذي سيكرس له حياةً كاملةً من الولاء الأعمى، والذي سيصل في ظله إلى الثراء ولقب المركيز والجريمة.

في ذلك اليوم، وبينما هو عائد إلى النزل، اشترى من دكان عقاقير مزيداً من قوارير مقوي الشعر وأعادها دون أن يراه أحد إلى المكان الذي سرقها منه، حيث يضعها الحلاق. كان سعيداً جداً، ولكنه بعد تناول العشاء، وبينما هو وحيد في غرفته، راح يفكر في المكان الذي يمكنه أن يخبئ فيه أرباحه. لقد دهمته الآن دفعة واحدة كل الهموم التي كان عدم وجود المال يستبعدها. لم يعد هناك مكان آمن بما فيه الكفاية.

وأخيراً قرر أن يُبقي النقود معه طوال الوقت. ثم فكر بعد ذلك بإفرين كاستيلس. لقد كان عارضاً طارئاً لم يحسب له حساباً من قبل، ولكن يجب عدم فقدان الأعصاب حيال الوقائع التي لا مضر منها، هكذا قال لنفسه. يمكن للمارد أن يكون مفيداً. وإذا ما حدث العكس، فسيكون هناك متسع على الدوام للتخلص منه. كان قلقه من بابلو أكبر: فعاجلاً أو آجلاً سيصل إلى أسماع الفوضويين خبر التجارة التي يقوم بها في كنف القضية وعلى حسابها. وهو لا يعرف كيف سيكون ردّ فعلهم. ربما سيهجر حينئذ الدعاية الثورية ويتفرغ للبيع كلياً. ولكن، هل سيوافقون هم على هذا التغيير؟ لا؛ فهو يعرف أموراً كثيرة: سيعدونه خائناً وسيلجؤون بالتأكيد إلى العنف. وفكر: المشكلات في كل مكان. تأخر في النوم، واستيقظ عدة مرات تلاحقه أحلام مزعجة. عاد ليرى لنفسه في أحلامه مجدداً في مدينة باسورا مع أبيه.

كان إلحاح هذه الذكرى يفاجئه بعض الشيء وتساءل: لماذا تكتسب تلك الأحداث التافهة كل هذه الأهمية الآن؟ ويحاول مرة أخرى أن يستعيد تفاصيل كل ما جرى يومذاك. فأثناء تناولهما العشاء ظهر في ذلك المطعم السادة الثلاثة الذين من باسورا. وحين رآهم أبوه يدخلون شحب لونه. لقد كانوا أحفاد من بدؤوا التصنيع في كتالونيا في مطلع القرن التاسع عشر. وحوّلوا بجهودهم الجبارة ذلك البلد الريفي الغارق في السبات إلى بلد آخر مزدهر وديناميكي. أما أحفادهم، فلم يكونوا مثلهم، رجال حقل أو ورشة: لقد درسوا في برشلونة، وسافروا إلى مانشستر ليتآلفوا هناك مع آخر تطورات

الصناعة النسيجية، وأقاموا في باريس في سنوات ازدهارها. وتعرفوا في المدينة المتألقة على ما هو في ذروة النُّبل وعلى أحطّ أشكال المجون؛ فقد زاروا هناك مذهولين «قصر العلوم والصناعة» (حيث يمكن رؤية أشد الاختراعات تجاوزاً للمألوف وأكثر التقنيات دقة وتعقيداً، وحيث يُقرأ فوق واجهته بحروف من برونز *Enrichissez-vous* «*اغتنوا*» و«صالون المرفوضين» (حيث يعرض بيسارو، ومانيه، وفانتان-لاتور، وفنانون آخرون، لوحاتهم المكدرة والحسية، المرسومة بذلك الأسلوب الذي سُمّي آنذاك «الانطباعية»)؛ ورأوا هناك أحد أكثر الناس قلقاً وحباً للاطلاع، الدكتور الشاب شاركو، وهو يمارس التنويم المغناطيسي عدة مرات ودون أجهزة، وسمعوا فريدريك أنجلز في الحي اللاتيني وهو يتنبأ بالثورة البروليتارية الوشيكة؛ وشربوا الشمبانيا في أفخر المطاعم والكباريهات، ونبيذ الإبسنت في أشد الأوكار انحطاطاً؛ وبددوا أموالهم دون طائل في ملاحقة المومسات الشهيرات، أولئك «الآفاق العظيمة» اللواتي كان البعض يعدّهن هوية باريس؛ وتنزهوا في ساعة الغسق عبر نهر السين في المركبين الجديدين (**العملاق و السماوي**) وانتشوا من فوق أبراج نوتردام بهواء وضوء المدينة الساحرة التي كثيراً ما كان على آبائهم أن ينتزعوهم منها بالوعود المغرية أو بالوعيد. أما الآن، فلم يبق أي شيء من باريس تلك: فعظمتها نفسها التي استثارت حسد وجشع أمم أخرى؛ والعجرفة غير المحدودة التي زرعت بذرة الحرب؛ والجور والعناد ولّدت كلها الكراهية والشقاق. فكان نابليون الثالث يعيش هرِماً ومريضاً في إنكلترا على إثر الهزيمة المذلة في معركة سيدان، وكانت باريس تستعيد عافيتها بصورة مؤلمة من أحداث الكومونة المأساوية. وبقيت الآن ذكرى باريس، تلك التي لا تستعاد، حيّة في أذهان ممثلي البرجوازية الكبيرة الكتلانية أولئك، المحافظين الطارئين على «الأناقة الرفيعة» للإمبراطورية الثانية.

- يا للعنة يا بوفيلا، أنتَ في هذه الأنحاء، كم هو صغير العالم!- هتف أحد السادة الثلاثة الذين دخلوا إلى المطعم في باسورا حين كانا في منتصف عشائهما، ثم أضاف:- وكيف أحوال الأسرة، هل الجميع بخير؟- وكان السيدان الآخران قد اقتربا من الطاولة وراحا يربتان على كتف الأمريكي، بينما هذا الأخير ينظر بارتباك إلى السادة وإلى ابنه الذي حطّت عليه الآن

نظرات أولئك:- ومن هذا الفتى؟ أهو ابنك؟ كم هو كبير؟ ما اسمك يا فتى؟

- أونوفري بوفيلا، في خدمتكم - قال لهم ذلك. وعندما نهض الأمريكي ليصافحهم انقلب كرسيه على الأرض. ضحكوا جميعهم، وأدرك أونوفري أن أولئك السادة يعتبرون أباه بهلولاً، وشيئاً مضحكاً.

- لقد جئت أنا وابني لإنجاز واجب محزن - قال الأمريكي ذلك، ولكن السادة الثلاثة الذين من باسورا لم يكونوا عندئذ يولونه أي اهتمام. وقالوا:

- حسن، حسن. لا نريد مقاطعتكما. لقد جئنا فقط لنتناول شيئاً ولنواصل الحديث في شؤون العمل. وبعد ملء البطون، سنرجع إلى البيت لنتحمل الأسرة قليلاً. باستثناء هذا، بالطبع - أضاف من كان يتكلم مشيراً إلى أحد مرافقيه:- بما أنه عازب وغير ملتزم، فإنه سيذهب بحثاً عن مناقير رمادية - غطت وجه المعني بهذه الدعابة حمرة خفيفة. كانت ملامحه تكشف عن مزيج غريب من النضارة والانحطاط. يبدو وكأنه ما زال تحت تأثير الكحول والمخدرات التي استهلكها طوال سنوات في قاع باريس، وكما لو أن جسده ما يزال مخدراً بالمداعبات المتصنعة لمومس من هناك. ودّعهما أولئك الرجال قائلين:- شهية طيبة. وواصل الأمريكي تناول عشائه بصمت، فقد تسببوا في تعكير مزاجه بصورة لا يمكن تفسيرها. وعندما خرج مع ابنه من المطعم، كانت تهب ريح جليدية، وكانت تغطي الرصيف طبقة رقيقة من الصقيع تقرقع وتتكسر لدى المشي عليها. أحكم الأمريكي شدّ معطفه. وتمتم: يا لهؤلاء السفلة، يظنون أنني سأخضع لسيطرتهم؛ يعتقدون أنه يمكنهم الاستهزاء بي لأنني من الريف وموجود في ميدانهم. ياه، ما هم إلا أبناء مدينة مدّعون، لا يمكنهم أن يميزوا بين شجرة أجاص ونبتة بندورة! لا تثق أبداً بأهل المدينة يا أونوفري، أضاف ذلك بصوت عالٍ متوجهاً إليه للمرة الأولى منذ دخول السادة الثلاثة الذين قطعوا عليه طعامه. إنهم ليسوا شيئاً يذكر ويظنون أنه لا وجود لمن هو أفضل منهم. كانت أسنانه تصطك من البرد أو من الغضب وهو يمشي بخطوات واسعة، فيضطر أونوفري أحياناً إلى الركض ليمشي بمحاذاته، لأنه يتخلف عنه دون إرادته. سأله: من هم هؤلاء يا أبي؟ فهز الأمريكي كتفيه قائلاً: لا أحد، ثلاثة متغنجين من أبناء المدن. رجال مال. يدعون بالدريش، وفيلاغران، وتابيرا؛ لقد عقدتُ معهم بعض

الصفقات. وبينما هو يتكلم كان يتلفت في كل الاتجاهات، بحثاً عن الفندق الذي حجز فيه غرفة لقضاء تلك الليلة. لم يكن هناك في الشارع في تلك الساعة سوى بعض النساء المنفردات، يبدو الجوع في ملامحهن والشحوب في بشرتهن، يخطرن ويرتجفن وسط دائرة الضوء الباهتة التي تعكسها مصابيح الغاز. ولدى رؤيتهن أمسك الأمريكي بذراع أونوفري وجعله يعبر الشارع. وأخيراً التقيا حارساً ليلياً منتفخ الوجه أخبرهما كيف يمكنهما الوصول إلى الفندق. وقد وصلاه متعبين: فالسير في الشوارع المظلمة ليس مثل السير في الحقول. تخلصا من البرد الذي يخترقهما: كان أنبوب المدفأة المشتعلة في البهو يجوب الغرف من الأسفل إلى أعلى، ناشراً الدفء ودخاناً مائلاً إلى الصفرة يتسرب من وصلات الأنبوب ويخلّف طعماً حريفاً. ومن البهو، أو من منزل مجاور، كانت تصل نغمات بيانو وضجة أصوات مكتومة. وسمعا صفير قطار بعيد. وكان يُسمع وقع حوافر الخيل على حجارة الشارع. اندسا في السرير الفسيح، وأطفأ الأمريكي القنديل. وقبل أن يناما قال له: اسمع يا أونوفري، هناك نساء يقمن بأفعال فظيعة من أجل المال، وقد حان الوقت لأن تعرف ذلك. عندما نأتي في المرة القادمة، سآخذك إلى أحد هذه الأماكن التي أحدثك عنها، ولكن حتى ذلك الحين لا تُخبر أمك بأي شيء قلناه. والآن، نم دون أن تفكر بشيء مما رأيته أو سمعته هذه الليلة.

لقد انقضى الآن أكثر من سنة على ذلك وهو ما زال يفكر بما رآه وسمعه في تلك الليلة، إنه يتذكر بدقة مطلقة وجوه أولئك السادة ويرى نفسه محاصراً بأولئك النساء المخيفات والمجهولات اللواتي تحدث أبوه عنهن، وهن يظهرن له أحياناً الآن في تشوش النوم والصحو، على هيئة ديلفينا. في صباح اليوم التالي كان مستنفداً وقانطاً، ألقى الكيس على كتفه ورجع إلى موقع المعرض. لا يمكنه التراجع الآن: فالضرر قد حصل، قال ذلك لنفسه. ثم إنه إذا لم يعطِ إفرين كاستيلس البيزتا المتفق عليها، فسوف يخاطر بتعريض نفسه لتلقي لكمة قد تكون قاتلة. ومع ذلك، عندما وصل إلى المكان المعهود وبدأ ببيع مقوي الشعر كما في اليوم السابق، استعاد طيب مزاجه. فالأمل بالربح والإحساس بأنه يعمل لحسابه الخاص، ولمنفعته الخاصة، جددا الحماسة فيه.

كانت تجارته رابحة جداً في الأيام التالية بحيث لم يعد هناك ما يهمه إلا معرفة أين يخبئ النقود. فحمل المال معه طوال الوقت يسبب له مخاوف متواصلة: فالحي الذي يتردد عليه يعج باللصوص والمغتصبين. ولم ترد إلى ذهنه فكرة فتح حساب في أحد المصارف، فقد كان يعتقد بأن المصارف لا توافق على إيداع الأموال إلا إذا كانت مكتسبة بصورة شريفة، وهو لا يعتقد أن ما يقوم به عمل شريف. ولكن سيان: لأنه لا يمكن لأي مصرف أن يستجيب لطلبه، بسبب كونه قاصراً. وانتهى به الأمر أخيراً إلى حلّ تقليدي: تخبئة المال في الفراش، ولكن ليس في فراشه، وإنما في فراش الأب بيثانسيو. فالكاهن أفقر من فأر، ولا يمكن لأحد، بمن في ذلك هو نفسه، أن يخامره الشك في أنه ينام على رأسمال. واحتمال أن تفكر ديلفينا بفتق الفراش هو أمر مستحيل، ويمكن استبعاده تماماً. ثم إن الخوري يخرج من المنزل كل صباح في وقت مبكر، ما يتيح الدخول إلى غرفته. وبحل هذه المشكلة، تبقى مشكلة الفوضويين. وأخيراً أتى اليوم الذي كان فيه بابلو ينتظر أونوفري بهياج عظيم. ودون أي إنذار مسبق وجه إليه لكمة قوية. تدحرج أونوفري على الأرض، وانقض عليه الداعية الثوري. كان يحاول ضربه على وجهه وركله بقدميه على أضلاعه. «سافل! جاحد! يهوذا!» كان يصرخ به وهو يحاول ضربه بكل قوته. وكان أونوفري يحتمي من الضربات دون أن يحاول الدفاع عن نفسه، قائلاً له: اهدأ يا بابلو، اهدأ، ما الذي أصابك؟ هل أصابك الجنون؟

فقال بابلو:

– أنت تعرف جيداً ما الذي أصابني أيها النذل؛ أكاد لا أجد الكلمات. قل لي، ما الذي كنت تفعله في هذه الأيام، إيه؟ كنت تبيع مقوِّياً للشعر، أليس كذلك؟ من أجل هذا نحن ندفع لك، صحيح؟

تركه أونوفري ينفّس عن غضبه، ثم بدأ يتكلم بعد ذلك. وانتهى بهما الأمر أخيراً إلى الضحك معاً بغض النظر عن أيديولوجية كل منهما: فكلاهما لا يكن تقديراً عالياً للمجتمع وأفراده؛ وكل خدعة في نظرهما مقبولة، وكل شيء يسوغه أخلاقياً غباء الضحية. فهما يؤمنان بمذهب الذئب. وقد أقنعه أونوفري بعد ذلك بأن بيع مقوي الشعر هو مجرد حيلة

لتضليل الشرطة، وستار للتغطية على نشاطاته الحقيقية. فقد وزع في تلك الشهور من النشرات ما لم يوزعه أي شخص آخر، أليس هذا دليلاً كافياً على إخلاصه للقضية؟ قال له ذلك، ثم سأله: ومن هو في نهاية المطاف من يتعرض لكل المخاطر؟. وانتهى الأمر ببابلو إلى الاعتذار للجوئه إلى العنف منذ البداية. وكرر مرة أخرى: هذا الحبس هنا يسبب لي الجنون. فهو لا يريد فرض رقابته على أنشطة الآخرين، لأن ذلك يبدو له تصرفاً حقيراً. إنه يريد زرع القنابل، ولكنهم لا يسمحون له بذلك. لم يعد أونوفري يصغي إليه: فقد ملّ من شكواه، وكانت هناك موضوعات أخرى تستحوذ على اهتمامه في تلك اللحظات.

منذ اليوم الذي لحق فيه رائحة العطر ووقع خطوات في الشارع ليجد نفسه مُضللاً بسبب الظلام، بدأ يعدّ درجات سلّم النزل ويكرر عدّها، ويحسب الزوايا التي تشكلها بسطات الدرج، ويحفظ عن ظهر قلب العوائق، وسعى إلى اجتياز تلك المسافة مرات كثيرة وهو مغمض العينين. وكان يقول لنفسه: إذا ما عادت ديلفينا للظهور فسوف أتركها تتقدمني لألحق بها بعد ذلك دون خوف. ثم يفكر بعدئذ والقشعريرة تنتابه: على ألا يكون معها هرها اللعين. وكان قد سأل إفرين كاستيلس في إحدى المناسبات كيف يمكنه أن يقتل هراً. فرد عليه المارد: الأمر في منتهى البساطة، تلوي عنقه إلى أن يموت؛ ليس في الأمر أي تعقيد. فلم يعد أونوفري إلى طلب النصح منه بعد ذلك أبداً.

وأخيراً، في أحد الأيام، قبل قليل من عيد الميلاد، عاد لسماع حفيف قماش على بسطة الدرج في الطابق الثاني من النزل ووقع خفيف لخطوات آتية من أعلى. حبس أنفاسه وقال لنفسه: إما الآن أو لا. ترك العطر يمر بجانبه، وانتظر لوقت قدّر أنه مناسب لما يتطلبه الحذر ثم بدأ التحرك. وصل إلى بداية الدرج عندما فتحت المرأة المجهولة الباب المؤدي إلى الشارع. كان هناك قمر في تلك الليلة؛ وظهر شبح امرأة يجتاز فراغ الباب. لم تستمر هذه الرؤيا سوى لحظة قصيرة، ولكنها كانت كافية لأن يلاحظ أونوفري أن هذه التي يتبعها ليست ديلفينا. وعلى الرغم من معرفته ذلك، فقد بذل جهداً أكبر كي لا تضيع عن نظره تلك المرأة التي يرى شبحها المشوش على ضوء

القمر، أو يراها بدقة أكبر عندما تمر قبالة مشكاة، حيث يشتعل هناك على الدوام مصباح زيت يضعه أحد المتدينين تكريماً للعذراء أو لأحد القديسين؛ وكانت تلك هي وسيلة الإنارة الوحيدة في المدينة، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الشوارع الرئيسية. كانت ليلة باردة جداً من ليالي شتاء سنة 1887 الرهيب. وكانت المجهولة تمشي بفرقعة مزهوة من كعبي حذائها. ولم يكن هناك وقع أي أقدام أخرى مترددة لمولع بالمشي ليلاً أو ضربات حربة حارس ليلي على الحجارة المرصوفة تشير إلى وجود أحد في الشوارع المقفرة. وفكر: لا بد أن تكون مجنونة المرأة التي تمضي وحيدة في مثل هذه الساعة. راحا يتوغلان في مكان غريب: أرض منخفضة كانت تفصل في ذلك الزمن سفح الجبل عن السكة الحديد في القطاع المسمى الموروت. كان نصف قطر ذلك القطاع نصف كيلومتر فقط، ويقع جنوب السور القديم. وكان لا بد للوصول إليه من المرور عبر خانق ضيق، طوله مئتا متر، وعرضه متران أو ثلاثة أمتار وارتفاعه ثمانية أمتار، وهو لم يكن ممراً في الواقع، بل مستودعاً هائلاً للفحم المستورد من إنكلترا أو من بلجيكا، تأتي به سفن شحن كبيرة ويكوم في المنخفض بانتظار نقله إلى معامل برشلونة أو محيطها. وكان يُحفظ هناك، بعيداً عن المدينة، لأن مخاطر اشتعاله عالية جداً. أما هنا، بجانب البحر، فمن السهل إخماد الحريق في بدايته، أو محاولة ذلك على الأقل، إذا كانت النار سطحية. أما إذا بدأت النار بالمقابل داخل كومة الفحم، فإنه لا يمكن الانتباه إليها إلا بعد أن تأخذ أبعاداً كارثية. ففي البدء تظهر في بعض المواضع أعمدة دخان نحيلة، ذات لون حليبي، ورائحة لاذعة، تسبب الاختناق المؤكد؛ ثم يشكل ذلك الفوحان سحابة تلف كل شيء، ومسكين كل من يستنشق تلك السحابة؛ وأخيراً يظهر اللهب الذي يمكن تسميته لهباً. وعندئذ يكون الوقت قد فات لمكافحة الحريق. وهو ما يسمونه الحريق المدمر. فألسنة اللهب تتعالى إلى عشرين أو ثلاثين متراً، وتعكس في الفضاء ضوءاً مائلاً إلى الحمرة يمكن رؤيته في الليالي الصافية من تارّاغونا ومن مايوركا. فتسرع السفن المربوطة في المرفأ قرب الرصيف بالابتعاد لتلقي مراسيها في عرض البحر، مفضلة الأمواج العاتية على الحرارة والغازات السامة المنبعثة من ذلك الحريق. ويمكن لهذه الحرائق إذا ما بدأت، وهي قليلة لحسن الحظ،

أن تستمر عدة أسابيع، وتؤدي إلى خسائر جسيمة لا يمكن تقديرها: فهي تصيب جميع النشاطات الصناعية بالشلل، فضلاً عن فقدان كل الفحم المستورد. ولهذا لم تكن الأماكن المجاورة لمستودع الفحم ذاك مكاناً آمناً للعيش فيه. ولهذا أيضاً، برز في الطرف الآخر من ذلك الاختناق حي من نوعية سيئة، بل من أسوأ أحياء برشلونة سمعة. فهناك توجد مسارح تقدم استعراضات داعرة وخالية من الطرافة، وحانات قذرة وصاخبة، ومحلات رديئة المستوى لتدخين الأفيون (أما المحلات الجيدة فهي في المنطقة العالية، بالقرب من بايكاركا)، ومواخير مشؤومة. ولم يكن يذهب إلى هناك إلا حثالة برشلونة وبعض البحارة الذين نزلوا للتو من سفنهم، وغير قليلين منهم لا يعودون إلى الإبحار. ولا يقيم هناك سوى العاهرات، والقوادين، والأوغاد، والمهربين، والمجرمين. ولقاء مبلغ زهيد يمكن التعاقد مع فتوة، أو مع قاتل محترف بمبلغ إضافي بسيط. والشرطة لا تدخل تلك المنطقة إلا في وضح النهار، ومن أجل التفاوض أو اقتراح إحدى المبادلات فقط. فقد كان المكان أشبه بدولة مستقلة، ووصل الأمر بهم هناك إلى إصدار بعض السندات التي يتداولونها كما لو كانت أوراق نقد حقيقية؛ وكان هناك أيضاً قانون خاص، شديد الصرامة؛ يفرض عدالة مقتضبة وفعالة جداً: ولم يكن غريباً أن يُرى هناك، بين وقت وآخر، مشنوق يتأرجح على باب أحد محلات اللهو.

وحين رأى المكان الذي تقوده إليه تلك المجهولة، دون علمها، راح يقول لنفسه: إذا لم تكن هذه الفتاة هي ديلفينا، فماذا يهمني من تكون، ولماذا أحشر نفسي في نفق الفحم هذا حيث يمكن أن يخرج لي أحد الأشرار، فيقتلني ويدفنني هنا دون أن يعلم أحد بذلك، ودون أن ينتبه أحد لموتي؟ فقد كان معروفاً أن قتلى أعمال العنف، ما لم يكن قتلهم من أجل أن يكونوا عبرة للآخرين، فإنهم يُدفنون في كومة الفحم. ويظلون هناك إلى أن تأتي رافعة لتجرف الفحم وتملأ به شاحنة أو عربة. ويحدث أحياناً، بينما أحد الوقادين يغذي موقد المرجل بالفحم، أن يرى ظهور جزمة بين الفحم أو أصابع معقوفة ومتيبسة أو جمجمة تلتصق بقذالها أربع خصلات شعر. فراودته نفسه بالتخلي عن تلك الملاحقة.

ولكنه لم يتراجع، وهكذا وجد نفسه عند مدخل تلك الضاحية سيئة

السمعة؛ حيث الشوارع تشكل تربيعات منتظمة، مثلما يحدث عادة في التجمعات العمرانية البائسة. وعلى وحول الطريق الجافة والمشققة، كان ينام مخمورون تلوثهم فضلاتهم، وتحيط بهم نتناتهم. وكانت تصل من الحانات أصوات جيتارات وأغنيات نشاز. وكانت تلك الأغاني شهوانية، ولكنها تبعث في النفس إحساساً مثقلاً بالخذلان والغم. كما لو أن المغنين يريدون أن يقولوا بصوت مخمور وممزق: كيف إنتهى بي المطاف إلى هذه الحياة؟ لم يكن هذا هو ما حلمت به في طفولتي،... وكان يُسمع كذلك رنين صناجات أصابع ودقّ كعوب وصراخ ودوي كؤوس تكسر، وأثاث يُقلب، وركض ومشاجرات. وفي تلك الشوارع كانت المرأة تمشي واثقة الخُطا. ورآها أونوفري المتواري بجانب أحد الأبواب، تدخل محلاً انغلق بابه الخشبي وراءها. صمم أونوفري على الانتظار في الخارج ليرى كيف سينتهي كل ذلك. كانت تهب رياح باردة ورطبة ومالحة، بسبب القرب من البحر؛ فغطى فمه وأنفه باللفاع الذي كان قد أحضره معه تحسباً. لم يكن عليه أن ينتظر طويلاً: فبعد دقائق قليلة خرجت المرأة من المحل تتبعها جلبة كبيرة. واستطاع رؤيتها مواجهة للمرة الأولى في لمحة خاطفة، على الضوء المنعكس؛ ولم يمنعه ذلك من التعرف إلى وجه الأنثى الشهوانية. فقال لنفسه: غير ممكن، إنني أرى أحلاماً. كانت المرأة تستنشق بأنفها مسحوقاً أبيض من مغلف صغير، تغمض عينيها، وتفتح فمها على اتساعه، وتُخرج لسانها، وتهز كتفيها ومؤخرتها، كان كل جسمها يتلوى. أطلقت نباح كلب سعيد واتجهت نحو الحانة التالية، وكانت لها نافذة تطل على الشارع. كان الهواء الذي سخنته حرارة المدفأة يتكثف على زجاج النافذة، المتسخ جداً في الأصل، مشكلاً حجاباً يجعل من الصعوبة رؤية ما في الداخل، إنما يسمح له بالتلصص دون أن يُرى؛ وهذا ما فعله أونوفري بوفيلا: كان الزبائن من أشد الأنواع فظاظة وقسوة. بعضهم يلعبون الورق الذي يخبئون بعضه في أكمامهم، بينما سكاكينهم جاهزة لتنغرس في حنجرة غشاش في اللعب؛ وآخرون يرقصون مع مومسات عجفاوات، زجاجيات العيون، على أنغام أكورديون يعزف عليه رجل أعمى. وعند قدمي الأعمى، كان هناك كلب يتظاهر بالنوم، ولكنه ينشب أسنانه فجأة في سيقان الراقصين. وفي إحدى الزوايا، كانت المرأة التي تبعها تتجادل مع فتوة مُفتّل

الشعر ذي بشرة نحاسية. كانت تتصنع في حركاتها وإيماءاتها، بينما كان هو يقطب ما بين حاجبيه. ورأى أونوفري كيف وجه ذلك الفتوة صفعة للمرأة. فأمسكت هي بشعره وشدته بقوة، وكأنها تريد أن تفصل رأسه عن جذعه. ولكن الفتوة لم يكن فريسة سهلة بفضل المرهم الذي كان يطلي به شعره. وقد تمكن من توجيه لكمة إلى فم المرأة، فتراجعت مترنحة، وحين وقعت جالسة على إحدى موائد القمار، قلبت الزجاجات والكؤوس وورق اللعب الموزع. فوجه اللاعبون ركلات إلى كليتيها. كان الفتوة يتقدم نحوها بوميض قاتل في عينيه ومدية جزار مقوسة في يده. راحت المرأة تبكي بدموع حقيقية؛ بينما كان الزبائن يسخرون من الضحية ومن المعتدي على السواء. وقد وضع المسؤول عن المحل حداً للمشهد: أمر المرأة بمغادرة الحانة فوراً، ولم يكن هناك من يشك فيأنها هي المذنبة في ما حدث، وأنها هي التي استفزت الغندور. اختبأ أونوفري مرة أخرى بجانب الباب، ورآها تخرج متعثرة. وكان يسيل من أحد جانبي فمها خيط من الدم يتحول لونه إلى البنفسجي عند ملامسته أصباغ مكياجها. تأكدت بأصابعها إذا ما كانت إحدى أسنانها على وشك الإفلات من لثتها؛ ثم نزعت باروكة شعرها المستعار، ومسحت عرق جبهتها بمنديل منقّط، وأعادت بعد ذلك الباروكة، وانطلقت في طريق العودة. كانت الرياح قد توقفت، وصار الهواء الآن هادئاً وجافاً وبلورياً، وشديد البرودة إلى حد أن استنشاقه يسبب ألماً في الصدر. لحق بها أونوفري وهي تدخل إلى المضيق الذي يشكل مستودع الفحم، وصاح بها:

– ايه، يا سيد براوليو، انتظرني! إنني أنا، أونوفري بوفيلا، نزيلك؛ لا تخشَ شيئاً مني.

– آه، يا بني – صاح بذلك صاحب النزل والدموع ما زالت تسيل على خديه، وأضاف: – لقد ضربوني على فمي، وكان يمكن لهم أن يمزقوني مثل خنزيرة لو لم أهرب بسرعة! يا لهم من أوغاد!

فقال أونوفري:

– ولكن، أية شياطين تدفعك للمجيء إلى هذا المكان القذر ليضربوك يا سيد براوليو؟ وبملابس النساء! لا يمكن لهذا أن يكون طبيعياً!

هز السيد براوليو كتفيه وواصل المشي. كانت بعض السحب الكثيفة قد

حجبت القمر ولم يعد يُرى شيء. وكان من المستحيل عدم التعثر بالفحم، والوقوع أرضاً وتجريح الركبتين أو اليدين أو الوجه. وانتهى الأمر بأونوفري والسيد براوليو إلى التشابك بالأذرع لكي يسند كل منهما الآخر.

– آه! – هتف السيد براوليو مجدداً بعد قليل – ألا تلاحظ يا أونوفري؟ لقد بدأ الثلج بالهطل. منذ كم من السنوات لم يهطل الثلج في برشلونة!

وكان الصخب يزداد خلفهما: فسكان تلك الضاحية الداعرة وزبائنها قد خرجوا إلى الشارع مستضيئين بالمشاعل والقناديل ليتأملوا مشهد هطول الثلج الغريب.

– 3 –

كان ذلك الشتاء في الواقع هو الأشد برودة من كل ما يتذكرونه في برشلونة. فقد هطل الثلج طوال أيام وليالٍ دون انقطاع، ودُفنت المدينة تحت طبقة من الثلج تزيد سماكتها على المتر، وتوقفت حركة السير، وانقطعت كل النشاطات والخدمات العامة، بما في ذلك أكثرها إلحاحاً؛ وانخفضت الحرارة إلى عدة درجات تحت الصفر: هذا كله ليس بالكثير في أماكن أخرى، ولكن ليس في مدينة عزلاء، لم تُتخذ فيها قط أية احتياطات مسبقة لمثل هذه الحالة الطارئة، وأجساد الناس فيها غير مهيأة لمواجهة البرد. فكان لا بد من سقوط العديد من الضحايا. وفي صباح أحد الأيام، عندما فتح أونوفري، الذي كانت حياة الريف قد صلّبته، ولم تكن تلك المخاطر بالتالي تضايقه، نافذة شرفة غرفته ليتأمل منظر البيوت المكسوة بالبياض، وجد على حاجز الشرفة جسد يمامة وقد فارقته الحياة. وحين حاول إمساك الجثة، سقطت إلى الشارع وتفتت قطعاً وكأن اليمامة مصنوعة من الخزف. وعندما تجمد الماء فجر الأنابيب والتمديدات: فانقطعت المياه عن الصنابير والمناهل العامة. وكان لا بد من تنظيم توزيع ماء الشرب في عربات صهريج تتوقف في بعض مناطق المدينة في مواعيد محددة. وكان السائقون يعلنون عن حضور عربات الصهريج ببوق له شكل قرن من الصفيح المذهب. فتتشكل صفوف مرهقة تنتظر في العراء، في ذلك البرد القارس الذي يخترق

الملابس ليلسع الأجساد. وكان لا بد للشرطة من التدخل للحيلولة دون وقوع مشاجرات وأعمال شغب بسبب البطء في خدمة التوزيع. وفي بعض الأحيان كانت تتجمد أطراف أحد الواقفين في الصف، فينتزعونه عن الأرض بسكب ماء ساخن على حذائه أو بشدّه بالقوة. وكان أناس كثيرون يحصلون على الماء بإدخال دلاء من الثلج إلى البيوت وانتظار ذوبانها. وآخرون يفعلون الشيء نفسه بمخروطات الجليد التي تتدلى من أفاريز البيوت. ولكن ذلك كله، على الرغم مما يسببه من إزعاج، كان يولد إحساساً بالمغامرة المشتركة، ويؤاخي بين البرشلونيين: ولم يكونوا يعدمون نوادر وحكايات طريفة يتبادلونها.

كان الوضع بالنسبة لمن يعملون في العراء مؤلماً جداً. فعمال المعرض الدولي يعانون ما لا يمكن وصفه في موقع العمل المكشوف للبحر وغير المحمي من الرياح. وبينما كانت الأعمال قد توقفت مؤقتاً في أماكن أخرى مشابهة، كما هي الحال في المرفأ، تواصل العمل في المعرض بوتيرة متعاظمة. ولأن مطالب البنائين لم تلق استجابة مرضية، فقد قرروا الإضراب. ثارت ثائرة بابلو الذي كان أونوفري يطلعه على الأحداث أولاً بأول، وراح يقول إن هذا الإضراب ليس سوى حماقة. فطلب منه أونوفري أن يوضح له السبب. فقال بابلو:

- انظر يا فتى، هناك نوعان من الإضرابات: الإضراب الذي يهدف إلى الحصول على منفعة محددة، والإضراب الذي يهدف إلى زعزعة النظام السائد، والمساهمة في تدميره. النوع الأول مضر جداً للعامل، لأنه يسعى في العمق إلى تعزيز الوضع الجائر الذي يسود المجتمع. هذا أمر يسهل فهمه، ولا يحتاج إلى تفسير. فالإضراب هو السلاح الوحيد بيد البروليتاريا، ومن الحماقة تبديده في الصغائر. أضف إلى ذلك أن هذا الإضراب يفتقر إلى التنظيم، في القاعدة، وفي القيادة، وفي الأهداف المطروحة. سيخفق إخفاقاً ذريعا وستتراجع القضية خطوة كبيرة إلى الوراء.

كان أونوفري يخالفه في الرأي: فهو يرى أن سبب غضب الداعية الثوري هو عدم اعتماد المضربين في أي شيء على الفوضويين: فهم لم يطلبوا منهم النصيحة، كما أنهم لم يطلبوا منهم الانضمام إلى العمل الجماعي، ناهيك عن قيادته. ولكنه تعلم مع ذلك أن الإضراب هو سلاح ذو

حدين، يتوجب على العمال أن يستخدموه بحذر شديد، ويمكن لأرباب العمل أن يستفيدوا منه كثيراً إذا ما أحسنوا استغلاله بمهارة. إنه يكتفي الآن بمتابعة الأحداث عن قرب، محاولاً عدم ترك أي تفصيل مما يحدث يفلت منه، وإلا يصاب بسوء إذا اتخذت الأمور مساراً خطراً. وقد انتهى ذلك الإضراب، مثلما قال بابلو، إلى لا شيء. فقد وصل أونوفري في صباح أحد الأيام إلى حديقة القلعة ووجد جميع العمال تقريباً مجتمعين في الساحة المركزية للمعرض المستقبلي، حيث كانت ساحة السلاح القديمة في القلعة، مقابل سرايا الصناعة. وكانت هذه السرايا ما تزال مجرد هيكل فسيح من القوالب الخشبية؛ يحتل موقعاً مساحته سبعون ألف متر مربع وأقصى ارتفاع له ستة وعشرون متراً. وهو الآن مغطى بالثلج، خاو ومهجور، يبدو وكأنه الهيكل العظمي لأحد حيوانات ما قبل الطوفان. لم يكن العمال المحتشدون في ساحة السلاح يتكلمون فيما بينهم. فقد كانوا يخبطون أقدامهم بالأرض أو يضربون خواصرهم بأذرعهم ليتخلصوا من خدر البرد. كانوا يبدون مثل بحر مائج من القبعات. وكان رجال الحرس الأهلي قد اتخذوا مواقعهم في نقاط استراتيجية. فأشباح معاطفهم وقبعاتهم ثلاثية الحواف المميزة كانت تبرز فوق الأسطح على خلفية سماء الصباح الصافية. وكانت هناك مفرزة من الخيالة تتجول حول الحديقة.

- إذا ما هجموا، فتذكروا أنهم لا يستطيعون استخدام السيف إلا من الجهة اليمنى للحصان، أما من الجهة اليسرى فهم لا يسببون أي أذى - كان يقول ذلك بعض العمال المجربين في مناوشات أخرى، ثم يضيفون لتهدئة أعصاب المستجدين:- وإذا ما أدركوكم، فانبطحوا على الأرض وغطوا رؤوسكم بأيديكم. فالخيول لا تدوس الأجساد الممددة على الأرض. وهذا أفضل من أن تهربوا راكضين.

ولم يعدم هناك من يقول إنه يمكن إفزاع الخيل بسهولة بالتلويح بمنديل أمام أعينها، لأنها حيوانات غبية ورعديدة. ويضيف قائلاً إنها تجمح عندئذ، ويمكن لها بشيء من الحظ أن تلقي بالفارس عن صهوتها. ولكن الجميع كانوا يفكرون في دخيلة أنفسهم: فليجرب آخر غيري عمل ذلك.

وأخيراً سرى بينهم الأمر ببدء المسير. لم يدرِ أحد من أين صدر الأمر؛

وانطلقت الجماعة في السير ببطء شديد، منتزعة أقدامها انتزاعاً. أما هو، الذي كان يمشي إلى جانب الجماعة، إنما على مسافة معقولة منها، فقد لفت انتباهه أمر: فالجماعة التي كانت تتشكل في البدء من نحو ألف شخص أو أكثر، تقلصت إلى مئتين أو ثلاثمئة فور بدء المسيرة. أما الآخرون فقد تبخروا. راح المتبقون يخرجون من الحديقة عبر بوابة تقع بين الدفيئة والمقهى-المطعم وانطلقوا في شارع «الأميرة»، على أمل الوصول حتى ساحة سان خَيّمي. لم يكن هناك ما يشير إلى وجود تهديد كبير. بل كان يبدو على الجميع كما لو أنهم يرغبون في وضع حدّ لما يتوقعون أنه ليس مجدياً، ولا يبقيهم متحدين ونشطين سوى عزة النفس والتضامن. كانت متاجر شارع «الأميرة» قد أغلقت أبوابها، وكان الناس يطلون من النوافذ لرؤية مرور المظاهرة. وكان أفراد مفرزة الحراس يتبعون العمال خطوة خطوة وسيوفهم في غُمُدها، مشغولين بالبرد أكثر من انشغالهم بإمكانية حدوث ما يعكر الحياة المدينية. تابع أونوفري المظاهرة لبعض الوقت ثم انعطف بعد ذلك من شارع جانبي بهدف تجاوز المتظاهرين والالتقاء بهم إلى الأمام. وفي ساحة صغيرة قريبة التقى مواجهة بفرقة من خيالة الحرس الأهلي وثلاثة مدافع رشاشة من عيار صغير مركّبة على قواعدها. وعندما التقى العمالَ ثانية كان يعرف بأن المظاهرة ستنتهي بحمام دم إذا ما خرجت الأمور عن مسارها. ولكن لم يحدث شيء خطير لحسن الحظ. فلدى الوصول إلى تقاطع شارع مونتكادا، توقف المتظاهرون بتوافق مشترك. ويبدو أنهم كانوا يفكرون: سيان إذا ما توقفنا هنا أو واصلنا المشي حتى يوم القيامة. صعد عامل على حاجز يحمي نافذة وألقى خطبة حماسية. قال فيها إن المظاهرة قد نجحت. ثم احتل عامل آخر المكان نفسه وقال إن كل شيء كان سيئاً بسبب انعدام التنظيم والوعي الطبقي، وحثّ المتظاهرين على الالتحاق بالعمل دون تأخير، قائلاً في الختام: ربما نستطيع بذلك تجنب العقوبات. وجرى الاستماع إلى الخطيبين باهتمام واحترام شديدين. وقد كان أولهما، كما تقصى أونوفري فيما بعد من خلال إفرين كاستيلس، مخبراً لدى الشرطة؛ أما الثاني فهو بنّاء شريف غير بعيد عن التقلبات النقابية. وقد فقد هذا الأخير عمله على إثر ذلك الإضراب ولم يعد يراه أحد في حديقة القلعة. وكانت حصيلة ذلك اليوم

هي عودة جميع العمال عند منتصف النهار إلى مواقع عملهم؛ ولم يُستجب لأي مطلب من مطالبهم، ولم تذكر الصحافة المحلية أي شيء عن تلك الواقعة.

- لا يمكن للنتيجة إلا أن تكون على هذا النحو - قال بابلو ذلك وفي عينيه المحمومتين بريق الرضا، وأضاف:- لا بد من أن تمضي الآن سنوات عدّة قبل التمكن من طرح عمل جماعي آخر. بل إنني لم أعد أعرف إذا ما كانت هناك فائدة من مواصلتك توزيع النشرات.

ذعر أونوفري حين رأى أن مصدر دخله ذاك معرض للخطر، فحاول تغيير الموضوع بالتحدث عما رآه عندما انفصل عن جماعة المتظاهرين. فقال له بابلو:

- بالطبع، وما الذي كنتَ تظنه إذن؟ فهم لن يجازفوا بالسماح لحفنة من العمال بالفوز بما أرادته وخلق سابقة وخيمة. إنهم يتركونهم يتحركون مادام ذلك ممكناً. وتتولى مفرزة الحرس الأهلي الحفاظ على الأمن العام وتنظيم حركة المرور. فيقول الناس: لا ندري لماذا يتذمرون ما دامت لدينا حكومة من أكثر الحكومات رفقاً. أما إذا ساءت الأمور، فإن الخيالة سيهاجمون المتظاهرين. وإذا لم يكفِ ذلك، فالمدافع الرشاشة جاهزة لحصد الشعب!

فسأله أونوفري:

- لماذا مواصلة المحاولات إذن؟ هم يملكون الأسلحة. ولن يتبدل أي شيء أبداً. فلنتحول إلى الاهتمام بعمل آخر.

- لا تقل هذا يا فتى، لا تقل هذا- ردّ عليه بابلو وعيناه تهيمان في أفق متخيل، أكثر رحابة وضياء من هذا الأفق الذي تقدمه له الجدران الأربعة الرطبة والمشققة للقبو الذي يعيش فيه - لا تقل هذا أبداً. صحيح أننا لا نستطيع مواجهة الأسلحة إلا بأعدادنا. بأعدادنا وبالشجاعة التي يولدها اليأس. ولكننا سننتصر يوماً. سيكلفنا ذلك الكثير من الآلام والدماء، ولكن الثمن الذي سندفعه سيكون ضئيلاً لأننا سنشتري به مستقبلاً لأبنائنا، مستقبلاً تتوفر فيه للجميع الفرص نفسها، ولا يكون فيه جوع ولا طغيان ولا حروب. ربما لن أرى أنا ذلك، وربما لن تراه أنت أيها الفتى أونوفري بالرغم من صغر سنك. لا بد أن تمضي سنوات طويلة، وهناك أمور لا حصر لها

يجب القيام بها قبل ذلك: تدمير كل ما هو قائم، حتى لا يبقى منه شيء. القضاء على الاضطهاد وعلى الدولة التي تشجعه وتجعله ممكناً، وعلى الشرطة والجيش، وعلى الملكية الخاصة؛ وإلغاء المال، والكنيسة والتعليم الذي يُقدم الآن، وما أدراني أنا؟ فهذا يتطلب خمسين سنة على الأقل من العمل، وسترى ما أقوله لك.

البرد الذي حصد ضحايا كثيرين في ذلك الشتاء في برشلونة، لم يترك النزل سليماً. فقد سقطت العرافة ميكائيلا كاسترو مريضة مرضاً خطراً. أحضر الأب بيثانسيو طبيباً ليفحصها. وكان طبيباً شاباً، جاء مرتدياً روباً أبيض ملطخاً ببقع حمراء. أخرج من حقيبة جاء بها معه بعض الحدائد المتسخة والصدئة، وراح يضرب المريضة ويوخزها بها. أدركوا جميعهم أن ذلك الطبيب لا يعرف شيئاً في الطب، وانتبهوا إلى أن البقع التي على روبه هي من البندورة، ولكنهم تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا ذلك. أما الطبيب، وعلى الرغم من عدم كفاءته، فقد بدا واثقاً تماماً من تشخيصه: لم يبق أمام ميكائيلا كاسترو سوى وقت قصير في الحياة. لم يحدد المرض، ولكنه قال: الشيخوخة وبعض التعقيدات الأخرى ستقضي عليها. ثم وصف لها بعض المسكّنات وانصرف. وعندما بقي نزلاء النزل الدائمون والسيد براوليو وحدهم، اجتمعوا في البهو ليتشاوروا، وكانت السيدة آغاتا تضع قدميها في الطست هناك. رأى مريانو أنه لا بد من إخراج المريضة من النزل بأسرع ما يمكن. ومع أن الطبيب كان قد قال إن مرض المنجمة غير معدٍ، إلا أن الحلاق كان خائفاً، فاقترح:

– فلنأخذها إلى مأوى الإحسان، وهناك سيعتنون بها جيداً إلى أن تموت.

وافق السيد براوليو على رأي الحلاق: ولم تقل السيدة آغاتا شيئاً، كعادتها، ولم تبدِ ما يشير إلى أنها قد عرفت هدف ذلك الاجتماع؛ وأعلن أونوفري بأنه مستعد لتأييد رأي الأغلبية. ولكن الكاهن بيثانسيو وحده هو الذي اعترض: فبوصفه قسيساً، كان قد زار بعض المستشفيات، وبدت له الظروف التي يعيش فيها المرضى هناك غير مقبولة. وقال: لو افترضنا وجود

سرير شاغر هناك، فإن التخلي عن هذه المرأة المسكينة وتركها لمصيرها في مكان غريب، وبين أيدي أناس مجهولين، حيث يحيط بها محتضرون مثلها، سيكون تصرفاً قاسياً لا يليق بمسيحيين. ثم أضاف: مرضها لا يتطلب رعاية خاصة ولن يسبب أي إزعاج.

– هذه المجنونة المسكينة تعيش منذ سنوات طويلة في النزل – واصل الكاهن بيثانسيو الكلام – إنها هنا في بيتها. ومن العدل تركها تموت هنا، محاطة بنا، نحن الذين يمكن القول إننا أسرتها، والناس الوحيدون الذين لها في هذا العالم. – ثم أضاف وهو ينظر إلى المجتمعين واحداً واحداً:– يجب أن تضعوا في اعتباركم أن هذه المرأة قد عقدت اتفاقاً مع الشيطان. وما ينتظرها بعد موتها هو العذاب السرمدي. وحيال مستقبلها الرهيب هذا، فإن أقل ما يمكننا عمله هو جعل ما تبقى من حياتها الأرضية أقل ما يمكن مشقة.

بدأ الحلاق بصياغة اعتراض، ولكن السيدة آغاتا قاطعته: «الكاهن على حق»، قالت ذلك بصوت أجش كأنه صوت عامل منجم. لم يكن هناك أحد، باستثناء زوجها، قد سمعها تتكلم من قبل: وقد حسمت مداخلتها القصيرة القضية. وأدرك أونوفري ذلك فوراً فسارع إلى إبداء موافقته فور انتهاء السيدة آغاتا من الكلام. وانتهى الأمر بالحلاق إلى الرضوخ: لم يكن أمامه مخرج آخر. تعهد الراهب بأن يتولى العناية بالمريضة حتى لا تكون رعايتها عبئاً على أحد. وانتهى الاجتماع بصورة ودية. وفي موعد العشاء، أشاع غياب ميكائيلا كاسترو غمامة من الكآبة فوق المجتمعين الذين لن يعودوا إلى التسلية بتنبؤاتها.

وأخيراً انقضت سنة 1887. ولسبب أو لآخر، بدت للجميع أطول من السنوات التي سبقتها؛ ربما لأن تلك السنة، مثلما يحدث أحياناً، لم تأتِهم بحظ طيب. وكان البرشلونيون يتبادلون التهاني فيما بينهم: لعل السنة الجديدة تكون أفضل قليلاً. ومن المحتمل أيضاً أن يكون البرد القارس في الأسابيع الأخيرة قد ساهم في إشاعة ذكرى سيئة عن تلك السنة. فالثلج تحول إلى جليد في الأماكن التي لم تُنظف منه، وصار يسبب الانزلاق والإصابة بكسور. وكان

الظرفاء يقولون: يبدو وكأننا في القطب الشمالي. وبالفعل، فساحة كتالونيا التي كانت ورشة عمل تملؤها الحفر والركام والخنادق، بدت بمظهرها المحزن، أشبه بسهوب «التندرا». وقد نشرت صحيفة بهذا الخصوص خبراً يصدم؛ فقد عُثر في إحدى الحفر على عدة بيوض كبيرة الحجم، ولدى تحليلها في مخبر، تبين أنها بيوض بطريق. من المؤكد أنه خبر زائف، وأن الصحيفة المعنية كانت تنوي نشره في يوم «الكذب البريء» (28 كانون الأول «ديسمبر»)، ولكن الخبر ضاع، ثم عُثر عليه في غير موعده. ولكن هذه الواقعة تشير إلى أي حد كان البرد يؤثر في حياة المدينة، ولا سيما في حياة من يفتقرون هناك إلى الوسائل لحماية أنفسهم من هجماته.

أما على الشاطئ، حيث يسكن العمال الذين لا بيوت لهم مع أسرهم، فقد بلغ الوضع حدوداً حرجة. ففي إحدى الليالي، ومن أجل النجاة بحياتهن، حملت النساء الأطفال بين أذرعهن ورحن يمشين. وفضَّل الرجال عدم اللحاق بهن، لأنهم فكروا، وكانوا محقين، بأن وجودهم معهن سيضفي على المسيرة طابعاً مختلفاً. اجتازت النسوة مع أطفالهن الجسر الحديدي الذي يربط الشاطئ بحديقة القلعة، ومضين بين أجنحة المعرض التي في طور البناء حتى وصلن إلى سرايا الفنون الجميلة. وهذه السرايا، التي اختفت اليوم، كانت تقوم إلى يمين صالون سان خوان بالنسبة لمن يدخل إليه عبر قوس النصر، في الحافة التي يشكلها الصالون وشارع كوميرثيو، أي إنها خارج الحديقة، وإن كانت ضمن حرم المعرض الدولي. وكان طول سرايا الفنون الجميلة ثمانية وثمانين متراً وعرضها واحداً وأربعين متراً، وارتفاعها خمسة وثلاثين متراً، دون حساب الأبراج الأربعة التي تنتهي بقبب متوجة بدورها بتماثيل شخصيات مشهورة تزينها. وفي داخل السرايا، فضلاً عن القاعات والردهات المخصصة لعرض أعمال فنية، كانت هناك قاعة بديعة طولها خمسون متراً وعرضها ثلاثون، ستخصص لإقامة الاحتفالات الرسمية. وفي هذه القاعة قررت النساء والأطفال قضاء الليل. أبلغ ضابط الحرس الأهلي المناوب السلطات المختصة بالواقعة. فردوا عليه: تظاهر بأنك لم ترَ شيئاً.

فقال الضابط:

– ولكنهن يشعلن مواقد في القاعة، والدخان يخرج من النوافذ.

– وماذا في ذلك؟ لا نريد أن نطلق عليهن النار ويخرج الخبر في الصحافة الأجنبية قبل أربعة شهور فقط من الافتتاح. تظاهر بأنك لم ترَ أي شيء، وسننظر في الأمر – هكذا كان الرد شبه الرسمي.

فرد الضابط:

– لا بأس، ولكنني أريد أمراً خطياً. وإذا لم يكن هذا الأمر الخطي في يدي خلال نصف ساعة، فسوف أخلي السرايا بأي طريقة: سأنظم مذبحة وأتنصل من أية مسؤولية. وعليكم أن تعلموا أن لدي مدفعاً رشاشاً مثبتاً على سطح المقهى-المطعم لكي أقوم بالقضاء عليهن وهن يخرجن.

وكان لا بد من إرسال أحد أعضاء المجلس البلدي الذي واجه البرد وسقط عدة مرات على الجليد ليصل إلى موقع الأحداث حاملاً الأمر الخطي قبل أن ينفذ الضابط تهديده. وفي اليوم التالي تم التفاوض والاتفاق على أن تقيم أسر العمال، ولكن ليس العمال أنفسهم، بضعة أسابيع في الثكنات الجديدة في شارع صقلية. فهناك يمكنهن إشعال النار وعمل كل ما يشأن. لم يكن التفاوض مع النساء سهلاً. فقد كان إفرين كاستيلس قد باعهن عدداً من قوارير مقوي الشعر، ونبتت لبعضهن لحى. وكان على عضو المجلس البلدي الذي جاء إلى سرايا الفنون الجميلة ممثلاً للعمدة، أن يواجه لجنة من النساء الملتحيات. ولأنه لم يكن مهيأ لذلك، فقد وافق على كل ما طلبنه منه، ولم ينقذه من فقدان منصبه سوى علاقاته ببعض الأوساط المتنفذة. وكل ذلك لأن إفرين كاستيلس كان يفقد عقله من أجل النساء. لقد كان ماجناً حقيقياً: فبحجة بيع مقوي الشعر، كان يتسلل إلى الأكواخ عندما يكون الرجال غائبين يعملون في المشروع، ويعيث هناك فساداً. فقد كان له مظهر رجولي يثير إعجاب معظم أولئك النساء، وكان ميالاً إلى المرح، يعرف كيف يتودد إليهن وينفق النقود بسعادة، فلم يكن الحظ يجانبه على الصعيد العاطفي. ولم يكن أونوفري ينظر بعين الرضا إلى ميول شريكه تلك، وكان يقول له: في يوم لا يخطر على البال سنقع في مشكلة جدية بسبب أعمالك.

فيرد عليه إفرين كاستيلس:

– لا تخف. فأنا أعرف الإناث جيداً: إنهن يخنّ أزواجهن من أجل شيء تافه، ولكنهن لا يخنّ العشيق الذي يتودد إليهن ولو سُلخت جلودهن. وقد

تتساءل: لماذا يفعلن ذلك؟ فأقول لك يا فتى، وأنا أعرفهن، إنهن يجدن متعة في المعاناة. فإذا أردت من امرأة أن تحميك، عليك أن تقسو في معاملتها وأن تخونها؛ ليس هناك من وسيلة أفضل. ولولا أنني مغفل، وأنا أعرفهن جيداً، لكنت عشتُ على نفقتهن دون بذل أي جهد. ولكنني لستُ من هؤلاء، ماذا بيدنا؟ أنا ممن يفقدون بوصلتهم ويسمحون لهن بأن يعصروهم مثل ليمونة.

البيزتات التي كان أونوفري يعطيها لإفرين، كان هذا الأخير ينفقها في شراء هدايا لنساء مغامراته. وكان أونوفري يفكر: يبدو أنه يجب على المرء أن يكون سخياً ووغداً. ولا يمكن أن ينتظر من الناس إلا ما يعرف استخلاصه منهم. هكذا هم البشر: مادة لينة. هذه الأمور وغيرها كان يقولها أونوفري بوفيلا لنفسه في ساعات سهره الطويلة على بسطة الدرج، بينما هو يترصد ديلفينا. كان البرد يتغلغل إلى عظامه، وكان شبابه وبنيته السليمة يحولان دون إصابته بمرض خطير. ولم يكن السيد براوليو قد عاد إلى مغامراته الليلية: كان ينتظر قدوم الربيع ليتنكر بزينته المتصنعة. ولم يخبره أونوفري بأنه يكمن كل ليلة على بسطة السلم ليرى إذا ما كان بإمكانه الإمساك بديلفينا متلبسة بالجرم المشهود مع خطيبها. كان يظن أن السيد براوليو لا يعرف شيئاً عن نزوات ابنته، وأن هذه لا تعرف شيئاً عن نزوات أبيها.

في واحدة من تلك الليالي، في تمام الساعة الثانية، صدر صوت أخرجه من تأملاته. إنها ميكائيلا كاسترو؛ فالمنجمة تنادي من غرفتها طالبة ماء. وكان الكاهن بيثانسيو الذي عليه رعايتها، مستغرقاً في النوم، أو أنه صار ثقيل السمع بسبب تقدمه في السن. مرت الدقائق دون أن يستجيب أحد للنداء. وتابعت العرافة مطالبتها بالماء بصوت واهن جداً لا يمكن معه تحديد مصدر الصوت. ذهب أونوفري إلى المطبخ، تناول كأساً من خزانة الحائط، وملأه ماء، ثم حمله إلى ميكائيلا كاسترو. كانت تنبعث من غرفة المريضة رائحة مقززة، مثل رائحة الطحالب التي تتعرض للشمس. عثر أونوفري بالتحسس على يد المنجمة المثلجة ووضع كأس الماء بين أصابعها. سمع الرشفات النهمة، وعندما انتهت، استعاد الكأس الفارغة. غمغمت المحتضرة بكلام غير مفهوم. فقرب أونوفري أذنه من جانب الرأس في السرير، وظن أنه سمعها تقول: فليكافئك الرب يا بني. ففكر: ياه، هذا هو كل

شيء. ولكن فكرةً بدأت تدور في رأسه.

في منتصف كانون الثاني (يناير)، عاد الجو الجميل. فخرجت المدينة من سباتها. وحين ذابت أكوام الثلج في حرم المعرض، تكشفت أجزاء الدبرزينات الرخامية وقواعد التماثيل التي بحث عنها معلمو ورش البناء دون جدوى طيلة أسابيع. ومع ذوبان الجليد تشكلت مستنقعات فسيحة، مزعجة ولكنها خطيرة قبل أي شيء آخر، لأنها قد تسبب، وقد سببت بالفعل، انزلاقات خفيفة في التربة أدت إلى حدوث تشققات أكثر مما يجب في بعض المباني. كما وقع انهيار صغير نجم عنه دفن مساعد بنّاء تحت أكوام من الحصى وفقدانه حياته. ولعدم وجود متسع من الوقت، لم يتم العثور على جسده، وكان لا بد من تسوية الأنقاض وإعادة البناء فوقها. ولم يتم الإعلان عن تلك الحادثة، ولم يعرف زوار المعرض قط بأن هناك جثة تحت أقدامهم. وهو أمر كان يحدث دوماً على أي حال في المدن القديمة. ومع ذلك، لم يكن كل شيء في الحديقة مأساوياً. فقد كانت تقع أحداث مضحكة أيضاً، كما هي هذه: فمع ذوبان الجليد، وصلت قبيلة من الغجر سيراً على الأقدام، عن طريق الشاطئ. خرجت نساء العمال إلى مدخل حي الأكواخ وأغلقن الطريق أمامهم، فقد كان شائعاً الاعتقاد بأن الغجريات يسرقن الأطفال الرضع ويأخذونهم معهن. ولكن ما كانت تريده تلك القبيلة في الحقيقة هو كسب لقمة العيش بالعمل في إصلاح القدور، وجز فرو الكلاب، وكشف الطالع، وترقيص دب. أما العمال الذين لا يملكون كلاباً غزيرة الفرو، ولا أدوات مطبخية، ولا رغبة بمعرفة ماذا يخبئ لهم المستقبل، فإن الشيء الوحيد الذي أعجبهم هو رؤية الدب يرقص. وكان لا بد لرجال الحرس الأهلي من التدخل لطرد الغجر الذين استقروا في ساحة السلاح وهم يقرعون طبولهم. وقف ضابط الحرس الأهلي الذي رقّي على أثر حادثة قصر الفنون الجميلة، وواجه الغجري الذي بدا أنه الزعيم، وطالبه بأن يرحلوا جميعهم من هناك على الفور. فرد الغجري بأنهم لا يسيئون إلى أحد. فقال له الضابط: أنا لا أتناقش معك. ولكنني أقول لك هذا وحسب: سأذهب الآن لأتبول. فإذا كنتم ما تزالون هنا عند عودتي، فسوف أرمي الدب بالرصاص، وسأرسل الرجال إلى الأشغال

الشاقة، وسأقص شعور النساء من أصلها. وأنت تعرف ما الذي يناسبكم. اختفى الدب وجماعة الغجر، كما في أعمال السحر. أما الجانب الكوميدي من القضية فيأتي الآن: بعد يومين أو ثلاثة أيام من وقوع هذه الأحداث، ظهرت في حرم المعرض جماعة أخرى، لا تقل بهرجة عن السابقة. كان يتقدمها سيد يرتدي سترة فراك خضراء، ويعتمر قبعة تشريفات وبرية من اللون نفسه. وكان للسيد شاربان مصمغان، أسودان بلون الكهرمان. وكان يتبعه أربعة رجال يحملون محفة ينتصب عليها هيكل كبير الحجم، كانت ملامحه، إذا ما كانت له ملامح، مخبأة تحت قماش مطلي بالقار. وما أن رأى رجال الحرس الأهلي دخول الموكب، حتى انقضوا عليه وانهالوا على الرجال الخمسة بأعقاب بنادقهم. وقد تبين فيما بعد أن ذلك السيد هو المشارك الأول في المعرض الدولي، وأنه ألماني يدعى السيد غونتير فون إيلكيسيريو، يرافقه أربعة عمال قادمين من مدينة مايّانس. وقد جلب العارض المسكين مغزلاً كهربائياً من اختراعه، وكان يمضي به على غير هدى، يسأل هنا وهناك بالألمانية وبالإنكليزية، أين يمكنه أن يسجل اشتراكه في المعرض، وأين يمكنه أن يضع المغزل ريثما يفتح المعرض أبوابه.

وبهدف تجنب احتقان الأيام الأخيرة، أوعزت السلطات للعارضين بأن ينقلوا إلى برشلونة، قبل وقت مناسب، ما يرغبون في عرضه. وقد استدعى ذلك تأهيل عدة مستودعات لحفظ المعروضات ريثما ينتهي إنجاز الأجنحة التي ستضمها. وكانت العملية أكثر تعقيداً مما بدت عليه للوهلة الأولى. فالأمر لم يكن يتمثل في حفظ تلك الأشياء من العوامل المناخية، كالرطوبة (فهناك بينها آلات دقيقة، وأعمال فنية، ومواد حساسة في بنيتها أو تصنيعها) ومن التخريب الذي تحدثه الجرذان، والصراصير، والنمل الأبيض، وغيرها؛ بل يجب تخزينها بطريقة تتيح التعرف عليها وتحديد مكانها دون جهد كبير عندما يحين الوقت. وكانت السلطات قد فكرت بهذه المشكلة، ونشرت مسبقاً، من أجل حلّها، تصنيفاً مفصلاً لكل الأشياء الموجودة في العالم بمختلف تنوعاتها. وخصصت لكل نموذج رقماً، أو حرفاً أو رمزاً مؤلفاً من رقم وحرف. فهكذا لا يمكن التعرض لأي مشكلة. وسرعان ما وقعت إحدى

تلك القوائم في يد أونوفري بوفيلا، فدرسها بدقة بالغة، وقال لنفسه: لم أفكر قط في أن هناك على الأرض كل هذا القدر من الأشياء التي يمكن أن تشترى وتباع. وقد أبقاه هذا الاكتشاف مضطرباً لعدة أيام. وأخيراً، وبعد أن تفادى ألف مجازفة، تمكن من الدخول مع إفرين كاستيلس إلى أحد تلك المستودعات. كان معهما قنديل يستضيئان به. ووجدا هناك صناديق وعلباً من مختلف الأحجام مكدسة من الأرض حتى السقف. بعضها كبير جداً يتسع لعربة وخيولها؛ وأخرى صغيرة يتسع لها جيب عادي. وفي داخل كل صندوق هناك شيء ما. نظر أونوفري إلى القائمة على ضوء القنديل المرتعش الذي يحمله إفرين عالياً. كان ذلك القسم من الجدول يورد ما يلي: *أجهزة آلية تستخدم في الطب، او الجراحة أو تقويم العظام، كراسي، أسرة، الخ...، أحزمة لتقليص الفتاق والدوالي، الخ... أجهزة لاستخدام المرضى: عكاكيز، أحذية خاصة، مكبرات، نظارات، أبواق سماع، سيقان خشبية، الخ... أجهزة جراحة ترميم آلية: أسنان، عيون، وأنوف اصطناعية، الخ...؛ أعضاء اصطناعية ذات مفاصل، أدوات ميكانيكية أخرى لتقويم العظام لم تذكر سابقاً؛ أجهزة متنوعة للتغذية الاضطرارية وغير الطبيعية؛ قمصان تقييد للمجانين الخ...* صاح إفرين كاستيلس: يا للروعة! وبناء على طلب أونوفري استطاع مارد كاليًا، بقوته الجبارة، أن يفتح أحد أكبر الصناديق. كان فيه آلة صقل من تلك المستخدمة في ضغط الورق.

ولأن إفرين كاستيلس كان مارداً طيب القلب، فقد كسب ثقة الصبية الزعران على الشاطئ، وهم أبناء النساء اللواتي يغويهن. وكان يستخدمهم لإيصال وإحضار الرسائل الغرامية، وترتيب المواعيد. تعاون أونوفري وإفرين على تنظيم أولئك الصبيان وتدريبهم. وفي الليل، صار الفتيان يدخلون المستودعات، ويفكون صناديق التغليف بمهارة، ويخرجون منها مواد يأخذونها إلى أونوفري وإفرين اللذين كانا، حسب طبيعة المادة، يبيعانها أو يجريان عليها قرعة. ويعطيان نسبة للصبية مقابل تسليم المواد. وكان إفرين كاستيلس ينفق الأرباح التي يحصل عليها فوراً؛ أما أونوفري بوفيلا بالمقابل، فلم يكن ينفق منها سنتافو واحداً، وقد راكم في فراش الكاهن بيثانسيو ثروة متواضعة. وكان المارد يقول لشريكه: لستُ أفهم لماذا تريد كل هذه النقود؛ فلو

كنتُ أنا من يوفر، فإن الأمر يغدو مقبولاً، لأنني أبله وعلي أن أفكر بالمستقبل؛ أما أن تقتصد أنت، من لديك الكثير من الحيل، فهو أمر لا أفهمه. والحقيقة هي أن أونوفري لم يكن ينفق لأنه لم يكن هناك من يعلّمه أين ينفق، ولم يكن لديه أي دافع لعمل ذلك.

لم تكن ديلفينا تغادر النزل، حسب ما توصل إليه أونوفري بعد مراقبة طويلة، إلا أقل من ساعة في صباح كل يوم لتذهب من أجل المشتريات. ولأنه فكر بأنه سيكون الوقت المناسب لاعتراضها، فقد امتنع في صباح أحد الأيام عن الذهاب إلى عمله ولحق بديلفينا إلى السوق. كانت تخرج حاملة سلتين مجدولتين من أغصان الصفصاف وبمرافقة الهر. وتمشي بخطى ثابتة، وإن كانت شاردة الذهن، كأنها مستسلمة للأوهام. وبسبب ذلك الشرود كانت تخوض بقدميها الحافيتين في برك المياه الآسنة وبين أكوام القمامة. وكان الأطفال الذين يتراكضون في الأزقة ينظرون إليها وهي تمر بتحفظ. ولولا خوفهم من الهر، لكانوا تحرشوا بها وقذفوها ببعض الحجارة أو القمامة. ولم تكن ديلفينا تلقى مودة البائعات في السوق. فهي لا تشاركهن في ثرثرتهن، وتتشدد جداً بوزن البضائع ونوعيتها. أضف إلى ذلك أنها تساوم بفظاظة. وتشتري على الدوام مواد في حال سيئة وتطالبهن بحسم من السعر مقابل ذلك. فإذا قالت لها إحدى البائعات إن الكرنبة غير متعفنة، وإنها ما زالت تحتفظ ببقية من نضارتها، ترد عليها ديلفينا بأن ذلك غير صحيح، وأن الكرنبة تعبق برائحة كريهة، وينغل فيها الدود، وأنها ليست مستعدة لأن تدفع ثمناً باهظاً مقابل تلك القمامة. فإذا ما واجهتها البائعة وتعالت نبرة الجدال، تحمل ديلفينا بعلزبول من بطنه وتضعه على منضدة البيع. فيقوس الهر ظهره على الفور، وينفش شعره، ويُظهر مخالبه. وكانت الحيلة تعطي نتيجة: فالبائعة، المذعورة، تنتهي إلى التنازل، وتقول لها: خذي، خذي، احملي هذه الكرنبة وادفعي ما تشائين، ولكن لا تعودي إلي، لأنني لا أريد أن أبيعك شيئاً بعد اليوم، ها قد سمعتني. فتهز ديلفينا كتفيها وتعود في اليوم التالي بالمزاعم نفسها. وكانت وجوه البائعات تشحب من الغيظ لدى رؤيتها، وقد

لجأن إلى ساحرة تتجول في السوق، لكي تصيبها بالعين هي، وهرها بصورة خاصة. كل هذا تقصاه أونوفري دون أدنى مشقة، لأن البائعات، حين يتخلصن من الفتاة ومن الهر الشرير، لا يبخلن بتعليقاتهن.

وفي طريق العودة إلى النزل، خرج أونوفري لملاقاة ديلفينا.

– كنت أقوم بجولة هنا – قال لها الفتى – ورأيتك تمرين مصادفة. هل يمكنني مساعدتك؟

– إنني أكثر من قادرة على ما أقوم به – ردت الفتاة بذلك وهي تحث الخطى، كما لو أنها تريد أن تبين له أن ثقل السلتين المترعتين لا يضايقها.

فقال أونوفري:

– لم أقل إنك غير قادرة على حمل المشتريات يا امرأة. أردتُ فقط أن أكون لطيفاً.

– ولماذا؟ – سألته ديلفينيا.

فقال أونوفري:

– ليس هناك أي سبب، يجب أن يكون أحدنا لطيفاً دون سبب. لأنه إذا كان هناك سبب، فإن الأمر لا يعود لطفاً، وإنما مصلحة.

فقاطعته الفتاة:

– إنك تُحسن التكلم. انصرف وإلا أطلقت عليك الهر!

كان لا بد من القضاء على **بعلزيول** بقتله. وكانت جميع الوسائل التي تصورها جيدة، ولكنها تواجه بصعوبات لا يمكن تذليلها. وأخيراً خطرت له وسيلة بدت ممكنة. وتتمثل في طلاء سطح النزل بالزيت. وعندما يصعد **بعلزيول** ليتجول على السطح، مثلما تفعل كل القطط، ينزلق ويسقط. والسقوط من طابق رابع إلى الشارع لا بد أن يكون مميتاً، هكذا فكر أونوفري. ولولا قليل لمات هو نفسه أثناء تنفيذ خطته. وبعد أن طلى كل قرميد السطح بالزيت، دون أن يترك فيه بقعة جافة، ذهب إلى حجرته واستلقى على السرير. لم يحدث شيء في تلك الليلة. وفي الليلة التالية، عندما استسلم للنوم بعد أن ملّ الانتظار (كانت ساعة كنيسة سان إثيكيل قد أعلنت الثانية) أيقظته جلبة. وكانت تصله من خلال الشرفة تأوهات ولعنات. خشي أن يكون **بعلزيول** قد

سقط فوق عابرِ سبيل ليلي. ستكون ذروة سوء الحظ، قال ذلك لنفسه. وفتح باب الشرفة وأطل منها. وسيطر عليه الذعر على ضوء القمر: كان هناك شخص يتدلى من حاجز الشرفة ويطلب النجدة وهو يحاول عبثاً أن يسند قدميه في إحدى فجوات واجهة البناء. ولدى رؤيته أونوفري توسل إليه: أرجوك، أعطني يدك، فأنا على وشك السقوط والموت. أمسك أونوفري بذلك الشخص من معصميه، ورفعه ثم أدخله إلى الغرفة. وعندما وضع الرجل قدميه على الأرض، انزلق ووقع جالساً. وعاد إلى التأوه: لقد هشمتُ مؤخرتي في عشرين موضعاً. فطلب منه أونوفري ألا يرفع صوته. ثم أشعل شموع الشمعدان، وواجهه مباشرة: ستخبرني الآن بما كنت تفعله وأنت معلق على شرفتي.

– وما أدراني أنا – قال الرجل – هناك ابن عاهرة طلى السطح بالشحم أو بشيء مشابه. ومن حسن الحظ أني استطعت التمسك بحديد الحاجز، وإلا لما كنت الآن هنا أحدثك.

فسأله أونوفري:

– وما الذي كنت تفعله على السطح في مثل هذه الساعة؟

وكان الجواب:

– وما شأنك أنت بذلك؟

– أنا لا شأن لي – قال أونوفري – ولكن ربما أراد أصحاب النزل والشرطة معرفة ذلك.

فقال الرجل:

– ايه، ايه، تمهل، فأنا لست لصاً، ولم أكن أفعل أي شيء خبيث. اسمي سيسينيو. وأنا خطيب فتاة تقيم هنا.

– ديلفينا؟!

– هذا هو اسمها. – قال سيسينيو – أبواها متشددان جداً ولا يسمحان لها بالتعرف إلى أي رجل. ونحن نتقابل على السطح، في الليل.

– يا للغرابة! – قال أونوفري بوفيلا ذلك، ثم سأله:– وكيف تصعد إلى السطح؟

– بسلم يدوي. أضعه خلف البناء، هناك حيث ترتفع الأرض وتصبح

المسافة أقصر. إنني نقاش.

كان يبدو على سيسينيو أنه في الخامسة والثلاثين من العمر. وكان ضيق الصدر، قليل الشعر، وله عينان جاحظتان، وذقن غائرة في منتصفها. ويفتقد اثنتين من أسنانه، مما يجعله يلثغ، ويكثر ورود حرف السين في كلامه. ففكر أونوفري بيأس: هذا هو خصمي إذن. ثم سأله:

– وماذا تفعلان على السطح؟

– هذا تماد في الأسئلة.

– لا تخشَ شيئاً. أنا من جماعتكم. اسمي غاستون. ويمكن لبابلو أن يحدثك عني.

– آه، بالطبع – قال سيسينيو ذلك وهو يبتسم للمرة الأولى. وأخبر أونوفري بأنهما لا يكادان يفعلان شيئاً على السطح. يتبادلان الحديث في موضوعات مختلفة، ويتبادلان قبلة أو ما هو أكثر من ذلك بقليل. فمن الصعب أن تتحول الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك على السطح. وكان سيسينيو قد اقترح عليها ألف مرة أن يذهبا إلى مكان أكثر راحة، ولكن ديلفينا كانت ترفض، وتقول له: بعد ذلك لن تحبني أبداً. وهما على تلك الحال منذ سنتين. وقال سيسينيو: لا أدري كيف أتحمل. فسأله أونوفري لماذا لا يتزوجان.

– هذه قصة أخرى – قال سيسينيو – فأنا متزوج. لدي ابنتان. ولم أخبر ديلفينا بذلك بعد: فأنا لا أجد الشجاعة لتعريضها إلى مثل هذا الغم. فالمسكينة حالمة جداً. لو أن زوجتي تموت، لسوّي كل شيء، ولكنها أقوى من شجرة سنديان.

– وماذا تقول هي؟ – سأله أونوفري – أعني زوجتك.

– لا شيء. تظن أنني أقوم بعمل ليلي. وقبل أن أدخل إلى البيت أُلطخ نفسي بالدهان، من أجل التمويه.

– لا تتحرك من هنا – قال له أونوفري ذلك، وأضاف:– سأذهب لإحضار ديلفينا. لأنها قد تنزلق وتموت إذا ما صعدت إلى السطح لمقابلتك.

خرج إلى الممر في اللحظة التي كان فيها الكاهن بيثانسيو يدخل إلى الحمام. وكانت المنجمة تطلق تأوهات ألم. ففكر أونوفري: لم يعد ينقصني

الآن إلا أن أصطدم بالسيد براوليو متنكراً كعاهر. يا للمكان الذي حشرت نفسي فيه!

ما كاد أونوفري يطرق باب مخدع ديلفينا بنعومة حتى ردت الفتاة بصوت صافر. عرّفها أونوفري بنفسه. «انصرف وإلا سأفلت عليك الهر»، كان ذلك هو الرد الذي تلقاه. فقال أونوفري: لقد جئت لأخبرك فقط بأن سيسينيو قد تعرض لحادث. فُتح باب حجرة النوم على الفور. ولمعت ضمن إطار الباب أربع حدقات. زمجر الهر، فتراجع هو، وقالت الفتاة: لا تخف، لن يفعل لك شيئاً؛ ما الذي حدث؟

فقال أونوفري:

- لقد وقع خطيبك عن السطح. وهو الآن في حجرتي. تعالي معي، ولكن لا تحضري **بعلزبول**.

بدأت ديلفينا بنزول الدرج مع أونوفري. أمسك هو بذراعها فلم تسحبها منه ولم تقل شيئاً. ولاحظ أونوفري أنها ترتجف.

كان سيسينيو قد استلقى على السرير. وكان يبدو على ضوء شموع الشمعدان كالميت، مع أنه كان يحرك عينيه ويبذل جهده في محاولة الابتسام. قال أونوفري لديلفينا: سأتركك معه، وحاولي ألا تتركيه يموت في حجرتي؛ فأنا لا أريد الوقوع في مشاكل. سأرجع عند بزوغ الفجر. نزل إلى الشارع وتردد بضع ثوان أمام البوابة الخارجية، دون أن يدري إلى أين يتوجه بخطواته. سمع مواء؛ وسقط جسم لامس كتفه وارتطم بالأرض. فدفع بقضيب حديدي جسد **بعلزيول** وتمكن من إسقاطه في بالوعة الشارع. وهكذا فقدت ديلفينا في ليلة واحدة ركيزتي أمنها.

- 4 -

كان نيافة السيد مطران برشلونة قد سافر إلى روما وهو راهب مستجد. وفي ميلانو، حيث توقف لعدة أيام، رأى صاحب السمو الإمبراطوري النمساوي الأرشيدوق فرانسوا فيردينان (الذي سيلقى بعد

سنوات من ذلك ميتة مأساوية في سرابيفو) وهو يستعرض الحرس. وقد رافقت تلك الصورة الحبر حتى آخر أيامه. وها هم العمال الآن يوقفون أعمالهم، ويشدون ظهورهم، ويرفعون قبعاتهم لدى مروره. نواقيس كنيسة القلعة تُقرع، وتدوي أبواق فرقة الخيالة التي ترافق الموكب. مر غبطة السيد المطران و سعادة السيد العمدة تحت قوس النصر جنباً إلى جنب. ثم مر بعدهما، على عجل، رجال السلطة. ووراءهم أعضاء السلك القنصلي، بشيء من عدم الاهتمام ما عدا بعض الأستثناءات. وملتصقاً بالأسقف، كان هناك شماس يحمل وعاء، هو قدر من الفضة المزخرفة مملوء بماء مبارك. وكان المطران يحمل بيده اليسرى عصا الأسقفية، ويهز بيمناه المرشة التي كان يغطسها بين حين وآخر في الوعاء. فإذا ما أصاب الماء الذي يرشه أحد العمال، رسم هذا العامل إشارة الصليب على الفور. وكان من المؤسف رؤية عباءة المطران الرسمية المهيبة وهي تكنس الغبار. كانت جدران سرايا الصناعة، حيث سيقام الاحتفال الرسمي، ما تزال دون إكساء تقريباً، ولكن بعض الستائر المعلقة غطت هذا النقص؛ وأضفت على المكان مظهر خيمة. وكانوا قد بنوا كنيسة في موقع بارز. فيها تمثال للقديسة لوسيا أعيد ترميمه حديثاً، وهو من الفضة المذهبة، يرجع إلى القرن الثامن عشر على أقل تقدير. وإلى يسار الممر الأوسط في الكنيسة كانت تصطف فرقة الموسيقى البلدية التي عزفت مارشاً فور دخول السلطات. بارك المطران الأعمال. وألقى هو والعمدة خطابيهما، وبعد انتهائهما هتف الجميع بحياة جلالة الملك وجلالة الملكة الوصية على العرش. وعندئذ بكى المبعوثان اللذان ذهبا إلى مدريد ورجعا منها مرات ومرات إلى حد صار بإمكانهما معه أن يرددا عن ظهر قلب أسماء كل القرى التي على الطريق. فهما يعتبران نفسيهما أبوي، أو على أقل قابلتي توليد، هذا الحدث الكبير. لقد كانت مساعيهما منحوسة في الواقع: فالحكومة المركزية لم تقدم مبالغ مالية كبيرة بما يكفي لتفادي إفلاس بلدية برشلونة، ولا قليلة بحيث يمكن للكتلانيين أن ينسبوا إلى أنفسهم الفضل كاملاً في إنجاز المشروع. وسواء أكان المبعوثان يعرفان ذلك أم لا يعرفانه، فإنهما يبكيان على أي حال. وبقرع النواقيس مرة أخرى، انتهى الاحتفال واستُؤنف العمل على الفور. كان ذلك في الأول من شهر آذار

(مارس)، وكان ما يزال هناك شهر وسبعة أيام لافتتاح المعرض.

تنوع صفقات أونوفري بوفيلا والاتساع الذي راحت تكتسبه، لا سيما منذ ضم الأطفال-اللصوص، ثم عند اكتشاف إرسالية بضائع بعد ذلك مصنفة على أنها: **تنبول**[1]، **أوراق بيروية، حشيش، ونباتات اخرى للتدخين والمضغ**، مُرسلة إلى جناح الزراعة (القائم، مثل قصر الفنون الجميلة، خارج الحديقة، بجانب الجدار الشمالي، على الطريق العام المؤدي إلى سان مارتين وفرنسا، بين شارعي روجير دي فلور وصقلية)، وقد باعوا تلك البضاعة بسعر جيد في الخارج عن طريق معلم في إكساء الجدران بمعجون المرمر، وهو رجل مرح بقدر ما هو ميّال إلى الوقوع عن السقالات والسلالم. كل تلك الأعمال بدأت تُقلق بابلو الذي راح يدرك أن ربيبه يغافله ويسخر منه، على الرغم من كل ما يبديه نحوه من مظاهر الاحترام. ولم يكن يدري أي موقف يتخذ في مواجهة هذا الواقع. فهو يعرف السمعة التي يتمتع بها أونوفري بين عمال المعرض. ولم يكن يجرؤ كذلك على إطلاع محازبيه على المعضلة التي أوقعه فيها ضعفه. إذ إن صلته الوحيدة بالعالم كانت تقتصر على ما يرغب أونوفري في إخباره به. وهو ما جعله أشبه بدمية بين يديه.

ولأن بابلو كان قد أوضح له عدة مرات بأن أول شيء يجب تدميره في كتالونيا هو **مسرح الليسيو**، فقد قرر أونوفري أن يرى ما هو ذلك الشيء المهم. كان بابلو قد قال له: الليسيو هو رمز، مثلما هو الملك في مدريد أو البابا في روما. والحمد لله أنه ليس لدينا ملك ولا بابا في كتالونيا، ولكن لدينا الليسيو. دفع مبلغاً بدا له مبالغاً فيه، وأدخلوه من باب الفقراء، عبر زقاق جانبي مملوء بجذور الكرنب. أما الأغنياء فكانوا يدخلون من البوابة الرئيسية المطلة على شارع رامبلاس، وهناك ينزلون من عرباتهم ذات الخيول. وكان لا بد من إنزال النساء محمولات تقريباً. وقد كانت فساتينهن طويلة جداً إلى حد أنهن كن يجتزن الباب الزجاجي بينما أذيالها ما تزال تخرج من العربات، كما لو أنها أفعى آتية إلى دار الأوبرا. وكان عليه أن

---

[1] تنبول betel: نبات متسلق من الفصيلة الفلفلية يُمضغ ورقه.

يصعد أدراجاً لا تحصى. ووصل وهو يلهث إلى مكان لا يوجد فيه موضع للجلوس سوى مقعد حديدي طويل، يحتله مسبقاً بعض هواة الموسيقى الذين أمضوا هناك أياماً بكاملها، ينامون مستلقين على الحاجز، وكأنهم حصائر نُشرت للتهوية، ويأكلون أرغفة خبز مع الثوم، ويشربون النبيذ من قِرَبٍ صغيرة. كان ذلك المكان مرتعاً للقمل. وكانت معهم أعقاب شموع ليقرؤوا في عتمة المسرح نوتة ألحان وكلمات أغنيات العمل الأوبرالي. كان بعضهم قد فقد البصر والصحة في الليسيو. أما بقية أقسام المسرح فكانت مختلفة تماماً. بهرت الأبهة أونوفري: الحرير، والموسلين، والمخمل، العباءات المغطاة بالبرق، والمجوهرات، وفرقعة فتح زجاجات الشمبانيا التي لا تنقطع، وحركة الندل الدؤوبة، والضجة المتواصلة التي يصدرها الأثرياء عندما يكونون كثيرين فتنت لب أونوفري. فقال لنفسه: هذا ما أريد أن أكونه، حتى ولو اضطررت إلى تحمل هذه الموسيقى التافهة التي لا تنتهي أبداً. وكان من سوء حظه أنه استمع يومذاك إلى «تريفون وكاسكانتي» وهي أوبريت أسطورية وصاخبة، قُدِّمت مرة واحدة في الليسيو، وأكثر من ذلك بمرات قليلة في العالم كله.

اقتربت ديلفينا في موعد تناول الفطور من أونوفري. لم تكن شدة قبحها قادرة على إخفاء أثر أرقها وقلقها. سألته إذا ما كان قد رأى بعلزبول مصادفة. فردّ أونوفري: لا، وكيف سأراه. وقالت ديلفينا بأسى: لقد اختفى منذ عدة أيام. فقال لها: لم تخسري شيئاً عظيماً.

كان إفرين كاستيلس ينتظره عند مدخل المعرض. وما أن رآه حتى بادره بالقول: لقد بدأت الأمور تسوء، فأنا أرى منذ يومين أن هناك شخصين يراقبانك كما يبدو؛ ظننت في البدء أنهما فضوليان، ولكنهما يبالغان في الإلحاح. وأنا متأكد من أنهما لا يعملان هنا. ثم أضاف المارد: لقد كانا يوجهان الكثير من الأسئلة.

– قد يكونان من الشرطة. – قال له أونوفري.

فقال إفرين كاستيلس:

– لا أظن ذلك؛ فليس هذا هو أسلوب الشرطة.

- من يكونان إذن؟

- أجهل ذلك يا فتى، ولكن الوضع لا يعجبني - قال إفرين كاستيلس ذلك، ثم أضاف:- لا أدري إذا ما كان علينا أن نأخذ إجازة لبعض الوقت: فالأمر هنا يوشك على الانتهاء.

كانت تلك هي الحقيقة. جال أونوفري بنظره في تلك الورشة الهائلة التي كان قد شهد مولدها تقريباً. فعندما وصل أول مرة إلى الحديقة، قبل سنة، كان الموقع يبدو كأنه ساحة حرب. أما الآن بالمقابل، فإنه يبدو أشبه بديكور لحكاية من حكايات الجنيات. فكل شيء هناك فخم، وغير متجانس، وبلا تناسق. فعندما قدمت اللجنة الفنية للمعرض مشروعها الأول إلى العمدة، مزقه نتفاً بيديه، وصاح: هذا الذي تحملونه إليّ ما هو إلا سوق خردوات شعبي، وما أريده أنا هو سيكلوراما. لقد انقضت الآن سنتان ونصف السنة، ولم يكن هناك بدّ من تقديم بعض التنازلات للعقلانية، ولكن رغبات العمدة قد تحققت. جلس أونوفري ومارد كاليّا على كتل من الحجارة الكلسية، قبالة كوخ من أغصان نباتات استوائية أقامته شركة السيجار الفيلبيني. وكان هناك وطني من تلك البلاد شبه عار، يرتجف من البرد ويلف السيجار وهو يجلس القرفصاء عند باب ذلك الكوخ. لقد أحضروه خصيصاً من باتنغا وطلبوا منه ألا يتحرك من هناك قبل انتهاء المعرض. وعلموه أن يقول للزائرين «*au revoir*» (إلى اللقاء). وكلما تلبدت السماء بالغيوم، ينظر إلى أعلى بتوجس، خائفاً من مجيء دوامة إعصار تمتصه هو والكوخ وتحملهما ثانية إلى باتنغا محومين مثل خدروفين. وفكر أونوفري: كل هذا غير مجد، ولا معنى له كذلك؛ ونحن، ثلاثة أرباع الشيء نفسه: أشواقنا، أعمالنا، كلها لا شيء. فرد إفرين كاستيلس: ياه، لا تنظر إلى الأمور بهذه القتامة يا فتى. ثم أضاف: أنت ذكي جداً، ولا بد أن تجد معنى للأشياء.

دخل إلى غرفة المنجمة دون أن يطرق الباب. كانت المحتضرة تقبع في السرير وعيناها مغمضتان، مدثرة بالأغطية حتى ذقنها. لاحظ أونوفري كم هي هرمة ميكائيلا كاسترو على ضوء لهب يتراقص في مصباح زيتي كئيب معلق بخطاف عند رأس السرير. وكان يمد يده إلى مقبض الباب ليغادر الغرفة، حين فاجأته العرافة: أهذا هو أنت يا أونوفري؟ فقال لها: واصلي

نومك يا ميكائيلا، لقد جئت فقط لأرى إذا ما كنت تحتاجين إلى شيء. فتمتمت المنجمة: أنا لا أحتاج شيئاً يا بني، ولكنك أنت الذي تحتاج. فأنت تبدو بكل وضوح غارقاً في بحر من التشوش.

- وكيف تعرفين ذلك؟ - سألها أونوفري مستغرباً، لأن العجوز لم تكن قد فتحت عينيها بعد.

- لا أحد يأتي إلي ما لم يكن مشوشاً يا بني. ولا حاجة بي لأن أكون منجمة كي أعرف ذلك. قل لي ما الذي أصابك؟

- اقرئي لي مستقبلي يا ميكائيلا. - قال أونوفري:

- آه يا بني، قواي منهارة. أنا لم أعد من هذا العالم. كم الساعة الآن؟ - سألته المنجمة:

- إنها الواحدة والنصف تقريباً.

- لم يبق لي إلا قليل من الوقت. سأموت في الرابعة وعشرين دقيقة. لقد أخبروني بذلك. إنهم ينتظرونني، هل تعرف؟ وعما قريب سأجتمع بهم. لقد أمضيت حياتي كلها وأنا أصغي لأصواتهم، وسأضم الآن صوتي إلى جوقتهم وسيصغي إلي أحد من هذا العالم. فنحن الأرواح لنا دوراتنا أيضاً. سأحل محل روح متعبة، سأشغل مكانها وتستطيع هي أن تنعم أخيراً بسلام الرب. أعرف أن الأب بيثانسيو يقول إن الشيطان ينتظرني، ولكن هذا ليس صحيحاً. الكاهن بيثانسيو رجل طيب، ولكنه جاهل جداً. أعطني أوراقي ودعنا من إضاعة الوقت. ستجدها هناك، في الخزانة الصغيرة، على الرف الثالث من الأعلى.

فعل أونوفري ما قالته له العجوز. كان هناك في الخزانة ملابس سوداء مكومة، وأمتعة متنوعة، وعلب من ورق الأرز مربوطة بشرائط حريرية. وعلى الرف المشار إليه رأى كتاب صلوات عتيقاً، وسبحة خرزاتها بيضاء، وسواراً من أزهار ناردين طبيعية متعفنة. وكانت هنالك أيضاً حزمة من ورق اللعب؛ تناولها وأعطاها للعرافة التي فتحت جفونها وقالت له: قرب كرسياً يا بني، واجلس بجانبي، ولكن ساعدني على الجلوس أولاً... هكذا، هكذا، حسن، هذا يكفي، شكراً لك. ثم أضافت المنجمة: يجب إنجاز الأمور جيداً كي لا نكون مضحكين، وكي لا يسخروا مني عندما يرونني أصل إليهم. سوّت غطاء

السرير ووزعت عليه تسع ورقات مقلوبة، شكلت بها دائرة، وقالت: دائرة الحكمة، وهي تسمى أيضاً مرآة سليمان. هذا هو مركز السماء، وهنا مجموعات النجوم الأربع، مع عناصرها. وكانت تلوح بيدها في حركة دائرية في الهواء، وهي تمد سبابتها. ثم وضعتها على إحدى الأوراق، وقالت وهي تقبلها: بيت الرغبات، أو الزاوية الشرقية. أرى أنك ستعيش سنوات طويلة، وستكون ثرياً، وستتزوج من امرأة باهرة الجمال، وستنجب ثلاثة أبناء، وستسافر كثيراً، وربما تمتعتَ بصحة جيدة.

فقال أونوفري وهو ينهض عن الكرسي:

- حسن يا سيدة ميكائيلا، لا تتعبي نفسك أكثر، فهذا هو كل ما كنت أرغب في معرفته.

- انتظر يا أونوفري، لا تذهب. ما قلته لك هو مجرد تلفيق. لا تذهب يا أونوفري - قالت العرافة ذلك، ثم تابعت:- إنني أرى الآن ضريحاً مهجوراً، على ضوء القمر. وهذا يعني الثروة والموت. وأرى ملكاً، والملوك يرمزون إلى الموت أيضاً. ولكنهم يرمزون إلى السلطة، هكذا هي طبيعتهم. إنني أرى الآن دماً، والدم يرمز إلى المال، وإلى الدم أيضاً. والآن؟ ماذا أرى؟ إنني أرى ثلاث نساء. قرّب كرسياً يا أونوفري واجلس هنا، بجانب السرير.

- إنني قرب السرير يا ميكائيلا. - قال أونوفري.

- أصغ جيداً إلى ما أقوله لك يا بني إذن. إنني أرى ثلاث نساء. إحداهن في بيت الرزايا والنكبات والأحزان. هذه ستجعلك ثرياً. والثانية في بيت العراقة، وهو منزل الأولاد أيضاً؛ وهذه سترفع مقامك. أما الثالثة والأخيرة فهي في بيت الحب والمعارف الدقيقة. وهذه ستجعلك سعيداً. وفي البيت الرابع هناك رجل؛ كن على حذر منه: إنه في بيت أعمال التسميم والنهاية الفاجعة.

فقال أونوفري وقد انتابه بعض الاضطراب من تلك اللغة:

- لستُ أفهم شيئاً مما تقولينه لي يا ميكائيلا.

- آه يا بني، هكذا هي النبوءات دائماً: صائبة، ولكنها غير واضحة. وهل تظن، لو كانت غير ذلك، بأنني سأحتضر في هذا المنزل البائس؟ أصغ إليّ وتذكر. وعندما يتحقق ما تنبأت به لك، فسوف تتعرف إليه في الحال. هذا

لا يعني أنه سيفيدك كثيراً. ولكنه يطمئن على كل حال. فلنعد إلى الأوراق، ولنر ما تقوله. إنني أرى ثلاث نساء.

- لقد قلتِ هذا من قبل يا ميكائيلا.

فقالت العرافة:

- إني لم أنته بعد. واحدة ستجعلك ثرياً، وأخرى سترفع مقامك، وأخرى ستجعلك سعيداً. والتي ستجعلك سعيداً، ستجعلك شقياً؛ ومن سترفع مقامك، ستجعلك عبداً؛ ومن ستجعلك غنياً سوف تلعنك. ومن بين الثلاث، هذه الأخيرة هي أخطرهن عليك، لأنها قديسة، وقديسة مشهورة. الرب سيسمع لعناتها، ولكي يعاقبك سيخلق رجلاً. وهو الرجل الذي تحدثت عنه الأوراق، رجل بائس. لا يعلم أن الله قد جاء به إلى الدنيا لينفذ به انتقامه.

- وكيف أتعرف إليه؟ - سألها أونوفري.

- لستُ أدري: فهذه الأمور تعرف دوماً. ومعرفتك له أو عدمها لن تغير من النتائج شيئاً على أي حال. فقد تقرر أنه هو الذي سيدمرك. ولن تجدي مواجهتك له. فأسلحتك مختلفة عن أسلحته. سيكون هنالك عنف وموت. وسيلتهمكما كليكما التنين. ولكن لا تخف. فالتنانين مهيبة المظهر، ولكن كل أبهتها تذهب دون جدوى في الزمجرة وإطلاق اللهب من أفواهها. عليك أن تخاف العنزة، فهي رمز الغدر والخداع. ولا تطلب مني المزيد، فأنا متعبة جداً - قالت ذلك لتنتهي. وانزلقت الأوراق عن غطاء السرير وتناثرت على الأرض. تركت رأسها يهوي على الوسادة وأغمضت عينيها. ظن أونوفري أنها ماتت؛ فنزع مصباح الزيت من خطافه وقرّب الفتيل من وجه العجوز، فتراقص اللهب: إنها ما تزال تتنفس. التقط الأوراق عن الأرض، وخبأ الرزمة في الخزانة. ولكنه قبل أن يخبئها، خلطها بعناية لكي لا يتمكن أحد سواه من معرفة مستقبله. ثم خرج بعد ذلك على رؤوس أصابعه من غرفة المنجمة المحتضرة وعاد إلى غرفته. راح يفكر وهو مستلق على السرير بما سمعه للتو، محاولاً أن يجد له معنى.

واصلت ديلفينا ذهابها إلى السوق كل يوم. وكلما رأتها البائعات قادمة دون أن يكون الهر معها، يجعلنها تشعر بوطأة الحقد الذي تراكم في نفوسهن خلال

سنوات من الرعب: كن يرفضن أن يبعن لها، أو يفعلن ذلك بعد جعلها تنتظر طويلاً؛ ويتوجهن إليها بألقاب مهينة، وأطلقن عليها اسم: «اسمال الشيطان»، وكن يمتنعن أحياناً عن التكلم معها؛ ويخدعنها عند إعادة «الفكة» إليها، فإذا ما اعترضت، ضحكن منها بحضورها. وفي إحدى المرات قذفنها ببيضة فاسدة على ظهرها. فلم تفعل شيئاً لإزالة أثر الضربة عن ثيابها. ولم يعد أونوفري لرؤية سيسينيو ولم يعرف عنه شيئاً، ولكنه كان يشعر بأن النَّقَّاش والفتاة لم يلتقيا ثانية بعد تلك الليلة التي مات فيها بعلزبول. لقد ماتت ميكائيلا كاسترو أيضاً في الليلة نفسها التي قرأت له فيها طالعه. فقد دخل الكاهن بيثانسيو إلى غرفتها عند الفجر، ووجدها ميتة. أطبق جفونها، وأطفأ مصباح الزيت وأخبر أصحاب النزل وبقية النزلاء. ودُفنت في اليوم التالي بعد قداس لراحة نفسها في كنيسة سان إثيكيل. عُثر في خزانة غرفتها على عدة أوراق، وقد تبين من تلك الوثائق أنها لم تكن تُدعى في الحقيقة ميكائيلا كاسترو، وإنما باستورا لوبيث ماريرو. وكان عمرها عندما ماتت أربعاً وستين سنة. ولم تكن هناك وسيلة لتحديد مكان أحد أقربائها، كما أنها لم تخلف أي تركة تبرر البحث عن أقارب لها بمزيد من التقصي. استبدلت ديلفينا ملاءات سرير المتوفاة بأخرى وسخة كالسابقة، وشغل الغرفة في اليوم نفسه شاب يدرس الفلسفة. لم يقل له أحد إن شخصاً قد مات على ذلك السرير نفسه قبل بضع ساعات. ومع مرور الوقت، أصيب ذلك الطالب بالجنون، ولكن لأسباب أخرى.

بالقرب من إحدى البوابات المؤدية إلى الحديقة من شارع الجمارك، كان هناك جناح غير كبير، يغطيه البورسلان من الداخل والخارج يسمى جناح المياه المعالجة بالنتروجين. وكان قد أُنجز منذ أواخر شهر كانون الثاني (يناير) ولكنه ما يزال خاوياً في آذار (مارس). حصل أونوفري بوفيلا وإفرين كاستيلس على مفتاح له. وكانا يخبئان فيه المسروقات. وكان الأطفال-اللصوص قد سرقوا في اليوم السابق كمية كبيرة من الساعات. ولم يعرفا ماذا يفعلان بكل تلك الساعات. كانت هناك ساعات جيب عادية، وساعات أبراج ومنشآت عامة، وساعات دقاقة، وساعات ثوانٍ مستقلة، وساعات

توقيت جيبية، وساعات توقيت بحرية، وساعات ببندول للثواني، وساعات فلكية، وساعات لرصد الظواهر الفلكية والعلمية، وساعات مائية، وساعات رملية، وأجهزة ضبط، وساعات معقدة تشير إلى العناصر الأساسية للدورتين الشمسية والقمرية، وساعات كهربائية، وساعات خاصة للتحكيم، وساعات اعتدالية، وساعات قطبية، وأفقية وعمودية، وعمودية-للجهات الأصلية، وعمودية-للجهات الفرعية، ساعات جنوبية، وساعات شمالية، وأجهزة قياس وعدادات لمختلف الاستخدامات في البناء، والصناعة، والنقل والعلوم، وأجهزة لضبط حركات البؤر المضيئة بصورة عامة، وأجهزة تشير وتثبت وتحدد عمل بعض الظواهر الطبيعية، وأجهزة توقيت لمختلف الاستخدامات، بعضها رخيص وبعضها ثمين، وقطع غيار ساعات من كل الأنواع والأنظمة. هذا ما كانت تذكره قوائم الكشوف. وقد قال المارد: لا أدري ماذا سنفعل بهذه الساعات، سوى فقدان عقلنا وسط كل هذا التيك-تاك وكل أجراس المنبهات هذه.

— 5 —

عشية الاحتفال بافتتاح المعرض الدولي، وعدت السلطات بتنظيف برشلونة من غير المرغوب فيهم. ***تبذل سلطاتنا منذ بعض الوقت جهداً خاصاً لتخليصنا من جائحة البطالين، والقوادين، والأشقياء، ممن لم يستطيعوا ممارسة أعمالهم الإجرامية في التجمعات السكانية الصغيرة، فبحثوا عن حماية عابرة في فوضى المدن المزدحمة؛ وإذا كانت السلطات لم تتوصل إلى استئصال شأفة كل هذه السرطانات الاجتماعية، التي تشوه سمعة هذه الحاضرة المتحضرة، وتقض مضجعها وتقرضها، فإنها قطعت شوطاً كبيراً في هذه المهمة الصعبة***، هذا ما قالته إحدى صحف تلك الفترة. وكانت هناك الآن مداهمات تتم كل ليلة.

– عليك ألا تعود هنا لبعض الوقت؛ فالجماعة حلّت نفسها مؤقتاً – قال له بابلو ذلك. فسأله أونوفري عما ينوي عمله، وأين سيختبئ الآن. فهز رسول

الثورة كتفيه: يبدو أن استشراف المستقبل لا يرضيه. ولكنه أضاف بقليل من الاقتناع:- لا شك في أننا سنستأنف الهجوم بقوى متجددة. فسأله أونوفري: وماذا عن النشرات؟ فعوج الثوري فمه بإشارة ازدراء وقال:- لن يكون هناك مزيد من النشرات. فأراد أونوفري أن يعرف ماذا سيكون، في هذه الحال، من أمر أجرته الأسبوعية. ورد عليه بابلو بنبرة تنم عن سعادة خبيثة:- سوف تفقدها. فالظروف تفرض بعض التقشف أحياناً. أضف إلى ذلك أننا نعمل في قضية سياسية: ونحن هنا لا نضمن راتباً ثابتاً لأحد. أراد أونوفري أن يسأل عن شيء آخر، ولكن الداعية الثوري أومأ له بإشارة آمرة، كانت تلك الإشارة تعني: هيا، انصرف. توجه أونوفري نحو الباب. فجاء بابلو إلى جانبه قبل أن يفتحه، وقال له: انتظر، ربما لن نلتقي مرة أخرى. النضال سيكون طويلاً - قال ذلك متعجلاً، وبدا واضحاً أن ليس هذا هو ما أراد قوله: فقد كان هناك أمر أكثر أهمية يشغل اهتمامه في تلك اللحظة، ولكنه لم يشأ الحديث عنه بسبب الخجل أو البلادة. ولهذا لجأ إلى البلاغة الخطابية المعروفة:- لا يمكن لهذا النضال في الحقيقة أن يتوقف. فالاشتراكيون، وهم حمقى، يعتقدون أنه يمكن تسوية كل شيء بالثورة؛ يقولون هذا لأنهم يفكرون بأن استغلال الإنسان للإنسان لا يحدث إلا مرة فقط، وأنه عندما يتحرر المجتمع ممن يحكمونه اليوم، فستتم تسوّية كل شيء. أما نحن فنعرف أنه حيث توجد علاقة من أي نوع سيكون هناك استغلال من القوي للضعيف. هذا النضال، هذا الاحتضار الرهيب، هو القدر المحتوم للكائن البشري. ولدى الانتهاء من هذه الخطبة المسهبة، عانق أونوفري وهو يقول بصوت مكسور من التأثر: قد لا نلتقي ثانية على الإطلاق. الوداع، وأرجو أن يكون الحظ حليفك.

في واحدة من تلك المداهمات ألقي القبض على السيد براوليو. كان قد خرج بزي امرأة فرعونية لكي يضربه القوادون. ولكن رجال الشرطة، على سبيل التنويع، هم الذين ضربوه في تلك الليلة. ثم طالبوه بعد ذلك بدفع تأمين ليطلقوا سراحه. فقال لهم: سأقدم لكم كل ما تشاؤون، على أن لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر زوجتي المسكينة المريضة، وابنتي التي لا تزال صغيرة. ولأنه لم يكن يحمل نقوداً، فقد أرسل أحد الفتيان إلى النزل ليطلب من الحلاق مريانو المبلغ الذي حدده القاضي، وقال للفتى: قل له إنني سأرد له المبلغ كله بأسرع

ما يمكن. وفي النزل، تذرع مريانو بأنه لا يملك ذلك المبلغ قائلاً: ليس بحوزتي مبالغ نقدية. وكان ذلك كذباً واضحاً. عاد الرسول راكضاً إلى مركز الشرطة، ونقل للسيد براوليو ردّ الحلاق السلبي حرفياً. وعندما رأى السيد براوليو أنه لم يعد أمامه مفر من التعرض للفضيحة، انتهز فرصة سهو رجال الشرطة الذين يحرسونه، ليغرس مشطاً معدنياً في قلبه. حرفت أسياخ الصدرية النسائية التي يضعها أسنان المشط، فلم يُحدث سوى جروح راح الدم يسيل منها بغزارة. فلوث ثوبه وتنانيره الداخلية، وخلّف بركة من الدم على أرض مركز الشرطة. انتزع الحراس المشط من صدره، وراحوا يركلونه على مؤخرته وخاصرتيه، وهم يصرخون به: فلنر إذا كنتِ ستتعقلين الآن أيتها الخنزيرة. طلب السيد براوليو من الرسول أن يعود ثانية إلى النزل. «هناك شاب يدعى بوفيلا، أونوفري بوفيلا» – قال السيد براوليو ذلك للرسول من المقعد الطويل الذي يستلقي عليه متألماً ونازفاً، وأضاف: – اسأل عنه بتكتم. لا أظنه يملك قرشاً، ولكنه سيعرف كيف يساعدني. وقال لنفسه بعد أن انطلق الرسول لينجز مهمته: إما أن ينقذني هو، وإما أن تكون يد الرب قد تخلت عني. وراح يفكر بشيء يمكنه استخدامه للانتحار مرة أخرى إذا لم يُخرجه أونوفري من ذلك المأزق، وهو يقول لنفسه: كل هذا بسبب عقلي الأعوج. وفي النزل، استمع أونوفري بوفيلا إلى ما رواه له الرسول، وقدر أن الحظ قد واتاه. فقال للرسول: أخبر السيد براوليو أني سأذهب أنا بنفسي إلى مركز الشرطة قبل الفجر، ومعي النقود، واطلب منه ألا يقنط، وألا يقترف اليوم مزيداً من الحماقات. وعندما انصرف الرسول، صعد أونوفري الدرج وطرق باب غرفة ديلفينا. فردت عليه الفتاة من الداخل عندما أخبرها بهويته، قائلة: لا أجد سبباً يجعلني أفتح لك الباب. وحيال هذا الرد الجاف، لم يستطع أونوفري أن يمنع نفسه من الابتسام وهو يقول لها بعذوبة:

– من الأفضل أن تفتحي الباب يا ديلفينا. أبوكِ في مأزق؛ فالشرطة تحتجزه وقد حاول الانتحار: ويمكنك أنت نفسك أن تقدري إذا ما كان الأمر خطيراً.

فُتح الباب، وبدت ديلفينا في فراغه تسدّ الطريق إلى الغرفة. كانت ترتدي قميص النوم الرث نفسه الذي رآه عليها في مناسبتين سابقتين:

عندما ذهبت إلى غرفته لتعرض عليه العمل، وعندما ذهب إليها ليحضرها إلى حيث ينتظرها سيسينيو. ومن الغرفة المجاورة جاء صوت السيدة آغاتا الشاكي:

- أحضري الطست يا ديلفينا!

ولدى سماعها، بدرت من ديلفينا حركة تململ. وقالت لأونوفري: لا تضايقني، يجب أن أحمل الماء الساخن إلى أمي.

فلم يتحرك أونوفري من المكان الذي يقف فيه. ورأى الخوف مرسوماً في عيني الفتاة، فبث ذلك الشجاعة في نفسه، وقال لها بصوت من بين أسنانه: فلتنتظر؛ أنت وأنا لدينا أمور أكثر إلحاحاً يجب علينا إنجازها. عضت ديلفينا شفتها السفلى قبل أن تتكلم، وقالت أخيراً: لستُ أفهم ما الذي تريده. فقال لها: أبوكِ في خطر، ألم أقل لكِ ذلك؟ ماذا بكِ؟ ألا تفهمين؟ هل أنت مجنونة؟ رمشت عينا ديلفينا عدة مرات، كما لو أن ذلك التراكم غير المتوقع للأحداث الحاسمة يمنعها من تكوين فكرة شاملة عن الوضع. وأخيراً تمتمت: آه، أجل، أبي، ماذا أستطيع أن أعمل من أجله؟ فقال أونوفري بصلف: لا شيء. فأنا الوحيد الذي يستطيع مساعدته في هذه اللحظات: حياته بين يدي. شحب لون ديلفينا وخفضت بصرها. دوت دقات ساعة كنيسة سان إشيكيل. فسألها أونوفري: كم الساعة الآن؟ وردت ديلفينا: الثالثة والنصف. ثم أضافت بعد ذلك: إذا كنت تستطيع مساعدته حقاً، فلماذا لا تفعل ذلك؟ ماذا تنتظر؟ ماذا تريد مني؟ وكانت توسلات المريضة تتواصل من الغرفة المجاورة: ما الذي يحدث يا ديلفينا؟ لماذا لا تأتين؟ ما هذه الأصوات يا ابنتي؟ مع من تتكلمين؟ همّت ديلفينا بالخروج إلى الممر، فانتهز هو تلك الحركة ليمسك بها من كتفيها ويجذبها إليه بقوة. كان في تصرفه من الفظاظة أكثر مما فيه من العاطفة؛ وحين لم تتحرك هي، ظل هو ثابتاً دون حراك أيضاً. ولكن بدا الآن كما لو أن محاولة الفتاة الهروب قد أشارت إلى بداية معركة. لقد بدأ يلمس الآن من خلال قماش قميص النوم السميك جسد ديلفينا الضامر. لم تقاوم، وتحولت نبرة صوتها إلى التوسل وهي تقول له: اتركني، أرجوك، فمن القسوة ترك أمي تنتظر، يمكن لها أن تصاب بنوبة إذا لم أسرع إليها. لم يعر أونوفري اهتماماً إلى كلماتها. بل قال وهو يدفعها:

أنت تعرفين ماذا عليك أن تفعلي إذا أردتِ رؤية أبيك حياً من جديد. دخلا إلى مخدعها، وأغلق هو الباب بقدمه؛ وفي أثناء ذلك، كانت يداه تحاولان بحركة خرقاء العثور على أزرار قميص نومها. فقالت الفتاة: أونوفري، لا تفعل ذلك، حباً بالرب. فضحك بصوت خافت، وقال بحنق: لا جدوى من المقاومة؛ فالآن لم يعد لديك هرّ يحميك: لقد مات بعلزيول؛ سقط عن السطح وتحول إلى «عجينة» حين ارتطم بحجارة الشارع. وأنا بنفسي ألقيت بقاياه المقرفة في البالوعة. ثم هتف: أوه، يا للشيطان! لم يستطع فك أزرار قميص النوم، إذ لم تكن قد أتيحت له حتى ذلك الحين فرصة العراك مع ملابس أنثوية، وكانت الاستثارة تضاف الآن إلى قصوره. أدركت ديلفينا مدى حرج الوضع الذي هو فيه، فتهاوت مستلقية على السرير، ورفعت قميص نومها حتى وركيها، وقالت له: هيا، تعال!

عندما نهض كانت ساعة كنيسة سان إثيكيل تدق معلنة الرابعة، فقال: بعد قليل ستشرق الشمس. وقد وعدت السيد براوليو بأنني سأكون في مركز الشرطة ومعي النقود، قبل الفجر، وسأفي بكلمتي. ثم أضاف وهو ينظر إلى ديلفينا: الأعمال هي الأعمال. كانت الفتاة تنظر إليه بغموض، وتمتمت كأنها تحدث نفسها: لا أدري لماذا قمتَ بتدبير كل هذا، فأنا لا أستحق بذل كل هذا الجهد. كان ضوء الفجر يخطف لون جسد الفتاة؛ فقد كانت بشرتها، على ملاءات السرير المختلطة، تبدو شاحبة، وضاربة إلى الرمادية تقريباً. وفكر أونوفري: كم هي نحيلة! كان يقارن ذهنياً بين جسد ديلفينا وأجساد زوجات عمال المعرض اللواتي رآهن على الشاطئ يتخففن من قسوة الصيف بالتلاعب بين الأمواج وهن شبه عاريات. وفكر: يا للغرابة، كم أراها مختلفة الآن. ثم رفع صوته قائلاً لها: تغطي! فغطت جسمها بطرف الملاءة. كان شعر ديلفينا المشعث يشكل الآن هالة حول وجهها. وسألته: هل حان وقت ذهابك الآن؟ فلم يقل شيئاً، ولكنه أنهى ارتداء ثيابه بسرعة. كانت السيدة آغاتا قد كفت عن الصراخ، وساد الغرفة صمت عميق. اتجه أونوفري نحو الباب. وهناك أوقفه صوت ديلفينا:

– انتظر – سمعها تقول له – لا تذهب الآن. لا تتركني هكذا. ماذا سيحدث الآن؟ – وانتظرت للحظات ردّ أونوفري، ولكن هذا لم يكن قد فهم

حتى معنى السؤال. فغطت وجهها بيدها اليسرى، وسألت:- ماذا سأقول لسيسينيو؟ فأطلق أونوفري قهقهة حين سمع ذلك الاسم، وقال: لا حاجة بك لأن تقلقي بشأنه؛ لأن لديه زوجة وأولاد؛ لقد كان يخدعك طوال الوقت؛ فإذا كنت تأملين شيئاً من ذلك الوغد فإنك تتوهمين. ظلت ديلفينا تنظر إلى أونوفري، ثم تمتمت بنبرة هادئة: سأخبرك بشيء ذات يوم، سأبوح لك بسر ذات يوم. أما الآن، فانصرف.

نزل أونوفري إلى الطابق الأول، واختبأ منتظراً خروج الكاهن بيثانسيو إلى الحمام، ثم أخرج المبلغ اللازم من فراش الخوري. وبتلك النقود، أخرج السيد براوليو من مركز الشرطة وأعاده إلى النزل في عربة مستأجرة، لأنه كان واهن القوى بسبب كثرة ما فقده من الدم. استقبلتهما ديلفينا وهي تعاني من مغص وتشنجات قوية. كانت قد تقيأت وأصيبت بإسهال شديد: فلخوفها من أن تكون قد حملت من أونوفري بوفيلا، تناولت عن طريق الفم، مادة ذات مفعول ملين تُحضّر في المنازل، وتستخدم كحقنة شرجية لتنظيف البطن. فكانت تبدو وكأنها في الرمق الأخير.

صرخ السيد براوليو:

- بنيتي! ماذا أصابك؟

- وأنت يا أبي، بهذه الملابس... ومسربل بالدم!

- بالدم وبالعار يا ديلفينا، ها أنت ترين يا ابنتي العزيزة. ولكن ماذا فعلتِ أنت؟

فأجابت ديلفينا:

- الشيء نفسه يا أبي، مثلما فعلت أنت.

- المهم ألا تعلم أمك المسكينة بما حدث.

وعندما دخلا لرؤية السيدة آغاتا، كانت حالتها قد ساءت. وقد أثارت أصوات الحسرات والنحيب الآتية من الطابق الثالث، قلق الأب بيثانسيو، فصعد بملابس النوم، ليرى إذا ما كانت هناك حاجة لخدماته. فاختبأ السيد براوليو في خزانة كي لا يراه الكاهن وهو بملابس امرأة داعرة، وأرسله أونوفري لإحضار صديقه الطبيب الذي كان قد عالج ميكائيلا كاسترو.

وعندما رأت ديلفينا أنها تخلصت من الكاهن، أخذت أونوفري جانباً وقالت له:

– غادر النزل فوراً ولا ترجع إليه. لا تبق ولو من أجل جمع أمتعتك. لقد حذرتك، ولن أقول لك أكثر من هذا، وانظر أنت ما يناسبك.

ودون أن يتوقف ليفكر بما يعنيه ذلك التحذير، أدرك أونوفري أن ديلفينا لا تتكلم عبثاً، وهرب من النزل. كانت السماء وردية والعصافير تزقزق. وكان العمال يتوجهون إلى أعمالهم وهم يحملون أبناءهم الصغار لكي يتيحوا لهم نيل قسط قليل آخر من النوم، ريثما يصلون إلى أبواب المعامل. وهناك يوقظونهم ويفترقون: فيذهب الكبار نحو المواقع الخطرة والأعمال الصعبة، بينما يذهب الأولاد إلى أعمال أكثر سهولة.

عندما وصل إلى حديقة القلعة، رأى المنطاد المقيد يعلو فوق قمم الأشجار والسواري. كان المهندسون منهمكين في التأكد من سلامتة ومن متانة تثبيته. فلن يكون من المناسب أن يقطع المنطاد حبال تثبيته، في ذروة المعرض، ويمضي في مهب الريح مع سلته المملوءة بسائحين يسيطر عليهم الهلع. فالاهتمام بـ «السائح» كما كان يقال حينذاك هو محط الرعاية كلها في تلك الأيام. ولم يكن لدى الصحف ما تتحدث عنه سوى ذلك، فهي تقول: ***سيتحول كل واحد من الزائرين، حين يعود إلى بلاده، إلى رسول وداعية لكل ما رآه، وما سمعه وتعلمه***. وكان المنطاد المقيد يعمل على أكمل وجه، اللهم إلا عندما تهب تلك الرياح السيئة التي يسمونها «الرياح الغربية» فإنه يكشر تكشيرة ماكرة وينقلب رأسا على عقب. وقد بقي المهندس الذي يتحكم به معلقاً من قدمه، مرتين هذا الصباح، ومثبتاً بأحد الحبال، والقلق باد عليه. كانت هذه مجرد صغائر، طوارئ اللحظة الأخيرة التي يجب أن تؤخذ في الحسبان على الدوام. كان الدخول إلى حرم المعرض يتم عبر قوس النصر. وكان هذا القوس الذي مازال بالإمكان الإعجاب به حتى الآن، مشيداً على الطراز المُدَّجن. وقد نُقشت على قنطرته شعارات الأقاليم الإسبانية؛ وكان شعار برشلونة في منتصف القوس. وكان فيه إفريزان كذلك، واحد في كل جانب؛ وعلى الإفريزين نقوش بارزة تمثل هذين المشهدين: انخراط إسبانيا في

معرض برشلونة الدولي (تذكيراً بالشقاقات التي وقعت)، وبرشلونة وهي تشكر الأمم الأجنبية على حضورها. وبدا الرمز في الإفريزين واضحاً وقليل الصرامة. وكان قوس النصر يؤدي إلى شارع سان خوان وهو جادة فسيحة جداً، مشجرة، ومرصوفة بالفسيفساء، ومزينة بمصابيح كبيرة وبثمانية تماثيل برونزية تستقبل الزائر، وتبدو كما لو أنها تقول: تفضل بالدخول. وفي ساحة سان خوان تنتصب سرايا العدالة التي ما تزال قائمة إلى الآن، وسرايات الفنون الجميلة، والزراعة، والعلوم التي لم يعد لها وجود. وكان هناك عمودان يمثلان مدخل الحديقة بالذات. وفي أعلى كل عمود مجموعة نحتية حجرية، واحدة تمثل التجارة، والثانية تمثل الصناعة، كما لو أن هناك رغبة في توجيه هذه الرسالة: «لا تنتظروا منا سوى منجزات عملية». وقد أزعجت هذه الأيديولوجية الحكومة المركزية التي هي أكثر ميلاً إلى المواقف ذات الطابع الروحاني، وربما كانت هذه الروحانية هي التي منعتها، إلى جانب شح الأرصدة، من زيادة مساعدتها المادية للجهد العام. وهذان العمودان لا يزالان ماثلين للعيان.

وبينما هو يتذكر نتفاً مما حدث قبل ساعات، كان يفكر: كيف يمكن لإفرين، وهو شديد الغباء، أن يحصل على النساء دون أي جهد، في حين أنني، أنا الذي أفوقه كثيراً في الذكاء، أضطر إلى تحمل مضايقات كثيرة؟ ولم يجد قط جواباً مرضياً لهذا السؤال. وهو لم يعثر كذلك في هذا الصباح على إفرين، بالرغم من تردده مراراً على نقاط اللقاء المتفق عليها. ووصل في سيره إلى الشاطئ. كان هناك فريق عمال يمهدون الرمل لمحو آخر آثار المخيم الذي وُجد هناك خلال أكثر من سنتين. كان العمران المديني قد امتد إلى جانب من الشاطئ وانتصبت فيه عدة أجنحة: جناح شركة المنشآت البحرية، وجناح شركة النقل عبر الأطلسي، وكلتاهما على علاقة بالبحر، وجناح مخصص لعرض خيول التهجين الفحلة، وكان صهيلها يُسمع عندما يهدأ هدير الأمواج. كما كان هناك مرسى فيه مطعم فاخر يتوغل في البحر. بهر تلألؤ الشمس المنعكسة في الماء نظر أونوفري بوفيلا. ولم يعرف إلى أين ذهب النساء والأطفال الذين كانوا يقيمون إلى ما قبل وقت قصير على الشاطئ. وكان يهب نسيم ربيعي دافئ وكثيف.

رجع في تلك الليلة إلى النزل. كان البهو مقفراً. وكذلك قاعة الطعام. رأى رأس مريانو الحلاق يطل. ما الذي تفعله هنا؟ يا للخوف الذي سببته لي. فسأله أونوفري بدوره: ما الذي حدث يا مريانو؟ أين هم الجميع؟ كان الحلاق شبه عاجز عن تركيب جملة. وكان خائفاً إلى حد بدا وجهه أبيض، وكأنه مكسو بالدقيق.

– جاء رجال الحرس الأهلي وأخذوا السيد براوليو والسيدة آغاتا وديلفينا. وقد اضطروا إلى حمل الثلاثة على نقالات. السيدة آغاتا لأنها في حال سيئة، وأظن أنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة. والسيدة براوليو وابنته لأنهما ينزفان دماً دون توقف. أنت لم تنتبه بسبب الظلام، ولكن الردهة مغطاة بالدم. لا بد أنه تخثر الآن. إنها دماؤهما، الأب والابنة، مختلطة. لا أدري إذا ما كانوا قد أخذوهم إلى السجن، أم إلى المستشفى، أم لدفنهم مباشرة. مجرد تذكر المشهد يا فتى، يسبب لي الغثيان. مع أنني رأيت ما رأيت أثناء ممارسة مهنتي. ثم ماذا؟ لماذا أخذوهم؟ أنا لا أعرف شيئاً. فأنت تدرك أنهم لم يأتوا ليقدموا لي تفسيرات. ولكنني سمعتُ إشاعات، أجل. يقال إن الفتاة، تلك الفزاعة، هي عضو في عصابة أشرار، من أولئك الذين يسمونهم فوضويين. ولستُ أدّعي أن هذه هي الحقيقة؛ إنما هذا هو ما سمعتُ أنه يقال. والنساء بالطبع، هن مثلما تعرف. يبدو أنه كانت لها علاقات وتعامل، لستُ أدري من أي نوع، مع شخص عضو في العصابة أيضاً، وهو نَقَّاش. لقد وقع النقّاش بوشاية وبعده الفتاة وجميع الآخرين.

فقال أونوفري:

– وأنا، ألم يسألوا عني يا مريانو؟

– بلى، فكلامك هذا جعلني أتذكر، أظن أنهم سألوا عنك – قال الحلاق ذلك بنبرة فيها لمسة خفيفة من الارتياح، وأضاف:– لقد فتشوا جميع الغرف، وغرفتك بدقة أكبر من الجميع. سألوا في أي ساعة ترجع عادة. فقلتُ لهم عند حلول الليل. ولم أقل لهم إن هناك علاقة بين الفتاة الوسخة وبينك، لأنني في الحقيقة لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. لقد رأيت بعض الأشياء، ولاحظتُ أشياء، أما رسمياً، بهذا المعنى، فلا شيء لدي. والكاهن بيثانسيو قال لهم إنك لم تعد تأتي إلى هنا؛ وإنك غادرت النزل منذ عدة أيام. وبما أنه

يرتدي مسوح الرهبنة، فقد صدقوا أكاذيبه ولم يصدقوا حقائقي. ولهذا السبب لم يتركوا هنا أي حارس على سبيل الحيطة.

خرج مطلقاً ساقيه للريح، وكان يفكر وهو يهرب: لا شك في أن ديلفينا هي الواشية، فبدافع الغيظ، ولكي تنتقم منه ومن سيسينيو، وشت بكل المنظمة. لقد طلبت منه أن يغادر النزل دون إضاعة الوقت. «غادر دون أن تأخذ أمتعتك، ولا ترجع»، هكذا قالت له. كانت تريد إنقاذه من الوقوع في يد الحرس الأهلي. أما سيسينيو بالمقابل، فهو الآن في السجن، وبابلو كذلك، وحتى هي نفسها. أما أنا فقد أرادت ديلفينا إنقاذي، مع أنني المتسبب في الواقع بكل هذه التقلبات. يا للبلبلة! ثم فكر بعد ذلك: لا بد لي من أن أختفي من برشلونة. وقال: ستعود المياه إلى مجاريها مع مرور الزمن؛ فالفوضويون سيخرجون من السجن إذا لم يتم إعدامهم؛ وسيعود هو أيضاً إلى صفقاته؛ وربما سيتمكن من إعادة تكوين عصابة الأطفال-اللصوص، بل قد يتمكن من إقناع الفوضويين بأنه من الأفضل الانكباب على نشاطات مربحة بدل الثورة غير الممكنة التي يحلمون بها. أما الآن، فلا بد من الهرب. ولكن عليه قبل ذلك أن يستعيد النقود التي مازالت في النزل، مخبأة في فراش الكاهن بيثانسيو. المغامرة بالاقتراب مجدداً من المنطقة تنطوي على مجازفة كبيرة. ومن المؤكد أن مريانو، ذلك الحلاق الدنيء، قد أخبر الشرطة بأنه قد رجع إلى النزل بعد أن أدار له ظهره مغادراً. وفكر: ولكن من غير الممكن التخلي عن النقود أيضاً. ولحسن الحظ أنه يعرف كيف سيتصرف: تدبر من المعرض سلماً يدوياً، حمله على كتفه إلى مقربة من النزل. وكان عليه أن يجتاز نصف برشلونة وهو يحمل السلم اليدوي على كتفه، ولكنه لم يكن ليلفت انتباه أحد وهو في تلك الحال. وبعد ذلك، عندما تقدم الليل، أسند السلم اليدوي إلى الجهة الخلفية للمبنى، مثلما قال له سيسينيو. وهكذا صعد إلى السطح: هناك حيث كان سيسينيو وديلفينا يلتقيان طوال سنتين. كان يعرف أين هي الكوة التي يمكنه الدخول منها إلى النزل: فمنها صعد إلى السطح عندما طلاه بالزيت. الطابق الثالث كان خاوياً، فشاغلوه السابقون في السجن. وإذا ما كان هناك حراس من الشرطة يترصدونه، فإنهم سيكونون في البهو بانتظار رؤيته يدخل من الباب، ولا يمكن أن ينتظروا مجيئه من السطح.

الظلام المخيم يساعده في خطته: فهو وحده يعرف كل خفايا البيت بالتفصيل، وهو من يستطيع أن يجوبه دون أن يتعثر. نزل إلى الطابق الثاني ودفع باب غرفة الأب بيثانسيو، سمع تنفس الخوري المسن النائم، اختبأ تحت السرير وراح ينتظر. وعندما أعلنت ساعة كنيسة بريسنتاثيون الثالثة، نهض الخوري وخرج من الغرفة. لن يتأخر أكثر من دقيقتين في العودة، ولكن ليس أقل منهما كذلك: وخلال هذا الهامش من الوقت عليه أن يعمل. دس يده في الفراش وتبين له أن النقود قد طارت. أضاع الوقت في التلمس مرة بعد أخرى، وفي تقليب قش الفراش الذي كان يتقصف بين أصابعه. ولكنه كان يعرف أنه ليس ثمة خطأ: فالنقود ليست موجودة. سمع الكاهن بيثانسيو وهو عائد من الحمام. وفكر في الانقضاض عليه والإمساك بخناقه، والضغط عليه إلى أن يعرف منه ما الذي جرى للنقود، ولكنه تخلى عن عمل ذلك. فإذا ما كان أحد حراس الشرطة هناك وسمع صوتاً مريباً فسوف يهرع فوراً والمسدس في يده. وقال لنفسه: لا بد من الانتظار، والبحث عن فرصة أفضل من الحالية. وكان عليه أن يقضي ساعة تحت السرير وهو يكاد يختنق، إلى أن خرج الخوري ثانية إلى الحمام. عندئذ خرج من تحت السرير مخدراً، اجتاز الممر، وصعد الدرج بخفة، ثم إلى السطح فالشارع. عند الفجر رأى الكاهن بيثانسيو يمر في طريقه إلى تعبداته. وعندما تأكد من أنه ليس هناك من يلاحقه، خرج لملاقاته. فهتف الخوري:

– أونوفري، يا لسعادتي برؤيتك يا بني. ظننت بأنني لن أراك أبداً – واغرورقت عيناه بدموع التأثر البريء وهو يقول ذلك، وأضاف:– أرأيت الأمور الرهيبة التي وقعت. لقد كنتُ ذاهباً إلى الكنيسة الآن بالذات لأصلي من أجل السيدة آغاتا المسكينة، فهي أكثر من يحتاج إلى صلاتي. وبعد ذلك سأصلي من أجل السيد براوليو ومن أجل ديلفينا؛ كل شيء في وقته.

فقال أونوفري:

– يبدو لي هذا جيداً يا أبتاه، ولكن قل لي أين هي نقودي؟

– أية نقود يا بني؟ – سأل الأب بيثانسيو. ولم يَبدُ ما يشير إلى أن جهل العجوز ليس صادقاً. وفكر أونوفري: ربما كانت ديلفينا نفسها هي التي خبأت النقود قبل أن تذهب إلى الشرطة لتقديم وشايتها؛ أو ربما عثرت

عليها الشرطة أثناء التفتيش. ومن المحتمل أيضاً أن يكون الأب بيثانسيو قد عثر على النقود مصادفة وأنفقها في أعمال الإحسان دون أن يدرك جيداً ما يفعله. وقال لنفسه: وكيف يمكن لأي شخص أن يظن أن تلك النقود لي؟ آه، لقد كان من سوء حظي أنني لم أنفق تلك النقود أولاً بأول كلما حصلت عليها، مثلما يفعل إفرين كاستيلس.

وفي طريقه إلى المعرض، حيث ذهب ليرى إذا كان بإمكانه أن ينقذ على الأقل جانباً من البضائع التي سرقها الصبيان، اضطر إلى الابتعاد جانباً ليفسح الطريق لموكب فخم: كانوا يقتادون ثيران المصارعة من المحطة إلى ميدان المصارعة لتُقتل هناك في الاحتفالات على يد مشاهير المصارعين في ذلك الوقت: فراسكويلو، غيريتا، لاغارتيخو، ماثانتيني، إسبارتيرو، وكارا آنتشا. وكانت الحيوانات تلوي رؤوسها، وتوجه نطحات إلى النظارة وتتوقف لتتأمل بعيونها حسيرة البصر قواعد بعض أعمدة النور. ولدى مرور الثيران، كان بعض الظرفاء يفكون المناديل من حول أعناقهم ويقلدون بسخرية بعض حركات المصارعة. وكان كلافو الثيران يوخزون بعصيهم ذات المِنخس رؤوس الحيوانات، ورؤوس المتظارفين أيضاً إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا. حين وصل أونوفري إلى حديقة القلعة، ذهب إلى الجناح الذي خبؤوا فيه الساعات فوجده خاوياً. ففكر: إنها النهاية. ولدى خروجه من الجناح أحاط به رجلان. أمسك به كل واحد منهما من إحدى ذراعيه، ولاحظ أونوفري أن أحد الرجلين جميل بصورة استثنائية. وأدرك كذلك أنه لا جدوى من المقاومة، فانقاد لهما بوداعة. وقبل أن يغادر حرم المعرض، ألقى نظرة إلى الوراء: كان إكساء الأجنحة قد أنجز بين ليلة وضحاها، وهي الآن تلمع تحت الشمس؛ ومن خلال أغصان الأشجار التي يهزها النسيم، تظهر أكشاك وتماثيل، خيام ومظلات، وقباب عربية صغيرة تعلو منصات وأكواخ البيع الصغيرة. وفي ساحة السلاح، قبالة الترسانة القديمة، كان هناك بعض المهندسين القادمين خصيصاً من إنكلترا، يجرون اختباراً على **النافورة السحرية**. حتى إن خاطفيه وقفا مذهولين للحظة. كانت أشكال وألوان أعمدة وأقواس الماء تتبدل دون تدخل ظاهر ودون إضافة أصبغة: كل ذلك كان يتم بقدرة الكهرباء. وفكر أونوفري وهو ينقاد مستسلماً، ربما إلى الموت: هكذا يجب أن

تكون الحياة. ثم تساءل في سره: وماذا عن إفرين؟ بعد كل تلك البيزتات التي دفعتها له، لا أجد له أثراً الآن، أين تراه ذهب؟ لم يكن بمقدوره أن يتصور أن إفرين كاستيلس يلحق به بكل إخلاص عن بعد، متخفياً.

– اصعد إلى هذه العربة – قالا له لدى الوصول أمام عربة فاخرة. كانت نوافذها مغطاة بستائر، ولم يكن يظهر إذا ما كان هناك أحد في داخلها. وكان يجلس على مقعد القيادة حوذي لا يرتدي الزي الرسمي للحوذيين، هرم بعض الشيء، ويدخن غليوناً.

فقال أونوفري:

– لن أصعد هنا.

كان أحد الخاطفين قد فتح باب العربة، ودفعه الآخر داخلاً وهو يقول: ادخل دون كلام. فانصاع أونوفري. كان هناك رجل وحيد يجلس في العربة. بدا أنه خمسيني، إنما يمكن أن يكون أصغر من ذلك؛ إنه منتفخ البطن وما تحت الذقن، ولكنه ضيق الكتفين ونحيل الوجنتين، جبهته مسطحة وعالية، تنتهي بزاوية قائمة. حيث يبدأ شعر أجعد لم يخالطه الشيب بعد، اللهم إلا في الصدغين، وهو مقصوص كما العشب. لم يكن له سالفان طويلان، وذقنه حليقة تماماً من الأذن إلى الأذن، ولكن له شارب كثيف ومرفوع، على طريقة ماريشالات فرنسا تقريباً، وكان هذا الشخص هو هومبرت فيغا إي موريرا، الذي سيعمل أونوفري معه لسنوات طويلة.

كانت حاشية أي ملك في ذلك العهد كبيرة العدد لأسباب من النوع العملي وأسباب أخرى رمزية، تفوقها أهمية، مثلما هو السبب التالي: بما أن الملك هو نسخة عن الرب على الأرض، فإنه من غير اللائق أن يؤدي بنفسه أي مهمة، بما في ذلك مهمة رفع الملعقة إلى فمه. ثم هناك سبب آخر: فملوك إسبانيا، منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة، لا يُسرِّحون أبداً من عملوا في خدمتهم ولو بصورة مؤقتة، وكل خدمة تقدم للبيت الملكي تتحول إلى وظيفة تستمر مدى الحياة، فهناك ملوك ذهبوا إلى الحرب، بعد أن تقدموا في العمر، مصطحبين معهم مرضعاتهم وخادماتهم ومربياتهم الهرمات (لأنه لا

يمكن للملك أن يقول: لم أعد الآن بحاجة إلى هؤلاء، لأن مثل ذلك التصرف قد يُفسر من جهة على أنه بحاجة إلى التوفير، ومن جهة أخرى بأنه قد احتاج إلى شيء في يوم ما) كما لو أنهن أمين سر الملك أو قهرمانه أو حاجبه، مما يشكل متاهة من حوله، وحشداً كبيراً يحول دون اتصاله بالجنرالات في أزمنة الحرب وبالوزراء في أزمنة السلم. ولهذا لم يكن الملوك يغادرون البلاط إلا فيما ندر. فجلالة ألفونسو الثالث عشر (ليحفظه الله)، كان عمره سنتين ونصفاً في سنة 1888، عندما جاء إلى برشلونة ترافقه أمه دونيا ماريا كريستينا، الملكة الوصية على العرش، وأختاه وبطانته. وقد شُلّت المدينة. وجرى، من أجل إقامة الأسرة المالكة، إعادة تأهيل مقر سكن الحاكم القديم في القلعة (وبهذا صاروا جميعهم داخل حرم المعرض مما يتيح لهم أن يزوغوا من إجراءات الدخول المزعجة، التي تكلف بيزتا واحدة، أو من الاشتراك الدائم الذين يكلف خمساً وعشرين بيزتا) وكذلك المبنى المسمى الترسانة. أما المعاونون، والنُّظّار، والقناصون، وسائسو الخيل، والصيادون، والمراقبون، وجنود الهراوات، ومسؤولو المؤونة، ومدبرو الشموع، وفارشي السجاد، وموزعو الصدقات، والوصيفات، والخادمات، وغيرهن من السيدات العاملات في القصر الملكي، فكان لا بد من استضافتهن حيثما أمكن ذلك بطريقة لائقة. ومما زاد في تعقيد الوضع حضور ملوك ونبلاء وأعيان بلاد أخرى. فكانت هناك طرائف متنوعة ترضي كل الأذواق، مثلما هي هذه: اضطرار حاكم مدينة سكسوني إلى قضاء ليلة في سرير واحد مع فنان قادم لتوه من باريس، وفور ذلك، كما يقول إعلان سيرك إكويستري، سيبدأ استعراض القطط المدربة؛ أو نادرة ذلك المحتال الذي ادعى أنه المغولي الأكبر وتمكن من العشاء مجاناً، مستفيداً من جمال مظهره، في عدة مطاعم ومقاهٍ. وكان الناس، البرشلونيون، يسعون جاهدين لتذليل كل المصاعب التي يواجهها الزائر، حتى لو كلفهم ذلك أكبر المشقات والأذى، وكانوا يتلقون مقابل ذلك الإساءة، مثلما يحدث عادة في مثل هذه الحالات. فالزائرون يُبدون الترفع، في الغالب، ويشمخون بأنوفهم لأتفه الأسباب ويمضون قائلين: يا للقرف، يا

لهذا المكان، يا للناس المغفلين، وما شابه ذلك. فقد كانوا يظنون أن الازدراء هو النبرة المناسبة.

افتُتح المعرض، مثلما كان مقرراً، في الثامن من نيسان (أبريل). وجرى احتفال التدشين على النحو التالي: في الساعة الرابعة والنصف دخل جلالة الملك وبطانته إلى قاعة الاحتفالات في سرايا الفنون الجميلة. وجلس الملك على العرش. وكان يسند قدميه اللتين لا تصلان إلى الأرض على كومة من الوسائد. وإلى جانبه جلست أميرة أستورياس، دونيا ماريا دي لاس ميرثيديس، والأميرة دونيا ماريا تيريسا. وإلى جانب الملكة الوصية، التي ارتدت السواد، جلست دوقة إيدمبورغ. ثم يأتي بعد ذلك، وفق التسلسل، دوق جنوه، ودوق إيدمبورغ، وأمير بافاريا روبريشت، وأمير الغال جورج. وخلفهم جلس رئيس مجلس الوزراء دون براسيديس ماتيو ساغاستا، والسادة وزراء الحربية، والأشغال العامة، والبحرية، وبطانة جلالته، وأعيان إسبانيا الذين توافدوا إلى الحفل (يتلقاهم التصفيق المأجور، حسب امتيازاتهم، أو حفاة إذا ما أرادوا ممارسة هذا الحق الملكي بالتناوب)، ثم السلطات المحلية (بالملابس الرسمية)، والسلك الدبلوماسي والقنصلي، والمبعوثون الأجانب، والجنرالات، والأميرالات، وقادة أسلحة الجيش، وأعضاء مجلس إدارة المعرض، وأعداد كبيرة من الشخصيات. وتوزع في المكان، إلى حيث دفعهم الحشد البشري، الخدم ذوو السراويل القصيرة المشدودة على الساقين، والمكلفون بحمل شعارات نبالة كبار الزائرين: المفتاح أو السلسلة النحاسية الصفراء، الحزام، المقرعة، قرن الغزال، المخلب، القوس، أو الجرس. لقد حضر ذلك الحفل خمسة آلاف شخص. وبعد إلقاء الخطابات، اقتاد المربون أطفال الأسرة الملكية. وزار الكبار بعض الأجنحة، فبدؤوا بجناح النمسا، البلاد التي تتحدر منها جلالة الملكة. وفي جناح فرنسا جرى عزف إحدى مقطوعات شوبان، وفي قصر الحاكم قُدم نوع من المرطبات كان يدعى آنذاك «**لونتش**». وعندما انتهت الملكة من تناول «اللونتش»، كان آخر الحاضرين ما يزالون يدخلون إلى جناح النمسا. وكان حشد كبير شاهداً على كل ذلك. وفي الليل

أقيم عرض خاص على مسرح الليسيو، وقد حضرته الملكة التي كانت، فضلاً عن الملابس، تضع تاج إمارة كتالونيا. وقُدمت في العرض أوبرا «لوهينغرين»؛ وعندما بدأ الفصل الثاني كان هناك من لا يزالون يشربون مرطب «اللونتش». وبكلمات موجزة، كان حفل الافتتاح مهيباً ومنظماً. لم تكن منشآت المعرض لتنتقص من جدارة من زاروها في ذلك اليوم. لأن بعض الأبنية لم تكن قد أنجزت نهائياً بعد؛ وكان غيرها، من تلك التي انتهى تشيدها قبل وقت طويل، قد بدأت تتردى. وتحدثت الصحف عن «تصدعات هائلة» أو عن «فوضى كبيرة». ولكن المهم أن الناس أعجبوا بالمعرض. إن رؤيتنا اليوم لمنشآت العارضين تلك بتصاميمها الصارمة، المزينة بتيجان أزهار محفورة على الخشب، وبحريرها ومظلاتها تجعلنا نجد فيها نفحة من أجواء القبور، ولكنها تتفق مع ما كان عليه الذوق في ذلك العصر، ومفهومه للأناقة. فلا بد من محاكمة الأمور في سياقها المضبوط. وقد وصلت إلى المرفأ ثمان وستون سفينة حربية من بلدان مختلفة، عليها تسعة عشر ألف رجل وخمسمئة وثمانية وثلاثون مدفعاً. هذا الأمر الذي يمكن له أن يبدو تهديداً حربياً الآن، عدّه البرشلونيون يومذاك دليلاً لا ريب فيه على المجاملة والصداقة. إذ لم تكن الحرب الكبرى قد نشبت بعد، وكانت الأسلحة ما تزال تحتفظ بشيء من طابعها التزييني. وفي قصيدة نظمها فيدريكو راهولا في تلك المناسبة، يوضح هذه الفكرة مثلما نرى:

قذائف مدفعية مكابرة
ترج الأرض،
إنها مسوغ الحرب
تقدم التحية للسلام.

ويعبِّر ميلتشور دي بالاو عن فكرة مطابقة في قصيدته **نشيد إلى افتتاح المعرض**، حيث يقول أحد أبياتها:

والمدفع المخيف، يُرعد، لكنه لا يجرح.

ظل المعرض الدولي مفتوحاً حتى يوم التاسع من شهر كانون الأول

(ديسمبر) 1988. وكان حفل الختام أكثر بساطة من الافتتاح: صلاة شكر في الكاتدرائية واحتفال مقتضب في سرايا الصناعة. وكان المعرض قد استمر مئتين وخمسة وأربعين يوماً وارتاده أكثر من مليوني زائر. وتجاوزت كلفة بنائه خمسة ملايين وستمئة وأربعة وعشرين ألفاً وستمئة وسبعاً وخمسين بيزتا وستة وخمسين سنتافو. وقد أمكن الاستفادة من بعض المنشآت فيما بعد في استخدامات أخرى. وكانت قيمة الدين المتبقي ضخمة أثقلت كاهل بلدية برشلونة سنوات طويلة. كما ظلت حية ذكرى أيام الزهو تلك، واليقين بأن برشلونة يمكنها، إذا أرادت، أن تكون مدينة كونية من جديد.

الفصل الثالث

- 1 -

قليلة هي الأشياء المعروفة عن دون هومبرت بيغا إي موريرا: ولد في برشلونة حيث كان ذووه يديرون تجارة فواكه مجففة متواضعة، في حي رافال؛ ودرس في كنف رهبان مبشرين اضطروا، بسبب تقلبات سياسية في أراض نائية، إلى الاستقرار في برشلونة، حيث مارسوا التعليم كي لا يكونوا عبئاً ثقيلاً؛ وبعد ذلك درس القانون. تزوج متأخراً، في الثانية والثلاثين من عمره. وقد حقق ازدهاراً مهنياً كبيراً: ففي الأربعين من عمره كان يملك أحد أشهر مكاتب المحاماة في برشلونة؛ ولم تكن تلك الشهرة حميدة، وسنرى الآن السبب: لم يكن هناك في منتصف القرن التاسع عشر عاقل بكامل قواه يناقش مسألة مساواة جميع البشر أمام القانون، لأن الواقع كان مختلفاً. فأهل النظام، والناس الأثرياء، يتمتعون بحماية ينكرونها على العامة. فالعاميّ يجهل حقوقه، وإذا عرفها، فإنه لا يعرف كيف يستفيد منها، وحتى لو عرف ذلك، فمن المشكوك به أن تعترف له العدالة بها؛ ولا مصير له إلا الخسارة على الدوام. وقد كان لدى العدالة في هذا المجال أفكار قليلة، ولكنها شديدة الوضوح. فالعصر يسوده الإيمان بالعلوم، والتفكير الشائع هو: ليس هناك ظاهرة أو شيء إلا وله علّة محددة. فإذا أمكن تمييز هذه العلة سيكون بالإمكان وضع قانون ثابت لجميع الحالات المماثلة؛ ويحفنة من القوانين الثابتة يمكن استشفاف المستقبل دون خوف من الوقوع في الخطأ. وكان التفكير نفسه ينطبق على السلوك البشري: يجري البحث له عن علل يمكن اختزالها بعد ذلك إلى قوانين. وفي هذا الميدان كانت هناك نظريات تلائم كل الأذواق: فالبعض يؤكدون أن الوراثة الجينية هي العامل الحاسم في كل ما يفعله الفرد على امتداد حياته؛ بينما يؤكد آخرون أن العامل الحاسم هو الوسط الذي ولد الفرد فيه، ويراه غيرهم في التربية التي تلقاها، الخ... ولم يُعدم من يأتي على ذكر المشيئة الحرة، ولكن حججهم كانت تسقط في كيس

مثقوب، وكان يقال لهم: هذه النظرية لن توصلنا إلى شيء. كانت «الجبرية» في أوجها، وكانت تُسهِّل الأمور كثيراً، لا سيما لأولئك الذين عليهم أن يحاكموا السلوك البشري. فالقضاة لا يزدرون العدالة، ولكنهم يطبقونها على طريقتهم، وبصورة مستعجلة. فهم لا وقت لديهم للتدقيق في التفاصيل: يلقون نظرة على المتهم ويعرفون على الفور ماذا يتوجب عليهم أن يفكروا بأمره. فإذا ما اقترف شخص راق، من ذوي الجاه والثراء جريمة، يقولون: لا بد أن سبباً قوياً قد دفعه للتصرف بتلك الطريقة؛ ويبدون عندئذ تفهماً كبيراً. أما إذا كان مرتكب الجريمة من العامة ، فإنهم لا يبحثون عن دوافع ومبررات لسلوكه، ولا يبدون رجاحة العقل. ويفكرون: ليس الطبيعة المتوارثة من الأب إلى الابن وحدها هي التي تجعلهم يميلون إلى مخالفة النظام، وإنما هذه الميول لا تجد كابحاً من التعاليم الدينية، ولا من الوعي الحضاري، ولا الثقافة. وهم يتفقون في هذا الأمر مع علماء الاجتماع. وإذا ما تعلل المتهم بظروف تستدعي التخفيف أو العفو يردون عليه بالاستهزاء قائلين له: يمكن للمتهم أن يتعلل بما يخطر له، إنه يتحول إلى عصفور مسكين؛ ولكن لا، لاشيء من هذا، فليذهب إلى السجن. وفي السجن تجري محاولة إعادة تأهيل المساجين، ولكن النتائج لا تكون مرضية على الدوام. حيال كل هذا، ومع بلوغ الأمور ذلك الحد، كان دون هومبرت فيغا إي موريرا، وهو من أصول متواضعة، يواجهها برؤية مختلفة، أكثر عملية، فكان يقول: ما يحدث للفقراء الذين ينحرفون هو أنهم لا يجدون محامياً جيداً يُخرج لهم الكستناء من النار. وكان ذلك صحيحاً: فليس هناك من محامٍ يضع موهبته تحت تصرف الباشين. جميعهم يريدون خدمة الناس الصالحين، ذوي الألقاب الراسخة. ولأن هؤلاء قليلون، فإن المحامين الذين يحققون أرباحاً جيدة هم قليلون أيضاً. فكان دون هومبرت فيغا إي موريرا يقول: هناك بين الفقراء ميدان فسيح للاستثمار، والمشكلة هي في معرفة كيفية عمل ذلك. وكان يقول: بما أنني السيد لا أحد، وليست لي علاقات مع الناس الأثرياء، فإن شق طريقي في الأوساط الراقية سيكون أصعب بكثير من عمل ذلك بين الفئات الدنيا. وهكذا بدأ يتردد على الفقراء؛ يعرض عليهم مساعدته وعلمه؛ وطبع بطاقات خاصة، قراءتها أسهل من قراءة البطاقات الشائعة، مكتوبة بالخط القوطي.

«إذا ما تورطتم في مشكلات فتذكروني»، كان يقول ذلك للفقراء، ويقدم إليهم بطاقته. فينظر إليه الفقراء بارتياب؛ ولا يولونه اهتمامهم، أو يسخرون منه، أو يطلبون منه الذهاب في سبيله. وفيما بعد، عندما يجدون أنفسهم فعلاً في ورطة ما، يتذكرونه ويبحثون عن البطاقة؛ ويقولون لأنفسهم: يا للشياطين، لن نخسر شيئاً إذا جربنا؛ وإذا ما انتهى بي الأمر إلى السجن، وهو ما سيحدث على الأرجح، فلن أدفع له شيئاً وسنبقى بسلام. كانوا يوكلونه بالقضايا الميئوس منها، فيقبلها طوعاً؛ وكان يعامل زبائنه باحترام، دون سخرية أو ترفع. ويعمل في القضايا بجدية كبيرة. وقد ظن القضاة والمدّعون العامون في أول الأمر أنه يتصرف بدافع الغيرية، فحاولوا أن يخرجوه من أوهامه بالقول له: لا تضيع وقتك أيها الزميل العزيز، هؤلاء أناس من طينة سيئة، لقد خُلقوا للإجرام، إنهم لحم السجون. فكان يستمع إلى هذه الآراء باحترام، ولكنه لا يأخذها في الحسبان؛ فهو متفق في أعماقه مع ما يقولون، ولا يهمه سوى تقاضي الحساب. لقد رباه المبشرون، علموه الصبر، وأن يقول دائماً نعم، علموه فن الإقناع؛ وكان يكسب معظم القضايا، على العكس من كل التوقعات: فقد كان يعرف الإجراءات كما لا يعرفها أحد ويجد على الدوام حيلة يستخدمها لبلوغ غاياته؛ وبالرغم من السخط العام بين القضاة والمحكمين فإنهم يضطرون إلى إعطائه الحق، وكان المدعون العامون يلقون بالمراجع القانونية وعباءاتهم الرسمية أرضاً، والدموع تطفر من عيونهم قائلين: لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا المنوال، إننا نرغم على التساهل بالقانون. وكان ذلك صحيحاً: فقد كان القانون سخياً في تأمين الضمانات وحتى المنافذ والحيل، لأنه لم يوضع ليستفيد منه الرعاع. وقد فاجأهم أن يعمد محامٍ مثلهم لوضع ثغرات القانون في خدمة أسوأ أصناف المجرمين. وكانت حيرتهم تُلمح من خلال الأحكام التي يصدرونها. وكانوا يقولون: لقد باغتونا ونحن نمسك بسروالنا، ولكن علينا أن نحكم بالبراءة، ونحن نفعل. ولم يكن المجرمون الذين يتلقون البراءة أقل دهشة؛ فكانوا يسألونه بفضول خرافي حقاً: لماذا تساعدنا أيها السيد المحامي؟ ويظنون أنهم يقفون في حضرة قدّيس. فيرد عليهم هو: من أجل المال؛ لكي تدفعوا لي أتعابي. فكان المجرمون، بالأخلاقية الصارمة التي تميزهم،

يدفعون له الأتعاب حتى آخر قرش؛ ولا يجادلونه أبداً؛ وهكذا راح يغتني. وبعد عدة سنوات، في ليلة شتائية، تلقى زيارة غريبة.

كان له مكتب في شارع سفلي من حيّ سان بيدرو؛ حيث يعمل معه هناك، فضلاً عن محاميين مساعدين اثنين، سكرتيرة وحاجب. وهو يفكر في التعاقد مع عدّة محامين مساعدين آخرين. وكان الجميع قد غادروا المكتب في تلك الليلة باستثناء الحاجب. وكان هو نفسه يضع اللمسات الأخيرة على تفاصيل قضيّة من المقرر أن يتم النظر فيها، في صباح اليوم التالي، عندما طُرق الباب الخارجي. ففكر: يا للغرابة، من يمكن له أن يكون في مثل هذه الساعة؟ وطلب من الحاجب أن ينزل ليفتح، ولكن أن يتأكد قبل ذلك من أن الطارقين أياً كانوا، آتون بنوايا طيبة: وكان من الصعب معرفة ذلك، لأنه لا يأتي إلى المكتب عادة إلا أشخاص مخيفون. أما في هذه المرة بالمقابل، فلم تقع أي مشكلة: كان هناك في الشارع ثلاثة سادة يبدون من الأعيان وشخص رابع غريب المظهر، ولكنه لا يثير الشكوك. وكان السادة الثلاثة يغطون وجوههم بأقنعة؛ ولم يكن ذلك بالأمر الغريب في برشلونة ذلك العصر.

– هل أنتم آتون بنوايا طيبة؟- سأل الحاجب الزائرين المقنعين. فأجابوه بنعم وشقوا طريقهم مبعدين الحاجب جانباً بمقابض عكاكيزهم التي يخفون فيها خناجر صغيرة. جلس المقنعون الثلاثة حول المنضدة المتطاولة في إحدى قاعات المكتب. وبقي الشخص الرابع واقفاً؛ وقد عرفه دون هومبرت دون صعوبة بالرغم من مرور زمن طويل: إنه أحد أولئك المبشرين الذين تولوا تعليمه، وبفضل كرمهم استطاع أن يشق طريقه في الحياة؛ وربما هو عائد الآن ليطلب منه معروفاً، لن يستطيع عدم تقديمه إليه. وقد عرف فيما بعد أن اهتمامات ذلك المبشر قد قادته إلى أثيوبيا وإلى السودان؛ وقد تمكن هناك من تحويل كثيرين إلى المسيحية، ولكنه مع مرور السنوات راح هو نفسه يتحول إلى الإيمان بالديانة الوثنية التي كان يقارعها؛ وقد رجع إلى برشلونة مبعوثاً من الدراويش للدعوة إلى الشعوذة. كان يرتدي ملابس عادية، ولكنه يحمل في يده اليمنى قصبة تنتهي بجمجمة بشرية. وكلما حرك الجمجمة، صدرت منها قرقعة حصى.

– ما الغرض من تشريفكم لي بهذه الزيارة؟ – سأل المحامي ذلك الوفد

اللغز. فتشاور المقنعون فيما بينهم بالنظرات، وقال أحدهم:

- لقد تابعنا أعمالك باهتمام عظيم. وجئنا إليك الآن لنقدم لك عرضاً. إننا رجال أعمال، لا تشوب سيرتنا شائبة: ولهذا السبب بالذات نحتاج إلى مساعدتك.

فقال هو:

- إذا كان ذلك في متناولي...

- سترى أنه كذلك سريعاً- قال له المقنّع- فنحن، كما قلتُ للتوّ، أشخاص معروفون، نهتم كثيراً بمكانة أسمائنا. وحضرتك من جانبك، كوّنت لنفسك بجدارة، سمعة واسعة بين رعاع المجتمع. وباختصار، نحن نريد من يقوم بعمل قذر لحسابنا، وأن تكون حضرتك وسيطنا. ولا حاجة إلى القول إننا لن ندقق في النفقات.

- آه، هتف هو بذلك، وأضاف قائلاً:- ولكن هذا عمل غير أخلاقي. وعند هذه النقطة تدخل رجل الدين المرتد ليقول: الأخلاق تنقسم إلى نوعين: أخلاق فردية وأخلاق اجتماعية؛ بالنسبة للنوع الأول، لا يوجد مبرر للقلق، لأن دون هومبرت لن يُقدم على اقتراف عمل مُستنكَر، وإنما سيقتصر على إنجاز مهمته، وعلى ممارسة مهنته؛ أما بالنسبة إلى الأخلاق الاجتماعية، فليس هناك ما يستدعي الاعتراض: فالمهم هو الحفاظ على النظام الاجتماعي، وحسن سير آليّته. وأنتَ يا بنيّ أنقذت مجرمين كثيرين من حبس يستحقّونه؛ ومن العدل إذن أن تدفع آخرين إلى الجريمة والمشنقة؛ وبهذا- أضاف المرتد – يتوازن الميزان. وكان المقنعون قد وضعوا في أثناء ذلك كومة من المال على المنضدة. وافق المحامي على التكليف، وسار كل شيء على ما يرام. وتوالت بعد ذلك مثل تلك التكليفات عليه. فكان يأتي إلى المكتب كلّ ليلة سادة مقنّعون وعدد غير قليل من السيدات. وكانت العربات الفاخرة تعرقل حركة السير أمام الباب الخارجي. وبما أنه ليس لدى المجرمين الحقيقيين ما يخفونه، فقد كانوا يأتون إلى المكتب في مواعيد الاستشارات المقررة، في وضح النهار ودون أي تنكر.

وكان المحامي يقول لزوجته:

- يا للروعة التي تسير عليها كلّ أعمالي.

وراحت حاجته إلى أناس يعملون في خدمته تتزايد؛ ليس إلى محامين مساعدين وسكرتيرات فقط، وإنما كذلك إلى عملاء قادرين على التحرك بطلاقة في قاع المجتمع. وكان يجند هؤلاء العملاء أينما وجد إلى ذلك سبيلاً، دون التدقيق في سوابقهم. وقد قال لأونوفري بعد أن انفرد به في العربة:

– لقد قيل لي إنك تنفع، وإنك تجيد التحرك. ولهذا ستعمل عندي.

– وما هو نوع العمل؟– سأله أونوفري.

فقال هومبرت فيغا إي موريرا:

– أن تفعل كل ما أقوله لك، ولا توجه أسئلة غير مناسبة. الشرطة تتابع نشاطاتك. ولولا حمايتي لكنتَ في السجن. ليس لك من خيار آخر: إما أن تعمل معي وإما ستنهال عليك عشرون سنة من السجن.

وعملَ مع دون هومبرت منذ 1888 حتى سنة 1898، وهي السنة التي فُقدت فيها المستعمرات.[1]

وضعوه في البداية تحت أمرة ذلك الشخص الجميل جداً الذي اختطفه في حديقة القلعة، والذي يدعى أودون موستاثا، وهو مولود في ثامورا، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة. أعطوه مدية وهراوة وقفازاً محبوكاً بالسنارة، وطلبوا منه عدم استخدام الهراوة إلا عند الضرورة؛ والمدية في الحالات الحرجة؛ وعليه في الحالتين كلتيهما أن يضع القفاز قبل أن يمسك الهراوة أو المدية كي لا يخلف عليهما آثار بصمات. وقال له أودون موستاثا: والأهم من كل ذلك هو ألا يتمكن أحد من تحديد هويتك، لأنهم إذا حددوا هويتك سيتمكنون من تحديد هويتي، وإذا حددوا هويتي ، يمكنهم أن يتعرفوا على من يزودني بالأوامر، وهكذا سينتقلون من شخص إلى آخر، كما في حلقات سلسلة، حتى يصلوا إلى دون هومبرت فيغا إي موريرا. والحقيقة أن برشلونة بأسرها كانت تعرف أن دون هومبرت فيغا إي موريرا يتعامل مع الأوغاد؛ لقد كانت طبيعة نشاطاته سراً متداولاً، ولكن لم يحدث له شيء، لأن السلطات

---

[1] فقدت إسبانيا في سنة 1898، آخر مستعمراتها في القارة الأمريكية: كوبا وبويرتوريكو، كما اضطرت إلى التخلي عن الفليبين بعد تدمير الأمريكيين أسطولها هناك.

وشخصيات من الأوساط السياسية والتجارية كانت متورطة إلى هذا الحد أو ذاك في القضية. كان الأغنياء يحتفظون بمسافة تفصلهم عن دون هومبرت فيغا إي موريرا، ولكنهم يعتبرونه في العلن شخصية مرموقة. ولم يكن هو يفهم هذه الازدواجية في المشاعر، فيظن أنه ينتمي إلى الأرستقراطية المدينية، وكان سعيداً بذلك. وكان يشاركه في افتخاره بصورة غير مباشرة أودون موستاثا وبقية أفراد العصابة. فإذا تصادف وجودهم عند الظهيرة على مقربة من شارع باسيّو دي غراثيا، فإنهم يقولون بعضهم لبعض: فلنذهب لرؤية مرور دون هومبرت في باسيّو دي غراثيا. وكان هو يظهر هناك كل يوم، دون أن يخلف موعده يوماً، على متن فرسه الشريشية الأنيقة. ويحيي الفرسان الآخرين بيده المغطاة بقفاز، أو يلوح بقبعته المخملية ذات اللون الأخضر الزمردي للسيدات اللواتي يمررن في عربات مكشوفة تجرها خيول أصيلة. وكان أودون موستاثا وأتباعه ينظرون إليه خفية من بعيد، كي لا يلوثوا سمعته بإظهار دليل ملموس على معرفتهم له. وكان يقول لأونوفري بوفيلا: يجب أن تعتز يا فتى، أن تشعر باعتزاز كبير لأن زعيمك هو أكثر الرجال أناقة في برشلونة، وأكثرهم نفوذاً كذلك. هذا الوصف الأخير كان ينطوي على مبالغة: فدون هومبرت فيغا إي موريرا كان في الواقع السيد «نكرة»؛ وحتى في ميدانه كان هناك من هو أوسع نفوذاً منه: إنه دون الكساندري كانالس إي فورميغا. لم يكن هناك من يرى وجهه في شارع باسيّو دي غراثيا، مع أنه يعيش غير بعيد عنه؛ فقد شيّد برجاً من ثلاثة طوابق، على الطراز المدجن، في شارع ديبوتاثيون، على بعد أمتار قليلة من ذلك الباسيّو المشهور. والمكتب الذي مات فيه كان يقع في شارع بلاتيريا. وكانت حياته تمضي بين بيته ومكتبه. ويذهب بين حين وآخر فقط إلى أرجوحة دوارة مقامة في أرض خلاء بالقرب من بيته؛ ليأخذ إليها ابنه الصغير المتخلف بعض الشيء. وكان قد أنجب ثلاثة أبناء آخرين، ولكنهم ماتوا جميعهم في جائحة الطاعون المأساوية عام 1879.

كانوا يكلفون أونوفري في أول الأمر بأعمال ضئيلة الأهمية؛ ولا يسمحون له بالعمل منفرداً. فهو يذهب مع أودون موستاثا إلى المرفأ للإشراف على تفريغ شحنة من البضائع؛ وفي مرات أخرى ينتظران أمام

باب أحد البيوت، دون معرفة السبب، إلى أن يأتي أحدهم ويقول لهما: حسن، انتهى الأمر، يمكنكما الانصراف؛ أو عبارة من هذا القبيل. وعليه بعد ذلك أن يخبر بكل ذلك شخصاً يطلق عليه أودون موستاثا لقب مرغريتو؛ مع أن اسمه الحقيقي هو أرناو بونثيّا. وقد دخل في خدمة هومبرت فيغا إي موريرا قبل سنوات طويلة؛ فهو أحد المساعدين اللذين عملا منذ البداية في مكتبه؛ وراح يزدهر في ظلّه، وتحول تدريجياً إلى أحد معاونيه المقربين: وهو يشرف الآن على كل الاتصالات مع الأوغاد، وعلى كل العمليات القذرة. كان قصير القامة ذا مظهر عليل، يضع نظارات سميكة وشعراً مستعاراً شديد السواد، أظفاره طويلة وغير نظيفة، وكان قليل الاعتناء بملبسه الذي تلطخه الدهون؛ وهو متزوج، ويقال إن له أولاداً كثيرين؛ ولكن ليس هناك من يعرف ذلك بصورة يقينية، لأنه كان منعزلاً ولا يقيم علاقة حميمة مع أحد. وقد كان شديد التدقيق والريبة والحذر كذلك: فلم يتأخر في ملاحظة كفاءة أونوفري الاستثنائية في تذكر التواريخ والأسماء والأرقام، وفي ذاكرته العجيبة. فكان يقول لأبنائه الذين يسعى إلى توفير تربية متقنة لهم: الصرامة أمر جوهري في هذا النوع من النشاطات، فأي خطأ هنا قد يؤدي بسهولة إلى كارثة. ولأنه يفكر على هذا النحو، فقد انتبه فوراً إلى مواهب أونوفري بوفيلا. ثم بدأ يرى فيه مزايا أخرى أرعبته. ولم يكن أونوفري يلحظ الاهتمام الذي يوقظه فيه: فهو يسعى إلى عدم لفت الانتباه، ولم يكن يعرف بعد أنه من الصعب إخفاء الذكاء مثلما هو صعب إخفاء انعدام الذكاء، وكان يظن بطيب نية أنه ليس هناك من يعيره اهتماماً. لقد كان يعيش حياته على هواه للمرة الأولى. كان أودون موستاثا أفّاقاً من النوع الجيد، مبذراً ومحباً للصحبة؛ ولم يكن هناك في برشلونة أو محيطها مكان للهو لا يعرفونه فيه؛ ففضلاً عن كونه جميلاً، كان صاخباً ومسرفاً يحبونه في كل مكان. وبرفقة أودون موستاثا صار لدى أونوفري بوفيلا، دون أن يخطط لذلك، دائرة من الصداقات؛ وهو أمر لم يعرفه من قبل. كان قد انتقل إلى نزل أفضل إلى حد ما من ذلك الذي يديره السيد براوليو والسيدة آغاتا؛ وبما أنهم رأوا هناك أن لديه دخلاً منتظماً، فقد عاملوه معاملة ممتازة. وفي كل ليلة تقريباً كان يخرج مع أودون موستاثا وشلته، ويترددون معاً على أوكار اللهو في برشلونة.

ووجد هناك نساء كثيرات مستعدات لسحب النقود منه مقابل مفاتنهن، ومقابل لحظات من المتعة؛ وكانت تلك المبادلة تبدو له عادلة ومريحة: فهي تتفق تماماً مع رؤيته للحياة. وكان يتذكر ديلفينا أحياناً، فيقول لنفسه في تلك المناسبات: كم كنتُ أحمق، وكم بذلتُ من الجهود والمعاناة غير الضرورية، مع أن الأمر كله في غاية السهولة. كان يظن أنه قد شفي إلى الأبد من داء الحب. ومع مجيء فصل الصيف، كانوا يترددون على ملاهي الخيام الشهيرة؛ وكانت تلك الخيام تروقه كثيراً: ثريات الإضاءة، والسجاجيد، وأكاليل الأزهار الورقية، والجمهور، والفرق الموسيقية المتعرقة، ورائحة العطور، والرقصات التقليدية لتلك الأماكن: فالس الشموع، ورقصة بيل دي رامس، وغيرها. وكانت تتوافد إلى الخيام فتيات كثيرات في عمر الزهور: يذهبن في جماعات، يتأبطن أذرع بعضهن البعض ويضحكن من كل ما يرينه؛ فإذا ما قال أحدهم شيئاً لواحدة منهن، ينفجرن كلهن في الضحك، ولا تعود هناك طريقة لجعلهن يتوقفن بعد ذلك، فقد كن يصبن بإسهال الضحك. أكثر هؤلاء الفتيات مرحاً وطزاجة كن بائعات السمك؛ والخادمات أكثرهن سذاجة، أما الخياطات المبتدئات فأشدهن خبثاً وخطورة. وكانوا يذهبون كذلك إلى ميدان مصارعة الثيران في برشلونة. وبعد مشاهدة حفلة المصارعة يخرجون لشرب البيرة والنبيذ الأحمر مع المياه الغازية في البارات المحيطة بميدان مصارعة الثيران؛ وهناك يقيمون حفلات صاخبة تتواصل حتى الفجر. وفي مناسبة أخرى راودته نزوة في زيارة المعرض الدولي الذي يتحدث عنه الجميع. لقد كانت برشلونة بأسرها في عيد: فقد طُلب من أصحاب المباني أن يرمموا واجهاتها؛ ومن أصحاب العربات أن يعيدوا طلاءها وينظفوها؛ ومن الجميع أن يُلبسوا خدمهم بصورة لائقة. وانتقت البلدية مئة حارس بلدي، ممن يبدون أكثر فطنة من سواهم، وأجبرتهم على تعلم اللغة الفرنسية خلال أشهر قليلة، ليتولوا الاهتمام بالزوار الأجانب؛ وهم يذهبون ويجيئون اليوم في المدينة مثل أرواح محزونة، يمضغون عبارات غير مفهومة؛ ويلحق بهم الأطفال ويضايقونهم، محاكين أصواتهم الحلقية ومطلقين عليهم لقب **المتغرغرين**. ذهب إلى المعرض وحيداً ودفع رسم الدخول: وقد سرّه الدخول إلى حرم المعرض من الباب مثل السادة. انقاد في مسيرة لحركة الجمهور، وتناول

وجبة العصر في المقهى-المطعم المسمى **قصر التنانين الثلاثة** (وكان قد عمل في بنائه أكثر من مئة وسبعين رجلاً، يعرفهم جميعهم تقريباً بأسمائهم)، ثم زار بعد ذلك متحف مارتوريل، وصالة مونتسرات لمناظر الدراما، ومقهى فالنسيا لشراب اللوز، والمقهى التركي، ومقهى الصودا ووتر الأمريكي، وجناح اشبيلية المشيّد على الطراز العربي، وغيرها. والتقط صورة (وقد ضاعت الصورة الآن) ودخل إلى سرايا الصناعة. ورأى هناك الواجهات التي يعرض فيها آلاتهم كل من بالدريتش، وفيلاغران، وتابيرا، أولئك السادة الثلاثة الذين من باسورا؛ فأيقظ فيه ذلك ذكريات سيئة، وهيج دماءه؛ أحس بأنه يختنق، وبأن الجمهور الذي يحيط به لا يطاق، فاضطر إلى مغادرة السرايا بأقصى سرعة، شاقاً طريقه بمنكبيه. وفي الخارج، بدا له المشهد المبهر دعاية مشؤومة: لأنه لم يستطع فصله عن الضيق والبؤس اللذين عانىُ منهما هناك إلى ما قبل شهور قليلة؛ ولم يرجع منذ ذلك اليوم لزيارة المعرض الدولي.

أما الحياة الليلية في برشلونة القديمة، بالمقابل، تلك التي لم تسمح لأبهة المعرض بأن تبدلها، وبقيت تعيش حياتها على هامش كل شيء، فقد كانت تفتنه، ويشعر نحوها بحماسة القروي. وكلما أتيح له، كان يذهب وحيداً، أو مع رفاقه، إلى محل يدعى «مملكة الشغب». وهو مكان بائس وموبوء، يبدو في النهار كئيباً، وضيقاً، وبلا جاذبية؛ ولكن ابتداء من منتصف الليل يرتاده زبائن أفظاظ، ولكنهم متفانون، يبعثون فيه الحياة؛ فيبدو المحل كما لو أنه يستمد قوة من الضعف، ويزداد اتساعاً للعين المجردة: فيكون هناك على الدوام متسع لثنائي جديد، ولا يبقى أحد دون منضدة. وعند الباب هناك على الدوام خادمان مزودان بقنديل لإضاءة الطريق وبندقية لإخافة اللصوص. وكان ذلك ضرورياً لأن رواد المحل لم يكونوا من الأشقياء الذين يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم وحسب، وإنما كذلك من شبان يبحثون عن الملذات وينتمون إلى أسر طيبة وبعض «الآنسات» اللواتي يأتين برفقة صديق، أو عشيق أو مع أزواجهن بالذات، وهن يغطين وجوههن بخمار سميك؛ وينغمسن هناك في انفعالات إثارة قوية، ويخففن من رتابة حياتهن ببعض المفاجآت، ثم يروين بعد ذلك ما رأينه، مع إضافة مبالغات في الكشف

والغموض. كان هناك رقص، وتقديم *tableaux vivants* «لوحات حيّة» في ساعات معينة. وقد كانت تلك اللوحات الحية واسعة الشعبية في القرن الثامن عشر، ولكنها كانت على وشك الاختفاء نهائياً في أواخر القرن التاسع عشر. وتتمثل في مشاهد ثابتة يقدمها أشخاص حقيقيون. ويمكن لهذه المشاهد أن تكون «معاصرة» (مثل لوحات: جلالة ملكي رومانيا يستقبلان سفير إسبانيا؛ أو الدوق الأكبر نيكولاس بزي الرماحين مع زوجته السامية، الخ) أو مشاهد ذات طابع «تاريخي» وكانت تسمى كذلك «تعليمية» (مثل: انتحار النومانتيين، وموت تشوروكا، وغيرها)؛ وغالباً ما تكون المشاهد «توراتية» أو «أسطورية». وهذه الأخيرة هي الأوسع شهرة، لأن الشخصيات فيها، أو في معظمها، تكون عارية. والعري في عرف أهل القرن الماضي هو الظهور بملابس شبكية، فالممثلون يرتدون ملابس، من الشبك لها لون اللحم. وليس هذا لأن الناس كانوا أكثر تعففاً مما هم عليه اليوم، وإنما لأنهم كانوا يؤكدون، بحق، أن الممتع هو شكل الجسد البشري، وأن الرؤية المباشرة للبشرة فيها من المرضية أكثر مما فيها من الإيروتيكية. وقد طرأ تبدل كبير على العادات في هذا المجال: ففي القرن الثامن عشر لم يكن التعري، كما هو معروف، يحظى بأدنى قدر من الاهتمام؛ فقد كان الناس يظهرون عراة أمام الملأ دون أن يمس ذلك كرامتهم؛ فالرجال والنساء يستحمون أمام الزائرين، ويبدلون ملابسهم بحضور الخدم، ويتبولون ويتغوطون في الطريق العام. وهناك تواتر ثابت لحدوث ذلك في صحف ومراسلات ذلك العهد، ففي صحيفة دوقية ك*** نقرأ ما يلي: **في حفل عشاء في بيت آل م*** تصدرت ربه المنزل، السيدة ج***، المائدة وهي عارية.** وفي صحيفة أخرى: **حفلة رقص في منزل الأمير ف***. كان فيها الجميع عراة باستثناء القس ر*** الذي تنكر بقناع فراشة؛ وساد الحفلة جو من المرح.** وفي «مملكة الشغب»، كانت هناك أوركسترا من أربعة عازفين تؤجج الرقص، وكانت رقصة الفالس قد شاعت وتقبلتها كل الطبقات الاجتماعية؛ أما رقصتا «باسو دوبلي» و«تشوتيس» فكانتا مقصورتين على الغوغاء؛ بينما لم تكن رقصة «التانغو» قد ظهرت بعد، وكانت الفئات الراقية ما تزال ترقص في سهراتها رقصات «الريغدون» و«الماثوركا» و«اللنثيروس» و«المينويتو»؛ وكانت رقصتا «البولكا»

و«الجافا» تشهدان انتشاراً واسعاً في أوروبا، ولكن ليس في كتالونيا؛ أما الرقصات الشعبية مثل «السردانا» و«الخوتا» وغيرهما، فكانت محظورة في أماكن من نوع «مملكة الشغب»، ولأن شهور فصل الصيف شديدة الحرارة، فقد كانت ليالي الخريف هي فترة ازدهار ذلك المحل، حين تهب العواصف في الشوارع، ويدعو البرد إلى الركون. أما عندما يأتي الربيع فإن المقاهي وحفلات الرقص في الهواء الطلق تنتزع منه جزءاً كبيراً من زبائنه.

ووسط هذا الصخب الدائم كان أونوفري بوفيلا يعمل ما بوسعه ليستمتع بوقته على أحسن وجه. وكان يتوصل إلى ذلك أحياناً، ولكنه في الغالب، وعلى الرغم من جهوده، كان يبقى قلقاً ومهموماً: فهو لم يكن يتوصل مطلقاً إلى الاستمتاع الكامل بإمكانات اللهو التي يتيحها له ذلك الوسط، ولم يكن يفقد عقله تماماً قطّ وينغمس في تلك الدوامة. وكان أودون موستاثا، الذي صار يعطف عليه كثيراً ويشعر بأنه مسؤول بطريقة ما عن رفاهيته، ينظر إليه بقلق وهو يراه جدياً على الدوام. فيقول له: هيا يا فتى، لماذا لا تترك الهموم جانباً ولو للحظة واحدة؟ انظر أي نساء هنا، ألسن قادرات على جعل أحدنا يفقد عقله؟ فيرد أونوفري بعذوبة باسمة: لا تحاول إجباري يا أودون، فاللهو يتعبني كثيراً. فكان أودون موستاثا يضحك لهذه المفارقة؛ دون أن يفهم أن ما يقوله أونوفري هو الحقيقة: فأي ابتعاد عن أفكاره ولو لدقائق قصيرة، يتطلب منه جرعة كبيرة من الطاقة، إذ لا يمكن إلا لجهد يفوق طاقة البشر أن يبعده آنياً عن تذكر ذلك الصباح الرهيب الذي حضر فيه إلى بيت أبويه شخص غريب. كان العم تونيت قد أحضره في عربته من باسورا؛ وكان يرتدي سترة فراك بالية وصداري، ويضع نظارة وقبعة. وكان يحمل كذلك حقيبة منتفخة، ويسعى إلى تجنب الخوض بحذائه في برك الماء، ويدور بحذر حول أكوام الثلج المتراكمة والمتسخة المنتشرة في كل الأنحاء، وكل شيء كان يخيفه: فخفق جناحي عصفور على غصن يبعث فيه ذعراً شديداً. قدّم نفسه بكثير من اللف والدوران وهرع ليتدفأ على نار الموقد التي ما تزال مشتعلة في المنزل. كانت تدخل من الباب المفتوح شمس أواخر شباط (فبراير) وتصل إلى منتصف الحجرة؛ مشعة، ولكنها ما تزال باردة، فكان ذلك الضوء يمنح الأشياء بروفيلاً محدداً وكأنها مرسومة بقلم رصاص دقيق جداً.

بدأ ذلك الرجل بالقول إنه يتكلم باسم موكليه، السادة بالدريتش، وفيلاغران، وتابيرا . وإنه ليس سوى مساعد محام في مكتب محاماة في باسورا، وقال لهم متوسلاً ألا يروا أي شيء شخصي في ما سيقوله لهم. لقد كُلفت بهذه المهمة غير اللطيفة، ويؤسفني أنني مضطر إلى تنفيذها، ولكن مهمتي هي تنفيذ الأوامر. وحضرتكم تدركون ذلك، وقد أضاف قوله الأخير هذا مع إيماءة إشفاق لا يدري بها إلى من سيتوجه. فأومأ الأمريكي بيده بنفاد صبر وكأنه يريد أن يقول: أرجوك، أدخل في الموضوع مباشرة. فتنحنح مساعد المحامي عندئذ، وقالت والدة أونوفري إن عليها تقديم العلف للدجاج. ثم أضافت وهي تنظر إلى عيني زوجها: وسآخذ الصبي معي، فهكذا تبقيان معاً براحتكما. فقال لها إنه لا داعي لذهابها، ومن الأفضل أن تبقى وتسمع ما جاء يقوله لي هذا السيد. كان مساعد المحامي يفرك يديه، ويتنحنح دون توقف كما لو أن دخان ألم قد أمسك بخناقه. وبصوت خافت، يكاد لا يسمع، أخبر الأمريكي بأن موكليه قد قرروا أن يرفعوا ضده قضية احتيال. فقال الأمريكي إنها تهمة خطيرة؛ وأرجو منك أن توضح الأمر. فقدم مساعد المحامي تفسيرات مشوشة وغامضة. يبدو أن جوان بوفيلا قد أفهم الجميع في باسورا بأنه إنديانو مغتنٍ، وقد زار كل الصناعيين والمولين في المدينة بحيلته تلك وقال لهم إنه يبحث عن مجال استثمار مضمون لثروته. وبهذه الذريعة راح يحصل على سلف على الحساب، وقروض، بل وعلى هبات كذلك. وبما أن الوقت راح يمر دون أن يظهر أي تجسيد لتلك الاستثمارات الموعودة، فإن السادة بالدريتش وفيلاغران وتابيرا، الذين قدمت مؤسستهم أكبر المبالغ للأمريكي، قرروا المبادرة إلى إجراء التحريات المناسبة. وأضاف مساعد المحامي على الفور بأنهم تقصوا الأمر بالحذر والتكتم الذي تتطلبه الحالة. وتبين من تلك التحريات صحة الشكوك التي كانت تخامر الجميع: فالسيد جوان بوفيلا لا يملك فلساً واحداً. وقال مساعد المحامي: وهذا احتيال لا ريب فيه؛ ثم شحب لونه على الفور وسارع إلى القول إن هذا التأكيد الجازم لا يعني إصداره حكماً أخلاقياً معيناً، فهو مجرد أداة يعمل وفق مشيئة الآخرين، ثم أضاف متعجلاً: وهذا الوضع يعفيني من أي إساءة قد تلحق بكم. خرقت الأم الصمت الذي تلا تلك الكلمات بقولها: ما الذي

يتكلم عنه هذا الرجل يا جوان؟ وعند ذلك جاء دور الأمريكي ليبدأ النحنحة. وأخيراً لم يجد بداً من الاعتراف بأن كل ما قاله مساعد المحامي هو الحقيقة المحضة. فقد كذب على الجميع: ففي كوبا، حيث كان الجميع بمن في ذلك أشد المغفلين، يتوصلون إلى جمع ثروة في ذلك الحين، لم يتمكن هو من كسب ما يكفي لتأمين معيشته بصورة لائقة. وقال بخجل: إن ما كان قد وفره في البداية، عندما كان يتمتع بكامل حماسه، استولت عليه أفاقة كولومبية. ثم حصل بعد ذلك على قرض استثمره على الفور في بعض الصفقات؛ ولكن تبين له أن تلك الصفقات ليست إلا عمليات غش واحتيال. ثم اضطر أخيراً إلى القيام بأكثر الأعمال انحطاطاً، وهي أعمال يرفض حتى العبيد الزنوج القيام بها. فلم تبق هناك مبصقة في هافانا إلا ونظفتُها ولا حذاء إلا ولمّعتُه ولا مرحاض إلا وسلّكتُه، باستخدام أدوات أو من دونها، قال ذلك على سبيل المثال. وكان قد رأى خلال تلك السنوات مجيء مهاجرين يوشكون على الموت جوعاً، ولكن أحوالهم لا تلبث أن تتبدل بعد بضعة شهور، فيلقون قطعة نقدية في برك الماء في الشارع ليروا كيف يلتقطها بإنزال يده حتى المرفق؛ وهكذا كانوا يتسلون بالسخرية منه. كان قد أكل قشور موز، وحسك سمك، وخضاراً متعفنة وأشياء أخرى لا يريد أن يذكرها الآن تهذباً؛ وأخيراً قال لنفسه: لا بأس يا جوان، هذا يكفي.

– كان لديّ مبلغ صغير من المال– واصل الأمريكي حديثه – حصلتُ عليه بطريقة شائنة: أعطاني إياه بعض البحارة الإنكليز مقابل أن أكون وسيطهم إلى أكثر المتع انحطاطاً؛ وبذلك المبلغ من المال، ثمرة النذالة، اشتريت البدلة التي أرتديها، وقرداً محتضراً وتذكرة عودة في عنبر سفينة شحن.

وقبل رحيله بوقت قصير، استدان بعض النقود وهو يعلم أنه لن يردها، وأبحر في ليلة هطل فيها المطر مدراراً. وقد تعرّى وطلى جسده ووجهه بالقار كي لا يتعرف عليه دائنوه إذا ما تصادف والتقوا به. وقال الأمريكي: بهذه الطريقة التي لا تتناسب كثيراً مع كرامة رجل أبيض، اجتزتُ للمرة الأخيرة شوارع أرض الميعاد تلك التي كانت نيراً وأغلال عبودية ومذلة بالنسبة لي. وبعد إبحار السفينة لم يغتسل ولم يلبس ثيابه ولم يخرج من

مخبئه إلى أن اجتازت السفينة المياه الإقليمية للمستعمرة الإسبانية. ثم عاش بعد ذلك من تلك النقود ومن عمليات الاحتيال. وكان يدرك أن الحقيقة ستظهر عاجلاً أو آجلاً، وأضاف أن الاعتراف المؤلم الذي باح به يخفف عنه في الحقيقة عبئاً ثقيل الوطأة. وقال إنه سعيد في أعماقه لأنه وضع حداً لتلك السلسلة من أعمال الغش. وانتهى إلى الاعتراف بأنه لم يفعل ذلك بدافع الدناءة أو الجشع، وإنما بدافع الزهو. وقال: الحقيقة أنني فعلت كل ذلك من أجل ابني. فقد أراد أن تكون لدى ابنه فكرة عما تكون عليه الحياة لو لم يكن من نصيبه أب عديم النفع مثل هذا الأب الذي منحه الرب إياه.

ولم يكن للقضية في النهاية أي نتائج لاحقة: فقد اقتنع بالدريتش وفيلاغران وتابيرا باستحالة استرداد أموالهم عن طريق الأحكام القضائية، فسحبوا شكواهم. ولكنهم أجبروا الأمريكي بالمقابل على العمل لحسابهم؛ وكانوا يقتطعون جزءاً من دخله يخصصونه لتسديد الديون. وكان أونوفري يحاول الآن نسيان تلك الأمور، ولكنه لا يستطيع. كان يشرب دون اعتدال، ويتردد على عدد من المواخير. كما كان ينفق الكثير من النقود على شراء الملابس الجذابة. ومع ذلك، لم يكن يستدين قط، ويهرب من القمار كأنه الطاعون.

كان طول قامته قد توقف عن النمو: فهو لن يكون رجلاً طويل القامة؛ وكان كتفاه قد نموا كثيراً، وكذلك صدره؛ فصار مربوع البنية، متيناً، غير منفر التقاطيع. وبالرغم من تحفظه، فقد كان لطيفاً ويظهر انفتاحاً في التعامل: فكان الأفاقون، والعاهرات، والقوادون، ومهربو المخدرات، ورجال الشرطة، والوشاة يحبونه ويقدرونه؛ وجميعهم تقريباً يتوددون إليه لكسب صداقته، وكان الجميع يعترفون بميزاته القيادية الواضحة، دون أن يكون هو نفسه راغباً في ذلك. وحتى أودون موستاثا نفسه، الذي أمر أونوفري بطاعته، وقع تحت تأثيره: فكان يسمح لأونوفري على الدوام بأن يبدي رأيه، وأن يكون من يقرر ما يجب عمله أو تجنبه، ومن يتفاهم عند اللزوم مع أوناو بونشيّا، الشهير بلقب مرغريتو. مما أدى إلى تأكيد شكوك هذا الأخير. فكان يقول لنفسه: هذا الفتى سيكون ذا شأن؛ فهو لم يكد يمضي سنة معنا، وقد تحول مع ذلك إلى الديك في قنه. فإذا لم أتخذ جانب الحذر، فإنه سيدوسني في أي لحظة سهو. وكان يفكر: يجب عليّ أن أدمره، ولكنني لا أعرف كيف. إنه

ما يزال الآن دون قيمة، يتفلّت من بين أصابعي مثل برغوث، ولكن ربما سيكون وقت القضاء عليه قد فات بعد قليل. فكان يحاول كسب ثقته؛ وكلما تحدث إليه تطرق إلى موضوع اللباس؛ وراح يطري على البدلات الجديدة التي يفصلها أونوفري: فقد كان، مثل جميع من يهملون هندامهم، شديد التحسس لأناقة الآخرين. ولم يكن أونوفري يدرك أنهما يتقاسمان الإعجاب بالملابس جيدة التفصيل، بل كان يطلب منه كذلك أن ينصحه حول الأماكن التي يمكنه أن يشتري منها ربطات العنق، والأحذية وغيرها. لقد تحول إلى متأنق حقيقي: فهو يتجول على الدوام في النزل الذي يقيم فيه لابساً كيمونو مزركشاً يصل حتى أخمص قدميه. ويشتري ملابسه من شارع فيرناندو وشارع الأميرة. وفي بعض الأحيان يثقل عليه غم غامض. وفي ليالي الصيف الحارة والدبقة، عندما لا يتمكن من النوم، تسيطر عليه العصبية. فيلقي عندئذ الكيمونو المزركش على كتفيه ويخرج إلى الشرفة ليدخن سيجارة. ويفكر: ما الذي يحدث لي؟ ومع أنه كان يعتقد بأن لديه أفكاراً واضحة جداً، إلا أنه لم يكن يجد جواباً شافيا لهذا السؤال. والواقع أنه كان مثل جميع الناس، غير قادر على رؤية نفسه؛ وإنما كان يرى فقط انعكاس شخصيّته وأفعاله لدى الآخرين، ويستخلص منها مفهوماً مغلوطاً عن نفسه. ولكن هذا المفهوم لا يصمد فيما بعد حيال تحليل دقيق، فيثير ذلك فيه عدم رضى مبهماً ويؤجج القلق فيه أكثر فأكثر. وعندئذ تعود إلى ذهنه ذكرى أبيه. كان يعتقد بأنه يكرهه لأنه خانه وخيب أمله بالصورة التي رسمها له في أوهامه عندما كان غائباً، ولأنه لم يتطابق مع التوقعات التي لم يكن لها من وجود إلا في مخيلته، ولكنه كان يعتبرها على الدوام محقة. إنه يتهم أباه الآن بأنه اغتصب منه حقاً طبيعياً. ويظن أنه هرب منه لهذا السبب. ويفكر: الحقيقة أنه هو من أجبرني على المجيء هنا، وهو المسؤول الحقيقي عن كل ما قد أفعله. ولكن هذه الكراهية كانت سطحية فقط: ففي أعماقه كان يترسخ التقدير الذي أحس به تجاه والده على الدوام. وكان يعتقد دون أن يدري، وحتى دون أن يفكر في ذلك، ودون وجود مبرر يؤكد اعتقاده، بأن أباه لم يكن خائباً في الواقع، وإنما ضحية مؤامرة واسعة جداً. وإن تلك المؤامرة الغامضة، أدت إلى حرمان أبيه من الثروة والنجاح اللذين يستحقهما، وأنها

هـي التـي تمنحـه الآن الحـق بـالتعويض عـن ذلـك، وبـأن يسـتولي دون أي قيـد على ما كان له عدلاً. ولكن هذه الأفكار غير المتسقة والهذيانية كانت تصطدم فيما بعد بطبيعته وطبيعـة الأشياء المحيطـة بـه: فـهو يـرى نفسـه الآن متحـرراً من الضائقات الاقتصاديـة، وقـد خـرج مـن عـالم الـنزل البـائس وراحـت ذكـرى ديلفينـا تضمحـل مـع مـرور الشـهور؛ وقـد صـار لـه الآن أصدقـاء، وهـو يحصـد النجاحات، وعندما يتمكن من نسيان حقده التعميمي يشعر بأنه يفيض حياة، وبأنه سعيد تقريباً. وفـي ليـالي الصيـف، عندمـا يخـرج إلـى الشـرفة مغمومـاً، يسمـع الأصـوات الآتيـة مـن الشـارع: تصـادم الأطبـاق وأوانـي الحسـاء، رنـين الكؤوس، القهقـهات، الأصـوات والمشـاحنات، زقزقـة الحساسـين والكناريـات المحبوسة فـي أقفاص، وصوت بيانو من بعيد، وغرغرات مغنية مبتدئـة، ونبـاح كلـب لجـوج، وثرثـرة سـكارى متمسـكين بـأعمدة النـور، وتحسـرات متسـولين عميان يطلبون صدقة حباً بالرب. فكان يفكـر عندئـذ بكآبـة، وهـو غـير قـادر على انتزاع نفسـه مـن مرقبـه علـى الشـرفة: يمكننـي قضـاء الليـل بطولـه علـى هذه الشرفة؛ وقضاء الصيف كلـه، تهدهـد لـي أصـوات هـذه المدينـة المجهولـة. ولكن الغم لا يلبث أن يستولي عليه. فملاطفات حثالـة النـاس الذيـن يحيطـون به غير كافية لغسل الإهانة التـي وجهـت إليـه، والإذلال الـذي تحـاصره ذكـراه، والوصمـة التـي يعتقـد أنـها مطبوعـة علـى جبينـه. فيقـول فـي نفسـه: يجـب أن أصل إلى ما هو أبعد من هـذا، لأنـه لا يمكننـي البقـاء هنـا. ويفكـر: إذا أنـا لـم أسـرع إلـى عمـل شـيء، فـإن حيـاتي ستُطبع بـهذا النمـط مـن العيـش، ويصـير قدري هو التحول إلى وغد آخر بين الأوغاد. وبالرغم من شدة افتتانه بالحياة المريحة التي يعيشها الأشرار والنسـاء المنحطات، فـإن العقـل كـان يقـول لـه إن تلك الكائنـات الهامشـية تعيـش فـي الواقـع حيـاة مسـتدانة: فـالمجتمع يتسـامح معهم لأنهم مفيدون له أو لأنه يرى أن تصفيتهم النهائية مكلفة جداً؛ فيبقيهم عنـد حـد معـين، ويسـتخدمهم لمآربـه محتفظـاً لنفسـه علـى الـدوام بـالحق فـي القضاء عليهم عندما يرغب فـي ذلـك. أمـا هـم مـن جهتـهم، فيظنـون أنـهم قـد وضعـوا العـالم فـي جيبـهم لأنـهم يحملـون مديـة فـي حزامـهم، ولأن بعـض الفتيـات المتصنعـات يتظـاهرن بالإغمـاء تحـت نظراتـهم. ولكنـه كـان يفتقـر مـع ذلـك لـلإرادة الضروريـة لـهجر تلـك الرفقـة المرحـة مـن الرجـال المتبجحـين

والنساء الخبيثات، ويخلف وراء ظهره تلك الحياة التي يجد نفسه فيها كما السمكة في الماء. وهكذا راح يؤجل من يوم إلى آخر اتخاذ قرار التبديل الجذري لأسلوب حياته. لم يكن يعرف بعد أن هذه التبدلات الجذرية لا يمكن الإقدام عليها إلا لأسباب عاطفية؛ وبما أنه قرر عدم الوقوع في الحب أبداً، وألا يضل السبيل من أجل أي امرأة، فإنه لم يكن يرى كذلك أي مبرر للرغبة الفعلية في إجراء تغيير مزعج لسلوكه. وكان يمكن له أن يبقى على تلك الحال سنوات وسنوات، لا يرى العالم من حوله، مثلما يحدث لآخرين كثيرين؛ وكان يمكن له أن ينتهي مثلهم، مطعوناً بسكين أحد الخصوم، أو في السجن، أو على المشنقة، متحولاً إلى قاتل محترف، أو سكير مدمن، لو لم يعترض سبيله أرناو بونثييّا، الشهير بلقب مرغريتو. فكان عليه أن يتبدل في النهاية لأسباب تتعلق بالبقاء على قيد الحياة وحسب.

– 2 –

الخيوط الخفية التي تحرك حياة برشلونة السياسية في تلك السنوات، كانت بين يدي دون ألكساندري كانالس إي فورميغا. وهو رجل صارم الهيئة، قليل الكلام والإيماءات، له جبهة عريضة جرداء، ولحية سوداء مدببة؛ تفوح منه أفخر أنواع العطور، ويلبس بمنتهى الأناقة، يأتي إلى مكتبه كل صباح، ويكاد لا يخرج منه، فقد كان الحلاق، ومُشذبة الأظفار، والمُدلّكة، هي المتع الوحيدة التي يُبيحها لنفسه؛ أما بقية يوم عمله الذي قد يمتد إلى ساعة متقدمة من الليل، فكان يكرسه لاتخاذ أخطر القرارات ولترتيب أكثر الإجراءات أهمية لمجتمع المدينة: لقد كان يتلاعب بنتائج الانتخابات، فيشتري أصوات الناخبين ويبيعها، يرفع من شأن الشخصيات السياسية أو يدمرها. لم يكن لديه أي وازع، فكان يكرس لتلك القضايا كل وقته وطاقته، وبهذه الطريقة راكم بين يديه سلطة غير محدودة، ولكنه لم يكن يستخدمها: بل يكتنزها مثلما يكتنز البخيل ماله. كان السياسيون المتنفذون يخافونه ويحترمونه، ولا يترددون في اللجوء إليه؛ ويقال عنه كذلك إنه الشخص

الوحيد القادر، عندما يحين الوقت، على توجيه العاصفة النقابية ووضع حد لها حين يرى بعيدو النظر تجمعها في الأفق. وقد كان يبدي التحفّظ في هذا الشأن.

وإذا كان توصله إلى غاياته يتطلب اللجوء إلى العنف، فإنه لا يتردد عن عمل ذلك. وكان لديه لهذا الغرض جماعة من الفتوات والقتلة يقودها المدعو جوان سيكارت. وهو رجل ذو سيرة مضطربة: أصوله من برشلونة، ولكنه ولد وترعرع في كوبا، البلاد التي ذهب إليها أبواه، مثلما ذهب أبو أونوفري بوفيلا، للبحث عن الثراء؛ وقد قضى الأبوان نحبهما بالحمى عندما كان جوان سيكارت ما يزال صغيراً جداً، فتركاه في حرمان كامل. وسرعان ما اجتذبه العنف وعدم الانضباط؛ فأراد أن يدخل الجيش ولم يستطع: فهو لم يُقبل في الأكاديمية العسكرية بسبب إصابة خفيفة بالتهاب رئوي. رجع عندئذ إلى إسبانيا، وعاش فترة في قادش، ودخل السجن عدة مرات، وانتهى به الأمر أخيراً إلى برشلونة، على رأس عصبة ألكساندري كانالس إي فورميغا، التي كان يقودها بقبضة حديدية. كان نحيلاً، ذا تقاطيع نافرة وعينين صغيرتين، غائرتين في محجريهما، مما يضفي عليه لمحة شرقية؛ والغريب أن شعره كان أشقر بلون القش.

ولم يكن هناك مفر من أن تتعارض نشاطات هذه المنظمة المخيفة أحياناً، مع نشاطات عصبة دون هومبرت فيغا إي موريرا. كانت قد وقعت بعض الاحتكاكات بين الجماعتين، ولكن جرى حلها دون مصاعب تذكر. ذلك أن دون هومبرت فيغا إي موريرا ومساعده ونائبه أرناو بونشيّا، كانا رجلين معتدلين، يميلان في كل الظروف إلى عقد صفقات المصالحة. وقد حاولا في أحد الأوقات، التفاوض مع دون ألكساندري كانالس إي فورميغا، للوصول إلى اتفاق نهائي، ولكن هذا الأخير الذي يعرف أنه الأقوى، لم يشأ الموافقة على أي اقتراح. فكان لا بد من الإقرار بالرضوخ: فاختلال القوى كان جلياً: إذ لم تكن قوات ذاك أكثر عدداً وحسب، وإنما كانت كذلك أفضل تنظيماً بكثير: فهي قادرة على تشكيل سرايا، مثل الميليشيا، تحت قيادة أحد أفرادها؛ وكانت لديها خبرة في كسر الإضرابات، وتفريق الاجتماعات. أما رجال دون هومبرت بالمقابل، فكانوا شرذمة من الفاسدين، يكادون لا يصلحون حتى

لمشاجرات الحانات. ولكن المدينة صغيرة وفقيرة جداً، ولا يمكنها استيعاب عصابتين لا تتوقفان عن النمو: فكان لا بد، عاجلاً أو آجلاً، من وقوع المجابهة. لم يكن هناك من يود الاعتراف بذلك، ولكن الجميع كانوا يعرفونه.

جرت المقابلة في يوم جمعة من شهر آذار (مارس) مع آخر ساعات المساء؛ كانت الشمس تموت وراء الستائر، وكانت السماء صافية وقد بدأت بوادر الربيع تطل من خلال أشجار الساحة. أزاح دون هومبرت الستائر بحد يده، وأطل على الشرفة، ونظر في اتجاه الساحة وقد أسند جبهته إلى الزجاج. وفكر: لا أعرف إذا ما كنتُ أتصرف بصورة صحيحة. فالوقت يمر سريعاً ولا شيء يتبدل، أشعر بالحزن ولا أعرف السبب. تذكر المعرض الدولي: فقد كان يفكر في أونوفري بوفيلا وتداعت الصورتان معاً دون مشيئته: تظاهرة المعرض والفتى القروي الذي يحاول أن يشق طريقه بكل الوسائل المتاحة له. لقد أغلق المعرض أبوابه الآن؛ ولم يبق شيء تقريباً من ذلك الجهد الجبار: بعض المباني الكبيرة جداً بحيث لا يمكن استخدامها عملياً لأي شيء، وبعض التماثيل، وكمية هائلة من الديون لا تعرف البلدية كيف ستسددها. وفكر: المجتمع كله يستقر على هذه الأعمدة الأربعة: الجهل، التهاون، الظلم، البلاهة. لقد تلقى في مساء اليوم السابق زيارة أرناو بونشيّا، وما قاله هذا له أقلقه كثيراً: فالأمور لا يمكن أن تستمر على ما كانت عليه حتى ذلك الحين. وقد قال له أرناو بونشيّا:

– لا بد من الانتقال إلى دروب الواقع. أو أن نتقبل تصفيتنا المؤكدة.

– كلنا يعرف أن هذا سيحدث عاجلاً أو آجلاً، ولكنني لم أفكر قط بأن الأمر سيكون وشيكاً هكذا – قال له هو ذلك، وكانت الخطة تبدو له غير معقولة. ولا يرى فيها أي إمكانية للفوز، ثم أضاف:– كيف خطرت لك مثل هذه الخطة البلهاء.

فقال له الآخر إن الهدف ليس الفوز، وإنما تثبيت الوجود. وأوضح له أن المسألة هي في توجيه الضربة الأولى، ثم تجديد المفاوضات من جديد. لكي يرى خصمنا أننا لسنا عاجزين، وأننا لا نخاف؛ فهذه هي اللغة التي يفهمها، ما دام يزدري لغة العقل. وقال له: سنفقد بالتأكيد بعض الرجال، وهذا أمر لا

مفر منه.

فسأله:

- ونحن، ألن يحدث لنا شيء؟

فأجابه نائبه:

- لا، لا خوف من هذه الناحية؛ فقد فكرت في كل شيء، لقد خططت للضربة بدقة، حتى أدق تفاصيلها. كما أنني أراقب الفتى منذ زمن: إنه ثمين جداً؛ سيقوم بالعملية على أروع وجه. ثم أضاف:- من المؤسف أننا سنضطر للتضحية به.

لقد كان مرغريتو رجلاً طيب القلب في الأحوال العادية، ولكن الحسد والخوف كانا يسيطران عليه في تلك اللحظات. فاستدعى أونوفري بوفيلا إلى مكتبه وقال له إنه سيكلفه بعمل بالغ الأهمية، ثم أضاف: ولنر كيف ستتصرف. وفي تلك اللحظة بالذات، دخل من باب ذي مصراعين عاليين وضيقين، دون هومبرت فيغا إي موريرا، وقال له: لقد أخبرني أرناو بونثيّا بأنك ثمين جداً، وأضاف دون أن يدري بأنه يكرر ما انتهى من قوله الآخر: فلنر كيف ستتصرف. ثم أوضحا له بعد ذلك الخطة بكل دقة. كان أونوفري بوفيلا يستمع إليهما فاغراً فمه بدهشة. ففكر أرناو بونثيّا وهو يراه: هذا لا يفهم شيئاً مما يسمعه، وكل ما نقوله يبدو له غريباً مثل الحياة على سطح القمر. ثم قال له: وأوصيك قبل أي شيء بالتكتم الشديد.

عندما انفرد أونوفري بوفيلا بنفسه، كرس عدة ساعات للتفكير في الأمر، وذهب بعد ذلك بحثاً عن أودون موستاثا. وعندما التقى بالفتوة، قال له: أصغ بانتباه، لأن هذا ما سنقوم به. كان قد قرر التخلي عن الخطة التي رسموها له في مكتب أرناو بونثيّا، ووضع تصوراً لخطة بديلة؛ مصمماً على العمل وفق مشيئته. فقد قال لنفسه: كفاني انصياعاً. وكان قد عرف قبل وقت طويل بوجود دون ألكساندري كانالس إي فورميغا، وجوان سيكارت وجيشهما الضخم من الأشقياء. كان أودون موستاثا قد أطلعه على كل ذلك. وقد بلغ به الأمر في بعض المرات إلى حدّ التفكير في عرض خدماته على جوان سيكارت. لم يكن عديم الوفاء في طبعه، ولكنه كان يعرف في أي العصابتين تكمن القوة الحقيقية، ولم يكن مستعداً لمناصرة قضايا خاسرة.

ولهذا السبب كان يعرف أن كل قوة ألكساندري كانالس إي فورميغا تستند إلى جوان سيكارت، وأن المنظمة كلها تدور في فلكه. وعلى أساس هذه المعطيات وضع خطته؛ وكان قد فكر في أدق التفاصيل عندما ذهب لمقابلة أودون موستاثا. فقال له: إن ضعفنا بالمقارنة معهم جلي إلى حد أنهم لا يأخذوننا على محمل الجد؛ ونحن سنعتمد على هذه المزية؛ ولا بد أن نضيف إليها السرعة والجرأة. ولم يضف: «والقسوة أيضاً»، ولكنه كان يفكر بذلك. لقد توصل إلى أنهم قد يجدون فرصة كبيرة في النجاح إذا ما تصرفوا بهذه الطريقة. لم تكن برشلونة قد شهدت أي شيء مثل ذلك من قبل. وبدت المدينة وكأنها قد حبست أنفاسها خلال الفترة التي دامتها المعركة. ومن المحتمل أنه ما كان سيلجأ إلى العمل بكل تلك القسوة، لو كان هناك توازن أكبر في القوى.

في تلك الليلة بالذات بدأت الحرب. كان بعض رجال سيكارت مجتمعين في حانة في شارع آركو دي سان سيلفيستري، بالقرب من ساحة سانتا كاتالينا. فدخل إلى المحل عدة فتوات يقودهم أودون موستاثا، وكان يبدو عليهم أنهم يريدون الشجار؛ وهو ما كان يحدث بكثرة، فلم يولِ أحد اهتماماً لدخولهم. لقد كان أودون موستاثا معروفاً في ذلك الوسط؛ فالنساء كن يقلن عنه: لا وجود لرجل أجمل منه في برشلونة كلها. راح رجال سيكارت يسخرون منهم، وبدا كما لو أنهم يريدون أن يقولوا بموقفهم المتهكم: نحن أكثر عدداً وأحسن تدريباً منكم. فردّ أولئك على التحدي بآخر: استلوا خناجرهم وراحوا يطعنون من هم قريبون منهم؛ ثم غادروا المحل راكضين دون أن يتيحوا للآخرين القيام برد فعل. وكانت تنتظرهم عربة تجرها الخيول في ساحة سانتا كاتالينا، فركبوا فيها وهربوا. انتشر الخبر في أحياء قاع المدينة. وخلال أقل من ساعتين بدأت الأعمال الانتقامية: دخل اثنا عشر رجلاً مسلحين بالبنادق إلى «مملكة الشغب» وراحوا يطلقون النار؛ فأوقفوا عرض لوحة بعنوان «*جارية السلطان*». وخلفوا هناك قتيلين وستة جرحى، ولكن لم يكن أونوفري بوفيلا وأودون موستاثا بين القتلى أو الجرحى. غادر مطلقو النار المحل، وحين وجدوا أنفسهم في الشارع المظلم والمقفر، أدركوا خطأهم

بعد فوات الأوان. فقد ظهرت على الفور عربتان مغلقتان تتجهان نحوهم بسرعة كبيرة. أرادوا الهرب، ولكنهم لم يستطيعوا: فقد أوقفتهم العربتان بين نارين؛ وكانت النار تُطلق عليهم من خلال النوافذ بمسدسات أمريكية ذات ست طلقات. وكان بإمكان من في العربتين قتل الاثني عشر شقياً، ولكنهم اكتفوا بالمرور مرتين: فأصابوا سبعة منهم؛ أحدهم مات على الفور، واثنان آخران بعد أيام قليلة. استولت الحيرة على جوان سيكارت، وكان يقول لنفسه: لستُ أفهم ما الذي يرمون إليه، ولا المدى الذي يمكنهم الوصول إليه. ويتساءل: ما هي أسبابهم وما هي أهدافهم؟ وبينما هو غارق في هذه التأملات، أخبروه بأن هناك امرأة تريد مقابلته؛ وأنها رفضت التعريف بنفسها، ولكنها تقول إن لديها الحل الذي يبحث عنه دون جدوى. وبدافع الفضول أمرهم بإدخالها إلى مكتبه. لم يكن قد رآها من قبل، ولكنه استقبلها بلباقة لعجزه عن مقاومة مفاتن الأنوثة. كانت تتكلم من وراء خمار، وبصوت خافت، وكان أول ما قالته له: لقد أرسلني أونوفري بوفيلا. فرد جوان سيكارت بأنه لا يعرف من هو أونوفري بوفيلا. تظاهرت المرأة بأنها لم تسمع هذا الجواب، وقالت دون مبالاة: إنه يريد مقابلتك. فهو قلق أيضاً، ولا يفهم سبب هذه المذبحة. كانت تتكلم مثل سفير يكلم رئيس حكومة؛ فلم يدر جوان سيكارت بماذا يرد على ما قالته. وأضافت المرأة: إذا كنت مهتماً بوضع حد لهذا الوضع العبثي فاذهب لمقابلته، أو استقبله هنا بالذات، على أرضك: وهو لن يمانع في الحضور إذا أعطيته ضماناتك. هز جوان سيكارت كتفيه، ووافق: قولي له أن يأتي إذا أراد، ولكن بمفرده ودون سلاح. فسألته المرأة: هل تعدني بأن يخرج من هنا سليماً؟ وكانت عيناها النفاذتان تعكسان قلقاً عميقاً من وراء الخمار. ففكر جوان سيكارت: يمكن لها أن تكون عشيقته أو أمه. وقد شجعه القلق الذي تبعثه سطوته في تلك المرأة الجميلة؛ فابتسم بتبجح وقال: ليس هناك ما يخشاه. اتفقا على موعد اللقاء، وحضر أونوفري بوفيلا في الموعد المحدد بدقة. وحين رآه جوان سيكارت، ضمر وجهه قائلاً: الآن عرفتك؛ أنت جرو أودون موستاثا؛ لقد سمعتُ عنك؛ ماذا جئت تبيعني؟ وكان يقول هذه الكلمات بفتور، ولكن أونوفري بوفيلا لم يغضب. وأضاف سيكارت بالنبرة نفسها: لا احتاج إلى مجندين ولا جواسيس ولا خونة. وأخيراً

أخرجه هدوء أونوفري بوفيلا عن طوره، ففقد أعصابه وراح يصرخ: ماذا تريد، وما الذي جئت من أجله. وكان أتباعه يسمعون صرخاته من غرفة الانتظار ولا يدرون إذا ما كان عليهم التدخل أم البقاء مكتوفي الأيدي. وقالوا لأنفسهم: إذا ما احتاج إلينا سيستدعينا.

- إذا كنت لا تريد سماع ما سأقوله، فلماذا جعلتني أجيء إلى هنا؟ - قال أونوفري بوفيلا أخيراً، بعد أن نَفَّس سيكارت من غضبه، ثم أضاف:- إنني أعرض نفسي للخطر بقدومي إلى هنا، وأجازف بمكانتي.

ولم يجد جوان سيكارت بداً من موافقته على ما قاله. كان منزعجاً من التحاور مع صبي حوار الند للند، ولكنه لم يستطع في الوقت نفسه إلا أن يتأثر بالهدوء والتسلط اللذين يكلمه بهما ذلك الصبي الأعزل. وفي لحظة واحدة تحول ازدراؤه له إلى احترام عفوي. حسن، تكلم، قال ذلك لأونوفري، وأدرك هذا الأخير بأنه كسب الجولة، وفكر: لقد انهار. ثم قال له بصوت عال إن الحرب التي اندلعت للتو لم تكن مقصودة. ولا بد أن سببها هو سوء تفاهم؛ ولا أحد يعرف كيف بدأت، ولكنها صارت واقعاً الآن، وهي تهدد بالتحول إلى كرة ثلج يمكن لها أن تدفنهم جميعهم. وقال: لا بد أن الوضع يقلقك، ولكنه يقلقني أكثر، لأنني قد أكون الميت التالي. ألا ترى أن من واجبنا وضع حد لهذه الحال غير المرغوب فيها؟

فصرخ جوان سيكارت بقوة حين سمع ذلك:

- إيه، لم نكن نحن من بدأنا الهجمات، وإنما أنتم.

- وما الفرق في ذلك بعد أن بلغت الأمور هذا الحد - قال أونوفري بوفيلا ذلك، ثم أضاف بأن القضية الآن هي وضع حد للأعمال الانتقامية المتبادلة، وخفض صوته بعد ذلك ليقول بما يشبه البوح:- هذه الحرب لا تهمنا؛ فما الذي يمكن لنا أن نحصل عليه منها؟ فنحن أقل عدداً وأسوأ إعداداً منكم؛ ولن تجدوا فينا ما يكفيكم لمجرد البدء. فكل المزايا تملكونها أنتم. أقول لك هذا حتى لا تشك في حسن نواياي: واعلم أنه ليست لدي أي دوافع خفية؛ وإنما جئت فقط لأقدم لك فرصة لإحلال السلام.

كان جوان سيكارت يشك غريزياً في أونوفري، ولكنه يرغب في دخيلته بتصديق إخلاصه: فهو يشمئز أيضاً من تلك الحرب العبثية. لأن رجاله

يتساقطون صرعى الرصاص، وكل النشاطات المربحة قد أصابها الشلل وساد المدينة جو من التوتر الشديد، غير مناسب للأعمال التجارية. انتهى الاجتماع إلى لا شيء، ولكن الاثنين اتفقا على العودة للقاء بعد تفحص النتائج كما يجب. ولثقته، من خلال كلام أونوفري، بأنه الأقوى، ومن يمسك كل أوراق الفوز بين يديه، لم ينتبه سيكارت إلى أنه يمضي نحو تدمير نفسه: فقد كان يحفر قبره بيديه. وكان يمكن للمواجهات المسلحة أن تتواصل في تلك الليلة لو لم يهطل المطر منذ غياب الشمس حتى الفجر؛ ولهذا اقتصر الأمر على صدام بين جماعتين صغيرتين تصادف التقاؤهما في زقاق مظلم: راحوا يطلقون نيران المسدسات والبنادق التي صاروا يحملونها على الدوام الآن، من خلال شلال من ماء المطر. فكان وميض الرصاص يضيء دفقات المطر الغزير التي تسكبها الأسطحة على الشارع. أطلقوا النار وأقدامهم غائصة في الوحل إلى أن نفدت ذخيرتهم. ولم يسقط ضحايا بسبب وابل المطر. كما وقع حادثان آخران: فقد مات شاب في السادسة عشرة من عمره من عصابة هومبرت فيغا إي موريرا عندما سقط من أعلى جدار تسلقه للهرب من جماعة كانت تطارده، أو ظن أنها تطارده؛ وقد شاء سوء طالعه أن ينزلق ويدق عنقه. كما قام أحدهم في تلك الليلة الرهيبة بإلقاء كلب ميت من خلال نافذة ماخور اعتاد ارتياده أودون موستاثا وأونوفري ورفاقهما. ولم يفهم أحد مغزى تلك الهدية المشؤومة. لأن أحداً لم يذهب تلك الليلة إلى الماخور، توخياً للحذر: فأمضت المومسات المسكينات الليل ساهرات، يقلقهن الخوف من غارة دموية. وعندما دقت الساعة الثالثة فجراً، صلين صلاة المسبحة. وكان قد عم المدينة خبر نشوب حرب غير معلنة، ولكن الصحافة المحلية لم تجرؤ على ذكر ما يشير إلى حدوثها.

في اليوم التالي عادت المرأة الغامضة لمقابلة جوان سيكارت؛ وقالت له إن أونوفري بوفيلا يريد لقاءه مجدداً. وأضافت إنه بدافع الحذر، ولأسباب تتعلق بأمنه الشخصي، نظراً للظروف السائدة، لا يريد المجيء إلى هنا. ثم قالت: وهو لا يرتاب بك شخصياً، وإنما بجماعتك: ويخشى ألا تكون سيطرتك مطلقة على رجالك. وهو يرفض أن يزج نفسه في فم الذئب، ويقول إنه يمكنك أن تختار مكاناً محايداً. وسيذهب إليه وحيداً؛ أما أنت

فيمكنك أن تأخذ معك الحراس الذين ترغب في اصطحابهم. أحسَّ سيكارت بأنه أهين في كرامته، فحدد موعداً في مصلى الكاتدرائية. طوق رجاله الكاتدرائية، وكمنوا في كل أركانها، وتظاهر السيد الأسقف، تعقّلاً، بعدم ملاحظة وجود رجال مسلحين في المكان المقدس. أضف إلى ذلك أن سيكارت كان قد وضع كل عصابة هومبرت فيغا إي موريرا تحت المراقبة؛ فعرف أن أونوفري قد ذهب وحيداً للقائه بالفعل. فلم يستطع إلا تقدير جرأته.

- مازالت الفرصة سانحة لنا للتوصل إلى السلام - قال أونوفري ذلك، وكان يتكلم بصوت هادئ، متزن، كما لو أن المكان الذي يعقد فيه اللقاء قد فرض مهابته عليه. وكانت أزهار فناء الكاتدرائية قد تفتحت بعد أمطار الليلة السابقة، وبدت أحجار السور المغسولة للتو كأنها من المرمر، وواصل أونوفري:- ربما سيكون الوقت قد فات غداً. فالسلطات لا يمكنها أن تبقى مكتوفة الأيدي لوقت طويل حيال هذا الوضع. وعاجلاً أو آجلاً ستضطرها هذه الخروقات للأمن العام إلى التدخل؛ وسيكون لها دور في القضية سواء برغبتها أو رغماً عنها: ومن المحتمل أن تعلن حالة الطوارئ، وأن يحتل الجيش المدينة. وهذا يعني نهايتنا: زعيمك وزعيمي سيخرجان سالمين، أما أنت وأنا فسنكون لحم المشانق، وسينتهي بنا المطاف في قبر جماعي في سجن مونتجويك. ولن يترددوا في جعلنا أمثولة وعبرة للرعاع. إنهم مرعوبون من المسألة النقابية التي تقترب ولن يفوتوا على أنفسهم فرصة إظهار حزمهم وسلطتهم. أنت تعرف أنني على حق. وربما كانت لزعيمك علاقة ما بهذه الأحداث.

كان ارتياب جوان سيكارت آخذاً بالازدياد، ولكنه لم يكن قادراً على تخليص نفسه من تأثير أونوفري بوفيلا؛ فحججه العقلانية كانت تؤثر فيه بالرغم عنه. فرد عليه بترفع:

- لا يوجد لدي أي مبرر للارتياب بزعيمي دون ألكساندري كانالس إي فورميغا.

فقال أونوفري:

- أنت أعلم بذلك. أما أنا من جهتي فلا أثق بأحد؛ ولن أضع يدي في

النار من أجل هذا ولا ذاك.

وفي الوقت نفسه الذي كان يزرع فيه بذرة الشك في نفس سيكارت، تمكنت المرأة الغامضة من الوصول إلى كاناليس إي فورميغا نفسه. حاكت قصة مضطربة وموشاة بمسحة عاطفية. فابتلع دون ألكساندري الشص وسمح بإدخال المرأة. وقبل دخولها تعطر بمسحوق عطري يحتفظ به في درج مكتبه، إلى جانب المسدس. لم تشأ المرأة الكشف عن وجهها. وقالت له مباشرة ودون مقدمات، إنها تعرف من مصدر موثوق بأن جوان سيكارت يستعد لخيانته. وقالت بصوت متقطع: سينتقل إلى صفوف العدو عندما تشتد الحرب؛ وسيتركك وحيداً بلا حماية في أحرج اللحظات. فانفجر هو ضاحكاً: هذا الذي تقولينه مستحيل يا امرأة، وسألها: من أين خرجت بهذه التخيلات؟ فانفجرت هي في البكاء قائلة: إنني أتألم من أجلك، إذا ما أصابك مكروه... أحس هو بالزهو وحاول تهدئتها بالقول: لا وجود لأي مبرر للقلق. وقدم لها قدحاً من الليكور المساعد على الهضم، شربته باضطراب. ثم أضافت في عودة إلى الموضوع الذي يُقلقها، إن جوان سيكارت قد التقى مرتين مع أعدائه؛ مرة في مقره بالذات وأخرى في مصلى الكاتدرائية. قم بتحرياتك وستتأكد من أنني لا أكذب عليك. وأضافت بمنطقية: لو لم يكن رجال هومبرت فيغا إي موريرا يعتمدون على تواطؤ سيكارت، هل كان بإمكانهم الدخول في حرب يعرفون مسبقاً أنهم سيخسرونها؟ وأنهت كلامها: فكر في ما أقوله لك يا ألكساندري، سيكارت متورط مع هومبرت فيغا إي موريرا. ولم يشأ هو الدخول في جدال مع امرأة مجهولة حول تلك التأكيدات شديدة الخطورة.

– انصرفي يا امرأة، انصرفي؛ لدي الآن أمور يجب أن أفكر بها أكثر أهمية من هذه الحكايات المختلقة التي تحملينها إلي – قال لها ذلك، ولكنها ما أن انصرفت حتى بعث رسالة إلى الأسقف، يطلب منه فيها أن يتأكد مما إذا كان جوان سيكارت في الكاتدرائية. وقال لنفسه: لستُ أصدق كلمة واحدة مما قالته هذه المجنونة، ولكن الحذر مطلوب، ولا سيما في مثل هذه الأوقات. والواقع أن زيارة المرأة الغامضة قد تركت في نفسه تأثيراً أكبر مما كان هو نفسه مستعداً للاعتراف به. فكان يقول لنفسه: من كان سيصدق

بأنني أنا الذي أعيش حياة الزهد، سأجد أن هناك امرأة بهذه الجاذبية تهتم سراً بسلامتي الشخصية. وفكر: أي، أي، أي، إنني أشتم من كل هذا رائحة التهتك عن بُعد ساعة من المسير. ولكنني لا أستطيع أن أتجاهل بالكامل المعلومات التي جاءت تقدمها إلي؛ من الواضح أنها تبالغ، ومن الممكن أن تكون مخطئة، ولكن، ماذا لو لم تكن كذلك؟ وجاءه الرد على ملاحظته إلى الأسقف بملاحظة أخرى تؤكد وجود سيكارت في الكاتدرائية. استدعى دون ألكساندري كانالس إي فورميغا مساعده جوان سيكارت للمثول أمامه وحاول أن يستدرجه بالتحايل. ولكن تلك الحيل لم تنطل على سيكارت، ورأى فيها تعزيزاً للشكوك التي استثارها أونوفري فيه. ولكنه تظاهر مع ذلك بعدم ملاحظة أي شيء في سلوك زعيمه حتى لا يكشف نفسه، وأخذ يفكر: ربما هو يفكر باستبدالي بآخر ولا يعرف كيف يتخلص مني. وكان لدى سيكارت معاون يدعى بويكس، وهو رجل قليل الذكاء وذو غرائز بهيمية، ويحسده منذ زمن على مكانته القيادية. فراح يقول لنفسه: ربما وضع دون ألكساندري عينه الآن على بويكس، وربما يكون بويكس قد توصل سراً إلى اتفاق مع دون ألكساندري. وكان الاثنان يبديان في ذلك اللقاء التكتم تحت مظاهر التودد. ولكن ذلك لم يمنعهما من الاتفاق على شن هجوم شامل ضد رجال دون هومبرت فيغا إي موريرا. ودّع سيكارت زعيمه بعد أن وعده بأنه سوف يصفيهم تماماً. وعندما صار وحيداً قال لنفسه: ربما كان هذا كله جزءاً من الخطة نفسها. فما دام هناك عدو في مواجهة زعيمي، حتى ولو كان هذا العدو تافهاً مثل دون هومبرت، فإنه سيبقى بحاجة إليّ. أما إذا قضيت على عصابة خصمه، فما الذي سيمنعه عندئذ من القضاء عليّ؟ ثم قال: يجب أن أتوصل إلى اتفاق مع أونوفري بوفيلا. فالسلام يناسبني مثلما يناسبه، ويبدو لي أنه رجل عقلاني. سألتقيه ونحاول معاً إعادة الأمور إلى مجاريها. أما دون ألكساندري كانالس إي فورميغا، فقد انهار على أريكته الجلدية عندما بقي وحيداً، وترك ذراعيه تتهدلان على جانبي الأريكة وكان على وشك الانفجار في البكاء وهو يقول لنفسه: ها هو ذا خادمي الأمين يتخلى عني، ما الذي سيحل بي؟ صار يرى أن حياته في خطر، ولكنه كان أكثر قلقاً مما يمكن أن يحدث لابنه. وكان ذلك الابن في الثانية عشرة من عمره؛ وقد وُلد

مصاباً بتشوه في العمود الفقري وهو لا يستطيع التحرك إلا بمشقة؛ وكان عاجزاً منذ طفولته المبكرة عن مشاركة أترابه في اللعب والمشاغبات؛ ولكنه أبدى بالمقابل اهتماماً بالغاً بالدراسة، وقابلية كبيرة في تعلم الرياضيات والحساب. كان طفلاً كئيباً، بلا أصدقاء. ولأن أبناءه الآخرين ماتوا في وقت واحد تقريباً أثناء جائحة الطاعون سنة 79، فقد كان دون ألكساندري يشعر بحنان غير محدود وشفقة لا نهائية نحو هذا الطفل العاجز، على خلاف زوجته التي كانت تشعر، منذ مأساة موت أبنائها، بحقد يمكن تفهمه، وإن يكن غير مبرر، نحو جميع المتبقين على قيد الحياة. وراح دون ألكساندري يفكر: إذا ما نوى هؤلاء القساة القيام بعمل كبير، فربما يخطر لهم الاعتداء على حياة ابني؛ فهم يعرفون أنهم يوجهون إلي بذلك ضربة قاتلة. أجل، لا شك في ذلك، هذا ما سيفعلون إذا لم أبادر أنا وأستبق مخططاتهم. وفي اليوم التالي كان ابن ألكساندري كانالس إي فورميغا، واسمه نيكولاو كانالس إي راتابلان، ينطلق بصحبة أمه ومربية وخادمة إلى فرنسا، حيث يوجد بعض أصدقاء الأب ورصيد ضخم من المال.

ما ان علم جوان سيكارت بسفر أسرة زعيمه، حتى تأكد له نهائياً بأنه وقع ضحية خيانة. فبعث إلى أونوفري بوفيلا هذه الرسالة: جوان سيكارت يريد مقابلتك على وجه السرعة. فرد أونوفري هذه المرة: أنا وأنت على انفراد. فقال سيكارت: مثلما تشاء، واختر أنت المكان. تظاهر أونوفري بأنه يمعن التفكيرَ للحظات، مع أنه كان قد فكر بكل شيء مسبقاً، وقال: في كنيسة سان سيفيرو، قبل نصف ساعة من قداس السابعة. فقال سيكارت: الكنيسة تكون مغلقة في مثل هذه الساعة. وقال أونوفري: أنا سأتولى فتحها. وفي هذا الذهاب والإياب للمراسلين انقضى النهار. لم تحدث معارك، ولكن شوارع برشلونة كانت مقفرة، ولم يكن المواطنون يجرؤون على الخروج من بيوتهم إلا للضرورات القصوى.

وقبل بزوغ الشمس، كان رجال سيكارت قد اتخذوا مواقعهم في الشوارع المجاورة، وعند مداخل الأبنية، وفي مخزن للزيوت ملاصق للكنيسة، وفي أطلال قصر مهجور. وكانوا يحسبون أنهم سيتمكنون من هناك من رؤية أونوفري حين يأتي، ولكن هذا كان قد سبقهم: فقد أمضى الليل في

الكنيسة. وكان هو نفسه من فتح لهم الباب في الموعد المحدد. اندفع ثلاثة من أعوان سيكارت إلى داخل المعبد وهم يشهرون أسلحتهم، خوفاً من أن يكون أونوفري قد نصب هناك كميناً لقائدهم. فلم يروا سوى أونوفري يقف بجانب الباب هادئاً ودون سلاح، وكاهن مسكين يرتعد خوفاً ويصلي متكوراً على نفسه أمام المذبح. فهو يخاف على حياته، ولكنه يخاف أكثر من تدنيس دار العبادة. ارتبك المسلحون الثلاثة. فقال لهم أونوفري بعذوبة: ها أنتم ترون أنه لا حاجة إلى كل هذا الحذر. لم يلاحظوا قطرات العرق التي كانت تتلألأ على جبهته؛ فأمسكوا الخوري وأخرجوه سحلاً إلى الشارع. وهناك وضعوه أمام سيكارت قائلين: لا وجود لأحد في الداخل، ولكننا أحضرنا لك هذا الكاهن لكي يؤكد لك ذلك بنفسه. فواجه سيكارت الخوري وقال له:

- هل تعرف من أنا؟
- أجل يا سيدي - أجابه الخوري بصوت خافت.
- أنت تعرف إذن ما يمكن أن يحدث لك إذا ما كذبت عليّ؟
- أجل يا سيدي.
- قل لي الحقيقة إذن، من يوجد في الكنيسة؟
- ذلك الشاب وحده.
- أتقسم بالله على ذلك؟
- أقسم بالله وبكل القديسين.
- وأين هو أودون موستاثا؟
- إنه ينتظر مع بقية أفراد العصابة في ساحة الملك.
- ولماذا في ساحة الملك؟
- أونوفري بوفيلا طلب منهم الانتظار هناك.
- حسن - قال جوان سيكارت ذلك وهو يحوّل نظره عن الخوري.

سبب له هذا الحوار مزيداً من القلق بدل أن يمنحه الطمأنينة. فقد أمضى الليل كله ساهراً يفكر، ولم يكن في ذلك أي خير له. فهو يواجه الآن معضلة حاسمة: إنه يريد، من جهة، التوصل إلى اتفاق مع أونوفري بوفيلا للحفاظ على الوضع القائم، ولكن طباعه الشخصية من جهة أخرى، كانت تتعارض مع التفاوض: فهو محارب، وإمكانية تحقيق نصر على العدو تعمي

بصيرته. ماذا يمكن أن يكلفني إرسال رجالي إلى ساحة الملك ليقضوا على أودون موستاثا ورجاله دون أن يفلت أحد منهم؟ وأنا نفسي أستطيع أن أجهز على بوفيلا هذا الذي ينتظرني هناك في الداخل مثل صوص. وفي دقائق قليلة نكون قد كنسنا أعداءنا من المدينة وتصبح برشلونة كلها لنا وحدنا. ولكن هذه الأفكار كانت تتعارض مع أفكار أخرى، وكان ذلك التناقض يشل حركته. فحثه معاونه على عمل شيء قائلاً له:

– هيا، تحرك، ماذا تنتظر؟ – كان هذا هو معاونه بويكس الذي يرتاب سيكارت بولائه. ولكن كل تلك الأمور التي بدت له بديهية في الليل، راحت تتلاشى مثلما يتلاشى كابوس مزعج.

– عندما تراني أدخل الكنيسة، دع ثلاثة رجال أمام الباب، وخذ البقية واذهب بهم إلى ساحة الملك – قال متوجهاً إلى بويكس، وأضاف:– رجال أودون موستاثا موجودون هناك: خلّص عليهم دون أن تترك أحداً منهم. تذكر هذا جيداً: يجب ألا يبقى أحد منهم على قيد الحياة. وسوف ألحق بكم بعد قليل.

– 3 –

كانت الشمس قد طلعت عندما دخل جوان سيكارت إلى كنيسة سان سيفيرو، وهي كنيسة باروكية ذات أبعاد عادية. وكان يفكر: لن أجد صعوبة في القضاء عليه، وهكذا ننهي إلى الأبد هذا الوضع الخطير والسخيف. سأقضي عليه فوراً حين يصبح ضمن مدى سلاحي. صحيح أنني قدمت إليه ضمانات الأمان، وأنه وفى حتى الآن بكلمته، ولكن منذ متى تهمني أمور الشرف هذه؟ لقد كنتُ وغداً طوال حياتي وها هي الوساوس تداهمني بعد هذا العمر، ياه! لم تتح له العتمة السائدة في الداخل رؤية أي شيء خلال بضع لحظات. سمع صوت أونوفري بوفيلا يناديه من المذبح: تعال يا سيكارت، أنا هنا، ليس ثمة ما تخشاه. فاجتاحت ظهره قشعريرة. وفكر: أشعر كما لو أنني سأقتل ابني بالذات. وعندما تعوّدت عيناه العتمةَ، تقدم بين

صفين من المقاعد الطويلة. كان يضع يده اليسرى طوال الوقت في جيب بنطاله، ممسكة بالسلاح. وكان ذلك السلاح مسدساً صغيراً، من تلك التي لا يمكن استخدامها إلا عن قرب، ولا تُطلق سوى رصاصة واحدة. هذا النوع من المسدسات الذي يُصنع في تشيكوسلوفاكيا كان شبه مجهول في إسبانيا آنذاك. وقد افترض سيكارت أن أونوفري بوفيلا يجهل وجود هذا النوع من المسدسات؛ وسيحول ذلك دون ملاحظته أنه يحمل واحداً منها في جيب بنطاله ليقتله عندما يصير قريباً منه. ولقد كان هناك مسدس آخر مشابه للذي يحمله سيكارت، إنما من الفضة، ومرصع باللؤلؤ والياقوت، أهداه الإمبراطور فرانسوا جوزيف إلى زوجته الإمبراطورة إيزابيل. ولكي لا يجرح مشاعرها، لأنه من غير اللائق أن تهدى الأسلحة النارية إلى السيدات، ولا سيما إذا كن من الطبقة النبيلة، فقد عمد صانعو السلاح، بناء على طلب العاهل، إلى جعل المسدس على شكل مفتاح. وقد قال لها الإمبراطور: يجب ألا يراه أحد، ضعيه في حقيبة يدك تحسباً للطوارئ. ثم همس في أذنها: هناك في هذه الأيام الكثير من محاولات الاغتيال، ويساورني بعض الخوف عليكِ وعلى الأولاد. فلم تتنازل بالرد على لفتة الاهتمام بسلامتها تلك: لأنها لم تكن تحب زوجها، وكانت تعامله على الدوام بازدراء واضح، وحتى في الاحتفالات الرسمية وحفلات الاستقبال، كانت تعامله بكل ما تستطيعه من فتور، أي بالكثير منه. ومع ذلك، فقد كانت تحمل المسدس في حقيبتها، مثلما نصحها، صباح يوم العاشر من أيلول (سبتمبر) 1898 المشؤوم، عندما اغتالها لويجي لوشيني أثناء ذهابها لركوب سفينة بخارية على رصيف مونت بلان في جنيف. كان القاتل قد أمضى يومين في انتظارها عند باب الفندق الذي تنزل فيه، ولكنهما لم يلتقيا حتى تلك اللحظة. وبما أنه لم يكن يملك نقوداً لشراء خنجر (وكان ثمنه اثني عشر فرنكاً سويسرياً) فقد صنع بنفسه خنجراً بيتياً نصله ومقبضه من النحاس الأصفر. كانت الإمبراطورة قد خرجت في اليوم السابق لزيارة البارونة روتشيلد التي تغص حدائق بيتها بطيور غريبة وحيوانات جيء بها من جاوا. كانت الإمبراطورة إيزابيل في الحادية والستين من عمرها عند موتها؛ وكانت ما تزال تحتفظ بقامة ممشوقة ووجه باهر الجمال؛ وتمثل كل ما تبقى في أوروبا من الأناقة والرفعة. وكانت تحب نظم

أشعار الرثاء. لأن ابنها كان قد انتحر؛ وكان صهرها ماكسيميليانو، إمبراطور المكسيك، قد أُعدم رمياً بالرصاص؛ وماتت أختها في حريق في باريس؛ وأمضى ابن عمها الملك لويس الثاني، ملك بافاريا، السنوات الأخيرة من حياته في مصح للأمراض العقلية. كما أن لويجي لوشيني، الرجل الذي اغتالها، انتحر بعد اثنتي عشرة سنة من ذلك، في جنيف، حيث كان يمضي حكماً بالسجن المؤبد: وكان قد ولد في باريس، ولكنه ترعرع في بارما بإيطاليا. ولو أن الإمبراطورة «سيسي»، كما كان يحلو لرعيتها مناداتها، لجأت إلى استخدام المسدس الذي أهداه إليها الإمبراطور، لكانت سبقت جلادها، ونجت من الموت بكل تأكيد. ذلك أن لويجي لوشيني أضاع نحو ثانيتين من الوقت قبل أن يوجه طعنته القاتلة: إذ أن الإمبراطورة ومرافقتها الكونتيسة سزتاراي، كانتا تحملان مظلتين لحماية وجهيهما من الشمس، فاضطر إلى أن يطل من تحت كلتا المظلتين: وفي انبهاره ذاك كان يمكن له أن يرتكب خطأ يجعل منه أضحوكة في التاريخ. فقد تمعن في فيء المظلة الأولى وتلعثم: *scusate, signora*[1]. ومن المؤكد أن الإمبراطورة نسيت أنها تملك مسدساً في حقيبتها، أو أنها تذكرت، ولكنها قررت تجاهله: فقد كانت متعبة من الحياة، مثلما اعتادت هي نفسها أن تقول. وكانت قد كتبت قبل وقت قصير من ذلك إلى ابنتها: **أرزاء الحياة تثقل علي إلى حد أشعر معه في معظم الأحيان بآلام جسدية وافكر بأنني افضل الموت**. أما اليد الأخرى، التي لا يمسك بها المسدس، فكان سيكارت يظهرها ممدودة بوضوح، وكأنه يريد مصافحة يد أونوفري بوفيلا. ولكن هذا الأخير، حين صار سيكارت على بعد خطوات منه، رفع يديه عالياً دون أن ينظر إلى ما يفعله الآخر بيده المخبأة، وثنى ركبتيه، وصرخ قائلاً:

- أستحلفك بأمك يا سيكارت ألا تقتلني، فأنا صغير السن، وغير مسلح!

تردد سيكارت ثانيتين، هما آخر ثانيتين في حياته. فقد خرج رجل من الظلام، وانقض عليه ولوى عنقه. فتدفق الدم غزيراً من فمه ومن أنفه؛ وقد

[1] بالإيطالية في الأصل: «المعذرة يا سيدتي».

حدث كل ذلك بسرعة كبيرة لم يستطع معها أن يخرج المسدس من جيبه، ناهيك عن استخدامه، مثلما سيحدث بعد سنوات من ذلك للإمبراطورة نفسها. من قتله هو إفرين كاستيلس، مارد كاليّا، الذي أبقاه أونوفري مختبئاً طيلة تلك الشهور، دون أن يعلم أحد بوجوده، لكي يستعين به في أقسى لحظات الحرج. كان جسد سيكارت الذي فارقته الحياة ملقى الآن أمام المذبح: وكان في ذلك تدنيس لحرمة الكنيسة، ولكن ما حدث قد حدث. اجتاز أونوفري وإفرين الممر الأوسط في الكنيسة بخطوات واسعة، وأغلقا الباب ووضعا فيه المزلاج. فارتاب الرجال الذين تركهم سيكارت للحراسة بأن مكروهاً قد يكون حدث لزعيمهم، وحاولوا الدخول إلى الكنيسة، ولكنهم لم يستطيعوا.

وفي أثناء ذلك كان رجال سيكارت الآخرون قد انطلقوا باتجاه ساحة الملك. فلحق الرجال الثلاثة ببويكس وأعلموه بما حدث: باب الكنيسة مقفل من الداخل بمتانة وسيكارت لم يخرج. فلم يعر بويكس هذه الأخبار اهتماماً كبيراً: فمنذ زمن وهو يطمع حقاً بالقيادة، واحتمال أن يكون سيكارت قد وقع ضحية خدعة قاتلة لا تسبب له أي تكدر. وقد أعماه طموحه هذا، فقاد كل قواته نحو الساحة واندفعوا إليها بفوضى، دون أن يكونوا قد أرسلوا طليعة استطلاعية ودون أن يتخذوا أية احتياطات أخرى، وهو ما لم يكن ليحدث لو أن سيكارت وليس بويكس هو من يقود الهجوم. وقد انتبه بويكس نفسه متأخراً إلى خطورة هذا التصرف: فالساحة خاوية، ولا أثر فيها لرجال أودون موستاثا. فالتفت رجاله إليه، وبدا عليهم كما لو أنهم يتساءلون: ماذا سنفعل الآن؟ ولكنه هو نفسه كان حائراً من عدم وجود عدو مرئي. راح رجال أودون موستاثا الذين انتشروا واعتلوا الأسطح، يطلقون النار عليهم. نشبت معركة استمرت حوالي ساعتين: وبالرغم من أن جماعة بويكس كانت أكثر عدداً، فإنها كانت تتحمل الخسائر في كل لحظة؛ وكان انضباطها بالذات هو السبب في هزيمتها: فبعد اختفاء سيكارت وفقدان بويكس هيبته في نظر رجاله (فضلاً عن أنه كان أحد أول القتلى)، لم يعد هناك من يعرف كيف عليهم أن يتصرفوا. أما رعاع موستاثا بالمقابل، فكانوا يتحركون وسط تلك الفوضى كما السمك في الماء: فقد كانت تلك هي أجواءهم المعهودة. وأخيراً

تفرق شمل رجال بويكس؛ وألقوا بأسلحتهم وأطلقوا سيقانهم للريح. تركهم أودون موستاثا يهربون؛ لأنه من المستحيل عليه تجميع قواته لمطاردتهم.

لم يكن ألكساندري كانالس إي فورميغا قد علم بعد بتلك الهزيمة النكراء التي وجهت ضربة قاصمة لإمبراطوريته. فقد كان رائق المزاج بصورة استثنائية الآن: فعاملة التدليك قد انصرفت لتوها، وها هو خادمه يساعده في عقد ربطة عنقه؛ وهو يعرف أن ابنه صار في مأمن في باريس، وقد تخلص كذلك من زوجته التي لم تعد علاقته بها على ما يرام؛ وكان فيض من أشعة الشمس يدخل من نافذة مكتبه عندما أخبروه بمجيء المرأة الغامضة في زيارة ثانية. استقبلها دون أي تأخير سوى ما يتطلبه تعطير ذقنه. وتجرأ في هذه المرة على تطويق خصرها بذراعه وهو يدعوها للجلوس. قادها إلى أريكة طويلة مغلفة بمخمل بلون الكرز. أبدت المرأة مقاومة متراخية لذلك التمادي. وكانت توجه نظرها طوال الوقت نحو النافذة. وكان كلامها أثناء الحديث متهرباً ومشوشاً. وبعد لحظات، عندما ضمها إليه بقوة، رأت وميض ضوء على السطح المجاور. فقد كان أونوفري بوفيلا وإفرين كاستيلس يحركان مرآة يدوية تعكس أشعة الشمس ليرسلا إليها إشارة تعني: لقد انتهى كل شيء، فتصرفي. ولكي تتصرف بسهولة أكبر، نزعت خمارها، وألقت جانباً بضربة من يدها قبعتها وشعرها المستعار. فتح دون ألكساندري كانالس إي فورميغا فمه على اتساعه من الدهشة. واستلت هي من بين ثدييها الاصطناعيين خنجراً وأغمضت عينيها هنيهة.

– فليسامحني الرب على ما سأفعله – سمعها تتمتم بذلك قبل أن يسقط ميتاً على الأريكة. بل إنه وجد قبل أن يموت وقتاً ليفكر بابنه، والقول في نفسه: لحسن الحظ أنني نقلته إلى مكان آمن. أما عن نفسه فلم تخطر له سوى فكرة ساخرة: وأنا الذي كنت أظن أنني حققت فتحاً غرامياً! لقد كانت المرأة المزيفة هي السيد براوليو، صاحب النزل السابق الذي أقام فيه أونوفري بوفيلا، وقد ذهب هذا الأخير إلى «حي مستودع الفحم» بحثاً عنه لكي يقوم بهذا العمل تحديداً. وكان يقضي كل وقته في ذلك الحي، محاولاً إغراق أحزانه ووحدته في تعاطيه الدائم للمخدرات، وفي استسلامه للضرب الذي يتلقاه من المخنثين الذين لا يريدون أن يكونوا كذلك، ويرغبون

فـي الإحساس بأنـهم فحول أشداء بإسـاءتهم معاملة النسـاء المزيفات. فبعد اعتقاله في النزل، للمرة الثانية، باعتباره فـي هـذه المرة عضـواً مزعوماً فـي خلية فوضوية، على إثر الوشاية التي قدمتها ديلفينا، أُطلق سراحه: ولـم يجد صعوبة فـي إثبات براءته فـي تلك القضيـة، وإقناع الشـرطة وقـاضي التحقيق بـأن أهـواءه مختلفـة عـن ذلك. وقـد حـاول بعـد إطـلاق سـراحه أن يتولـى مـن جديـد مسؤولية الـنزل، ولكـن المشـهد الـذي وجـده هنـاك كـان يدعـو للأسـى: كانت زوجته قد توفيت فـي المستشفى، وديلفينا على وشك الخضوع للمحاكمة مـع المتورطين الآخريـن: وكـانت التهم الموجهة إليهم جميعاً شـديدة الخطـورة، فـإذا لـم يحكم عليها بـالإعدام، فـإن الحكم بـالمؤبد أمـر مؤكـد. وكـان صـاحب النزل يقول: لن أستطيع رؤية ابنتي مرة أخـرى. وخـلال غيابها لـم يكـن هنـاك من يعتني بالنزل: كان الغبار يتراكم فـي كل مكـان، وكـانت هنـاك فـي المطبـخ بقايـا طعـام فـي حالـة متقدمـة مـن التفسـخ. أراد إعـادة الأمـور إلـى نصابـها، ولكن الوهن أصاب همّته. فاستعان بالأب بيثانسيو وبالحلاق لنشر إعلان في الصحف، وسرعان ما وجد من هو راغب في تولـي مسؤولية الـنزل. وبـالنقود التي حصل عليها بهذه الطريقة، غرق فـي «حي مستودع الفحم» وراح ينحط أكثر فأكثر إلى أن أحس بخفقة الموت فـي خديه الشـاحبين، كـان الموت يحوم حولـه، وهـذا هـو مـا ذهـب يسـعى إليه هنـاك، ولكنـه حـين واجـه واقـع المـوت، عاوده الشعور بالخوف. وفـي إحدى الليـالي، بينمـا هـو خـارج مـن أحد أوكار الرذيلة، وجد نفسه وجهاً لوجه مع أونوفـري بوفيـلا. ودون أن يـدري مـا الـذي يفعله، ألقى بنفسـه بين ذراعيه قائلاً: ساعدني، أتوسل إليك؛ لا تتركني أموت هنا. فقال له أونوفري: تعال معي يا سيد براوليو، لقد انتهى هذا الأمر. ومنذ ذلـك الحـين صـار يفعل مـا يقولـه لـه، دون أن يسـأل إذا مـا كـان ذلـك جيداً أم سيئاً. هـا هـو ذا قـد تخلـص الآن مـن ملابسـه التنكريـة، وخبـأهـا وراء الأريكـة التي يقبع عليها الرجل الذي قتله للتو. وهـرع بمـلابسـه الداخليـة نحـو النـافذة وراح يرسل بالمرآة الصغيرة إشارات فـي اتجاه السطح المقـابل، حيث أونوفـري بوفيلا وإفرين كاستيلس ينتظـران نتيجـة عملـه. عندمـا شـرح لـه أونوفـري مـا يتوجب عليه عمله، ألح عليه بأن يغلق باب المكتب بالمفتاح وألا يفتحه لأحد إلا عندمـا يطلـب منـه هـو نفسـه ذلـك. وقـد انتبـه الآن إلـى أنـه نسـي أن يفعـل مـا

طُلب منه بسبب العصبية التي فرضتها عليه الظروف. سمع ركضاً وأصواتاً في الممر: إنهم رجال دون ألكساندري يهرعون لمساعدة زعيمهم. حاول أحدهم الدخول وكان السيد براوليو على وشك الإغماء، ولكن لم يحدث أي شيء. لقد كان دون الكساندري نفسه قد أقفل الباب حتى لا تتمكن المرأة التي أراد إغواءها من الهرب؛ لقد أنقذ قبل موته حياة قاتله. ففكر السيد براوليو وهو ينظر إلى الباب المقفل: جميعهم متشابهون، مجرد خنازير. استثار بقاؤه الطويل مع ضحيته أعصابه. وقد وجده أونوفري بوفيلا وإفرين كاستيلس على وشك الانتحار: كان ينوي إلقاء نفسه من النافذة. وكان قد ربط إلى عنقه فازة برونزية ثقيلة جداً، وقال إنه فعل ذلك خوفاً من أن تكون المسافة بين النافذة والشارع غير كافية لقتله. استولى أونوفري وإفرين كاستيلس على كل الأوراق التي وجداها في مكتب دون ألكساندري كانالس إي فورميغا.

وقال إفرين كاستيلس:

– سوف نتمكن بهذه الوثائق من جعل نصف المدينة ترقص على اللحن الذي يناسبنا. ولن تبقى هنا دمية قادرة على حماية رأسها.

في مساء ذلك اليوم بالذات، مثل كلاهما في مكتب أرناو بونثيّا وقالا له: انتهى تنفيذ المهمة. وعرضا عليه الوثائق المصادرة من مكتب دون ألكساندري كانالس إي فورميغا، فألقى عليها أرناو بونثيّا نظرة سريعة ولم يستطع منع نفسه من الصفير بإعجاب، وعلق قائلاً: لن تبقى هنا دمية قادرة على حماية رأسها. وحين سمع إفرين كاستيلس هذه العبارة التي كان هو نفسه قد استخدمها، أطلق قهقهة مدوية. فتظاهر أرناو بونثيّا عندئذ بأنه قد انتبه إلى حضور المارد، وكان قد تظاهر قبل ذلك بأنه لم يره. فتوجه إلى أونوفري وسأله عمن يكون ذلك الشخص: وقد أراد بهذه الحركة أن يؤكد سلطته في نظر جميع الحاضرين. فأجابه أونوفري بوفيلا بنعومة بأن المارد يدعى إفرين كاستيلس. وقال: إنه صديقي وذراعي الأيمن. وقد كان هو من قتل جوان سيكارت. حين سمع أرناو بونثيّا، الشهير بمرغريتو ذلك التصريح، بدأ يرتجف، لأنه أدرك أن شيئاً سيئاً على وشك الحدوث له. وفكر: إذا كانا قد أطلعاني دون اكتراث على هذه المعلومة، فلأنهما يريدان قتلي. وبينما هو

يفكر في ذلك، رفعه إفرين كاستيلس عن الكرسي بحمله من تحت إبطيه؛ ورفعه عالياً في المكتب وكأنه يحمل طفلاً رضيعاً وليس رجلاً. وكان هو يهز ساقيه في الفضاء ويصرخ:

– ما سبب هذا المزاح؟ – ولكنه كان يعرف بوضوح أن ما يحدث ليس مزاحاً؛ فسأل عندئذ بصوت مختنق يكاد لا يُسمع:– إلى أين تأخذانني؟

فقال له أونوفري بوفيلا:

– إلى المكان الذي تستحقه. فقد دبرت كل شيء من أجل القضاء عليّ؛ كنت تسعى لأن يقتلني رجال سيكارت، وأنا أرد المعروف بمثله على الدوام.

فتح باب الشرفة، وألقى مارد كاليّا بأرناو بونثيّا من فوق الحاجز. على تلك الشرفة نفسها كان دون هومبرت فيغا إي موريرا نفسه قد استغرق في تأملات حول معنى الحياة قبل بضعة أيام. وقد فُتح الآن باب مكتبه على مصراعيه ودخل منه أونوفري بوفيلا وإفرين كاستيلس. قالا له إنهما قادمان ليطلعاه على نجاح العملية. لقد تم تفكيك عصابة كانالس إي فورميغا؛ ومات معاوناه سيكارت وبويكس، ومات كذلك كانالس نفسه؛ وعُثر على كل وثائقه وأوراقه وهي الآن بحوزة أونوفري بوفيلا؛ وكانت الإصابات في المعركة متدنية جداً: أربعة قتلى وستة جرحى هو المجموع. ولا بد أن يضاف إليهم خسارة أرناو بونثيّا المؤسفة، الذي تعرض للتو لحادث غامض. لم يدر دون هومبرت ما الذي يمكنه أن يفعله أو يقوله؛ فهو لم يكن يتصور أن تؤدي الخطة التي وضعها أرناو بونثيّا إلى كل هذه النتائج الدامية. فالآن ستلطخ ضميره دماء رجال كثيرين. وكان قد سمع منذ قليل صرخة أرناو بونثيّا المؤثرة وأدرك أن الأمور ستكون منذ الآن مختلفة تماماً عما كانت عليه من قبل. فتنهد في أعماقه: باختصار، لم يعد بالإمكان معالجة الوضع، وعليّ أن أتعوّد الوضعَ الجديد. وفكر: الأمر الملح الآن هو أن أخرج حياً من هذه المقابلة. ثم طلب بصوت عالٍ بعض المعلومات الإضافية غير المهمة، لمجرد كسب الوقت وليس لأي سببٍ آخر؛ فقدمها إليه أونوفري باقتضاب وهو يدرك أن دون هومبرت لا يصغي لما يقوله. ولكنه حاول بلفتة الاهتمام تلك أن يبين له أن نواياه ليست خبيثة، وأنه ما زال مستعداً لمواصلة العمل تحت أمرته. وكان أودون موستاثا ورجاله يكنون التقدير والمحبة لدون هومبرت ولا

يمكن لهم الانجرار إلى خيانته أبداً. حتى ولو كان أونوفري بوفيلا هو الذي يطلب منهم ذلك. ولأن هذا الأخير كان يعرف ذلك، فإنه لم يفكر بأي مناورة في ذلك الاتجاه. وقد فهم دون هومبرت الأمر على هذا النحو أخيراً وتبادلا على إثر ذلك حديثاً مطولاً. كان دون هومبرت غارقاً في بحر من الشكوك، وكان يقول لنفسه: المدينة بأسرها صارت تحت تصرفي، ولكنني غير مهيأ لتسنم كل هذه السلطة فجأة، لا سيما وأنني فقدت للتو مساعدي الوفي، الذي ما زال جسده الممزق يقبع هناك في الأسفل، فما الذي سأفعله؟ فقاطع أونوفري بوفيلا تلك الشكوك: وكان قد فكر مسبقاً بكل شيء. وقال دون غطرسة، ولكن بثقة بالنفس لا تتناسب مع سنه ولا مكانته، كان على دون هومبرت أن يتحملها مكرهاً، إنه لا بد من تولي مسؤولية منظمة المتوفى، ثم حدد: ولكن دون أن ندمجها في منظمتنا. وقال «منظمتنا» بجرأة متعمدة. وكان دون هومبرت يود لو يجلده بالسوط الذي يبقيه دوماً في متناول يده، ولكن ما كان يمنعه من عمل ذلك هو الخوف الذي يبعثه فيه أونوفري وحضور إفرين كاستيلس المتوعد في المكتب. ثم إن ما قاله ذلك الفتى المعتد بنفسه مصيب جداً، وفكر: صحيح أنه من غير المناسب خلط الأمور، فأنا أبقى أنا، وكانالس، فليرحمه الله في ملكوته، هو كانالس. والمشكلة تتمثل الآن، بعد أن مات أرناو بونثيّا، في معرفة من الذي يستطيع تولي مسؤولية أعمال كانالس. فقال أونوفري إن لديه الشخص المناسب. فلم يُخفِ دون هومبرت فيغا إي موريرا حيرته، وقال له: لا تقل لي إنه أودون موستاثا أو هذا الفتوة التي أدخلته معك. لم يغضب أونوفري، بل أجاب: لا، لا، أي كلام هذا. فكل شخص ينفع لشيء. والشخص الذي أكلمك عنه لديه الموهبة لتسيير هذه الأمور، كما أنه موثوق تماماً. وهو ينتظر الآن في قاعة الانتظار؛ وأنا أحب، بعد إذنك، أن أُدخله لكي تتعرف إليه. وبعد حصوله على الإذن، أدخل السيد براوليو. وكانت فكرة إقدامه على قتل كائن بشري بيديه ما زالت تؤرقه، وتمنعه من التفكير السليم؛ ولم يعد قادراً، مثلما كان في السابق، على الفصل بين وجهي شخصيته: فتراه يتكلم تارة بأسلوب صاحب النزل الرجولي الذي كانه، ثم لا يلبث أن يُخرج من جيبه صناجتي أصابع ويندفع في أغنيات أندلسية.

وقد قال لدون هومبرت بعد تقديم أحدهما للآخر على سبيل التعارف:

– إنني شخصية على أقصى طرفي التناقض. فعندما يفارقني الشبق، لا أفكر إلا بالانتحار. ولكن الأمر لم يكن خطيراً هذه المرة لحسن الحظ. أما في المرة السابقة، فلا يمكنك تصور ما كنتُ عليه: كنتُ غارقةً بالدماء.

– 4 –

كانت المياه قد عادت إلى مجاريها مع مجيء الربيع: فلم يعد هناك من يتذكر تبادل إطلاق النار والمعارك حامية الوطيس التي حبست أنفاس المدينة قبل شهور. وإذا كان الجميع قد قطبوا وجوههم في البداية، فإنهم راحوا يتقبلون شيئاً فشيئاً وجود السيد براوليو مكان كانالس إي فورميغا؛ فقد كان يعمل على الدوام بلمسة من الرقة، وكان محافظاً جداً، لا يبالغ في تصرفاته، ويدير الحسابات بدقة متناهية. وكان أونوفري بوفيلا قد حظر عليه الخروج إلى مغامراته الليلية قائلاً له: لم يعد بإمكانك الذهاب كأحمق إلى حي مستودعات الفحم؛ فنحن الآن أناس محترمون؛ وإذا ما أردت إطلاق العنان لنفسك، أو رغبت في بعض العربدة، فلتدفع مقابل ذلك ولتفعله في بيتك، فمن أجل هذا نكسب الكثير من المال. أما خارج البيت، فعليك بالجدية والصرامة. أقام السيد براوليو في الطابق الأول من بناية في حي سان بيدرو؛ وكانت مكاتبه في الطابق فوق الأرضي من البناء نفسه. وكان الجيران في بعض الليالي يسمعون أصوات غناء آتية من شقته، وألحان جيتارات ناشزة، وضجة شجار وتكسير أثاث. ثم يذهب بعد ذلك إلى الاجتماعات مع أعيان برشلونة بجبهة مضمدة، أو عين مُزرقة وما شابه ذلك. الشيء الوحيد الذي كان ينخره من الداخل هو التفكير بأن ابنته ديلفينا ما تزال في السجن. لقد صارت لديه الآن سلطة تمكنه من جعلهم يطلقون سراحها؛ فهو متخصص تحديداً في التوصل إلى هذا النوع من المعروف، وهذه هي قاعدة صفقاته، ولكن أونوفري بوفيلا منعه من عمل ذلك بصورة حاسمة، وكان يقول له: لا يمكننا السماح لأنفسنا بمثل هذا العمل بعد، لأن هذا النوع من

المناورات يثير اللغط، وينبش الماضي؛ سيكون لدينا متسع من الوقت للاهتمام بشأن ديلفينا في ما بعد، عندما نصبح أكثر رسوخاً. لقد كان صاحب النزل السابق المسكين يحب ابنته حتى العبادة، ولكنه ينصاع لأونوفري بضعف. فكان يوصل إليها سراً في زنزانتها كميات من الأطعمة والحلويات، وملاءات أسرة وألبسة داخلية من أفضل الأنواع. وكانت ديلفينا تعيد تلك الملابس وقد مزقتها بأسنانها دون أن تكون قد جربتها، ودون أن ترفقها بكلمة شكر واحدة. صار أودون موستاثا يعمل مع السيد براوليو بدلاً من المرحوم جوان سيكارت. لم تكن لديه مؤهلات ذاك القيادية ولا مواهبه، ولكنه كان محبوباً من رجاله. ولأنه كان رجلاً ذا هيئة شديدة الجاذبية، فقد أحبه السيد براوليو إلى حد أنه كان مستعداً لشرب الريح من أجله. أما الموقع الذي كان يشغله أودون موستاثا من قبل، فقد عيّن أونوفري بوفيلا نفسه فيه. كما تولى المهمات التي كان يقوم بها من قبل أرناو بونثيّا. وكان دون هومبرت فيغا إي موريرا يعطي مباركته لكل هذه الترتيبات. فهو يعيش سعيداً في أفضل العوالم: فقد وجد نفسه، دون أن يخطط لذلك، على قمة الحياة السرية في برشلونة، متحولاً إلى وكيل كل أنواع الدسائس والتحايل. ولم يكن قد حلم من قبل قط ببلوغ تلك المكانة. لقد كان رجلاً متناقضاً: فهو مزيج مقنن بحكمة من النباهة والبلاهة، من التهريج المحسوب والسذاجة العفوية؛ يندفع في أشد المشروعات وعورة بقدر من الجهل والارتجال لا يقل عن الجرأة والإقدام؛ وفي النتيجة يحالفه النجاح في كل مشروعاته تقريباً؛ ثم يدعي لنفسه بعد ذلك الفضل كله في تلك النجاحات. لقد كان شديد الوثوق بقدراته، وأشد من ذلك غروراً بنفسه: فهو لا يعيش إلا للتباهي وحب الظهور. ولا يتخلف عن الذهاب في منتصف النهار إلى باسيّو دي غارثيا، مهما كانت الشؤون التي بين يديه ملحة وضرورية، وكان يذهب إلى هناك متأنقاً وممتطياً صهوة فرسه الشهباء الشهيرة. وكانت تلك الفرس الصغيرة الشيريشية التي دفع ثمنها ثروة كبيرة، مدربة جيداً: فهي قادرة ومعتادة على اجتياز كل الجزء الممتد بين شارعي كاسبي وفالنسيا متلوية في حركات نصف دائرية بين العربات المكشوفة. ولكن هذا الاستعراض لم يكن ينتهي نهاية طيبة على الدوام: فقد كانت الفرس ضعيفة القائمتين الأماميتين؛ وفي

كل يوم، في لحظة ما من المشوار، تهوي على وجهها ويتدحرج فارسها على الأرض. ثم ينهضان معاً بسرعة: الفرس وهي تصهل، وفارسها وهو ينفض عن سترته بقايا روث الخيول التي علقت بها؛ ويهرع صبي عن الرصيف، بين عجلات العربات وقوائم الخيل، ليلتقط القبعة والسوط عن الأرض ويقدمهما إلى دون هومبرت بعد أن يكون قد استعاد مكانه على السرج. وكان هو، بكل هدوء أعصاب، يكافئ ولاء الصبي بقطعة نقدية يجعلها تلمع تحت شمس الظهيرة: فيحول الحادث بذلك إلى طقس من طقوس التبعية والولاء. وقد كانت البرجوازية الراقية تفسر الأمر على هذا النحو تحديداً؛ ولأنها تفتقر تماماً إلى حس المزاح، فقد كانت تقدم إليه التكريم بأفضل ما لديها من ابتسامات، وكان الجميع يقولون: هذا ما يعنيه كون المرء سيداً كبيراً. فكان هو، لحماقته، يظن أن مظاهر المجاملة تلك تعني تقبلهم له ضمن طبقتهم. ولكن ذلك لم يكن صحيحاً بأي حال: ذلك أن البرجوازية الكبيرة التي تفتقر إلى شعارات الطبقة الأرستقراطية المعقدة والصارمة، عليها أن تكون أكثر تشدداً في الممارسة؛ فهي تقدر أموال دون هومبرت فيغا إي موريرا، وخاصة طريقته في إنفاق تلك الأموال، ولكنها تنظر إليه شخصياً على أنه وصولي وحديث نعمة؛ وعندما يجد الجد، لا يوليه أحد منهم أي اعتبار. أما هو، فلم يكن ينتبه لكل ذلك: فزهوه، مثل كل زهو حقيقي، لم يكن له أي هدف، وإنما كان هدفاً بحد ذاته: لم يكن يسعى من وراء تأنقه إلى توطيد سمعته أو إغواء الجمهور الأنثوي الذي كان يتمتع في أوساطه، دون أن يدري، بمكانة كبيرة: فكل السيدات المتزوجات، وعدد غير قليل من الآنسات اللواتي في سن الزواج كن يتنهدن لدى رؤيته يمر. ولكنه لم يكن يلحظ ذلك أيضاً. ولم تكن أمور حياته الخاصة أفضل حالاً: فامرأته التي تعدّ نفسها ذروة الجمال والذكاء والأناقة، ترى أن كل شيء قليل عليها، وتقدر أنها لم توفق بالزواج حين اقترنت به؛ فكانت تعامله بالضرب بالحذاء. أما الخدم، الذين يرون ذلك المثال، فكانت معاملتهم له أقل من ذلك بقليل. وكان هو يذعن لتلك التهكمات دون أي تذمر؛ فلم يكن هناك من رآه غاضباً قط، وكان كما لو أنه يعيش في عالم منفصل. ولأنه تعوّد عدم وجود من يصغي إليه، فقد كان يجوب أرجاء البيت مصدراً أصواتاً غير مترابطة، دون أمل بالحصول على جواب عليها،

وإنما لمجرد المتعة بسماع صوته. وفي أحيان أخرى كان يحدث له عكس ذلك: فيظن أنه قد نطق بكلام كان قد فكر به وحسب. ولكن هذا الشرخ التام في التواصل لم يكن يسبب له أي أذى. فالعمل يمتص كل طاقاته؛ والنجاحات الاجتماعية المحدودة ترضي غروره، وابنته التي يحبها حتى العبادة، تُشبع حاجته إلى الحب.

كان الاصطياف في ذلك العهد مختلفاً جداً عن تصورنا الحالي له. فالعائلات المنعمة وحدها، وفي محاكاة للأسرة المالكة، كانت تنقل إقامتها إلى موقع مرتفع، ذي مناخ أكثر جفافاً، عند بدء موسم الحر؛ وكانوا يحاولون عدم الابتعاد كثيراً عن برشلونة: فيصطافون في سيبيرا، وفي بيدرالبيس، وبونانوفا، التي صارت اليوم أحياء في المدينة. أما بقية السكان فكانوا يقارعون الحر بالمراوح اليدوية وجرار الماء البارد. وكانت عادة الاستحمام في البحر قد بدأت بالانتشار بين الشباب المتفرنسين، مع ما رافق ذلك من استنكار. ولأنه لم يكن هناك من يتقن السباحة تقريباً، فقد كان عدد الغرقى في كل سنة مرتفعاً نسبياً. فكان القسس يعتبرون، في مواعظهم، تلك الإحصاءات المحزنة دليلاً على غضب الرب. ولأن دون هومبرت فيغا إي موريرا جاء بعد فوات الأوان لشراء منزل اصطياف في حي فاخر، فقد اضطر إلى بناء منزله الصيفي على جبل يقع إلى شمال المركز العمراني، يسمى بودايّرا. فاشترى هناك قطعة أرض غير مستوية تغطيها أشجار الصنوبر والكستناء والمغنولية، وعمر عليها بيتاً دون طموحات. ومثلما يحدث عادة لكثير من المحامين، فإنه لم يتوخَ اتخاذ أي احتياطات. وقد صار عليه أن يكرس الوقت والجهد والمال لحل مشكلات حقوق الملكية العقارية التي تعود إلى عدة قرون سابقة. لقد وقع في الحقيقة ضحية عملية احتيال: فقد كان العقار ظليلاً، شديد الرطوبة، يملؤه البعوض؛ وكانت سمعة المكان في الحضيض، إلى حد أن جيرانه الوحيدين كانوا بعض النساك الذين يعيشون في كهوف وخيمة، ويتغذون على جذور الأشجار ولحائها، ويمضون في الجبل بأعضاء حيائهم المكشوفة، وقد فقدوا مع مرور السنوات القدرة على استخدام الكلام والعقل. فكانت زوجته تقول له كل يوم: لا يمكن أن يخطر إلا

لأبله مثلك شراء عقار في مثل هذه المزبلة. وكانت تقول ذلك عدة مرات في اليوم أحياناً: فقد كانت تفضل الذهاب للاستحمام في أوكاتا أو مونتاغات، لتخالط هناك صفوة البرجوازية الشابة. ولكن زوجها تمكن من فرض رأيه لمرة واحدة عندما قال لها:

- لا أنت ولا ابنتنا الصغيرة تعرفان السباحة، ويمكن لتيار بحري أن يجرفكما؛ كما أنني سمعت من يقول إن هناك في أعماق البحر أخطبوطات وأسماك شلق ماصة تعض وتمزق السابحين على مرأى من ذويهم وأصدقائهم المرعوبين.

فتقول هي:

- إنما يحدث لهم ذلك لأنهم يستحمون عراةً. فإظهار اللحم يوقظ غريزة الافتراس لدى الحيوانات التي لا تميز الإنسان عن الحيوان إلا بالملابس - وحين تقول هذا تلوي فمها بسخرية، وكأنها تشمت بنكبة من لا يعرفون كيف يرتدون ثيابهم كما يجب. فقد كانت واثقة من أنه لا يمكن لأي حيوان أن يجرؤ على الاقتراب بأسنانه منها، هي التي ما زالت ترتدي التنورة المنتفخة على خلاف الموضة الرائجة، وتجرجر ذيل ثوب ذي حواش طوله متران وتمضي مزينة بالمجوهرات طوال الوقت. وكان زوجها ينتهي على الدوام إلى موافقتها الرأي. وإلى ذلك المنزل الصيفي، ذهب أونوفري بوفيلا لزيارته في صيف العام 1891.

كان قد صعد إلى الجبل في عدو سريع على صهوة جواد، ووجد نفسه تائهاً وسط الغابة. كان الجواد الذي يمتطيه مغطى بالزبد، ويلهث لهاثاً متقطعاً. فقال أونوفري لنفسه بتوجس: سيموت هذا الحيوان الآن بين ساقي وسأبقى هنا كالغريق. ومن المثير للفضول أن أكون أنا غير قادر على التوجه في الجبل؛ لقد تحولت إلى رجل مديني. وأخيراً لمح بيتاً محوطاً بحديقة وارفة وبسور واطئ من حجارة سوداء. كان يتصاعد من المدخنة عمود دخان. ترجل واقتاد الحصان من عنانه واقترب ماشياً، وأطل من فوق السياج ليرى إن كان هناك أحد يمكنه أن يفيده في شيء. بدت الحديقة مقفرة من الناس: فالعصافير تزقزق، والبعوض والزنابير تئز، والفراشات تحوم. ومن خلال

الأشجار، رأى بصورة مشوشة بسبب وهج نور الظهيرة، طفلة تمر. كانت ترتدي فستاناً من الأورغنزا البيضاء، قصير الكمين، مزركشاً بالتطريز والتخريم وبشرائط من المخمل القرمزي؛ وتعتمر عمامة ملفوفة وبيضاء اللون أيضاً، موشاة بأزهار قماشية دقيقة، تظهر من تحتها جديلتان من الشعر النحاسي الأشقر. ولم تكن العمامة والجديلتان تسمحان إلا برؤية أجزاء من الوجه: قوس الأنف، وجنة محمرة، وانحناءة الجبهة الناعمة، ومنحنى الذقن البيضوي. شلّ الذهول أونوفري؛ وعندما عاد إلى رشده كانت قد اختفت. تساءل: آه، من تراها تكون؟ هل رأتني؟ لم يكن لها مظهر القرويات، ولكن وجودها هكذا، وحيدة في الريف، دون رفقة... يا للسر الغامض! وبينما هو يفكر ظهر خادم. فأومأ له، وعندما اقترب الخادم سأله إذا ما كان ذاك هو المكان الذي يبحث عنه. وبعد أن تأكد من أنه المكان نفسه فعلاً، سلّم أعنة الحصان للخادم وأعلن عن نفسه. كان دون هومبرت فيغا إي موريرا قد حظر على رجاله بصورة قاطعة المجيء إلى بيته الصيفي: فهو لا يريد أن يزعجوه هناك مهما كانت الأسباب. ولم يكن يريد أن تجد أسرته نفسها متورطة في أعماله. لقد تجرأ أونوفري على تجاوز ذلك الأمر: فهو يريد أن يرى إلى أي حد يمكن لدون هومبرت أن يتساهل مع عصيانه أوامره. اقتادته وصيفة إلى صالة سداسية في الطابق الأول. وكانت هناك عدة أبواب تؤدي إلى تلك الحجرة. أما الضوء كله فيأتي من كوة ذات زجاج غير شفاف، مما يبقي الصالة كلها في عتمة خفيفة، ويمنح إحساساً لطيفاً بالبرودة. وكانت حافة مدفأة الشمين المطعمة بالصدف تلمع مستحمة بذلك الضوء الخافت، وفوق رف المدفأة كانت هناك مرآة عالية ذات إطار مذهب، وشمعدان من البرونز وساعة من الطراز الإمبراطوري يغطيها ناقوس زجاجي. أما كل ما في الغرفة من أثاث، فكان يقتصر على طاولة ركنية من خشب مطلي وفوقها تمثال لفينوس من المرمر، وهي منتصبة في قوقعتها؛ وكان هناك طاولة صغيرة موريسكية وكومة من الوسائد والمساند المخملية. وقف أونوفري بوفيلا مبهوراً. وفكر: يا للبساطة، ويا للأناقة الحقيقية. ولكن ضجة جافة من ورائه جعلته يستدير بسرعة. ومدّ يده بحكم العادة إلى جيب بنطاله، حيث صار يحتفظ طوال الوقت بالمسدس الذي استولى عليه من جوان

سيكارت قبل بضعة شهور. كان أحد الأبواب قد فُتح دون أن يطرق: وظهرت هناك الطفلة نفسها التي لمحها قبل دقائق في الحديقة؛ وكانت قد خلعت الآن عمرة رأسها، وهي تقرأ في كتاب ذي غلاف أسود، أشبه بكتاب صلوات: وجود الغريب غير المتوقع في الحجرة جمدها عند العتبة. ففتح فمه ليقول شيئاً، ولكنه لم يوفق في لفظ أي صوت؛ أما هي التي ربما كانت أقل تشنجاً منه، فقد أطبقت الكتاب. ثم قامت بانحناءة توقير لطيفة إلى أن لمست الأرض بركبتيها وتمتمت بشيء لم يفهمه أونوفري بوفيلا، وتمكن من القول لها:

- المعذرة، ما الذي قلته؟

فخفضت بصرها أمام زخم نظرته: وثبتت عينيها على زخارف الأربيسك التي تزين بلاط الأرضية. وقالت أخيراً بصوت نحيل:

- يا قديسة مريم الطاهرة.

فهتف أونوفري:

- آه، يا من حبلت دون خطيئة.

وكررت هي انحناءة الركوع دون أن تنظر إلى وجهه. وقالت وقد علت الحمرة وجهها: لم أكن أعرف أن هناك أحداً في الغرفة، فالخادمة لم تنبهها إلى وجود...

فقاطعها هو بتسرع:

- لا، لا، ولا بأي حال؛ أنا من عليه أن يعتذر إذا كنتُ قد أفزعتك...

وقبل أن يتمكن من إنهاء جملته، انصرفت مغلقة الباب وراءها. حين صار وحيداً، راح يذرع الحجرة بخطوات واسعة وهو يقول، دون أن يهتم بما إذا كان يقول ذلك في دخيلته أم بصوت عال يمكن لأحد أن يسمعه: حيوان، أبله، بهيمة، كيف سمحت لها بالذهاب؟ الله وحده يعلم الآن إذا ما كانت ستُتاح لك الفرصة مرة أخرى لرؤيتها. لم يكن قبل هذه اللحظة، وفي ظروف أشد حرجاً بكثير، قد تردد قط حيال الفرص المتاحة: فهو يعرف على الدوام كيف يستبق الأحداث. وقال لنفسه: إما أنني قد وقعت في الحب، وإما أنني لست على قيد الحياة لأروي ما حدث. ثم تأوه وهو يغرس ركبتيه في الحشايا الوثيرة التي على الأرض: آي، وأنا الذي كنت أظن نفسي بمنأى عن هذه

الهموم! ولكن، ياه! ما هذا الذي أقوله؟ وواصل التأمل وهو في ذلك الوضع التكفيري؛ إنها لا تعدو أن تكون طفلة؛ ولو أنني حدثتها في الحب، فما الذي يمكنها أن تفهمه؟ إما أنها ستخاف، أو سيحدث ما هو أسوأ من ذلك، فتسخر مني. ثم إنني لستُ في نهاية المطاف سوى حمار، فلاح جلف تحول إلى قاتل مأجور ضمن عصبة من الأشقياء. كان يناضل لينتزع من قلبه ذلك السهم الذي جرحه به القدر كما يبدو؛ يدافع عن نفسه ضد ذلك المد الذي يجتاحه، ولكن دون جدوى، مثل من يبني سدوداً من الرمل ليكبح البحر. ولشدة غضبه أمسك تمثال فينوس المرمري وألقى به بكل قوته نحو المرآة التي فوق المدفأة. فكان أول ما سقط على الأرض هو التمثال قد تفتت نتفاً؛ وتشققت المرآة، وظلت ثابتة لجزء من الثانية، عكست خلاله وجه الطفلة المذعور الذي بدا معوجاً ومشوهاً بشروخٍ وتأرجح المرآة التي كانت تهوي أرضاً بدوي صاخب؛ سقطت متشظية إلى ست أو ثماني قطع كبيرة، تفتتت بدورها إلى شظايا صغيرة تناثرت في كل أركان الغرفة، متحولة إلى مسحوق زجاج. بقيت في الإطار لطخة من القصدير والملاط. وسمع وراءه الضجة مرة أخرى؛ كانت صرخة مكبوتة في هذه المرة. فقد عادت الفتاة للدخول وراحت تنظر برعب إلى تلك المرآة التي لم تعد تعكس شيئاً، كما لو أن الغرفة ومن فيها لم يعد لهم وجود؛ وفي تلك الصورة فهمت ما الذي أراد أن يقوله، ورأت المغزى من ذلك العمل التخريبي. تركته يضمها إلى صدره، وأحست بقلب ذلك الشاب الغاضب يخفق بهيجان. وقالت بما استطاعت أن تجمعه من أنفاسها:

– لم يقبلني أحد من قبل قط.

فقال أونوفري بوفيلا:

– ولن يفعل أحد ذلك ما دمتُ حياً، إذا كان لا يريد أن أُطيّر غطاء دماغه – وبعد أن قال ذلك قبّلها من فمها، وأضاف:– ولك أنت أيضاً – فقوست جسدها إلى الوراء: الرأس، والعنق، والكتفان، والظهر؛ وكان شعرها المفلت الآن، بلونه النحاسي، يصل إلى ما دون خط خصرها. تركت ذراعيها تهويان خامدتين على جانبي جسدها، لمست بأصابعها أرضية الغرفة الباردة؛ وانثنت ركبتاها، وبقيت معلقة بين ذراعي أونوفري الذي يطوق جذعها؛ وخرجت من بين شفتيها المفتوحتين قليلاً زفرة طويلة، وقالت:– أجل. وهكذا

ربطت مستقبلها به في لحظة واحدة.

رفع أونوفري عينيه، رمش: كان هنالك أناس آخرون في الغرفة. إنه دون هومبرت فيغا إي موريرا الذي دخل للتو وبرفقته سيدان آخران. أحدهما مهندس معماري يدعى كوسمي فالبوينا. فدون هومبرت الذي يشعر بضجر قاتل، قرر القيام بأعمال توسيع في البيت مستفيداً من موقع قن دجاج وبرج حمائم ملحقين بالمنزل. ولكن القيام بذلك كان يستدعي مع ذلك التجاوز على العقار المجاور. وهذا الاستيلاء على شبرين من الأرض أدى إلى الدخول في دعوى قضائية مع مالك العقار المجاور، وهو فوق ذلك صديق لدون هومبرت. ولأن هذا الأخير مشغول جداً في أمور أخرى ولا يمكنه إضاعة الوقت في خلافات ضئيلة الأهمية، فقد أحضر من برشلونة محامياً شاباً، ولكنه حسن السمعة، ومتخصص في هذا النوع من القضايا، ولا سيما قضايا حق الانتفاع. وكان الرجال الثلاثة يكرسون النهار كله في ذرع البيت والحديقة والحقول المحيطة بهما. وكان المحامي يستخدم حبلاً لأخذ بعض القياسات، ويقدم اقتراحات معمارية، فلا يتنازل المهندس بالاستماع إليها. وكان هذا بدوره يلمح لدون هومبرت إلى وسائل قانونية محتملة لكسب الدعوى التي يواجهها. لقد كانوا يتناقشون، ويحتدون، ويقضون وقتاً ممتعاً. ثم يجلسون بعد ذلك إلى المائدة يتناولون الطعام بشهية تستثير الحسد. ولم تكن زوجة دون هومبرت تحتج على وجود هذين الطفيليين، لأنها ترى أن ابنتها تقترب من سن الزواج، وأن المحامي والمهندس عازبان؛ ويبدو أن كليهما ينتظره مستقبل لامع. أو أنهما يستطيعان في أسوأ الحالات البروز في وسطهما المهني. وهو ما لا يمكن أن يقال عن زوجها البليد. فكان يرد على هذه الترتيبات بطيبة قلب: يا للأمور التي تخطر لك يا امرأة؛ ويردد في كل مرة: البنت لم تكمل سوى عشر سنوات قبل وقت قصير. أما الآن فلم يعد يعرف بماذا يفكر. فهو لم يكن أبله إلى حد لا يستطيع معه تفسير استسلام ابنته الخامل ونظرات مرؤوسه الجامحة والمتعطشة، ولا أن يدرك بأن أفضل ما يمكن له عمله هو التظاهر بأنه لم يفهم شيئاً مما حدث هناك؛ فاكتفى بالتعليق: ما هذا، ما هذا، أرى أنكما قد تعارفتما، وتفاهمتما بمفردكما، هذا يسعدني، هذا يسعدني. أما هما، فقد تأخرا قليلاً في التحلل من عناقهما،

واستعادة توازنهما، واتخاذ المظهر الرزين، بسبب الارتباك. وحتى اونوفري بوفيلا نفسه الذي كان إلى ما قبل دقائق، يزدري دون هومبرت، فقد أحس الآن، وهو يرى فيه أبا الفتاة التي أحبها، بأنه مستعد لمعاملته بأقصى ما يمكن من الاحترام: وقد تخلى عن مظهره الغاضب على الفور، واتخذ مظهراً مطيعاً. وكان المحامي والمهندس يجولان ببصرهما في الغرفة مقدرين الأضرار. وقال الأول:

– المهم هو ألا يتأذى أحد من الزجاج المكسر.

رجع أونوفري بوفيلا إلى برشلونة حين كانت الشمس وراء ظهره. وكان يتصاعد من بين الآجام صرير الجداجد، وكانت السماء مفعمة بالنجوم. وكان يمضي مفكراً: ما الذي سيحل بي الآن؟ بينما عيناه تتطلعان إلى تلك الخريطة السماوية. لقد أدرك أنه لن يستطيع خيانة دون هومبرت فيغا إي موريرا ما دامت هي تبادله الحب.

قبل أن يصل الصيف إلى نهاياته تقدم المحامي والمهندس لطلب يد ابنة دون هومبرت فيغا إي موريرا. وقد أتاحت لها هذه المنافسة وما تلاها من ضرورة اختيار أحدهما، فرصة التسويف في القضية أولاً، ثم الرفض القاطع لهذين المرشحين بعد ذلك. وكان أسلوبها في التعبير عن ذلك الرفض حازماً في بعض الأحيان، ومحزناً في أحيان أخرى، وغالباً ما ترافقه الدموع والرفسات؛ ونظراً لهشاشة بنيتها، كانت تصاب عادة بالجروح كلما ضربت الجدران بجبينها أو الأثاث بيديها: وقد صارت الآن تمضي وهي ملفوفة بالضمادات في كل وقت. وبسبب هذه الحالة، والخوف من إمكانية أن يصيبها ما هو أسوأ من ذلك إذا ما تواصلت معارضة مشيئتها، استسلم أبوها للأمر الواقع. أما أمها فتوجست خيفة من مقاومة ابنتها تلك، ورأت أنها ليست نابعة من رفضها للعريسين اللذين لم تحاول مجرد النظر إليهما، وإنما لسبب آخر أقوى من ذلك. تذكرت تحطم المرآة والتمثال، ذلك الحادث المزدوج الذي توافق مع زيارة أحد مرؤوسي زوجها الغريبة لبيت الاصطياف في بوداليرا، واستخلصت من هذه المعطيات نتائجها الخاصة، ثم استجوبت دون هومبرت؛ فأقر هذا لها بأنه قد فاجأ ابنته والشاب معاً بالفعل؛ وقال إنه

يمكن للمشهد الذي رآهما فيه، بعد أن خفف من وصفه لزوجته، أن يحمل على التفكير بأن الصغيرة تشعر بشيء من الميل نحو ذلك الفتى. وأرادت زوجته أن تعرف: من يكون هذا الفتى؟ فقدم لها دون هومبرت تفسيرات غائمة لم تُصغِ إليها: فهي لا تهتم بما يمكن لزوجها أن يقوله، وإنما بما يحاول التكتم عليه؛ واستنتجت من غمغمات دون هومبرت، وكانت مصيبة في ذلك، بأن أونوفري بوفيلا هو أقل المرشحين الثلاثة جدارة بالزواج من ابنتها. فقالت لنفسها: حسن، فلنتخلص من المحامي والمهندس، ولكن علينا أن نُبعد الصغيرة عن هذا القروي؛ وعندما تنساه سنهتم بالبحث لها عن عريس يناسبها. إنها ما تزال صغيرة ويمكن لها أن تبدد الكثير من الفرص. وبإلحاح منها، أرسل دون هومبرت الصغيرة إلى مدرسة داخلية تديرها راهبات. ولم تبد البنت أية معارضة في ذلك الأمر: فهناك ستشعر بأنها قد تحررت من طالبي يدها. وقالت لنفسها: هذا هو أفضل ما يمكن أن يحدث لنا ضمن هذه الظروف. وقد تفهم أونوفري الأمر على هذا النحو أيضاً بعد أن تجاوز الغضب الذي انتابه للوهلة الأولى. وفكر: ستكون لي في يوم من الأيام، أما الآن فلا بد من الاعتصام بالصبر. وتمكن بأساليب لا تخطر على بال من إيصال مئات الرسائل إليها في مدرستها الداخلية. وقد كانت تلك مأثرة كبيرة، لأن مقدرته على الكتابة كانت لا تكاد تتجاوز حينذاك معرفة توقيع اسمه؛ ويمكن القول إنه قد تعلم الكتابة بأسلوب متدفق من خلال رسائله الغرامية تلك. وكانت الفتاة في ردها على رسائله تحاول مغافلة رقابة الراهبات، فهي تقول في واحدة من تلك الرسائل: ***أولاً وقبل كل شيء، أشكر الرب بوساطة يسوع المسيح، لأن الرب الذي أقدسه في أعماق روحي، شاهد على مدى تذكري لك، وأنا أتضرع إليه دائماً في صلواتي ليوفر لي أخيراً، إذا كانت هذه هي مشيئته، يوماً ملائماً أصل فيه إليك، لأنني متلهفة لرؤيتك.*** هذا الأسلوب، المستنسخ عن أسلوب القديس بولس، كان غريباً على مراهقة عاشقة؛ ويمكن تفسيره بخوفها من وقوع الرسائل في يد الراهبات أو أبويها، أو نتيجة ورع حقيقي من جانبها. ففيما بعد، عندما تزوجت، أبدت قدراً عالياً من التدين والورع. ومن عرفوها وتعاملوا معها في سنوات نضجها كانوا يقدمون أحكاماً متناقضة بشأنها؛ فالصفتان اللتان تتواتر نسبتهما إليها بكثرة

هما: الرصانة والخبل. وكان آخرون يرون أن الأمر قد انتهى بها إلى البحث عن السلوى في الدين لأنها عاشت تعسة طوال حياتها بسبب أونوفري بوفيلا.

في أثناء ذلك كانت برشلونة تتأهب لاجتياز الخط الفاصل بين القرن الماضي والقرن الحالي وفي جعبتها من المشكلات أكثر مما فيها من الآمال. وقد تعوّد الناس المترفون القول في الأندية والمنتديات والصالونات: يبدو أن كل ما حققناه بالجهد سيكون مجرد زهرة تتفتح ليوم واحد. فقد كان الركود يتفاقم. وكانت المتاجر الفخمة في شارع فرناندو تغلق أبوابها واحداً بعد الآخر؛ وتُفتتح بدلاً منها في شارع رمبلاس وفي باسيّو دي غراثيا المخازن الكبيرة، وهي ظاهرة مستجدة كان البرشلونيون ينظرون إليها بتحفظ واضح. فقد عنونت إحدى الصحف تعليقاً لها بالقول: ***المخازن الكبرى، هل هي مصباح علاء الدين أم مغارة علي بابا؟*** ولم تسهم سياسة الحكومة الاقتصادية في تحسين الأمور. إذ كانت تصم أذنيها عن عقلانية الكتلانيين المقيمين في مدريد وتوسلاتهم للتمسك بها، وعن بعض القشتاليين بعيدي النظر أو ممن يتلقون رواتبهم ليكونوا كذلك؛ فألغت جميع، أو معظم، إجراءات الحماية التي تصون الصناعة الوطنية؛ وبإلغاء الضرائب التي كانت تُفرض على المنتجات الأجنبية، انتهى الأمر بتلك المنتجات، وهي أفضل وأرخص وأسهل استعمالاً من الوطنية، إلى إغراق السوق الهزيلة أصلاً. فأضيف إغلاق المصانع وتسريح العمال الجماعي والمفاجئ إلى الجائحات التي كانت تعيث فساداً في أوساط الطبقة العاملة. وكانت هناك أيضاً الحرب الدائرة في كوبا وفي مليلة. حيث كان يُساق كل أسبوع مئات الفتيان، معظمهم لم ينبت الشعر في وجوههم بعد، إلى أمريكا وأفريقيا. وكان بالإمكان رؤية مشاهد تمزق نياط القلب في المرفأ أو في محطات القطارات. فكان على شرطة الحرس الأهلي في أحيان كثيرة أن تنقض على الأمهات اللواتي يحاولن منع نقل القوات بإيقافهن السفن بالتشبث بحبال تثبيتها إلى الرصيف، أو بعرقلتهن مرور القطارات. ومن مئات وآلاف أولئك الشبان الذين كانوا يذهبون إلى جبهة القتال، لم ترجع إلا قلة قليلة، وحتى هؤلاء، رجعوا مبتوري الأعضاء أو

مصابين بأمراض خطيرة. فراحت هذه الوقائع تفاقم السخط الشعبي. وصارت تلك الجمعيات العمالية التي كانت تشغل بال المرحوم كانالس إي فورميغا تكتسب مزيداً من القوة، ولا سيما الفوضوية منها. فقد كان هناك فوضويون من أنصار فوسكاريني، أو من المؤيدين لاتجاه دي ويرد أو غيرهما من القادة الذين ظهروا لاحقاً. وكانت تلك الجمعيات كلها تتحد أحياناً لتدعو إلى إضرابات عامة لا تتكلل أبداً بالنجاح. وبازدياد حدة الحماسة نتيجة كثرة الاخفاقات والمساعي غير المجدية، ورؤية أن الأمور لا تتغير إلا إلى الأسوأ، قرر البعض اللجوء إلى العمل المباشر. واقتداء بأمثلة محازبيهم الإيطاليين والفرنسيين، والروس بصورة خاصة، اختاروا ***قطع رؤوس هيدرا***[1]***، مهما كان عددها، وكلما كان العدد أكبر، يكون أفضل***، مثلما قال واحد منهم. وهكذا بدأت عقود الإرهاب السوداء: فلم يكن هناك احتفال عام، أو عرض، أو موكب، أو استعراض إلا ويمكن أن يقع فيه انفجار مفرقعة مفاجئ ومخيف. فكان الأحياء الذين سبب لهم الانفجار الصمم وأعماهم الدخان يبحثون بعد ذلك بين الضحايا عن أقربائهم أو أصدقائهم؛ بينما يندفع آخرون هاربين في كل الاتجاهات بعيون جاحظة وملابس ملطخة بالدماء، دون أن يتوقفوا ليتأكدوا مما إذا كانوا مصابين بجراح قاتلة أم أنهم خرجوا سالمين من الاعتداء. وهناك حيث يجتمع الناس المترفون، كانوا يبدون ما يشير إلى مدى غضبهم ويأسهم. وكلما كان يقع حادث من هذا النوع، لم يكن بإمكان أونوفري بوفيلا إلا أن يتذكر بابلو والنظريات التي يتبناها، والتي ساهم هو نفسه رغم إرادته في الترويج لها. وكان يتساءل أحياناً عما إذا لم يكن بابلو نفسه هو من ألقى القنبلة على مارتينث كامبو، أو قنبلة مسرح الليسيو التي ما زالت أصداؤها المأساوية تُسمع حتى اليوم، في ليالي العروض الفخمة، في شرفات وممرات المسرح الشهير. ولكنه لم يكن يُطلع أحداً على هذه التأملات: فهو يريد بسبب وضعه الراهن، ولأسباب عاطفية، أن يخفي أي أثر للعلاقة التي أقامها مع الفوضويين. بل إنه، على العكس من ذلك، كان

---

[1] هيدرا Hidra: وحش خرافي في الأساطير الإغريقية، على هيئة كلب له سبعة رؤوس أفعوانية، كلما قُطع رأس منها نبت مكانه اثنان. وقد قضى عليه هرقل.

يوحي لخطيبته وللأشخاص الذين يقيم معهم علاقات عمل، بأنه شاب من أسرة راقية أجبرته صروف القدر على ممارسة بعض الأعمال التي يشوبها شيء من الغموض، كتلك التي يقوم بها بتكليف من دون هومبرت فيغا إي موريرا. لم يعد هناك من يتذكر مشاركته في أعمال العنف التي قضت على مملكة الجريمة وعلى حياة كانالس إي فورميغا. فهو في كل مرة تتيح له الظروف ذلك، يعمد إلى استنكار الفوضويين، ويبدي تأييده لسحقهم بيد صارمة، ولا يتورع عن تسميتهم بـ «الكلاب الضارية»، ويمتدح السياسة الدموية التي تتبعها الحكومة لفرض النظام. وكان لا بد لهذا الموقف من أن يلقى أصداء طيبة في أوساط البرجوازية الكبيرة التي صار يرتبط بها بصورة هامشية. وحين رأت تلك البرجوازية أن ثرواتها مهددة، وحيواتها كذلك، سارعت إلى توقيع هدنة في نزاعها الأزلي مع مدريد. فكان أفرادها يقولون: مهما كانت مواقف الحكومة مضرة بمصالح كتالونيا التجارية، إلا أن الحرمان من حمايتها المسلحة في هذا الصراع سيكون أشد وبالاً. ثم يبدون أسفهم بعد ذلك لاضطرارهم إلى القبول بهذا التنازل، ويقولون: من المحزن أن نكون مضطرين إلى إلقاء أنفسنا بين ذراعي جنرال تافه، في الوقت الذي قدمت فيه كتالونيا للجيش الإسباني أشد أسوده ضراوة. بهذه الصورة كانوا يشيرون إلى الجنرال بريم، بطل المكسيك ومراكش، وإلى الجنرال ويلير الذي كان يوقف المتمردين الكوبيين عند حدهم آنذاك. وأكثر ما كان يُقلق المتخوفين هو أن يتمكن أنصار الاستقلال الكتلاني، الذين يزدادون قوة، من الفوز في أحد الانتخابات، وما سيلي ذلك من غضب مدريد التي يظنون أنهم مدينون لها بحياتهم. وهكذا كانت تزدهر الصفقات والأعمال التي يقوم بها السيد براوليو. وكان أونوفري بوفيلا يفرك يديه سعادة عندما يخلو إلى نفسه. وسيقول بعد سنوات من ذلك: لقد كنت أفكر على الدوام بأن داء إسبانيا العميق يتمثل في وجود المال بين يدي فئة من الجبناء غير المثقفين والقساة. وكانت الحكومة من جهتها تكتفي بجني الثمار التي يوصلها هذا الوضع إلى يديها وتتعامل باستخفاف مع مشكلة كتالونيا الداخلية كما لو أنها تتعامل مع مشكلة أخرى من مشكلات مستعمراتها: فكانت ترسل في أول الأمر عسكريين قساة لا يعرفون سوى لغة الحرب ويحاولون فرض السلام

بإبادة نصف الأهالي بقوة السلاح. وكان أونوفري يفكر على الدوام وهو يرى ما يدور من حوله: آه، يا لها من أزمنة رائعة ومواتية لمن لديه قليل من المخيلة، وما يكفي من المال، والكثير من الجرأة. وأنا لدي فائض من الأولى والأخيرة، إنما ينقصني المال، من أين سأحصل عليه؟ ومع ذلك، يجب أن أجد طريقة لامتلاكه، لأن مثل هذه الفرص لا يوفرها القدر إلا مرة واحدة في الحياة، بل ربما لا يوفرها أبداً في بعض الأحيان. ولم يؤد وجود خطيبة لديه سوى إلى تأجيج طموحاته؛ وكان عدم تمكنه من رؤيتها يتيح له الحفاظ على كل طاقاته. فهو لم يعد يخرج للهو مع أودون موستاثا وأتباعه: لقد صار يفضل عدم الظهور أمام الملأ برفقة أشقياء. أما المتع الصغيرة التي يبيحها لنفسه، فكان يتولى أمر تدبيرها خفية السيد براوليو وإفرين كاستيلس. وفي تلك الفترة أعلنت الصحف عن اقتراب مذنّب سارغون من الأرض، وكان قطره يقدر بأكثر من خمسين ألف كيلومتر؛ فظهر متنبئون يعلنون عن نهاية العالم، وعن أن الاضطرابات والهموم السائدة ليست سوى المقدمة والنذير. وشاع القلق كما هو منطقي، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث في نهاية المطاف.

الفصل الرابع

– 1 –

سرعان ما يلاحظ الرحالة الذي يصل إلى برشلونة أول مرة، أين تنتهي المدينة القديمة وتبدأ الجديدة. فبعد أن تكون الشوارع متعرجة، تتحول إلى مستقيمة وفسيحة؛ وتصبح الأرصفة أكثر رحابة؛ تظللها بلطف بعض أشجار الدلب الفارعة؛ والمباني أجمل مظهراً؛ ولا يعدم من تنتابه الحيرة، معتقداً أنه انتقل بقدرة السحر إلى مدينة أخرى. وكان البرشلونيون، عن قصد منهم أو دون قصد، ينمون هذا الالتباس: فيبدو عليهم، لدى انتقالهم من قطاع إلى آخر في المدينة، وكأن هيئتهم قد تبدلت، وكذلك سلوكهم وملبسهم. ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو دائماً؛ فذلك التحوّل له تفسيره، وتاريخه، وأسطورته.

خلال قرون تاريخ برشلونة الطويل، لم تكن هناك مناسبة حالت فيها أسوارها دون غزوها ونهبها. ولكنها كانت تحول بالمقابل دون توسعها. فبينما كانت الكثافة السكانية داخل الأسوار تتزايد، وتجعل الحياة لا تطاق، كانت تمتد خارجها البساتين والأراضي البور. وعند الغروب، أو في أيام العطلات، كان سكان القرى المجاورة يصعدون إلى التلال (وهي المعروفة اليوم بأسماء بوتكسيت، وغراثيا، وسان خوسيه دي لا مونتانيا وغيرها) ويراقبون، عبر مناظير نحاسية أحياناً، البرشلونيين: وكان هؤلاء يذهبون ويجيئون محمومين، مرتبين، مُدقِّقين؛ يتبادلون التحيات، ويختفون في متاهة الأزقة، ثم يعودون للتلاقي وتبادل التحية من جديد، ويبدي كل منهم اهتمامه بصحة الآخر وبأعماله، ثم يودّع بعضهم بعضاً إلى أن يلتقوا في المرة التالية. وكان ذلك المشهد يسلي القرويين؛ ولم يكن يُعدم من يحاول، في بساطته، أن يطول برشلونياً بحجر: وقد كان ذلك مستحيلاً، بسبب بعد المسافة أولاً، ثم بسبب وجود السور أيضاً. وكان الازدحام يهدد الحياة الصحية: فأي مرض يتحول إلى جائحة، ولم تكن هناك طريقة لعزل المرضى. فكانوا يغلقون بوابات

المدينة لتفادي توسع انتشار الوباء، ويشكل سكان القرى دوريات جوالة تجبر الهاربين من المدينة على العودة إليها بالهراوى، وكانوا يرجمون بالحجارة من يتمهل في عودته، ويرفعون أسعار المواد الغذائية إلى ثلاثة أضعاف. كما كان الازدحام يسيء إلى الحشمة أيضاً، إذ يروي أحد الرحالة في مذكراته: ***نزلتُ في فندق نصحوني بالذهاب إليه واثنوا عليه كثيراً، فتبين لي انه علي ان اتقاسم غرفة مساحتها ستة أمتار مربعة على أبعد تقدير، مع أشخاص بعدد تلك الأمتار المربعة، اي خمسة إضافة إليَّ أنا. وتبين ان بين اولئك الأشخاص عريسين حديثي الزواج يقومان برحلة شهر العسل، وما كادا يستلقيان بعد إطفاء النور، حتى ملأا الليل بخليط من اللهاث والتأوهات والضحك. وكل هذا مقابل سعر باهظ جداً، ومع ذلك شكراً!!!*** وقد كتب الأب كامبوثانو عن ذلك بإيجاز أكبر: ***نادر هو البرشلوني الذي لم يطلع بصورة بيانية، قبل بلوغه سن الرشد، على الطريقة التي أُنجب بها***. ونتيجة لما سبق كان هناك تسيب في العادات، وجائحات من الأمراض الزهرية، وتهتك ومفاسد أخرى، بل واضطرابات نفسية في بعض الأحيان، مثلما هي حال خائينتو أو خائينتا بيوس: ***لكثرة ما رايت ابوي، واخوتي وأخواتي، وأعمامي وعماتي، وجدي وجدتي، وأبناء وبنات عمومتي، وخدم البيت وهم جميعهم عراة، لم أعد اعرف من هم الرجال ومن هم النساء ولا إلى اي من الجنسين عليّ ان انتمي.*** وكانت مشكلة السكن مرعبة؛ فالأسعار الفلكية للمسكن كانت تستهلك الجزء الأساسي من الدخول الأسرية. ومن المفيد هنا إيراد بعض الأرقام التي من السهل فهم مدلولها. ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت مساحة برشلونة 427 هكتاراً. في الوقت الذي كانت فيه مساحة باريس 7802 هكتاراً؛ وبرلين 6310 هكتارات، ولندن 31685 هكتاراً. بل إن مدينة تبدو صغيرة ظاهرياً كما هي فلورنسا، كانت مساحتها 4226 هكتاراً، أي أكبر من مساحة برشلونة بعشر مرات. ولم تكن الكثافة السكانية في الهكتار الواحد أقل كشفاً: 291 في باريس، 189 في برلين، 128 في لندن، 700 في برشلونة. ولماذا لا تهدم الأسوار؟ لأن الحكومة لم تكن تسمح بذلك؛ فقد كانت تتذرع بحجج استراتيجية واهية لتُبقي المدينة في حالة اختناق، وتحول دون توسع برشلونة في المساحة والنفوذ. كان الملوك، والملكات، والأوصياء على العرش الذين

تعاقبوا على إسبانيا يتظاهرون بأن لديهم مشكلات أشد إلحاحاً، وتبدي الحكومات عدم المبالاة، عندما لا تبدي السخرية، حين تقول: إذا كانت تنقصهم الأراضي فليحرقوا مزيداً من الأديرة، ملمحين بذلك إلى الأديرة التي أحرقها الرعاع خلال عقود الاضطرابات الطويلة والدامية تلك، وإلى واقع أن تلك العقارات استُخدمت فيما بعد كفضاءات عامة: ساحات وأسواق وغيرها. وأخيراً تم هدم الأسوار، وقال البرشلونيون: يبدو الآن أنه صار بإمكاننا التنفس. ولكن الواقع لم يتبدل: فبوجود الأسوار ومن دونها بقي ضيق المدينة على حاله. الناس يعيشون مضغوطين في غرف ضيقة، وفي اختلاط منتن وغير محتشم، مكدسين بعضهم مع بعض، وجميعهم مع الحيوانات الداجنة. لقد أتاح اختفاء الأسوار النظر في أي وقت إلى الوادي الذي يمتد حتى سفوح سلسلة جبال كولسيرولا، مما يجعل الازدحام أشد جلاء. فكان أهل المدينة يقولون: يا للعنة، كل هذه الحقول الخالية بينما نحن هنا، مثل فئران في جحر. ويتساءلون: هل من العدل أن يعيش الخس في راحة ورحابة أكثر منا؟ وعندئذ تلتفت عيون الأهالي نحو العمدة.

لم يكن عمدة برشلونة آنذاك هو نفسه الذي سيُنجز بعد سنوات مشروع المعرض الدولي، وإنما كان شخصاً آخر.. رجلاً قصير القامة، كبير الكرش. ومتديناً جداً: فكل يوم يحضر القداس في الكنيسة ويتلقى القربان الإلهي. ويحاول في دقائق الخلوة تلك، ألا يفكر في المشكلات البلدية، بل يرغب في أن يكرس كل اهتمامه لمعجزة التحول الجوهرية (تحول خبز ونبيذ القربان إلى جسد المسيح ودمه). ولكن مشكله العمران المدينية التي تثقل عليه، كانت تدفعه إلى الشرود، فيقول في نفسه: يجب عمل شيء ما، ولكن ما هو؟ كان قد درس توسع مدن أوروبية أخرى: باريس، لندن، فيينا، روما، سان بطرسبورغ. وكانت المخططات جيدة، ولكنها باهظة التكاليف. فضلاً عن أن أياً منها لم يكن يأخذ خصائص برشلونة في الحسبان. فعندما يطري أحدهم على مخطط باريس، يرد عليه العمدة دائماً بأنه مخطط جيد، «ولكنه لا يأخذ في الحسبان خصائص برشلونة». ويقول الشيء نفسه عن مخطط فيينا وغيرها. كان مقتنعاً بأنه لا بد لبرشلونة من أن تضع مخططها الخاص وتنفذه، دون الوقوع في المحاكاة.

وفي أحد الأيام، تبدت له هذه الرؤيا بعد أن تناول خبز القربان: رأى نفسه جالساً على مقعد العمدة في مكتبه، ودخل حاجب ليخبره بوجود زائر. فراح العمدة يتساءل إذا ما كان هذا الزائر عضواً في لجنة ما أو مندوباً. فقاطع الحاجب تخميناته: يقول إنه سيد من أولوت. وفي أثناء ذلك دخل الزائر وخرج الحاجب. فوجئ العمدة. فقد كان الزائر يشع بومض أشعة وتحيط به هالة من نور. ولاحظ العمدة باستغراب أن بشرة الزائر مفضضة، كما لو أنه طلاها بصباغ من الفضة. كما أن شعره الذي يصل إلى كتفيه، هو خيوط من الفضة. وكان ينبعث عن عباءته كذلك انعكاس ضوء غير لامع، وكأن كل ما في الزائر مكوّن من تركيبة خارقة. كبح العمدة نفسه كثيراً عن طلب تفسير بشأن ذلك؛ وسأل فقط عن سبب تَشرُّفه بهذه الزيارة. فقال الزائر: لقد لاحظنا منذ زمن أنك تبدو شارد الذهن عندما تتلقى القربان المقدس. فاعتذر العمدة: هذا الوهن يقتصر على انتباهي فقط ولا يطول ورعي؛ والمشكلة هي في مخطط التنظيم العمراني للمدينة الذي يشدني إلى طريق المرارة؛ ولا أعرف ماذا أفعل. فقال الزائر: غداً صباحاً، مع أول صياح الديك، ستكون عند باب الغروب القديم. وسترى هناك مجيء المختار، ولكن لا تقل له إنني قد تجليت لك. استيقظ العمدة مذعوراً: وجد نفسه في الكنيسة، جاثياً في مركعه، وكانت ما تزال على لسانه قطعة خبز القربان. لقد رأى كل ذلك في حلم لم يستغرق أكثر من إغماضة عين وفتحها.

وفي اليوم التالي، ذهب العمدة في الساعة الموعودة إلى المكان الذي ستشاء المصادفة أن ينتصب عليه بعد سنوات قوس النصر الذي يشكل مدخل المعرض الدولي. وكانت قد بدأت حركة الناس والدواب والعربات. ولكي لا يتم التعرف إليه، ارتدى العمدة معطفاً بسيطاً وقبعة كبيرة؛ وكان قد وضع جبن ماعز أبيض في إناء من الفخار؛ وراح يسكب فوقه زيتاً ويذر فوقه مسحوق الزعتر البري، مثلما كان يرى جديّه يفعلان وهو صغير في المزرعة التي كان يعيش فيها آنذاك. وقد أمضى النهار على تلك الحال. وكان من يمرون بجانبه يتحدثون عن البلبلة التي تسود المدينة بسبب اختفاء العمدة الذي يبحثون عنه دون جدوى منذ أن تخلف في الصباح عن الحضور إلى الكنيسة حيث يستمع إلى القداس بانتظام كل يوم. ويقال إنه لم ينقص من الخزينة

العامة قرش واحد؛ وهذا هو ما كان يصدم الجميع أكثر من أي شيء آخر. وعند الغروب، حين تحولت الشمس إلى دائرة كبيرة حمراء، رأى العمدة كائناً غريب المظهر يقترب منه. كان النصف الأيسر من وجه ذلك الشخص قد تعرض لحرق في طفولته خلّفه أملس وأمرد؛ أما النصف الآخر بالمقابل، فكانت تخطه التجاعيد ويزدهي عليه نصف شارب ونصف لحية ذات طول لافت للنظر، وقال إنه آت سيراً على قدميه على طريق الحج الذي ساره القديس سنتياغو دي كومبوستيلا أو يستعد للانطلاق فيه. وإنه يدعى أبراهام شلاغوبير، أي «قشدة» بالألمانية؛ وقال إنه ليس يهودياً، على الرغم من الاسم، بل هو مسيحي عجوز، يحج إلى مقام القديس سنتياغو وفاء لنذر رفض الكشف عن سببه، وإنه بنّاء. قاده العمدة فوراً إلى البلدية، وعرض عليه مخططات برشلونة ومحيطها، ووضع تحت تصرفه كل الوسائل ليضع تصميماً للمشروع. فقال له أبراهام شلاغوبير: ستكون هذه المدينة هي مدينة الرب التي يحدثنا عنها القديس يوحنا، ستكون أورشليم الجديدة. لأن أورشليم قد دُمرت ولن تنهض من جديد أبداً، لأن الرب قال إنه لن يبقى فيها حجر على حجر، وستحل محلها مدينة أخرى لتكون مركز المسيحية. وبرشلونة تقع على خط الطول نفسه الذي تقع عليه أورشليم، وهي مدينة متوسطية، وكل شيء يؤهلها لأن تكون المدينة المختارة. وقرأا معاً الكلمات الموحية: ***ورأيتُ المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، نازلة من السماء، من عند الله، مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعتُ صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هو ذا مسكن الله مع الناس. وهو سيسكن معهم وهم سيكونون شعباً له والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، ولا يكون موت ولا حزن ولا صراخ ولا وجع.*** أُنجز المشروع خلال أقل من ستة أشهر، وبعدها اختفى أبراهام شلاغوبير دون أن يخلف أثراً. هناك من يقول إن ذلك الشخص لم يوجد قط، وإن العمدة نفسه هو من وضع المخططات. ويقول آخرون إنه وُجد حقاً، ولكن اسمه لم يكن مثلما ادعى، ولم يكن حاجّاً ولا بناء، وإنما هو مغامر آفاق، لاحظ حال العمدة غير الطبيعية، فقرر الاستفادة من ذلك الوضع، وأصاب بمكر في نقل رؤى حاميه إلى الورق، وعاش طيلة الفترة التي استغرقها العمل على نفقة البلدية، وهو أمر ليس بالغريب. وعندما صار

المشروع ناجزاً بالكامل وجد العمدة أنه يلائم ذوقه فعرضه على المجلس.

لا وجود اليوم لمخططات المشروع الأصلي: فإما أن يكون قد أُتلف عمداً وإما أنه مدفون دون رحمة في محفوظات للبلدية لا سبيل إلى سبر أغوارها أو بلوغها. وقد وصلتنا بعض المخططات الأولية الجزئية، غير الموثوقة، كنتف من الذاكرة التبريرية. وكانت وحدات القياس التي استُخدمت هي القامة[1] والفرسخ[2]، والذراع والمرحلة[3]، وهي قياسات تريك دون شك العمال الذين سيشاركون في البناء؛ كما يتضمن المخطط شق قناة صالحة للملاحة، تمتد من الموقع الذي نسميه اليوم التبيدابو حتى البحر، وتتفرع عنها إلى اليمين واليسار اثنتا عشرة قناة (واحدة لكل سبط من أسباط بني إسرائيل) أقل عرضاً وعمقاً من القناة الرئيسية، تصب في عدد مماثل من البحيرات الاصطناعية، تنتظم حولها أحياء أو تجمعات سكنية شبه دينية، وشبه إدارية، وحكومية، يديرها نائب للعمدة أو كاهن لاوي. ولا يظهر في أي مكان ما يبين من أين ستأتي المياه التي ستغذي القناة وتفرعاتها، وإن كانت هناك تلميحات غائمة إلى بعض الآبار الموجودة في المواقع التي تعرف اليوم باسم فايفيديرا، وفلوريستا، وسان كوغات، ولاي بلاناس. وفي مركز المدينة القديمة (الذي يجب هدمه حسب المخطط، باستثناء الكاتدرائية، وكنائس سانتا ماريا دل مار، وإيل بينو، وسان بيدرو دي لاس بوبيّاس) ستقام خمسة جسور على القناة، كل جسر منها يمثل واحدةً من الفضائل اللاهوتية الخمس. وستستبدل مقرات البلدية ومجلس النواب المحلي والحكومة المدنية بثلاث كنائس تمثل قوى الروح الثلاث. وهناك سوق للقناعة، وسوق لمخافة الله، وغيرها. إضافة إلى جوانب أخرى للمشروع بقيت مجهولة، ولن نتوصل مطلقاً إلى معرفتها. فغر أعضاء المجلس البلدي أفواههم من الدهشة. ولكنهم اختاروا أخيراً مبايعة المشروع. فأيدوه بالإجماع ودون تحفظات،

---

[1] قامة braza: وحدة قياس تساوي ستة أقدام أو 1.67 متر.

[2] الفرسخ parasanga: وحدة قياس فارسية قديمة تعادل أربعة أميال تقريباً.

[3] المرحلة estadio: وحدة قياس اعتمدها الإغريق القدماء، وتساوي 600 قدم أو 167 متراً.

ولكنهم أشاروا مع ذلك إلى ضرورة احترام الإجراءات المعمول بها وفق القانون السائد: فالمشروع الذي وافق عليه المجلس بكامل أعضائه، يجب أن يحظى بمصادقة وزارة الداخلية، التي تتبع لها كل بلديات إسبانيا. فاستولى الغضب على العمدة وصاح: أيكون من الممكن أن يُفرض المرور عبر مدريد، حتى على مشيئة الرب نفسها؟ فأجابه أعضاء المجلس البلدي وهم يتنفسون الصعداء: إنه القانون. وتظاهروا بالتضامن مع غضب العمدة، ولكنهم كانوا واثقين في أعماقهم من أنهم سينقلون الكرة إلى مدريد، وأن مدريد ستخلصهم من الورطة. وفكروا: لقد كانوا يغضبوننا بعرقلتهم لمشروعاتنا على الدوام، ولكن الأمر سيتغير هذه المرة، لأنهم سيقدمون لنا جميلاً هائلاً برفضهم المشروع.

وجاء ردّ مدريد كالآتي: يحيطكم سيادة وزير الداخلية علماً بأنه تلقى ما يسمى ***مخطط توسيع مدينة برشلونة***، ولكنه يرفض تبنيه لعدم مطابقة تقديمه للمتطلبات الواردة في التشريعات الخاصة بالموضوع. وقد كانت التشريعات تطالب فعلاً بتقديم ثلاثة مشروعات مختلفة، ويحتفظ الوزير لنفسه بحق اختيار ما يفضله منها. ظن العمدة أنه فقد عقله. وقد تمكن أعضاء المجلس، بتعاونهم معاً، من تهدئته بالقول: فلندعُ إلى إجراء مسابقة، ولنرسل إلى مدريد مشروعنا ومعه مشروعان آخران؛ ولن يستطيع السيد الوزير إلا أن يختار مشروعنا، لأنه سيجد بالضرورة أنه الأفضل. ولم يستطع العمدة الاعتراض على ذلك؛ فهو يعتقد أن مشروعه جاء بوحي من الرب، وأنه لم ولن يوجد مشروع يتفوق عليه، وهكذا سمح بإجراء مسابقة وانتظر بفارغ الصبر تقديم المشروعات، وفرزها، وانتقاءها وفق ترتيبات المواعيد المحددة في شروط المسابقة، بل إنه وافق على تقديم مشروعه على قدم المساواة مع المشروعات الأخرى، مقتنعاً بأنه سيتم اختياره، وهو ما حدث. وخلال تلك العملية، بدأ تداول مشروع العمدة، الذي لم يره من قبل إلا قلة، وتناقله من يد إلى يد، وصارت مواصفاته حديث الألسن. ولم يعد هناك من يتحدث في موضوع سواه في منتديات المدينة الراقية. وأخيراً أُرسلت المشروعات الثلاثة المختارة إلى مدريد. فاستبقاها الوزير هناك أطول مدة ممكنة دون أن يقدم تفسيراً لذلك. لم يعد العمدة يشعر بأنه على قيد الحياة،

فهو ينهض مذعوراً في منتصف الليل ويسأل: هل وصلت أخبار من مدريد؟ ولأنه عازب، كان خادمه الخاص يهرع إلى مخدعه لتهدئته.

وأخيراً جاء ردّ الوزير. وكان للرد وقع القنبلة: لقد قرر السيد وزير الداخلية عدم اختيار أيٍّ من المشروعات الثلاثة المقدمة، لأن أياً منها، حسب رأيه، لا يتضمن المزايا الكافية. ولكنه يوافق بالمقابل، ويمهر بتوقيعه مشروعاً رابعاً لم يقدم للمسابقة، أو أنه قُدم إليها واستبعدته لجنة التحكيم. وهو يظهر الآن متمتعاً بحماية مرسوم قانون. وهذا هو المشروع الذي سيُعرف فيما بعد باسم «مخطط ثيردا». فحاول العمدة أن يتناول الأمر بطيب نية، وكتب إلى الوزير: *يبدو أن سيادتك أردت المزاح معنا بجعلنا نرى أنك توافق على مشروع لا يقتصر ضعفه على أنه لم يكن ضمن المشاريع الثلاثة المقدمة إلى سيادتكم، وإنما هو يحظى مسبقاً بعدم موافقة جميع البرشلونيين*. فكان جواب الوزير صاعقاً في هذه المرة. فقد كتب إلى العمدة: *البرشلونيون سيكونون يا صديقي في منتهى السعادة إذا ما تم يوماً تنفيذ «مخطط ثيردا» مثلما أقررته أنا. أما في ما يتعلق بك شخصياً، أيها العمدة العزيز، فاسمح لي بأن أذكرك بأنه لا يدخل ضمن صلاحياتك تحديد إذا ما كان الوزير يمزح أم لا. فاقتصر حضرتك على تنفيذ تعليماتي بحذافيرها ولا تضطرني إلى تذكيرك لمن أنت مدين بمنصبك في نهاية المطاف، الخ... الخ...*

دعا العمدة المجلس إلى اجتماع موسّع من جديد. وقال: لقد تلقينا صفعة. ونحن نستحقها لأننا أخضعنا أنفسنا لإملاءات مدريد بدل التصرف وفق مشيئتنا، مثلما تتيح لنا مكانتنا ويتطلبه شرفنا. لقد تعرضت برشلونة الآن لإهانة بسبب جبننا: فليكن هذا عبرة لنا. دوت عاصفة من التصفيق. ففرض العمدة الصمت وتكلم من جديد. وكان صوته يدوي في قاعة المئة:

– علينا الآن أن نرد، فقد جاء دورنا. قد يبدو ما سأقترحه عليكم إجراء مشدداً، ولكنني أتوسل إليكم ألا تتعجلوا بأحكامكم. فكروا وستجدون أنه ليس أمامنا من مخرج آخر. وكان ما اقترحه عليهم هو الآتي: بما أن مدريد ترفض سماع رأينا وتحاول فرض وجهة نظرها علينا بعجرفة وازدراء، فإنه يتوجب على كل واحد منا، باعتبارنا ممثلين لشعب برشلونة، أن يتحدى

الموظف الذي يقابله في المرتبة الوظيفية في الوزارة، ويقتله في مبارزة أو يموت دفاعاً عن حقه وكرامته، بالطريقة نفسها التي ألقي بها أنا الآن، هنا وعلناً، قفازي على أرض هذا الحرم التاريخي، وأدعو السيد وزير الداخلية إلى مبارزة لكي يعلم دفعة واحدة هو وبيروقراطيوه المشؤومون بأنه بدءاً من الآن، إذا ما أنكرت العدالة على كتلاني في أي مكتب، فإنه سينالها بذراعه في ساحة الشرف.

وألقى على الأرض قفازاً رمادياً من جلد جدي كان قد اشتراه في اليوم السابق من متجر أدوات الفروسية، وأمضى ليلته ساهراً أمام مذبح القديسة لوسيا. فأطلق الحاضرون الهتافات، وصفقوا له طويلاً؛ ومن معهم قفازات حذوا حذوه؛ ومن لم تكن معهم، ألقوا إلى الأرض قبعاتهم، وصداراتهم، وحتى أحذيتهم. فكان العمدة المسكين يبكي تأثراً. لم يكن يدري أن من تقبلوا مقترحاته بكل ذلك الحماس، لم تكن لديهم أدنى نية في تطبيقها، بل إن بعضهم كانوا قد أرسلوا رسائل إلى مدريد يعبرون فيها عن انضمامهم إلى الوزير، ويأسفون للهجة العمدة غير اللائقة، ويؤكدون أن لديهم شكوكاً جدية حول سلامته الذهنية. ولجهله بكل ذلك، بعث العمدة إلى مدريد رسالة تحدٍّ أعادها إليه الوزير ممزقة إلى نتف صغيرة في مغلف مختوم بالشمع كتب على ظاهره بخط يده: **دعك من هذا التهريج.** نصح أعضاء المجلس البلدي العمدة بعدم الإلحاح، وبأنه لم يعد هناك ما يمكن عمله، وأن يأخذ إجازة لبعض الوقت. فانتبه أخيراً إلى أنهم تركوه وحيداً. فاستقال من منصبه، واستقر في مدريد، محاولاً إثارة اهتمام مجلس الكورتيس بالقضية. فتظاهر بعض النواب بالاهتمام بها لدوافع سياسية استراتيجية: فقد ظن بعضهم أنهم يكسبون بذلك تعاطف الكتلانيين، وكان آخرون يأملون في الحصول على تعويض مادي مقابل تدخلاتهم. وعندما عرفوا أن العمدة السابق ليس سوى مختل يعمل لحسابه فقط، تخلوا عنه ساخطين. لجأ العمدة السابق إلى رشوة أكبر المرتشين، فبدد في ذلك ثروته الشخصية، وكانت كبيرة جداً. وبعد ثلاث سنوات، رجع إلى برشلونة مفلساً وبقلب محطم، فصعد إلى مونتجويك ونظر إلى السهل: ومن هناك استطاع أن يرى خطوط الشوارع الجديدة، والخنادق التي سيمر منها القطار، والأقنية والمجاري. فقال: كيف يمكن

حدوث ذلك؟ كيف يمكن لعقبة بيروقراطية عادية أن تقلب رأساً على عقب إرادة عبر عنها الرب؟ كان يأسه كبيراً إلى حد ألقى معه بنفسه من الجبل إلى أسفل ومات. وقد ذهبت روحه مباشرة إلى الجحيم، حيث كشفوا له بأن الزائر الذي رآه في الحلم لم يكن في الحقيقة سوى إبليس نفسه. فصرخ العمدة السابق وهو ضحية الندم لأنه كان على تلك الدرجة من البلاهة: آه منك أيها المخادع المشؤوم، لقد خدعتني بالقول إنك ملاك. فرد عليه إبليس: لا، لا، توقف، أنا لم أقل قط إنني كذلك، وعليك أن تعلم أننا معشر الأبالسة نستطيع اتخاذ الهيئة التي تناسبنا لإغواء البشر الفانين، ولكننا لا نتخذ هيئة قديس ولا ملاك، ناهيك عن هيئة الرب مولانا أو أمه المقدسة؛ ولهذا قلت لك إنني «سيد من أولوت»، وهذا أقرب ما أعرفه إلى الجسد السماوي؛ أما ما تبقى فقد صنعته أنت بطيشك وضلالك، وهو ما ستعاني برشلونة من نتائجه الرهيبة، وستعاني منه أنت إلى أبد الآبدين. ثم انفجر في قهقهات مدوية تبعث على القشعريرة.

وقد تولى مرور السنوات إثبات أنه من بين جميع أبطال هذه الأسطورة، إذا استثنينا الشيطان الذي لا يهتم إلا بما يخصه، كان العمدة وحده هو المصيب. فالمخطط الذي فرضته الوزارة، على ما فيه من نواح صائبة، كان وظيفياً فقط، يعاني من المبالغة في العقلانية: فهو لا يضع في الحسبان ترك مساحات تقام فيها الاحتفالات الجماعية، أو النصب التي ترمز إلى نواحي العظمة التي تحب كل الشعوب أن تنسبها، عن حق أو دون حق، إلى نفسها؛ ولا أماكن للحدائق أو المناطق المشجرة التي تحث روح الرومانسية والإجرام، ولا جادات تزينها التماثيل، ولا جسور، ولا قنوات. فقد كان مجرد تربيعات دون أي تمايز، تبلبل الغرباء والسكان المحليين على السواء، تم تخطيطها بحيث توفر انسيابية حركة المرور، وحسن سير النشاطات العادية المألوفة. ولو أن المخطط نُفذ مثلما تم تصوره في البدء، لأدى في النتيجة على الأقل إلى قيام مدينة مريحة ونظيفة، تروق للنظر؛ ولكن ما تحولت إليه في النهاية أبقاها محرومة من هذه الفضائل. ولم يكن ممكناً كذلك أن يتحقق المخطط بطريقة أخرى: فالبرشلونيون لم يرفضوا المخطط بالطريقة الحاسمة التي تنبأ بها العمدة السابق الملهم، ولكنهم لم يتبنوه كذلك ويعدّوه

مشروعهم؛ فهو لم يمس مخيلتهم ولم يوقظ فيهم أي حس يذكرهم بأسلافهم. فقد بدوا متمنعين عند الشراء، وباردين وشاحبين عند البناء، ومتراخين في شغل تلك المساحات التي تلهفوا إليها وطالبوا بها طوال قرون؛ وراحوا يعمرونها ويسكنونها تدريجياً، يدفعهم الضغط الديمغرافي وليس الزهو والخيال. وحيال عدم المبالاة العامة وتواطؤ من كان بإمكانهم منع حدوث ذلك (أولئك الذين بعثوا الرسائل إلى الوزير من وراء ظهر العمدة السابق المجنون، لكي يحافظوا على وظائفهم المربحة) انتهى الأمر بالمضاربين إلى الاستحواذ على الأراضي، وتعديل المخطط الأصلي، وتحويل ذلك الحي الأنيق والصحي إلى ضاحية صاخبة ونتنة، لا تقل ازدحاماً بالسكان عن برشلونة القديمة، وهي المشكلة التي أراد المشروع تجاوزها تحديداً. ولعدم وجود أيديولوجية (تلك الأيديولوجية التي أوحى بها حب الرب وخدع الشيطان إلى العمدة الرجيم السابق) بقيت برشلونة دون مركز رئيسي (مع إمكانية استثناء شارع باسيّو دي غراثيا البرجوازي والمتكلف، ولكنه ما يزال ينفع مع ذلك حتى يومنا هذا للأغراض التجارية المحضة) حيث يمكن أن تقام الأعياد والاحتفالات، الاجتماعات والتجمعات الشعبية، وحفلات التتويج وعمليات الشنق. وقد جرت عمليات توسع المدينة المتتالية كيفما اتفق، دون أي تنظيم أو رؤية، ولغاية وحيدة هي حشر أولئك الذين لم يعد لهم متسع في القطاعات التي بنيت سابقاً، والحصول على أقصى قدر من الأرباح من العملية. وقضت الأحياء إلى الأبد على التمييز بين الطبقات الاجتماعية وعلى تفرقة الأجيال، وتحول تردي القديم إلى الدليل النوعي الوحيد على التقدم.

– 2 –

كان العم تونيت قد هرم، ولم يعد يرى جيداً، لأنه أصيب بقصور البصر الشيخوخي، ولكنه واصل قيادة عربته كل يوم، أو في معظم الأيام، من سان كليمنت إلى باسورا والعودة من باسورا إلى سان كليمنت. وفي أحد الأيام، بعد أن أكملت الفرس التي يستخدمها ثمانية عشر عاماً، ظهرت ميتة في

الاسطبل؛ لم يسبق لها أن ثنت قوائمها من قبل لتستريح: وقد وُجدت الآن مرفوعة القوائم إلى أعلى، وقائمتاها الأماميتان متيبستان، وكأنها تسير في الفضاء. اشترى العم تونيت فرساً أخرى، بدل أن يتقاعد، مثلما ينبغي له أن يفعل. ولم تكن الفرس الجديدة تعرف الطريق: فالفرس تحتاج، مهما كانت ذكية، إلى عدة سنوات حتى تتعلم طريقاً طويلاً ومعقداً مثل ذلك الطريق. وبسبب سهو الفرس وضعف نظر الحوذي، ضلا الطريق عدة مرات، وكانت واحدة منها جدية: فقد دهمهما الليل في تلك المناسبة، ولم يكن بمقدوره حتى مجرد تكهن المكان الذي صارا فيه. لقد كان يعرف النجوم فيما مضى، أما الآن فإنه صار كمن يسير وسط غمامة تزداد كثافة يوماً بعد يوم. كانت الذئاب تعوي ولم تعد الفرس المذعورة تتقدم إلا بقوة الجلد بالسوط. وأخيراً لمحا ناراً، فاتجها نحوها. كان العم تونيت يأمل بأن يكونوا رعاة، بالرغم من أن المكان القاحل تماماً لم يكن بالمرعى المناسب لأي نوع من الماشية. والواقع أنه كان مخيماً لقطاع الطرق: مخيم كورنيت وعصابته. وكان أولئك اللصوص ممن بقي على قيد الحياة من مقاتلي الحرب الكارليستية الأخيرة؛ فبدلاً من أن يلقوا السلاح، ويستسلموا للمنتصر، ويأملوا في العفو، اختاروا الاعتصام بالغابة. إذ كان كورنيت قد قال لرجاله الذين عرف كيف يكسب ثقتهم، وحتى ولاءهم، على امتداد تلك الحرب الدامية: إذا استسلمنا فسوف يذبحوننا بحد السيف. أنا أقترح عليكم أن نتحول إلى قطاع طرق، لنموت كما يليق بنا، فكل ما سنعيشه إنما نعيشه زيادة عن أجلنا، ويمكننا السماح لأنفسنا بترف المجازفة بحياتنا مقابل قطعة نقدية صغيرة. ولقناعتهم بهذا المنطق، أظهروا شجاعة فريدة. وسخروا من كل الحملات المسلحة التي أُرسلت لملاحقتهم، واكتسبوا شهرة في جميع أرجاء المنطقة: لقد كانوا قطاع طرق رومانسيين. وكان الفلاحون والرعاة يتسامحون معهم. لم يكونوا يحمونهم لأنهم تعبوا من عدة قرون من الاشتباكات المسلحة الدائمة عند أبواب بيوتهم، ولكنهم لا يشون بهم ولا يصطادونهم بالعيارات النارية عندما تتاح لهم الفرصة لعمل ذلك. قطاع الطرق أولئك الذين يفضلون أن يعيشوا حياة قصيرة، وأن يموتوا بكرامة وأسلحتهم في أيديهم، انتهوا إلى بلوغ الشيخوخة في الغابة، وكانت السلطات قد نسيتهم. وعندما انتهى المطاف بالعم تونيت إلى مخيمهم، لم

يجد سوى جماعة من الشيوخ العاجزين الذين يكادون لا يستطيعون رفع بنادقهم القديمة. فقال لهم: كنت أظن أنكم انتهيتم منذ سنوات طويلة، وأنكم صرتم مجرد أسطورة. قدموا له وجبة عشاء وسمحوا له بقضاء الليلة برفقتهم. ولم يقولوا له أي شيء تقريباً: لأنهم غير معتادين على التحدث مع الغرباء، وأما فيما بينهم، فقد سبق أن قالوا كل شيء منذ زمن طويل. كانوا يعرفون العم تونيت بالنظر: فقد رصدوا مرور عربته ذهاباً وإياباً آلاف المرات، ولكنهم لم يهاجموها قط، لأنهم يعرفون أنها تأخذ وتجيء بأشياء ضرورية لا يمكن للقرويين الاستغناء عنها. وفي صباح اليوم التالي أوصلوه إلى الطريق الصحيح وأعطوه قطعة خبز وسجقاً. وكانوا قد أخذوه قبل أن ينصرف، ليرى المقبرة الصغيرة التي ترقد فيها رفات قاطعي الطريق الذين ماتوا بسبب المرض في الجبال: كان عدد الموتى مساوياً تقريباً لعدد الأحياء. وكانت هناك على القبور دوماً أزهار برية وعدد من الصلبان، لأنهم جميعهم كانوا مؤمنين. كل ذلك حدث منذ وقت طويل. أما الآن فقد صارت الفرس تعرف الطريق كلها تقريباً، وصار العم تونيت شبه أعمى.

– ومع ذلك – قال عندما أنهى رواية هذه القصة للمسافر الذي استأجر عربته في باسورا بعد ظهر ذلك اليوم:– ومع ذلك، أقول إن صوتك ليس غريباً عليّ. – ثم أوضح – ليس الصوت في الواقع، وإنما رنة الصوت. – وظل المسافر ملتزماً الصمت. فانفجر العم تونيت أخيراً مقهقهاً:– لقد عرفتك بالطبع! أنت أونوفري بوفيلا. ولا تقل لي إنك لست هو – لم يقل أونوفري نعم أو لا، وعاد العم تونيت يضحك بشهية:– لا يمكن أن تكون غير ذلك. رنة صوتك مألوفة لدي، ولكن هذا الصمت الغاضب لا يدع مجالاً للشك: أنت مثل أبيك المجنون، الذي أعرفه جيداً. عندما سافر إلى كوبا أوصلته أنا في هذه العربة نفسها إلى باسورا. لا أدري كم كان عمره آنذاك، ولكنه لم يكن أكبر سناً بكثير مما أنت عليه الآن، أجل، وكان منذ ذلك الحين يبدي هذا المزاج المتكبر نفسه، وكأننا نحن الآخرين يخرج من أنوفنا حساء عدس، وكأن حساء العدس هذا يخرج من فتحات أنوفنا وهو يفور. وكنت أنا من أوصلته إلى البيت عندما رجع من كوبا. وكان الجميع قد تجمعوا أمام الكنيسة، أشعر وكأنني ما زلت أراه بعينيّ البائستين عديمتي النفع: كان أبوك يجلس في هذا

المكان نفسه، حيث تجلس أنت الآن، ظهره متيبس، ويرتدي بدلة بيضاء من القطن الخام، ويضع قبعة من القش المجدول، من تلك التي يسمونها «بنما» مثلما هو اسم تلك البلاد. ولم ينطق كلمة واحدة طوال الرحلة. كان يتظاهر بأنه ثري، مع أنه لم يكن يملك ريالاً واحداً، ولكن ما الذي يمكنني أن أحدثك عنه الآن؟ هل تعرف ماذا جلب معه بدلاً من المال؟

– جلب قرداً – أجابه أونوفري:

– أجل يا سيدي، جلب معه قرداً مريضاً: أرى أن لك ذاكرة جيدة – قال العم تونيت وهو يسوط الفرس التي توقفت لتأكل حشائش بجانب الطريق، ثم قال لها:– أوهي، **بيرسا**، لا تأكلي الآن، فهذا يؤذيك. وفرقع بالسوط في الهواء، ثم أوضح:– **بيرسا** هو اسمها، وكانت تسمى به عندما اشتريتها. عم كنا نتحدث؟ آه، أجل، عن غرور أبيك: وإذا أردت أن تعرف رأيي، فأقول لك إنه غبي. إيه يا فتى! هل تتجرأ على ضرب عجوز شبه أعمى؟ ما هذا! يبدو واضحاً أنك لا تتورع عن فعل ذلك، حسن، سأزن كلماتي قبل النطق بها، ولكن هذا لن يغير بأي حال طريقتي في التفكير. فأنا أعرف أنكم وجميع أمثالكم، لا تريدون أن يقال لكم ما يزعجكم سماعه، وترغبون في سماع ما يسركم، حتى وإن كنتم تعرفون أن هذا الذي تسمعون ليس هو ما يفكر فيه الناس. ياه، يا لانعدام الذكاء. ولكن لا تظن أنني سأحتج أو حتى سأستغرب: فقد تعلمت منذ سنوات عديدة تقدير الغرور البشري؛ لقد تعاملت مع أناس كثيرين، ثم أتيح لي فيما بعد الوقت للتأمل والتفكير. فكلما أقوم بهذه الرحلة وحيداً، أستغل الوقت في التفكير. وقد صرت أعرف الآن كيف هي الأمور. وأعرف أيضاً أني لن أغيرها، مهما فعلت، كما أنني لا أملك القدرة ولا الوقت لتغيير الأمور؛ ولستُ واثقاً من أنني أرغب في عمل ذلك فعلاً لو أتيح لي الوقت والقدرة. هناك أشخاص عيونهم مملوءة بحساء الثوم؛ يفتحون عيونهم ولا يرون سوى حساء الثوم. أما أنا فلا. كان يمكن لي أن أكون مثلهم، ولكني لست كذلك.

بهذه الطريقة كان الحوذي يهذي، بالهذر غير المترابط الذي يتسم أحياناً، لدى الأشخاص المسنين والبُله، بالحكمة. ولم يكن أونوفري بوفيلا يصغي إليه: فقد استسلم لسماع صوت الحوذي دون أن يعيره انتباهه. كان

يتأمل ذلك الطريق الذي قطعه في الاتجاه المعاكس قبل ثمانية أعوام. فقد انطلق من هناك في صباح يوم ربيعي، مع بزوغ أول أشعة الشمس. وكان قد أخبر أبويه في اليوم السابق بمشروعه للذهاب إلى باسورا؛ وأنه يفكر بمقابلة السادة بالدريش وفيلاغران وتابيرا هناك، وقال لهما إن هؤلاء السادة سيوفرون له عملاً بكل تأكيد في إحدى شركاتهم؛ وبهذه الطريقة سيساهم في تسديد الديون التي استلفها الأمريكي. حاول هذا الأخير إبداء عدم موافقته: فهو المسؤول عن الوضع الحرج الذي يجدون أنفسهم فيه، ولن يرضى بأن يضحي ابنه... فأسكته أونوفري. كان الأمريكي قد فقد كل سلطته، فلزم الصمت. وقال أونوفري لأمه إنه سيبقى في باسورا طوال الوقت الضروري لجمع المال الذي يحتاجونه. وأضاف قائلاً لها: ستكون بضعة شهور، أو سنة على أبعد تقدير. ووعدها: سأكتب إليك فور وصولي. وسأطلعكم عن طريق العم تونيت على كل ما يحدث. والحقيقة هي أنه كان قد صمم مسبقاً على الذهاب إلى برشلونة وعدم الرجوع إلى القرية أبداً. وكان يفكر حينذاك بأنه لن يرى أبويه بعد ذلك اليوم، ولن يطأ ثانية البيت الذي ولد وعاش فيه حتى ذلك اليوم. وعند صعوده إلى العربة ناوله أبوه الحزمة التي تضم ملابسه الشخصية؛ فوضعها بعناية في عمق العربة. وكانت أمه قد ربطت اللفاع حول عنقه. ولأن أحداً لم يكن يقول شيئاً، فقد صعد العم تونيت إلى مقعده وقال: إذا كنتَ جاهزاً فسننطلق. فأجابه هو موافقاً بإيماءة من رأسه، كي لا يخرج منه صوت غريب ويلاحظ الآخرون تأثره. فرقع العم تونيت بالسوط وانطلقت الفرس في السير وحوافرها تغوص في وحل ذوبان الجليد. وقال العم تونيت: ستكون الرحلة سيئة. وكان الأمريكي قد لوح بقبعته «البنما»، وقالت أمه شيئاً لم يستطع سماعه. ثم أخذ ينظر إلى الطريق ولم ير ابتعاد أبويه. اجتازت العربة طريق النهر، وطريق المغارة المسحورة، ودرب الذهاب لصيد العصافير، ودرب الذهاب إلى صيد السمك، وهو ليس الدرب نفسه الذي يؤدي إلى النهر؛ ودرب الذهاب لجمع الفطر في فصل الخريف؛ ولم يكن قد فكر مطلقاً من قبل بأن هناك كل هذه الدروب. وعندما اختفى الوادي تحت الضباب الصباحي، كان ما يزال يرى برج الكنيسة. ثم مرّا بعد ذلك بقطيعين من الغنم. فقال لهما الرعاة

وداعاً برفع عصيّهم وضحكوا. كانوا يلفون اللفاع حتى ذقونهم، ويرتدون سترات من الفرو، ويعتمرون القلنسوات. هؤلاء الرعاة كانوا يعرفونه منذ يوم ولادته. وقد فكر: لن ألتقي بعد الآن أحداً يعرفني مثل هؤلاء. وفي بقية الطريق كانا يشاهدان مزارع مهجورة. وكانت الأبواب والنوافذ قد تخلعت بفعل البرد والأمطار؛ ومن خلالها كان يُرى جوف تلك البيوت الخالية من الأثاث، والممتلئة بأوراق الأشجار اليابسة. وكانت العصافير تخرج طائرة من بعضها: إنها بيوت من ذهبوا إلى باسورا للبحث عن عمل في المصانع؛ وقد تركوا النار تنطفئ في مواقدهم، كما كان يقال آنذاك. لقد انقضت الآن ثمان سنوات، أنجز أونوفري بوفيلا خلالها أشياء كثيرة، وتعرف على أناس كثيرين، معظمهم غريبو الأطوار، وجميعهم تقريباً أشرار؛ وقد قام بتصفية بعضهم دون أن يعرف السبب جيداً؛ وعقد مع آخرين تحالفات مستقرة إلى هذا الحد أو ذاك. كانت الأشجار، ولون السماء من خلال الأغصان المتشابكة، وهمس الريح في الغابة، ورائحة الريف، تبدو له الآن أشياء مألوفة. فيخيل إليه أنه لم يغادر ذلك الوادي قط، وأن كل ما عدا ذلك ليس سوى أشياء رآها في أحلامه. وحتى ابنة دون هومبرت فيغا إي موريرا التي يشعر نحوها بحب عنيف، بدت له الآن كشيء عابر، وميض برق في مخيلته. وكان عليه أن يبذل جهداً ليتذكر ملامحها مثلما هي عليه، وليس كشيء مشوش. فقد كانت تلك الملامح تختلط في ذاكرته أحياناً بملامح أخرى: بملامح عاثرة الحظ ديلفينا التي ما تزال في السجن بعد كل هذا الزمن الطويل. أو ملامح طفلة أقام معها اتصالاً عابراً ومبتذلاً قبل أسبوع؛ لم يتبادل معها أكثر من أربع جمل، فقد كانت تعمل في فرقة مسرح للدمى شهد عرضها بمصادفة محضة؛ وقد استلطفها لأنها، دون أن تكون قبيحة، كان لها وجه كلب. وقد كانت صغيرة السن إلى حد أنه اضطر إلى التفاوض مسبقاً مع أبويها، وأن يدفع لهما مقدماً: فحال ذلك دون حدوث حوار بينهما بعد أن أُنجزت الصفقة. وكان الشيء الوحيد الذي قاله لها هو جملة لطيفة عندما ودعها في الصباح؛ وقدم لها إكرامية كبيرة. إذ كان قد تعوّد على تقديم إكراميات مبالغ فيها عندما يلاحظ حسن نية من جانب من يقدمون له أي خدمة؛ وقد أحس بالرضى في تلك الحالة، وبرهن على ذلك بسخاء. تناولت الفتاة النقود

بملامح ساهية، وكانت أصغر من أن تعي ضخامة المبلغ، كما لو أن تلك المكافأة والطريقة التي استحقتها بها لم تحدثا معها. فقد نظرت إليه فقط بطريقة غريبة يتذكرها الآن بانزعاج.

– مم تراني أشكو؟ – كان العم تونيت يقول في تلك اللحظة – هل أشكو من الضباب الذي يحيط بنا؟ لا، يا سيدي. هل أشكو إذن من الجو؟ لا يا سيدي. هل أشكو من حال الطريق السيئة؟ لا يا سيدي، فأنا لا أشكو كذلك من حال الطريق السيئة. مم أشكو إذن؟ إني أشكو من البلاهة البشرية التي يشكل أبوك، كما قلنا، مثالاً بارزاً عليها. ولماذا أتهجم عليه بكل هذا الغيظ؟ ربما أهاجمه بغيظ بسبب الحسد؟ أجل يا سيدي، إني أتهجم عليه بكل هذا الغيظ بدافع الحسد.

كان الوقت ليلاً عندما توقفا أمام باب الكنيسة. سأله الحوذي إذا ما كان أبواه يعلمان بأمر زيارته. فقال أونوفري: لا. وقال العم تونيت: آه، تريد أن تفاجئهما. فردّ أونوفري: لا، فأنا بكل بساطة، لم أخبرهما. عندئذ قال العم تونيت: بلغهما تحياتي الحارة، فمنذ سنوات لم أعرف شيئاً عنهما، مع أني كنتُ أنا وأبوك صديقين حميمين في وقت ما؛ فأنا من أخذته إلى كوبا عندما داهمته حرقة الهجرة. هل أخبرتك بذلك؟ ترك الحوذي في الساحة، ومضى متلمساً الطريق إلى الحانة، ومن هناك عرف الطريق إلى البيت.

كانت أمه عند الباب: فكانت هي أول من رأى وصوله. لقد خرجت مصادفة لتنظر إلى الليل، وهو أمر لم تعد تقوم به في السنوات الأخيرة. فقد اكتسبت بعد اختفاء أونوفري، دون قصد منها، عادة الجلوس كل يوم عند باب البيت في موعد الغروب، لأن هذا الوقت هو موعد وصول العربة، إذا كان لها أن تصل. ثم توقفت بعد ذلك عن الجلوس عند الباب، دون أن تتحدث إلى زوجها عن ذلك، لأنها أدركت أن أونوفري لن يعود، ولم تشأ التدخل في حياة ابنها بعادة الانتظار السخيفة تلك. وقد قالت عندما رأته يصل: سأذهب لأسخّن العشاء. فسألها: وأين هو أبي؟ فأومأت له بأن أباه في الداخل. ولاحظ من النظرة الأولى أنه قد شاخ كثيراً. وكانت السنوات قد مرت على أمه أيضاً، ولكنه كان ما يزال أصغر من أن يفهم أنه يمكن لأمه كذلك أن تتغير.

كان ما يزال يرتدي بدلة القماش القطني الخام التي بليت، وتسلت خيوطها، ومال لونها إلى الصفرة لكثرة ما غُسلت، وتشوهت بالرفو والرقع العديدة. حين رفع عينيه عن المنضدة التي كان يوجه نظره إليها، فاضت عيناه بالدموع. لم تتبدل ملامح وجهه، كما لو أنه ليس هناك شيء غريب قد دخل من الباب. انتظر أن يقطع ابنه الصمت، لأن هناك سبباً قاهراً دفعه للمجيء دون شك، ولكن بما أن الابن لم يقل شيئاً، فقد وجه هو عبارة عامة: كيف كانت الرحلة؟

فأجاب أونوفري: جيدة. وعاد الصمت يخيم تحت نظرة الأم المترقبة.

– إنك ترتدي ملابس أنيقة – قال ذلك الأمريكي.

– لا أفكر في إعطائك نقوداً. – أوقفه أونوفري. فشحب وجه الأمريكي، وقال من بين أسنانه: لم تكن لدي أدنى نية في طلب ذلك منك يا فتى. فقد تكلمت لمجرد الكلام. فقال أونوفري بجفاء: اصمت إذن. فأدرك الأمريكي أنه قد أصبح شيئاً مضحكاً في نظر ابنه. فنهض بخفة وقال: سأذهب إلى قن الدجاج للبحث عن بيض. وخرج من البيت حاملاً كرسياً صغيراً دون مسند. ولم يقل ما هي حاجته إلى ذلك الكرسي في قن الدجاج. وعندما انفرد أونوفري بأمه، جاب البيت بنظره: كان يعرف أنه سيبدو له أضيق مما هو عليه في ذاكرته، ولكنه فوجئ ودهش لرؤيته في ذلك البؤس والتداعي الظاهر. رأى سريره القديم، إلى جانب سرير والديه، وكان ما يزال مرتباً كما لو أنه قد استُخدم في الليلة السابقة. فاستبقت أمه سؤاله، وقالت بنبرة تنم عن الاعتذار: بعد رحيلك، شعرنا، أنا وأبوك بالوحدة. تهالك أنونوفري على كرسي، فقد كان متعباً من ارتجاج العربة؛ وعندما جلس، آلم نفسه بخشب الكرسي القاسي. وقال: لقد صار لي أخ إذن. فخفضت الأم عينيها، ثم قالت أخيراً، بلهجة متهربة: لو كنا نعرف إلى أين يمكننا أن نكتب لك... فسألها أونوفري: وأين هو الآن؟ وبدا كما لو أنه يقول: فلننته دفعة واحدة من هذه المهزلة. فقالت الأم إنه لن يتأخر بالحضور. ثم أضافت بعد قليل:

– إنه عون كبير لنا؛ فأنت تعرف كيف هو العمل في الحقول. وأبوك لا فائدة منه في هذا المجال: فهو لم ينفع يوماً للعمل في الحقول، حتى في

شبابه. وأظن أنه ذهب إلى كويا لهذا السبب. – وواصلت الكلام دون توقف، كأنها تتحدث إلى نفسها:– لقد عانى كثيراً، فهو يعتقد أنه يتحمل وحده مسؤولية مغادرتك البيت. عندما رأى أن الشهور تمر وأنت لم ترجع إلى البيت، أخذ يتقصى عنك: فقيل له إنك لست في باسورا، ويمكن أن تكون في برشلونة. عندئذ استدان نقوداً من جديد وذهب إلى هناك بحثاً عنك. ولم يكن قد عاد لاستدانة النقود حتى تلك اللحظة. بقي في برشلونة قرابة الشهر، يبحث عنك في كل مكان، ويسأل الجميع عنك. واضطر في النهاية إلى العودة. لقد أحزنني كثيراً. ورأيت للمرة الأولى، ما الذي كان يعنيه الإخفاق بالنسبة له. وعندئذ أنجبنا الابن: ستراه الآن. إنه لا يشبهك: إنه صموت جداً أيضاً، ولكن ليس له طباعك. فهو في هذا أشبه بأبيه.

فسألها أونوفري:

– ماذا يعمل الآن؟

– كان يمكن أن تكون الأمور أسوأ مما هي عليه – قالت، وكانت تعلم أنه يشير بسؤاله إلى أبيه، وأنه فقد منذ بعض الوقت اهتمامه بالقصة الأخرى وحديثها عن أخيه، ثم تابعت قائلة:– أولئك السادة من باسورا، الذين كانوا على وشك إدخاله السجن، ألا تتذكر؟ وفروا له عملاً ليكسب معيشته، وأرى أنهم قد أحسنوا التصرف بعملهم هذا، على الرغم من كل شيء. لقد أعطوه حقيبة وأرسلوه إلى القرى والدساكر ليبيع بوليصات تأمين: وهذا نوع جديد من العمل. وبما أن قصته على كل لسان في المنطقة، فقد كانوا يعرفونه في كل مكان. والناس يهرعون عندما يرونه يصل ببدلته البيضاء. فيسخر منه بعضهم، ولكنه يبيع من وقت لآخر إحدى بوليصات التأمين. ومن هذا، ومما نحصل عليه من الأرض ومن الدواجن نتدبر أمورنا إلى حد ما. – اقتربت من الباب وأمعنت النظر في الظلام، ثم قالت دون أن توضح عمن تتكلم: إنني أستغرب عدم عودته حتى الآن. – كان الضباب قد انقشع، وكان يظهر على ضوء القمر طيران الخفافيش المتقلب. وتابعت القول: ما يقلقني الآن هو صحته، لقد تقدمت به السن، وهذه الحياة لا تناسبه. لأن عليه أن يمشي كيلومترات كثيرة، في البرد والحر، وهو يتعب، ويكثر من الشراب، ويأكل قليلاً وبصورة سيئة. والأدهى من ذلك أنه أضاع قبعته في أحد الأيام، منذ

أربع أو خمس سنوات. طوحت بها هبة ريح عن رأسه وحملتها إلى حقل قمح؛ فظل يبحث عنها إلى أن خيم الليل. حاولتُ إقناعه بأن يشتري قبعة أخرى، ولكن لم تكن هناك وسيلة... آه، ها هو قد عاد.

- ذهبت بحثاً عمن يعطيني بضع بصلات وشيئاً من النعناع. - قال الأمريكي ذلك وهو يدخل. ولم يحضر معه المقعد.

- كنتُ أخبر أونوفري قصة القبعة. - قالت هي. ووضع هو ما كان يحمله على المائدة. وجلس، سعيداً لأنه وجد موضوعاً للحديث، وقال:- إنها خسارة لا تعوض. فهنا لا وجود لمثلها: لا في باسورا ولا في برشلونة. إنها قبعة بنما حقيقية.

- وحدثته كذلك عن جوان. - قالت الأم. فاصطبغ الأمريكي بالحمرة حتى جذور شعره. ثم قال:

- هل تذكر يوم ذهبنا أنا وأنت إلى باسورا لتحنيط القرد؟ لم تكن أنت قد ذهبتَ إلى أية مدينة، وكان كل شيء يبدو لك ...

ظل أونوفري ينظر إلى الطفل الذي توقف عند الباب. لم يجرؤ على الدخول. فقال له: أدخل، واقترب من الضوء، لكي أراك. ما اسمك؟

قال الطفل:

- جوان بوفيلا أي مونت، في خدمة الله وحضرتك.

- لا تخاطبني بـ «حضرتك» فأنا أخوك أونوفري. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ - فهز الطفل رأسه بالإيجاب، وقال له أونوفري: أنت لن تكذب علي أبداً.

- هيا اجلسوا إلى المائدة - قالت الأم - فلنتناول العشاء. ولتبارك أنت يا أونوفري المائدة.

وتناول الأربعة عشاءهم صامتين. وعندما انتهوا من العشاء، قال أونوفري: لا أظنكم تفكرون بأني أتيت لكي أبقى هنا. فلم يجبه أحد: والحقيقة أن أحداً منهم لم يكن قد فكر في ذلك. كان يكفي أن يروه ليعرفوا أن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك.

- لقد جئت لكي توقع لي بعض الأوراق. - قال موجهاً كلامه إلى أبيه. وأخرج من جيب سترته وثيقة، أبقاها مطوية ووضعها على المائدة. مد

الأمريكي يده، ولكنه لم يتناول الوثيقة. بل توقف وأطرق في الأرض. فقال أونوفري:- إنها وثيقة لرهن هذا البيت والأراضي. فأنا بحاجة لأموال كي أستثمرها، ولا أستطيع الحصول عليها إلا من هنا. لا تخافوا، يمكنكم مواصلة العيش في البيت، والعمل في الأراضي. لن يطردوكم منها إلا إذا ساءت الأحوال معي، ولكن أموري لن تسوء.

فقالت الأم:

- لا تقلق، أبوك سيوقع الأوراق، أليس كذلك يا جوان؟

ووقع الأب العقد الذي قدمه له ابنه دون أن يقرأ ما فيه. وبعد ذلك نهض عن كرسيه وخرج من الغرفة. فتبعه أونوفري بنظراته؛ ثم نظر إلى أمه. فأومأت له مؤكدة برأسها. فخرج أونوفري إلى الحقل وراح يبحث عن الأمريكي. وجده أخيراً تحت شجرة تين، جالساً على كرسي دون مسند وبثلاث قوائم، من تلك التي تستخدم عند حلب الماشية. وكان هو الكرسي نفسه الذي أخذه معه من قبل. ودون أن يقول له شيئاً، استند إلى جذع شجرة التين: ومن هناك كان يرى ظهر الأمريكي وقذاله، وكتفي أبيه المتهدلين. وبدأ هذا الأخير الكلام دون أن يطلب منه:

- كنت أظن على الدوام - قال وهو يشير إلى نقطة غير محددة في البعيد؛ وكان يريد في الواقع أن يحيط بإيماءته كل المنطقة التي ينيرها القمر، حتى الأفق - إن هذا الذي نراه كان دائماً هكذا، مثلما نراه الآن، وإنه كان نتيجة دورات طبيعية ثابتة وتبدلات الفصول التي تتكرر باستمرار سنة بعد أخرى. وقد احتجت لسنوات طويلة كي أدرك كم كنت مخطئاً: أما الآن فصرت أعرف أن هذه الحقول وهذه الغابات، حتى آخر شبر منها، قد عولجت بالعمل بالمعول والرفش، ساعة فساعة وشهراً بعد شهر؛ وأن آبائي، وقبلهم أجدادي وأجداد أجدادي الذين لم تتح لي معرفتهم، وآخرين قبل أن يولد أولئك، قد كافحوا ضد الطبيعة لكي نتمكن نحن اليوم، وهم قبلنا، من العيش هنا. الطبيعة ليست حكيمة مثلما يقال، بل غبية وبليدة، وهي فوق ذلك قاسية. ولكن الأجيال المتعاقبة راحت تغير هذه الأشياء في الطبيعة: مجاري الأنهار، نُظم المياه، نظام الأمطار، حال الجبال، وروضت الحيوانات وغيرت نظام الأشجار والحبوب والنباتات عموماً: وكل ما كان مدَمّراً من قبل

حوّلته وجعلته منتجاً. وكانت حصيلة ذلك المجهود الكبير الذي بذلته أجيال كثيرة هو هذا الذي نراه أمامنا. ولم أكن قادراً في السابق على رؤية شيء من ذلك: كنت أعتقد أن المدن هي الأهم، وأن الريف بالمقابل، ليس شيئاً يستحق الذكر، ولكنني أفكر اليوم بأن العكس هو الصحيح. ولكن ما يحدث هو أن العمل في الريف يستغرق وقتاً طويلاً جداً، يجب أن يتم قليلاً قليلاً، بخطوات محسوبة، وعندما يحين وقته بالضبط، لا قبل ذلك ولا بعده، ولهذا يبدو كما لو أنه لم يكن هناك في الحقيقة أي تغيير، وهو ما يحدث في أي مدينة في العالم، فالأمر الطبيعي هناك هو العكس تماماً: ونحن لا نكاد نرى المدينة حتى نلاحظ الاتساع والارتفاع والعدد غير المحدود من الآجر الذي تطلبه الارتفاع بها عن الأرض، ولكن نخطئ في هذا الأمر أيضاً: إذ يمكن لأي مدينة أن تبنى بكاملها خلال بضع سنوات. ولذلك، فإن أهالي الريف مختلفون جداً: فهم أكثر صمتاً وأكثر قناعة. ولو أنني أدركت هذه الأمور من قبل، لكانت حياتي قد اتخذت على ما أظن مساراً آخر، ولكن كان مقدراً ألا يكون الأمر كذلك، فهذه الأمور يحملها الإنسان في دمه منذ ولادته، أو أنه ينبغي تعلمها مع مرور سنين طويلة وارتكاب أخطاء كثيرة.

– لا تقلق يا أبي – قال أونوفري – فكل شيء سيسير كما قلت لك، وسأرّد إليك النقود خلال وقت قصير.

– لا تظنني قلقاً بسبب مسألة الرهن يا بني. – قال الأمريكي – فأنا لم أكن أعلم في الحقيقة، حتى اليوم، بأنه يمكن رهن هذه الأراضي. ولو أنني عرفت ذلك، فلربما كنت رهنتها أنا نفسي منذ سنوات، لأقوم ببعض الصفقات. ولو أن ذلك حدث لما كنا نملكها اليوم؛ أما معك أنت، فسيكون كل شيء مختلفاً، إنني واثق من ذلك.

فقال أونوفري:

– لا مجال للإخفاق.

– دعك من التفكير في الأمر الآن واذهب لتنام – قال له الأمريكي – لديك رحلة طويلة تنتظرك غداً. أليس من الأفضل أن تبقى هنا يوماً أو يومين؟

– الأمر محسوم – قال أونوفري. وفي اليوم التالي سافر إلى برشلونة.

ولدى مروره في باسورا سجل العقد عند الكاتب بالعدل. كان قد أمضى ليلته في سريره القديم؛ بينما نام خوان الصغير مع والديه. وفي أثناء السفر، وهو أكثر اطمئناناً، راح يتأمل المشهد. وكان يقول لنفسه: في المرة السابقة، ظننت أني أرى هذه الحقول للمرة الأخيرة؛ أما الآن، فأنا أعرف بالمقابل أني لن أستطيع التخلص من مواصلة رؤيتها. لا فرق على أي حال. ولكن إذا كان علي أن أراها كثيراً، فليكن من أجل جني أرباح منها. وقد كانت هذه هي كل فلسفته في تلك اللحظة: كيف يشتري ويبيع، يشتري ويبيع.

– 3 –

نمو الإنسانشي (منطقة التوسع) في برشلونة، الذي أثار الجدل، وبدا أن وزير الداخلية قد أخرجه من كمه في أحد الأيام، اتخذ في أول الأمر مسارات منطقية إلى هذا الحد أو ذاك: ففي البداية جرى إعمار تلك المناطق من الوادي، التي كان قد جرى فرزها مسبقاً، وهي بحكم موقعها تتمتع طبيعياً بأفضل تموين بالمياه، كتلك التي تقع، على سبيل المثال، إلى جوار سرير جدول أو قناة أو نهر (كما هو شارع بروك الحالي، الذي كان إلى زمن غير بعيد صالحاً للملاحة حتى التقائه بشارع آراغون)، أو إلى جوار آبار أو خزانات مياه جوفية صالحة للشرب؛ أو القريبة من المحاجر، مما يقلل تكاليف البناء بصورة معتبرة؛ وكانت المنطقة تُعدّ جيدة كذلك إذا كان يصل إليها خط ترام أو يمر منها قطار، وما شابهها. وفي هذه الأماكن التي بدأت تنتصب فيها البنايات لهذه الأسباب، أخذت أسعار الأراضي ترتفع كثيراً على الفور، لأنه لا وجود في الغرب لشعب محب للعيش في جماعة أكثر من الشعب الكتلاني عندما يتوجب عليه اختيار مسكنه: فحيث يذهب أحدهم ليعيش، يرغب الآخرون في الذهاب. وكان شعارهم: «حيثما كان، ولكن معاً». وهكذا كانت المضاربة تتخذ النمط نفسه دوماً: يشتري أحدهم أكبر عدد ممكن من قطع الأرض في منطقة يعتبرها مناسبة، ويبني على إحداها بناية سكنية، أو اثنتين على الأكثر؛ ثم ينتظر إلى أن تباع تلك البيوت ويسكنها مالكوها الجدد؛ وعندئذ يعرض بقية القطع للبيع بسعر أعلى بكثير من

السعر الذي اشتراها به. وبما أن مالكي تلك الأراضي الجدد قد دفعوا مقابلها ثمناً أكبر بكثير من سعرها الأصلي، فإنهم يعوضون خسارتهم على النحو الآتي: يقسمون كل قطعة أرض إلى نصفين، فيعمرون في أحد النصفين ويبيعون النصف الآخر بالسعر الذي كانوا قد دفعوه مقابل النصفين. وكما هو طبيعي، فإن من اشترى هذا النصف الثاني يعمد إلى الأسلوب نفسه، أي أنه يقسمه إلى نصفين؛ وهكذا على التوالي. ولهذا السبب، تحتل البنايات التي أقيمت في المنطقة أولاً، مساحات معتبرة؛ وتكون مساحات التالية أقل اتساعاً، وهكذا حتى الوصول إلى أبنية ضيقة لا تتسع إلا لبيت واحد في كل طابق، ويكون فوق ذلك ضيقاً ومظلماً، مشيداً من مواد سيئة النوعية، يفتقر إلى التهوية، ووسائل الراحة، والخدمات. وكانت تلك الجحور (التي ما زال بالإمكان رؤيتها حتى الآن) تساوي بالطبع خمسة وعشرين، أو ثلاثين ضعف ما كلفته البيوت الفسيحة والمشمسة والصحية التي شيدت في بداية العملية. ويمكننا القول، مثلما قال أحدهم: **كلما كان البيت صغيراً وسيئاً، يكون أغلى ثمناً**. ومثل هذا التأكيد كان زائفاً بالطبع. فما كان يحدث في الواقع هو الآتي: كان مالكو تلك البيوت المتميزة، بيوت «الدرجة الأولى»، كما كانوا يسمونها أحياناً، يسارعون إلى بيعها فور اكتمال الدائرة، حيث يكون قد استقر السعر الأدنى للبيت انطلاقاً من السعر الأعلى، هذا يعني سعر أصغر البيوت وأسوأها، فيصبح سعر البيوت الكبيرة والجيدة أعلى بأربعين، أو خمسة وأربعين، وحتى خمسين ضعفاً من تلك. وبعد بيع كل بيوت الدرجة الأولى تعرض للبيع بيوت الدرجة الثانية، المشيدة على نصف قطع أرض أصلية؛ ثم التالية، حتى الانتهاء منها جميعاً. وفي بعض الأحيان لا تتوقف هذه العملية مع بيع جميع مساكن المنطقة، وإنما تبدأ عندئذ جولة ثانية من إعادة البيع، بل وثالثة ورابعة. فطالما هناك من هو مستعد للشراء يكون هناك من هو مستعد للبيع. والعكس بالعكس. ومن أجل فهم هذه الظاهرة، هذه الحمى، يجب أن نتذكر أن البرشلونيين كانوا سلالة تجارية بامتياز وكانوا معتادين منذ قرون على العيش مكدسين كالقمل: فالمسكن بحد ذاته لا يعني لهم شيئاً، وهم غير مستعدين لأن يخطوا خطوة واحدة من أجل الحصول على قصر الحريم السلطاني؛ ولكن الأمل بكسب

المال خلال وقت قصير كان يستثير شهيتهم ويجتذبهم، كما لو أنه غناء حوريات بحر. ولم يكن الانغماس في تلك المضاربات التي لا كابح لها يقتصر على من لديهم معيشة مضمونة وفائض من المال «يشغلونه» مثلما كان يقال آنذاك، بل يشمل كذلك أشخاصاً كثيرين أقل ثراء؛ وكان هؤلاء يجازفون بما هو أساسي وضروري في محاولة للثراء. كان الأولون يشترون ويبيعون عقارات وبنايات ومساكن (كما كانوا يشترون ويبيعون حق خيارات البيع، والتخمين، وحق العدول والتراجع، ويقرون قواعد الحصر والاحتكار، وتحويل الملكية، والمبادلة، والرهن، والإتاوة والتحكيم)، ولكنهم يسكنون دوماً في بيوت أو شقق مستأجرة، لأنهم يعدّون من يعيش «متربعاً على رأسماله الخاص»، شخصاً شديد الغباء. وكان أحدهم يقول: فليجمد غيري أمواله، أما أنا فأدفع الأجر شهراً بعد شهر «وأشغل» أموالي. أما الفئة الثانية بالمقابل، أنصاف المضاربين، فكانوا يجدون أنفسهم في مآزق رهيبة: فيضطرون إلى بيع بيوتهم عندما تسوء أمورهم، أو يُطردون إلى الشارع مع أسرهم وخادماتهم وأمتعتهم، ويبدؤون البحث، متنقلين من باب إلى باب، عن مكان يبيتون فيه ليلتهم، أو مكان يتركون فيه قريبهم المريض، أو الطفل الرضيع ومرضعته. وكانت رؤيتهم يجوبون شوارع برشلونة في ليالي الشتاء أو تحت المطر، تدفع إلى البكاء، وهم يكومون أثاثهم في عربة يدوية، ويحملون أطفالهم المرتعدين برداً على كواهلهم، ويواصلون مع ذلك حساباتهم بصوت خافت: لقد وظفت المبلغ كذا، وسأربح كذا، وسأعيد توظيف كذا، الخ... أكثرهم تعقلاً لا يبيعون إذا كانت الفرصة غير مناسبة لأسباب شخصية؛ ويفضلون إضاعة الفرصة من أجل الحفاظ على الصحة أو الوقار العائلي، ولكن لم يكن يُسمح لهم بالتصرف على هذا النحو، لأنهم يوقفون بذلك عجلة المضاربة التي ارتبطت بها المدينة بأسرها. وهكذا كانت هناك أسر تبدل بيتها سبع أو ثماني مرات في السنة.

يجب ألا يستخلص مما قيل أن كل من كان يوظف أموالاً في هذه اللعبة كان يصيب ثراء مؤكداً. فهذه الطريقة، مثل أي استثمار مربح آخر، كانت تنطوي على المجازفة. فلكي تسير الأمور مثلما هو مأمول، لا بد من بيع البناية الأولى التي تشيد في المنطقة بأسعار جيدة، ولا بد قبل ذلك للمالكين

الجدد أو المستأجرين من أن يضفوا على المنطقة لمسة متميزة تجعلها جذابة بحضورهم. فقد كانت هناك عائلات مشهورة، يكفي مجرد حضورها لرفع قيمة الحي بكامله أو تقويضها، مثلما هي تلك الأسرة المسماة أو الملقبة غاتونيث، وهي في الأصل من منطقة المانتشا كما يبدو. ولم يتضح قط ما الذي كانت تفعله أو تمتنع عن فعله تلك الأسرة كبيرة العدد، ولكن بعد قليل من انتقالها إلى أحد البيوت، يبدأ الطلب على البيوت المجاورة بالتراجع والتوقف. وبما أن مالكي هذه البيوت، الراغبين في بيعها، لا يستطيعون أن يمنعوا من باع لآل غاتونيث أن يفعل ذلك، ولا يمكنهم بعد ذلك إلغاء الصفقة، فإنهم يضطرون إلى اللجوء إلى تقديم تعويضات باهظة لآل غاتونيث لكي يغادروا، أو أنهم يشترون منهم البيت الذي كان هؤلاء قد اشتروه للتو، بالمبلغ الذي يحدده آل غاتونيث على هواهم. ولكن نقيض ذلك كان يحدث مع بعض الأزواج المسنين ذوي الأسماء الأجنبية، ولا سيما القناصل السابقون لبعض الدول الكبرى في برشلونة. ويمكن أن يحدث كذلك أن يختفي فجأة أحد الأسباب التي أدت إلى تشجيع نمو إحدى المناطق دون سواها: كأن ينضب مكمن مائي، أو أن تعلن شركة الخطوط الحديدية عن قرب مدّ خط فرعي إلى هذه النقطة أو تلك، ثم تغير رأيها بعد ذلك وتترك هذه النقطة، التي صارت مأهولة، في عزلة محزنة. وهكذا كانت تضيع ثروات طائلة. ولأن بعض هذه العوامل كانت طارئة وفجائية وغيرها ليست كذلك، فقد كان للحصول على معلومات سريعة وموثوقة حول تلك العوامل أهمية هائلة. لم يكن ممكناً عمل أي شيء فيما يتعلق بالعوامل المفاجئة بالطبع، وإن كان هناك من أعماهم الطمع، وراحوا يتغلغلون في أسرار الطبيعة؛ وكان هؤلاء الأشخاص ينتهون عادة إلى الوقوع في براثن متنبئين مزيفين يدعون رؤية ما في باطن الأرض فيخدعونهم ويقودونهم إلى كارثة مالية. ولم يكن الأمر يخلو كذلك من محتالين يدّعون أن لهم صديقاً أو قريباً في هذه المؤسسة أو تلك من مؤسسات الخدمات العامة، أو البلدية أو المجلس النيابي المحلي، وكانت تُدفع لهؤلاء النصابين مبالغ كبيرة من المال مقابل أكاذيبهم ووعودهم الزائفة. وإلى هذه السوق المضطربة والمزروعة بالمكايد، دخل أونوفري بوفيلا بكل حذر في شهر أيلول (سبتمبر) من عام 1897.

لم يستطع، بالنقود التي حصل عليها من رهن الأراضي، أن يشتري سوى قطعة أرض واحدة ذات أبعاد نظامية، وفي موقع ليس فيه ظاهرياً أي حافز أو تطور مستقبلي. وما أن صارت ملكه حتى طرحها للبيع.

– لست أدري من سيشتري منك مثل ذلك الموقع الكريه –قال له ذلك دون هومبرت فيغا إي موريرا، عندما طلب منه أونوفري النصيحة. وكان قد قدم له من قبل عدداً من النصائح ولكن أونوفري لم يعمل بأي واحدة منها. وقد ردّ عليه يومذاك: سنرى. ثم مرت ستة أسابيع، ولم يأته سوى مشترٍ محتمل واحد؛ وعرض عليه مقابل الأرض الثمن نفسه الذي كان قد دفعه لامتلاكها. فصعر أونوفري وجهه، وقال للشاري المحتمل:

– لابد أنك تريد السخرية مني أيها السيد. هذه الأرض تساوي الآن أربعة أضعاف ثمنها الأولي، وسعرها يرتفع بين يوم وآخر. فإذا لم يكن لديك عرض آخر أكثر أهمية فأرجوك ألا تضيع وقتي.

ارتبك الشاري المحتمل حيال تلك الرصانة ورباطة الجأش، وزاد على عرضه الأول قليلاً. فاستشاط أونوفري غضباً، وأمر إفرين كاستيلس أن يلقي إلى الشارع بهذا الشاري المحتمل غير المهذب. فخرج هذا وهو يفكر بأنه ربما كان ما قاله أونوفري بوفيلا صحيحاً. من المحتمل أن تلك الأرض التعسة تساوي ذلك المبلغ لسبب لا أعرفه. ولكي يخرج من شكوكه، قام بتحريات متكتمة؛ وسرعان ما سمع شائعة أرقت نومه. فشركة ورثة رامون مورفيم المحدودة، اشترت الأرض المجاورة لتلك التي يعرضها أونوفري بوفيلا للبيع؛ بل أكثر من ذلك: فشركة ورثة رامون مورفيم المحدودة تفكر في نقل مقرها إلى هناك خلال فترة لا تزيد على السنة. يا للعنة، هذا الوغد يعرف الأمر، ولهذا لا يريد البيع بالسعر الذي عرضته عليه، ولكن إذا كان الخبر صحيحاً، فإن ثمن الأرض سيصبح عما قريب، ليس أربعة أضعاف، وإنما عشرين ضعف ثمنها الآن. لماذا لا أقدم له عرضاً آخر؟ ولكن إذا لم تتأكد هذه الشائعة، ولم تنتقل شركة رامون مورفيم، فماذا ستساوي تلك الأرض؟ لاشيء، آي، يا للعبة الحظ الرهيبة في المضاربة العقارية. هكذا كان الشاري المسكين يحدث نفسه. وكانت المسألة جديرة بذلك: فلو كانت الشائعة التي

سمع بها عن شركة رامون مورفيم المحدودة صحيحة، فإن هذا يعني أن المدينة كلها ستتغير في النهاية، لأنه لم يكن هناك في برشلونة نهاية القرن مؤسسة أكثر أهمية من مؤسسة تصنيع الحلويات الفاخرة تلك. فشراء الحلويات من هناك لم يكن بالأمر السهل؛ والدخول في قائمة الزبائن قد يتطلب السعي بمثابرة طوال حياة بكاملها، واستثمارات كبيرة وقدراً غير ضئيل من النفوذ. وحتى في هذه الحالة، ومع الانتماء إلى تلك الحلقة المختارة، فإنه لا بد من التوصية على قالب حلوى جيد قبل أسبوع؛ والتوصية قبل شهر للحصول على صينية حلويات مُشكّلة؛ والحصول على حلوى سانت جوان يتطلب الانتظار ثلاثة أشهر أو أكثر، أما حلوى اللوز لعيد الميلاد، فيجب ألا تتأخر التوصية عليها إلى ما بعد اليوم الثاني عشر من كانون الثاني (يناير). ومع أنه لم يكن في أي من محلات الحلويات الفاخرة موائد أو كراس، ولم تكن تقدم الشوكولاتة أو الشاي أو المرطبات لزبائنها، فقد كان لدى كل منها بهو فسيح وأنيق جداً، على نمط صالونات بومباي عموماً، وفي صباحات أيام الآحاد، لدى الخروج من القداس، يتواعد فيها صفوة المجتمع من كل حي. فيتبادلون هناك الأحاديث، ويتأهبون لوجبة الغداء مع الأسرة التي تستمر عادة أربع أو ست ساعات. كان الحر في تلك الصالات خانقاً بسبب قربها من أفران صنع الحلويات، وكان الهواء مثقلاً ومنفراً. وهكذا كان ذلك الشاري يقول لنفسه: إذا ما انتقلت *مؤسسة ورثة رامون مورفيم* من شارع كارمن، فإن شارع كارمن والحي بأسره سيصيبه الكساد، ولن تبقى ساحة بوكيريا على ما عليه: المركز العصبي لبرشلونة. ولكن، إذا كان ذلك غير صحيح، وإذا لم تغير *مؤسسة ورثة رامون مورفيم* مقرها، فإن كل شيء سيبقى على حاله... والأسوأ من ذلك، كان الرجل يتحسر، هو أنني لا أستطيع عمل شيء للتأكد من صحة هذه الإشاعات الحاسمة أو كذبها، لأنه إذا ما بدأت المعلومة تنتقل على ألسن الناس، فوداعاً للشراء، يا لهذا الاحتضار! وأخيراً تغلب الطمع على الحصافة واشترى بالسعر الذي طلبه أونوفري. وما إن تم نقل الملكية حتى هرع إلى محل الحلويات في شارع كارمن، وطلب التحدث مع المالكين. فاستقبله هؤلاء بلطف: إنهما وريثا رامون مورفيم الأسطوري، الأخوان دون سيسر ودون بومبيو مورفيم. وقد قطب كلاهما حاجبيه المبيضين بالدقيق حين سمعا ما

سألهما عنه الشاري المنكوب. ماذا! ننتقل من هنا؟ لا، لا، ولا بأي حال. هذه الإشاعات التي سمعتها حضرتك أيها السيد لا أساس لها على الإطلاق. لم يخطر لنا قط الانتقال من هنا، ولا سيما إلى هذا الحي الذي تتحدث عنه؛ فليس هناك في منطقة التوسع كلها مكان أكثر منه قبحاً وإزعاجاً وعدم ملاءمة لإقامة محل حلويات. وانتهيا إلى القول: إن عظام أبينا ستتململ في قبره إذا ما فعلنا ذلك. عندئذ هرع الرجل إلى أونوفري بوفيلا وهو ينوي نقض عملية البيع والشراء. كان شعره مشعثاً، وخيط من اللعاب يتدلى من شفته السفلى، وقال له: أنت من أطلقت تلك الشائعات الزائفة، وأنت مدين لي الآن بتعويض الضرر. تركه أونوفري يُفرّج عن نفسه ثم طرده إلى الشارع. ولم يصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، لأن الرجل لم يجد طريقة يُثبت بها أنه هو من نشر تلك الشائعة، بالرغم من أن الجميع كانوا يعتبرون ذلك أمراً مؤكداً. صارت قضية *ورثة رامون مورفيم* مشهورة؛ وشاعت لبعض الوقت عبارة «أصابه ما أصاب رجل *ورثة رامون مورفيم*» للإشارة إلى حال من يظن نفسه أذكى من الجميع حين يشتري بسعر مرتفع ما لا يساوي ذلك السعر أو يساوي أقل منه بكثير.

– عليك توخي الحذر – قال له ذلك هومبرت فيغا إي موريرا – لأنك إذا صرت سيئ السمعة، فلن تجد من يقبل التعامل معك.

فأجابه أونوفري:

– سنرى ذلك.

اشترى بما كسبه من تلك العملية المريبة قطع أرض أخرى في مكان آخر. فقال الخبراء في هذا النوع من الصفقات: لنر ماذا سيفعل الآن. وحين رأوا بعد عدة أسابيع أنه لم يفعل شيئاً، تجاهلوا القضية، وعلقوا فيما بينهم: ربما سيتصرف بنزاهة في هذه المرة. كانت قطع الأرض التي اشتراها في مكان قليل الجاذبية، بعيد جداً عن مركز المدينة: حيث توجد اليوم ناصية التقاء شارعي روسيّون وخيرونا. فكان الناس يتساءلون: ومن ذا الذي سيذهب للعيش هناك؟ وفي أحد الأيام وصلت إلى هناك عدة عربات محملة بمقاطع معدنية؛ وكانت أشعة الشمس تنعكس على تلك المعادن فتحدث وميضاً يستطيع رؤيته البناؤون الذين كانوا يشيدون أبراج كنيسة «العائلة

المقدسة» على مسافة غير بعيدة من هناك. كانت تلك المقاطع الحديدية سكة ترام. وبدأ فريق من العمال بحفر قنوات في أرض شارع روسيّون كثيرة الحجارة. وراح فريق آخر، أقل عدداً، يبني في تلك الناصية نفسها عنبراً مستطيلاً: إنه إسطبل المعالف الذي ستستريح فيه بغال الجر، لأن الطاقة التي كانت تستخدم في جر الترام آنذاك هي دم البغال. فقال الناس: أجل، إن هذا القطاع سيتحسن. وخلال ثلاثة أو أربعة أيام انتزعوا من بين يدي أونوفري بوفيلا ملكية قطع الأرض تلك بالسعر الذي حدده هو نفسه. وقال له هومبرت فيغا إي موريرا: لقد حالفك الحظ في هذه المرة أكثر مما تستحق أيها الماكر. ولم يقل هو أي شيء، ولكنه كان يضحك بينه وبين نفسه. وبعد يومين من ذلك، راح العمال أنفسهم ينتزعون سكة الترام بعد أن كانوا قد بدؤوا بمدها، ثم أعادوا تحميلها في العربات ونقلوها من هناك. وكان لا بد للدوائر التجارية والمالية في المدينة من أن تعترف في هذه المرة بأن المناورة لا تخلو من الذكاء. وقابلوا بكاء المشترين بوجوه ساخرة. وقالوا لهم: كان بإمكانكم أن تسألوا شركة الترام عما إذا كان الأمر جدياً. فيقولون: وكيف يمكن أن يخطر لنا أنها غير جدية؟ فقد رأينا الخطوط الحديدية وعنبر المعالف وفكرنا... فيردون عليهم: ليتكم لم تفكروا؛ فقد حصلتم مقابل مبلغ محترم من المال على أرض لا تصلح مكباً للقمامة وعلى إسطبل نصف مشيد عليكم الآن أن تهدموه على نفقتكم. ثم توالت عمليات كثيرة أخرى بعد هذه العملية التي أطلق عليها الجميع «خبطة سكة الترام» لكي يميزوها عن الأخرى التي سميت «خبطة *ورثة رامون مورفيم*». وبالرغم من أن الجميع كانوا قد تنبهوا، إلا أنه كان يتوصل دائماً إلى بيع الأراضي التي يشتريها خلال وقت قصير جداً وبأرباح هائلة؛ لأنه يجد على الدوام طريقة يخدع بها الناس؛ ويولد آمالاً كبيرة لدى المشترين؛ ثم ما تلبث تلك الآمال أن تتبدد: فهي مجرد سراب دبره هو نفسه. وخلال أكثر من سنتين بقليل صار ثرياً. وفي أثناء ذلك، سبب للمدينة بالمقابل ضرراً لا خلاص منه، لأن ضحايا غشه كانوا يجدون أنفسهم قد امتلكوا أراضي جرداء لا قيمة لها، ودفعوا مقابلها مبالغ باهظة. فكان لا بد لهم من عمل شيء للاستفادة منها. كان يمكن لتلك الأراضي عادة أن تخصص لبناء مساكن رخيصة، يشغلها المهاجرون الفقراء

مع ذويهم. ولكن الارتفاع الفاحش لسعرها الأساسي، أدى إلى تخصيصها لبناء مساكن فخمة. فكانت بيوتاً فخمة على طريقتها: كثير منها يفتقر إلى الماء الجاري، أو فيها القليل منه ينز من صنبور عندما تُقفل صنابير بقية الحي؛ وشغلت بيوت أخرى عقارات أرضها غير منتظمة، فكانت بيوتاً مؤلفة من ممرات وغرف متداخلة أشبه بالجحور. ومن أجل استرداد جزء من رأس المال الضائع، كان أصحاب تلك الأراضي يقتّرون في نفقات البناء: فالمواد المستخدمة سيئة النوعية، والإسمنت يأتي مختلطاً بالرمل، وحتى بالملح أحياناً، مما جعل عدداً غير قليل من تلك المباني ينهار بعد شهور من تدشينه. كما اضطروا إلى البناء في الأراضي المخصصة أصلاً للحدائق أو المتنزهات، ولمواقف العربات، وللمدارس والمستشفيات. ومن أجل التغطية على كل تلك الكوارث، أولي اهتمام كبير للواجهات: فاستخدموا ملاط المرمر والجبس وقطع الخزف الصغيرة لرسم يعاسيب ضخمة ونبتات قرنبيط تمتد من الطابق السادس حتى مستوى الشارع. وأضافوا إلى الشرفات أعمدة قبيحة ووضعوا تماثيل لتنانين ولأبي الهول تطل على الأفناء وعلى الأسطح؛ وملؤوا المدينة بمملكة حيوانات خرافية تبعث الخوف في النفوس عند رؤيتها في الليل على ضوء أعمدة الشوارع المائل إلى الخضرة. كما وضعوا أمام الأبواب تماثيل ملائكة رقيقين لهم ملامح أنثوية يغطون وجوههم بأجنحتهم، ويمكن لهم أن ينفعوا في تزيين الضرائح أكثر من نفعهم في تزيين بيت أسري؛ وتماثيل نساء مسترجلات يضعن الخوذة والدرع في محاكاة للفالكيرات اللواتي كن رائجات آنذاك، وطلوا الواجهات بألوان فاقعة أو بألوان الباستيل. كل ذلك من أجل استرداد المال الذي سرقه منهم أونوفري بوفيلا. وهكذا راحت المدينة تنمو بسرعة كبيرة وباندفاع. ففي كل يوم تقلب آلاف أطنان التراب لتحملها أرتال متواصلة من العربات وتكومها وراء مونتجويك أو لتلقي بها إلى البحر. وكانت تُحمل مختلطة بهذه الأنقاض كذلك بقايا مدن أقدم عهداً، وآثار فينيقية أو رومانية، وهياكل عظمية لبرشلونيين من عصور أخرى، وبقايا أزمنة أقل اضطراباً.

– 4 –

في صيف عام 1899، كان قد صار رجلاً بكل معنى الكلمة. فقد بلغ السادسة والعشرين وصارت لديه ثروة معتبرة، ولكن إمبراطوريته الناشئة ما زالت تعاني بعض الشروخ. فالمعارك الانتخابية التي كان يجريها بواسطة السيد براوليو لم تكن تعطي نتيجة أو أنها تعطيها ولكن بعد بذل جهود كبيرة. فقد تغير المزاج العام في البلاد على إثر كارثة 1898؛ ورفع سياسيون أكثر شباباً راية التجديد، واستثاروا الحماسة الشعبية، وكانوا يحاولون تجديد الهيكل الاجتماعي القديم. فأدرك أنه لا فائدة الآن من النضال ضدهم، لأن ذلك قد يؤدي إلى عكس ما هو مرجو؛ ففضّل الانفصال عن الماضي والتظاهر بتبني التوجهات الجديدة، وبالتضامن مع المثل العليا الجديدة. ومن أجل ذلك أبعد السيد براوليو الذي تحوّل إلى رمز للفساد. وكان ذلك يتطلب منه الابتعاد كذلك عن أودون موستاثا، مع أنه صار يحبه دون تبصر. فانفجر في البكاء وبحث على الفور عن طريقة للانتحار. ولكنه تخلى عن هذا المشروع لأنه كان يخشى على أمن الرجل الذي يحبه. لم يكن أودون موستاثا بالشخص الذكي؛ فهو لم يستطع التكيف مع نظام الحياة الجديد. فقد بقي فتوة، لا يتورع عن سحب مسدسه لأي سبب. وكانت النساء يفقدن عقولهن من أجله، وكان عليه اللجوء في مناسبات عديدة إلى الاستعانة بالسلطات المرتشية لدفن بعض القضايا الفضائحية والتستر عليها؛ وقد اضطر إلى إخفاء بعض الجثث ورشوة العدالة. لفت أونوفري بوفيلا نظره عدة مرات، وقال له: لا يمكن للأمور أن تستمر على هذه الحال يا أودون؛ فنحن الآن رجال أعمال. فكان الفتوة يقسم إنه سيصلح حاله، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى سيرته الأولى ومغامراته. كان يطلي شعره بالدهون، ويرتدي ملابس صارخة، ولم يكن يسمن أبداً على الرغم من أنه كان يأكل ويشرب دون حساب. وكان يربح في بعض الأحيان مبالغ طائلة في القمار: فيدعو عندئذ كل من يلتقي بهم، وكانت حفلات اللهو التي يقيمها في هذه المناسبات خرافية؛ وفي أحيان أخرى كان يخسر كل شيء، فيستدين مبالغ كبيرة، ويضطر إلى اللجوء إلى السيد براوليو طلباً للمساعدة. فيوجه إليه هذا ألف توبيخ، ولكنه لا يستطيع

أن يرفض له طلباً: فقد كان يتستر على كل تجاوزاته. وكان يخشى، إذا ما حُرم من حمايته الآن، أن ينصب عليه غضب أونوفري بوفيلا.

لقد صعد هذه المرة إلى بيت مزرعة بوداليرا في عربة مغلقة على الرغم من الحر الشديد. وكان قد أوصى على صنع بدلة من الجوخ الأسود المخطط عند خياط مشهور، يقع مشغله في شقة في شارع غران بيّا، بين شارعي مونتانير وكازانوفا. وكان يذهب إلى هناك في هذا الصيف لإجراء التجارب. وهو الآن يدشن البدلة، ويعلق في عروة ياقة السترة زهرة غاردينيا. كان يشعر أنه مضحك، ولكنه ذاهب لطلب يد ابنة هومبرت فيغا إي موريرا. كان قد اشترى خاتماً من محل مجوهرات في شارع رمبلاس. أما هي، فكان قد رآها في مناسبات معدودة، عندما كانت تخرج من المدرسة الداخلية فقط لتذهب إلى المصيف مع أسرتها في بوداليرا. وبما أن الذهاب إلى بيتها لم يكن متاحاً له، فقد كان يلتقي بها في الريف، بحجة القيام برحلة ما، حيث يكونان محاطين بالناس على الدوام، ولا تستمر تلك اللقاءات إلا لوقت قصير جداً. كانت تحدثه عن أمور بسيطة من الحياة في مدرسة الراهبات الداخلية. ولأنه معتاد على سماع الثرثرات البذيئة للعاهرات اللواتي يتردد عليهن، فقد ظن أن تلك البساطة هي لغة الحب الحقيقي. ولم يكن يعرف في الوقت نفسه ما يمكنه أن يقوله لها. وقد حاول أن يثير اهتمامها باستثماراته العقارية، ولكنه سرعان ما لاحظ أنها لا تفهم ما يقوله. كانا قد افترقا مطمئنين، بعد أن تعاهدا على الإخلاص والوفاء. وها قد صار الآن غنياً، وغادرت هي المدرسة الداخلية لكي تُقدم إلى المجتمع في ذلك الخريف بالذات. وكانت احتمالات تقبلها في المجتمع الراقي البرشلوني ضئيلة جداً، بحكم كونها ابنة دون هومبرت، ولكن يجب عدم استبعاد هذا الاحتمال: فقد يتعلق شاب في سن الزواج بمفاتنها، ويتغلب على معارضة أسرته، ويتزوج منها؛ وبهذا تكتسب مكانة شرعية، كما يكتسبها أبواها أيضاً بصورة غير مباشرة. فكان أونوفري بوفيلا يريد الحيلولة دون وقوع هذا الخطر بتقدمه لطلب يدها مسبقاً. ولم يكن يراوده أي شك في أن جمالها سيتيح لها الفوز في حياة الصالونات.

– سأفقدها فور أن تطأ مسرح الليسيو، وسأبقى عندئذ دون خطيبة – هكذا اعترف لإفرين كاستيلس. وكان مارد كاليّا قد تبدل خلال تلك السنوات: فلم يعد يمضي منساقاً دون وعي وراء أي تنورة يراها. فقد تزوج من خيّاطة شابة، شديدة اللباقة في التعامل، ولكنها قوية الشخصية، وقد أنجب ابنين، وتحول إلى رجل بيتي وذي إحساس بالمسؤولية. ومع أنه كان مستعداً للقيام دون تردد بأي عمل يطلبه منه أونوفري، فإنه كان يفضل النشاطات الجدية والمباحة. كان قد قام ببعض الصفقات متبعاً خطى أونوفري، وعرف كيف يوفر ويعيد توظيف تلك الأموال بصورة صائبة، وهو ينعم الآن بوضع مريح. وقد قال لأونوفري:

– تكلم في الأمر مع دون هومبرت. فهو مدين لك بالكثير. سيستمع إليك، وإذا كان رجلاً شريفاً، مثلما أظنه فعلاً، فسوف يعترف بأن يد ابنته ستكون لك وليس لأي شخص آخر.

أدخلوه إلى صالون صغير ورجوه بأن يتكرم بالانتظار. وقال له كبير الخدم الذي لم يكن يعرفه: السيد في اجتماع. أحس بالاختناق في ذلك الصالون الصغير، وفكر: الحر هنا لا يقل عن الحر في برشلونة، وأنا أشعر بجفاف شديد في حلقي؛ لو أنهم قدموا لي على الأقل شراباً مرطباً! لماذا يعاملونني بقلة التقدير هذه، وفي هذا اليوم بالذات؟ بعد مرور وقت اعتبره طويلاً، خرج من الصالون الصغير واجتاز ممراً جدرانه مطلية بالكلس. ولدى المرور قبالة باب مغلق، سمع أصواتاً، وعرف بينها صوت دون هومبرت فيغا إي موريرا، فتوقف متنصتاً. وأخيراً، أحس بالاهتمام بما يسمعه، ونسي تقريباً سبب مجيئه إلى البيت، ففتح الباب بفظاظة ودخل إلى الغرفة التي تبين أنها مكتب دون هومبرت. وكان هذا مجتمعاً مع سيدين آخرين: أحدهما أمريكي يدعى غارنيت، وهو رجل بدين، ينضح عرقاً، وخائن لبلاده، قدم خدماته للمصالح الإسبانية في الفليبين خلال الحرب الأخيرة، إلى أن اضطرته نتائج تلك الحرب إلى مغادرة منطقة النزاع لبعض الوقت. وكان الشخص الآخر قشتالياً نحيفاً، ذا بشرة برونزية وشارب يتخلله الشيب يناديه الآخرون بكل بساطة «أوسوريو» وحسب. وكان هذا الشخص، مثله مثل غارنيت، يرتدي

بدلة مخططة، وقميصاً أبيض ذا ياقة من السلولويد دون ربطة عنق، على الطريقة الشائعة في المستعمرات، وينتعل صندلاً مجدولاً من الحلفاء. ويضع كل منهما فوق ركبتيه قبعة «بنما» ذكّرت أونوفري فوراً بأبيه: ولم يكن حتى ذلك الحين قد رفع الرهن الذي يُثقل على أراضي ذويه. دخوله المفاجئ أوقف على الفور الحديث الدائر بين الرجال الثلاثة. واتجهت كل الأنظار إليه. فالبدلة السوداء، وزهرة الغاردينيا على ياقة السترة، ولفافة محل المجوهرات الأنيقة أحدثت في المكتب حركة غير متوقعة. قدمه دون هومبرت إلى محدثيه وواصل غارنيت رواية كيف أنه، عشية المعركة البحرية التي نشبت في شهر أيار (مايو) من العام السابق في الفليبين، قابل الأميرال ديوي، قائد الأسطول المعادي، لينقل إليه عرضاً من الحكومة الإسبانية: مئة وخمسون ألف بيزتا إذا ما أتاح للسفن الإسبانية أن تُغرق السفن الأمريكية. وقد تم ذلك اللقاء في حانة في سنغافورة أو سينغابور التي كانت مستعمرة بريطانية آنذاك. عدّه الأميرال ديوي في أول الأمر مجنوناً، وقال له: أنت تعرف أن السفن الحربية الإسبانية تافهة ويمكن لسفني أن تغرقها إلى أعماق البحر حتى دون أن تطلق عليها النار. فهز غارنيت رأسه مؤكداً ذلك، وقال: أنت تعرف هذا وأنا أعرفه، ولكن تقنيي البحرية الإسبانية أكدوا لحكومة جلالته عكس هذا تماماً. ويمكنك أن تتصور خيبة الأمل، إذا ما أُغرقت الأرمادا الإسبانية الآن. فرد عليه ديوي: هذا ما لا يمكنني تجنبه.

– هكذا فقدنا مستعمراتنا الأخيرة – قال ذلك دون هومبرت عندما أنهى الأمريكي قصته، ثم أضاف:– واليوم نجد مرافئنا تغص بالعائدين إلى الوطن – وبالفعل، كانت تصل كل يوم سفن تحمل إلى إسبانيا من بقوا على قيد الحياة من الحرب في كوبا والفليبين. كانوا قد قاتلوا طوال سنوات في أدغال موبوءة، ومع أنهم كانوا شباناً في مقتبل العمر، إلا أنهم يبدون كالشيوخ. معظمهم كانوا مرضى بالحمى الثلاثية. ولم يجدوا عملاً أو وسيلة لتأمين لقمة عيشهم. وكانت أعدادهم كبيرة إلى حد اضطرارهم للوقوف في صف طويل من أجل الحصول على معونة. ولم يكن الناس يقدمون إليهم قرشاً واحداً قائلين لهم: لقد سمحتم بأن يداس شرف الوطن، ولديكم الوقاحة للمجيء وطلب الإحسان. كثيرون منهم كانوا يستسلمون للموت جوعاً

عند مفارق الشوارع، بعد أن فقدوا الحماس على عمل أي شيء. ولم يعد هناك بدّ الآن من ترتيب أمر الاستثمارات في المستعمرات السابقة عبر قنوات أخرى، باستخدام أسماء مستعارة، مثل اسم غارنيت الذي كان من الرعايا الأمريكيين. أما المدعو أوسوريو، فلم يكن سوى الجنرال أوسوريو إي كليمنتي، الحاكم السابق لجزيرة لوزون، وأحد أكبر الإقطاعيين في الأرخبيل الفليبيني. وكان دون هومبرت فيغا إي موريرا يحاول التوفيق بين مصالحهما وإقرار الضمانات المناسبة.

عندما انصرف الزائران، وبقي المحامي هومبرت على انفراد مع أونوفري، طرح هذا الأخير سبب زيارته بالارتباك الذي تفرضه الحالة. وكان دون هومبرت قد تحدث حول الموضوع من قبل مع أونوفري بكلمات عابرة، دون أن يلزم نفسه بشيء، موحياً إليه بأنه يعتبره مثل صهره. ولكنه بدا الآن وكأنه يبحث عن طريقة أقل جفاء للتملص من تلك الكلمات التي أوحت بالموافقة. ثم انتهى إلى الاعتراف:

– إنها زوجتي. لم تكن هناك وسيلة إنسانية لجعلها توافق. لقد ألححت عليها حتى بُحّ صوتي، ولكنها لا تتراجع، والنساء في هذه الأمور، كما سترى أنت نفسك عندما يصير لديك أبناء، هن من يملكن القرار النهائي. لا أعرف ماذا أقول لك: لا بد لك من الإذعان والبحث في مكان آخر. وصدقني إنني آسف لذلك.

فسأله أونوفري:

– وهي؟ ما الذي تقوله هي؟

– من؟ مرغريتا؟ ياه، ستفعل هي ما تقوله أمها، مهما كان مؤلماً لها. فالنساء يتألمن كثيراً بسبب الحب، ولكنهن لا يرهنَّ مصيرهن. أرجو أن تفهم ذلك.

لم يجب بشيء، بل تناول لفافة محل المجوهرات وخرج من البيت وهو يصفق بقوة كل ما واجهه في طريقه من أبواب. وكان يدمدم من بين أسنانه بغيظ: سيكونون مغفلين إذا ما اعتقدوا أن أحداً سيقع في حب مثل تلك البلهاء. ستأتين للبحث عني، ستأتين بنفسك؛ ستأتين جاثية على ركبتيك

لتطلبي الصفح مني، ولكنني لن أصفح عنك، لأن أسوأ عاهرة في منطقة مستودعات الفحم هي أفضل منك بألف مرة. ولكن الغضب أخذ يزايله مع تأرجح العربة على حجارة الطريق، ووصل إلى برشلونة غارقاً في أعمق أشكال الحزن. حبس نفسه في بيته ورفض مقابلة أحد طيلة خمسة عشر يوماً. وكانت تعنى به خادمة وظفها لديه منذ ثلاث سنوات مقابل أجر مرتفع ليضمن ولاءها. وأخيراً وافق على استقبال إفرين كاستيلس. وكان هذا الأخير، لشدة قلقه من الحال التي صار إليها شريكة، قد قام بتحريات وهو آت الآن ليُطلع عليها أونوفري بوفيلا.

لم تكن زوجة دون هومبرت فيغا إي موريرا غبية على الإطلاق: فهي تعرف أنه لا يمكن لشاب من أسرة مرموقة أن يقترف خطأ الزواج من ابنتها مرغريتا. ولكنها لم تكن مستعدة كذلك لتسليمها دون نضال إلى منبوذ مثل أونوفري. وقد فكرت ليلاً ونهاراً دون توقف، حتى توصلت أخيراً إلى مرشح مناسب لطلب يد ابنتها. وقد بدا خيارها جنوناً للوهلة الأولى. فالمرشح الذي وقع اختيارها عليه لم يكن سوى نيكولاو كانالس إي راتابلان، ابن دون ألكساندري كانالس إي فورميغا الذي كان السيد براوليو قد طعنه في مكتبه قبل ثمانية أعوام من ذلك، تنفيذاً لأوامر أونوفري بوفيلا. وكان نيكولاو كانالس وأمه يعيشان منذ ذلك الحين في باريس؛ حيث كان أبوه دون ألكساندري كانالس، مثل رأسماليين كتالانيين كثيرين، قد «وضع أمواله لتشغيلها» في شركات فرنسية. وتلك الأموال التي تشكل ثروة صغيرة، ستنتقل بكاملها إلى يدي نيكولاو كانالس فور بلوغه سن الرشد. وكانت أمه حتى ذلك الحين تشرف على إدارة تلك الممتلكات بحرص، بل إنها توصلت إلى إنمائها من خلال بعض الصفقات المتعقلة والمحكمة. كانت الأم وابنها يقيمان في بيت فسيح ومريح، وإن يكن منزوياً، في شارع ريفولي، ويعيشان فيه منعزلين إلى حد ما عن الناس. وكان نيكالاو فتى حزيناً في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره: فهو لم يستطع، خلال كل الوقت الذي مضى، أن يجد العزاء لموت أبيه الذي يحترم ذكراه. أما أمه بالمقابل، فهو لم يكن على علاقة جيدة بها على الإطلاق، دون أن يكون أي منهما هو المذنب في ذلك. فبالنسبة إليها، كان موت ابنيها الكبيرين المفاجئ صدمة لم تستطع التخلص

منها؛ وكانت تُحمّل زوجها مسؤولية ما حدث ولم تعد تشعر نحوه بأي عاطفة؛ وقد امتدت عدم مبالاتها تلك إلى ابنها الوحيد المتبقي على قيد الحياة؛ ومع أنها كانت تدرك أن موقفها هذا غير عادل، فإنها لم تستطع الخروج منه. والأدهى من ذلك أن عاهة نيكولاو كانالس إي راتابلان الجسدية، تلك العاهة الدماغية التي جعلته ينمو مشوهاً بعض الشيء، دون أن يكبر أو يضمر مع مرور السنوات، بدت لها عقاباً على انعدام حنانها. فمنذ طفولته كانت تتحاشى رؤيته قدر الإمكان؛ وأوكلت العناية به إلى العديد من المربيات والخادمات والوصيفات. وقد اضطرتها الظروف الآن إلى العيش معزولة عن الجميع، ودون أي رفقة سوى ذلك الفتى الذي لم تحبه قط، والذي صارت تابعة له الآن قانونياً واقتصادياً، لأن كل شيء، حتى الخبز الذي يأكلانه، هو ملكه بموجب القانون. وكان الفتى يدرك بصورة ملموسة الضيق الذي يسببه لها وجوده، ولا يعلل نفسه بأي أوهام حول حنانها تجاهه، ويحاول أن يتجنب قدر المستطاع أي اتصال بها. ولعجزه، بسبب عاهته الجسدية، عن إقامة صداقة مع من كانوا زملاء دراسته، كان يعيش في عزلة شبه مطلقة. والشيء الوحيد الذي كان يهمه في هذا العالم هو باريس. لدى وصوله إليها هارباً من برشلونة مع أمه، بدت له باريس مدينة معادية، وأهلها أقرب ما يكونون إلى الضواري. ولكنه، دون قصد منه، راح يعتاد تدريجياً على كل شيء، وانتهى به الأمر إلى محبة تلك المدينة بجنون وبشغف حقيقي. وقد صارت باريس الآن هي كل سعادته، المشي في الشوارع، الجلوس في الساحات، التسكع في الأحياء والحدائق، رؤية الناس، والبيوت والنهر. وفي بعض جولاته تلك، كان يتوقف فجأة أحياناً عند إحدى النواصي دون أن يدري السبب وينظر إلى ما حوله وكأنه يرى ذلك كله للمرة الأولى، وهو الذي يعرفه شبراً شبراً؛ وعندئذ تستولي عليه عاطفة جياشة ولا يستطيع كبح تدفق الدموع من عينيه. وإذا ما هطل المطر، كان يغلق مظلته لكي يبتل بمطر باريس. عندئذ، كانت هيئته الغريبة والمشوهة، المهتزة بالبكاء والمبللة بالمطر عند الناصية، تشطر أرواح المارة الذين لا يعلمون أنه إنما يبكي من السعادة. وفي بعض الأحيان، في تلك الظروف نفسها، كان الرعب يتلو تلك السعادة عن قرب، حين يفكر: آي، ما الذي سيحل بي إذا ما حُرمت يوماً من باريس؛ إذا ما اضطررنا إلى

مغادرة باريس لأي سبب؟ كان يعرف أن باريس ليست مسقط رأسه في الحقيقة، وكان هذا يثير فيه إحساساً بما يشبه الاقتلاع الجسدي: فقد كانت حياته تمضي في قلق دائم، وهو موزع بين أم لا يمكنها تفادي نبذه ومدينة متبناة لا يمكنه مطالبتها بأي حق. ولم يكن يدري إلى أي حد كانت مخاوفه تلك مسوّغة.

كتبت زوجة دون هومبرت فيغا إي موريرا إلى أرملة ألكساندري كانالس إي فورميغا رسالة مطولة ومفككة، حيث توجهت من خلال بعض عبارات اللف والدوران إلى هدفها الذي تسعى إليه: *سامحيني يا صديقتي العزيزة على جرأتي التي تدفعني للتوجه إليك بهذه الطريقة غير البروتوكولية، ولكنني واثقة من أن قلبك كأم سيعرف كيف يضعك فوراً في موقفي الذي أنا فيه؛ ومن أنك ستتفهمين سبب جرأتي عندما تقرئين هذه العبارات المشوشة التي أوحت بها النية الطيبة وحدها*. ثم طرحت بعد ذلك مشروعها دون مواربة، وهو يتمثل في زواج ابنتها مرغريتا فيغا إي كلارنسا، من نيكولاو كانالس إي راتابلان. فكلاهما، كما سارعت إلى الإشارة، ابن وحيد لأبويه والوريث الوحيد بالتالي لثروة الأسرة. ثم ألمحت إلى أن كليهما يكاد يكون مستبعداً من مجتمع برشلونة الراقي. وأي آمال يمكن أن يتوقعها نيكولاو في باريس، حيث سيبقى إلى الأبد أجنبياً ومهمشاً اجتماعياً؟ وتواصل القول: *بهذا الزواج الذي أحتفي به مسبقاً بقلبي كأم، يتوج التوافق الطويل للأهداف والمصالح التي طالما ربطت بين سلالتينا*. وتنهي رسالتها بالقول إنه *إذا كان لم تُتح الفرصة لمرغريتا ونيكولاو للتعارف والتعامل، فإن الشك لا يساورني مطلقاً في أنهما لن يتأخرا، وهما شابان، وذكيان، ينعمان بالبنية السليمة والخلق الجيد، في تبادل الاحترام والعاطفة اللذين تستند إليهما السعادة الزوجية الحقيقية*. والله أعلم كيف وجدت عنوان أرملة دون ألكساندري كانالس إي فورميغا، وأرسلت إليها الرسالة. وبعد إرسالها أخبرت زوجها بما فعلته وأطلعته على نسخة شبة مطابقة للرسالة. فلم يستطع دون هومبرت تصديق عينيه، واستطاع أن يقول أخيراً:

– يا للهول يا امرأة! كيف تجرأت على مثل هذا؟ تعرضين ابنتنا وكأنها سلعة... لا أجد كلمات... يا لهذا التهور! وعرضها فوق هذا للزواج من ابن

خصمي ومنافسي السابق، والذي لا يتورع البعض عن تحميلي بعض المسؤولية في مقتله. يا للإهانة! وفي أي ساعة نحس خطر لك أن تقولي إن ذلك التعس «ينعم ببنية سليمة»؟ ألا تعرفين أن ذلك الفتى البائس ما هو إلا مسخ منذ ولادته؟ وأنه متخلف؟ كلما أعيد قراءة الرسالة أشعر بأنني سأموت خجلاً.

– لا علاقة لك أنت بهذا يا هومبرت – قالت له زوجته ذلك دون أن تفقد هدوءها. كانت تدرك إلى حد ما حماقة تصرفها، ولكنها كانت تعتمد على الحظ. وفي أثناء ذلك تلقت أرملة كانالس الرسالة وقرأتها بتمعن في ظلال بيتها في شارع ريفولي. وكانت تفكر: يا للوقاحة! هذه المتسولة تضع كرامتها في موضع أعرفه. وكان يمكن لها أن تمزق الرسالة إلى ألف نتفة لو أنها كانت في ظروف طبيعية. إنها على وشك بلوغ الأربعين، وتحتفظ من جمالها السابق بتناسق هادئ يمكن للمرارة أن تقوضه خلال وقت قصير؛ وقد تمثلت لها حياتها، في لحظة التقويم هذه، كسلسلة من الآمال المحبطة، فتمتمت: *Un vie manquée*. (حياة خائبة). تركت الرسالة فوق الكوميدينو وأخذت تُهوّي، بتثاقل، بريشة نعام. وبينما هي تفعل ذلك اهتزت أساورها. وكانت تأتي من الشارع ضجة العربات المتواصلة.

– *Anaïs, sois gentille: ferme les volets et apporte-moi mon châle en sois brodée*[1]

قالت ذلك لخادمتها؛ وهي زنجية من المارتينيك، تضع منديلاً أصفر معقوداً على رأسها.

كانت قد تعرفت قبل نحو سنة على شاعر ذي أصول غامضة يدعى كاسيمير. في الثانية والعشرين من عمره؛ وقد اصطحبها دون تردد ولا تحفظ إلى منتديات مونبارناس، حيث يجتمع البوهيميون ليقرؤوا الشعر ويشربوا الأبسنت، وحضرا معاً في السنة السابقة مراسم دفن ستيفان مالارميه؛ ولكنها كانت تعي مع ذلك فارق السن والثروة بينهما، فترفض

---

(1) بالفرنسية في الأصل: كوني لطيفة يا أنابيس، وأغلقي النوافذ واحضري لي وشاحي الحريري المطرز.

الرضوخ لتوسلاته. كان يرسل إليها أزهاراً مسروقة من المقابر وسونيتات حب متأججة. وكان ذلك الوضع في نظر الناس غير سوي ويستثير تعليقات خبيثة. فتفكر: وماذا يهمني كل ذلك؟ لقد عشتُ حياتي كلها في تعاسة، وها هو القدر يقدم لي الآن هذه الهدية، فهل أرفضها بسبب التقولات؟ ثم تقول لنفسها في محاولة للتغلب على صدودها: وعلاوة على ذلك، هذه ليست برشلونة؛ بل هي باريس، وأنا هنا نكرة غير معروفة، أي أنني حرة. كانت تفكر في كل ذلك، ولكنها لا تفعل شيئاً، يردعها وجود ابنها: فقد كان هذا هو العائق الذي يفصل بينها وبين السعادة. لو أنها عرضت عليه الأمر بصراحة لكان تفهمه وتقبله؛ ولا شك في أنه سيؤيد أمه في كل شيء، وسيكون سعيداً بأن يُظهر لها أخيراً، بعد أن كبر، محبته وتضامنه معها، ولكن كل تلك السنوات الطويلة من التنائي والجفاء كانت تغلق أمامهما الآن أي سبيل للتواصل الصريح. كانت تفكر، بتأنيب ضمير، في طريقة للتخلص من ذلك الشاهد المزعج. وها هي ذي تفكر الآن بمضمون الرسالة التي تلقتها للتو. الفكرة مغرية، ولكن كل شيء فيها يدعوها إلى رفضها: فهي ترتاب في أن هناك مؤامرة خبيثة وراء عرض الزواج غير المتوقع ذاك. وتقول لنفسها: من ذا الذي يقبل في نهاية المطاف بأن يكون صهره هو ابني المسكين نيكولاو؟ إنه شخص نكرة، مشوه وغبي، ما الذي يمكن أن يروه فيه سوى المال؟ أجل، لا شك في ذلك، لا بد أن هذا هو الهدف. وفي هذه الحال ستكون حياة نيكولاو في خطر: فإذا كان ذلك الوغد قد دبر مقتل زوجي، لترقد روحه بسلام، فإنه لن يتورع الآن عن التخطيط لقتل وريثه. وربما هو يسعى إلى انتقام همجي، مثل أعمال الإبادة المحسوبة بدقة تلك التي تمارس في استنبول بصورة متواترة منذ عدة قرون. كانت قد تعرفت في أحد الصالونات على سفير السلطان عبد المجيد في فرنسا، السلطان العاجز الذي جيء به ليقود الانهيار النهائي للإمبراطورية العثمانية التي صارت تُعرف منذ عقود باسم «رجل أوروبا المريض». ولم يكن ذلك السفير المناصر لأنفير باشا والمؤيد بالتالي لجمعية «تركيا الفتاة»، يفوّت أي فرصة للحط من سمعة الدولة التي يدعي أنه يخدمها ويتلقى منها رواتب ضخمة: ومع أنه يظن نفسه خلاف ذلك، فإنه كان في الواقع نموذجاً حياً للانحدار والانحطاط

الأخلاقي الذي يدعي هو ومحازبوه أنهم يسعون لإصلاحه. أحست بقشعريرة جعلتها تلتف جيداً بشال مانيلا الذي كانت الخادمة قد ألقت به على كتفيها. شدت الحبل، وعندما جاءت أناييس مستجيبة للنداء، سألتها إذا ما كان ابنها في البيت. وردت الخادمة: *Oui madame*. فقالت لها: *Alors, dis-lui que je veux lui parler; vas vite*[1]. كانت تريد أن تبدو لطيفة معه، وأن تناقش وإياه الأمر كند لند؛ ولكنها ما ان رأته يدخل حتى تجهم وجهها، وقالت وفي صوتها شيء من الحدة:

– ما هذا! أما زلت بملابسك البيتية في مثل هذه الساعة؟

فاعتذر نيكولاو بارتباك، وقال: لم أكن أفكر بالخروج. كان قد قرر أن يمضي الوقت في المطالعة، ولكن إذا كانت تقترح شيئاً آخر... فقالت هي: لا، لا، لا بأس، هيا، انصرف الآن؛ فأنا أشعر بألم رهيب في رأسي. لا أريد أن يزعجني أحد حتى الغد. أقفلت على نفسها باب المكتب بالمفتاح، وبقيت تحبر مسودات وتمزقها حتى ساعة متأخرة من الليل، إلى أن وجدت أخيراً النبرة التي بدت لها مناسبة، فكتبت: ***رسالتك يا صديقتي العزيزة، أثارت في نفسي مزيجاً من الامتنان والذهول ستكونين أول من يتفهمهما. لقد كنتُ على الدوام من القائلين إن أمور الزواج يجب أن يحسمها المعنيون أنفسهم، مستندين في ذلك إلى مشاعرهم قبل أي شيء آخر، وليس من حقنا نحن الأمهات أن نفرض رأينا، مهما كان صادراً عن أكثر الرغبات نزاهة...*** قرأت زوجة هومبرت فيغا إي موريرا الرسالة وأدركت أن الفوز كله صار في متناول يدها؛ فمع أن الرسالة تبدو مراوغة، إلا أنها تقر بينهما لغة مشتركة، وتفتح طريقاً للحوار والتفاوض. عرضت الرسالة على زوجها بكبرياء حقيقي. فقرأها ولم يفهم شيئاً.

– ما تقوله هنا هو أنه لا سبيل إلى الزواج – كان هذا هو كل ما خطر له قوله.

فردت عليه بسخرية:

– لا تكن أبله يا هومبرت. فمجرد ردها يعني الموافقة، حتى وإن ردت

---

[1] بالفرنسية في الأصل: «أخبريه إذن أنني أريد التحدث إليه، أسرعي.»

لتقول لا. إنها مماحكات النساء.

أما نيكولاو كانالس إي راتابلان، فأخبرته أمه بالأمر الناجز. ولأنه لم يكن يرتاب في شيء، ولم ير تشكل العاصفة، فقد تمكن من ارتجال معارضة ضعيفة. فقاطعته أمه وهي تضرب بكعب حذائها على بلاط الأرضية:

- ياه، ياه، ما الذي تعرفه أنت عن الحياة؟ أما أنا فلدي تجربة، لقد عانيت الكثير، إنني أمك وأعرف ما الذي يناسبك - ثم أضافت بقناعة بدت متصنعة بوضوح:- ما يناسبك هو الذهاب إلى برشلونة والزواج من هذه الفتاة. وليس هناك ما يحول دون أن تكونا سعيدين.

فتلعثم قائلاً:

- ولكن، هل تعلمين من هم هؤلاء الناس يا أماه؟ إنهم من دبروا اغتيال أبي.

فقاطعته:

- إنها تقولات. ولم تكن هذه الفتاة هي من فعلت ذلك على أي حال. فقد كانت طفلة رضيعة لا يزيد عمرها على بضعة شهور في ذلك الحين. ثم إن ما مضى قد مضى. لقد انقضت سنوات طويلة على ذلك: ولا يمكننا العيش إلى الأبد ونحن نحمل الماضي على كاهلنا، ما قولك؟

خرج نيكولاو كانالس للتجول في الشوارع، ورجع إلى البيت في شارع ريفولي عند الغروب. دخل مباشرة لرؤية أمه، وقال لها:

- أنا لا أريد الزواج يا أماه. لا من هذه الفتاة، التي لا شك لدي في حسن صفاتها، ولا من أي فتاة أخرى. ولستُ أريد الذهاب للعيش في برشلونة. ما أريده هو البقاء معك. فنحن سعيدان هنا في باريس، أليس كذلك يا أماه؟

لم تواتها الشجاعة لتقول له لا، وإنها ليست سعيدة بسببه، وبسبب وجوده تحديداً. فاكتفت بالرد: هذا لا علاقة له بما تكلمنا به من قبل. ثم أضافت: فأنت لم تعد في سن يمكنك العيش فيها ملتصقاً بتنورة أمك. عندئذ لمح هو الحقيقة، ففتح ذراعيه في حركة أراد لها أن تنم عن الموافقة، وقال:

- إذا كانت المعيشة معي هي ما يزعجك، فإنني أستطيع الذهاب للعيش

فـي حجرة فـي مونبارناس.

وبعد نقاش لجوج طويل، توصـلا إلـى اتفـاق: يسـافر نيكولاو كانالس إي راتـابلان إلـى برشـلونة، ويتعـرف هنـاك علـى مرغريتـا فيغـا إي كلارينسـا، وعندئذ فقط، بعد التعرف الجيد، يُتخذ القرار النهائي. وسيبقى محتفظاً بخيار العودة إلى باريس إذا هو أراد ذلك. وكان ذلك يعادل تراجعاً من قبلها، ولكنها لم تجد لديها القوة لتجبره على ما هو أكثر من ذلك. كان لا بد من إظهار تلك القسوة، التي تعتبرها ضرورية، لكي تنتبه إلى مدى تعلقها بابنها على الرغم من كل شيء؛ فقد كانت تتلهف للتحرر منه، ولكن رحيله الوشيك الآن صار يملؤها بالحزن، وداهمتها أشد الأفكار سوداوية. وفـي أثناء ذلك كانت كل هذه الأمور قد وصلت إلى مسامع أونوفري بوفيلا الذي كان يحيك، فـي عزلته الطوعية، خطة يقلب بها ذلك الوضع غير المناسب له على الإطلاق.

– 5 –

كـان أول تدبير اتخذه هو تقصي المعلومات عن أوسوريو، مالك الإقطاعيات في لوزون، ووكيل أملاكه في الفليبين، الأمريكي غارنيت اللذين تعرف إليهما مصادفة في بيت بوداليرا الريفي، في ذلك المساء المشؤوم الذي ذهب فيه لطلب يد مرغريتا فيغا إي كلارينسا. وهكذا عرف أن الأمريكي يقيم في جناح في فندق كولومبس الذي كان يقع آنذاك في ساحة كتالونيا، إلى جانب شارع باسيّو دي غراثيا؛ وأنه يتناول كل وجباته في الفندق، ولا يغامر بالخروج إلا في عربة مغلقة مستأجرة، تأتي مرتين في الأسبوع، يومي الثلاثاء والخميس، لتأخذه من الفندق وتوصله إلى محل لتدخين الأفيون في منطقة بايّاكاركا. فيقضي الليل هناك. وفي صباح اليوم التالي تأتي العربة نفسها لتأخذه من محل تدخين الأفيون وتعيده إلى الفندق. وكان يرتاد محل تدخين الأفيون المشهور ذاك، وهو أحد آخر المحلات العلنية الموجودة في برشلونة، سادة مترفون وغير قليل من سيدات المجتمع الراقي؛ كما كانت

تذهب إلى هناك خياطات فتيّات ومتدربات. ولم يكن معروفاً بعد أن الأفيون ومشتقاته تؤدي إلى تعوّدها وإدمانها، كما أن تدخينه لم يكن محرماً ولا مكروهاً اجتماعياً. فكانت كثيرات من أولئك الفتيات يقعن في ما بعد في امتهان الدعارة لكي يتمكن من الحصول على متعة التدخين التي لا تتيح لهن إيراداتهن الضئيلة الحصول عليها بالانتظام الضروري. وكان المشرفون على محلات تدخين الأفيون يشرفون في الوقت نفسه على المواخير السرية التي كان من اليسير العثور فيها على قاصرات. وكان غارنيت يقتل بقية الوقت معتكفاً في جناحه في الفندق، يقرأ مغامرات شرلوك هولمز المجهولة في إسبانيا، إنما الشعبية جداً في إنكلترا والولايات المتحدة، وكانت تُرسل إليه من هناك بوساطة **الأميركان اكسبريس**. أما أوسوريو إي كليمنتي من جهته، فكان قد استأجر شقة في شارع إسكوادرياس. وكان يعيش في ذلك الشارع، وهو شارع راق في ذلك الحين، مع خادم فليبيني هو مساعده في كل شيء، وكلب صغير كثيف الفرو هو رفيقه الوحيد. وكان يستمع إلى القداس كل صباح في كنيسة سان خوستو إي باستور. ويذهب في المساء إلى ناد خاص، أعضاؤه من العسكريين المتقاعدين أساساً، من أمثاله، ومن كبار الموظفين المعينين في برشلونة، وذوي الرتب العليا في سلك الشرطة. وكانوا يلعبون في ذلك النادي بالورق. وهكذا قرر أونوفري بوفيلا التقرب من غارنيت.

ذهب لمقابلته في الفندق وعرض عليه نواياه دون مواربة قائلا: أوسوريو يكاد ينتهي، فهو عجوز والمناخ الاستوائي لا يرحم المسنين. فإذا ما أصابه شيء خطير، يمكن لك أن تتدبر الأمر بحيث تتحول أملاك أوسوريو، وهي مسجلة باسمك الآن، إلى يدي أنا بدل أن تذهب إلى أيدي ورثته. فتح الأمريكي عينيه على اتساعهما. وكان يشرب في رشفات قصيرة مزيجاً من الليمونادة وخمرة قصب السكر والمياه الغازية. وقال أخيراً:

– القضية أكثر تعقيداً من الناحية القانونية مما يبدو للوهلة الأولى.

– أعرف ذلك – قال أونوفري وهو يعرض عليه حزمة من الأوراق المكتوبة باليد، وأضاف:– لقد حصلت على نسخة من العقود التي وثقتماها أمام المحامي فيغا إي موريرا.

فقال غارنيت وهو يتفحص الوثائق:

- أجل، بالطبع، لا بد من الاعتماد كذلك على تعاون دون هومبرت.

- أنا سأتولى هذا الأمر.

- ومن سيتولى أمر أوسوريو؟

- أنا أيضاً.

قال الأمريكي إنه يفضل عدم مواصلة الكلام في ذلك الموضوع، ثم أضاف: تعال لمقابلتي بعد ثلاثة أو أربعة أيام؛ لأنه عليّ أن أفكر في الأمر. وبعد انقضاء المهلة التي حددها غارنيت، التقيا ثانية. وقد أبدى الأمريكي في هذه المناسبة هواجسه: إذا ما حدث شيء لأوسوريو... ما الذي قلته أنت؟... شيء خطير، أجل، هذا ما قلته؛ إذا ما حدث له شيء خطير، ألن يكون من السهل أن يشير كل شيء إلى تورطي في هذه المأساة؟ فابتسم أونوفري بوفيلا وقال:

- لو لم تطرح هذا الاعتراض، لألغيتُ أنا نفسي الاتفاق. إنني أرى الآن أنك شخص حذر وأنك قد فكرتَ جيداً في كل تفاصيل القضية. ولهذا سأخبرك بخطتي.

وعندما انتهى من الكلام، أبدى الأمريكي رضاه عن الخطة، وقال: فلنتحدث الآن عن النسبة المئوية التي سيحصل عليها كل منا. وقد توصلا إلى الاتفاق أيضاً حول هذا الموضوع. وقال أونوفري بوفيلا وهو يودعه:

- ولن يبقى بالطبع أي أثر مكتوب لكل ما تحدثنا عنه هنا.

فقال غارنيت:

- لقد تعاملتُ من قبل مع أشخاص مثلك، وأعرف أن المصافحة باليد تكفي.

شدّ كل من الرجلين على يد الآخر، وقال أونوفري:

- وفي ما يتعلق بالصمت...

- أعرف أهمية ذلك. ولن أحدث أحداً في الأمر.

وفي أثناء ذلك كان إفرين كاستيلس، لكي يخدم أونوفري، قد عاد إلى ممارسة مواهبه في المغامرات العاطفية من وراء ظهر زوجته؛ وتمكن بذلك

من الإيقاع بفتاة تعمل في بيت هومبرت فيغا إي موريرا: فكانا يعرفان عن طريقها كل ما يدور وراء أبواب المنزل، ويتابعان عن كثب الطريق المتعرج الذي يهدف إلى زواج الفتاة من نيكولاو كانالس إي ريتابلان. ومثلما كان دون هومبرت قد توقع مسبقاً، فإن إرادة الأم فرضت نفسها على مشاعر ابنتها وعواطفها. كانت مرغريتا تحاول التمرد، ولكن لم تكن قادرة على تحقيق ما يستحق الذكر حيال نزوات أمها ومكرها. فقد عمدت الأم إلى انتزاع تنازلات تدريجية من ابنتها، بدلاً من تطرح عليها الأمور فجأة، مثلما فعلت حماة ابنتها المستقبلية بابنها. وكانت تتحرك في هذا الميدان متمتعة بميزة مهمة: فهي على علم بغراميات مرغريتا وأونوفري، بينما ابنتها التي تظنها تجهل ذلك، لا تجرؤ على طرح حبها كمبرر لمعارضتها مخططات أمها؛ وكانت تخشى إذا ما أعلنت ذلك أن تسبب أذى كبيراً لأونوفري. وهكذا لم يكن بإمكانها تقديم أي سبب معقول يسوّغ رفضها حيال تلميحات أمها، التي تسعى إلى الإبقاء على الالتباس. فكان أن وافقت أولاً على أن يقيم أبواها علاقة مراسلة مع أرملة كانالس إي فورميغا ما لبثت أن أخذت بالتحول شيئاً فشيئاً إلى مجموعة من الاتفاقيات على الزواج. وعندما تورطت بعد ذلك في التزامات مكتوبة، اضطرت إلى الموافقة على حفلة الخطوبة. وسمحت لهم بالتحكم بمصيرها خطوة فخطوة. فكانت أمها تقول لها عندما تحاول إبداء معارضة في أي أمر:

- ياه، لا تخرجي الآن بالاعتراضات. فكل هذا لن يلزمنا بشيء، وما نفعله هو من باب اللياقة وحسب.

فتقول هي:

- آه يا أماه، لقد قلتِ لي الشيء نفسه في المرة السابقة، والتي قبلها، وقبلها. ودون عمل شيء، مثلما تقولين أنتِ، صرتُ على بعد خطوة عن المذبح.

وترد أمها:

- مجرد حماقات يا صغيرتي. يمكن لمن يسمعك أن يظن أننا في العصور الوسطى. الكلمة الأخيرة تبقى لك أيتها الحمقاء، ولا يمكن لأحد أن يجبرك على عمل ما لا تريدين عمله. ولكنني لا أجد مبرراً الآن للرد بفظاظة على كل الملاطفة التي وجهتها إلينا تلك السيدة اللطيفة وابنها الشاب الذكي،

والشريف، والغني.

- والأحدب.

- لا يمكنك أن تقولي هذا قبل أن تريه: فأنت تعرفين مدى ميل الناس إلى المبالغة في إظهار عيوب الآخرين. ثم إن الجمال الجسدي ينتهي إلى إثارة الضجر. أما جمال الروح بالمقابل... وما أدراني أنا...، أظن أنه يثير الإعجاب أكثر فأكثر في كل يوم، ولا تجبريني على مواصلة الكلام، لأن هذه القضية كلها صارت تتعبني! - وتمضي في الممر وهي تقرع جرساً صغيراً لاستدعاء الخدم، فتطلب طست ماء ممزوج بالخل ومنديلاً من الكتان لتخفف من آلام جبهتها وصدغيها، وتقول متذمرة:- ستقضون عليّ كلكم معاً! رباه! يا لنكران الجميل!

وعندئذ لا تجد مرغريتا حجة تتذرع بها. وبعد ذلك ينقل إفرين كاستيلس أخبار هذه المشاحنات إلى أونوفري.

وأخيراً قال أونوفري بوفيلا:

- حسن، لقد حان وقت انتقالنا إلى العمل.

في ليلة اليوم المتفق عليه، وجدا البوابة مفتوحة: فقد تكفلت الخادمة برشوة البوّاب، والبستاني، وحارس الغابة؛ وتم تكميم أفواه الكلاب. كان إفرين كاستيلس يحمل سلماً يدوياً طوله خمسة أمتار؛ وكان عليه أن يتوقف كلما سار ثلاث خطوات ليكتم ضحكاته بمنديل. سأله أونوفري بوفيلا: هل يمكنني أن أعرف أي شياطين أصابتك؟ فرد مارد كاليّا بأن الوضع الذي هما فيه يُذكّره بالأزمنة الماضية: عندما كنا أنا وأنت نسرق ساعات وأشياء أخرى من مخازن المعرض الدولي، هل تتذكر؟ فأجابه أونوفري: من يفكر في ذلك الآن. وكانت قد مضت إحدى عشرة سنة على ذلك، وما يقومان به الآن يبدو أشبه بالتهريج. نبه هذا الجدال الكلاب، فبدأت تنبح. فظهر على شرفة الطابق الأول دون هومبرت ملتفاً بروب من الحرير، وسأل: ما الذي يحدث؟ فخرج البواب من حجرته، وخلع قبعته: لم يحدث أي شيء يا سيدي، لا بد أن الكلاب رأت بومة. وعندما انسحب دون هومبرت، تابع أونوفري وإفرين كاستيلس تقدمهما، وقال المارد: يبدو لي وكأن ذلك كان يحدث البارحة. كانت

الخادمة تنتظرهما عند سور البيت: على خلفية العشب كان يبرز مئزرها وعمرتها. أشارت إلى النافذة ورفعت يدها إلى خدها: لتشير بذلك إلى أن من في الغرفة نائم. أسند إفرين كاستيلس السلم إلى الجدار، وتأكد من توازنه وثباته. وقال أونوفري: انتظراني هنا، لا تتحركا من هنا إلى أن أنزل. وبينما هو يصعد، ثبت مارد كاليّا السلم. لقد فقد رشاقته بمرور السنوات، ولم يشأ النظر إلى أسفل كي لا يصاب بالدوار، وفكر: يا للشيطان! وأنا أيضاً يبدو لي أن ذلك حدث البارحة. أخرجته من هذه التأملات صدمة في وركه: فقد اصطدمت إحدى درجات السلم بعقب مسدسه. فأخرجه من جيبه وصعد. وعندما رأى إفرين كاستيلس يرفع رأسه باتجاهه، أفلت المسدس، فالتقطه المارد في الهواء. واصل الصعود بعد ذلك حتى النافذة: كانت مغلقة؛ فلم يكن بإمكان الحر، ولا الاعتبارات الصحية التي كانت تنشرها الصحف في ذلك الحين، أن تجعل مرغريتا تنام ونافذتها مفتوحة. فكان عليه أن يناديها عدة مرات، قبل أن تطل بوجهها المتشح بخدر النوم والدهشة، وهتفت: أونوفري! أهذا أنت! ما معنى مجيئك المفاجئ هذا؟ فأومأ أونوفري بحركة تنم عن نفاد الصبر، وقال: افتحي النافذة ودعيني أدخل، أريد التكلم معك. فهمس المارد والخادمة من أسفل: إيه، أنتم هناك، ستوقظان الجميع بهذه الأصوات. فتحت الفتاة النافذة قليلاً وقرّبت وجهها منها: كان شعرها المفلت ينسدل على كتفيها؛ فكان لونه النحاسي يشكل ضداً لبياض بشرة عنقها؛ وكان الحر والنوم قد ألصقا خصلات منه على جبينها: لم يكن يتذكر بأنه رآها بمثل هذا الجمال.

– دعيني أدخل – قال ذلك وفي صوته نبرة من النشوة. فرمشت هي بحذر، وقالت هامسة: لا يمكنني عمل ذلك. كانت قد مضت عدة سنوات دون أن يرى أحدهما الآخر، فقد كان اتصالهما يقتصر على الرسائل؛ وحين تقابلا الآن وجهاً لوجه، وجدا صعوبة في التواصل بالكلام. أحس أونوفري بأن دماءه تتأجج مثلما حدث له في ذلك المساء الذي هشم فيه المرآة بتمثال المرمر، وسألها بنبرة عدوانية أخافتها:– هل صحيح أنك ستتزوجين من أحدب؟ فأحست الفتاة للمرة الأولى بجسامة ما كانت أمها تخطط له، فتلعثمت: رباه! رباه! ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا أعرف كيف أتجنب ذلك.

فابتسم أونوفري وقال:- دعي هذا الأمر لي؛ وأخبريني فقط إذا ما كنتِ تحبينني. فضمت يديها مقاطعة أصابعهما، ورفعتهما فوق رأسها وكأنها تتضرع إلى السماء؛ ثم أغمضت عينيها ودفعت رأسها إلى الوراء، مثلما فعلت قبل عدة سنوات، عندما احتضنها بين ذراعيه أول مرة، وقالت بصوت أبح بدا وكأنه يخرج من أعماق صدرها: آه، أجل! آه، أجل يا حبي، يا حياتي، يا رجلي الحبيب! فافلت هو السلم الذي كان يمسك به، ومدّ ذراعيه من فتحة النافذة: مزق بأصابعه قميص نومها، فانكشف كتفاها الأبيضان. كاد أن يفقد توازنه بسبب تلك الحركة العنيفة. فانتبهت هي إلى الخطر وأمسكت بذراعيه، وجذبته نحوها: وتمكنت بقوة اليأس البهيمية من إدخاله عبر النافذة؛ فوجدا نفسيهما دون أن يدريا كيف، متعانقين في مخدعها؛ أحست هي بلهاثه على كتفيها العاريين، فاستسلمت منهارة ولكن دون غَمّ. وبينما هما يمارسان حتى الفجر ذلك الحب المكبوت لزمن طويل، كان القطار الذي يتوجه فيه نيكولاو كانالس إي راتابلان إلى برشلونة قد وصل إلى بور-بو. وهناك أنزلوا جميع الركاب لاستبدال القطار، لأن عرض السكة الحديد يختلف في فرنسا عما هو عليه في إسبانيا. سأل كم ستستغرق عملية التبديل وانطلاق القطار الآخر، فأجابوه بأن ذلك يتطلب نصف ساعة أو أكثر؛ فقرر السير على الرصيف، ليحرك ساقيه، ويخلص جسده من الخدر. فقد اضطر أن يتقاسم المقصورة ذات السريرين في القطار مع شخص قال في أول الأمر إنه تاجر، ثم قال إنه وكيل قنصلي، وأزعجه أولاً بثرثرته وبعد ذلك بشخيره. ولكنه قال لنفسه مذعناً: ما كان بإمكاني على أي حال أن أجد سبيلاً إلى النوم. خلّف مبنى المحطة وراءه ووصل إلى مصطبة مستوية يمكن منها رؤية البحر المتوسط مستحماً بضوء الفجر الصارم وغير المخادع. كان يطأ أرض كتالونيا بعد غياب سنوات طويلة؛ فأحس بأنه غريب: الذكرى الوحيدة من برشلونة التي يحتفظ بها بصفاء هي ذكرى أبيه، ذكرى الأمسيات التي كان يترك فيها عمله ويأخذه إلى أرجوحة دوارة مضاءة بفوانيس ورقية، يحركها حصان عجوز: آلة صغيرة ووسخة كانت تبدو له في ذلك الحين أجمل شيء في الدنيا، والآن أيضاً؛ بينما هو يتأمل ذلك الصباح الصافي والواضح، فكر في أنه قريب من نهاية حياته، وأنه لن يعود أبداً إلى باريس الضباب والمطر التي

أحبها كثيراً. ارتعش في أول الأمر، ثم هز كتفيه: بما أنه مصاب بوسواس المرض، فقد كان معتاداً على هذه المشاعر الكئيبة وعلى نوبات الحزن المفاجئة، إلى حد لم يعد يوليها معه أية أهمية. عندما انطلق القطار، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. وكان إفرين كاستيلس يتطلع عند ذلك بعصبية نحو النافذة، ويفكر: عما قريب ستدب الحياة في البيت، وسيكتشفون وجودنا في أشد الأوضاع إثارة للشبهة، فماذا سنفعل؟ كان قد أمضى الليل في الحراسة في الحديقة، إلى جانب الخادمة، ولم يستطع كبح غرائزه. وكان قد قال لها: إنها رائحة الياسمين، وصفاء بشرتك. وكانت الخادمة تبكي وهي عارية وراء بعض الشجيرات: عاجزة في اضطرابها ذاك عن ارتداء ثيابها. ولم يكن ذلك البكاء غير مبرر: فقد حبلت وفقدت عملها نتيجة تلك اللقاءات الهذيانية. وعندما ذهبت لتخبر إفرين كاستيلس وتطلب منه المساعدة؛ خشي هو أن يصل الخبر إلى زوجته، واستشار أونوفري بوفيلا في الأمر. فنصحه هذا: أعطها ما تحتاج إليه من المال واطلب منها أن تلتزم الصمت. وكان هذا هو ما فعله. وقد أنجبت ابناً. ومع مرور السنوات، ورث هذا الفتى طول قامة أبيه وقوته الجسدية، ووصل به الأمر إلى اللعب مع ثامورا وساميتير والكانتارا في نادي برشلونة لكرة القدم، الذي تأسس تحديداً في تلك السنة التي حبلت به أمه. حاول إفرين كاستيلس أن يعيد إلى أونوفري المسدس الذي كان قد ألقى به وهو على السلم، ولكنه رفض أخذه منه، وقال: لا أريد أن أحمل مسدساً على الإطلاق منذ اليوم. فليحمل آخرون المسدسات من أجلي.

نزل نيكولاو كانالس إي راتابلان في غرفة فسيحة ومنيرة في فندق آراغون الكبير. وكان يتناول الفطور على الشرفة وهو ينظر، تحت قدميه، إلى حركة المرور المتلونة في شارع رمبلاس؛ ويستنشق رائحة الزهور المختلطة، ويسمع تغريد الطيور المتنوعة: وقد أعاد إليه كل ذلك طيب المزاج. فكان يفكر: سأمضي هنا بضعة أيام لطيفة ثم أرجع بعدها إلى باريس. فالتغيير لوقت قصير مفيد على الدوام؛ وعند عودتي سألقى باريس بمحبة أكبر، وربما تستقبلني أمي، بعد غيابي، بحنان ومحبة. أما النُذر المتشائمة التي أحس بها في محطة بور-بو، فبدت له الآن نتيجة سهاده آنذاك. لم تكن

تخميناته الأخيرة بعيدة عن الصواب: فأمه نادمة الآن لأنها تركته يسافر. فبعد مرور عدة أيام على سفره، بحثت عن كاسيمير وأخذته إلى بيتها في شارع ريفولي قائلة له: هنا ستكون على ما يرام، أنا سأعنى بك، ويمكنك أنت أن تتفرغ للكتابة. وفي منتصف الليل استيقظت مذعورة ولم تجده إلى جانبها. فارتدت روباً فوق قميص نومها وخرجت من غرفة النوم بحثاً عنه. وجدته واقفاً في الصالة الصغيرة إلى جانب النافذة: كان يبدو كما لو أنه ينظر بذهول إلى النجوم. فسألته:

- *Qu'avez-vous, mon cher ami?*[1] - ولأن كاسيمير لم يجبها، فقد وقفت إلى جانبه وتناولت يده بحنان بين يديها. لاحظت أن يد الشاعر الشاب تتوقد حرارة، فأدركت أنها إنما فقدت ابنها وعشيقها خلال وقت قصير. وفي اليوم التالي كتبت رسالة إلى نيكولاو قالت فيها: ***ارجع إلى باريس؛ ما نفعله هو خطأ وجنون.*** ثم تضيف الرسالة: ***يجب أن تعرف أيضاً يا نيكولاو، يا بني، بأن لي منذ بعض الوقت عشيق اسمه كاسيمير، ولم أتجرأ من قبل قط على التحدث إليك عنه، خوفاً من عدم تفهمك، وقد كنتُ في هذا الأمر ظالمة معك أيضاً. لقد أردتُ إجبارك على قبول ذلك الزواج الذي كنتَ تمقته مثلي، ولكنني فعلتُ ذلك بدافع الأنانية، لأنني أردت أن أسترد حريتي بذهابك. وها هو كاسيميرو يوشك على الموت الآن من الوهن، وسأبقى وحيدة تماماً. السنون تثقل كاهلي، وأنا بحاجة إليك إلى جانبي...*** ولكن هذه الرسالة التي كان يمكن لها، في ظروف أخرى، أن تكون مصدر سعادة لنيكولاو، وصلت متأخرة وبعد فوات الأوان.

كانت أسرة هومبرت فيغا إي موريرا قد رجعت من بيتها الريفي في بوداليرا عندما كتب إليهم يخبرهم بوصوله إلى برشلونة. وقد أرسل إلى زوجة دون هومبرت ملاحظة يضع فيها نفسه عند قدميها، ووصلت إليها تلك الملاحظة مع باقة من الزهور.

- لا يمكن إنكار أنه شاب رقيق ومهذب - قالت الزوجة ذلك. وفي اليوم التالي بعثوا إلى نيكولاو دعوة للحضور، في تلك الليلة بالذات، إلى مقصورة

---

[1] بالفرنسية في الأصل: «ماذا أصابك يا صديقي العزيز؟»

دون هومبرت، خلال الاستراحة بين الفصلين، حيث ستُقدم بعض المشهيات الباردة. وقد وجد صعوبة في إدراك أن المكان المقصود في الدعوة هو مسرح الليسيو الكبير، والذي كان قد فكر بحضور حفلته الافتتاحية. فكان عليه أن يرسل خادماً ليشتري له بطاقة دخول في الصالة، وأمر قسم الخدمة في الفندق بأن يكووا له بدلته الرسمية بأقصى سرعة. وكان تفصيل تلك البدلة قد تطلب جهوداً كبيرة بسبب تشوه قامته؛ وهي الآن تبدو أشبه بأسمال، مهما بذلوا من جهود في كيّها.

حين وصل إلى مدخل الليسيو وجده محروساً بثلاثة أحزمة من رجال الشرطة. ففكر بأن اعتداء قد حصل، مثل ذاك الاعتداء الذي قام به سنتياغو سلفادور، قبل خمس سنوات في هذا المسرح بالذات، والذي سمع أحاديث كثيرة عنه يتداولها الكتلانيون الذين ينزلون في بيتهم في شارع ريفولي لدى مرورهم من باريس. ولكن ما كان يجري الآن في الحقيقة هو زيارة ملكية، يقوم بها نيقولا الأول، أمير مونتينغرو الذي تكرَّم بأن يُشرِّف بحضوره تلك الحفلة الافتتاحية، التي تشكل ذروة احتفالات عيد الشكر. وقد استطاع أن يصل إلى مقعده في الوقت الذي بدأت فيه أضواء الغاز تخفف من بريقها، وأخذت غلالة من العتمة تسود القاعة الفخمة تدريجياً. لقد كانوا يقدمون في تلك الليلة بالذات، في الليسيو أوبرا «**عطيل**» لجوسيب فيردي. وكان نيكولاو قد تابع بحماس في السنوات الأخيرة في باريس أعمال كلود دوبوسي، الذي يعتبره أعظم موسيقي في التاريخ، مع استثناء بيتهوفن. فقد حضر بكل ورع حفلات افتتاح كل أعماله، ما عدا «بيلياس وميلساند»؛ إذ اضطره زكام غير متوقع إلى البقاء في الفراش في تلك الأيام؛ ولكنه لم يتوقف عن إلحاحه آنذاك إلى أن خرجت أمه إلى الشارع، بالرغم من البرد القارس، واشترت له كتيب موسيقى وكلمات الأوبرا، وبقراءة «بيلياس وميلساند» تحمل ضجر فترة النقاهة. أما موسيقى فيردي، فتبدو له الآن شديدة الصخب والتفخيم. وفكر: كان عليّ ألا أحضر. وعندما أضيئت الأنوار، استعد للقيام بالواجب الاجتماعي المتفق عليه مسبقاً. ولجهله الكامل بكل ما له علاقة بالحياة الاجتماعية البرشلونية، فقد اضطر إلى السؤال في الممرات عن مقصورة أسرة فيغا إي موريرا. ومع اقترابه منها راح يسيطر

عليه إحساس بالغضب والعار. وكان يتساءل: أي شياطين تدفعني إلى الذهاب لأكل من يد قتلة أبي؟ وكان يأمل بأن تكون المقصورة ممتلئة بالمدعوين، فيمر حضوره دون أن يلفت الأنظار. ولكنه لم يجد في الردهة الملحقة بالمقصورة سوى دون هومبرت وزوجته ومرغريتا، وخادم يرتدي زياً من طراز فيدريكا؛ وكان الخادم يحمل بين يديه صينية بسكويت وقطع حلوى صغيرة. لم يعلم نيكولاو بأن دون هومبرت قد أرسل دعوات كثيرة، وأنه تلقى عدداً مماثلاً من الاعتذارات. وكانت الأسرة الآن وحدها. حاول أن يقول بعض العبارات البرتوكولية التي يتطلبها الوضع. فقالت السيدة وهي تتناول الصينية من يدي الخادم وتتولى بنفسها تقديم الضيافة له:

- لا بد أن هذا العرض كله سيبدو ريفياً جداً لمن هو قادم من باريس.

- ولا بأي حال يا سيدتي؛ بل على العكس تماماً، صدقيني. - ردّ على مضيفته شاكراً لفتتها الحميمة.

قدم لهم الخادم شمبانيا، ورفعوا نخباً متمنين للشاب نيكولاو إقامة سعيدة في برشلونة. وقالت السيدة وهي تدبل جفونها بحركة خبيثة: إقامة نثق بأنها ستكون سعيدة ومديدة أيضاً. وفكر نيكولاو: الزوج مجرد قواد أصاب ثراء، وهي بائعة سمك مزهوة، والابنة متغنجة متدربة يحاول أبواها الحصول على أعلى سعر ممكن مقابلها. عندئذ قُرع الصنج معلنا الاستئناف الوشيك للاستعراض، فتذرع بذلك ليودعهم. لكن دون هومبرت أمسكه من ذراعه قائلاً:

- ولا بأي حال، ابق في المقصورة. فأنت ترى أن لدينا أماكن، وستكون هنا في وضع مريح أكثر ألف مرة من مقعد في الصالة. هيا، هيا، لن تفيد اعتراضاتك في شيء، فقد حسم الأمر.

لم يجد بداً من القبول، واحتل مقعداً وراء الذي تشغله مرغريتا. وعندما انطفأت الشمعدانات والمصابيح وارتفعت الستارة، استطاع أن يرى، على انعكاس ضوء الكواليس، انحناءة كتفيها التي يكشف عنها فستان السهرة. كانت تجمع شعرها في عقدة كبيرة، يحيط بها إكليل من حبات لؤلؤ صغيرة، ولكنها منتظمة جداً ومتماثلة فيما بينها؛ فيكشف ذلك عن قذالها وعن جزء من ظهرها. صوب نظره إلى كتفيها وهام مستسلماً للموسيقى؛

وكانت الشمبانيا قد أغرقته في خدر لذيذ. وفي ما بعد، أخرج إلى شرفة غرفته في الفندق المنضدة ومقعد الخيزران اللذين اعتاد تناول الفطور عليهما، وأحضر أدوات الكتابة، وأشعل المصباح، واستنشق هواء شارع رمبلاس الدافئ في تلك الليلة من ليالي مطلع الخريف. وكانت آخر عربات الأجرة تحطم بين حين وآخر الصمت السائد. كتب: *هذه الليلة، وبينما كنا نستمع إلى «عطيل» فيردي، في مقصورة أبويك المحترمين، راودتني رغبة الانحناء إلى الأمام وتقبيل كتفيك. وأنا أعرف أن ذلك كان سيبدو سخافة في غير محلها، ولهذا لم أُقدم عليه. ولكنه ربما كان أيضاً الطريقة الوحيدة لجعلك تتوصلين إلى محبتي في يوم من الأيام، ولكن ذلك كان يتطلب مني أن أكون مختلفاً عما أنا عليه، وأن أكون قادراً على مجاراة غريزتي بدلاً من تكوصي آنذاك، وإقدامي الآن على الاعتراف الجبان بخطيئتي عبر رسالة. ولكنني لم أعد أجد غضاضة في الاعتراف لك بالحقيقة كلها: فمشروع الزواج هذا الذي جرى تدبيره دون موافقتك، وأنا متأكد الآن من ذلك، كنت أرفضه أنا أيضاً بأقصى ما أستطيع؛ وحين كنت أرفضه لم أكن أظن بأي حال بأنني في هذه الليلة، وبينما نحن نستمع إلى «عطيل» فيردي سأقع في حبك مثلما جرى لي، دون أن يكون لإرادتي أي دخل في ذلك.* توقف عن الكتابة، رفع ذراع الريشة إلى شفتيه، وفكر لبضع ثوان ثم واصل الكتابة: *هذا سيعقد الأمور كثيراً ابتداء من هذه اللحظة* ترك الريشة جانباً، ثم نهض، تناول المصباح، ودخل إلى الغرفة، واجتازها بخط مائل من زاوية إلى أخرى، ثم رفع المصباح عالياً، إلى أقصى ما يستطيعه ذراعه: فعكست المرآة صورته، وكان ما يزال يرتدي سترة الفراك الرسمية. وأحس للمرة الأولى في حياته بالحسد تجاه الأصحاء الذين لا يعانون من عاهات جسدية ظاهرة. ولم يشعر تجاه نفسه بالأسى وإنما بالغيظ، وقال بصوت خافت متوجهاً إلى الصورة التي يراها في المرآة: انظر إلى شكلك هذا، تبدو وكأنك قد تبولت للتو في بنطالك... ثم رجع إلى الشرفة، وتناول الريشة في يده، وواصل الكتابة: *إنني أعرف الآن أنني لن أعود أبداً إلى باريس.*

عندما انتهى من تدوينه المضطرب للأفكار والأحاسيس التي تتضارب في رأسه، كانت الرسالة قد بلغت عدة صفحات. وكان الفجر قد بدأ بالبزوغ،

واضطر إلى ارتداء روب الحمام ليحتمي من رطوبة الليل ومن الندى. وكانت حركة المارة قد بدأت في شارع رمبلاس عندما أنهى الرسالة في الساعة الثامنة إلا ربعاً، فطواها دون أن يعيد قراءتها، ودسها في مغلف. دخلت النادلة تحمل له طعام الفطور، وسألته:

- هل يرغب السيد في تناول الفطور على الشرفة كالعادة؟

- لا تزعجي نفسك، دعيه هناك. سأتدبر الأمر. وأرجوك أن تعملي على إيصال هذه الرسالة إلى العنوان المذكور على المغلف، وأن تتأكدي من تسليمها إلى الشخص المذكور باليد.

فقالت النادلة وهي تشير إلى الصينية:

- لقد وصلت رسالة إليك يا سيدي أيضاً.

تناول الرسالة وهو يظن أنها من أمه. ولكن نظرة واحدة كانت كافية ليعرف أن مرغريتا هي من أرسلتها. فقال للنادلة: يمكنك الانصراف الآن. فسألته هي: وماذا عن الرسالة؟ فقال: سأتولى أنا تسليمها إلى مكتب الاستعلامات فيما بعد. وكانت الرسالة التي تلقاها طويلة أيضاً. وفكر: لا بد أنها هي أيضاً لم تستطع النوم هذه الليلة. وكانت تعتذر مسبقاً عن جرأتها في الكتابة إليه؛ وتعترف بأن بعض الشكوك كانت تراودها بشأنه، وبشأن صدق نواياه، ولكنه في هذه الليلة، في مقصورة مسرح الليسيو، بدا لها *شخصاً مهذباً، وحساساً، وطيب القلب*؛ وتقول إن هذا هو سبب جرأتها الآن في الإقدام على التوسل إليه لطلب مساعدته. وتضيف الرسالة: *إنني أحب رجلاً منذ سنوات، وهو يحبني أيضاً*. وتضيف: *إنه من أصول بائسة وضيعة، ولكنني سلمته، بالسر، قلبي وشيئاً آخر لا أستطيع أن أذكره لك*. والوضع الذي أوصلت أمها إليه الأمور، *تحركها النوايا الطيبة دون شك*، هو وضع خاطئ ولا يمكن له إلا أن يكون قاسياً بالنسبة إليها. وتنتهي إلى القول: *إذا أنت لم تساعدني في هذا المأزق الذي أنا فيه، فإن حياتي كلها ستنتهي، لأنني لا أستطيع النضال بمفردي ضد القدر. لأن ذلك يفوق طاقتي وقواي. فهل ستفعل يا صديقي العزيز؟* مزق الرسالة التي أمضى الليل بطوله في كتابتها، وكتب رسالة أخرى موجزة، يشكرها فيها على ما تبديه من صراحة ويرجوها أن تعتبره منذ تلك اللحظة *صديقاً وفياً ونزيهاً*. وأضاف: *إنني أمنعك من أن*

تستخدمي معي لهجة التوسل لأنني أنا الذي أعتبر نفسي مديناً لك بطريقة ما. وأنا الذي يجب علي أن أتوسل إليك للتخلي عن موقفك المستسلم القدري. وانتهى قائلاً: *جميعنا نتحمل مسؤولية الواجب المقدس في أن نكون سعداء، ولو اضطررنا أحياناً إلى ممارسة العنف ضد الظروف*. أعاد قراءة هذه الرسالة، فوجدها متكلفة وغير صادقة. ولكن كل محاولاته التالية لم تعط نتائج أفضل. فاستحم عندئذ، وارتدى بدلة عادية ونزل إلى بهو الفندق. وهناك قال لموظف الاستقبال: اعمل على إيصال علبة سكاكر مع بطاقتي إلى هذا العنوان. وخربش عبارة مجاملة شكر فيها أسرة فيغا إي موريرا للاهتمام الذي أحاطته به في الليلة السابقة في مقصورة المسرح. ثم طلب عربة وطلب من الحوذي أن يوصله إلى مقبرة سان خيرفاسينو. كان بعيداً عن المدينة، وكان الهواء رطباً وحاراً عندما وصلها في الضحى. وكان عليه أن يسأل هناك عن قبر أبيه بين كل تلك القبور؛ لأنه لم يحضر هو وأمه الجنازة لأسباب أمنية عند موت أبيه؛ والواقع أنهما لم يغادرا باريس، حيث كانا يقيمان قبل عدة أيام من ذلك. ويدأ الآن يفكر: بل إنني لا أعرف من تولى أمر جنازته ودفنه. وتصور أن القتلة أنفسهم هم الذين تكفلوا بإجراءات المأتم. قدم إكرامية إلى حفار القبور الذي رافقه ليدله على القبر. وكان حفار القبور يقضم في أثناء ذلك سندوتشاً دسمة. فأحس بوخزة الجوع لأنه لم يكن قد تناول فطوره؛ وخطر له أن يقدم نقوداً لحفار القبور مقابل السندوتش الرخيصة التي يلتهمها بتلذذ؛ ثم أحس بالخجل من هذه الفكرة الغريبة التي خطرت له في مثل هذا المكان، أمام قبر أبيه الذي يزوره للمرة الأولى. «اعذرني يا أبي، ولكن ليس هناك ما يمكنني عمله لتجنب ذلك»، تمتم بهذه الكلمات أمام الضريح الذي كُتب على بابه بحروف برونزية: «آل كانالس». ثم أضاف وهو يشعر بغصة في حلقه: «إنني غارق في الحب إلى حد اليأس». ثم قال لحفار القبور الذي ما يزال إلى جانبه وهو يشير إلى الضريح:

- كم شخصاً يتسع هذا الضريح؟

- إنه يتسع لكثيرين - ردّ عليه الرجل. فطمأنه هذا الجواب دون أن يكون ثمة مبرر لذلك. وفكر بأن الإشارات التي أحس بها قبل بضعة أيام في

محطة بور–بو سوف تتحقق عما قريب، وهي الإشارات نفسها التي كان تعقله قد استبعدها آنذاك. وقال لحفار القبور:

– احرص على وضع الزهو هنا دائماً. وأنا سأحضر بين حين وآخر.

صعد إلى عربة الأجرة التي كانت تنتظره في الأرض الخلاء خارج المقبرة. لم يكن المطر قد هطل طوال أسبوعين، فكان حذاؤه يغوص في غبار بيضته الشمس. ولدى وصوله إلى الفندق سلموه رسالة أخرى. وكانت هذه من أمه فعلاً: إنها الرسالة التي تخبره فيها بوجود كاسيمير وبمرضه، والتي تتوسل فيها إليه أن يرجع إلى باريس. فرد عليها في اليوم نفسه: ***الظروف تفرض علي في الوقت الراهن أن أؤجل عودتي إلى أجل غير معروف***. وعبر في هذه الرسالة عن أفضل تمنياته بالشفاء السريع والكامل لكاسيمير الذي لم يحظَ بالتعرف إليه. وأضاف: ***وآمل في إصلاح هذا التقصير، وأنا أفكر مثلك، بأنه يجب توفير كل العناية التي يستدعيها مرضه بغض النظر عن التكاليف. فتصرفي أنتِ يا أماه بكل ممتلكاتي، التي هي ممتلكاتك أيضاً***. وأنهى الرسالة بالقول: ***ولكن لا تطلبي مني الآن أن أعود إلى باريس: فأنا سأكمل عما قريب العشرين من عمري، وقد حان الوقت لأن أعيش حياة مستقلة***. وفي مساء هذا اليوم بالذات تلقى في الفندق زيارة دون هومبرت فيغا إي موريرا الذي قال له دون مواربة:

– لقد جئت لزيارتك يا صديقي العزيز، كمحام وكأب؛ بهاتين الصفتين معاً. فإذا كانت نواياك تجاه ابنتي صادقة، ولستُ أشك في أنها كذلك، فإن هناك أموراً كثيرة يتوجب علينا مناقشتها، وأعني المتعلقة منها بوضعك وثروتك.

نظر نيكولاو كانالس إي ريتابلان إلى محدثه بشرود. وكان يفكر في دخيلته: لا شك في أن هذا الوغد وزوجته قد انتبها إلى التأثير الذي أحدثته ابنتهما فيّ ويريدان أن يرفعا من ثمن البضاعة. وكان مستعداً لأن يعبر بكل سعادة عن احتقاره لهما، ولكنه كان يعرف أن ذلك سيعني فقدانها إلى الأبد. وفكر: لا يمكنني أن ألمح بصيص أمل إلا من خلال تواطؤ هذين الأبوين الدنيئين والجشعين. ولكن لم يكن هذا هو ما يريده مع ذلك. فضعف شخصيته الذي يمنعه من التخلي عن ذلك الحب المستحيل والعودة إلى باريس

دون تـأخير، هـو نفسـه الـذي يمنعه كذلك من امتلاكـها بتلـك الطريقـة التـي يعتبرهـا مستنكرة. وفكر: لو أنني أحبها مثلما تستحق، لما ترددت فـي بيـع روحي للشيطان. ولأن الخيار أربكه، فقد قرر الرد على كل شيء بإجابـات مراوغة، لكسب الوقت. ولم يتكلف أي مشقة فـي إظهار سذاجة كانت مـن خصاله الحقيقية حتى اليوم السابق.

– أظن أن أمي وزوجة حضرتك قد توصلتا إلى تفاهم فـي هذا المجال – قال ذلك، ثم أضاف أنه لا يستطيع على أي حال أن يتطرق إلى هذا الموضوع قبل أن يقوم بسلسلة من اللقاءات مع مصرفييه فـي برشلونة. فسارع دون هومبرت إلى التراجع، وقال إنه جاء فـي الحقيقة إلى الفندق ليسلم عليه، منتهزاً فرصة مروره قريباً من المكان. وإنه يريد أن يشكره بنفسه على السكاكر التي تلطف بإرسالها، والتأكد من أنه ليس بحاجة إلى شيء. وبينما هما يتحدثان، كان أونوفري بوفيلا المطلع على كل خطوة يقوم بها منافسه، ويتأهب لوضع خطته موضع التنفيذ. وكان قد تلقى قبل يومين من ذلك رسالة مشفرة من غارنيت، الوكيل الأمريكي لحاكم جزيرة لوزون السابق. كانت رموز الرسالة تقول: كل شيء جاهز، وأنا بانتظار التعليمات. قرع أونوفري بوفيلا جرساً صغيراً، فهرع إليه سكرتيره يسأله:

– هل استدعيتني يا سيدي؟

فقال له:

– أجل. أريدكم أن تبحثوا عن أودون موستاثا وتحضروه إلي.

فـي صباح اليوم التالي أيقظت نيكولاو كانالس ضجة قوية؛ ودون أن يخبره أحد بذلك عرف أن ما سمعه هو تبادل إطلاق نار. ثم سُمع بعد ذلك وقع خطوات متعجلة وأصوات: لم تستغرق الصدمة سوى بضع ثوان. فقفز من السرير، ووضع الروب على كتفيه وخرج باندفاع إلى شرفة الفندق. وقد أخبره رجل يطل من الشرفة المجاورة بما حدث قائلاً:

– لقد قتل الفوضويون شرطياً. وها هم يحملون الآن جسده على نقالة.

نزل الأدراج بأقصى سرعة وخرج إلى الشارع، ولكنه لم يستطع أن يرى سوى حلقة من الفضوليين يحيطون ببقعة من الدم. وكان الجميع يتكلمون فـي

وقت واحد، ولكنه لم يستطع أن يستخلص أي شيء واضح من الروايات المشوشة والمجزوءة. لقد أثر فيه ذلك الحادث كثيراً؛ وأحس منذ تلك اللحظة بالاندماج للمرة الأولى في حياة المدينة. وفي مساء ذلك اليوم بالذات ذهب إلى خياط في الشارع العريض يدعى تينيبروس وأوصى على عدة بدلات؛ ثم اشترى من محل روبيرتو ماس للقمصان في شارع بيريتيريا بضع عشرات من القمصان والملابس الأخرى: وكان كل شيء يشير إلى أنه يستعد لقضاء فصل الشتاء في المدينة. وحين رجع إلى الفندق وجد بطاقة دعوة: السيدان فيغا إي موريرا يرجوانه الحضور إلى العشاء الذي سيقام يوم السبت القادم في بيتهما، وهما يقيمان الآن في شارع كاسبي. وفكر مرة أخرى: يجب علي عدم الذهاب، فهذه هي فرصتي الأخيرة لكي أبين بوضوح وبصورة لا لبس فيها موقفي من هذه القضية المبهمة. ولكنه تذكر كتفيها وأحس بأنه سيموت حزناً. وردّ على الدعوة فوراً بأنه لن يتخلف. وكهدية أرسل إلى الأسرة قفصاً معدنياً مذهباً وفيه حسون؛ وقد أكدوا له بأنه من نوع نادر جداً ومرغوب؛ يأتون به من اليابان، ويغرد ألحاناً مثيرة ومشحونة بالحنين.

– 6 –

في ذلك الوقت بالذات، كان أوسوريو الشرير، الحاكم السابق لجزيرة لوزون الفليبينية، ووصمة عار الطبقة العسكرية، قد تلقى طرداً بالبريد، وكان الطرد يضم سلحفاة ميتة، وقد طلي درعها باللون القرمزي. اعترى الشحوب وجه خادم الحاكم السابق الفليبيني لدى رؤيته السلحفاة. وتظاهر أوسوريو بعدم المبالاة أمام الخادم، ولكنه تحدث في ذلك المساء بالذات مع المفتش ماركيس، أحد رجال الشرطة الذين يرتادون ناديه بالذات. وقال له: هذا يعني الثأر عند قبائل الملايو.

فقال الشرطي:

– ربما هناك من يحتفظ بذكرى سيئة من زمن ولايتك.

– ترهات يا صديقي، مجرد ترهات – ردّ الحاكم السابق – فسجلي

الوظيفي لا تشوبه شائبة. صحيح أنني كنت أكتسب بعض العداوات أثناء ممارستي لواجباتي الوظيفية، ولكنني أؤكد لك بأنه ليس هناك بين من ضايقتهم أثناء قيامي بواجباتي من يملك من المال ما يكفي لدفع نفقات السفر إلى برشلونة.

فقال المفتش ماركيس:

- المهم على أي حال هو أننا لا نستطيع القيام بأي تحقيق لمجرد أنك تلقيت قمامة عن طريق البريد.

بعد أيام قليلة من ذلك تلقى الحاكم السابق طرداً آخر. وكان فيه هذه المرة دجاجة ميتة، منتوفة الريش، مع شريطة سوداء معقودة حول عنقها. فصاح خادم الحاكم السابق:

- إنها علامة الموت. العلامة التي تعني أننا صرنا في عداد الموتى يا سيدي الجنرال؛ وأنه لا جدوى من أية مقاومة.

- لقد تكلمت مع رؤسائي في مسألة السلحفاة الشهيرة تلك، ومثلما قلتُ لك من قبل، أبدوا تحفظاً بشأن فتح تحقيق في القضية - قال له في هذه المرة المفتش ماركيس، ثم أضاف:- وهم ينصحونك بأن تتناول الأمور من جانبها الطيب. وبالطبع، إذا ما أضفنا الآن مسألة الفروج هذه إلى مسألة السلحفاة... لست أدري...

فقاطعه الحاكم السابق:

- لم أشأ في المرة السابقة أن أعطي أهمية كبيرة إلى ما قدرت أنه مجرد دعابة تنم عن قلة ذوق، ولكن صدقني أن الأمر مع مسألة الدجاجة هذه قد تجاوز الحد. لذا أطالبك بأن تدعو رؤساءك إلى التصرف بالاهتمام الذي أستحقه أنا، إذا كانت القضية بحد ذاتها لا تهمهم.

عندما جاء المفتش حاملاً إليه ردّ رؤسائه، وجد الحاكم السابق في حالة من الهلع والارتجاف دفعته لأن يقول له: يمكن لكل من يراك أن يقول إن أرواح المطهر قد جاءت لزيارتك.

- دعك من المزاح، فقد بدأ الأمر يأخذ منحى بالغ الخطورة - قال له الحاكم السابق الذي كان قد تلقى في ذلك الصباح الطرد الثالث والأخير: وكان فيه خنزير ميت وقد أُلبس ما يشبه بدلة من أطلس باذنجاني اللون.

وكان الطرد ثقيلاً إلى حد اضطروا معه إلى نقله في عربة حتى باب البيت في شارع إسكوديبرس، حيث يعيش الحاكم السابق مع خادمه. وكان عليه أن يدفع مبلغاً إضافياً لقاء هذه الخدمة الاستثنائية؛ فاعترض على ذلك، وكانت حجته: الرسم المدفوع يغطي تكاليف النقل حتى عنوان المرسل إليه. فأجابوه: أجل، ولكنه لا يغطي تكاليف استخدام العربة. وعندما رأى الخنزير لم تعد لديه رغبة في مواصلة الجدال: فدفع ما طلبوه منه وأحكم إغلاق الأبواب والنوافذ. ثم أخرج من أحد الصناديق مسدساً عسكرياً نظامياً، عبأه، وثبته على خصره على الطريقة المتبعة في المستعمرات. ثم صفع الخادم الذي تبول في ملابسه وقال له: كن شجاعاً. فرد عليه الخادم: اعتبر نفسك مأكولاً. وقد كان هو نفسه خائفاً، بالرغم من محاولة مداراته ذلك. فهو يعرف من خلال تجربته بأن أبناء قبائل الملايو هم أناس طيبون، ومرحون وكرماء بصورة غريبة، ولكنه يعرف أيضاً أنه يمكن لهم أن يكونوا عنيفين وقساة جداً. وقد كان عليه أن يترأس، في الزمن الذي كان فيه حاكماً، بعض الاحتفالات والطقوس التي سمحت بها الحكومة المركزية في إسبانيا واعتبرتها مقبولة، كي لا تعرقل علاقات حسن النوايا مع الزعماء القبليين المحليين؛ وقد شهد في تلك الطقوس فظائع مريعة من أكل اللحم البشري؛ وهو ما زال يتذكر الآن أولئك المحاربين ذوي الأجساد الملونة بالأصبغة وهم يطلقون تجشؤات وحشية بعد انتهاء تلك المأدبة الفظيعة. وهو يتخيلهم الآن مختبئين وراء أشجار شارع رمبلاس، وعند مداخل البيوت الفخمة في شارع إسكوديبرس، وخناجرهم المخيفة بين أسنانهم. هذا ما قاله للمفتش ماركيس الذي وعده بأن ينقل إلى رؤسائه كلمات الحاكم السابق بحذافيرها. ولم يجرؤ على القول له إن الرؤساء الذين تحدث إليهم لم يولوه أدنى اهتمام؛ لأنه كان قد أوحى لجميع أعضاء النادي بأن مكانته في سلك الشرطة أكبر بكثير مما هي عليه في الواقع.

لم يكن نيكولاو كانالس يأكل ولا ينام، وهو يشعر طوال الوقت بألم مبهم لا تنفع معه الأدوية ولا التسالي. وصل يوم السبت إلى أمام بيت دون هومبرت فيغا إي موريرا وهو في حالة وهن بالغ. فتح له باب العربة خادم يرتدي زياً

رسمياً تعاقدت معه الأسرة لهذه المناسبة، فساعده على النزول؛ وفي أثناء ذلك تشابكت عصاه بساقيه، فتعثر وهو يضع قدمه على ركاب العربة، وكان على الخادم أن يحمله حتى الرصيف، وأن يلتقط له بعد ذلك قبعته عن الأرض. وقد سلمها هو نفسه مع العكاز والقفازين إلى خادمة في البهو. وكانت تلك الخادمة هي نفسها التي كان إفرين كاستيلس قد أغواها؛ وكانت تشعر حينئذ بأول أعراض الحمل. وقد فكرت وهي تتناول تلك الأشياء من نيكولاو كانالس إي راتابلان: كل هذا يحصل لي بسبب ذلك الدون جوان. ففكر وهو يرى نظرة الخادمة المشحونة بالنوايا: الجميع ينظرون إلي كما لو أنني حيوان نادر، أو كأنني ظاهرة غريبة تُعرض في مهرجان. كان أول المدعوين في الوصول: إذ لم تكن دقته الأوروبية في المواعيد قد تأثرت بعد بالتهاون الإسباني. وحتى ربة البيت نفسها لم تكن جاهزة بعد: فهي ما زالت في مخدعها تصدر الأوامر والأوامر المضادة إلى الخادمات، والخياطة، ومصفف الشعر، وتوجه الشتائم إليهم دون سبب أو مناسبة. استقبله دون هومبرت في صالون بدا أكبر بكثير مما ينبغي لهما وحدهما. واعتذر عن تخلف زوجته بنبرة طبيعية: أنت تعرف كيف هن النساء في مثل هذه الأمور. فلم يستطع كبح تلهفه وسأله عما إذا كانت مرغريتا ستتأخر أيضاً. فقال دون هومبرت: آوه، إنها تجد نفسها مرهقة قليلاً هذا المساء، ولا تدري إذا ما كانت ستتمكن من حضور العشاء، وقد رجتني أن أنقل اعتذارها إليك. وبالرغم من معرفته بأنه يرتكب خطيئة لا تغتفر، فإنه غطى وجهه بيديه وانفجر بالبكاء. وحين رأى دون هومبرت توعك ضيفه، ولم يعرف ما الذي يمكنه أن يفعله، تظاهر بأنه لم ينتبه إلى شيء، ثم قال: تعال معي، لدينا متسع من الوقت، وأريد أن أريك شيئاً لا شك أنه يهمك.

قاده إلى مكتبه وأراه هاتفاً آلياً ركّبوه للتو. كان هاتفاً بدائياً جداً ولا ينفع إلا للتحدث مع غرفة في الجانب الآخر من البهو الداخلي؛ ويتألف من سلك معدني بسيط مزود بنفير في كل من نهايتيه. وقد استُبدل قسم من زجاج كل نافذة بصفيحة رقيقة من الخشب، يمر السلك من ثقب في منتصفها. فتنقل كل صفيحة ذبذبات الصوت إلى الصفيحة المقابلة. وعندما تكون المسافة طويلة ويستدعي الوضع مرور السلك في زاوية، فلا بد عندئذ

من تجنب ملامسته لأي جسم صلب، لأن ذلك يحول دون انتقال الصوت، وفي هذه الحالة يُبقون السلك معلقاً بواسطة خيوط. عندما رجعا إلى الصالون، كانت ربة البيت قد حضرت؛ وكانت ترتدي ثوباً طويلاً، وتضع الكثير من الحلي، وتفوح منها رائحة عطرٍ منثور نفاذة. وكانت ما تزال تحتفظ بالجمال العدواني – وهو فاقع الآن – الذي شقت طريقها في الحياة بفضله. وقد تحولت الآن إلى عسل من اللطف والتودد حين رأت نيكولاو كانالس إي راتابلان: فقد بدت على الفور امرأة نشطة وسريعة الخاطر، تتصنع الخفر والحياء، محاولة أن تحيطه بشباك الإغواء، فتدعوه «بني»، وتغدق عليه حناناً مسرحياً مملاً. وكان هو يفكر: كل هذه المذلة، دون أن أتمكن حتى من رؤيتها في هذه الليلة؛ وكان يجاهد ليكبح دموعه من التدفق من عينيه مرة أخرى. وقد أخرجه من ذلك الوضع المربك وصول مدعوين آخرين. لقد ضمن دون هومبرت في هذه المرة حضور بعض الأشخاص إلى بيته، وكان قد قال لزوجته: إن نيكولاو ما يزال فتياً، وقد عاش طوال الوقت في الخارج، ولن يستطيع بالتالي تمييز المدعوين. فقد كان أولئك الضيوف هم: عضو مجلس بلدي فاسد يدين لدون هومبرت بمنصبه، وهو المنصب الوحيد الذي يمكنه توليه بإمكاناته الضئيلة، ومعه زوجته؛ ومركيز مزعوم مفلس كان دون هومبرت قد اشترى ديونه في القمار قبل سنوات، في لحظة إلهام، وصار يستخدمه منذ ذلك الحين لإضفاء أهمية على اجتماعاته، ومعه زوجته أيضاً، دونيا إولاليا «تيتي» دي روساليس؛ وقس يدعى فايتورتا، وهو رجل دين سكير، له حاجبان كثيفان، وأستاذ جامعي في كلية الطب كان دون هومبرت يقدم له الإكراميات مقابل تزويره تقارير وشهادات، وكانت ترافقه زوجته كذلك: هذه هي الدائرة المحزنة التي قيده ضمنها المجتمع البرشلوني الراقي. وكان نيكولاو كانالس يرد على العبارات التي توجه إليه باقتضاب شديد؛ أي ما يمكن القول إنه لا يثير اهتمام أحد، ولا يمكن لأحد أن يرى في ذلك الاقتضاب إهانة أو عدم لباقة. وسرعان ما توسع الحديث وتركوه وشأنه. وبقيت المضيفة وحدها هي التي تحثه بين حين وآخر على تناول المزيد من الطعام. ولكنه ترك في الطبق المأكولات اللذيذة التي قُدمت إليه. ثم انتقل الجميع إلى الصالون من جديد بعد الانتهاء من تناول العشاء. وكان هناك

بيانو كبير. ولأن المضيفة التي تعرف ميوله الموسيقية ألحت عليه بأن يعزف شيئاً، فقد وافق على عزف مقطوعة. كان يعرف أنه ليس هناك من يوليه أي اهتمام. فراح يعزف دون رغبة بعض تمارين شوبان التي يعرفها عن ظهر قلب. وعندما توقف عن العزف، خصه الحاضرون بتصفيق حار، فالتفت لكي يشكرهم على ذلك التصفيق الذي يعرف عدم صدقه، فتجمد الدم في عروقه حين رآها موجودة هناك. ترتدي ثوباً بسيطاً من الأورغنزا مشدوداً عند الخصر بحزام عريض ذي لون قرمزي. أما الحلية الوحيدة التي تضعها فهي مشبك فضي مزخرف يثبت طرفي الثوب فوق الصدر وتتدلى منه زهرة. وكان شعرها النحاسي مجدولاً في ضفيرة. اقتربت من البيانو وتمتمت ببعض عبارات الاعتذار لأنها لم تتمكن من الحضور خلال العشاء: فقد شعرت بدوار خفيف عند الأصيل، وما زالت تشعر بالوهن حتى هذه اللحظة. وكان يصدق كل ما تقوله بانصياع.

قالت:

– لقد استمعت إليك وأنت تعزف. لم أكن أعرف أنك فنان.

– مجرد هاو بائس – قال بخجل، ثم أضاف:– هل هناك مقطوعة معينة تحبين أن أعزفها؟

فانحنت فوق البيانو، متصفحة أوراق النوتات المثبتة عليه. فأحس وراء ظهره بحرارة جسدها، ومر الذراع العاري إلى جوار خده، فأحس على الفور بالجفاف في فمه من شدة الرغبة في تقبيله. وسمعها تهمس في أذنه: ألم تتلق رسالتي؟ قل لي حباً بالرب، ألم يسلموك في الفندق الرسالة التي أرسلتها إليك؟ ولمح بطرف عينه نظرة الفتاة المتوسلة، وتظاهر بأنه يركز انتباهه على ملامس البيانو. ثم قال أخيراً: بلى. فقالت هي: وما قولك؟ ما هو ردك؟ هل يمكنني الاعتماد على كرمك؟ بذل جهداً خارقاً لكي يتكلم، وقال: لست سيد أفعالي؛ فأنا لا أنام، ولا آكل، وأشعر بالتوعك طوال الوقت؛ وعندما لا أراكِ أحس بألم عميق في الصدر، افتقد الهواء، أختنق وأشعر بأنني سأموت. فألحت هي: ما هو ردك إذن؟ ففكر: يا للسماء المقدسة، إنها لم تسمع كلمة واحدة مما قلته.

أصيب الجنرال المتقاعد أوسوريو إي كليمنتي، الحاكم السابق لجزيرة لوزون، بثلاث رصاصات مسدس أُطلقت عليه من عربة مغلقة لدى خروجه من سماع القداس في كنيسة سان خوستو إي باستور. كان قد انتهى من نزول الدرجة الأخيرة من السلم الذي أمام مدخل المعبد، وسقط ميتاً على بلاط الساحة. وقد ألقى أحدهم من نافذة العربة باقة زهور بيضاء سقطت على بعد عدة أمتار من الجثة. وقد تحدث شهود عيان في ما بعد عن أغرب ما في الحدث: فخادم القتيل الفليبيني، انطلق راكضاً نحو أقصى الساحة فور سماعه دوي الطلقة الأولى؛ وقام هناك بعمل مفاجئ: فقد جلس القرفصاء، وأخرج من جيبه قضيباً مقوساً، طوله حوالي ثلاثين سنتمتراً، وأدخله في ثقب في الأرض؛ وهكذا تمكن من رفع الغطاء المعدني لفتحة مؤدية إلى شبكة المجاري العامة، واختفى فيها نهائياً. وقالت الشرطة فيما بعد إن سلوكه هذا يدل على مشاركته في الجريمة، وتواطئه المسبق؛ وقال أشخاص آخرون إنه بدأ، منذ أن تلقى سيده جسد السلحفاة، بالتخطيط للهرب؛ وقد حدد وحفظ عن ظهر قلب مواقع كل أغطية المجاري الموجودة في الجزء الذي تعوّدا ارتياده من المدينة؛ وكان يحمل معه طوال الوقت ذلك القضيب المقوس، الذي أعدّه هو نفسه.

قبل أيام قليلة من وقوع هذا الحدث، أحس السيد براوليو فجأة بالقلق دون أن يتمكن من تحديد سبب قلقه. وقال وهو ينظر إلى نفسه في المرآة: يراودني هاجس مشؤوم. كان وزنه قد ازداد كثيراً في السنوات الأخيرة؛ وهو حين يتنكر الآن بزي امرأة يبدو أشبه بمومس عجوز؛ وقد أطلق إضافة إلى ذلك شارباً قصيراً على الطريقة الألمانية يضفي عليه عندما يتنكر مظهراً مضحكاً أكثر منه حسياً. وحتى أولئك الذين كانوا يضحكون فيما مضى لظرافاته، صاروا يوجهون إليه الآن ملاحظات قاسية. ويرى آخرون في سلوكه أعراضاً لخرف الشيخوخة، أو ما كان يسمى آنذاك الرخاوة الذهنية. وكان البعض ينسبون تلك الرخاوة إلى الضرب الذي كان يتلقاه في ليالي مغامراته. فكان الجميع يفكرون في حال الملاكم الدنمركي أندرس سين،

الذي تحدثت عنه الصحف باستفاضة على إثر زيارته مؤخراً لبرشلونة. فقد تحدى هذا الملاكم خلال عدة سنوات أبطال فرنسا، وألمانيا، والمملكة المتحدة، وكان يخسر دائماً، ويتلقى الضرب بنزاهة. وهم ينقلونه الآن من مدينة إلى أخرى؛ وقد عرضوه في برشلونة في براكة واسعة من القش والخيش أقيمت في ساحة «بوابة السلام»، كحالة جديرة بالاهتمام العلمي، وهذا ما كانت تقوله الدعاية لعرضه؛ والواقع أنه تحت هذا الاهتمام العلمي المزعوم، كان بعض المستهترين بالقيم يستغلون نكبته؛ فقد تحول إلى طفل: يهز خُشخاشة بيديه الضخمتين، ويشرب حليباً من زجاجة رضاعة. وكان يمكن، بدفع ريال واحد، الدخول لرؤيته وتوجيه بعض الأسئلة إليه؛ ومقابل بيزتا واحدة، يمكن تمثيل مباراة في الملاكمة معه. ومع أنه كان ما يزال رجلاً قوياً، عريض الصدر، ومفتول العضلات، فإن حركاته كانت شديدة البطء والتثاقل، وتكاد ساقاه تعجزان عن حمل ثقل جسده، وكان أعمى عملياً، بالرغم من أنه كان في الرابعة والعشرين من العمر. ولم تكن هذه هي بالطبع حال السيد براوليو الذي يتمتع بصحة جيدة، وكل ما هنالك هو أن مظهره الخارجي قد ترهل مع تقدمه في السن، ومع التقاعد الاضطراري الذي فرضه عليه أونوفري بوفيلا؛ ولكن نزواته ازدادت حدة في الوقت نفسه، وكذلك خوفه، وتبدلات مزاجه المفاجئة. وهو قلق الآن على أودون موستاثا. فقد كان الفتوة يعيش دون عمل ويملك الكثير من المال، فاستسلم لحياة المجنون وراح يغرق فيها أكثر فأكثر. وإذا ما أنبه السيد براوليو على ذلك، يرد عليه بنزق: ما أنت إلا ندبة، أمضيت حياتك وأنت توزع مؤخرتك في حي مستودعات الفحم، وتأتي الآن لتقدم لي المواعظ. ويجيبه صاحب النزل السابق: هكذا فقدت زوجتي وابنتي؛ لقد كان على البريئتين المسكينتين أن تدفعا ثمن شططي وجنوني. ولكن أودون موستاثا لم يكن يعيره اهتمامه. وفي أحد الأيام علم أن أونوفري بوفيلا يريد رؤيته؛ فهرع إلى مكتبه دون أن يضيع لحظة واحدة. وتعانق الشريكان بانفعال، وربت كل منهما تربيتات مدوية على ظهر الآخر. وقال أودون موستاثا: منذ قرون لم نلتق؛ لم تعد هناك طريقة للقائك بعد أن صرت برجوازياً؛ وهتف: آه، يا لتلك الأزمنة. هل تتذكر عندما واجهنا جوان سيكارت؟

تركه أونوفري يتكلم، وكان يستمع إليه مبتسماً. وعندما صمت أخيراً، قال له: لا بد لنا من العودة إلى الحلبة يا أودون؛ لا يمكن لنا أن ننام على غار أمجادنا السابقة. إنني بحاجة إليك. وكان وجه الفتوة هو الذي تهلل الآن بابتسامة ذئب، وقال: شكراً للرب، فقد بدأ سلاحي يصدأ، وما هي المهمة؟ أخفض أونوفري بوفيلا صوته كي لا يسمع أحد ما يدبرانه. وكان حراس كل منهما يقومون بالحراسة حول المكتب. وقال له: قضية بسيطة، وقد رتبت كل شيء، وستعجبك كثيراً.

في اليوم التالي خرج أودون موستاثا إلى الشارع في وقت مبكر جداً، واستقل عربة أجرة وطلب الذهاب إلى خارج المدينة. ولدى الوصول إلى مكان محدد، صوب مسدسه إلى الحوذي وأمره بالترجل. وعندئذ خرج أحد رجاله من وراء أجمة وقيّد الحوذي بحبل من رأسه حتى قدميه؛ ثم ملأ فمه بألياف قنب وكممه. وبعد ذلك عصبا عينيه بخرقة وضرباه على قذاله ضربة أفقدته الوعي. ارتدى الشقي الذي خرج من وراء الأجمة سترة الحوذي وصعد إلى مقعد الحوذي. وعاد أودون موستاثا للصعود إلى العربة وأسدل ستائرها؛ ثم نزع اللحية المستعارة والنظارة القاتمة اللتين استخدمهما لكي لا يتمكن الحوذي، في أسوأ الاحتمالات، من التعرف إليه في ما بعد. كان لديه دليل مدروس بدقة لإثبات براءته. واشترى في شارع رمبلاس باقة من الزنابق مثلما طلب منه أونوفري بوفيلا. كانت تفوح من الأزهار رائحة نفاذة جداً في العربة المغلقة، لدرجة أحس معها بأنه سيغمى عليه. ففكر: سوف أتقيأ. وكان في أثناء ذلك يتفحص جاهزية عمل المسدس. كانت ساعة الكنيسة تدق عندما دخلت العربة إلى الساحة. وبدأ يخرج من القداس عدد قليل من المؤمنين، لأن اليوم كان يوم عمل. أزاح الستارة قليلاً وأخرج ماسورة المسدس من الفتحة. وعندما رأى ظهور الحاكم السابق يرافقه خادمه الفليبيني صوب سلاحه بهدوء. تركه إلى أن انتهى من نزول الدرجات ثم أطلق النار ثلاث مرات. وكان الفليبيني وحده هو الذي استجاب برد فعل فوري. انطلقت العربة من جديد. وعندئذ تذكر الزهور فطرق على السقف لكي يوقف الحوذي العربة، وتناول باقة الزنابق عن المقعد وألقى بها بقوة من النافذة. وكانت قد بدأت تُسمع صرخات وتراكض: فالجميع يحاولون النجاة.

بعد بضعة أيـام اعتقلته الشـرطة الجنائيـة أثنـاء خروجـه مـن مـاخور أمضى فيه ليلته. ولم يُبدِ أي نوع من المقاومة لأنه كان يعـرف أنـه بمنجى مـن كل الشبهات؛ فتعامل مع رجال الشرطة بكل تحضـر ممـا جعلهم ينتبهون فـي الحـال إلـى مـا فـي ذلك من سخرية، فقـال لـه العريـف: اسـخر كمـا تشـاء يـا موستاثا، فسوف تدفع في هذه المرة حساب كل جرائمك دفعة واحدة. أما هو فـراح يداعبـه ويرسـل إليـه قبـلات عبـر الهـواء وكـأن مـن أمامـه غانيـة وليـس عريف شرطة. فأثار ذلك حفيظة العريف. وكـان الشـرطيون الآخـرون الذيـن يعرفـون شـهرته، لا يرفعـون نظرهـم عنـه؛ ويصوبـون بنادقـهم نحـوه، ويبقـون هراواتهم جاهزة للانقضاض عليه في أي لحظة. وكان بعضـهم شبانـاً صغـار السن؛ سمعوا قبل انضمامهم إلى سلك الشرطة أحاديث عن أودون موسـتاثا، الفتوة المخيف؛ ولكنهم يقتادونه الآن معتقـلاً ومكبـلاً بـالأغلال للمثـول أمـام القاضي. وعندما سأله هـذا الأخير أين كان فـي يوم كذا والساعة كذا، ردّ عليه بكثير من الثقـة بالنفس: وكان يـردد الأكاذيب التي لفقها مع أونوفـري بوفيلا، وهي الإثباتات التي تؤكد براءته، والجـاهزة لديه من أجل الـرد علـى مثل هذه الأسئلة. وراح القاضي يكرر الأسئلة مرة بعد أخرى، والكاتب يسجل الإجابـات التـي تـأتي متطابقـة فـي كـل مـرة، فيقرؤهـا القـاضي بعـد ذلـك باستغراب. وأخيراً قال له: هل تريد أن تسخر مني وتضللني أنا أيضاً؟

فقال الفتوة:

– احتفـظ سـيادتك بـهذه الحيـل لتتعـامل بـها مــع الاشــتراكيين، والفوضويين، واللوطيين. أما أنا، أودون موستاثا، فإنني محترف لـدي سـنوات طويلة من الخبرة؛ ولن أقول أي شيء آخر بعد الآن.

وعندما رأى بعد قليل أنهم يستأنفون استجوابه من جديد كمـا لـو أن مـا قاله كان موجهاً إلى شخص أصم أو أبله، أضـاف قـائلاً للقـاضي: هـل تحـاول سيادتك الوصول إلى الشهرة على حسـابي؟ اعلـم إذن أن آخرين حـاولوا ذلـك مـن قبـل؛ وكل واحـد منـهم كـان يريـد أن يكـون القـاضي الـذي سـيزج أودون موستاثا وراء القضبان؛ كانوا يحلمون برؤية أسمائهم وصورهم في الصحف. ولكنـهم تحولـوا جميعـهم إلـى أضحوكـة. كـان اسـم ذلـك القـاضي أثيسـكلو فونسـيكا بينتوخـو إي غوميـث؛ وكـان رجـلاً فـي الثانيـة والثلاثـين أو الثالثـة

والثلاثين من عمره، مثقل الظهر، غليظ الرقبة، له لحية كثة ووجه شاحب. وكان يتكلم ببطء ويرفع حاجبيه كلما قيل له أي شيء، كما لو أن كل شيء يفاجئه. وكرر: قل لي أين كنت في يوم كذا الساعة كذا! ففقد أودون موستاثا السيطرة على نفسه، وصرخ بالقاضي، دون أن يهتم بأنه يمكن لمعتقلين آخرين أن يسمعوه:

– فلنضع حداً لهذه المهزلة الفجة! ما الذي تريده مني؟ هل تريد نقوداً؟ ولكنني لا أفكر في أن أعطيك ريالاً واحداً، اعلم سيادتك ذلك منذ الآن. إنني أعرف الورطة: إذا أعطيتك اليوم مئة، فسوف تطالب غداً بألف. ليس لديك ما تفعله. فأنت لا تملك أدلة ولا شهوداً، وإثباتات براءتي متكاملة. ثم إن الجميع يعرفون أن من قتل الحاكم السابق أوسوريو هم بعض الفليبينيين.

رفع القاضي حاجبيه بحيرة. وسأله: أي حاكم سابق؟ وأي فليبينيين تعني؟ وقد وجد أودون موستاثا صعوبة في فهم أنهم لا يتهمونه في قتل الحاكم السابق أوسوريو، وإنما في موت شاب يدعى نيكولاو كانالس إي ريتابلان، لم يكن قد سمع به من قبل قط. ففي صبيحة يوم الجريمة مرّ رجل ملتف بعباءة، يعتمر قبعة عريضة الحواف تخفي وجهه، من أمام منضدة الاستقبال في فندق آراغون الكبير، وكان مروره سريعاً إلى حد لم يستطع معه الموظف اعتراضه. وعندما أرسل في أثره عدداً من مستخدمي الفندق وشرطيين يحرسان ذلك القطاع من شارع رمبلاس المزدحم بالمارة في مثل تلك الساعة، كان الدخيل قد اختفى في الطوابق العليا. ولم يعثر عليه قط. البعض قالوا إنه نزل متدلياً على واجهة المبنى، وإنه كان يخفي تحت عباءته حبلاً مزوداً بخطاف، استخدمه في عملية النزول؛ ولأن أحداً من المارة لم يقل إنه رأى حدوث ذلك، فقد أكد آخرون أنه كان قد اشترى تواطؤ عدد من العاملين في الفندق. ولم يخلف في مروره العابر ذاك أي أثر سوى جثة نيكولاو كانالس إي راتابلان، الذي قتله بثلاث طعنات، جميعها مميتة حتماً. وقد دُفن في اليوم التالي في ضريح الأسرة، إلى جانب رفات أبيه الذي كان قد قتل بطريقة مماثلة. لم تحضر أمه الجنازة. وكان الابن الأخير من ذلك الفرع من آل كانالس. وقد عرض القاضي الآن على أودون موستاثا القبعة الكبيرة والعباءة. ففي الوقت الذي كان فيه في الماخور، قامت الشرطة

بتفتيش بيته: ووجدت هناك تلك الملابس، كما وجدت مدية ذات أربع فرضات توقيف يمكن تمييز آثار دم على شفرتها بالرغم من أنها قد غُسلت. أفقده ذلك صوابه، واصل إنكار الواقعة. وراح يردد بإصرار قصة السلحفاة، والدجاجة، والخنزير. وقد قال القاضي بعد ذلك في تقريره إن المتهم كان يهذي دون ريب. أجبروه على ارتداء العباءة والقبعة وعلى المثول وهو على تلك الحال أمام موظف الاستقبال في الفندق الذي طلب القاضي إحضاره. وقد كانت العباءة والمعطف على قياسه، وأكد موظف الاستقبال بأنه الشخص نفسه الذي رآه يمر بصورة خاطفة أمام منضدته. وعد موستاثا أحد موظفي المحكمة برشوة كبيرة، وتمكن بذلك من إيصال رسالة إلى السيد براوليو، يقول فيها: لستُ أفهم شيئاً مما يدور، ولكنني أشم رائحة شواط في هذه القضية. هرع السيد براوليو إلى أونوفري بوفيلا الذي قال له: سنوكل أفضل محام جزائي في إسبانيا بالقضية. فقال له السيد براوليو: أليس من الأفضل أن نحل المسالة بصورة سرية، قبل أن تتخذ التهمة طابعاً رسمياً؟ وكان اسم المحامي الذي تولى الدفاع هيرموخينيس بابيخا أو بيبجا، قال إنه من اشبيلية في الأصل، وقد سُجل للتو في نقابة محامي برشلونة، حيث ينوي أن يفتح مكتباً للمحاماة، وهو ما لم يفعله في ما بعد. معظم الشهود الذين طلب الدفاع حضورهم للشهادة لم يحضروا للإدلاء بشهاداتهم: فقد كانوا من بائعات الهوى، وقد اختفين عندما ذهبت الشرطة الجنائية في طلبهن؛ وبما أنه ليس لديهن أية وثائق لإثبات الشخصية، ويُعرفن بألقاب يطلقنها على أنفسهن وحسب، فقد كان انتقالهن إلى مكان آخر وتغيير ألقابهن كافياً لمحو كل أثر لماضيهن. والثلاث الوحيدات اللواتي أدلين بشهادتهن قلن إن أسماءهن هي «الخنزيرة» و«الضراطة» و«روموالدا المصاصة»؛ ولم يتورعن في قاعة المحكمة عن كشف ربلات سيقانهن، وغمز الجمهور بعيونهن، وكن يستخدمن لغة بذيئة وينفجرن في الضحك لأي سبب تافه. وكن يجبن عن أسئلة النائب العام بالقول: «أجل يا حبي»، «لا يا حياتي»، وعبارات من هذا القبيل. مما اضطر رئيس المحكمة إلى لفت نظرهن عدة مرات. وقد أكدن ثلاثتهن بأنهن كن مع المتهم صبيحة يوم الجريمة، ولكنهن حيال أسئلة المدعي العام، بل وأسئلة محامي الدفاع كذلك، وقعن في التناقض في أقوالهن وانتهين إلى

الاعتراف بأنهن ربما أخطأن في تحديد اليوم والساعة والشخص المعني. ولأن أودون موستاثا لم يكن قد رأى من قبل أولئك الحثالة، ورأى أن تدخلهن يسيء إلى وضعه، فقد أراد التحدث إلى محاميه، ولكن المحامي تذرع بانشغاله بأعمال أخرى مستعجلة، ولم يذهب لرؤيته في زنزانته في قصر العدل الذي نُقل إليه من السجن طوال فترة المحاكمة. وكان قد جرى تدشين قصر العدل ذاك في العقد السابق، ضمن المنطقة التي كانت تشكل حرم المعرض الدولي، حيث تعرف أودون موستاثا أول مرة بصورة فظة على أونوفري بوفيلا، وهو الشخص الذي يعقد عليه الآن آماله للنجاة. ولكن أونوفري لم يكن يبدي أي قلق: فكلما ذهب إليه السيد براوليو الذي كان يتابع جلسات المحاكمة يومياً بين الجمهور الذي يملأ القاعة، للتشاور معه حول القضية، كان أونوفري يتذرع بأي سبب كي يتهرب من استقباله، وإذا ما استقبله، عمل على تحويل الحديث نحو موضوعات أخرى. وكان المدعي العام قد طالب في المطالعة الأولية بإنزال العقوبة القصوى بالمتهم، ثم جعلها بعد ذلك مطالبة نهائية. وأصدرت المحكمة أخيراً قرارها، وحكمت فيه على أودون موستاثا بالإعدام. فقال له المحامي: عليك بالصبر، سنستأنف الحكم. وقد فعل ذلك. ولكن، ربما بسبب تركه مهلة الاستئناف المحددة في القانون تنقضي، أو لأنه قدم الطعن بصورة سيئة، فقد دفع الهيئات القضائية العليا إلى رفض الالتماس لخلل في الشكل. وكان الفتوة المعزول في زنزانته يغرق في اليأس. لم يعد يأكل، ولا ينام تقريباً؛ وعندما يتوصل إلى إغفاءة قصيرة تدهمه الكوابيس، ويستيقظ مطلقاً صرخات الذعر. فكان حراس السجن الذي أعيد إليه ثانية، يسكتونه، ويسخرون من خوفه، ويدخلون أحياناً إلى الزنزانة ويضربونه بقسوة. وفي النهاية طرأ عليه نوع من التحول: فقد أدرك أنه سيدفع في هذه الجريمة ثمن كل الجرائم الكثيرة التي اقترفها دون عقاب. ورأى أن يد الله القادر على كل شيء هي التي دبرت ذلك، فتحول من ملحد ومتعجرف إلى ورع وذليل. وطلب بإلحاح مقابلة كاهن السجن، واعترف له بخطاياه التي لا حصر لها. وجعله تذكر حياته الماضية، ووحول الخطيئة التي تمرغ فيها لسنوات طويلة يبكي بيأس. وبالرغم من أنه تلقى الغفران على يد كاهن الاعتراف، فإنه لم يكن يجرؤ على المثول بين يدي الخالق

الأعلى. فكان كاهن الاعتراف يقول له: ثق برحمته غير المحدودة. وصار يرتدي على الدوام مسوحاً بنفسجياً، ويضع حبلاً رمادياً يتدلى من عنقه.

ذهب السيد براوليو مجدداً لمقابلة أونوفري بوفيلا. وعندما مثل أمامه ركع على ركبتيه على السجادة وقاطع ذراعيه على شكل صليب. فسأله أونوفري: ما سبب هذا التهريج؟ فرد عليه: لن أتحرك من هنا حتى تسمعني. قرع أونوفري بوفيلا جرساً؛ وقال للسكرتير الذي أطل برأسه من الباب: لا أريد أن يزعجنا أحد. وعندما أغلق السكرتير الباب، أشعل سيجاراً، واعتدل في جلوسه على الكرسي: قل لي ما الذي تريده يا سيد براوليو.

– أنت تعرف سبب مجيئي. صحيح أنه شرير، ولكنه صديقك؛ وقد كان إلى جانبك دوماً في اللحظات الصعبة. وأنت لم تعرف رجلاً أكثر وفاء منه.
– ثم أضاف بصوت كسير:– ولم أعرف أنا رجلاً أجمل منه.

فقال أونوفري:

– لا أعرف ما سبب كل هذه الديباجة.

قال السيد براوليو:

– إنني أتفهم أنك أردت أن تلقنه درساً جيداً. وأنا واثق من أنه أخذ عبرة لن ينساها إلى الأبد. وسأكون مسؤولاً عن حسن سلوكه في المستقبل.

– وماذا تريدني أن أفعل؟ – قال هو – لقد وكّلت له أفضل المحامين في إسبانيا، حركت من أجله روما وسنتياغو، وأنا مستعد لطلب الرحمة له من جلالة الملك...

فقاطعه السيد براوليو:

– لا تقل لي هذا الكلام يا أونوفري. فأنا أعرفك منذ سنوات طويلة. لقد كنتَ ما تزال طفلاً عندما جئت إلى نزلي بيد من أمام وأخرى من وراء. أنا أعرف أنك أنت من دبرت هذه المهزلة لأنّك شرير، ولأنك لا تتورع عن التضحية بأي شيء أو أي شخص لكي تصل إلى ما تريده، ولأنك كنت تحسد في أعماقك أودون موستاتا على الدوام. ولكنك مضيت في الأمور بعيداً جداً هذه المرة وعليك أن تتراجع شئت أم أبيت. انظر إليّ كيف أنا: لقد جئت لأجثو متوسلاً كي تنقذ حياة هذا البائس؛ وقلبي مثل قلب الأم المعذبة، تخترقه سبعة نصال؛ افعل ذلك

من أجله، أو افعله من أجلي.

وحين رأى أن أونوفري لا يرد، ترك ذراعيه يتهدلان بيأس ونهض عن الأرض. وقال: حسن، أنت أردت ذلك. اسمع إذن: لقد قمتُ في هذه الأيام بتحريات؛ وأنا أعرف أنك أنت وغارنيت، بمساعدة هومبرت فيغا إي موريرا، قمتم بتزييف وثائق التوكيل التي تحمل توقيع أوسوريو، وأن كل ممتلكات أوسوريو في الفليبين قد صارت ملكك عملياً. وأنا أعرف كذلك بأن أشخاصاً يعملون لحسابك قد اشتروا مؤخراً سلحفاة، ودجاجة، وخنزيراً، وأرسلوا بالبريد طروداً ضخمة. كل هذه المعلومات لا تبرئ أودون من الجريمة المنسوبة إليه. بل على العكس، لأن فتح تحقيق حول موت أوسوريو سينتهي إلى الكشف عن أنه مذنب، ولكن لا يمكن قتل أي شخص مرتين، وأودون صار الآن بحكم الميت. ولكنه قادر بالمقابل على سحب أشخاص آخرين في سقوطه. وأنت تعرف ما الذي أعنيه. ولكن أونوفري لم يتوقف عن الابتسام وعن تدخين سيجاره بوقار. ثم قال أخيراً:

– لا تغضب هكذا يا سيد براوليو. لقد أخبرتك بأنني فعلت من أجل صديقي أودون موستاثا كل ما يمكن لإنسان عمله. ولم يكن بإمكان مساعيّ لسوء الحظ أن تحقق النتيجة المنشودة. ولكنني بينما كنت أسعى لإطلاق سراح سجين، توصلت بمحض المصادفة إلى إطلاق سراح سجين آخر. ولدي هنا في هذا الدرج قرار العفو عن ابنتك ديلفينا موقعاً. ولا تظن أن الحصول عليه لم يتطلب مني الكثير من النفوذ والمال، لأن السلطات رفضت منح العفو متذرعة بأسباب تتعلق بالأمن العام، أتفق معها أنا شخصياً. وقد جرت الآن تسوية الأمر لحسن الحظ. ألن يكون مؤسفاً ألا يأخذ قرار العفو هذا مساره إلى النهاية؟

وبمواجهة السيد براوليو بذلك الخيار، أحنى رأسه وخرج من المكتب دون أن يقول شيئاً؛ وكانت الدموع تسيل من عينيه بغزارة.

في مصلى المحكومين بالإعدام، وضع اثنان من أخوية دم سيدنا يسوع المسيح الطاهر، تمثالاً ليسوع الأخوية تنيره ست شمعات. وكانا يرتديان، وفقاً

لأنظمة جمعيتهم، الرداء والقلنسوة، والحزام الجلدي الأسود، ويحملان السبحة، ويضعان شعار الجمعية مخيطاً على صدريهما كعلامة مميزة. هذه الجمعية الدينية التي تتكفل بمساعدة المحكوم بالإعدام في ساعاته الأخيرة وتتولى بعد ذلك مسؤولية دفن الجثة إذا لم يكن هناك أقارب يتكفلون بها، كانت قد استقرت في برشلونة سنة 1547 في مصلى القربان المقدس، المعروف لدى العامة باسم مصلى الدم، في كنيسة سيدتنا عذراء البينو؛ وكان مقرها الاجتماعي، إلى ما قبل وقت قريب، في البناء رقم واحد من ساحة البينو تحديداً. كان أودون موستاثا يصلي وهو يحني ظهره، وجبهته تلامس الأرضية الباردة والرطبة. وكان في مكان معزول من السجن، وقد انفصل عن العالم الخارجي؛ حيث لا يمكن أن يزوره أحد باستثناء السلطات المختصة، وطبيب السجن، والكهنة، وأعضاء جمعية الأخوية الدينية، كما يمكن بمقتضى ترتيبات قانونية خاصة أن يزوره كاتب بالعدل *إذا ما رغب المحكوم بتسليم وصيته أو الإفضاء بأي أقوال شفهية*. وفكر: كل دقيقة تبدو كأنها قرن، ولكن الدقائق والقرون تمضي كما يبدو بالسرعة نفسها. كان الصمت يسود السجن: فقد أُلغي خروج السجناء للفسحة، كما أوقفت كل الأعمال الداخلية *التي يمكن لها أن تعكر السكون اللازم*. وكان قد اجتمع في باحة السجن الأشخاص الذين يتوجب عليهم أن يشهدوا تنفيذ حكم الإعدام، وهؤلاء هم *السكرتير القضائي، وممثلا السلطات الحكومية والقضائية، ومدير السجن وموظفوه الذين يختارهم المدير، والكهنة وأفراد الجمعية الخيرية التي تساعد المحكوم، وثلاثة من مواطني المدينة يختارهم العمدة إذا ما طلبوا الحضور طوعاً*. وكان تنفيذ أحكام الإعدام أمام الملأ قد ألغي قبل سنوات قليلة من ذلك، بموجب الأمر الملكي الصادر في 24 تشرين الأول (نوفمبر) 1894. وقد أثار هذا الإجراء انتقادات قاسية، فنحن نقرأ: *بهذه الطريقة لم تعد عقوبة الإعدام في إسبانيا تشكل عبرة، ولم تعد لها اي فائدة، ذلك ان رواية الصحف لا تثير الفضول وحسب، وانما هي تحيط المجرم بهالة مُفسدة*. كان المواطنون الثلاثة ينظرون الآن بانتباه إلى الجلاد وهو يتأكد من حسن

عمل آلية المِخنَقة. وتتألف آلة الإعدام هذه من كرسي مزود بمسند عالٍ تخرج منه ضاغطة دوارة تنتهي بطوق معدني على شكل أنشوطة، يطبق على حنجرة المحكوم، ثم يُضغط عليها إلى أن تحدث الوفاة خنقاً. وكان جلالة الملك فرناندو السابع ***من أجل ترك ذكرى طيبة لعيد ميلاد الملكة السعيد***، قد أصدر في 28 نيسان (أبريل) 1828، أمراً ملكياً يلغي بموجبه الإعدام بالمشنقة التي كانت تُستخدم حتى ذلك الحين في كل أنحاء إسبانيا، ويفرض بدءاً من ذلك التاريخ تنفيذ أحكام الإعدام ***بالمِخنَقة العادية للمجرمين المنتمين إلى العامة، وبالمِخنقة الخسيسة للمحكومين بجرائم مخلة بالشرف، وبالمخنقة النبيلة لأبناء النبلاء***. وكان المحكومون بالإعدام بالمِخنَقة العادية يُقتادون إلى منصة الإعدام على ركوبة كبرى، أي على صهوة بغل أو حصان، ويرتدون الرداء ذا القلنسوة. وهو ما يعرف بالكابوت، ومثلما يشير اسمه، فإنه نوع من الجلباب تتصل به قلنسوة وذيل طويل، يُلبس فوق الملابس الأخرى، وكان يُستخدم عادة في المآتم والحِداد. أما المحكومون بالإعدام بالمِخنقَة الخسيسة، فيجري اقتيادهم إلى منصة الإعدام على ركوبة دنيا، أي على متن حمار أو سحلاً، حسب ما ينص عليه الحكم الصادر بحقهم، ويرتدون الكابوت مفلتاً. وأخيراً هناك المحكومون بالموت على المِخنقة النبيلة، ويقتادون على ركوبة كبرى مسرجة ومسربلة برداء أسود. ولكن هذه التمايزات فقدت كل معانيها منذ أُلغي تنفيذ أحكام الإعدام بصورة علنية أمام الملأ. عندما فُتح باب الزنزانة لم يشأ أودون موستاثا أن يرفع وجهه عن الأرض. فرفعته أربع أيد من تحت إبطيه. وكان صوت خافت يتمتم: رباه، ارحم روحي. وراح يردد الجملة آلياً كي لا يفكر. وعندما خرج إلى العراء، فتح عينيه. كان يمضي أمامه أعضاء الأخوية والكهنة وهم يحملون تمثال المسيح الذي كان حتى الآن في المصلى. رأى ضوء الصباح الأبيض ليوم بلا غيوم. وفكر: ماذا يهمه أن تطلع الشمس أو لا تطلع في هذا اليوم والأيام التالية. ورأى في أقصى الفناء المِخنقة، وجماعة الشهود، والجلاد بعيداً عنهم بعض الشيء. ألقى أحد الشهود السيجارة التي كان يدخنها إلى الأرض وسحقها بحذائه.

وإلى جانب السور رأى تابوتاً من خشب قاتم؛ وكان غطاؤه مسنداً إلى السور. تراخت ركبتاه، ولكن الحارسين اللذين يثبتانه من تحت إبطيه حالا دون سقوطه على الأرض. وفكر: أرجو ألا يقال هذا عني. شدّ ظهره ورفع وجهه، وأراد أن يقول: يمكنكم أن تتركوني. ولكن صوته لم يخرج: بل أرسل بحة صادرة من أعماق صدره. وقال لنفسه مازحاً: لا يمكن طلب المزيد في مثل هذه الظروف. وكانت كل خطوة يخطوها دون أن يسقط تبدو له انتصاراً. كان يجرجر ثوب المحكوم عليهم بالإعدام على حجارة تبليط الفناء. وكانوا قد ألبسوه الثوب لدى الدخول إلى المصلى. وكانت تلك الأثواب بموجب القانون، سوداء على الدوام، باستثناء قتلة الملوك وقتلة آبائهم، فكانوا يرتدون ثوباً أصفر وقبعة من اللون نفسه، وفي كليهما لطخات حمراء. وكان الثوب على شكل جلباب، وحين رأى نفسه يرتديه، قبل بضع ساعات، أحس بالمذلة. وقد قال للسجانين مازحاً: لقد كنتُ أختار ملابسي بنفسي حتى الآن. ولو أنهم أخروا إعدامه بضعة شهور لما كان هناك مبرر لشكواه، لأن ارتداء ثوب المحكومين بالإعدام كان قد ألغي بمقتضى القانون الصادر في التاسع من نيسان (أبريل) 1900. جلس على الكرسي، وتركهم يثبتونه بالحزام. والكاهن الذي كان يحمل تمثال المصلوب قرّبه من شفتيه. فأغمض عينيه وألصق شفتيه بقوة على المصلوب. لم ير كيف أن أحدهم قد أومأ خفية بيده. وفي ما بعد، وتنفيذاً لما هو مقرر، تم تنظيم محضر ضبط مقتضب لعملية الإعدام، ووقّع عليه جميع الحاضرين. وحمل أعضاء الأخوية الدينية الجثمان لدفنه: صالبوا يديه فوق صدره في التابوت، ووضعوا بين يديه سبحة من معدن مفضض. أطبقوا جفونه وأعادوا ترتيب شعره الذي شعثته الريح. وحين رآه أعضاء الأخوية تبادلوا الهمس قائلين: لم يكن هناك حقاً في برشلونة كلها رجل أجمل منه.

في هذه الساعة نفسها، في الجانب الآخر من المدينة، كان الباب الجانبي لسجن النساء يُفتح لتخرج منه ديلفينا. وكان السيد براوليو ينتظرها في

عربة مغلقة، متوقفة أمام الأسوار القاتمة. وحين رآها تجتاز عتبة السجن، نزل من العربة بمشقة. تعانقا دون أن يقولا شيئاً وانخرطا في البكاء. وبعد مضي بعض الوقت قال السيد براوليو: كم أنت نحيلة يا ابنتي. وقالت هي: وأنت يا أبي، هل ترتجف؟ هل أنت بخير؟ فقال صاحب النزل السابق: لا شيء يستحق الذكر يا ابنتي؛ ربما هو الانفعال. تعالي، اصعدي إلى العربة، فلنذهب إلى البيت، فلنغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن. كم أنت نحيلة! ولكن لا أهمية لذلك، سأعنى بكِ. وستفاجئين بالتغير الذي طرأ عليّ.

بعد مرور شهر على إعدام أودون موستاثا، طلب أونوفري بوفيلا مجدداً من دون هومبرت فيغا إي موريرا يد ابنته مرغريتا، فمُنحت له هذه المرة على الفور ودون تحفظ.

الفصل الخامس

- 1 -

القرن التاسع عشر الذي ولد على يد نابليون بونابرت في الثامن عشر من برومير 1799، ينتهي الآن على فراش موت الملكة فكتوريا. وخارج مخدع الملكة، كانت تتردد في شوارع أوربا أصداء سنابك خيول الحرس الإمبراطوري؛ ودوي مدافع المعارك في أوستيرليتز وفي بوردينو وفي ووترلو، وفي ميادين معارك أخرى مشهورة أيضاً. أما الآن فلا يُسمع غير صوت ذهاب وإياب أنوال الحياكة، وقرقعة المحرك الانفجاري. لقد كان قرناً شحيحاً بالحروب، بالمقارنة مع غيره، ولكنه غني جداً، بالمقابل، بالمستجدات: إنه قرن الأعاجيب. البشرية تجتاز الآن عتبة القرن العشرين مترددة. فالتغييرات العميقة ما تزال على الطريق، ولكن الناس كانوا قد تعبوا من كثرة التغييرات، ومن كثرة جهلهم بما يمكن أن يأتي به يوم غد؛ فهم ينظرون الآن إلى التحولات بحذر، وأحياناً بخوف. ولم يخلُ الأمر من متنبِّئين يتخيلون كيف سيكون المستقبل، وما الذي يخبئه لمن سيتوصلون لرؤيته. الطاقة الكهربائية، والبث الإذاعي، والسيارات، والطيران، والتقدم الطبي والصيدلي، ستغيِّر كل شيء بصورة جذرية: الاتصالات، والنقل وغيرها كثير من ظروف الحياة؛ فالطبيعة سوف تحدد في مناطق معينة، وسيكون بالإمكان ترويض النهار والليل، البرد والحر؛ وسيتحكم العقل البشري بالقدر على هواه، ولن يكون هناك أي حاجز لا تستطيع الابتكارات تجاوزه: سيكون بإمكان الإنسان تغيير حجمه وجنسه وفق إرادته، والانتقال في الأجواء بسرعة لم يُعرف لها مثيل، وأن يصير غير مرئي إذا أراد، وأن يتعلم لغة أجنبية خلال ساعتين، وأن يعيش ثلاثمئة سنة أو أكثر؛ وستأتي كائنات ذكية من القمر، ومن الكواكب، ومن أجرام سماوية أخرى أكثر بعداً لزيارتنا، ولتقارن أجهزتها بأجهزتنا، ولترينا للمرة الأولى أشكالها الغريبة. وكانوا يتصورون العالم في أحلامهم وكأنه أركاديا يقطنها الفنانون والفلاسفة، حيث لا يتوجب على أحد أن يعمل.

وكـان آخـرون يتنبـؤون بالمصـائب والطغيـان ولا شـيء سـوى ذلـك. ولـم تكـن الكنيسة الكاثوليكية تكفّ عن تذكير من يريد أن يستمع إليها بأن التقدم لم يكن يتبع دائماً السبل التي حددتها إرادة الرب التي تجلت في ظهوره وأوحي بها إلى الحَبر الأعظم، الذي أُعلنت عصمته في التاسع عشر من تموز (يوليو) 1870. ولم تكن الكنيسة وحدها هي التي تنفر من التقدم: فمعظم ملوك أوروبا وأمراء العالم، كانوا يشاطرونها ذلك القلق؛ ويرون في تلك التحولات الثغرة التي سيتسلل منها التمرد إلى جميع المبادئ. القيصر وحده كان مختلفاً: فقد كان ينظر بنشوة إلى المدافع من زنة خمسين طناً أو أكثر التي كانت تخرج دون توقف من معامل **كروب**، ويفكر: فليبارك الرب التقدم إذا كان سيساعدني على قصف باريس. وفي مثل هذه التقديرات وغيرها كانت تنقضي السنون. وفي مساء يوم من شهر آب (أغسطس) 1913، كان أونوفري بوفيلا يفكر وهو في مرفأ برشلونة بسرعة مرور الزمن تحديداً. وكان قد ذهب إلى المرفأ للإشراف على عمليات إنزال بعض الصناديق التي لا تتوافق محتوياتها مع بيانات الشحن. وكانت السلطات الجمركية على علم بذلك، وقد تلقت مبلغاً كبيراً لقاء غضها النظر، ولكنه لم يشأ أن يترك شيئاً للمصادفات. وبينما هو شارد الفكر ينظر إلى رسو السفينة، تذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى هذا المرفأ للبحث عن عمل. كانت السفن كلها شراعية تقريباً في ذلك الحين، وكان هو ما يزال طفلاً؛ وها هو الآن يرى المداخن والصواري وهي تتأرجح بهدوء على خلفية ضوء غسق ذلك المساء من أواخر فصل الصيف، وقد أوشك على بلوغ الأربعين من عمره. إنه ينظر الآن وحيداً وعابساً إلى السفن الراسية هناك. جاء موظف يرتدي ملابس حداد صارمة ليخبره بأن الصناديق على وشك أن تُرفع من عنبر السفينة. فسأله وهو ساه: هل لحق بتعليب الصناديق أي ضرر؟ كان قد استنتج من المعلومات التي استقاها من مصادر مختلفة، أن حرباً ستندلع عما قريب؛ فإذا ما تحققت توقعاته وحدث ذلك، فإن من سيكون في وضع يتيح له تزويد السوق بالأسلحة، سيجني ثروة طائلة خلال وقت قصير. وها هو يُدخل تهريباً إلى إسبانيا الآن نماذج متنوعة من البنادق، والقذائف، والقنابل اليدوية، وقاذفات اللهب، وغيرها. وكان عملاؤه يتنقلون في أثناء ذلك بين قنصليات الدول

الأوربية. لم يكن هو الوحيد الذي فكر في ذلك: ولهذا عليه أن يعقد تحالفات جديدة، وأن يستميل أعداء، وأن يتجنب أحابيل، وأن يدمر منافسيه؛ وعليه أيضاً أن يعتمد على جواسيس الدول التي ستشارك في الحرب القادمة، الذين بدؤوا بالتسلل إلى برشلونة، كما في غيرها من مدن العالم. وفكر: لماذا أقوم بكل هذا؟ كان ابنه الأول أبله. وقد ولد في نهاية القرن، تحت أفضل أنواع الرعاية، وسرعان ما تبين أنه لن يكون سوياً. وهو يعيش الآن خاملاً في منطقة جبال البيرينه التابعة لمدينة ليريدا، برعاية مؤسسة دينية يتولى هو نفسه تمويلها بسخاء، ولكنه لم يشأ أن يطأ بقدميه أملاكها الواسعة. وابنه الثاني ولد ميتاً. ثم تلته ابنتان. ولم يستطع حبه لزوجته، الذي تجاوز في السابق الكثير من الاختبارات، ودفعه إلى ارتكاب الكثير من أعمال العنف، أن يتغلب على تلك الإخفاقات المتكررة. وقد سمنت زوجته كثيراً الآن؛ ففي الهجران الذي تعيش فيه، تعزي نفسها بتناول الحلويات والشوكولاتة طيلة الوقت؛ ولا تعدم على الدوام من يقدم لها أكثر أنواع الحلويات إغراء معتقداً بأنه سيحصل من خلال ذلك على أفضاله. بتلك التقدمات وبالمجاملات المستمرة التي كان هدفاً لها، كانت تتبدى ثروته وسطوته؛ أما في ما عدا ذلك، فما يزال هامشياً. كان أعيان المدينة يقدرونه، ليس للطريقة التي استطاع أن يجني بها أمواله، بل لطريقته في إنفاقها. فالمال في نظرهم هو غاية بحد ذاته؛ ولم يكن قط وسيلة في أيديهم للتحكم بالسلطة. ولم يخطر لهم استخدامه للإمساك بزمام البلاد، أو لقولبة سياسة الحكومة وفق رغباتهم. وإذا ما ودخلوا أحياناً عالم السياسة المركزية الضيق، فإنما يفعلون ذلك بتردد، وربما استجابة لتوسلات التاج؛ وهم يتصرفون في هذه المناسبات كإداريين جيدين، بكل فعالية، ودون غايات، ضد مصلحة كتالونيا التي كانوا يدافعون عنها، وحتى ضد مصالحهم الخاصة. ربما لأنهم في أعماقهم كانوا يعتبرون أنفسهم على الدوام عالماً آخر، لا علاقة له ببقية إسبانيا التي لم يشاؤوا، مع ذلك، أو لم يستطيعوا، أو لم يكن مسموحاً لهم الاستغناء عنها. ربما لأن كل شيء قد حدث بسرعة كبيرة: فلم يجدوا الوقت الكافي ليتشكلوا كطبقة، ولينضجوا ككيان اقتصادي. وهم الآن على وشك الاستنفاد قبل أن يكونوا قد ضربوا جذورهم في التاريخ، ودون أن يكونوا قد

تمكنوا من تغيير مجرى التاريخ. أما هو، بالمقابل، فكان ينفق بملء يديه، وبتهوّر. وكان هذا التهور وبعض التناقضات الأخرى، تزرع القلق والحيرة. إنه يسمع الآن تصادم معدات السفن، وقرقعة أخشابها، ولطم المياه للأجزاء العائمة منها. فكثير من تلك السفن تأخذ أو تأتي ببضائعه من الفليبين ومن أماكن أخرى، وبعضها ملكه. وكل هذا لم يخلصه من أصوله الغامضة في نظر المجتمع. وكان الآخرون يلجؤون إليه لأنهم بحاجة لمساعدته، ولكنهم يتظاهرون بعد ذلك بأنهم لا يعرفونه، وكان اسمه يحذف دائماً من قوائم الدعوات.

فقبل عام من ذلك حدث ما يلي: أتت لزيارته جماعة من الأعيان يرأسها صديقه المعروف مركيز أوت، وأعلنت الجماعة عن نفسها بكثير من الكبرياء، ولم يبينوا له سبب تلك الاحتفالية غير المجدية إلا بعد كثير من اللف والدوران: كان معظمهم قد تعاملوا معه سابقاً، في صفقات غير مشروعة في معظم الأحيان، وقد أكلوا من يديه؛ ولكنهم يتظاهرون الآن بأنهم قد نسوه، ويقومون بتمثيليتهم البروتوكولية.

- ما هو سبب منحي الشرف بزيارتكم؟ - سألهم عن ذلك. فراحوا يتنازلون عن مجلس الصدارة لبعضهم البعض، ويغرقون في مجاملات لا نهاية لها. فيقول أحدهم للآخر: تفضل حضرتك وتكلم؛ فيرد عليه الآخر: لا، لا، ولا بأي حال، تفضل أنت، فحضرتك تجيد الكلام خيراً مني. وكان هو ينتظر بصبر، متفحصاً وجوههم: فبعضهم كانوا فيما مضى أعضاء في مجلس إدارة المعرض الدولي؛ وكانوا شخصيات متنفذة، عندما كان هو يتسلل مع الفجر إلى حرم القلعة القديمة ليوزع نشرات الدعاية الفوضوية ويبيع مقوّياً للشعر من اختراعه. ولكن معظم الأعضاء الآخرين غيبهم الموت: فقد توفي ريوس آي توليت بعد وقت قصير من اختتام المعرض في سنة 1889، وسنة 1905 توفي مانويل خيرونا إي أغرافيل، وهو المفوض الملكي لتلك التظاهرة، وكان قد تحمل من حسابه الخاص نفقات تجديد واجهة الكاتدرائية، وهو مؤسس مصرف برشلونة الذي دمر إفلاسه، فيما بعد، الكثير من العائلات، وشتت شمل الطبقة الوسطى الكتلانية؛ وتوفي مانويل دوران إي باس سنة 1907، وغيرهم. ومن ظلوا على قيد الحياة، صاروا

مسنين؛ ولم يكن بينهم من يراوده الشك في أن هذا الرجل الذي كان يتفحصهم الآن بسخرية وازدراء، قد سبق له ورأى مرورهم، وهو طفل مختبئ وراء بعض أكياس الإسمنت، كمن يرى مرور موكب مهيب.

قالوا له:

- لقد أتينا لأن لدينا فائضاً من الأدلة على حبك لبرشلونة، هذه المدينة التي تُشرّفها بوجودك وبنشاطاتك فيها؛ ولأننا نعرف كذلك كرمك الذي يضرب به المثل.

- أخبروني بالمبلغ المطلوب - سألهم مبتسماً.

- المشكلة هي الآتية - قالوا له دون أن يتلعثموا؛ فقد كانوا جميعهم تماسيح مسنين - لقد تلقينا اتصالاً من وزارة الشؤون الخارجية، تخبرنا فيه بأن شخصية تسري في عروقها الدماء الملكية، وفرداً من إحدى الأسر الملكية الحاكمة، سيزور مدينة برشلونة قريباً. إنها زيارة خاصة ذات طابع شخصي، وبالتالي لن تخصص لها من الوجهة الرسمية أي ميزانية، وحضرتك تفهم ما نعنيه. ولكننا من جهة أخرى، لا نستطيع أن نسمح، وهو ما أبلغنا به الوزير نفسه، معبِّراً بذلك عن شعور جلالة الملك، حفظه الله... نكرر بأننا لا نستطيع أن نسمح بأن تبقى هذه الشخصية السامية دون تكريم واستضافة. وبكلمتين: توفير إقامة الشخصية السامية والترفيه عنها مع مرافقيها، أو أن هذا هو أُفهم لنا على الأقل، يجب أن نؤمنه من جيوبنا.

سألهم أولاً عمن تكون تلك الشخصية. وبعد تردد طويل، قالوا بأقصى ما يمكن من التكتم إنها الأميرة إليكس دي هيس، حفيدة الملكة فكتوريا، والتي صارت مشهورة الآن باسم الكسندرا فيودوروفا، زوجة صاحب السمو الإمبراطوري القيصر نيقولا الثاني. أصابته هذه المعلومة بالبرود: لأنه لم يكن يشعر بأدنى تعاطف مع آل رومانوف الذين يعدّهم جماعة من الكسالى؛ ولكنه كان يتابع بالمقابل تحركات بعض المتآمرين الماركسيين من أمثال لينين وتروتسكي وغيرهما، وكان يُطلعه على أخبارهم أولاً بأول مخبروه السريون في لندن وباريس، حيث هما موجودان الآن، وكان قد خطر له أن يمول مشروعاتهم الجنونية طمعاً في صفقات تجارية في المستقبل. وقد بدت له هذه المقابلة الآن عبثية. وقال لنفسه: أي مصلحة سأجنيها من تلبية ما يطلبه

مني هؤلاء الأشخاص؟ ما الذي سأستفيده من التودد إليها؟ كان يعرف أنهم ليسوا حمقى: بل على العكس، فكثيرون منهم يُعدّون من المتمولين المتبصرين. ولكنهم جميعهم، باستثنائه هو، يجهلون ما لا يرونه أمام أنوفهم، وما يدور أبعد من أبواب مكاتبهم؛ فهم لا يعرفون شيئاً عن عالم البائسين والمجانين والعميان الذين يعيشون ويتناسلون في ظلمة الأزقة. أما هو فيعرف ذلك العالم جيداً: وقد أحس في الآونة الأخيرة بنبض الثورة التي ما تزال طرية العود. قال لهم:

- دعوا الأمر بين يدي. أنا سأتولى كل شيء.

وكانوا ما يزالون يرددّون عبارات الشكر وهم ينزلون الأدراج. وكان ينتظرهم في الأسفل صف طويل من العربات لتنقلهم إلى قصورهم في شارع باسيّو دي غراثيا. وكان يهطل مطر خفيف يضفي بريقاً على أغطية العربات وعلى واقيات الخيول. وفيما حول مصابيح الإنارة الغازية، وفوانيس الشموع المنعكسة على العربات، كانت تتشكل هالة مائلة إلى الصفرة. ورد هو من البوابة على التحيات بالتلويح بيده. وكان يفكر: كل ثروتي وكل سمعتي سترثها ابنتاي، والقوادان اللذان سيشاطرانهما الفراش. لقد أحسنتُ صنعاً لهما بزواجي من امرأة بلهاء. كانت زوجة القيصر وحاشيتها تنزل من السفينة بصورة مغفلة ودون إعلان في بوابة السلام. وكان المطر الذي بدأ بالهطول في مساء يوم المقابلة مع الأعيان قد توقف قبل بضع ساعات. وكانت تنعكس في برك الماء التي تملأ الأرض ظلال الأشجار الوارفة التي يحرك النسيم الرطب المزعج أغصانها. تمتم المركيز أوت: يوم سيئ لاستقبال سموها الإمبراطوري. كلاهما كان يدخن في عربة هذا الأخير، وهي عربة من نوع بروهان، مصنوعة من خشب الماهوغوني، وتجرها أربعة أحصنة إنكليزية. وإلى الخلف، كان هناك جيش من العربات المتنوعة المستأجرة لتنقل بطانة المرافقين إلى الغرف التي حجزت لهم في فندق ريتز. لم يرد على تعليق المركيز: فقد تلقى قبل ذلك بيومين رسالة من جوان بوفيلا فظن أنها من والده، ولكنه عندما قرأها تبين له أن من كتبها، هو أخوه الذي كان قد نسي حتى وجوده. وهو يقول له في الرسالة إن والده يرقد على فراش الموت. *أسرع بالحضور إذا كنت تريد أن تراه حياً*. لم يكن قد رأى أباه منذ الزيارة

القصيرة التي قام بها إلى البيت في خريف سنة 1907 لحضور جنازة أمه. وأثناء السهر على جثمانها لاحظ غياب جوان الصغير. فقال له أبوه إنه يؤدي الخدمة العسكرية في أفريقيا، حيث تقع على الدوام مناوشات مع المغاربة. وبعد العودة من المقبرة، تركهما الجيران وحدهما للمرة الأولى. فقال الأمريكي حينئذ: لا أدري ماذا سيحدث لي الآن. ولم يقل هو شيئاً. كان الأمريكي يجوب بنظره الغرفة التي نشرت فيها زيارات المعزّين الفوضى، وكأنه يأمل بأن يرى عودة زوجته للظهور من وراء إحدى قطع الأثاث. ثم قال بعد برهة: لم يكن يخامرني أي شك في أنها مريضة، كانت تمضي منحنية الظهر بعض الشيء، وتأكل دون شهية في الفترة الأخيرة، ولكنني لم أستطع ملاحظة أعراض أخرى. وذات مساء، عدتُ إلى البيت فوجدتها ميتة على ذلك الكرسي الصغير الذي تعودت الجلوس عليه، أمام المدفأة؛ ولم يكن ماء القدر يغلي بعد، أي أنها لم تكن قد ماتت منذ وقت طويل؛ ومع ذلك، حين أمسكت يدها وجدتها باردة كالثلج. وبينما الأمريكي يتكلم كان أونوفري يفتح الأبواب، ويتفحص كل شيء بفضول. فأمه، مثل معظم نساء الريف، لم تكن ترمي أي شيء، فصار البيت كأنه مخزن لأشياء غير نافعة: فقد وجد مزقاً من أغطية فراش قديمة، وأدوات مطبخ مبعوجة، وعجلة مغزل مكسورة قرضها النمل الأبيض. وتذكر الآن الحرمان الذي عانيا منه معاً، عندما ذهب أبوه إلى كوبا وتركهما وحيدين. فقال بصوت عال: لدي أمور مهمة تستدعي عودتي إلى برشلونة، ينبغي أن أغادر في الحال. عندما نزل من القطار في محطة باسورة، سأل ببلاهة عن العم تونيت، الحوذي. وأخيراً قال له أحدهم إن الحوذي قد توفي منذ سنوات طويلة. فاستأجر عربة، وهي تنتظره الآن أمام البيت، تحيط بها فراخ ودجاجات. وكرر: لقد حان وقت ذهابي. واصل الأمريكي كلامه بتلقائية: هل تعرف؟ لقد كنت أفكر... وكان نقيق الدجاج وطنين الذباب يُبرز حدّة الصمت الذي يسود عندما يتوقف عن الكلام. وقد أضاف عندما لاحظ أن ابنه لا يشجعه على مواصلة الكلام: لقد فكرت بأنه يمكنني الذهاب معك إلى برشلونة. أنت تعرف أن حياة الريف لم ترق لي قط؛ فأنا أقرب إلى رجل من المدينة، وبعد أن صرتُ وحيداً الآن... نظر أونوفري إلى ساعته، ثم تناول قبعته وعصاه واتجه نحو الباب؛ وكان الأمريكي

يمضي في أثره قائلاً: أنت تعرف أنني شخص من عالم معين، ولست مجرد فلاح، وأنا متأكد من أنك تستطيع أن تجد لي عملاً، ويمكنني مساعدتك بتواضع في أعمالك، وحين أعمل لن أكون عبئاً اقتصادياً. خرج من البيت وعيناه مسمرتان على العربة. والحوذي الذي بدا أنه يغفو تحت سحابة من الذباب في ظل شجرة تين، نهض واقفاً عندما رآه يخرج وهرع نحو العربة. لم يكن قد أفلت الحصان عن العربة؛ وكان جاهزاً للانطلاق. فقال: إنني رهن أوامرك. كان رجلاً عريض المنكبين، وله رأس مكور وحليق؛ وكان قد حارب في كوبا تحت قيادة الجنرال ويلير. وقال الأمريكي: إن مشاغلك كثيرة حقاً، وأنا أستطيع تكريس يومي كله لأطفالك. فقال له وهو يصعد إلى مقعده في العربة: إنني متأكد من أن جوان سيعود قريباً من أفريقيا. وعندما يرجع جوان سيعود كل شيء إلى طبيعته من جديد. سأقوم بوساطة في مدريد من أجل تسريحه دون تأخير. أمسك الحوذي بالأعنة، وأفلت مكبح العربة، ورفع السوط في الهواء. فتشبث الأمريكي بساق ابنه بقوة: أستحلفك بأعز ما لديك يا أونوفري، ألا تتركني وحيداً، فأنا لا أستطيع العيش وحدي، ولا يمكنني العناية بنفسي، ولن أبقى على قيد الحياة شتاء كاملاً وأنا جالس قرب الموقد، وليس معي أحد أكلمه. أرجوك. فدس أونوفري يده في جيب سترته الداخلي، وأخرج كل النقود التي معه، وقدمها إلى الأمريكي دون أن يعدها، قائلاً له: يمكنك أن تعيش بهذا المبلغ في بحبوحة ريثما يعود جوان. رفض الأمريكي أخذ النقود. فقال له بنفاد صبر: هيا، خذها يا أبي، سأسحب غيرها من المصرف عندما أصل إلى باسورا. فانصاع الأمريكي، وأفلت ساقه التي كان يتشبث بها بكلتا يديه، ليتناول النقود. وأومأ أونوفري آمراً الحوذي، وانطلقا بسرعة في العربة.

أطل وجه ينيره ضوء مصباح زيتي من نافذة عربة المركيز أوت، وقال:

– هل يمكنك المجيء لحظة يا دون أونوفري؟ فقد قبضنا على شخص يطوف في المكان.

– ما الذي يحدث؟ – أراد المركيز أن يعرف. ولكن الرجل الذي كان من عملاء بوفيلا دون شك، لم يتنازل بالرد عليه.

وقال له أونوفري:

– ابقَ أنت في العربة فقد تنزل صاحبة السمو، وسأذهب أنا لأرى ماذا هنالك، وأعود في الحال.

مضى سائراً وراء الرجل الذي كان يحمل المصباح عالياً لكي يضيء له الطريق، كانا يتجاوزان لفائف من الحبال، ويقفزان بين برك ماء المطر. ووصلا إلى قرب مجموعة مؤلفة من خمسة رجال يحيطون برجل سادس ويشدونه. وكان هذا الأخير قد فقد نظارته أثناء الشجار. فأمرهم أونوفري: اتركوه! من هذا؟ فأجابوه: لا نعرف، لقد فتشناه، ولكنه لا يحمل سلاحاً؛ لديه سكين جيب صغيرة فقط. أمعن أونوفري بوفيلا النظر إلى المتسلل، وسأله كيف استطاع الدخول إلى الرصيف. فأجابه الآخر وهو يحاول تسوية سترته بضربات قوية من يديه:

– الأمر ليس صعباً، فقد كانت الحراسة كبيرة.

بدا من لهجته أنه ليس أجنبياً؛ كما لم يبد عليه أنه من المناشفة، أو من العدميين، أو ممن لهم مصلحة في إلحاق الأذى بزوجة القيصر. سأله عمن يكون، وعما يفعله في ذلك المكان. فقال إنه صحفي، وذكر الصحيفة التي يعمل فيها، وقال:

– لاحظت الاستعدادات لدى مروري في شارع رمبلاس، فقدرت أن شخصية مهمة أو خطيرة ستصل، فغافلتُ الحراسة واختبأت خلف حزم البضائع. وقد اكتُشف أمري لسوء الحظ وأُسيئت معاملتي. وأضاف بلهجة متحدية: ماذا ستفعلون بي الآن؟

فقال بوفيلا:

– آه، لا شيء، لا شيء على الإطلاق. فأنت لم تفعل شيئاً في الحقيقة سوى القيام بواجبك كمخبر صحفي. ومع ذلك، أرغب في التوسل إليك بإلحاح في هذه الحالة، بعدم نشر شيء مما رأيته. وأنا مستعد بالطبع للتعويض عن كل الضرر الذي يمكن أن يكون قد سببه لك هذا الحادث المؤسف – وبينما هو يقول ذلك، أخرج من جيب سترته الداخلي عدة أوراق بنكنوت، عدّ منها ثلاثاً وقدمها إلى الصحفي الذي رفضها صارخاً:

– أنا لا أقبل رشوة أيها السيد.

– ليست رشوة – قال بوفيلا، وأضاف:– إنها مجرد بادرة صداقة. وأنا

لي في هذه القضية مصلحة شخصية جداً.

- وأنا سأذكر الأمر على هذا النحو بالضبط في مقالتي - قال الصحفي ذلك بلهجة متوعدة. فاكتفى أونوفري بوفيلا بالابتسام بهدوء، ثم قال:

- أتركُ ذلك لتقديرك. مع أنني كنت أفضل أن نتفاهم بصورة أفضل. وقد كنتُ أتفاهم مع الصحفيين على أحسن حال على الدوام: أنا أونوفري بوفيلا.

فقال الصحفي:

- آه، اعذرني يا سيد بوفيلا. كيف يمكنني أن أعرفك؟ لقد فقدت نظارتي بصورة طارئة... اعذرني على كل ما قلته، ويمكنك أن تعتمد بالطبع على صمتي المطبق.

كان قد جرى الحديث في الصحافة عن أعماله وصفقاته أول، وآخر، مرة، في أيلول (سبتمبر) سنة 1903، على إثر بعض المصادرات الغامضة، وإحدى عمليات الإصلاح الإداري التي لا حصر لها في مرفأ برشلونة، والتي لم تكن تُنفذ قط: وكان بعض الأشخاص قد جنوا من تلك القضية أرباحاً لا يمكن تفسيرها. وعندما قرأ المقالة، أرسل ملاحظة إلى الصحفي الذي كتبها قال فيها: ***إنني ارغب كثيراً في تبادل الآراء مع حضرتك***. فرد الصحفي بملاحظة موجزة جداً مثلها: ***حدد انت بنفسك المكان والزمان، ولكن حاول الا يكون ذلك عند الفجر في كنيسة سان سيفيرو***. وكان يشير بذلك بوضوح إلى الكمين الذي كلف جوان سيكارت حياته هناك قبل بضع سنوات. لم يبد أونوفري بوفيلا انزعاجه وردّ عليه: ***لستَ على ذلك القدر من الأهمية، احضر لمقابلتي في مكتبي، وانا مقتنع بأننا سنتمكن من التوصل إلى اتفاق***. وفي اليوم التالي حضر الصحفي إلى المكتب. فقال له عندما صار أمامه: حدد ثمن سكوتك، ولننته من ذلك بأسرع ما يمكن، فليس لدي وقت أضيعه. فقال له الصحفي وهو يرسم ابتسامة باهتة: ومن قال لك إني معروض للبيع؟ فقال أونوفري: أنت تعرفني جيداً، وتعرف ماذا يمكنك أن تنتظر مني، ولو لم تكن معروضاً للبيع لما أتيت. خربش الصحفي بعض الأرقام على ورقة وأراه إياها: كانت رقماً ضخماً، قصد به إغاظته: وكان استفزازاً حقيقياً. ولكن بوفيلا

ابتسم وقال له: إنك تحدد لنفسك ثمناً بخساً؛ لقد كنت أتوقع مبلغاً أكبر بكثير؛ هيا خذه! وأخرج من أحد الأدراج مغلفاً ضخماً ناوله للصحفي. ألقى هذا الأخير نظرة على محتوى المغلف، ولزم الصمت بضع ثوان، ثم نهض دون أن يقول شيئاً، واعتمر قبعته وغادر المكتب. ولدى وصوله إلى أول تقاطع في الشارع، انقض عليه أربعة رجال؛ فانتزعوا منه المغلف، ونقوده التي كان يحملها عندما خرج من بيته ليشتري حاجاته اليومية. ثم كسروا بعد ذلك ساقيه الاثنتين.

عندما انصرف الصحفي أراد أونوفري أن يرجع إلى عربة مركيز أوت، ولكن الموكب بدأ التحرك في تلك اللحظة. وكانت العربات تمر بجانبه بضجة كأنها تهشم الزجاج وقعقعة الحديد؛ فاضطر إلى البحث عن ملجأ بين رزم البضائع المكدسة على الرصيف كي لا تسحقه تلك العربات المترعة بالحمولة. وكانت بعض العنزات تطل برؤوسها من النوافذ، وتلمس وجهه بلحاها؛ واستطاع أن يشم أنفاسها النتنة بوضوح. فتساءل وهو يرفع صوته أعلى من الثغاء الشاكي: أي شياطين تفعلها هنا هذه العنزات؟ فقدم له «الموجيك» الذي يتولى رعايتها بعض التوضيحات التي لم يفهمها. وأخيراً قال له شخص ذو ملامح منتفخة، يرتدي زي الخيالة، وهو يصرخ بفرنسية ركيكية، إن سمو ولي عهد القيصر الذي يرافق أمه في هذه الرحلة، لا يثق بالحليب الذي يمكن أن يضيفوه إلى شايه في بلاد الغربة. وحتى علف الماعز يأتي في بالات من سهوب روسيا البعيدة. وكانوا قد أحضروا كذلك أثاث زوجة القيصر المفضل: سريرها، وخزائنها ذات المرايا، وأرائكها، والبيانو الخاص بها، ومنضدة مكتبها. ومئة وستة صناديق ملابس، وعدد مماثل من صناديق الأحذية والقبعات. وكان عليه أن ينتظر انتهاء مرور القافلة كي يغادر مخبأه المؤقت. وأخيراً وجد نفسه وحيداً على الرصيف. ووسط تلك الجلبة، لم يبق أحد، عمداً أو دون قصد، لانتظاره. كان حذاؤه، وواقيتا ساقيه، وساقا بنطاله، مغطاة بالوحل. بل ووصلت بعض اللطخات إلى سترته. ووجد قبعته غائصة في كومة من الروث، فتركها هناك. واستقل في شارع رمبلاس عربة أجرة أوصلته إلى منزله؛ فاستبدل هناك ملابسه بأقصى سرعة، بينما كانوا يجهزون له أسرع عربة في إسطبله. ومع ذلك، فقد وصل إلى فندق ريتز

عندما كانت الوليمة التي نظّمها بنفسه، ودفع تكاليفها، قد بدأت. فأسرع متجهاً نحو المائدة الرئيسية، حيث كانت تجلس زوجة القيصر، وولي العهد، والأمير يوسوبوف وضيوف لامعون آخرون، يحيط بهم مضيفوهم الكتلانيون. وحين وصل إلى المائدة انتبه إلى أنه لا وجود لأي كرسي شاغر، وإلى عدم وجود أدوات طعام له. وعندما لاحظ مركيز أوت ارتباكه، نهض وهمس في أذنه: ماذا تفعل هنا واقفاً كالمغفل؟ مكانك هناك، على المائدة الثالثة. فاعترض بصوت خافت: ولكنني أريد الجلوس هنا، إلى جانب زوجة القيصر! فهمس المركيز والذعر باد على وجهه: دعك من الحماقات، فأنت لا تنتمي إلى طبقة النبلاء؛ هل تريد إهانة صاحبة السمو الإمبراطوري؟ إنه يتذكر الآن تلك المشاهد بينما الرافعات تحمل عن ظهر السفينة «الهاوتزات» الألمانية المخيفة، ومدافع ضخمة لم يُرَ لها حتى ذلك الوقت مثيل في أي ميدان من ميادين القتال: كانت تلك هي المدافع المضادة للطائرات التي استطاع إخراجها بكلفة باهظة من ثكنات الأركان العامة الفرنسية. وكان يشعر الآن برعشة النشوة وهو يرى تلك الصناديق الغريبة. ولم تكن مثل هذه المشاعر تنتابه في الآونة الأخيرة إلا نادراً؛ فهو يشعر بالضيق والملل في معظم أيام السنة. في الليل يبقى في منزله، معتكفاً في المكتبة، ومحوطاً بمئات الكتب التي لا يفكر بقراءتها أبداً، يدخن السيجار الهافاني ويتذكر بحنين ليالي اللهو والقصف البعيدة تلك، عندما كان يخرج مع أودون موستاثا، الذي يرثي الآن لموته، فيشهدان بزوغ الفجر من خلال النوافذ التي يغطيها البخار في بيت مغلق، تحيط بهما زجاجات فارغة، وبقايا طعام، وورق لعب وأحجار نرد، ونساء عاريات ينمن ملتصقات بالجدران، وثياب مبعثرة في كل أرجاء الغرفة، منهوكين وسعيدين، مفعمين بطيش الشباب البريء.

– 2 –

كان معالي السيد محمد توريس يتصبب عرقاً في مدريد. فهو المعتاد على نسيم الأطلنطي الذي يرطب أفناء قصره في طنجة، يشعر الآن بالاختناق في قصر أورينتي، حيث حلّ وهو في طريق عودته من باريس بعد

لقائه مع كليمنصو. وكان عطر المسك الذي يتطيب به يسبب الغثيان لدون أنطونيو ماورا. لقد كانت السلطنة تحافظ حتى ذلك الحين على استقلال مزعزع بفضل المنافسة بين فرنسا وإنكلترا؛ وقد بدأت ألمانيا الآن تسعى لإقامة قواعد بحرية لها على السواحل المراكشية، وفتح أسواق البلاد لصناعاتها: وحيال هذا الأمرالطارئ، وقّعت القوتان العظميان المتنافستان اتفاقاً في نيسان (أبريل) 1904، وأخذت فرنسا تخطط الآن للاستيلاء على المغرب وإفقاد السلطان ووزيره الأكبر صوابهما، وتحويل مراكش إلى امتداد للجزائر. وبينما كان جلالة الملك ألفونسو الثالث عشر يستمع باهتمام إلى شكاوى وزير خارجية السلطان، فكر بأن حلّ المشكلة في منتهى البساطة. فاقترح عليه:

- دعك من القلق يا فتى.

فقال وزير عبد العزيز:

- جلالتك بعيد النظر، ولكننا لا نستطيع رفض حماية قوة عظمى دون المجازفة بتاج سيدي السلطان عبد العزيز، وربما برأسه.

- ما رأيك أنت يا دون أنطونيو - قال الملك ألفونسو متوجهاً إلى من كان آنذاك رئيساً لمجلس الوزراء. ووجد دون أنطونيو ماورا نفسه أمام معضلة: فإذا ما أصر على بقاء الوجود الإسباني في افريقيا، فإن ذلك سيعني مواصلة العيش فوق عش زنابير، وهو مشروع مخيف بالنسبة لبلاد أصابها الفقر، وأنهكتها الكوارث التي حلت بها مؤخراً في مستعمراتها؛ أما التخلي عن الوجود الإسباني هناك، فإنه يعادل فقدان آخر بقايا السمعة في محافل الأمم. وقد أوضح الأمر على هذا النحو بإيجاز لجلالة الملك الذي ردّ عليه: لا يهمني أي شيء من هذا كله. فاقتاده دون أنطونيو إلى أحد الأركان بينما كان محمد توريس يتأمل لوحة كبيرة من دفتين معلقة على الجدار: تتبارى فيها جوديت وسالومي، ويبدو أنهما تظهران بالتبادل غنيمتيهما الداميتين؛ بينما يتدلى من فميّ المعمدان وهولوفيرنس لسانان طويلان متورمان. عندئذ تذكر أن النبي كان قد حرّم تصوير الوجه البشري. وفي أثناء ذلك كان الملك ورئيس مجلس الوزراء قد رجعا من اجتماعهما الجانبي. وقال الأخير:

- لقد كان جلالته من أنصار فكرة ترك مراكش لمصيرها، ولكنني

تمكنتُ من إقناعه بالعدول عن رأيه. فقدرة جلالته على التفهّم يضرب بها المثل - فقام وزير خارجية السلطان بالانحناء ثلاث مرات تعبيراً عن الرضا والامتنان، وأضاف دون أنطونيو:- وقد أطلعته كذلك على الأوجه الأخرى للقضية. فالحقيقة أنه لم يعد لدى الجيش ما يفعله بعد فقداننا كوبا، وحين يصبح العسكريون بلا عمل يتحولون إلى مصدر خطر على الدوام: فهم يضجرون، ولا يترفعون، ويبقون في مراتبهم زمناً طويلاً. كما أخبرته عن الامتيازات المنجمية وعن الاستثمارات الإسبانية في تلك الأراضي - فرفع الوزير يده اليمنى إلى قلبه. وقام الملك ألفونسو الثالث عشر الذي كان عمره ثمانية عشر عاماً كذلك، بالتربيت على كتفه قائلاً له:

- سوف نريك كيف نلتزم بالمواثيق.

والآن، بعد خمس سنوات على ذلك الحديث، عادت أمهات المجندين الذي سيذهبون إلى افريقيا، إلى التظاهر في محطة القطارات، مثلما فعلن في أزمنة حرب كوبا، فكن يجلسن على عوارض السكة الحديد ولا يسمحن للقطار بالخروج. وكانت سيدات جمعية كاثوليكية قد جئن إلى المحطة ليوزعن صلباناً على الجنود، فرحن يحرّضن سائق القطار والوقاد على أن يمرا بالقطار فوق المتظاهرات. فرد هذان: لسنا ندري إذا كان مجندونا سيروقهم أن يرونا كيف نقطّع أمهاتهم. وكان البعض يصرخون «نعم لماورا!»، وآخرون يصرخون «لا لماورا!» وكان ذلك في يوم اثنين دبق من شهر حزيران 1909. ونظراً لأن الأمور اتخذت مساراً سيئاً، فقد حضر مركيز أوت إلى بيت أونوفري بوفيلا.

- لقد ضعنا! - صرخ بذلك وشعره مشعث دون تصميغ، وربطة عنقه محلولة، وتابع:- الحاكم المدني يرفض إعلان حالة الطوارئ، والرعاع سيطروا على الشوارع، والكنائس تحترق، ومدريد تركتنا وحدنا كعادتها.

قدم إليه أونوفري بوفيلا علبة من الجلد المنقوش ممتلئة بالسيجار الهافاني. فأزاح المركيز العلبة جانباً بلطف. وقال أونوفري:

- لن يحدث شيء، لا تقلق. أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يحرقوا قصرك. هل أسرتك في الريف؟

فقال المركيز:

- إنها في المصيف. في سيتجيس.
- وهل القصر مؤمن عليه؟
- بالطبع.
- ها أنت ترى. - ثم نصحه قائلاً:- اعمل بما أقوله. اذهب لقضاء بضعة أيام مع زوجتك وأولادك.
- لقد فكرتُ في ذلك، ولكنني لا أستطيع عمله: لدي غداً اجتماع في المجلس الإداري - قال المركيز ذلك، ثم فكر في الأمر، وأضاف:- وأنا أظن الآن أنني ارتكبت حماقة ببقائي هنا.
سكب أونوفري بوفيلا كأسين من نبيذ أمونتيّادو الفاخر قائلاً: إنه ممتاز لتهدئة الأعصاب. في صحتك. وجاءهما من الشارع دوي قذيفة مدفع، ففكر: أيمكن أن تكون الثورة قد اندلعت؟ تذكر تلك الأيام البعيدة التي كان يبشر فيها بقلب النظام السياسي بين عمال المعرض الدولي. لقد كان في ذلك الحين فتياً وفقيراً ويتمنى ألا يتحقق شيء مما يدعو إليه أبداً؛ وهو الآن غني ويشعر بأنه عجوز، ولكنه لم يستطع كبح وميض أمل شعّ في روحه: أخيراً! سنرى الآن ما الذي سيحدث فعلاً.
- في صحتك - قال المركيز وهو يرفع كأسه. وشرب النبيذ كله في رشفة واحدة، ثم تجشأ ومسح شفتيه بظاهر يده. وكان أونوفري يقدر هذه الأساليب الظريفة. وفكر بأنه ليس عليه أن يظهر أي شيء. وقال له المركيز:- وما رأيك أنت؟
- ماذا ترى أنت؟ - أجابه وهو يشعل سيجاراً هافانياً ويعبّ دخانه بتلذذ واضح، ثم تابع:- ليس لدي اجتماع في المجلس، ولكنني لم أغادر مع ذلك، ولا أفكر في الخروج من برشلونة. - ثم أضاف وهو يرى تشنج ملامح المركيز:- ما الذي سيحدث؟ إنهم بضعة بائسين، ليس لديهم أسلحة ولا قادة. دعهم يلعبون. ليس لديهم من ورقة رابحة سوى خوفنا - وتذكر الآن تلك المظاهرة التي شارك فيها قبل أكثر من عشرين سنة؛ تذكر الحرس الأهلي، والخيالة والسيوف، والمدافع المشحونة حتى فوهاتها. ولكنه لم يُطلع المركيز على هذه الذكريات. وبينما هو ينظر من النافذة: كان يرتفع في السماء الزرقاء في ذلك المساء الصيفي عمود من الدخان الأسود. وقدر موقع

الحريق، ذهنياً، في منطقة رافال: ربما في كنيسة سان بيدرو دي لا بوبيّاس، وربما في كنيسة سان بابلو دل كامبو (وكانت هذه الكنيسة الأخيرة هي التي تحترق)، وتابع كلامه:- افترض للحظة أنهم سيتوصلون إلى الانتصار. فهل تعرف ما الذي سيحدث عندئذ؟ سيأتون ليتوسلوا إلينا أن نساعدهم؛ لأن الفوضى ستعم بصورة مطلقة بعد عدة ساعات، وسيحتاجون إلينا أكثر مما هم بحاجة إلينا اليوم. تذكر نابليون - فكان على المركيز أن يضحك رغم ارادته، وابتعد هو عن النافذة بدافع الحذر: فقد رأى مرور جماعة من الجند راكضين وهم يعلقون بنادقهم بأكتافهم؛ وبعضهم يحملون رفوشاً في أيديهم، وآخرون معاول: إنهم من الجنود الحفارين. فتساءل بينه وبين نفسه إلى أين هم ذاهبون؛ فالعمال هم الذين كانوا يقيمون المتاريس. ثم تابع كلامه وهو يجلس من جديد على الأريكة:- لم يحن الوقت بعد. ولكنه سيأتي ذات يوم. ولن يكون ذلك اليوم بعيداً بحيث لا نراه أنا وأنت يا امبروسي. وعندئذ ستندلع الثورة العالمية وسيتوارى نظام الأشياء الحالي القائم على الملكية، والاستغلال، والهيمنة، ومبدأ السلطة البرجوازية والعقائدية؛ ولن يبقى حجر على حجر، في أوروبا أولاً، ثم في بقية أنحاء العالم بعد ذلك. وعلى صرخة «السلام للعمال، والحرية لكل المضطهدين والموت للحكام والمستغلين والمراقبين من كل نوع» ستتقوض كل الدول وكل الكنائس، ومعها كل المؤسسات وكل القوانين الدينية والحقوقية والمالية والشرطية والجامعية والاقتصادية والاجتماعية لكي تتمكن هذه الملايين من البشر التي تعيش اليوم مكممة، مستعبدة، معذبة، ومستغلة، من أن تجد نفسها متحررة من الأدلاء والمحسنين الرسميين والدينيين، وتستطيع التنفس أخيراً بكل حرية، كمؤسسات وكأفراد.

سأله المركيز الذي كان ينظر إليه بعينين جاحظتين: ما هذا الذي تقوله؟ فانفجر أونوفري بوفيلا ضاحكاً:

- لا شيء. لقد قرأته في نشرة وقعت بين يديّ منذ زمن طويل. لدي ذاكرة غريبة: فأنا أتذكر حرفياً كل ما أقرؤه - ثم أضاف بالنبرة نفسها:- زوجتي وابنتاي في بوداليرا، في بيت حميي. ابقَ لتناول العشاء معي؛ فأنت لن تستطيع الذهاب إلى النادي على أي حال اليوم.

كانا يتناولان العشاء عندما فاجأهما دوي آخذ بالتعاظم: راحت الأرض

ترتج، والثريات تهتز، وقطع كريستالها تترنح، وأدوات المائدة تتراقص على المنضدة. وعاد القهرمان الذي أرسلاه ليرى ما يحدث، وقال إن فرقة من الجنود المدرعين تتقدم في الشارع بدروع بيضاء وقنازع ريش سوداء على خوذاتهم، وهم يشهرون سيوفهم ويسندونها إلى كتفياتهم. ثم دمدم القهرمان:

– لقد أخرجوا إلى الشوارع فرقة الفرسان الثقيلة. ربما كانت الأمور أخطر مما ظنّه سيدي.

– يجب أن تنام هنا – قال أونوفري للمركيز الذي وافق على ذلك – أستطيع أن أقدم لك أحد قمصان نومي؛ وآمل أن يناسبك.

– لا تزعج نفسك – قال المركيز وهو ينظر بطرف عينه إلى الخادمة التي كانت ترفع الأطباق عن المائدة، وأضاف:– يمكنني أن أتدثر على طريقتي.

تواصل طوال الليل دوي قذائف المدفعية والبنادق والرشاشات، وطلقات القناصين المتباعدة. وفي صباح اليوم التالي، عندما اجتمعا في قاعة الطعام لتناول الفطور، كانت تحيط بعيني مركيز أوت المنتفختين، دائرتان قاتمتان. لم تكن الصحف قد وصلت. وأخبرهما القهرمان أن المتاجر لم تفتح أبوابها، وأن المدينة مشلولة، وكل الاتصالات مع العالم الخارجي مقطوعة.

– لن يستمر هذا الوضع طويلاً – قال أونوفري، ثم سأل القهرمان: – هل مستودع المؤونة مجهز جيداً؟

– أجل يا سيدي – قال القهرمان.

وهتف المركيز:

– يا للبربرية! الرعاع يحاصروننا وأنا لا أملك إلا ملابسي التي علي... – ثم حدق إلى الخادمة التي كانت تقدم له القهوة؛ فاحمر وجهها وحوّلت بصرها جانباً؛ وتابع المركيز متوجهاً بالسؤال إلى بوفيلا:– هل يمكنك أن تقرضني بعض المال؟

– بقدر ما تريد – ردّ عليه – ولكن لماذا تريده؟

فقال المركيز هو يشير بإصبعه الإبهام إلى الخادمة:

– لكي أكافئ هذه المخلوقة اللذيذة. ثم أنصحك بعد ذلك بأن تصرفها اليوم بالذات.

- لماذا؟

فقال المركيز:

- إنها بليدة في الفراش.

قرأ أونوفري بوفيلا أشد ملامح الغم عمقاً في وجه الخادمة. لا بد أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها؛ وقد وصلت من الريف منذ وقت قريب، ولكنها كانت ناعمة التقاطيع ورقيقة الأساليب، ولهذا جرى تكليفها بخدمة المائدة وليس في أعمال أكثر خشونة. وهو يعلم الآن أنه إذا ما نفذ ما يقترحه عليه المركيز فلن يبقى لها من خيارات أخرى سوى الماخور أو العوز. سألها: ما اسمك؟ وكان جوابها: أوديليا، في خدمتك يا سيدي. وهل أنت سعيدة في هذا البيت يا أوديليا؟ فقالت: أجل يا سيدي، إنني سعيدة جداً.

- إليكَ إذن ما سنفعله في هذه الحالة - قال موجهاً كلامه إلى المركيز: أنت ستوفر على نفسك دفع المكافأة، لأنك لم تكن راضياً عنها؛ وستبقى أوديليا في البيت، وأنا سأضاعف أجرها، ما رأيك؟

لم يفعل ذلك كرماً؛ ولا لحسابات معينة، لأنه لا يؤمن باعتراف البشر بالجميل: وإنما أراد أن يثبت لضيفه فقط بأنه يفعل في بيته ما يحلو له. حدق كل منهما إلى عيني الآخر للحظة. ثم انفجر المركيز أخيراً في قهقهة مدوية. وهكذا انقضى ذلك الأسبوع الذي سيوصف في ما بعد بأنه «مأساوي». كانا يلعبان الورق ويتبادلان الأحاديث مطولاً؛ وكان المركيز محدثاً بارعاً ومسلياً، ويمثل كذلك مصدراً ثميناً للمعلومات بالنسبة إلى أونوفري بوفيلا: لم تكن هناك أسرة نبيلة إلا ويرتبط بها المركيز بصلة قرابة ويعرف أسرارها الحميمة. ولم يكن من الصعب جرجرته في الكلام: إذ لم يكن هناك ما يروقه أكثر من رواية الأحداث التافهة بتفاصيلها المسهبة. وكان أونوفري بوفيلا يجد في سرده المبتذل للنوادر، شرخاً يرصد من خلاله ذلك العالم الكتيم، المعفر، والمحزن بعض الشيء، الذي يجد أبوابه مغلقة في وجهه على الدوام. وفي الليل، بعد تناول العشاء، كانا يرسلان القهرمان إلى سطح البيت؛ فإذا ما رجع قائلاً إنه لا وجود لأي خطر، فإنهما يصعدان لتدخين السيجار وشرب الكونياك متكئين على الحاجز، ومتأملين وميض الحرائق. وأخيراً، حين سئما هذه الرتابة، أرسلا ملاحظة ساخرة إلى الحاكم المدني،

قالا فيها: ضع حداً لهذا الوضع، لأن ما لدينا من السيجار أوشك على النفاد. لقد كان أسبوعاً لطيفاً؛ خُيِّل لأونوفري خلاله بأنه قد استعاد روابط صداقاته التي لا مثيل لها مع الرجال. وها هو يرى الآن المركيز جالساً إلى المائدة الرئيسية بجانب زوجة القيصر، ويدرك أن ذلك كله لم يكن أكثر من وهم عابر وقصير.

كانت قد أقيمت فوق المائدة مظلة من الحرير الأحمر يتوجها شعار آل رومانوف؛ وقد غطيت جدران القاعة كلها كذلك بستائر من الحرير؛ وفي كل ركن، وضعت على منصات متحركة أربع مجموعات نحتية من الجص، صُنعت خصيصاً لهذه المناسبة؛ وكانت تتدلى من السقف ست ثريات ضخمة، كل واحدة منها تضم ثلاث دوائر من الشموع، فكان يضيء القاعة أربعة آلاف شمعة مصنوعة من شمع النحل وموزعة على الثريات الست وعدد كبير من الشمعدانات؛ وكانت أدوات الطعام على كل الموائد فضية، وعلى المائدة الرئيسية من الذهب؛ والأطباق وأواني الطعام من خزف سيفرز. وبينما هو يرى هذا الألق المترف الذي يعرف تكاليفه بدقة، راح يتذكر ذلك الأسبوع المأساوي. وكان غارقاً في هذه الأفكار، غير عابئ بالوليمة، حين فاجأه صوت جاره على المائدة العميق، الذي سمعه يقول له: إنك تفكر في الثورة أيها السيد. فأمعن النظر فيه أول مرة: كان رجلاً في حوالي الأربعين من عمره، طويل القامة ونحيل الجسم، ذا تقاطيع خشنة، فلاحية، ولكنها غير منفِّرة؛ وله لحية تصل إلى حيث ينتهي عظم القصّ؛ يرتدي ثوباً كهنوتياً يجعله يبدو أطول قامة وأشد نحولاً، وتنبعث منه رائحة نفاذة هي مزيج من الخل والبخور ورائحة نعجة. ومن مظهره العام ونظرته الثاقبة والغائمة، استنتج أونوفري أنهم قد أجلسوه إلى جانب أحد أولئك الرهبان الجهلة، الأفظاظ، الماكرين، المؤمنين بالخرافات، والمتعصبين، المتذللين إلى حد الدناءة، والذين يتمكنون في أحيان كثيرة من التسلل إلى بطانة ذوي السلطان والقوة. وقد عرف في ما بعد أنه يدعى غريغوري يفريموفيتش راسبوتين؛ وكان يتمتع آنذاك بحماية زوجة القيصر، لأنه تمكن من علاج ولي العهد وشفائه من النُّزاف بعد أن عجز الأطباء عن ذلك. وكانت تُروى عنه أشياء

خارقة؛ ويقال إنه يتمتع بقدرات على التنويم المغنطيسي والتنبؤ، وإنه يقرأ الأفكار ويحقق المعجزات بمحض إرادته. وسيبدأ نفوذه بالازدياد منذ تلك الآونة، وسيهيمن على البلاط الروسي، ويتحول إلى مستبد حقيقي؛ وسيتمكن مع الزمن من توزيع المناصب والألقاب، وبعد زمن غير طويل ستُجمع ثروات وتتبدد أخرى في ظله إلى أن تتمكن من اغتياله في عام 1916، مؤامرة دبرها ذلك الأمير يوسوبوف نفسه الذي يتلذذ الآن في فندق ريتز بتذوق مأكولات الاسكوديّا والكارن دأوِيّا الكتلانية. وبعد قليل من ذلك، مثلما كان قد تنبأ، ستندلع الثورة التي ستقضي على آل رومانوف في قلعة ايكاترينبورغ، ولكن ذلك النفوذ كله كان ما يزال في بداياته عندما رافق زوجة القيصر في رحلتها إلى برشلونة. وراح زميل أونوفري بوفيلا على المائدة يروي له كيف أنه كان شاهداً على يوم الأحد الدامي ذي الذكرى الحزينة: كان يطل من شرفة في الطابق الثاني من قصر الشتاء، وهو يحمل بين ذراعيه الدوقة الكبرى أنستاسيا، التي كانت ما تزال طفلة رضيعة، ويمسك بيد ولي عهد القيصر؛ ومن الشرفة المجاورة كان الدوق الأكبر سيرغي يومئ مداعباً الطفلين، ويقول له بين فينة وأخرى: دثرهما جيداً يا راسبوتين، فالبرد شديد. وكان في ذلك الوقت من أوسع الأشخاص نفوذاً، لأنه يتمتع بثقة القيصر نيقولا الكاملة. وفي شهر شباط (فبراير) من تلك السنة نفسها، ألقى فوضوي يدعى كالييف قنبلة على العربة التي كان يستقلها. ولم يبق من العربة وخيولها والدوق الأكبر سيرغي سوى كومة حطام يتصاعد منها الدخان. ومن شرفة الطابق الأول كان الدوق الأكبر فلاديمير، بالتشاور مع هيئة الأركان العامة، يقرر ما يتوجب عمله دقيقة فدقيقة. وقد قال: فلنتصرف بفطنة. وعندما دخلت المظاهرة إلى الساحة، تركها تتقدم. وتساءل القيصر: ماذا يريدون؟ فأجابوه: يريدون دستوراً يا صاحب السمو. فقال القيصر: آه. وأصدر الدوق الأكبر فلاديمير الأمر بفتح النار على المظاهرة. وخلال دقائق قليلة تفرق شمل المتظاهرين. وقال الدوق: أظن أننا قمنا بعملنا على أحسن وجه في هذه المرة. وقد بقي في الساحة أكثر من ألف جثة. وكان الراهب راسبوتين يتأسف الآن لأنه لم يستطع تقرير سير العمل في ذلك اليوم، وقال: أنا أعرف كيف يمكن تجنب الثورة. وكان يأكل بشراهة، مثل غول. أبدى أونوفري

بوفيلا اهتماماً بكلامه. ومع تقدمهما في الحديث، كان انطباعه الأول عنه يتعزز، ولكن شخصية ذلك المعتوه كانت تجتذبه لسبب لا يمكن تفسيره.

- هل أنت أونوفري بوفيلا؟

نظر إلى الرجل الذي كان يسأله على الرصيف: وجه غليظ التقاطيع، جاف، تخدده تجاعيد مبكرة. عينان غائرتان، وشعر خفيف. قال له نعم. فقال الرجل الذي على الرصيف: أنا جوان. وتصافح الأخوان بفتور. كان جوان بوفيلا في السابعة والعشرين من عمره عندما رأى أونوفري للمرة الثانية؛ وكان لقاؤهما هذا في مأتم أبيهما الذي توفي في الليلة السابقة. قال له: من المؤسف أنك لم تصل في الوقت المناسب، فهو لم يكف عن مناداتك حتى اللحظة الأخيرة. فلم يرد أونوفري عليه. هرع إليه المحارب السابق في كوبا، الذي يقود الآن عربة ركاب، وهو نفسه الحوذي الذي أوصله من المحطة إلى البيت قبل بضع سنوات، عندما ماتت أمه: إنه ما يزال يتذكره، بالرغم من انقضاء الزمن، وكان يريد أن يعرض عليه خدماته. فقال جوان: سنذهب سيراً على الأقدام، إننا على بُعد خطوتين. فقدم أونوفري إكرامية إلى الحوذي قائلاً له: هذا من أجل قوة ذاكرتك. ونظر جوان بطرف عينه شزراً إلى هذه اللفتة. كان الجثمان مسجى في مصلى الراهبات اللواتي يشرفن على ملجأ العجزة في باسورا. وكان الملجأ يتألف من بناء ضخم، جدرانه من الحجر وسطحه من الاردواز: وعلى كل نوافذه قضبان حديدية، ويحيط بالحديقة سور عالٍ. وعلى جانبي الملجأ تعلو مبانٍ سكنية. وكان نزلاء الملجأ يطلون من النوافذ ليروه وهو يمر في الدرب الذي يخترق الحديقة.

- لا أدري كيف عرفوا أنك قادم - قالت ذلك رئيسة الراهبات التي هرعت لاستقبالهما عند البوابة، وأضافت بنبرة سرية:- لا وجود لأسرار في هذه الأماكن. لا تستغرب انتظارهم هذا، لأن أباك المسكين لم يكن يفعل شيئاً في لحظات صحوه النادرة، سوى التحدث عنك إلى الجميع. ويمكن للأخت سوكورو التي تولت رعايته منذ إدخاله المركز أن تخبرك بذلك، أليس كذلك أيتها الأخت؟ - قالت ذلك متوجهة إلى راهبة فتية ذات وجه بيضوي وبشرة شديدة البياض، تكاد تكون شفافة، كانت قد انضمت إليهم في البهو الظليل.

فخفضت الراهبة الفتية عينيها بحضور أونوفري وأخيه جوان؛ ثم فتحت فمها، ولكنها لم تقل شيئاً. وتابعت رئيسة الراهبات القول:- كان في تلك المناسبات يردد الكلام نفسه على الدوام. يقول إنك ستأتي في طلبه؛ وكان يؤمن إيماناً مطلقاً بأنك على وشك الوصول. ويقول إنه سيذهب عندئذ معك ليعيش في برشلونة؛ وإنكما ستعيشان هناك محوطين بوسائل الراحة والرفاهية. وقد حمل ذلك بعض المسنين، المنقادين لسذاجته، إلى الشعور بالحسد تجاهه، والحقد عليه. يبدو أنهم كانوا يرون في سلوكه نوعاً من الترفع؛ ولكن هذا كله، مثلما قلتُ، لم يكن يحدث إلا بصورة عارضة. لقد كان أبوك رجلاً واسع المخيلة، بل يمكنني القول جامح المخيلة.

وبينما هي تتكلم كانوا يجتازون ممرات طويلة جداً، ومقفرة. وعلى جانبي تلك الممرات كانت هناك أبواب مغلقة. وكانت الأرضية المبلطة تلفت الانتباه بنظافتها. فهي تعكس الأشكال مثل بركة ماء ساكنة. ولدى اجتيازهم أحد المنعطفات التقوا راهبةً متينة البنية تمسح البلاط وهي جاثية على ركبتيها. وكانت ترتدي فوق مسوحها مئزراً رمادياً. وكانت تنبعث من الأرضية المسوحة حديثاً رائحة حريفة. وعندما وصلوا إلى المصلى نظر أونوفري بخمود إلى ذلك الوجه الشاحب الذي يراه الآن في النعش، مضاء بلهيب شمعتين مترنح: ذلك الوجه المتيبس والخالي من أي تعبير ألغى كل ذكرياته السابقة، فقال: يمكنكم إغلاق التابوت.

وقالت رئيسة الراهبات:

- بالرغم مما أخبرتك به، فقد أقام خلال وجوده معنا بعض الصداقات مع المسنين. وهؤلاء يرغبون الآن في حضور قداس الجناز، إذا كنت تسمح لهم بذلك.

أحضرت راهبتان جماعة من المسنين الذين جاؤوا مجرجرين أقدامهم. لم يكونوا جميعهم ممن عرفوا الأمريكي وهو حي، ولكنهم احتالوا للانضمام الآن إلى القطيع الحزين كي لا يفوتوا على أنفسهم تلك التسلية غير المتوقعة. جميعهم يرتدون الأسمال. وقالت رئيسة الراهبات: إننا نعتمد على الإحسان، ولهذا فإن أوضاعنا المالية حرجة ونعاني الضيق. وبعد انتهاء الطقوس، عندما كانوا يستعدون للخروج في اتجاه المقبرة، شدته الأخت سوكورو من

كمه، وهمست: تعال، سأريك شيئاً. فانقاد لها حتى بلغا باباً ضيقاً مطلياً بالأزرق. فتحت الراهبة الفتية الباب بمفتاح ضخم معلق بشريط إلى مسوحها. وكان الباب يفضي إلى حجيرة مخزن ضيقة ومظلمة. دخلت الراهبة إليها ثم عادت للظهور وهي تحمل في يدها مجموعة متشابكة من قصب الخيزران، وقالت له:

- نحن نُعلّم المرضى هنا صنع السلال. وقد كان أبوك يصنع هذه: لم يكن يتمتع بالكثير من المهارة اليدوية، ولم يستطع تجاوز هذه المرحلة في صنع السلة. والحقيقة أنه كان في حالة سيئة جداً عندما أحضره أخوك، قبل حوالي سنة. وقد دفع هو ثمن الخيزران؛ ولهذا فإن ما صنعه هو ملككم في الواقع.

ولدى العودة من المقبرة، ذهب مع أخيه لتناول الطعام في المطعم نفسه الذي التقى فيه هو وأبوه مصادفة، قبل سنوات طويلة، كلاً من بالدريتش وفيلاغران وتابيرا. تناول الأخوان الحساء وهما صامتان. وبينما هما ينتظران أن يقدم إليهما الطبق الأول، قال أونوفري: كنت أنوي المجيء، ولكنني لم أستطع. فقد كان علي أن أحضر مأدبة عشاء مع «القيصرة» بالذات.

- أنا لا أعرف ما هي زوجة القيصر. ولست أؤنبك على أي شيء، وليس مطلوباً منك أن تقدم لي أي اعتذار.

وقال أونوفري:

- أريد أن أؤكد لك أن كل النفقات التي دفعتها سأتحملها أنا.

- كنتُ أفكر في بيع الأراضي - قال جوان وكأنه لم يسمع ما قاله أخوه. وتابع:- وسوف أحتاج من أجل ذلك إلى موافقتك الخطية - نظر إلى أونوفري بثبات. واستنتج من صمته أنه ينتظر سماع بقية الكلام قبل أن يعرب له عن رأيه، فأكمل قائلاً:- وبعد ذلك سأذهب إلى برشلونة. لا تقل لي شيئاً - سارع إلى قول ذلك عندما رأى أن أخاه يهم بالكلام؛ واكتشف أونوفري فيه ملمحاً من ملامح أمه التقليدية. وكانا قد أنهيا في أثناء ذلك شرب إبريق النبيذ الذي على المائدة، بالرغم من أن أونوفري لم يتناول منه سوى رشفتين. وقال هذا الأخير:

- لا تصرخ. فنحن معروفان هنا؛ الجميع ينظرون إلينا.

فصرخ جوان:

- لا يهمني كل هذا!

وقال أونوفري مبتسماً:

- أترى؟ أنت لستَ ذكياً مثلما تظن نفسك. اهدأ واسمع الخطة التي جئتُ خصيصاً لطرحها عليك.- صفق براحتيه وطلب من النادل الذي هرع إليه أن يملأ إبريق النبيذ من جديد، ثم تابع القول لأخيه:- أعرف جيداً ما الذي تفكر فيه؛ ومع أن كلاً منا لا يكاد يعرف الآخر، فإننا لا يمكن أن نكون مختلفين. ويجب علينا أن نتفاهم فيما بيننا. لقد سئمتَ من العمل في الأرض، أليس كذلك؟ سئمتَ الريف، وكيف يمكن لي أن أعارضك في ذلك؟ - قدم له إبريق النبيذ، ولاحظ أن جوان يشرب بصورة آلية؛ وكلما شرب أكثر، كان بريق عينيه الفاترتين يخبو. وتابع قائلاً له:- الأرض لا تعطي شيئاً، هذا ما أعرفه جيداً. ولكن الثروة في الغابات. وهذا ما سنهتم به منذ الآن: الغابات. فالغابة لا تحتاج إلى جهد، إنها تنمو تلقائياً. كل ما علينا عمله هو المراقبة، حتى لا يسبقنا آخرون ويأخذون الخشب. وهم يدفعون في المدن ثروات حقيقية مقابل الخشب، ولكن لا بد لأحد من البقاء هنا، كي يحرس الغابة، مصدر ثرائنا.

- لستُ أدري من الذي تريد خداعه بهذه الأوهام. فالغابات للجميع؛ ولا يمكن لأحد أن يستحوذ عليها - قال له جوان ذلك، وكان قد خفض صوته؛ فليس بإمكانه هو أيضاً الإفلات من تأثير أونوفري بوفيلا: وبدا الآن، وهما يتقابلان وجهاً لوجه، كما لو أن الحقد المتراكم على امتداد تلك السنوات، قد تراجع إلى مستوى ثانٍ، وكان جوان مهزوماً رغم إرادته أمام مزيج من الفضول والجشع.

قال أونوفري:

- لقد كانت الغابات حتى الآن للجميع؛ أي إنها بكلمة أدق، لم تكن ملكاً لأحد؛ ولكن إذا ما تحول الوادي كله إلى كيان عام، وإذا ما تحول إلى بلدية بدل كونه أبرشية، فإن كل الأراضي التي ليست أملاكاً خاصة، كل الأراضي التي لا يملكها أحد، ستصبح أراضي عامة، وستخضع لإرادة البلدية، وهذا

يعني لإرادة السيد العمدة... هل تحب أن تصير عمدة يا جوان؟

- لا.

- يمكنك على أي حال أن تبدأ بتغيير رأيك - قال له أونوفري.

تلك المحادثة، وسعيه غير المفهوم لاستمالة أخيه إليه، مع أنه يكاد لا يعرفه، ولا يقرأ في عينيه سوى الضغينة القاسية، قد كلفته الكثير من الأموال، ومساعي لا حصر لها، راح يتذكرها الآن. أفزعه الظهور المفاجئ لدركيين في المرفأ. وقد انتبها إلى تأثير حضورهما فيه، فرفعا يديهما إلى قبعتيهما محيين، وقالا: اعذرنا يا دون أونوفري، لم يكن هدفنا إخافتك. إننا نبحث عن تبغ مهرب. لم يعد إلى رؤية جوان منذ يوم الجنازة: فلم يحضر يوم توليه منصب العمدة، ولم يكن يعرف شيئاً عن مساعيه الإدارية؛ إنما كانت تصل في فترات منتظمة إلى مستودعاته في بويبلو نويفو شحنات الخشب والفلين التي تنتجها بوفرة جبال تلك المنطقة. وكان يفكر مع ذلك: ليس لي عائلة، ولا صلة دم سوى جوان، وابن أبله، وابنتين متكلفتين. وفكر: الحمقى وحدهم هم الذين يقطعون كل جذورهم بصورة قطعية.

- 3 -

افترق عن أخيه فور انتهائهما من تناول الطعام. واستمر بينهما في أثناء ذلك الفتور الذي بدأ به لقاؤهما، ولكنهما توصلا إلى الاتفاق. وهو يسير الآن وحده في شوارع باسورا. كان جوان قد قفل راجعاً إلى البيت في الساعة الثانية والنصف، محاولاً الاستفادة من ساعات ضوء النهار المتبقية؛ أما القطار الذي سيسافر فيه هو بالمقابل، فلن ينطلق قبل الساعة الثامنة. تلك المدينة التي بهرته في طفولته، بدت له الآن صغيرة وقبيحة؛ جوها عفن؛ والمارة الذين صادفهم أفظاظ. وفكر: لقد تسرب سناج المداخن إلى أدمغتهم. قادته خطواته دون قصد، ودون أن يشعر بذلك، إلى شارع تحف القناطر بجانبيه؛ دخل هناك إلى أحد البيوت، وصعد إلى الطابق الأول، وطرق الباب؛ استجابت لتلك الطرقة امرأة ذات مظهر ورع وهياب، فسألها إذا ما كان قد عاش في ذلك البيت يوماً مُحنِّط حيوانات. دعته المرأة للدخول إلى الردهة،

وقالت له: أجل، وإن ذلك المُحنِّط الذي يتحدث عنه هو أبوها بالذات؛ وهو ما يزال حياً في الواقع، وقد تقدمت به السن، مع أنه لم يعد يزاول مهنته منذ عدة سنوات. وهما يعيشان الآن، الأب وابنته، من مدخراته، بصورة متواضعة، ولكن دون عوز. وعندما قادته إلى المُحنِّط، سأله إذا ما كان يتذكر بأنه قد حنط قرداً منذ زمن طويل، فرد ذاك على الفور بنعم: وقال إنه لم يُتح له على امتداد حياته المهنية أن يحنط غير ذلك القرد الذي يسأله عنه الآن؛ وإنه يتذكر أن ذلك العمل كان صعباً، لأنه كان يجهل تشريح جسم القرد، ولأن الحيوان كان صغيراً جداً، عظامه هشة إلى أقصى الحدود؛ وكان عليه لهذا السبب أن يتصرف بعناية كبيرة في العمل، وأوضح أنه كرس له ساعات عمل طويلة، ولكنه تمكن من إنجاز العمل على أحسن حال في النهاية؛ وهو نفسه يعترف بذلك دون أي تواضع زائف. ثم مضت الشهور بعد ذلك دون أن يعود صاحب القرد للظهور؛ وهو يتذكره بدقة أيضاً، على الرغم من مرور عشرات السنين: كان رجلاً يرتدي ملابس بيضاء، ويضع قبعة من القش ويحمل عصا من الخيزران، ويرافقه طفل صغير، وانتهى المُحنِّط العجوز إلى القول: ها أنت ترى أن ذهني صاف على الرغم من تقدمي في السن. فقالت المرأة: لا تبذل كثيراً من الجهد يا أبتاه. ثم أوضحت، جانباً، لأونوفري بوفيلا بأن أباها ينفعل بسهولة، ولا يتمكن من النوم بعد ذلك حتى ساعة متأخرة من الليل. ولكنه سأله غير عابئ بتوسلات الابنة: وماذا جرى للقرد؟ بذل العجوز جهداً واضحاً لكي يتذكر. لقد احتفظ به لبعض الوقت في خزانة ليحميه من الغبار. وبعد ذلك، عندما تأكد من أن أحداً لن يطالب به، وضعه على رف في المشغل، كنموذج للعرض. وبعد ذلك؟ فقال إنه لا يتذكر ماذا حدث بعد ذلك. فتدخلت ابنته لمساعدته قائلة له: أجل يا أبي، لقد أخذه السيد كاتاسوس، ألا تتذكر؟ فقال المحنط المتقاعد: آه، أجل. فقد كان من عادة السيد كاتاسوس وصهره أن يحضرا لهما الحيوانات الكبيرة التي يصطادانها ليحنطها: كانا من أفضل زبائنه. وقال: لم يأتياني قط بما هو أصغر من اليحمور. وفي بعض الأحيان يحضران خنزيراً برياً. وقد رأيا القرد وأصرا على الحصول عليه؛ وكانت قد مضت سنوات والقرد موضوع هناك، على الرف. ولم يرَ أنه يخلُّ بأيٍّ قاعدة مهنية حين أهدى القرد لزبونين خاصين إلى ذلك الحد.

كانت أسرة كاتاسوس تقيم في الضواحي، في منزل، قال المحارب السابق في كوبا الذي وجده في موقف العربات بجانب المحطة، إنه يعرفه جيداً. وحين صار في البيت قدم بطاقته إلى الخادمة. وفكر، بينما هو ينتظر في الردهة، بأنه يقترف حماقة. وقال في نفسه: القرارات السخيفة تتلوها على الدوام نتائج مشؤومة. ربما كان من الأفضل التخلي عن هذه البلاهة العاطفية الآن، قبل فوات الأوان، كان يفكر في ذلك عندما خرج كاتاسوس نفسه للقائه. وهو ستيني مزهو، ومرح، وودود. قال له: بوفيلا، يا لهذا الشرف! وقال له إنه سمع عنه كثيراً؛ وإن لهما معارف مشتركين؛ كما وصلت إلى مسامعه أخبار المأدبة التي أقامها قبل أيام لزوجة القيصر. ثم اعترف وهو يضحك ببساطة: هذه الأمور تكون لها أصداء كبيرة على الدوام هنا في المقاطعات الريفية. ولكن، ما هو سبب تشريفنا بهذه الزيارة؟ فقال هو: إنها قضية خاصة. وأوضح الأمر في كلمات موجزة. وانتهى قائلاً: قد يبدو لك اهتمامي بذلك القرد سخيفاً. فرد كاتاسوس بلطف: لا، لا، ولا بأي حال، ثم أضاف: ولكن يؤسفني أنني لن أستطيع تلبية رغبتك مثلما كنتُ أتمنى. وروى له كيف أن صهره المدعو إسكلاسانس، صاحب معمل لتقطير الخمر، رأى القرد في أحد الأيام في محل المُحنِّط، وخطر له أن يطلق على نوع من الخمر اسم «*خمرة القرد*»؛ وكان قد تمكن من إقناع المُحنّط بأن يهدي إليه القرد، وكان ينوي أن يستخدم صورته كإعلان عن المُنتَج الجديد عندما كتب إليه المحامي الذي يدير أعماله في برشلونة ليخبره بأن هذه التسمية التجارية مسجلة مسبقاً؛ وأنه بمحض المصادفة، هناك في الأسواق خمرة يانسون تحمل الاسم نفسه. فتحول القرد لبعض الوقت إلى لعبة يلهو بها الأطفال؛ وعندما كبروا ألقي به في حجرة المهملات؛ ثم رمي إلى القمامة بعد ذلك، عندما تشوه وملأته العثة. وقال كاتاسوس بعد أن أنهى روايته:

– إنه لأمر رائع مع ذلك، أن تتمكن بعد مرور كل هذا الزمن من استعادة سيرة ذلك القرد كاملة. – ثم نظر إلى ساعة البندول وكأنه يريد التخلص منه في هذه اللحظة بالذات ولا يعرف كيف يفعل ذلك. وكان هو أيضاً يبحث عن صيغة تتيح له مغادرة البيت، ولكن كاتاسوس أضاف قائلاً:– أرى أنه ما زال هناك أكثر من ساعتين على موعد انطلاق قطارك، ونحن على بعد خطوتين

من المحطة كما يقال هنا. تفضل بالدخول، أرجوك. يسرنا جداً أن تشاركنا وجبتنا الخفيفة المتواضعة. فنحن لدينا كما ترى اجتماع عائلي صغير.

استسلم لاقتياده إلى غرفة طعام فسيحة، سقفها مشغول بزخارف فنية وأثاثها من خشب السنديان، حيث يوجد اثنا عشر أو ثلاثة عشر شخصاً. بادر كاتاسوس إلى تقديمهم، ولم يول لكل ذلك أكثر من اهتمام عابر. فبعض الحضور هم أبناء كاتاسوس وزوجاتهم؛ وآخرون أقارب على درجات متفاوتة من القرابة. وأخيراً قُدِّم له شخص مثير، قال كاتاسوس إنه يدعى سنتياغو بيلتال.

سنتياغو مخترع – هذه هي الصفة الوحيدة التي ذكرها كاتاسوس. ومن اللهجة التي خيل إليه أنه تبينها في صوته، ومن نظرات الحاضرين المتواطئة والباسمة، استنتج أن المعني هو أحد أولئك الأقارب الفقراء أو البائسين، غريبي الأطوار والمغفلين بعض الشيء، ممن ينتهي بهم المطاف لأن يكونوا مسخرة محيطهم من غير قصد. سنتياغو بيلتال، الذي سيرتبط اسمه بحياة أونوفري إلى الأبد، كان في ذلك الحين في الثامنة والعشرين من العمر، ولكنه يبدو في ضعف سنه الحقيقية: له مظهر ينم عن سوء التغذية والإنهاك، كمن توقف عن الأكل والنوم بسبب هاجس متسلط على عقله؛ له شعر طويل بلون القش، مزيت ووسخ، وعينان زائغتان ودامعتان، وأنف طويل وفم عريض بشفتين دقيقتين، وأسنان كبيرة تزيد من إبراز مظهره المضحك؛ كما أن سترته الصوفية العتيقة والمرفوة، وربطة عنقه ذات الخيوط المنسلة واللون الصارخ، وبنطاله القصير على قياسه، وخفه المصنوع من القنب، لم تكن كلها تبعث على الاحترام. وبالرغم من أنه يعيش دون شك على صدقات الآخرين، فإنه يكاد لا يتذوق أنواع الحلوى الموجودة في متناول يده. تبادل كلاهما النظرات لبعض الوقت. وخيل لأونوفري في إحدى اللحظات بأنه يرى أمامه ذلك الشاب المهووس الآخر الذي لم يتوصل إلى التعرف إليه بصورة فعلية قط، والذي كان قد هاجر في أحد الأيام إلى كوبا ورأسه مترعة بالأوهام، ورجع منها بروح محطمة، ولكن بأوهامه نفسها دون تبدل. وكانت هذه الصورة تطغى الآن في لمحة عابرة على صورة الجثة التي حضر جنازتها للتو. ومرت في ذهنه هذه الفكرة غير المنطقية: جئت بحثاً عن قرد

لا وجود له دون أن أدري لماذا أفعل ذلك؛ وها هو القدر يقدم لي الآن هذا الأبله بدلاً منه. وقبل أن يتمكنوا من تبادل ما هو أكثر من عبارات المجاملة المألوفة، راح كاتاسوس يروي قصة القرد؛ فقاطع أحد المدعوين القصة ليؤكد أن القردة حيوانات ذات ذكاء غريب. وأضاف أنه قرأ في أحد كتب الرحلات أن المصريين القدماء، بالرغم من عدم إيمانهم بالرب، فإنهم كانوا يعبدون القردة. وقال سيد آخر إنه يعرف من مصدر مطلع أنهم في الصين واليابان، على عكس ما رواه الآخر عن مصر القديمة، يأكلون لحم القردة، وأضاف أنهم يعتبرونها هناك من المأكولات اللذيذة. فقال ثالث إن ذلك ليس بالأمر الذي يستحق الذكر: لأنهم في إحدى مناطق أمريكا الجنوبية يأكلون لحم التماسيح والثعابين. وقال آخر إن ذلك يحدث في تشيلي على الأرجح. وإن إحدى أخوات أبيه تزوجت من تاجر صوف وهاجرت معه إلى تشيلي. فصححت له زوجته قائلة إن هذين القريبين اللذين يشير إليهما لم يهاجرا إلى تشيلي، وإنما إلى فنزويلا. وعلقت بالقول: من المؤسف أن تكون هي من تتذكر هذه الأمور مع أنهما ليسا من أقربائها في الواقع، اللهم إلا بعد زواجها. والشخص الذي كان قد تكلم عن أكل الثعابين، أشار إلى طريقة تحضيرها قائلاً: بعد أن يموت الثعبان، يقطعونه بمنشار، ويجعلونه قطعاً طول كل واحدة منها قرابة الشبر؛ ثم يخيطون كل واحدة من تلك القطع بخيط وإبرة من طرفيها، ويقلونها في الشحم أو في الزيت وكأنها السجق؛ وهي تشكل مع الحبوب الغذاء الأساسي لسكان تلك المنطقة من أمريكا الجنوبية. وقالت إحدى السيدات إن بقعاً بيضاء ظهرت على بشرتها. فنصحتها أخرى بأن تذهب لتناول الماء من كالداس دي بوهي. وأضاف أحد الفتيان أن هناك من أخبره بأن شوارع باريس تعج بالسيارات، وأنه صار من المألوف رؤية كلاب وقطط، وحتى حمير، ميتة في شوارع باريس بسبب دهس السيارات لها. وعلق سيد متقدم في السن، كان قد امتنع عن التدخل في الحديث من قبل: رواج السيارات سيحمل المصائب لأسر كثيرة. وقد وافق معظم الحاضرين على هذا الرأي. وقال كاتاسوس إنه على الرغم من صحة ذلك، إلا أنه لا يمكن مقاومة التقدم، ولا سيما في الميدان العلمي. وكانت الأمسية تنقضي على هذا النحو. ولم يقل أونوفري بوفيلا شيئاً. كان يراقب

بطرف عينه سنتياغو بيلتال الذي بقي صامتاً أيضاً؛ ولكن أونوفري، على العكس منه، لم يكن يبذل أدنى جهد للتظاهر بالاهتمام بما يقال: فقد كان يفكر في أموره؛ وبين فينة وأخرى كانت عيناه تكتسبان حيوية غير منتظرة: فيبدو عندئذ شخصاً خطيراً، ولكن لم يكن هناك من يلحظ ذلك، لأن أحداً لم يكن ينظر إليه؛ وفي أحيان أخرى يتقطب جبينه ويتبدى الحزن في عينيه، ولم يكن هناك من ينتبه إلى هذا أيضاً. وما بين هذا المظهر وذاك، كانت تمر أحياناً بضع ثوان يمكن خلالها قراءة التعب في وجهه. ولم يكن ذاك من جهته ينتبه إلى التفحص الذي يُخضعه له القادم الجديد خفية. انقطع هذا الوضع فجأة بدخول طفل إلى قاعة الطعام. وكان ذلك الطفل الذي لم يتجاوز الثالثة أو الرابعة من عمره يرتدي ثوباً مزركشاً، وقد ركض ليخبئ رأسه في حضن أمه وانفجر في بكاء صاخب لا سبيل إلى مواساته. وأخيراً تمكنت أمه من تهدئته ومعرفة سبب ذلك البكاء وسط زفراته وتنهداته:

– لقد ضربتني ماريا.

وأشار بيده السمينة نحو الباب الذي تركه مفتوحاً عند دخوله. وكان هناك في الجانب الآخر من الباب ردهة مستديرة، عارية من أي أثاث، ومضاءة من خلال كوة في السقف. ومن مقعده استطاع أن يرى في وسط تلك الحجرة، طفلة نحيلة ومشعثة، ترتدي ثوباً قصيراً حائل اللون يكشف عن ساقيها الواهنتين اللتين يغطيهما جوربان متسخان ومرقعان. وقد عرف على الفور من تكون. وعندما انتبهت الطفلة إلى أنه يراقبها باهتمام، وجهت إليه نظرة متحدية، ورأى على الرغم من بعد المسافة أن لها عينين مستديرتين عسليتين. وكان سنتياغو بيلتال قد نهض في أثناء ذلك، واجتاز في خطوات واسعة قليلة المسافة التي تفصله عن ابنته. فنهض هو أيضاً غير عابئ بما تمليه عليه أصول اللياقة، ووقف عند الباب. وحاول من هناك أن يسمع الحوار بين المخترع وابنته. وكان كاتاسوس قد لحق به ووقف خلفه قائلاً:

– لا تقلق يا بوفيلا. هذا يحدث في كل مرة يجيئان فيها. ليس كل الذنب ذنبها. فماريا في السابعة من عمرها وقد بدأت تفهم أموراً كثيرة. إنها سن صعبة في ظروفها.

فسأله:

- وأمها؟ - فهز كاتاسوس كتفيه وأطبق جفونه قليلاً وكأنه يريد أن يقول: من الأفضل عدم التكلم في الأمر. سُمع عندئذ دوي أصم أجبرهما على الالتفات، وكان بيلتال قد وجه صفعة إلى ابنته. ففكر أونوفري: إنه رجل عنيف. وكانت الطفلة تبذل جهدها للحفاظ على توازنها، ولكي تمنع نفسها من البكاء. ففكر أيضاً: ولكنها تحبه حتى العبادة، وربما بسبب ذلك تحديداً. وفكر: العنف هو نقطة ضعفه. رجع المخترع إلى غرفة الطعام. وكان شاحباً جداً: وراح يتلعثم بعبارات اعتذار غير متماسكة ولا نهاية لها؛ فكان يخلط بين الكلمات، فيثير بذلك ضحك مستمعيه، فوضع أونوفري بوفيلا الذي كان يقف بجانبه، يده على كتفه، وأحس بعظم الترقوة تحت راحة يده. همس في أذنه: انصرف الآن وأخرج الطفلة من هنا. وجه إليه المخترع نظرة مشحونة بالقسوة، رد عليها بابتسامة مطمئنة، كأنه يقول له: اهدأ، أنتَ لا تضحكني، ولكنك لا تخيفني كذلك؛ يمكنني أن أدبر أمر قتلك، ولكنني أفضل حمايتك. ودسّ له بطاقته في جيب سترته. لم ينتبه سنتياغو بيلتال لتلك الحركة؛ وتخلص بعنف من يده التي على كتفه، وأمسك ابنته واتجه نحو باب الردهة وهو يجرها دون أي اعتبار. فانتهز هو أيضاً هذه الفرصة لينصرف. شكرهم كثيراً على حسن استقبالهم له. وفي الطريق إلى المحطة، تجاوزَ في عربة الأجرة التي يستقلها المخترع وابنته. وكانا يتبادلان الكلام بحماس. ولأنه كان يدرك أن أياً منهما لن يلمحه، فقد التفت وبقي يراقبهما إلى أن انعطفت العربة في أحد منعطفات الطريق. هناك الآن ملايين البشر الذين يستعدون ليقتلوا بعضهم بعضاً في خنادق فردان والمارن، وكان هو يسعى جاهداً لكي لا يفتقروا إلى الوسائل اللازمة لعمل ذلك. كانت قد مضت سنة على ذلك اللقاء، ولم يعد يتذكر سنتياغو بيلتال وابنته. وكانت الرافعات قد انتهت من وضع المدافع على العربات؛ وشُدت إلى الحلقات المعدنية أحزمة قماش الخيم الذي يغطيها. وراحت ثمانية بغال تجرها عبر رصيف المرفأ باتجاه بوغاتيل. وكانت هناك جماعة من الرجال يحملون المشاعل في المقدمة، وآخرون يقودون البغال بشدها من أعنتها، وآخرون يحرسون القافلة والمسدسات في أيديهم.

- 4 -

لم تعد السيارات تملأ كل شوارع باريس، مثلما قال ابن أخت كاتاسوس؛ فقد كان يخيم هناك الآن الظلام والصمت البغيض. فمنذ أربع سنوات والحرب مستمرة دون توقف في أوروبا؛ وقد جرت تعبئة جميع الرجال؛ وكانت المصانع في أثناء ذلك ساكنة، ولم يعد هناك من يزرع الحقول، وتمت التضحية بآخر رأس ماشية من أجل إطعام القوات العسكرية. ولولا اعتماد الدول المتحاربة على إمبراطورياتها الاستعمارية، وعلى المؤن الآتية من البلدان المحايدة، لاضطرت تلك الدول المتحاربة إلى البدء، واحدة بعد أخرى، بإلقاء السلاح، مهزومة من الجوع، إلى أن تتمكن الأخيرة منها، القادرة على توفير الذخيرة والمؤن لوقت أطول، أن تعلن أنها سيدة العالم. وقد ابتهج بهذا الوضع المشؤوم كثيرون في برشلونة. لأن كل من لديه الآن شيء يمكن بيعه، يستطيع أن يصبح غنياً بين ليلة وضحاها، وأن يصير مليونيراً بين إغماضة عين وفتحها. كانت المدينة تعج مثل خلية نحل: فمنذ فجر أي يوم حتى شروق شمس اليوم التالي، كانت الحركة دائمة دون توقف، في اللونخا وفي البورني، في القنصليات والمفوضيات، في المكاتب التجارية والمصارف، في النوادي والمطاعم، في الصالونات وفي الغرف الضيقة، في صالات القمار والكباريهات والمواخير، في الفنادق والنُزل، في الأزقة المريعة وفي باحات الكنائس المقفرة، في مخدع عاهرة معطرة ولاهثة. كان يجري تبادل العروض، تحدد الأسعار بارتجال، وتقام المزادات، وتُدس الرشوات، وتُطلق التهديدات، وتُرتكب الخطايا السبع الكبرى من أجل عقد صفقة؛ وهكذا تنتقل الأموال من يد إلى أخرى، بسرعة ووفرة استدعت أن يُستبدل الورق بالذهب، والكلمة بالورق، والخيال المحض بالكلمة: فكان كثيرون يعتقدون أنهم ربحوا مبالغ خيالية ويظن آخرون أنهم أنفقوها دون أن يؤكد الواقع تلك التخيلات؛ وعلى موائد *البوكر والبكاراة* وغيرها من ألعاب القمار، كانت تنتقل ملكية ثروات حقيقية أو متخيلة من شخص إلى آخر عدة مرات خلال ساعات قليلة؛ وكانت أشهى المأكولات (أشياء لم تكن معروفة في إسبانيا من قبل) تستهلك دون أي طقوس احتفالية (كان هناك من يقدم للثيران ساندويتشات الكافيار).

ولم يبق مغامر أو مقامر أو امرأة لعوب إلا وأتى إلى برشلونة في تلك السنوات. أنوفري بوفيلا وحده كان يبدو غير مبال بذلك الرخاء. وكان يكاد لا يظهر علناً. فانتشرت حوله الآن أكثر الشائعات غرابة: فالبعض يقولون إنه فقد عقله لكثرة ما كسب من الأموال؛ وقال آخرون إنه مصاب بمرض خطير. وكانت هناك شائعات أوسع خيالاً، فقد قيل بجدية إنه يتابع الحرب خطوة خطوة، وإنه عرض على الإمبراطور أن يشتري منه عرش آل هابسبورغ، إذا ما خسرت النمسا الحرب، وهو ما كان يرى أنه سيحدث. وقيل أيضاً إنه مول الثورة التي أسقطت قيصر روسيا؛ وإن ألمانيا كافأته على ذلك بأن أودعت باسمه مئة كيلو غرام من سبائك الذهب في مصرف سويسري ومنحته لقب أرشيدوق. ولم يكن أي شيء من ذلك كله صحيحاً. إنما كان لديه جيش خاص من العملاء والمخبرين يطلعه أولاً بأول على ما يجري في ساحات المعارك وفي قيادات الجيوش، في الخنادق وفي مؤخرات الجيوش؛ فكان يعرف الكثير؛ ولم تعد الحرب تشد اهتمامه. ولكنه كان يلمح بالمقابل غيوماً قاتمة تلوح في الأفق. ويقول إن الأسوأ لم يأت بعد: وكان يشير بذلك إلى الثورة والفوضوية. فقد كان يرى بمخيلته أنه ستبرز من بين أنقاض أوروبا التي يتصاعد منها الدخان، جموع جائعة ومنتقمة، مستعدة لإعادة بناء المجتمع على قاعدة النظام، والنزاهة، والعدالة التوزيعية. وكان يعتبر الحضارة الغربية شيئاً من ممتلكاته، يغتّم من احتمال زوالها. وحمله تفكيره إلى الاعتقاد بأنه مكلف بمنع حدوث ذلك، وصار يعتقد بأن القدر قد خصه بهذا الدور التاريخي الفريد. فكان يقول لنفسه: لا يمكن أن يكون عبثاً أن حياتي كلها كانت متوالية من الأحداث الخارقة. فقد بدأ في ظروف سيئة وغير مواتية، واستطاع بجهوده أن يتحول إلى أغنى رجل في إسبانيا، وربما أحد أغنى أغنياء العالم. وهو يعتقد الآن أنه مكلف بإنجاز مهمة سامية جداً، ويعتبر نفسه مسيحاً جديداً. وبهذا المعنى يمكن القول فعلاً إنه فقد عقله. فهو يترك الآن أعماله لتواصل ازدهارها من تلقاء نفسها، ويكرس الأيام والليالي لوضع خطة لإنقاذ وجه الأرض من الفوضى. وكان يعتمد في ذلك على أمواله، وطاقته الجامحة، وانعدام الوازع الأخلاقي، وعلى الخبرة التي اكتسبها على امتداد حياته. لم يكن ينقصه سوى الفكرة التي ستربط بين تلك العناصر

المختلفة. ولأن هذه الفكرة لم ترد إلى ذهنه بسهولة، فقد أخذ تعكر مزاجه بالتفاقم: صار يضرب مرؤوسيه بعصاه لأي سبب؛ ولم تعد زوجته وابنتاه يرونه تقريباً. وأخيراً، في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1918، أي قبل يومين من إعلان جمهورية ويمار، تبلورت أمام عينيه الفكرة بصورة غير متوقعة، الفكرة التي كان يلاحقها في أحلامه.

لم يستعد السيد براوليو المسكين صحته التي فقدها بموت الرجل الذي أحبه. فاعتزل كل النشاطات، وصار يعيش مع ابنته ديلفينا في بيت متواضع من طابقين وحديقة، في شارع هادئ من قرية غراثيا القديمة التي أُلحقت الآن بالهيكل العمراني لبرشلونة، بعد أن أحاطت منطقة التوسع بجانب كبير منها. ولم يكن أي من الاثنين يخرج من البيت إلا في مناسبات معدودة. فديلفينا تذهب صباح كل يوم إلى سوق ليبرتاد؛ وتقوم هناك بالمشتريات دون أن تتكلم تقريباً: فهي تشير بإصبعها إلى ما تريده وتدفع الثمن الذي يُطلب منها دون أي أثر من الاستياء. وكانت البائعات اللواتي يجهلن الرعب الذي كانت تنشره في ما مضى في سوق آخر، يعتبرنها زبونة نموذجية. وبعد ذلك، كان الأب وابنته يظهران قبيل الغروب وقد أمسك أحدهما بذراع الآخر، ليتمشيا بخطى بطيئة في «ساحة الشمس»، تحت أشجار الأكاسيا، ثم يعودان إلى البيت دون أن يتبادلا كلمة واحدة مع أي شخص، أو حتى فيما بينهما. كانا يتظاهران بأنهما لا يلحظان التحيات والعبارات الودية التي يوجهها إليهما بعض الجيران، بدافع المودة من جهة، ورغبة في إجراء حوار عابر معهما من جهة أخرى، يكشف لهم السر الذي يحيط بهذين الشخصين. وبعد انتهاء نزهتهما، يغلقان باب الحديقة بقفل وسلسلة. وكان بإمكان من هو في الشارع أن يرى ضوءاً في نوافذ البيت خلال بضع ساعات تالية. ثم تنطفئ تلك الأنوار في حوالي الساعة العاشرة. ولم يكونا يتلقيان زيارات أو مراسلات، أو يشتركان بأي صحيفة أو مجلة. كما أنهما لم يذهبا إلى الكنيسة ولو مرة واحدة. فكانت تلك العزلة اللجوجة مصدراً للتكهنات: كان الاعتقاد العام هو أن لدى السيد براوليو دخلاً كبيراً، وأن ابنته هي التي ستتمتع بكل تلك المداخيل بعد موته، الذي سيحدث دون ريب خلال وقت

قصير: فحوّل ذلك ديلفينا إلى صفقة رابحة، وطريدة يتطلع إليها جميع الصيادين. ولكن من حاولوا التقرب منها في البداية، اصطدموا بحاجز من عدم المبالاة والصمت؛ فسارعوا إلى التخلي عن الأمر. وكانت السنون تمر عليها الآن ببطء نهر جليدي متجمد وقاس لا يرحم؛ وكانت حلقات الثرثرة والنميمة تشيع عنها أنها تنتظر موت أبيها لتنضم إلى إحدى الجمعيات الدينية؛ وتقدم لها مداخيلها كهدية. ويقولون إنه في اللحظة التي ستغلق فيها أبواب الدير وراءها، نكون قد أضعنا إلى الأبد إمكانية معرفة من هي وما هي المأساة التي دمرت حياتها.

في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1918 ، لم يعد يظهر للعيان في «ساحة الشمس» ذلك الثنائي الذي كان الفضوليون يرغبون في كشف سره. وبعد بضعة أيام دبت الحياة في الشائعات الهاجعة منذ سنوات. فقيل: إنه مريض، يا للرجل المسكين. وتنبؤوا بأنه سرعان ما سيموت؛ فقد رأوه عليلاً جداً في المرات الأخيرة التي خرج فيها للنزهة؛ وقالوا إن الموت كان بادياً على وجهه. وصار الجميع يقدمون الآن تشخيصات مستعادة لأمراضه. وألمح أحدهم إلى أنها يمكن أن تكون هي المريضة. فأثار هذا الاحتمال فضول سكان الحي. وجاء طبيب في عربة. فكانت ديلفينا هي التي هرعت لتفتح القفل الذي يغلق البوابة الخارجية. فقال الفضوليون: آه، إنه هو المريض، مثلما توقعنا. ثم جاء إلى البيت طبيبان آخران. فاستنتجوا: سيعقدون جلسة استشارية حول مرضه. وكانت تلك الجلسة الاستشارية هي بداية مجيء عدد لا حصر له من الاختصاصيين، والممرضات، والمساعدين. وواصلت ديلفينا الذهاب إلى سوق ليبرتاد كل صباح. فكانت البائعات يسألنها عن صحة أبيها، ويعربن عن تمنياتهن له بسرعة الشفاء؛ فتشير ديلفينا بإصبعها إلى ما تريد شراءه، وتدفع الثمن وتنصرف دون أن تقول شيئاً. انقضى شهر تشرين الأول (أكتوبر) والأسبوع الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) على تلك الحال من الحيرة والغموض. وحل روتين جديد وقلق محل الروتين القديم والهادئ طغى على البيت وساكنيه. وأخيراً رأى الفضوليون تعويضاً عن انتظارهم الذي استمر لسنوات. فوسط ذلك التوقع العام، ظهرت في أحد الأيام سيارة عجيبة. وتعرفوا فوراً إلى الرجل الذي ترجل منها، لأنهم يرون صورته في

الصحف على الدوام. وصاروا يتساءلون الآن عن نوع العلاقة التي يمكن أن توجد بين ذلك الثري الجشع والمتسلط وهذين الشخصين المنزويين النفورين. وقال أحدهم: هي من أرسلت تستدعيه، ولكن أحداً لم يعره أدنى اهتمام: فقد هرعوا جميعهم لرؤية السيارة عن قرب: كانت المقاعد مكسوة بجلد أحمر؛ وبطانيات التدثر أثناء السفر من فرو السمور، والنفير والمصابيح من الذهب؛ والسائق الذي يقودها يرتدي رداء رمادياً ياقته من فرو الحملان الصغيرة المتجعد، ويرتدي المرافق سترة خضراء تتخللها شرائط مذهبة.

لم تكن رؤية البيت ممكنة من خارج البوابة الحديدية: لأن أحداً لم يكن يقلّم الأشجار أو يقتلع الأعشاب الضارة. وكانت تنمو في الحديقة شجرة نخيل، وشجرة غار، وعدة أشجار سرو، وشجرة لوز هرمة يصل عمرها إلى مئة سنة، تبدو كأنها مستحاثة. وكان هناك إلى يمين شجرة اللوز، بركة مستنقعية وفوق البركة تمثال دلفين مشوه ومسود، تغطيه أجمة شجيرات ونباتات متسلقة، لم تعد تتدفق من فمه قطرة ماء واحدة. وهناك كان تحوم يعاسيب من كل الألوان. وعلى خلاف الحديقة، كان البيت يبدو نظيفاً ولا وجود فيه لزينات، ولا لوحات على الجدران، ولا حتى ستائر على النوافذ المواربة. كل شيء يبدو لامعاً، ولكن هذا المظهر كان زائفاً: إذ ليس هناك ما هو نظيف ومرتب سوى ما تسمح العتمة الخفيفة برؤيته؛ أما خارج ذلك الحيز الضيق الذي يحدده الضوء الخافت المتسرب من فتحات النوافذ أو شقوقها، كل شيء يلفه الغبار والتداعي: فنسيج العنكبوت يحتل جميع الزوايا، والعثة تلتهم الملابس الوسخة المقززة، والصراصير تسمن على بقايا الطعام المتعفنة؛ وتتكاثر بالآلاف يومياً في تلك البرودة. وكان ذلك التناقض المخيف نسخة مطابقة لحال ديلفينا، وتجسيداً لترديها.

– لم أكن أنا من طلب مجيئك، وإنما أبي. فهو الذي أراد أن يراك لآخر مرة. – قالت ذلك من الظلام. وكانت قد خرجت لتفتح البوابة الخارجية ووجهها مغطى بخمار سميك. فهي لا تريد أن يرى وجهها قبل أن تكشف له الحقيقة. وهي تبدو الآن، داخل البيت، كأنها شبح. ندم أونوفري بوفيلا لأنه لا يحمل سلاحاً، أو لأنه استبقى في السيارة مرافقه الذي يحمل السلاح

عنه. وكانت تلك هي الجملة الأولى التي سمعها تنطق بها، ولكنه عرف على الفور صوت فتاة النزل الذي لا يخطئه. وأضافت هي:- ولكن لم يرغمك أحد على المجيء. وأنتَ تعرف لماذا جئت إلى هذا اللقاء. - فلم يعرف بماذا يرد، وتابعت هي:- اصعد لكي تراه، ولا تخف؛ هناك ممرضة معه. وأنا سأنتظرك هنا.

صعد درجاً كان قد تكسر رخام عدة درجات فيه وبقيت عوارضها المعدنية مكشوفة يغطيها الصدأ. واتجه نحو الباب الوحيد المفتوح بعد تجاوز الدرج مستدلاً ببصيص ضوء رآه. دخل من الباب ورأى سريراً فوقه قبة قماشية، يستلقي عليه السيد براوليو. وكان هناك على الكوميدينو مصباح كهربائي تغطيه ستارة من قماش شفاف، يرسل ضوءاً ضارياً إلى البنفسجي؛ وكان وجه الرجل الراقد يكتسب على هذا الضوء بياضاً كبياض بتلات زهرة. وكانت الممرضة تشخر على أريكة قريبة. ولم يحتج إلى الاقتراب منه ليعرف أنه ميت منذ عدة ساعات. قام بجولة في الغرفة: في الجهة المقابلة للسرير كان هناك خوان زينة من اللَك مرصع بالعاج. ورأى عليه عدة علب من المراهم، وأصبغة الزينة، والملاقط، وأداة لتسوية الأهداب، ومجموعة من أمشاط وفراشي الشعر. وكان هناك شال من الدنتيلا السوداء يتدلى من إطار المرآة البيضاوية. ووجد في الدرج الأول مشطاً كبيراً من قوقعة سلحفاة بحرية. لقد تعوّد السيد براوليو المفاخرة، في السنوات الأخيرة من حياته، بأنه عمل موديلاً للرسام إسيدرو نونيل في رسومه الشهيرة لوجوه الغجريات. وكان نونيل قد مات حينئذ، ولم يعد ممكناً التأكد من صدق ذلك الادعاء الهذياني. وإلى جانب المشط الكبير كانت هناك مدية مشحوذة جيداً: لقد انقضت حياته البائسة بين الوهم والعنف. أحس بيد على كتفه، وكان على وشك أن يصرخ، ولكنه قال بأنفاس متهدجة: لم أشعر بدخولكِ. فلم تردّ عليه ديلفينا. وأراد أن يعرف: لقد كان قد مات عندما أرسلتِ بطلبي، أليس كذلك؟ ولكنه لم يتلق جواباً كذلك. فسألها من جديد: وماذا أعطيتِ هذه الممرضة؟ فهزت ديلفينا كتفيها وبدأت تتكلم:

- عندما التقينا آخر مرة، قلتُ لك إنني سأطلعك ذات يوم على سر. والآن يمكنني أن أكشف لك ذلك السر، لأننا لن نلتقي أبداً بعد اليوم: فقد

مات أبي، ولم يعد لي من مبرر.

- لا أدري عن أي سر تتكلمين - قال بجفاء. وتلا ذلك صمت طويل: لقد شغل ذلك السر كل أفكار ديلفينا خلال سنوات السجن المؤلمة، ثم خلال سنوات الحبس الاختياري الرمادية بعد ذلك. وكان هو الشيء الوحيد الذي أبقاها على قيد الحياة. وها هي ترى الآن أنه لا يتذكر السر وأنه لم يشعر في أي لحظة بأدنى قدر من الفضول. ومن بين كل ردود الفعل المحتملة التي تصورتها في مخيلتها، ثم قلّبتها وعدلتها بعد ذلك حتى خلقت منها قصة أدبية متخيلة حقيقية، مؤلفة من التنويعات المحتملة للحظة واحدة فقط، كان رد الفعل هذا هو الوحيد الذي لم يخطر لها قط. وأحست الآن بأن كل تلك السنوات قد مضت دون جدوى. واستذكرت مرة أخرى، في الصمت المخيم على الغرفة، ذلك المشهد الذي طالما قلبته؛ وأحست بصورة آلية كيف مزق قميص نومها منسّل الخيوط الذي كانت تغسله وتكويه كل يوم من أجل تلك المناسبة؛ ورأت من الفراش جسده العاري والمتعرق، وكيف كان الخبث يلمع في عينيه على الضوء الخافت لذلك الفجر الربيعي من سنة 1888، الذي كان يعلن عن نفسه على زجاج نافذة السقيفة في المنزل. كانت قد انتظرت تلك الزيارة طوال شهور، وصار السر يتلخص الآن ببساطة في هذا التفصيل الصغير. لقد أحبته منذ اللحظة التي رأته يجتاز فيها ردهة المنزل. وكانت تسمع خلال تلك الشهور وقع خطواته المتكتمة على بسطة درج الطابق السفلي؛ فكانت تنهض كل ليلة وتخرج من غرفة نومها، غير قادرة على النوم وتحمّل ذلك الانتظار غير النهائي؛ وكان عليها أن تختبئ في كل مرة يخرج فيها أبوها في مجونه الليلي. وها هي تستعيد الآن إحساسها بيديه على خصرها، وبالملامسة والضغط بخشونة على شفتيها؛ وتغيب عن الوعي عندما يغرس أسنانه؛ ثم ترى نفسها في السجن بعد ذلك، وكيف راح الزمن يمحو أثر العضات عن نهديها، وأثر الكدمات عن فخذيها وساقيها؛ فتشعر عندئذ وكأنها تموت من الرغبة ومن الكآبة في الوقت نفسه. ويتلخص السر في أنه لم يكن هناك حاجة لكل الحيل التي دبرها ونفذها لكي يتوصل إلى امتلاكها: فقد كانت مستعدة لأن تسلمه نفسها دون تردد لو أنه أمرها بذلك. من أجل هذا ألقت **بعلزيول** الشرير من نافذة السقيفة: فأزالت بهذا العمل القاسي

والمحزن العائق الذي كان يكبحه. وقد اختارت الآن هذه اللحظة لتبوح له بالسر؛ ولتكون له من جديد، لبرهة واحدة. لأنها فكرت بأن تضع حداً لحياتها بعد ذلك، وكانت تخبئ في جيبها سماً زعافاً. وكانت تفكر: وبهذا أضع حداً لحياتي البائسة. وكانت تستعذب التفكير بينها وبين نفسها: بما أنني لم أجد لحظة سعادة في حياتي، فسوف أنهي هذه الحياة. ولكن هذه الخطة انهارت في جملة بسيطة واحدة. ففي المرة الأولى أرادت أن تهب نفسها للرجل الذي أحبته، فاغتُصبت بوحشية، وسلبها هو نفسه استسلامها له؛ وها هو الآن، بعد مرور ثلاثين عاماً، يخمد للمرة الثانية بعدم مبالاته، فيض مشاعرها قبل أن ترى النور. وقبل أن تتكلم رفعت بكلتا يديها الخمار الذي يغطي وجهها.

- أنت لم تتغير. - قالت له ذلك معتبرة أنها قد ألغت بذلك الدين القديم.

ولكنه لم يكن يعيرها اهتمامه؛ لأن أموراً أكثر أهمية كانت تشده: فألمانيا على وشك الاستسلام؛ لقد تحولت تلك البلاد التي كان يميل في قرارة نفسه إلى التعاطف معها، إلى أنقاض. أكثر من مليوني ألماني ماتوا في الحرب؛ وأربعة ملايين غيرهم أصيبوا بجراح، وصاروا عاجزين عن القيام بأي عمل. ويسود هناك الآن الشغب. فقبل بضعة أيام تمرد بحارة قاعدة كييل، وأعلن الاشتراكيون جمهورية مستقلة ذاتياً في منطقة بافيرا، وتزرع روزا لوكسمبورغ والسبارتكيون الفوضى، ويشكلون السوفييتات، بينما يفاوض المعتدلون على الهدنة من وراء ظهر القيصر الذي لجأ إلى هولندا. لقد كانت تلك الإمبراطورية المقدسة ترقد نازفة وخامدة الأنفاس، مثلما يقبع السيد براوليو على فراش الموت. ولم يعد هناك أحد سواه هو يمتلك الموهبة والوسائل اللازمة لبعث الحياة في تلك الجثة الروحية، ضحية تاريخها، وبطولات قادتها الطائشة والرعناء. وفي مواجهة هذا الوضع، كانت مصائب ديلفينا تبدو مملة؛ فلم يكن يرى شيئاً في ذلك الصمت المسرحي. وذكرى تلك الليلة الميمونة التي تحولت الآن إلى رماد بين أصابعها، لم تكن بالنسبة له أكثر من مجرد نقطة مرجعية غائمة وطريفة. وكان هذا هو ما يريد أن يقوله لها عندما لاحظ في عينيها البريق الهذياني لحدقتيها كبريتيتي اللون الذي

تُقرأ فيه كارثة وخفة ذلك الاندفاع المخنوق الذي لم يفهمه؛ واستعاد لهفة تلك الليالي البعيدة، عندما كان قلبه يخفق بشدة متيماً بها. وفي هذه اللحظة تبلورت فكرته. فأكمل نزع خمارها بجزع: وتهاوى النسيج الرقيق برفق على الأرض. وعلى ضوء المصباح الذي كان يرتعش إلى جوار الميت، تفحص وجهها بشوق. فأخذت هي تفك مشابك فستانها بأصابع مرتجفة. وعندما صارت بملابسها الداخلية، رفعت نظرها لترى ما الذي يفعله هو، فوجدته مستغرقاً في التفكير. لم يعد جسدها يثير فيه أي رغبة. فسألته: ماذا تريد أن تفعل بي؟ فاكتفى بالابتسام وهو زائغ النظرات. قبل عدة سنوات كان مركيز أوت قد حضر إلى منزله بصورة مفاجئة ليقترح عليه اقتراحاً غير مألوف: هل ترغب في أن يبول عليك كلب؟ هذا ما عرضه عليه. كان ذلك في ليلة شتائية باردة وعاصفة: كان المطر يهطل بصورة متقطعة، والرياح العاصفة تصفع زجاج النوافذ بماء المطر. وكان قد لجأ إلى مكتبته مثلما يفعل عادة، حيث كانت بعض جذوع الحطب تشتعل في المدفأة، وبريق اللهب يضخم خيال المركيز الذي اقترب من النار ليدفئ عظامه المرتجفة من الرطوبة. وكان يرتدي سترة الفراك فوق قميص أزراره من المرجان. وقد رد عليه أونوفري:

– حسن، انتظرني عشر دقائق وسأكون جاهزاً.

كانت عربة المركيز تنتظر في الشارع. اجتازا المدينة من أقصاها إلى أقصاها تحت المطر، إلى أن وصلا إلى ساحة صغيرة مثلثة يشكلها التقاء شارعين. إنها ساحة سان كايتانو: كانت مقفرة من المارة، والمنازل التي أُغلقت نوافذها بسبب المطر والبرد، بدت غير مأهولة. ترجل الحوذي الذي كان يسبق عربة المركيز ممتطياً حصاناً أبيض، وحين فعل ذلك غاصت فردتا جزمته في بركة من الماء. أمسك الحصان من لجامه، واتجه نحو بوابة خشبية، ودق عليه بمقبض سوطه. وظهر بعد لحظات وميض ضوء من فتحة النظر في الباب. قال الحوذي شيئاً، وسمع الجواب، ثم أشار باتجاه العربة. نزل مركيز أوت وأونوفري بوفيلا، وركضا نحو البوابة متجنبين برك الماء ودفق المزايب على الساحة. ولدى وصولهما انفتح الباب ليدخلا، وما أن دخلا حتى أُغلق من جديد تاركاً الحوذي خارجاً. خبأ الرجلان وجهيهما بعباءتيهما كي يخفيا شخصيتيهما قبل أن ينزعا قبعتيهما. كانا في ردهة مضاءة

بمشاعل؛ وبدت على الجدران المطلية بالكلس بقع رطوبة ومزق مما كان في يوم ما أعلاماً ورقية. وفوق الفتحة المؤدية من أقصى الردهة إلى ممر مظلم، كان يمكن رؤية رأس ثور ضخم: جلد الثور يلمع بسبب الرطوبة، ولكن الرأس فقد إحدى عينيه الزجاجيتين، أما الراية التي تظهر فلم تكن سوى خرقتين صغيرتين حائلتي اللون معلقتين بمسمار زينة. من فتح لهما الباب كان رجلاً في حوالي الخمسين من عمره؛ يظلع في مشيته كما لو أن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى؛ والحقيقة أن عرجه ناجم عن حادث عمل: فقد كسرت آلةٌ وركه قبل عشرين سنة من ذلك. وبعد أن صار عاجزاً عن العمل، بدأ يكسب قوته بوسائل متنوعة. وقد قال باحتفالية لا يُلمس فيها أدنى أثر من السخرية: سعادتكما وصلتما في الوقت المناسب، فنحن على وشك أن نبدأ. توغلا وراءه في الممر المظلم حتى بلغوا قاعة مربعة يضيئها لهب مائل إلى الزرقة ينبعث من فوانيس غاز موضوعة على الأرض. وكانت تلك الفوانيس تحدد حيزاً نصف دائري هو نوع من منصة مسرح تشكل الفوانيس أنوار مقدمته. وكان هناك في القاعة عدة رجال، جميعهم ملثمون؛ ويشير بعضهم بتكتم بإشارات ماسونية فيرد عليها المركيز بالتكتم نفسه. قفز صاحب المحل فوق لهب الفوانيس ووقف في منتصف المنصة؛ وكاد، بسبب عرجه، أن يحرق إحدى ساقي بنطاله. فأثار هذا الحادث ضحكات عصبية بين الحاضرين. طلب منهم الرجل الصمت والانتباه؛ وبعد أن حصل عليهما، قال: أيها السادة المحترمون، سوف نبدأ إذا لم يكن لديكم مانع. ثم أضاف قبل أن يقفز مجدداً فوق الحاجز ويختفي وراء بعض الستائر: بعد انتهاء العرض ستقدم لكم بناتي المرطبات. وبعد بضع ثوان أُطفئت الأنوار وغرقت القاعة في الظلام. ثم اخترقت ذلك الظلام بعد لحظة حزمة ضوء رمادية اجتازت القاعة من جهة إلى جهة ومضت لتصطدم بالجدار المطلي بالكلس. وعلى هذا الجدار، الواقع في الجهة التي توجد فيها المنصة المسرحية المرتجلة، ظهرت لدى انعكاس حزمة الضوء بعض الأشكال الظليلة غير واضحة المعالم؛ بدت وكأنها استنساخ لبقع الرطوبة الموجودة على جدران الردهة. ثم بدأت البقع تتحرك وسُمعت بعض التمتمات بين الحاضرين. وراحت البقع تكتسب تدريجياً شكلاً يمكن التعرف إليه: فقد رأى الحاضرون أمامهم كلباً من نوع الفوكس تيرير،

كبيراً بحجم الجدار بكامله، بدا وكأنه ينظر إليهم بالفضول نفسه الذي ينظرون به إليه. كان مثل صورة فوتوغرافية، ولكنه يتحرك مثلما يمكن أن يفعل أي كلب حي: كان يُخرج لسانه ويحرك أذنيه وذيله. وبعد مرور بضع ثوان، وقف الكلب مجانبة بالنسبة للقاعة، ورفع إحدى قائمتيه الخلفيتين وبدأ يتبول. فتراكض الحاضرون نحو الباب هرباً من البلل. وفي الظلام الشامل الذي عاد ليخيم على القاعة، تحول الهروب إلى تصادمات، وتضارب رؤوس، وسقوط على الأرض. وأخيراً عاد النور فاستتب بذلك الهدوء. وظهرت على المنصة الآن بنات صاحب المحل الثلاث: كن ثلاث فتيات صغيرات وعلى قدر من الجمال، تكشف الفساتين التي لبسنها لهذه المناسبة عن أذرعهن الممتلئة وسيقانهن المشوقة. وقد استقبل ظهورهن بمظاهر ابتهاج رصين: ذلك أن الاستعراض أثار اهتمام أولئك السادة في البداية، ثم خيب أملهم بعد ذلك. ولم يعد جمال الفتيات ولا ملابسهن كافيين لإنقاذ الليلة: فكانت طلبات الزبائن قليلة والإيراد الإجمالي للسهرة ضئيلاً.

يُنسب السينماتوغراف، كغيره من مظاهر التقدم الجديدة، إلى أبوات متعددين. فبلدان عديدة تريد أن تكون اليوم مهد هذا الاختراع واسع الشعبية. ومهما يكن من أمر، فإن خطواته الأولى كانت واعدة. ثم جاءت بعد ذلك خيبة الأمل. وردة الفعل هذه نجمت عن سوء فهم: فأول من أتيحت لهم فرصة مشاهدة عرض لم يخلطوا بين ما يرونه على الشاشة والواقع (مثلما حاولت الأسطورة أن تدعي فيما بعد)، وإنما خلطوا ذلك بشيء أكثر: فقد ظنوا أنهم يرون صوراً تتحرك. فدفعهم ذلك إلى التفكير فيما يلي: ***لقد صار ممكناً بفضل جهاز العرض جعل أي صورة تتحرك: عما قريب ستبعث حية أمام عيوننا المذهولة فينوس ميلو[1] وكنيسة السيستين، ونكتفي بذكر هذين المثالين فقط***. هذا ما نقرؤه في مجلة علمية من سنة 1899. وفي مقالة مشكوك في صرامتها العلمية، ظهرت في إحدى صحف شيكاغو في السنة نفسها، نقرأ ما يلي: ***... وعندئذ قام المهندس سيمبسون بشيء لا يصدق:***

---

[1] ميلو Milo او Milos: جزيرة يونانية في بحر إيجة، عثر فيها عام 1882 على تمثال لفينوس، وعرف باسم «فينوس ميلو».

فبواسطة جهاز الكينيتوسكوب الذي تحدثنا عنه على هذه الصفحات نفسها ألف مرة ومرة، توصل إلى بعث الحركة في البوم صور أسرته. فكيف لا يذهل الأصدقاء والأقارب وهم يرون العم جاسبيرس المدفون في مقبرة الأبرشية منذ سنوات طويلة، يتمشى بهدوء على مائدة قاعة الطعام، مرتدياً معطفه وقبعته العالية، أو ابن العم جيرمي الذي مات ببطولة في معركة جيتيسبورغ.

وفي شهر آب (أغسطس) سنة 1902، أي بعد مرور ثلاث سنوات على نشر هذه الأخبار غير المعقولة، نشرت إحدى صحف مدريد الإشاعة القائلة إن صاحب أحد مسارح هذه العاصمة قد توصل إلى اتفاق مع متحف البرادو ليقدم في استعراض منوعات لوحتي **«وصيفات الشرف»** لفيلاثكيث و**«الجميلة العارية»** لغويا؛ ولم يكفِ التكذيب الذي نشرته الصحيفة نفسها في اليوم التالي لوقف سيل الرسائل المؤيدة والمناهضة لتلك المبادرة، وهو جدل ما يزال مستمراً حتى الآن في شهر أيار (مايو) 1903. ومع ذلك، فإن ما كانته السينماتوغرف، كان قد صار آنذاك مشاعاً للعموم: فهي إحدى النتائج الفرعية للطاقة الكهربائية، وأمر مثير للفضول ليس له تطبيقات في أي ميدان. وقد عاشت السينماتوغراف خلال عدة سنوات، حياة برقة: معزولة في محلات مثل محل ساحة سان كايتانو الذي اصطحب المركيز إليه أونوفري بوفيلا، ولم تؤد أي وظيفة سوى خداع نوع من الزبائن لا يهتمون أساساً إلا بتسليات أخرى لتزجية الوقت. ثم هوت بعد ذلك في غياهب الإهمال المطلق. والمحلات القليلة التي افتتحها في برشلونة أربعة مستثمرين واهمين، اضطرت إلى إغلاق أبوابها بعد أشهر قليلة: فلم يكن يرتادها سوى متشردين يستغلون الظلام ليأخذوا غفوة لبعض الوقت تحت سقف.

كان الأعرج يقف تحت مظلة الباب محتمياً من المطر الذي ازداد هطوله في الساعات الأخيرة. وكان يحمل في يده اليمنى قنديلاً يرفعه بين فينة وأخرى فوق رأسه ويحركه. أضاء برق ساحة سان كايتانو التي يوجد فيها محله: فرأى الأشجار منحنية بفعل الرياح والشارع غارقاً في سيل مياه عكرة. وفي وسط الساحة، رأى أيضاً حصانين أسودين، يضربان الأرض بحوافرهما مذعورين من هدير العاصفة. كان الظلام والرعد قد حالا دون رؤيته

وصولهما: وها هما الآن هنا. نزل من العربة رجلان، ففتح لهما الباب. وأضاء الأعرج الردهة والممر بقنديله وهو يقود الزائرين إلى القاعة نفسها التي عرض فيها منذ سنوات فيلم الكلب البوّال. وكانت الآن آلة العرض تلك التي اشتراها بدافع الوهم وليس التفكير الصائب، تقبع منسية في قبو البيت، وكان ينفض عنها الغبار بين وقت وآخر فقط، ليعرض أفلاماً مملة لا يعلم إلا الله من أين أتت، وهي تروق للمركيز وبعض غريبي الأطوار الآخرين الذين ينسبون إليها فيما بعد هذه الصفة أو تلك من أنها «تثقيفية جداً». والحقيقة أن ذلك النوع من الأفلام كان بذيئاً ومُذلاً وحسب.

كانت قاعة العرض قد استردّت مظهرها السابق: أريكة طويلة مغطاة بمخمل أحمر، مصباح سقف تتدلى منه قطع زجاج برّاقة، أرائك من الجلد، مناضد صغيرة من الرخام، وبيانو عمودي بأنابيب من البرونز. وكانت ابنة صاحب المحل الكبرى التي جعلت منها الأيام امرأة ذات جمال هادئ وممتلئة، تعزف على ذلك البيانو بأصابعها المتكاسلة والسمينة؛ وأظهرت الوسطى مواهب خاصة في صنع الحلويات؛ أما الصغرى فلم تكن تجيد عمل أي شيء، ولكنها تحتفظ في مظهرها بنضارة المراهقة.

- إنها ليلة رهيبة - قال الأعرج معلقاً، وأضاف:- ولا أستغرب أن تحدث فيضانات، كما في كل سنة. لقد أشعلت المدفأة: خلال عشر دقائق سينتشر الدفء في الغرف. وإذا رغبتم بذلك فإنني أستطيع أن أقدم لكم حلوى طازجة: فقد أخرجت ابنتي الوسطى من الفرن للتو كيلو غراماً من حلوى البانيليتي.

رفض أونوفري بوفيلا العرض. أما مرافقه فلم يبدِ الكثير من التكلّف؛ وراح يومئ بإشارات ويصدر أصواتاً حلقية ملأت الأعرج بالخوف، مشيراً بذلك إلى أنه مستعد لقبول الحلوى. وبينما كان يشبع نهمه، خرج الأعرج مستجيباً لنداءات ساخطة تأتي من جهة بوابة الدخول الخارجية. وسمعاه يقول من عمق الممر: تفضل سعادتك بالدخول، لقد وصل السيدان. ودخل إلى القاعة سيد ثالث يخفي وجهه بالعباءة، ولكن أونوفري بوفيلا عرفه على الفور من هيئته ومشيته.

- أيها السادة - بدأ أونوفري الحديث -، بما أننا لا ننتظر أي شخص آخر، فأظن أننا نستطيع الكشف عن وجوهنا. وأنا أضمن تكتم الحاضرين كلهم - ولكي يجعل من نفسه قدوة، فك زر الياقة وألقى بعباءته على الأريكة الطويلة. فحذا الآخران حذوه: كانا مركيز أوت وإفرين كاستيلس، مارد كاليّا. وقد استغرقا وقتاً طويلاً في تبادل التحيات. ثم قال لهما أونوفري بوفيلا:- لقد سمحت لنفسي بدعوتكما للاجتماع في هذه الليلة الجهنمية، لأن ما سأعرضه عليكما فيه شيء من الجهنمية. وفيه نقيض ذلك أيضاً - وفي هذه اللحظة قاطعه إفرين كاستيلس ليقول إنه لا يريده أن يدوخه بالهذر. وهدد قائلاً: إذا نحن لم ندخل في الموضوع مباشرة، فإنني سوف آكل كيلو غراماً آخر من الحلوى، وأذهب بعد ذلك لتناول العشاء. فطمأنه أونوفري بابتسامة ودية، وأكد لهما: ما سأقترحه عليكما هو أمر عملي بامتياز، ولكنه يتطلب مقدمة. سأحاول الإيجاز. أنتما لا تجهلان الوضع المحزن الذي صارت إليه أوروبا. ووصف بخطوط حية ذلك المشهد المحزن الذي كان يُقلقه كثيراً في الآونة الأخيرة؛ فاعترض على ذلك المركيز بالقول إن ما يحدث لبقية أوروبا لا يهمه في شيء، وإذا ما زالت فرنسا وإنكلترا عن وجه الأرض مع كل ساكنيهما فإنه سيكون أول من يحتفل بذلك. فحاول أونوفري بوفيلا إفهامه بأن عهد القوميات المتصلبة قد انقضى، وأن الأزمنة قد اختلفت. فاستشاط المركيز غضباً، وسأله: هل تريد أن تقدم لنا الآن دعاية الأممية الاشتراكية؟ وتدخل إفرين كاستيلس حين رأى أن وتيرة النقاش تزداد حدة. فلم يُتح امتلاء فمه بالحلوى فهم ما قاله، ولكن ضخامته لم تكن تسمح بالرد عليه: فهدأت النفوس في الحال. وواصل بوفيلا تقديم حججه عندما تمكن من أخذ الكلمة مجدداً: وكدليل على ما أقوله، سأشير فقط إلى ما يلي: الحرب تنتهي الآن: ماذا سيحصل لنا؟ لقد أنشأنا صناعة حربية، وفجأة، بين عشية وضحاها، يقال لنا لم يعد هناك طلب عليها. ماذا يعني هذا؟ إنه إفلاس الشركات وإغلاق المعامل وتسريح العمال؛ فضلاً عن النتائج الحتمية لكل ذلك: الهجمات والاعتداءات المباغتة في الشوارع ومحاولات الاغتيال. ستقولان لي الآن إننا واجهنا مشكلات مماثلة في ما مضى وعرفنا كيف نجد لها حلولاً. فأقول لكما إن الأمور ستأخذ في هذه المرة أبعاداً غير مسبوقة. وهذه

الظاهرة لن تبقى محصورة ضمن أي حدود: ستكون حركة على المستوى العالمي، وستكون الثورة التي طالما سمعنا عنها.

كانت بنت الأعرج الكبرى قد جلست إلى البيانو؛ وبدأ مركيز أوت يغفو ورأسه يترنح على إيقاع معزوفة شعبية. وكانت الأخت الصغرى تستلقي على أريكة طويلة؛ وقد وضعت قدميها على الكوميدينو وارتفع ذيل ثوبها حتى الركبة تقريباً: كاشفة دون اهتمام عن حذائها وجوربها الحريري. فتهدل فك إفرين كاستيلس حين رأى ذلك المشهد.

– هل طلبتنا لمقابلتك في هذا المكان تحديداً من أجل أن تلقننا هذه التنبؤات؟ – سأله، فابتسم بوفيلا دون أن يجيب: فهو يعلم أن مركيز أوت ما كان ليسمح بأن يفاجئه أحد مع مثل هذه الرفقة إلا في مكان من هذا النوع؛ وإلا فإنه لا يأتي أبداً إلى لقاء كالذي يعقدونه. فقال للمارد:

– يمكنك التغيب قليلاً إذا شئت. لدينا متسع من الوقت.

أومأ إفرين إلى الصغيرة واختفيا معاً خلف ستار من خرزات خشبية تخفي باب غرفة نوم مظلمة. وكانت قرقعة الخرزات الخشبية كافية لإيقاظ المركيز. فسأل أين ذهب كاستيلس. فأشار أونوفري إلى الستار وغمز بعينه. تمطى المركيز وقال له: وماذا سنفعل أنا وأنت ريثما يعود؟

– يمكننا التكلم – قال أونوفري – وعند عودته أطلعكما على الخطة التي وضعتها. وموافقة إفرين كاستيلس على كل شيء مهمة جداً، لأنه هو من سيتحمل كل مخاطر القضية دون أن يعرف ذلك. وعلينا أنا وأنت أن نتظاهر بأننا موافقان. وأن يعتقد بأننا ندخل ثلاثتنا معاً في المشروع؛ وألا يخامره الشك في أنه مجرد أداة بين أيدينا. وإذا ما وقع أي خلاف فسنحله أنا وأنت على انفراد فيما بعد، مثلما فعلنا على الدوام.

– اتفقنا – قال ذلك المركيز الذي يشعر بولع وراثي بالمؤامرات، وأضاف:– ولكن أي شياطين هي هذه؟

– سأخبركما بها فيما بعد. – قال له أونوفري. وفي تلك اللحظة بالذات ظهر مارد كاليّا تتبعه الفتاة. فنهض المركيز على الفور، وتمتم من بين أسنانه: سأعود حالاً. وأمسك بذراع الصبية وسحبها باتجاه الستارة. تهاوى إفرين كاستيلس على أريكته وأشعل سيجارة.

– لماذا استدعيت هذا المهرج المخنث؟ سأل وهو يشير بذقنه إلى المقعد الذي تركه المركيز شاغراً قبل قليل.

فأجابه بوفيلا:

– لأن مشاركته جوهرية من أجل حسن سير خطتنا. عليك أن تُظهر موافقتك على كل ما أقترحه. وعندما يرانا متحدين فإنه لن يجرؤ على فتح فمه. وأي خلاف بيني وبينك، يمكننا أن نحله على انفراد فيما بعد، مثلما نفعل دائماً.

فقال المارد:

– لا تقلق، ولكن ما هذه الخطة العظيمة، ما فحواها؟

– اصمت! – قال له بوفيلا وهو يومئ بنظرته إلى باب الحجرة الذي تغطيه ستارة الخرزات الخشبية، وأضاف: لقد رجع.

كان قداسة البابا ليون الثالث عشر قد قرر أن يمسك زمام الأمر من جديد، وأن يتصدى لبعض تيارات الرأي وبعض المواقف الأخلاقية التي ازدهرت في كنف الأزمنة الحديثة، وشجعها سلوك سلفه، قداسة البابا بيوس العاشر. وكان يضع هذا الهدف في ذهنه عندما اعتكف في حجراته، وقال لقائد الحرس السويسري المناوب في تلك الليلة: لا أريد أن يزعجني أحد. فظل يكتب حتى الفجر، وأعطى للعالم المنشور البابوي *Immortale Dei*[1]. حدث ذلك في العام 1885؛ والآن، بعد أكثر من ثلاثين سنة، كان أونوفري بوفيلا يتذكر يوم الأحد ذاك من طفولته، الذي استمع فيه إلى قراءة هذا المنشور البابوي في كنيسة أبرشية سان كليمنتي. ونظراً لأهمية النص، فقد قُرئ أولاً باللاتينية، واستمع رعية الأبرشية، وهم جميع سكان الوادي، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، أصحاء ومرضى، إلى تلك القراءة وقوفاً، وبرؤوس منحنية، وأيديهم مضمومة فوق أسفل بطونهم. ثم رسموا شارة الصليب وجلسوا على المقاعد الخشبية. وكان جلوسهم هذا يُحدث على الدوام ضجة كبيرة، لأن المقاعد لم تكن مثبتة إلى الأرض، ولم تكن قوائمها متماثلة في ما بينها.

---

[1] باللاتينية في الأصل: «الرب الخالد».

وعندما استتب الصمت، قام الكاهن، ذلك المدعو دون سيرافي دالماو الذي تلقى أونوفري ماء التعميد على يديه، فقرأ ثانية نص المنشور البابوي باللغة القشتالية (ولم تكن الكتلانية قد اعتمدت من جديد بعد في الطقوس الكنسية؛ فكان أناس كثيرون في كتالونيا يعتقدون بالتالي بأن القشتالية واللاتينية هما صيغتان للغة نفسها ذات المنشأ الإلهي)، ثم حاول دون نجاح، إنما بإسهاب، تفسير معاني المنشور. وكانت أم أونوفري تجلس بجانبه. كانت قد ارتدت فستانها الرسمي من أجل حضور القداس: وهو فستان أسود مطبع بزهور صغيرة يخيل إليه أنه يراها به الآن، تغطي صورتها التقارير الحربية التي تأتيه من جبهة الغرب وتبقيه على اطلاع على التدمير الذي أحدثته الغواصات الألمانية في مياه المحيط الأطلسي، ودخول الولايات المتحدة الحرب الأوروبية. فلمس يد أمه، وعندما انتبهت إليه، سألها عما تعنيه تلك القراءة. فقالت له أمه: شيء كتبه إلينا البابا لكي نطيعه في كل ما يقوله. فعاد يسألها: أهي رسالة؟ وحيال إيماءة أمه الإيجابية، قال: وهل أحضرها العم تونيت؟ فهمست أمه: طبعاً، ومن سيحضرها سواه؟ ثم سألها مجدداً بعد صمت قصير، حين خطر له السؤال: وهل أرسلها لنا تحديداً؟ فردت عليه أمه: لا تكن أحمق، إنه يرسلها إلى العالم بأسره؛ ثم أضافت: إنه لا يعرف شيئاً عنا، بل لا يعلم بوجودنا. فرد أونوفري مكرراً ما كان الكاهن قد لقنه إياه بالعصا: ولكنه يحبنا مع ذلك. وقد ردت عليه أمه: من يدري! كانت قد مضت تسع سنوات على ذهاب زوجها إلى كوبا؛ ولكن لم يكن ذلك آنذاك (ولا في الذكريات الآن) هو ما يشغل بال أونوفري بوفيلا: لقد كان يعرف أن البابا يعيش في روما؛ وفي ما عدا ذلك كان على المعارف الجغرافية أن تخلي المكان للمخيلة: فهو يعتقد أن روما هي مكان ناء جداً، وأنها قلعة أو قصر لا سبيل إلى بلوغه، ينتصب فوق جبل أعلى ألف مرة من الجبال المحيطة بالوادي، ولا يمكن الوصول إليه إلا باجتياز الصحراء على متن ثلاثة حيوانات: الحصان، أو الجمل أو الفيل. وكانت هذه الصور تأتيه من رسوم كتاب التاريخ المقدس الذي يستخدمه الكاهن ليعزز تعاليمه. وكان ما ملأه بالذهول آنذاك هو تمكن البابا المقدس من إيصال رسالته، في زمن قصير، من ذلك المكان الخيالي إلى أبرشية سان كليمنتي البائسة التي يجهل

مجرد وجودها. وبينما هو يتذكر تلك الواقعة الآن، داهمه الذهول نفسه الذي أحس به آنذاك، فيهتف بصوت خافت، مع أنه يعلم أنه وحيد في مكتبه: هذه هي القدرة! هذه القدرة المهيمنة وحدها يمكنها أن تنصب الحواجز أمام قوى الثورة التي تهدد العالم. ولكن هذه القدرة بحوزة الكنيسة حصراً، والكنيسة نائمة كما يبدو على غار أمجادها الغابرة، تمزقها الانشقاقات الداخلية، تمضي على غير هدى، دون وجهة ودون ربان. ومع ذلك، فالكنيسة وحدها هي تستطيع الوصول إلى أكثر الأماكن بعداً، إلى أصغر الأركان في أشد البيوت عزلة؛ ففي أشد الأكواخ بؤساً على الكرة الأرضية هناك صورة معلقة على الجدار، هناك ابتهال يفترض الطاعة المسبقة والانصياع. وكان يقول لنفسه بإعجاب: وكل هذا صنعه يسوع المسيح قبل عشرين قرناً مع بعض صيادي الجليل التعساء. لم يكن يعرف آنذاك، بالرغم من كل المعلومات التي يملكها، أين يقع الجليل؛ وحتى لو ارتبط فقدان كل ثروته بذلك لما استطاع تحديد موقع الجليل على خريطة العالم. وكان ذلك يقلقه. وقد حاول آخرون فيما بعد إعادة تنفيذ تلك الخطة التي حققها يسوع: فكان منهم يوليوس قيصر، ونابليون بونابرت، وفيليب الثاني... ولكنهم انهزموا جميعهم وتعرضوا للإخفاق المُذل؛ لأنهم وضعوا ثقتهم في قوة السلاح فقط واستهانوا بالقوة الروحية القادرة على خلق صلة غير مرئية، وعلى الحفاظ على تماسك آلاف ملايين الجزيئات المؤهلة بحد ذاتها للتشتت في مختلف الاتجاهات، والتبعثر في الفضاء غير المتناهي، والتصادم فيما بينها. أما الآن، فإنه هو، أونوفري بوفيلا، سيعيد تلك اللُحمة انطلاقاً من بذرة روحية تُنبت شجرة قوية ذات أغصان وجذور لا حصر لها.

كانت ابنة الأعرج الصغرى تبكي في المطبخ. فقد اضطرت خلال تلك الليلة أن تستجيب أربع مرات لطلبات المركيز الماجنة، وتسع مرات لهجمات إفرين كاستيلس العنيفة. فسبب لها ذلك نزفاً خفيفاً وآلاماً مبرحة؛ فكان على أختها الكبرى أن تغادر البيانو وتحل محلها في المخدع. أما هي فإنها تساعد الآن الأخت الوسطى في صنع الحلوى التي استهلك منها المارد حتى الآن أربعة عشر كيلو غراماً بالرغم من أن الصنوبر يسبب له، كما قال، نوبات ألم

متواصلة فـي جهازه التناسلي. لقد صار بالإمكان رؤية انبـلاج الصبـح مـن خلال إطار النافذة، سماء رصاصية محملة بالمطر. وكانت هناك دوائر سوداء تحيط بعينـي المركيز. وبالرغم من المقاطعات الكثيرة، فقـد انتـهى أونوفـري بوفيلا من عرض خطته. ولم يهم المركيز أو مارد كاليّا تلك الخطة ولا الدور المطلوب منهما فـي الخطة أو فـي تنفيذها. وكانت تراودهما شكوك جديّـة حول سلامة صديقهما العقلية. ومع ذلك، لم يتجرأ أي منهما على قول أي شيء: فقد كانا يخشيان أن يؤدي أي تعليق إلـى انفـلات جديد لذلك الشـلال مـن الـهذيانات المهيبـة التـي أُخضعـا لـها خـلال ســاعات لا نهائيـة. ابتسـم أونوفري بوفيلا: لم يبد عليه أن السهر الطويل قد أثر على مزاجـه. والآن سيبدأ التفاوض وهو يعلم أنه سينتهي إلى تحقيق مـراده. هكذا بدأ أكبر مشروعات حياته طموحاً؛ وأشدها إخفاقاً كذلك. فكل شـيء كان سيئاً مـن البدايـة، وكل شـيء بـدأ بخطـوة خبيثـة. وأخيراً أدار لـه صديقـاه وحليفــاه ظهريهما ووجد نفسه وحيداً من جديد.

– 5 –

تشكل فـي ذلك الزقاق صف طويل من السيارات: وعلى مقدماتها كانت تتلألأ أشعة الشمس الشتائية، وتنعكس على زجاجها الأمامي السماء الزرقاء التي تجتازها سحابة منفردة. كانت السيارات تتقدم أمتاراً قليلة ثم تتوقف، وتبقى ساكنة لهنيهة قصيرة ثم تعود للتقدم بضعة أمتار أخرى. وعندما تصل آخر الزقاق، تنعطف إلى اليمين. وتدخل فـي زقاق آخر أكثر ضيقاً من الأول، وأشـد ظلمـة، لـم تدخلـه أشـعة الشـمس قـط. وعلـى بعـد أمتـار قليلـة مــن المنعطف، تتوقف أخيراً أمام باب حديدي عُلق فوقه مصباح غاز صغير جداً، وقد كان مطفأ الآن، لأن الوقت منتصف النهار. وكـان هنـاك بـوّاب يرتـدي سترة رسمية أزرارها مذهبية، يفتح باب السيارة التـي تصـل، ويخلـع قبعتـه العالية عندما ينزل راكب السيارة، ويحني رأسه، ثم يغلق البـاب، ويعيد وضـع القبعة العالية على رأسه، ثم يضـع صفارة بين شفتيه ويطلـق بـها صفـيراً. وعلى هذه الإشارة، يتحرك السائق بالسيارة إلى الأمام وتتقدم السيارة التالية

فـي الصـف لتحل محلـها أمـام البـاب. وهكـذا علـى التوالـي. وعندمـا تصـل السيارة التي انطلقت إلى نهاية هـذا الزقـاق الثـاني، تنعطـف مـرة أخـرى إلـى اليمين، مثلما فعلت سابقاً، وتسير فـي زقـاق جديد، وهـو قصير جداً، يؤدي إلى ساحة. وكانت السيارات التي مرت أمام البواب، ونزل منها ركابها، تنتظر هناك فـي ظل أشجار الأكاسيا إلى أن تستدعيها الصفـارة مـن جديد. وكـانت حانـة صغـيرة فـي حـد أركـان السـاحة قـد أخرجـت إلـى الرصيـف كراسـي وطـاولات وبعـض المظـلات الملونـة بخطـوط زرقـاء وصفـراء وحمـراء. وكـان النسيم يهز هدب تلك المظلات. وراحوا يقدمـون هنـاك للسـائقين بيرة ونبيذاً مـع مياه غازيـة؛ وزيتونـاً محشـواً كذلـك ، إذا أرادوا، وأسـماكاً صغـيرة منقوعـة فـي الخل، وبطاطا مطبوخة مع الفلفل، وسردينـاً مخللاً، وغيرها. وكلما ازداد عدد السيارات فـي الساحة، ازداد عدد السائقين الذين يتناولون المقبلات فـي تلك الحانة. وفـي السـاعة الثانية عشـرة والنصف، كانت السـاحة قد امتلأت بالسـيارات؛ ولـم يعـد فـيها متسـع لسـيارة واحـدة. ولحسـن الحـظ، كـانت قـد وصلت جميع السيارات المقرر مجيئها براكبيها الذين ترجلوا بمساعدة البـواب الاحتفالي وقادتهم من عند الباب الحديدي إلـى مقـاعدهم آنسـات كـان لا بد لمظهرهن من أن يلفت الأنظار بقوة. ليس لأنهن غير شـابات وربمـا جميـلات. فقد كن يرتدين فساتين مستوية تنسـدل مـن فـوق أكتافـهن كأسـطوانات مثبتـة بشـرائط رفيعـة، دون أي إبـراز للصدر أو للخصـر؛ وكـانت تلك الفسـاتين مـن البـرق الأبيض، وتنتهي على ارتفاع سنتمتر أو سـنتمترين مـن الركبـة؛ وبهذا لا تبقى مكشوفة أذرع الآنسـات مـن الكتفـين إلـى الأظـافر وحسـب، بـل سيقانهن أيضـاً، وهـي سـيقان طويلـة، بـارزة العضـلات وقويـة، تنـاسـب دراجـاً أكـثر مـن مناسـبتها لسـيدة جديـرة بهذه التسـمية. وقـد أضيف إلـى هـذا المظهر الشـاذ مكياج مبرقش، كأنـه التلطيـخ، وشـعر قصـير ومتهدل معقـود بشـريط حريـري عرضـه نحـو سـنتمترين. فكـان السـادة يُصدمـون ويقولـون: «أرأيـت هـذه الفزاعات؟ لا يمكنني أن أعرف وهن بهذه الملابس وجوهـهن مـن قفـاهن، ومـا إذا كن آتيات أم مدبرات.»، «فلينجنا الرب! لم تعد هنـاك اليوم وسـيلة لمعرفـة إذا مـا كـن رجـالاً أم نسـاء.»، «إذا مـا بقيت الأمـور علـى هـذه الحـال، فسـوف أجـد نفسـي وأنـا أحمـل غصنـاً لأحتمـي مـن المطـر.»، «ومـا الـذي تريـده يـا

صديقي؟ هذا ما تفرضه الموضة.»، «أما أنا فأقول لك: إذا ما رأيت ابنتي يوماً بمثل هذه الملابس فسوف أجعل لها وجهاً جديداً من الصفعة الأولى.»، «هذا أمر ستكون له عواقبه، وسوف ترى.» وكان الرأي السائد: إننا نبدأ بداية سيئة. وقد تحسر مركيز أوت الآن لأنه كفل بسمعته مثل هذا الاستعراض، وندم لأنه استجاب لإلحاح أونوفري بوفيلا. ولم يكن ممكناً رؤية أي منهما في ذلك الوقت في الصالة. فإفرين كاستيلس هو الذي وجه الدعوة رسمياً إلى الحاضرين، وهو من يواجههم. لقد كان مارد كاليّا يتمتع بسمعة طيبة في مجتمع برشلونة الراقي: فهو جديّ تماماً في كل نشاطاته، وحذر في مبادراته، ودقيق وصارم في دفع ما عليه. لم يُعرف عنه أنه تورط قط في أي فضيحة، سواء اقتصادية أو من أي نوع آخر. وكان يعتبر رب أسرة نموذجياً؛ وكانت تُعرف عنه نزواته الغرامية، وكان مضرب المثل في ميله إلى النساء، ويجري التهامس حول مآثره في هذا المجال، ولكن أحداً لم يكن يعزو تلك الأمور إلا إلى طبيعته المفرطة في الحيوية. كان كريماً دون إسراف، وهو أمر يثير الإعجاب؛ ويقوم بأعمال إحسان دون مفاخرة وتحول إلى جامع لوحات ماهر يحترمه النقاد، والفنانون، والتجار. وها هو يقامر الآن بتلك السمعة أمام من يدعمونه. «لستُ أتمنى أن أكون في جلده» همس المركيز بذلك، فلم يخالفه أونوفري بوفيلا الرأي. وكلاهما كان يرصد ما كان يدور في القاعة، من مقصورة، وراء واجهة مشبكة. كانت القاعة قد امتلأت كلها تقريباً. وقد بدأ كثيرون من حضور الحفل يلاحظون الآن أنهم موجودون في صالة مسرح، وأنهم دخلوا إليها من الباب الخلفي، من مدخل الفنانين، فتساءلوا: ما الذي نفعله هنا؟ أهو عرض مسرحي خاص؟ وفي منتصف النهار؟ أي شياطين هذه! وعندئذ أضاء كشافان متقاربان المنصة. وكان إفرين كاستيلس يقف أمام الستارة المسدلة: بدا في ذلك المكان البارز، بسترته الأنيقة، أضخم مما هو عليه عادة. فبدأ أحد الظرفاء يغني ***فليرقص مارد ديل بينو، فليرقص، فليرقص***؛ وشكل جميع الحاضرين كورالاً له وهم يقهقهون ضاحكين. فدمدم المركيز من مرصده: سيتحول الأمر إلى مهزلة بلا نهاية، لو كنت مكانه لمت غيظاً. فابتسم أونوفري بوفيلا: جلده أقسى مما تتصور. وكان يتذكره وهو يصرخ طالباً شراء مقوي الشعر السحري، الذي

كان يبيعه هو نفسه. وكيف كان يعطيه بيزتا واحدة مقابل تعاونه معه. وفكر: إنه الشيء نفسه على الدوام. وبفضل ذلك الصوت القوي تمكن من فرض الصمت دون صعوبة عندما رأى أنهم تعبوا من الغناء؛ ولم يعودوا يعرفون كيف يواصلون المزاح وصاروا مستعدين للاستماع إليه.

– أصدقائي الأعزاء! – هكذا بدأ كلامه – اسمحوا لي أن أخاطبكم دون تكلف؛ فأنا رجل بسيط، وأنتم تعرفونني: ولا يوجد بينكم من لا يمكنه أن يقول عني: إنه يفضل دوماً في تعامله، الصداقة على الربح. وأنا لم أستدعكم لأطلب منكم نقوداً. – فبدأ الجميع الآن يتبادلون النظرات بريبة. وغمز أونوفري بوفيلا بعينه للمركيز قائلاً: لقد قلت لك إنه قادر على مصارعة هذا الثور. فأجابه المركيز: المهم هو أن يتمكن من قتله من الطعنة الأولى. وقد تابع إفرين قائلاً:– كما إنني لا أريد أن أضيع وقتكم الثمين بثرثرات فارغة. فأنا لست خطيباً مفوّهاً، وقد كنت أفضل على الدوام التكلم معكم بلغة الصراحة البسيطة والعملية. لن أطلب منكم سوى لحظة انتباه وحسب. فسوف أريكم شيئاً لم تروه قط قبل اليوم. – ثم كرر عبارته الأخيرة ليوقف المداعبات التي أثارتها عبارته مزدوجة المعنى:– نعم، سوف أريكم شيئاً لم تروه قط قبل اليوم! ولكن هذا الذي سترونه للمرة الأولى، سوف تعودون فيما بعد لرؤيته آلاف ومئات وعشرات المرات. – فقال المركيز: ما هذه الورطة التي يُدخل نفسه فيها؟ فرد عليه بوفيلا: الأرقام ليست نقطة قوته، ولكن دعه يتابع على سجيته. وتابع إفرين:– ستحظون اليوم بهذا الامتياز الاستثنائي والحصري: وأنتم تعلمون ما الذي يعنيه هذا في عالم التجارة. ولا حاجة بكم لتقديم الشكر لي. ولن أضيف أكثر من هذا: سوف تُطفأ الأنوار الآن. لا تخافوا، فلن يحدث شيء؛ وليبق كل في مكانه دون أن يتحرك منه. وسأعود للظهور فيما بعد كي أشرح لكم ما هدف الموضوع. أشكركم على اهتمامكم.

وما أن انسحب من المنصة حتى بدأ الستار يرتفع بواسطة محرك كهربائي. وعندما ارتفع تماماً، تبين أن فتحة منصة المسرح قد أغلقت بشاشة ضخمة ليس فيها نقاط التحام ظاهرة، ومصنوعة من مادة لا تبدو أنها معدن ولا قماش، وإنما مزيج من الاثنين، مثل الأسبيست. بعد ذلك انطفأت الأنوار،

كما أعلن إفرين كاستيلس، وسُمع هدير آلة، وصوت بيانو يعزف عليه أحدهم وراء الشاشة.

فصاح صوت بين الجمهور:

- يا للعنة! سيعرضون علينا فيلماً!

فزرع هذا الإنذار الهلع. وصاح أحدهم: إذا كان فيلم الكلب، فإني سأهرب. طغت الأصوات على ألحان البيانو. وكانت الصور الأولى قد بدأت تتميز على الشاشة. فكان المشهد الذي تعرضه مأخوذاً ظاهرياً في بيت بائس، يبدو أتفه من كوخ متهالك على الضوء المنبعث من شمعة. كان هناك سرير ضيق ومشعث ملتصق بالجدار الذي في صدر الغرفة؛ وفي الوسط، منضدة وأربعة كراسي؛ وعلى المنضدة، علبة أدوات خياطة، وكبب خيوط، وبكرات، ومقص وفضلات قماش. المشهد العام يوحي للمشاهد بحياة حرمان وبؤس. فأثار ذلك موجة من الضحك بين الحاضرين. وكانت تجلس إلى المنضدة، مديرة ظهرها إلى المشاهدين، امرأة ترتدي السوداء. تبدو متوسطة العمر ووافرة اللحم بعض الشيء. وكان كتفا المرأة يهتزان، وزعزعت سلسلة تشنجات جسدها كله، وكان رأس المرأة المشعث يترنح؛ وقد كان الهدف من ذلك نقل إحساس بالألم والمعاناة إلى الجمهور. فصاح أحدهم: قدموا لها زيزفوناً! فأثار هذا التعليق قهقهة عامة. وتمتم المركيز: فليحمنا الله. فقال له أونوفري بجفاء: اهدأ! وعلى الشاشة، كانت المرأة ترفع ذراعيها نحو سقف الكوخ، وكأنها تريد النهوض ثم تتهاوى ثانية على الكرسي، وكأن مفاصلها تخونها، أو كأن همتها تخمد، أو يتكاتف عليها الأمران معاً. وكان الضحك يزداد في الصالة: فلم تكن هناك حركة تقوم بها المرأة إلا وتزيد، دون أي سبب، ضحك جميع الحاضرين. اندفع إفرين إلى المقصورة السرية حيث يجلس أونوفري بوفيلا ومركيز أوت. وقد تمكنا بالرغم من الظلام المخيم، من أن يلمحا الهلع في عينيه. وقال متأوهاً: أتوسل إليك يا أونوفري وأحلفك بأحب ما لديك، أن تأمر بوقف العرض فوراً!

- من سيفعل ذلك، سآمر بإعدامه رمياً بالرصاص - قال بوفيلا وهو يضغط على أسنانه:

– ولكن ألا ترى كيف يضحك هؤلاء الملعونون؟ – قال المارد. كانت التأوهات تهز جسده مثلما تهز جسد امرأة الفيلم. فأمسك أونوفري بجانبي ياقة سترة إفرين، وراح يهزه بقدر ما تسمح به قواه غير المماثلة لقوة الآخر، وواجهه مباشرة: منذ متى فقدت شجاعتك؟ اصمت وانتظر! وفي تلك اللحظة انتبهوا إلى أن الضحك بدأ بالخمود. أسرعوا إلى الكوة الضيقة ووجهوا نظرة جزعة إلى الشاشة: كانت المرأة المكدرة قد نهضت أخيراً عن الكرسي، والتفتت؛ وكان وجهها يغطي الشاشة. لقد صمت الجمهور بالفعل، فهو يشاهد الآن للمرة الأولى، مثلما أعلن إفرين كاستيلس للتو، ما سيراه العالم بأسره لسنوات عديدة، في كل الأوقات، وفي كل مكان: إنه وجه هونيستا لابرو الحزين.

ما كان ممكناً لها من الناحية الجسدية أن تكون أقل جمالاً. ففي ذلك الحين الذي تراجع فيه الافتتان بالفتاة الجميلة، المغالية، والملتوية، وبدأت موضة الشابة المتشبهة بالفتى، النحيلة والمقتضبة، كانت هي تملك جسماً مكوراً، ثقيلاً، ورجولياً بعض الشيء، وتقاطيع خشنة، وإيماءات متكلفة وتعابير متصنعة، وتغنجاً مفتعلاً. وكانت ملابسها سيئة الذوق. كل شيء فيها كان مبتذلاً وغير متناسق. ومع ذلك، نادراً ما كان يمر يوم لا تنشر فيه الصحف صورتها، أو تتحدث عنها بين عام 1919 وعام 1923 الذي اعتزلت فيه العمل في السينما؛ وكانت جميع المجلات المصورة تنشر ريبورتاجات عنها (دون أن يكون لها علم بها) ومقابلات معها (لم تجرها مع أحد). وكانت العشرون كيلو غراماً من الرسائل التي تتلقاها يومياً تتضمن تصريحات بالحب وعروضاً للزواج؛ كما تتضمن توسلات مؤثرة، وتهديدات بالقتل، وبذاءات مقززة، وتوعداً بالانتحار إذا لم يحصل المرسل على هذا الجميل أو ذاك، ولعنات وإهانات، وابتزازاً... الخ. ولكي تفلت من محاصرة المعجبين والمهووسين، كانت تبدل مسكنها بكثرة، ولا تذهب أبداً إلى محل عام؛ والحقيقة، أنه لم يكن هناك أحد، بعيداً عمن يشكلون محيطها، يمكنه المفاخرة بأنه رآها، إلا على الشاشة. وانتشرت شائعة تزعم أنهم يبقونها محتجزة، وخاضعة لمراقبة

متشددة طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم، وأنهم لا يسمحون لها بالخروج إلا كي تذهب للتصوير في الاستديو، عند الفجر، وتكون مقيدة ومكممة، ويغطي رأسها كيس، حتى لا يعرف أحد، ولا هي نفسها، بصورة مؤكدة أين تعيش وما الخطوات التي تخطوها. فكان يقال: إنه ثمن الشهرة. وكانت هالة الغموض التي تلفها، والسرية التي تحيط بحقيقة هويتها وماضيها، يساهمان بإعطاء احتمال أكبر لصدقية توليها دور البطولة في اثنين وعشرين فيلماً طويلاً خلال مسيرتها الفنية القصيرة والمتألقة. مع أنه لم يصلنا من تلك الأفلام سوى قطع صغيرة في حالة سيئة جداً. ويبدو أنها جميعها كانت تشبه فيلمها الأول إلى حد التطابق. ولم يكن ذلك ينفر الجمهور بأي حال، بل يبهجه: فكان أي تنويع يقابل في الصالة على الفور بالغضب، وبالعنف المادي أحياناً. وإذا كان هناك أي تطور في الفيلموغرافيا الخاصة بها، فإنه يتمثل في هبوط تدريجي إلى مهاوي الإفراط في تكلف العواطف الزائفة. لقد كانت ممثلة رديئة، تزفر، وتهز رأسها، وتومئ بأسوأ الطرق في كل المواقف، سواء عندما يخسر ماركو أنطونيو بسببها معركة أكسيو، ويهم ثعبان سامٌ فيه شَبَه بالجراب بتسميم صدرها المهيب؛ أو عندما يموت عشيقها بالسل، ويضع لها بعض الصينيين الماكرين منوماً في كأسها لكي تباع وتنضم إلى حريم سلطان مخنث ومشعوذ؛ أو عندما يجلدها زوجٌ سكير ومقامر بالحزام بعد أن يخبرها بأنه قامر بشرفها وخسره على المائدة الخضراء؛ أو عندما يكشف لها راع أرجنتيني «غاوتشو» في اللحظة التي سيُشنق فيها، عن أنها هي نفسها أمه وليس تلك المرأة الخبيثة التي هجر الدير بسببها. وقد كان جميع الرجال في هذه الأفلام قساة، وكل النساء خامدات الأحاسيس، وكل الكهنة متعصبين، وكل الأطباء ساديين، وكل القضاة متصلبين. وكانت هي تصفح عنهم جميعاً في أثناء احتضاراتها الرقيقة العذبة التي لا تنتهي.

– ولكن، من الذي سيهتم بهذه الترهات؟ هذا ما قاله له مركيز أوت عندما قرأ لهما مخطط ذلك الفيلم الطويل الأول الذي كررته استوديوهاته فيما بعد إلى حدّ الغثيان. كان قد حبس نفسه في مكتبه وراح يعمل هناك ليلاً ونهاراً بمفرده. لقد وضع تصوره لكل شيء: المواقف، المشاهد، الديكورات، ملابس الممثلين، دون أن يفوته أي تفصيل. وبعد مرور أيام، أرادت

زوجته أن تعرف ما الذي يفعله، فذهبت إلى المكتب ووجدت الباب مقفلاً. فطرقت الباب مذعورة: إنني أنا يا أونوفري، هل أنت بخير؟ لماذا لا ترد عليّ؟ ولأن الصمت وحده كان هو الرد عليها، فقد بدأت تطرق الباب بقبضتيها بقوة هستيرية؛ فاجتمع الخدم هناك وقد اجتذبهم الضجيج. وحين رأت الخدم يحيطون بها، صرخت: افتح الباب يا أونوفري وإلا أمرتُ بتحطيمه! وحيال هذا التهديد سمعت صوته الهادئ: لدي مسدس في يدي، وسأطلق النار على أول من سيعود لإزعاجي. وكان كلامه موجهاً إلى الجميع. فألحت وهي تعلم جيداً أنه لا يتورع عن تنفيذ ما أعلنه: ولكنك لم تأكل ولم تشرب شيئاً منذ يومين يا أونوفري! فقال: لدي كل ما أحتاج إليه. واستأذنت إحدى الخادمات لتتحدث إلى السيدة، وأُعطيت الإذن بالكلام، فقالت إنها قد حملت إلى المكتب، بأمر من السيد، ما يكفي لأسبوعين من المؤن والماء. وقالت أيضاً إنها أحضرت له ملابس داخلية، وكل المباول التي وجدتها عند بائع الأواني الخزفية في الحي. وقالت إن السيد قد طلب منها ألا تخبر أحداً بأي شيء من ذلك، لأنه لا يريد أن يزعجه أحد مهما كانت الأسباب. فعضت السيدة على شفتيها واكتفت بالقول لها: كان عليك أن تخبريني بذلك من قبل. وخيل إليها أنها لمست في صوت الخادمة نبرة سخرية؛ وأنها تقرأ الآن في عينيها السوداوين وميض تحدٍ. وفكرت: إنها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، وهي تعاملني مع ذلك كما لو أنني الخادمة وهي السيدة. كانت لديها قناعة بأن الجميع يسخرون منها، من وراء ظهرها وفي وجهها أيضاً. وفكرت: لا بد أنه يستغفلني مع هذه. ومن المؤكد أنها تعبق برائحة الثوم واللبن، وهذا يروقه؛ فهو يفضل هذه الروائح على العطور الفرنسية وعلى أملاح الحمام التي أستخدمها يومياً. ومن المؤكد أنهما يندسان في الفراش ويغطيان رأسيهما بالملاءة لكي يسكرا بالرائحة الجسدية التي تفوح منهما بعد أن يهتزا مثل قاطرتين. إنهما يفعلان ذلك عدة مرات، كما في تلك الليلة التي دخل فيها إلى حجرتي من النافذة، متسلقاً جدار بيت أبي. ومن المؤكد أنه أخبرها بذلك، وأذاع سر تلك الليلة الأولى بروايته إلى كل من ضاجعهن بعد ذلك. ولا بد أنهن قد ضحكن مني بتلك القصة حتى الفجر. وفكرت: لا بد لي من أن أطردها إلى الشارع فوراً ودون تردد، ولكنها لم تجرؤ على تنفيذ

هذه الفكرة، وفكرت: ستعدّ تصرفي هذا إهانة، وستفهم السبب الحقيقي لطردها وستشتمني أمام الخدم الآخرين؛ وفكرت: وعندما تجد أنها قد خسرت كل شيء، لن تتورع عن تحويلي إلى خرقة، وستطلق علي اسم خنزيرة، وستروي كل شيء للخدم، فأصير أضحوكة. ثم ستخبره هو، ولن يعمد هو إلى إلغاء قراري بطردها، ولكنه سيجهز لها شقة خاصة، وسيذهب للقائها كل مساء؛ ويتذرع بأي حجة لكي يقضي الليل كله معها؛ ثم يقول بعد ذلك إنه اضطر إلى العمل طوال الليل، مثلما فعل مرات ومرات. وبينما هي تفكر هكذا، لم تنتبه إلى أن جبنها بالذات هو أول سبب أفقدها حبها. وقد جاءت تلك الخادمة نفسها بعد أسبوعين من ذلك لتقول لها إن السيد سيخرج من حبسه. وكانت تتناول وجبة العصر مع ابنتها الكبرى والخياطة عندما دخلت الخادمة لتنقل إليها الخبر. وكانت قد نسيت غيرتها منها وحقدها عليها، وفكرت حين رأتها: هذه البنت وفيّة جداً، لا بد من مكافأتها بشيء. وكانت تريد بهذا السلوك غير المتماسك أن تثبت للجميع أنها ليست لئيمة، بل كريمة. وكانت ابنتها والخياطة أيضاً من الوزن الثقيل. فسارعت أفراس النهر الثلاث الآن إلى اجتياز الممرات. وعندما وصلن أمام باب المكتب، كان قد خرج منه لتوه. لم يكن خلال تلك الأيام الخمسة عشر قد اغتسل أو سرّح شعره أو حلق ذقنه؛ ولم يكن قد نام خلالها سوى ساعات قليلة، ولم يكد يلمس الطعام. كما أنه لم يستبدل ثيابه طيلة الوقت. كان قد هَزُل، وصار يتحرك بتثاقل وتردد، كما لو أنه قد استيقظ لتوه من حلم عميق ومؤثر أو خرج من ورطة شائكة. وكانت تنبعث من غرفة المكتب رائحة لا تطاق. وراحت هذه الرائحة تجوب الآن الممرات مثل روح معذبة، زارعة الخوف في قلوب الخادمات.

– أعدّ لي الحمام يا أغوستي – قال ذلك للقهرمان. ولم يبد عليه أنه انتبه لوجود زوجته وابنته والخياطة. كان يحمل في يده رزمة أوراق مكتوبة بخط يده، مملوءة بخربشات الشطب والتصحيح. وحين رأى بعض الخادمات يسرعن متحمسات لتنظيف المكتب وهن يحملن دلاء ومماسح، أوقفهن بإشارة آمرة وقال لهن:– لا حاجة بكن إلى التنظيف، سننتقل من هنا.

وصارت هونيستا لابرو تقدم شخصيتها وملامحها لذلك المخطط الذي كتبه، وتجسد تلك التخيلات التي أثارت شكوك مركيز أوت. وقد استشاط أونوفري غضباً عندما قال له ذاك إنه لا يعرف من الذي سيهتم بتلك الترهات. فكان جوابه القاطع:

– الجميع سيهتمون بها.

وبالفعل، كان الجمهور الآن يبكي. ولا يتمكن رجال الأعمال الصارمون أولئك من كبح دموعهم. وقد قالوا فيما بعد إن رد الفعل غير الطبيعي ذاك ما كان له أن يحدث لولا سحر هونيستا لابرو. ولن نعرف مطلقاً ما جوهر ذلك السحر. فبابلو بيكاسو يؤكد في رسالة مكتوبة في تاريخ متأخر جداً، بأن تأثير تلك المرأة يكمن في عينيها المنَوِّمتين مغناطيسياً. ويمكن لهذا الرأي أن يأتي ليؤكد الشائعة التي أوردها فيما بعد بعض كتبة سيرة الرسام: بأن بيكاسو قد تعرّف عليها شخصياً، وأنه انبهر بها إلى حد إقدامه على اختطافها في شاحنة تابعة لمصبغة (بتواطؤ ومساعدة جومي سابارتيس)؛ وأنه أخذها معه إلى قرية غوسول، في منطقة بيرغيدا، وأنه أعادها إلى الاستوديوهات السينمائية سليمة ومعافاة بعد يومين أو ثلاثة أيام؛ وخلال هذين اليومين أو الثلاثة وضع مخططات أولية لبعض اللوحات وبدأ برسم بلوحة زيتية؛ وقد خرجت من تلك الأعمال اللوحات الثمينة لما يسمى «**الحقبة الزرقاء**». والأمر الأقل احتمالاً من هذه المغامرة الغرامية، هو العلاقة التي ادعت إحدى الصحف بأنها أقامتها مع فيكتوريانو ويرتا. الجنرال الماكر الذي اغتصب رئاسة المكسيك بعد أن أمر باغتيال فرانثيسكو ماديرو وبينو سواريث، وقد عاش بعد ذلك لفترة من الوقت في برشلونة، عندما اضطرته الثورة التي قادها بينوستيانو كارانثا، وإميليانو ثاباتا، وبانتشو بيّا إلى التخلي عن الرئاسة ومغادرة البلاد هارباً. وكان يقضي وقته في أثناء ذلك في السكر والشغب، والتردد على حانات الحي الصيني في برشلونة. وعندما يكون صاحياً، يتآمر ويخطط للعودة إلى المكسيك. وقد حبك بعض الجواسيس الألمان مناورة لتحويل أنظار الولايات المتحدة عن الحرب الدائرة في أوروبا؛ أرادوا استخدام ويرتا كطعم. فقدموا له خطة عودته التي كان

يبحث عنها؛ وبالأموال التي جمعها خلال شهور رئاسته القصيرة، والمودعة في قبو أحد المصارف السويسرية، اشتروا له أسلحة وذخائر من أونوفري بوفيلا. فتسلم هذا الأخير الثمن وشحن البضاعة المطلوبة، ولكنه بعث في الوقت نفسه إشعاراً بذلك إلى الحكومة الأمريكية. فتمت مصادرة شحنة الأسلحة في ميناء فيراكروث المكسيكي، وكان لا بد من أجل ذلك من إنزال المارينز الأمريكيين وإيقاع العديد من الضحايا بين السكان المدنيين. وقد وضعت الأسلحة تحت تصرف أونوفري بوفيلا، فأعاد بيعها إلى كارانثا الذي كان يقاتل ضد بانتشو بيا وإميليانو ثاباتا، حليفيه السابقين. وتقول الصحيفة المذكورة إنه في هذا الوقت بالذات، وقبل أن تبدأ هونيستا لابرو العمل في السينما، ولكنها كانت قد بدأت العمل لحساب أونوفري بوفيلا، رقصت في إحدى الليالي لويرتا الذي أغرم بها على الفور، وقدم لها مبالغ ضخمة من المال، ووعدها بأن يعيد فرض النظام الملكي في المكسيك فور عودته إليها، ليتوجها إمبراطورة عليها، مثلما كانت عاثرة الحظ كارلوتا؛ ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح. وتقول المجلة إن تلك الواقعة جرت في الجناح الذي كان يشغله الجنرال المكسيكي الخائن في فندق الانترناشيونال. وهذا الفندق هو نفسه الذي شيد خلال مدة قصيرة لا تصدق (ستة وستون يوماً)، من أجل إيواء زوار المعرض الدولي عام 1888. وكانت تظهر في سقف وجدران الجناح الذي يشغله ويرتا آثار عدة طلقات رصاص؛ وقد وجهت له إدارة الفندق بسبب ذلك تحذيراً جدياً؛ إضافة إلى أنه كان يسيء معاملة العاملين في الفندق بالكلام والأفعال، ولا يدفع حسابه. ويقال إنه كان يمشي في تلك الليلة الغرامية حافياً، وأزرار بنطاله مفتوحة، ويظهر تحت قميصه مفكوك الأزرار، قميص داخلي متسخ مائل إلى الصفرة وفيه ثقوب: فكان من الصعب تصديق وعوده وهو بذلك المظهر. ومن المحتمل أن تكون هذه القصة، ومثلها قصة بيكاسو، مختلقتين. لقد ذهب بيكاسو فعلاً إلى غوسول لقضاء بضعة شهور في عام 1906، وقد مات فيكتوريانو ويرتا سنة 1916 مسمما بالكحول في سجن «إل باسو»، في تكساس. ولم تكن هونيستا لابرو قد أُطلقت بعد إلى الشهرة على يد أونوفري بوفيلا، بل إن اسمها الفني لم يكن قد اختُلق بعد: إذ كانت ما تزال تعيش معزولة مع السيد براوليو في بيت متواضع في

شارع غراثيا، منتظرة أن يموت أبوها لكي تسلم نفسها للمرة الثانية والأخيرة إلى رجل حياتها، ثم تضع حداً لهذه الحياة بعد ذلك.

ما دفعها إلى العدول عن تنفيذ هذا العمل الميلودرامي هو ذاك الشخص تحديداً الذي كان السبب في توصلها إلى التفكير بذلك، والذي كان تدخله قبل سنوات طويلة قد أوصلها إلى هذه الحدود القصوى، ليس بالكلمات، وإنما بتلك النظرة الخبيثة والجليدية نفسها التي استعبدتها للمرة الأولى في سقيفة النزل وأرعبتها ودفعتها دون مبرر إلى ارتكاب أفظع الجرائم التي لا تغتفر. ففي تلك الليلة ماتت أمها، وكانت هي السبب كذلك في تفكيك الخلية الفوضوية التي انتمت إليها؛ وقد قضى معظم أعضائها نحبهم بعد ذلك في جحور سجن قلعة مونتجويك: وبذلك ولغ ضميرها في الدم. ويمكن الآن قراءة هذا الألم وهذا العذاب غير المحدود في عينيها كبريتيتي اللون: لم يغفل أونوفري بوفيلا عن ذلك. وكان يعرف كذلك أن مفهوم الزمن قد تغير ابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، بتأثير الثورة الصناعية. فقبل ذلك لم يكن الزمن الذي تتألف منه حياة الكائن البشري محدداً ومقنناً؛ فكان يمكن للشخص أن يعمل أياماً وليالي كاملة دون توقف إذا ما استدعت الظروف؛ ثم يبقى بعد ذلك في عطالة لفترات مماثلة. وبالنتيجة، كانت التسليات تستمر لوقت يبدو لنا اليوم مبالغاً فيه: فقد يستمر عيد قطاف العنب أو حصاد القمح أسبوعاً أو اثنين. وبالطريقة نفسها، يمكن لاستعراض مسرحي، أو رياضي أو مصارعة ثيران، أو لطقس ديني، أو موكب أو استعراض أن يستمر خمس ساعات، أو ثماني، أو عشر ساعات أو أكثر من ذلك؛ ويمكن لمن يشارك فيها أن يفعل ذلك بصورة متقطعة، أو أن يغادرها، أو أن يغادرها ثم يعود إليها حسب مشيئته. أما الآن فقد تغير كل ذلك: ففي كل يوم يبدأ العمل في ساعة محددة، وينتهي العمل في ساعة محددة، وهكذا. ولا حاجة لأن يكون المرء متنبئاً ليعرف كيف ستكون أيام وساعات حياة شخص ما، منذ طفولته وحتى الشيخوخة؛ يكفي أن نعرف ما عمله، وما مهنته. وقد جعل ذلك الحياة أكثر متعة، وأزال عدداً كبيراً من المفاجآت والأحداث المباغتة، وكشف عن مجاهيل كثيرة؛ وصار بإمكان الفلاسفة أن

يهتفوا الآن: التوقيت هو القدر. ولكن هذا يتطلب في الوقت نفسه إجراء تعديلات مهمة: فكل شيء يجب أن يكون الآن منتظماً، ولا يمكن ترك شيء للمصادفة أو لإلهام اللحظة الأخيرة. وهذا الانتظام بدوره، لم يكن ممكناً دون الدقة في المواعيد. فالدقة لم تكن شيئاً يستحق الذكر في السابق: أما الآن فهي كل شيء. فالآن يجب جلد الحصان المتعب أو كبح اندفاع آخر لكي يصل البريد إلى مكانه في الموعد المقرر، لا قبله بقليل ولا بعده بقليل. وقد أضفيت على الدقة أهمية كبيرة إلى حد أن بعض السياسيين اعتمدوا عليها في دعايتهم الانتخابية، فيقول أحدهم للناخبين: صوتوا لي وسأكون دقيقاً. ولم يعد هناك من يطري على البلدان الأجنبية ممتدحاً جمال مناظرها الطبيعية، أو أعمالها الفنية أو لطف سكانها، وإنما بتفاخرها في الدقة؛ فبعض البلدان التي لم يكن يسافر إليها أحد تقريباً في السابق، صارت تعاني الآن من سيول الزائرين الراغبين في التحقق بأنفسهم من الدقة التقليدية لمواطنيها، ومتاجرها، ووسائط نقلها العامة. وما كان ممكناً تحقيق هذا التقيد بالدقة على مستوى واسع لو لم تأت الطاقة الكهربائية لمساعدة الشعوب: فبتدفق هذا التيار المستمر والثابت، أمكن ضمان الانتظام والدقة في كل شيء. فالترام الذي يتحرك بالطاقة الكهربائية لم يعد يعتمد على سلامة البغال، أو حتى على حسن همتها، للقيام برحلته بدقة الساعة؛ وصار مستخدمو الترام الآن يفكرون بانشراح: بما أنني أعرف كم الساعة، فإنني أعرف كم بقي من الوقت لوصول الترام. ولكن هذه التغيرات لم تكن ممكنة الحدوث بمجرد القول: يا يسوع؛ وإنما تحققت بالتدريج: في البدء أكثر الأمور إلحاحاً وضرورة؛ وبعد ذلك الأمور الثانوية وغير الضرورية. وقد بقيت وسائل التسلية واللهو بالتالي حتى النهاية: فظلت مصارعات الثيران تدوم ساعات طويلة؛ فإذا ما خرج ثور عنيد أو شرس، وراح يقتل الخيول بمجرد ظهورها في الحلبة؛ فإنه يمكن للمصارعة التي تجري بعد ظهر يوم الأحد أن تتواصل إلى وقت متقدم من يوم الاثنين. وقد جرت في سنة 1916 مصارعة ثيران شهيرة في مدينة قادش، بدأت يوم أحد وانتهت يوم الأربعاء التالي، دون أن يغادر الجمهور الميدان. وقد أدى ذلك إلى فقدان عمال أحواض السفن وظائفهم، فوقعت إضرابات وأعمال شغب، وأُحرقت أديرة،

فأعيد العمال إلى أعمالهم، إنما تبين بوضوح أنه لا يمكن للأمور أن تستمر على ذلك المنوال. وكان أونوفري بوفيلا يعرف ذلك حق المعرفة.

قبل لقائه بديلفينا، وقبل أن تبقى بملابسها الداخلية، وتلقي بنفسها وهي على تلك الحال بين ذراعيه وتنظر إليه بعينيها الكبريتيتين اللتين ستغيران مسار أفكاره، كانت قد جالت في ذهنه عدة مرات فكرة أنه يمكن للسينماتوغراف أن يكون وسيلة اللهو الجديدة التي تبحث عنها البشرية. فالسينماتوغراف يجمع ثلاث سمات تجعل منه وسيلة اللهو المناسبة: فهو يعمل بالطاقة الكهربائية، ولا يسمح بمشاركة الجمهور فيه، ولا سبيل مطلقاً إلى تغيير مضمونه. وكان يفكر: آه! التمكن من تقديم الاستعراض نفسه يومياً، وأن يبدأ في الساعة المحددة نفسها، وينتهي في الموعد المحدد بالضبط، الموعد نفسه على الدوام! وبقاء الجمهور جالساً في الظلام، بصمت، وكأنه يغفو، وكأنه يحلم: إنها طريقة لإحداث أحلام جماعية! كان هذا هو مثله الأعلى. إنما كان يفكر: ولكن لا، هذا أمر جيد بصورة كبيرة لا سبيل معها إلى تحقيقه. وكان قد شاهد فيلم الكلب وفيلمين آخرين، وكان لابد من أن يتفق في الرأي مع المتشائمين. إذ ليس هناك بالفعل من هو مستعد للذهاب لمشاهدة فيلم ما لم يَلِهِ على الفور شيء آخر، وما لم تأت بعد العرض رقصات سردانا أو سباقات بالأكياس، أو أن يجري إفلات بقرة لمصارعتها، أو شواء أضلاع خراف في موقع العرض بالذات. فكان يقول لنفسه: بهذه الطريقة لن نستطيع التوصل إلى شيء. والحقيقة أن ما كان يفكر فيه، كان يجول في أذهان كثيرين غيره في ذلك الوقت. ففي سنة 1913، جرى في إيطاليا لهذا الغرض تصوير أول فيلم ليكون استعراضاً كبيراً. وكان عنوان ذلك الفيلم «**أين تذهب؟**»، مؤلف من اثنتين وخمسين بكرة، ويستمر عرضه لساعتين وربع الساعة، ولكنه لم يُعرض في إسبانيا لسبب غريب جداً يستحق منا توضيحه.

في سنة 1906، بدأت العمل في أحد مسارح المنوعات في باريس راقصة ستحقق فيما بعد شهرة عالمية؛ كانت هولندية الأصل، تدعى مرغريتا جيروتريدا زيل، ولكنها كانت تقدم نفسها على أنها كاهنة هندية، وقد اتخذت لنفسها اسم ماتا هاري. ومثل كل الراقصات من نمطها، كانت تتلقى عروضاً

كثيرة، ولكن أياً من تلك العروض لم يكن بتفرد ذاك الذي عرضه عليها أحد السادة في صيف عام 1907. فقد قال لها وهو يمسد شاربه المصمغ: ما سأطلبه منك هو أمر خاص إلى حد ما، وربما هو شيء لم يطلبه منك أحد قط. فأطلت ماتا هاري برأسها من فوق حاجز البارابان الذي كانت قد خلعت عنها وراءه رداء الأورغنزة والحزام الفضي وحلي العقيق والفيروز التي تشكل ملابس عملها، وقالت بفرنسية متبلة بلكنة هولندية: لست أدري إذا ما كنت أبدو لك مثيرة جداً يا عزيزي. فرفع السيد نظارة المونوكل إلى عينه اليسرى عندما خرجت هي من وراء البارابان. وكان قد استبق زيارته بإرسال باقة ورد (ست دزينات) وعقد من الماس. وكانت تضع العقد الآن حول عنقها في إشارة إلى تقبلها الهدية، وترتدي كيمونو على ظهره رسم تنين مطرز باللونين الأسود والذهبي. وهكذا جلست قبالة مرآة خوان الزينة المستديرة، تلك المرآة التي رأى فيها أمراء ومصرفيون وماريشالات انعكاس عيونهم التي يجعلها الشبق تتوهج كالجمر. راحت تنزع بحركات واهنة الخواتم التي تزعم قدسيتها، وتشكل جزءاً من زينتها الكهنوتية، وتضعها في علبة من خشب الصندل، وكان لبعض تلك الخواتم شكل الجماجم البشرية. وسألته بتغنج: وهذا الذي تطلبه مني، هل يمكن أن يقال؟ فقال هو: همساً في الأذن. واقترب منها كثيراً إلى حد أن رأس شاربه خلّف ندبة على خدها؛ ولم تكن الشهوة هي ما يلمع في عينيه، وإنما الحسابات والتقديرات الباردة، وهمس قائلاً: إنني أمثل الحكومة الألمانية، وأريد أن أعرض عليك العمل كجاسوسة. وفي الحال، وصلت هذه المحادثة إلى أجهزة الاستخبارات الإنكليزية والفرنسية والأمريكية. وسرعان ما تجاوزت شهرة ماتا هاري كجاسوسة ، شهرتها كراقصة، وجاءتها العروض والعقود من كل أنحاء العالم حتى تجاوزت أسعار عروضها ما تتقاضاه سارا برنار، وهو ما لم يكن ليخطر على بال أحد قبل سنوات من ذلك. فكانت المنافسة بين الراقصتين موضع حديث باريس وتندرها لوقت طويل. وعندما توجب بتر ساق سارا برنار سنة 1915، قيل إنها صاحت: لقد صار بإمكاني، أخيراً، أن أرقص برشاقة ماتا هاري. وقد قدمت هذه الأخيرة عرضاً في برشلونة، في مسرح «ليريكو»، وحققت نجاحاً شعبياً أكبر من نجاحها في أوساط النقد الفني. وأخيراً قررت أجهزة استخبارات

الحلفاء التخلص منها، ونصبت لها فخاً. فتظاهر شاب من هيئة الأركان بالوقوع في شباكها، مثلما وقع كثيرون غيره من قبل؛ فغمرها بالهدايا، وشوهدا معاً في كل مكان: يمتطيان خيولاً في غابات بولونيا، ويتناولان الغداء والعشاء في أفخم المطاعم، وشوهدا معاً كذلك في إحدى مقصورات دار الأوبرا، وفي ميدان سباق الخيل في لونغكامب وأماكن أخرى. ولم تسأله قط كيف يستطيع الحفاظ على ذلك المستوى العالي من الحياة براتبه المتواضع كضابط؛ وربما ظنت بأن لديه دخلاً إضافياً أو ثروة ضخمة؛ وربما استجابت بسذاجة لحبه المتصنع: فليس هناك طريقة أخرى لتفسير التقاط جاسوسة متمرسة لطعم صنارة تقليدية ومستهلكة إلى هذا الحد. وفي إحدى الليالي، بينما هما يستريحان في ذلك السرير الذي شهد مسار الحرب بين ملاءاته الكثير من المصاعب والصروف، قال لها فجأة إنه سيضطر إلى التغيب لأسبوع وربما لأسبوعين. فقالت هي: لن أستطيع العيش من دونك كل هذا الوقت. ويجب ألا تذهب، مهما كان الأمر الذي ستذهب من أجله. فقال هو: الوطن يتطلب مني ذلك. فردت عليه: وطنك في أحضاني. وانتهى به الأمر إلى الإفصاح لها عن طبيعة المهمة التي تنتزعه الآن من عش غرامه ذاك: إذ يتوجب عليه أن يذهب إلى هيندايا. وأن يستولي هناك على فيلم يحاول البلغاريون إيصاله إلى عملاء المخابرات الألمانية في مدينة سان سيباستيان. وعندما يأتي هؤلاء العملاء، يكون هو قد سبقهم: ويكون الفيلم بحوزته، فيتم القبض على العملاء وإعدامهم رمياً بالرصاص على رصيف المحطة بالذات. وما كاد ينتهي من الكلام حتى ضربته على رأسه بتمثال صغير للإله القاسي «شيفا»، رمز مبدأ التدمير. هوى الضابط على الأرض ووجهه مغطى بالدماء. ظنت ماتا هاري أنها قتلته، فارتدت فوق قميص نومها معطفاً من فرو الثعلب الفضي واعتمرت قبعة كاسكيت وركبت الرولز رايس السوداء ذات الأربعة وعشرين حصاناً (وكانت تملك ثلاث سيارات أخرى ودراجة نارية بسلندرين). كل هذه الأشياء أهداها إليها أشخاص مرموقون في الحياة العامة في فرنسا وبلدان أخرى، ودُفع ثمنها من أموال دافعي الضرائب. وما إن خرجت حتى نهض الضابط برشاقة وأسرع إلى النافذة؛ وأومأ من هناك بإشارات إلى العملاء السريين المرابطين قبالة البيت. لم يكن

ميتاً، ولا حتى جريحاً: فقد كانت الاستخبارات الفرنسية قد استبقت الواقعة، واستبدلت كل الأشياء الثقيلة في الحجرة بنسخ مماثلة من المطاط، وزودت الضابط بعدة كبسولات من الحبر الأحمر ليتظاهر بأنه ينزف. كانت الرولز رايس تخترق الآن سهول نورمانديا المغطاة بالثلج. وبمحاذاة الطريق العام كان يمضي خط السكة الحديد. ولمحت من بعيد عمود دخان يندفع أفقياً: إنه القطار المتوجه بأقصى سرعة إلى هينديا. هذه المطاردة كانت تتابعها من الجو طائرة، فيها الضابط الوسيم وثلاثة من عملاء الاستخبارات. زادت سرعة السيارة بصورة شبه انتحارية وتمكنت من اختصار المسافة، إلى أن صارت بمحاذاة عربة القطار الأخيرة. وقفت الجاسوسة الجريئة على حافة الرولز رايس: وكانت قد شقت قميص نومها وثبتت بشرائط منه مقود السيارة لتحول دون انحرافات مفاجئة في التوجه، كما وضعت حجراً التقطته من جانب الطريق فوق بدّالة الغاز. كتبت بأحمر الشفاه على الزجاج الأمامي «وداعاً يا آرمان!» وهذا هو اسم الضابط الذي ظنت أنه قد ضحى بحياته في سبيل واجبه. قفزت من حافة السيارة وأمسكت بيدها الحاجز الحديدي الذي يحيط بفسحة مؤخرة القطار. ورأت من هناك كيف كانت الرولز رايس تواصل اندفاعها الجنوني، وتخرج عن الطريق لتتوقف أخيراً في الحقول. وسيارة الرولز رايس تلك التي لم تصب - بأعجوبة - بأي ضرر في تلك المغامرة، ما زال بالإمكان رؤيتها حتى اليوم في المتحف العسكري الصغير في مدينة روان. وعندما صارت الجاسوسة داخل القطار، حاولت على ضوء مصباح يدوي خافت، أن تعثر على الفيلم الذي كان قد حدّثها عنه. وظنت أنها ستجد شريط سيلولويد طوله شبر أو شبران يتضمن اثنتي عشرة صورة في أقصى الاحتمالات. ولكنها وجدت بدلاً من ذلك عدة أعمدة من العلب الأسطوانية: كانت هناك اثنتان وخمسون لفافة كُتب عليها «أين تذهب؟». وعندما اقتحم عملاء الاستخبارات عربة القطار، وجدوها منهوكة القوى، ويداها داميتان؛ وكانت الريح القوية التي تدخل من باب العربة المفتوح قد طيّرت قبعتها وشعثت شعرها المجعد: لقد تمكنت من إلقاء عشرين لفافة من اللفافات الاثنتين والخمسين إلى جانب السكة، وبدأ الثلج بدفنها الآن. ولهذا السبب لم يصل الفيلم إلى الجهة المرسل إليها، ولم يعرض على شاشات

إسبانيا. كانت الحرب قد أوقفت الإنتاج السينمائي في أوروبا بأسرها، ولم تُصنع أفلام مثل ذلك الفيلم؛ وكان أمر بعث هذه الصناعة بين يدي أونوفري بوفيلا، ولكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك إلى أن شاء القدر أن تعترض ديلفينا طريقه من جديد.

– 6 –

كان انهمار المطر قد تجدد، ترافقه أصداء رعد بعيدة؛ وكان يصفع النوافذ ويقرع السقف الزجاجي الذي يغطي فناء المطابخ. وكانت بنات الأعرج الثلاث قد نمن في المطبخ، مستندات إلى الجدار الدافئ وهن يحتضن بعضهن بعضاً بعذوبة. وفي أثناء ذلك كان الرجال الثلاثة في الصالة يتابعون مناقشتهم.

– أنت مجنون – قال إفرين كاستيلس ذلك لأونوفري. وكان الوحيد الذي يتجرأ على قول مثل هذا الكلام؛ ولم يكن هو يغضب منه. داعب برؤوس أصابعه الصور التي أخرجها من جيب سترته وعرضها على المنضدة لكي يراها محدثاه. وقال لهما:

– عليّ أن ألفت انتباهكما إلى أن الصور لا تنصفها. وقد انتبهتُ أنا نفسي إلى ذلك في البداية. فجعلتها تسمن وتزيد وزنها عشرين كيلو غراماً لأرى إذا ما كان مظهرها يتحسن قليلاً، وإذا ما كانت ستكتسب قليلاً من... كيف أعبر عن ذلك؟... ربما من الحضور الجسدي.

كان قد أخذها إلى مزرعة في آليلا استأجرها لهذه الغاية حصراً؛ فتلك المزرعة مناسبة لمخططاته لأنها محوطة بسياج عالٍ وكتيم جداً من أشجار سرو متشابكة. وقال لها إنها قد عانت كثيراً. وإن ما يناسبها الآن هو الراحة. وقال لها أيضاً: لقد أمضيتِ سنوات وأنت تعتنين بأبيك، فليرقد بسلام؛ وقد حان الوقت ليعتني أحد بكِ. ولم تجد ديلفينا ما تعارض به هذه المبررات: كانت قد أمضت سنوات طويلة في السجن؛ ثم عاشت بعد ذلك في عزلة مطلقة، انصرفت خلالها بالفعل إلى العناية بأبيها المريض ومشوش

الذهن. وكانت معتادة على عدم التصرف بحياتها، وغير قادرة على تصور الخلاص من الخضوع والطاعة العمياء إلا بالموت، ولم يكن بإمكانها تصور مخرج آخر. وعندما أخذها إلى ذلك البيت، وجدت هناك سائقاً وطاهية وخادمة. ولم تستغرب وجود سائق دون وجود سيارة، كما أنها لم تستغرب احتلال أولئك الخدم لغرف طابق الشرف في البيت بينما أُبعدت هي إلى غرفة علوية، معرضة للرياح الأربع. وقال لها: إنهم أناس موضع ثقة مطلقة، وقد أعطيتهم التعليمات، وهم يعرفون ما عليهم عمله؛ ليس عليك أنتِ أن تهتمي بأي شيء، وافعلي فقط ما يطلبونه منك. فلم تستطع عمل شيء سوى توجيه الشكر إليه. وكانت تفكر في أعماقها: ربما كان هذا أشبه بأن نكون متزوجين؛ فهذا هو كما يبدو أكثر ما يشبه الزواج من رجل كهذا.

وقد اقتصرت خلال الشهور التالية على توجيه الشكر لكل من يخاطبها. كانت الخادمة توقظها في الصباح، وتقدم لها وهي في السرير فطوراً وفيراً: عجة بالسجق، مقانق، بوريه بطاطا، خبز محمص ومغمس بالزيت، ولتر حليب ساخن. ثم تُلبسها ثيابها بعد ذلك وتتركها في الحديقة، مسترخية على أريكة من الخيزران، في ظل شجرة سنط عنبري. وكانت تغطي لها كتفيها بشال من صوف الأنغورا، ذي لون أصفر فاقع: فيجتذب هذا اللون الفراشات والنحل، وتحط على هذا الشال. وبعد ذلك تتغدى وتنام القيلولة، ولا تستيقظ إلا عندما تكون الشمس قد مالت إلى الغروب، حيث يقدمون لها الشاي أو الشكولاته مع البسكويت. وعندئذ تقوم بنزهة قصيرة في الحديقة، والسائق يتبعها بتحفظ. في البداية، في أحد الأيام الأولى، حاولت أن تفتح حديثاً مع هذا السائق، فسألته: ألم يقل أونوفري إذا ما كان سيأتي لرؤيتي؟ فنظر إليها السائق من أعلى إلى أسفل قبل أن يجيب قائلاً بنبرة ساخرة: إذا كنتِ تقصدين السيد بكلامك هذا، فإن السيد لا يطلعني عادة على خططه، وليس من عادتي أنا كذلك أن أقول للسيد ما عليه أن يفعله. ففكرت هي: لقد أوقفني عند حدي. وشكرت السائق وواصلت نزهتها. وفي يوم آخر، أرادت أن تباعد قليلاً ما بين أغصان أشجار السرو التي تشكل السياج لتنظر إلى الشارع، ولكن السائق أبعدها بفظاظة. فكان اهتمامها بذلك أقل من اهتمامها بعدم معرفتها إذا ما كان سيأتي لرؤيتها أم لا. والحقيقة أنه لم يأت

لزيارتها حينذاك لأنه محبوس في مكتبه ليكتب سيناريو الفيلم الذي ستكون بطلته. وبينما هو يفعل ذلك، كان عملاؤه يواصلون عَلْفَ ديلفينا. ويعطونها في الليل منوّماً لكي تنام ساعات طويلة متواصلة. ولم تكن هي تنتبه إلى أنها تأكل بإفراط: فقد عانت في السجن من الجوع إلى حد فقدت معه أي إحساس بالتناسب، وأي معنى للقياس: فلو أنهم قدموا لها من جديد الآن كسرة من الخبز، وقليلاً من الجبن الزنخ، أو قطعة من السمك المملح، لبدا لها ذلك جيداً؛ كما أن المآدب الدسمة التي يجعلونها تلتهمها تبدو لها جيدة أيضاً. لم تكن تدرك أن هناك في الحياة متسعاً للخيارات، أو أنه بإمكان الأفراد أن يمارسوا تلك الخيارات أحياناً: فقد كانت إرادتها ملغاة تماماً. وربما لهذا السبب بالذات ظلت تحبه. وأخيراً قررت أن تكتب له رسالة، وأن تقول له فيها ما لم تتمكن من قوله له بوجود أبيها. وبعد أن كتبتها، أعطتها للخادمة راجية منها أن تضعها في صندوق البريد بأسرع ما يمكن. وفي تلك الليلة، بدأ الخدم في المطبخ بقراءة الرسالة التي لم يفهموا مضمونها. كانوا ثلاثة أشقياء يقومون بمهمتهم بأسوأ ما يستطيعون. فهناك واحد أو اثنان منهم مخموران على الدوام، عندما لا يكونون ثلاثتهم ثملين في الوقت نفسه. ومع أنهم يكرهون بعضهم بعضاً، إلا أنهم يبقون معاً طوال الوقت، لا يمكنهم قضاء لحظة واحدة دون رفقة. وكان السائق يضاجع الطاهية والخادمة بالتناوب؛ وفي بعض الأحيان، عندما يفرطون في الشراب، يمارس ذلك مع كلتيهما في وقت واحد. وفي هذه المناسبات، كانت المرأتان تتشاجران من أجله؛ فتشد كل منهما شعر الأخرى، وتتبادلان العض بوحشية. وكان الصراخ والصخب الذي يرافق ذلك المجون البهيمي يوقظ ديلفينا؛ ولأنها تكون تحت تأثير المنوم، فإنها لا تتمكن من استعادة وعيها بالكامل: فتظن عندئذ أنها ما تزال في السجن، حيث كانت توقظها في كل ليلة صرخات جهنمية. وكانت قد توصلت هناك أيضاً، مع مرور السنوات، إلى التغلب على القلق الذي كانت تسببه لها تلك الصرخات في البداية، وذلك بدمجها في أحلامها. وقد تنبهت إلى ذلك الآن. لقد كتبت في رسالتها التي لم تصل إلى يده قط: *أنا أيضاً أردت أن أصرخ في تلك الليلة، ولكنني كبحت نفسي، وقد ظلت تلك الصرخة في داخلي، وأنا أسمعها في كل ليلة منذ ذلك الحين. وأنا لا أقول*

هذا لأؤنبك: فهي ليست صرخة ألم فقط، بل هي صرخة سعادة غير محدودة أيضاً. ولكنها تسلبني على أي حال الطمأنينة التي يمكن للنوم أن يحملها إلى حياتي: ولهذا لم أعد أنتظر الراحة إلا في الموت. ولكن لا، لا أريد أن أتظاهر بقوة أفتقر إليها، ولا يمكنني أن أكذب عليك أنت: لقد مررتُ في حياتي بأوقات صعبة، وأحسست في بعض الأحيان بالرغبة في التنكر لعظمة قَدَري، المتمثل في أنني أحببتك. وهذا الذي أقوله لك الآن ليس لوماً كذلك. ولطالما فكرتُ في أنكَ لو لم تكن مثلما أنت، ولو أنك تصرفت بطريقة مختلفة، لاختلفت حياتي عما صارت إليه، وليس هناك ما يمكن له أن يسبب لي من الألم والرعب أكثر مما تسببه لي هذه الفكرة: فكرة أنه كان يمكن للحظة واحدة من حياتي أن تكون مختلفة عما هي عليه، لأن هذا يعني أنني لم أحبك في تلك اللحظة مثلما أحببتك. لستُ أحسد أحداً، ولستُ أرغب في أن أحل محل أحد، لأنه لا يمكن أن يكون هناك من أحبك مثلما أحببتك.

وبينما الخدم الثلاثة يقرؤون هذه الرسالة، انسكبت منهم عدة بقع من النبيذ على الورقة، فقالوا: يا لسوء الحظ! ماذا سنقول للسيد أونوفري إذا ما رأى هذه البقع؟ ولكي لا ينكشف أمرهم، ألقوا بالرسالة إلى النار.

قال مركيز أوت: يجب أن أذهب. ونهض بمشقة: كانت مفاصله قد تأثرت من السهر والمطر. فقال أونوفري بوفيلا: أليس لديك ما تضيفه؟ نظر المركيز إلى ساعته وقطب جبينه؛ وفكر في أنه ليس هناك في الحقيقة ما يستدعي ذهابه إلى أي مكان، ثم بسط جبينه، وقال متنهداً: ما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد، فمن الأفضل أن أبقى حتى النهاية. ابتسم أونوفري بوفيلا بامتنان، وقال له: اجلس وقل لي ما الذي يقلقك. فداعب المركيز خديه ووجدهما خشنين، وقال أخيراً:

- هناك أمر لم أفهمه. - وكان يتكلم مجرجراً صوته بعض الشيء؛ فالأفكار تفلت منه أحياناً؛ والإرهاق لا يسمح له بالتركيز، وهو أمر لم يعد يتوصل إليه إلا بمشقة في الظروف المواتية. لقد توقف الآن ذاهلاً وهو ينظر إلى صورة ديلفينا: امرأة بدينة متبرجة، تقف أمام أشجار سرو، تمسك بمظلة وتستند إليها، وتنظر إلى الهواء نظرة خاوية. ترك الصورة وفرقع بشفتيه وبأصابعه في آن واحد.

– فلنر ما هو رأيك – قال له أونوفري بصبر.

– ما مكاني أنا في هذه القضية؟

ربما أصيب النشاط الاقتصادي في العالم بالشلل لو كان كل رجال الأعمال يعرفون أنهم سيموتون عاجلاً أو آجلاً. ولحسن الحظ أن تلك لم تكن حال مركيز أوت. فالمركيز الماسوني، الطائش والمتهتك، كان في دخيلته محافظاً متشدداً؛ وكان لافتقاره المطلق للرأي ثِقل هائل في أشد أوساط البلاد رجعية. فتلك الجماعات الصغيرة المؤلفة من أرستقراطيين، وإقطاعيين، وبعض العناصر العسكرية والدينية، كانت تمارس تأثيراً حاسماً ذا طابع عكسي على حياة البلاد السياسية: فهي لا تتدخل في أي شيء، اللهم إلا للحيلولة دون حدوث تغيرات؛ وتكتفي بإثبات وجودها وبتحذير الرأي العام مما يمكن أن يحدث (من أحداث مأساوية) إذا ما جرت معارضة جمودها المفرط. فكان أولئك الناس أشبه بأسود تنام وسط حظيرة ماشية. والحقيقة أنهم ما كانوا يتبنون أية أيديولوجية؛ وكانت أي محاولة لعقلنة موقفهم تقابل بالرفض؛ لأن ذلك يعني في نظرهم طرح استقامة، وعدالة، وضرورة موقفهم على بساط البحث، مما يفتح فجوة في نظام الأشياء الطبيعي. وكانوا يقولون: فليبحث آخرون عن مسوّغات لأنفسهم، أما نحن فلا حاجة بنا مطلقاً إلى إعادة النظر، لأننا على حق. وكان أي تجديد، حتى لو اتفق مع مصالحهم، يثير ذعرهم؛ ويرون في تقبله انتحاراً. وقد كان النقاش مع أي منهم في هذا المجال مستحيلاً. وكان أونوفري بوفيلا يعرف ذلك من خلال التجربة؛ فقد لفت في بعض الأحيان انتباه مركيز أوت بالتلميح إلى فائدة إدخال إصلاحات صغيرة في هذا القطاع أو ذاك بهدف تفادي أضرار كبيرة. فكان المركيز يفقد صوابه لمجرد ذكر ذلك، ويرد عليه: من أجل أي لعنة تريد أنت تغيير العالم يا رجل؟ ماذا تظن نفسك؟ أتظن أنك الرب القادر على كل شيء؟ ، ياه، أليست الأمور جيدة بهذا الوضع الذي هي عليه؟ فأنت غني، ولا شيء يحدث في الشيخوخة في نهاية المطاف: فلتهتم أنت بأمورك، ودع من سيأتون بعدك يتدبرون أمرهم! كانت حججه قليلة التماسك، ولكن لم تكن هناك قوة في العالم قادرة على زحزحته عنها. وكون هذه الاقتراحات الهدامة تأتيه، فوق ذلك، من أونوفري بوفيلا، لم يكن يزيده إلا تمسكاً

بمبادئه، فيقول له: أنت في نهاية المطاف خرجت من العدم، فأنت فلاح سُمح له بكسب المال بكثرة؛ وقد صعد الغرور إلى رأسك الآن وصرت تظن أن لك الحق بإبداء الرأي وتريد حمل شمعة في هذا المأتم، ما هذا؟ وكان ذلك في نظره دليلاً على وجوب السير بحذر، والتصرف بمزيد من التشدد في المستقبل. وكانت قدرته تلك على التوجه بهذا الكلام الوقح إلى صديقه، مع أنه لا يرفض ضيافته السخية أبداً، ويدين له بخدمات كثيرة وبمبالغ كبيرة من المال، تثير تقدير أونوفري بوفيلا وحسده. ولم يكن بإمكانه كذلك أن يظهر الغضب. فكان يكتفي بالرد بلطف: لماذا أنتم عنيدون إلى هذا الحد؟ سوف تدمرون أنفسكم بتصلبكم هذا. فيرد المركيز على ذلك بالصراخ وبحركات من به مسّ شيطاني؛ معلناً أن لصبره حدوداً، وأنه إذا ما تواصل الحديث على ذلك النحو فسوف يجد نفسه مضطراً لإرسال إشبينيه لدعوة أونوفري بوفيلا إلى المبارزة. ولم يكن المركيز ليتورع، في مثل تلك اللحظات، عن قتله دون تردد. وبما أن النظام القائم هو شيء طبيعي في نظر المركيز وأمثاله، فإن أي إخلال فيه لا بد أن يكون بالضرورة من خارج النظام، وتتوجب تصفيته بأي أسلوب أو طريقة. وهم يلجؤون في مثل هذه المناسبات إلى التشبيه بالجسم المريض، والعطالة، والبتر: وهي استعارة مشوشة لا يستطيع فهمها علماء الاجتماع والجراحون على السواء.

– هذا ما قاله أيضاً لويس السادس عشر عندما ذهبوا إليه ليحذروه مما كان يحدث في شوارع باريس – قال له أونوفري بوفيلا ذلك في إحدى المرات كي يربكه، لمجرد المداعبة وليس لأي شيء آخر. ولكن مركيز أوت ردّ عليه بكل ثبات بأن جميع الفرنسيين هم أبناء عاهرة، وأن ما يصيب أي فرنسي لا يهمه بشيء. فرد أونوفري بهجوم معاكس:– حتى ولو كان الملك؟

– آه، لا، ليس إلى هذا الحد – قال المركيز وهو ينهض واقفاً – لا أسمح لأحد بالتهجم على آل أورلان بحضوري، وإذا استمر الحديث على هذا النحو، فسوف أجد نفسي مضطراً إلى أن أرسل إليك إشبيني. فانظر أنت ما ستفعله.

ولكن الأمور اتخذت الآن وجهة أخرى: فلا يمكن الاستخفاف بما جرى في روسيا، أو النمسا، أو هنغاريا، أو حتى في ألمانيا نفسها. ولم يعد يسمح

ببقاء الأمور على ما هي عليه إلا تغيير عميق وجريء.

فقال المركيز:

- وهل يتمثل هذا التغيير الجريء والعميق في هذا الذي تريده؟ في أفلام تظهر فيها تلك الفقمة؟

ظل أونوفري بوفيلا يبتسم مهادناً: لم يكن مستعداً بعد لأن يخبر المركيز بالأبعاد الحقيقية لخططه. وقال له:

- ثق بي. ولستُ أطلب منك إلا عدم تأليب الشارع؛ وأن تقنع جماعتك بأنني لست مجنوناً ولا أتصرف بسوء نية. امنحوني مهلة رحمة: وأنا سأبين لكم ما أستطيع عمله. ولكن، لا بد أن يسود الهدوء صفوفكم خلال هذه المهلة. وإذا ما وقعت بعض أعمال الشغب الصغيرة، فدعوا الجماهير تلهو، وتظاهروا بأنكم لم تلحظوا شيئاً؛ فكل هذا يشكل جزءاً من خطتي.

- لا يمكنني الالتزام بكل هذا - قال المركيز. وكان التعب قد حمله إلى موقف دفاعي غريب عنه ونادراً ما يتخذه.

- ولستُ أطلب ذلك منك - قال أونوفري بوفيلا - ما أريده هو أن تكلم أصدقاءك في هذا الأمر فقط. فهل ستفعل ذلك وفاء لصداقتنا القديمة؟

- دعني أفكر في الأمر - قال المركيز. ولم يكن ممكناً طلب المزيد منه، ولهذا لم يلح عليه أكثر. وكان المسرح قد امتلأ الآن بزملاء مركيز أوت الذي كان يترصد مع بوفيلا وإفرين كاستيلس ردود فعلهم من المقصورة المموهة.

- يبدو أن الأمر يسير على ما يرام - قال مارد كالياً.

فأومأ أونوفري بوفيلا مؤكداً ذلك، وقال لنفسه: لا يمكن أن يكون غير هذا. فقد كان حدسه صائباً مرة أخرى. عندما أخذوا ديلفينا إلى الاستديو السينمائي، لم تُبدِ أي مقاومة، ولم يظهر عليها الفضول: وسيان لو أنهم أخذوها إلى أي مكان آخر. كان ذلك الاستديو السينمائي قد أقيم على قطعة أرض بين سان كوغات وساباديل، غير بعيد عن الموقع الذي أقيمت فيه اليوم أبنية جامعة برشلونة المستقلة. وكانت تكاليف بناء الاستديو مرتفعة جداً، لأن الفريق الفني بكامله استُورد من بلدان عدة أخرى. وقد شارك في العملية رائدان من رواد صناعة السينما الكتلانية هما: فروكتوسو جيلابيرت وسيغوندو دي تشومون؛ ولكن أياً منهما لم يقبل مع ذلك تولي إخراج الفيلم

الذي وضع تصوره أونوفري بوفيلا: فقد بدا لهما أنه مشروع جنوني. وأخيراً جرى التعاقد مع مصور قديم عاطل عن العمل، وهو رجل أصله من وسط أوروبا، أقرع وجاف الطباع، يدعى فاوستينو زوكرمان. ولم يكن الاختيار خاطئاً: فقد توغل هذا الرجل في المشروع منذ البداية دون صعوبات. وكان طاغية في تعامله مع ديلفينا، فلم تكن تنقضي جلسة تصوير دون أن يُبكيها لسبب أو لآخر. وقد كان سكيراً تباغته نوبات غضب جامح مفاجئة. وعند حدوث ذلك، يكون لا بد من تركه وحيداً، والهرب بعيداً عنه للإفلات من ضرباته التي يوجهها بسوء نية: ففي إحدى المرات كسر ثلاث أصابع في يد إحدى الخياطات؛ وفي مرة أخرى شج رأس خادم بضربة كرسي. وكانت أجواء الدناءة تلك التي يثيرها هذا الشخص وأمثاله تثير إعجاب أونوفري بوفيلا: فقد كان يعرف أن ذلك سيؤدي إلى تفتح زهرة أكثر حساسية وعطراً.

وكان الجميع ينتظرون النتائج؛ وكانت حصيلة المحاولات الأولى هي الإخفاق. فتخلف برشلونة التكنولوجي في هذا المجال كان ما يزال سحيقاً. والفيلم الأول الذي جرى تصويره أخيراً، تبين أنه لا يمكن الاستفادة منه: فبعض المقاطع كانت قاتمة جداً وبعضها شديد البريق إلى حد تجرح معه عيني المشاهد، وتبقى الصورة مطبوعة على شبكية العين لعدة ساعات؛ وفي مقاطع أخرى تتراقص على الشاشة بقع مائلة إلى الصفرة غير واضحة المعالم؛ وفي غيرها تبدو الحركة مقلوبة بصورة لا يمكن تفسيرها، فكل شيء يتحرك معكوساً: الأشخاص يمشون إلى الوراء، ويملؤون كؤوسهم بسائل يُخرجونه من أفواههم، وهكذا... ، كما كان بعضهم يمشون على السقف، بينما يمشي آخرون على الأرض. ولكن هذه الكارثة لم تثن عزيمة أونوفري بوفيلا. فأمر بأن يحرقوا أشرطة السيلولويد غير المجدية تلك كلها، وأن يبدؤوا التصوير من جديد، في تلك اللحظة بالذات. فردوا عليه بأن فاوستينو زوكرمان في حال لا تسمح له بالعمل، وأنه غير قادر على الوقوف. فأجابهم: فليُخرج الفيلم وهو جالس إذن. وقد قلّده بذلك فيما بعد مخرجون مشهورون كثيرون. ومن أجل إعادة التصوير تلك، كان لا بد من صنع كل شيء من جديد، لأن ديكورات وملابس التصوير الأول كانت قد أُحرقت أيضاً. وهذا إجراء فرضه أونوفري بوفيلا نفسه للحيلولة دون تسرب شيء مما

يُصنع في الاستديو إلى الخارج. لأن الحفاظ على السرية هو أمر جوهري في نظره. وكانت تهديدات وضغوط رهيبة تُثقل على العاملين في الاستديو، ولكنهم يتلقون مقابل ذلك مكافآت عالية ومجزية. وأخيراً ذهبوا ليخبروه بأن الفيلم الثاني صار جاهزاً، وسألوه إذا ما كان يريد مشاهدته في صالة عرض موجودة في الاستديو نفسه. وحين سمع ذلك ترك كل ما كان بين يديه في تلك اللحظة، وذهب في سيارة زجاج نوافذها مدخن. وهذا الفيلم هو نفسه الذي كان ينتزع الدموع الآن من عيون صفوة الأوليغاركية المجتمعين في المسرح بفضل وساطة مركيز أوت. لدى انتهاء ذلك العرض الأول الخاص، استدعى إليه فاوستينو زوكرمان. كانت تنبعث من المصور العجوز رائحة نبيذ أحمر وبصل نيء لا تطاق؛ وبدا كما لو أن أنفاسه تفوح من قلب مركز الأرض. وقال له:

– أهنئك. كل ما أردتَه موجود هنا في الفيلم؛ فكل شيء موجود في هذه النظرة: أحلام ومخاوف البشرية.

العينان المحتقنتان اللتان كان فاوستينو زوكرمان يصوبهما إليه بالحاح سكير، أقنعتاه بصواب رأيه، وفكر: إنهما نظرتان متطابقتان، إنهما اللهفة نفسها واليأس نفسه. هذا النور الذي ما زال يشع في أعماق نظراتيهما سيخمد عما قريب، فيتحول إلى جمرة في البدء، ثم إلى كومة من الرماد البارد، ولكن هذه اللحظة الأخيرة تكون قد بقيت مثبتة إلى الأبد على أشرطة السيلولويد.

الفصل السادس

- 1 -

الرجل الذي خرج لاستقباله كان قد تجاوز السن التي تبدو الهيئة فيها مدموغة بظروف لا علاقة لها بحساب السنين. لم تكن هناك شعرة واحدة على رأسه المكور ذي اللون الصلصالي الداكن؛ تقاطيعه منمنمة، وزرقة عينيه شديدة النقاء. كان يرتدي بنطالاً مخططاً ومثبتاً بحبل معقود حول خصره، وبلوزة حائلة اللون من الفانيلا، وينتعل صندلاً بسيطاً. وكان يستند في مشيته على عصا كثيرة العقد، ويعلق في الحبل الذي يستخدمه كحزام، سكيناً كبيرة إلى حد تبدو معه، على خلاف ما هو متوقع، غير مؤذية. وكان يرافقه ملتصقاً بكعبيه كلب صغير، كبير الرأس ومنفر المظهر، له ذيل قصير جداً وقوائم هزيلة. ولم يكن الكلب يُبعد عينيه عن صاحبه الذي كان يلتفت نحو الكلب من حين لآخر، كما لو أنه يبحث عن تصديقه على ما يفعله أو يقوله. كان الرجل قد أعاد الآن وضع قبعته على رأسه وأدار ظهره لأونوفري بوفيلا، وقال له:

– تفضل واتبعني يا سيدي. من هنا. الطريق سيئة بعض الشيء، وأظن أنني قد نبهتك إلى ذلك من قبل.

مشى أونوفري بوفيلا وراء الرجل والكلب. وهمَّ السائق الذي أوصله إلى تلك الفجوة في الغابة بأن يتبعهم، ولكنه أوقفه بإشارة من يده، وقال له:

– ابقَ هنا، ولا تقلق إذا ما تأخرتُ في العودة.

جلس السائق على مقدمة السيارة، ووضع إلى جانبه قبعته المسطحة، وأخذ يلف سيجارة بينما كان الرجلان يتوغلان ومعهما الكلب في درب في الغابة لا تلبث الأجمة أن تخفيه. كان الرجل يتقدم بيسر كبير بين الجذور والأحجار والآجام، على الرغم من سنوات عمره. بينما كان أونوفري بوفيلا يضطر بالمقابل إلى التوقف بكثرة لأن غصن عُلّيق يكون قد علق بقماش سترته. وعندئذ يرجع، ويقطع الغصن بسكينه ويعتذر ألف مرة لأونوفري

بوفيلا الذي أيقن أن بدلته قد ضاعت.

كانت صناعة السينما التي أنشأها سنة 1918 قد بلغت أوج تطورها بعد سنتين من ذلك، في أواخر سنة 1920؛ وكانت تلك هي فترة ازدهارها وذروتها؛ ثم بدأت الأمور بعد ذلك بالتراجع. ووسط ذهول الجميع، انتقلت في سنة 1923 حصته في تلك الأعمال إلى إفرين كاستيلس الذي كان شريكه منذ البداية، وأعلن انسحابه من هذا العمل ومن جميع الأعمال الأخرى على السواء. وكانت المفاجأة أقل لدى أولئك الذين يعرفونه جيداً، أو بعبارة أدق، أولئك الذين كانوا يتعاملون معه بكثرة، لأنه لا يوجد من يمكنه القول إنه يعرفه جيداً، ولم يفاجأ هؤلاء بقراره لأنهم يعتقدون بأنهم قد لمحوا مؤشراته الأولى من قبل في إعلانه المفاجئ بأنه يفكر في استبدال منزله.وهم يتذكرون الآن تلك الفترة: ولا يرون في تزامن إعلانه ذاك مع بداية انطلاق أكثر مشروعاته طموحاً على أنه مجرد مصادفة؛ فهم يرون فيه القناعة الضمنية، وربما غير الواعية بأن مشروعاته الكبيرة ستنتهي إلى الإخفاق حتماً.

– كان هذا هو مدخل الخدم القديم – قال له الرجل – وليعذرني السيد لأني جئت به من هنا، ولكنه المكان الأيسر عملياً للمرور، والوحيد الذي يسمح بالدخول دون القفز فوق السياج.

كان قد رأى مئات البيوت في أثناء بحثه الدؤوب، ولكنه لم ير شيئاً يهيئه لما وجده هنا. فهذا المنزل الكبير القائم في الجزء العلوي من منطقة بونانوفا، كان ملكاً لأسرة يبدو أن اسمها كان روسيل أحياناً، وروسيلي في أحيان أخرى. وقد شيد البيت في أواخر القرن الثامن عشر، مع أنه لم يبق قائماً من ذلك البناء الأول سوى القليل، بعد عملية التوسع التي أُخضع لها البيت في سنة 1815. وإلى هذا التاريخ الأخير يعود إنشاء الحديقة أيضاً. ومساحة هذه الحديقة، الرومانسية في مفهومها، والهذيانية إلى حد ما في تنفيذها، تبلغ أحد عشر هكتاراً تقريباً. وفي الخاصرة الجنوبية للحديقة، إلى يسار المنزل، كانت هناك بحيرة اصطناعية تغذيها قناة من الطراز الروماني، تجلب الماء مباشرة من نهر يوبريغات؛ ويتم إفراغ البحيرة بدورها من الماء عبر قناة تحيط بالحديقة، وتمر من أمام البيت، يمكن الإبحار عبرها في «إسكيفات»، أو زوارق مسطحة القاع، تحت ظلال أشجار الصفصاف

والكرز والليمون التي تنمو على ضفتيها. وكانت هناك عدة جسور تتيح عبور القناة من جانب إلى آخر: وكان الجسر الرئيسي، ذو الثلاث قناطر، مشيداً بكامله من الحجارة، ويؤدي إلى مدخل البيت بالذات؛ والجسر المسمى «جسر النيلوفر»، أصغر قليلاً من السابق، وله حاجز من الرخام الوردي؛ وجسر ديانا الذي سمي بهذا الاسم، لأن عليه تمثالاً لهذه الإلهة جيء به من أطلال أمبورياس؛ وهناك الجسر المغطى، وهو من خشب الساج؛ والجسر الياباني الذي يشكل مع انعكاس صورته في الماء دائرة تامة. وكانت البحيرة والقناة مسكونتين فيما مضى بأنواع مختلفة وغريبة من السمك؛ كما جُلبت من أمريكا الوسطى ومن الأمازون أنواع نادرة جداً من الفراشات وتمكنوا من جعلها تتأقلم مع نباتات ومناخ برشلونة بعد جهود مضنية، ومعلومات لم تكن معروفة في كتالونيا في ذلك العهد. وفيما بعد، في سنة 1832، نتيجة رحلة إلى إيطاليا، التي كان ذلك الأمر رائجاً فيها، وكانت فوق ذلك موطن الأسرة الأصلي، أو بالأحرى مقر إقامتها في الزمن الذي سيطرت فيه كتالونيا على صقلية ومملكة نابولي (وربما كان ذلك هو الوقت الذي تعرض فيه اسم الأسرة لعدة تبدلات، كالتبدل الذي سبق ذكره) والتي كان يذهب إليها بانتظام أبناء هذا الفرع من الأسرة الذي استقر في برشلونة، كلما حان الوقت لتفكير أحدهم بالزواج (وهو أمر لم تكن تمليه أي نزوة أو هوى، وإنما الرغبة الواضحة أو الاستراتيجية المعلنة والمؤكدة بعدم الزواج من عائلات كتلانية أخرى، لأن ذلك سيؤدي في نظرهم إلى تبعثر الميراث عاجلاً أو آجلاً)، نقول إن تلك الرحلة إلى إيطاليا جعلتهم يضيفون إلى الحديقة مغارة نالت الإعجاب الشديد في حينها؛ وكانت المغارة مؤلفة من قسمين أو حجرتين، الأولى فسيحة جداً، ولها قبة ارتفاعها عشرة أمتار، وفيها تشكيلات صواعد ونوازل غريبة الأشكال صُنعت بإتقان مبدع من الجص المطلي بمعجون المرمر ومن الخزف؛ والحجرة الثانية أغرب من الأولى، وأصغر منها حجماً، وعارية من الزينة، ولكنها مقامة بمحاذاة البحيرة، ودون مستوى الماء الذي يمكن تأمل قيعانه، عبر حائط صخري استبدل بجزء منه زجاج سماكته خمسون سنتمترا: ويمكن أن تُرى هناك، عندما يصل ضوء الشمس إلى قاع البحيرة، الطحالب والشعاب المرجانية ، وأسراب الأسماك وسلحفتان ضخمتان جلبتا

من غينيا الجديدة، بقيتا على قيد الحياة، رغم تغير البيئة والمناخ، وعاشتا عمراً مديداً، مثلما هي عادة هذا النوع، حتى فترة متقدمة من القرن العشرين، ولكن دون أن تتكاثرا.

وقال الرجل:

- كان أبي يعمل صياداً في خدمة أسرة روسيل؛ وبعد ذلك، عندما أصابه الصمم، تحول للعمل كحارس غابات. وهكذا يمكن القول يا سيدي إني ولدت في خدمة أسرة روسيل.

وإضافة إلى تلك البدائع، كانت الحديقة تضم عدداً كبيراً من الاستراحات، والمقصورات، والأكشاك، والجواسق، والدفيئات، والدروب الخفية ذات المسارات المختلطة، يمكن للمتنزه فيها أن يضل السبيل دون خوف، ويمكن أن يلتقي فجأة في منعطفاتها تمثالاً للإمبراطور أوغوسطو على صهوة جواده، أو على تمثال نصفي لوجه سينيكا أو كنتيليان وكل منهما فوق قاعدته؛ ويمكن أن تسمع من خلال أسيجة تلك الدروب، محادثات سرية، وأن تُفاجئ مواعيد غرامية، ورصد قبلات عاطفية على ضوء القمر. وعلى المروج الموزعة على سبعة مدرجات على سفح الجبل، تطوف أزواج من الطواويس والكراكي المصرية.

وقال الرجل:

- ولكن أول عمل أتذكر أني قمت به هو تعييني خادماً للآنسة كلارابيلا، وكنت آنذاك في السادسة من عمري. ولا بد أن الآنسة كلارابيلا كانت في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر حينئذ، ما لم تخني الذاكرة. ومع أن الآنسة كلارابيلا كانت تتقن عدة لغات، إلا أنها كانت تتوجه إلى الخدم باللغة الإيطالية على الدوام؛ فلم نكن نفهم الأوامر التي تصدرها إلينا. ولكن وظيفتي لم تكن تتضمن مصاعب؛ إذ كنت مكلفاً بإخراج كلابها السبعة المدللة للتريض. سبعة كلاب يا سيدي، أصيلة في أنسابها، وكل منها من نوع مختلف، لو أنك رأيتها يا سيدي.

كان المنزل مؤلفاً من ثلاثة طوابق، تبلغ مساحة كل طابق منها ألفاً ومئتي متر مربع؛ وكان في واجهة المنزل الرئيسية، المتجهة إلى الجنوب الغربي، المطلة على برشلونة، إحدى عشرة شرفة في كل طابق من الطابقين العلويين

وعشر نوافذ كبيرة وبوابة المدخل في الطابق السفلي. وكان في المنزل، على تلك الشرفات، والنوافذ، والحجرات الزجاجية، والكوى، والمَراقب، والأبواب، ألفان وستة ألواح زجاجية، مما يجعل من تنظيفها عملاً متواصلاً. وكان ذلك الزجاج كله مكسراً الآن، وداخل البيت مهدماً، وقد تحولت الحديقة إلى غابة متشابكة. وكانت الجسور قد انهارت، والبحيرة قد جفت، والمغارة تهدمت، وكل الحيوانات الغريبة التهمتها الضواري والجرذان التي تملأ المزرعة كلها الآن؛ أما الزوارق والعربات فكانت أكواماً من الأخشاب مكدسة في المستودعات التي تخلعت أبوابها؛ ولم يعد شعار أسرة روسيل سوى نقش مطموس فوق الباب الرئيسي، محته العوامل الجوية وغطته الطحالب.

– أخبرني بما حدث – قال له أونوفري بوفيلا. وكانا قد عبرا الجسر، رغم ما في ذلك من مجازفة، وصارا أمام باب المدخل. فجلس الرجل على تمثال أسد حجري، فقد رأسه وذيله. وتمدد الكلب عند قدميه. أسند الرجل ذقنه على يديه المضمومتين فوق مقبض العصا وزفر زفرة عميقة. فأدرك أونوفري بوفيلا أنه سيسمع قصة أخرى، طويلة وغريبة.

– مع أنه كان من عادة أسرة روسيل، كما هو معروف يا سيدي، عدم زواج أبنائها في كتالونيا – هكذا بدأ الرجل حديثه – وعدم التصاهر مع مواطنيهم، مما كان سبباً في إثارة الأحقاد على الدوام، كما لو أن الولادة على الأرض نفسها وتحت الشمس نفسها، يعطي البعض الحق بالتصرف بحياة الآخرين الخاصة، وحتى بحياتهم العاطفية، أو محاكمتها، إن لم يكن الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك، إلا أن الأسرة، مثلما قلت لك يا سيدي، لم تكن تميل إلى ازدراء الآخرين أو عزل نفسها عنهم، بل على العكس. فنادراً ما كان يمر يوم لا ألتقي فيه زائراً وأنا عائد في المساء، بعد أن أكون قد أمضيت الساعتين المقررتين في إخراج الكلاب للتريض، مثلما هو مطلوب مني، وحتى في شهور الحر، على المرج الذي كان هناك يا سيدي، وهو أول مكان يتلقى ظل أشجار الحور، التي صارت اليوم أطول بكثير مما كانت عليه آنذاك، وهذا طبيعي: فقد مرت على ذلك سنوات كثيرة يا سيدي، حتى إن الأشجار التي شهدت نزهاتي في ذلك الحين، وكانت شاهداً على أحلام طفولتي، قد ماتت ولم تعد

موجودة الآن. – كان يتكلم بجمل طويلة بعض الشيء، كما لو أنه يتكلف مشقة في التذكر، أو في رواية ما يتذكره لرجل غريب. وكان في بعض اللحظات يصمت، يستغرق في التأمل: وفي هذه اللحظات يحمر وجهه مثل تلميذ وتكتسب بشرته، وهي مائلة إلى الحمرة بطبيعتها، مزيداً من القتامة، فتصبح نيلية اللون تقريباً. ثم ما يلبث أن يهز رأسه بعد انقضاء لحظة الذكرى السيئة تلك، ويرفع يداً عن قبضة العصا التي يمسك بها بقوة، ويشير إلى تلك الحقول غير المعتنى بها وكأنها ستتحول بتعزيم ذاكرته إلى مروج منسقة من جديد، مثلما كانت في أزمنة أخرى. وعندئذ يخيل إلى الرجل أنه يرى مرور الناس وعبور العربات على هذه المروج. ثم يتابع الاستذكار قائلاً:– وفي تلك المناسبات التي يصل فيها زائرون، كنتُ أتكلف مشقة في عملي لكبح الكلاب التي تأخذ بشد أحزمة تقييدها متلاعبة ومستثارة. ولم يكن غريباً أن تتمكن أخيراً من التغلب على مقاومتي بالرغم من أنها صغيرة، ولكنني كنتُ صغيراً أيضاً قليل الخبرة، وتجرجرني على العشب الغض وهي تنبح وتقفز، بينما أنا أبكي، فيبهج ذلك المنظر الزائر الذي يدنو ليتأمل للحظات هذا المشهد المسلي قبل أن يتوجه بعربته إلى الجسر، ويُفتح له الباب ذو المصراعين على اتساعه ليتمكن من الدخول إلى المنزل.

ترك الرجلَ وكلامَه المسهب، ودخل إلى البهو. كان الضوء يدخل بوفرة من النوافذ الكبيرة التي بلا مصاريع ولا ستائر. وكانت الأرض مغطاة بأوراق يابسة. ورأى بعض الأشياء المتفرقة والطارئة التي نجت من السلب: كرة زاهية الألوان، إناء من البرونز، كرسي، وغيرها. وكان غياب الأشياء الأخرى واضحاً ومحزناً. ففكر بكمية الأشياء اللازمة لتكوين منزل؛ وبأن بعض هذه الأشياء يتكون من أجزاء كثيرة ينبغي تجميعها بدقة. وبترجمة كل ذلك إلى ساعات عمل، فإن منزلاً كهذا يتطلب عدة حيوات بكاملها؛ وتدميره يحول تلك الحيوات إلى استثمار باطل، وإلى نوع من الهدر، هذا ما فكر به بعقلية المتمول. وأخرجه من هذه التأملات صوت الرجل الذي اقترب منه بصمت، وراح الآن يواصل حكايته دون إنذار مسبق:

– والأعياد يا سيدي! وحفلات الرقص واللهو! – وأزاح بطرف عصاه الأوراق اليابسة التي تغطي الأرض وكشف عن قَدَمٍ وبداية ساق أنثوية من

الفسيفساء. ولو أنه واصل التنظيف لكشف بالتأكيد عن مشهد أسطوري في لوحة الفسيفساء الفسيحة بمساحة البهو كله، ولكن عمل ذلك يتطلب منه عدة ساعات عمل. فتوقف عن ذلك، وواصل وصفه المسهب لتلك الحفلات الراقصة بينما هما يجوبان قاعات ومزيداً من القاعات. وقال إنهم لم يكونوا يسمحون له بالطبع، ومثلما هو متوقع، أن يشارك في تلك الحفلات، التي كانت تقام في الليل عادة، ولكنه كان يهرب من غرفته برداء النوم، وحافي القدمين بالرغم من الندى الليلي، ويختبئ في مكان يمكنه الرؤية منه دون أن يُرى. وأوضح أن ما كان يسهل تسلله ذاك هو الفوضى التي تسببها الحفلات: فالخدم جميعهم يكونون مشغولين جداً في تلك المناسبات، ولا يمكن لأحد أن يعير اهتماماً لصبي مثله. كانت بعض الطيور قد بنت أعشاشها في تجاويف زخارف سقف صالون المرايا، وكانت الفئران تتراكض على نتوءات زخارف الجدران. وبدا أن هذا المشهد قد زاد حزنه. صمت قليلاً، وعندما استأنف الكلام، فعل ذلك بسرعة، وكأنه يريد أن ينهي بسرعة هذه الزيارة التي يبدو واضحاً أنها آلمته، ربما لأنه يقوم بها الآن بصحبة رجل غريب، للمرة الأولى، منذ زمن طويل.

– في أحد أيام الصيف يا سيدي – قال – في يوم صيفي رهيب، ولدى عودتي من جولتي المسائية مع الكلاب وجدت البيت يعج بالحركة والجميع هناك يتحركون بنزق واضطراب، فخيل إليّ للوهلة الأولى أنهم يعدون لحفلة كبرى أخرى، ولكن ذلك لم يكن ممكناً، لأنهم كانوا قد أقاموا منذ وقت قريب حفلتين كبيرتين، ومتتاليتين تقريباً، بمناسبة أعياد القديس يوحنا، وبمناسبة زيارة فرقة مسرح سان كارلو القادمة من نابولي، التي دعاها السيد روسيل، مستغلاً الاستراحة الصيفية، لتقدم لأسرته ولبعض الأصدقاء الحميمين «**زواج فيغارو**» للسيد موزارت، وهو حدث يتطلب انهماكا كبيراً، إذ توجب تأمين الإقامة والرعاية للمغنين، والكورال والأوركسترا، وكذلك لبقية العاملين في المسرح، أي قرابة أربعمئة شخص، إضافة إلى الآلات الموسيقية وملابس وإكسسوارات الأوبرا، وبدا بعد ذلك أننا لن ندخل لوقت طويل في ورطة حفلات بتلك الضخامة، ولكن الأمر لم يكن كذلك، وقد كنتُ هناك، وأنا أكاد لا أصدق عيني، في وسط كتيبة من البنائين، والنجارين، ومرممي الجص،

والنّقاشين، وكل ما لا بد منه في نهاية المطاف للبدء بالإعداد لحفلة مدوية. استثارني ذلك المشهد غير المتوقع، فأسرعت إلى داخل البيت، تتبعني كلابي السبعة، لأبحث عمن يخبرني عما يحدث أو بما سيحدث، والتقيت أخيراً خازنة مؤن تربطني بها، على ما أظن، صلة من القرابة، إذ لم يكن من النادر حصول حالات زواج بين الخدم والخادمات العاملين في البيت نفسه، وهو ما يؤدي، وأقول ذلك بصورة عابرة، إلى أوضاع طريفة، كأن تكون عمتي من الدرجة الثانية هي في الوقت نفسه ابنة عمي، وأخو أمي هو ابن أخي وقرابات من هذا القبيل، وعلى هامش هذا، لأنه ليس ما يعنينا، فإن تلك الخازنة التي تربطني بها درجة ما من القرابة، ويمكن لها أيضاً، عندما أفكر في الأمر الآن، أن تكون أمي، باعتبار أن أبي، في المرات القليلة التي يأتي فيها من الغابة، كان ينام معها، وهذا لا يثبت شيئاً بالطبع، وقد كانت حينئذ تنتف ريش ديك بري قطعت رأسه للتو بالفأس التي ما زالت هي، أمي المحتملة، تضعها على ركبتيها، وأخبرتني بأن فارساً قد حضر بعد ظهر ذلك اليوم إلى المنزل، وأنه كان يرتدي عباءة ويعتمر قبعة مثلثة الحواف من اللبد، وهو نوع قديم من القبعات لم يكن يستخدم في ذلك الحين، وأنه قفز عن حصانه قبل أن يتوقف الحصان عن جريه المندفع، ودون أن يهتم بربطه أو بتسليم زمامه للسائس الذي أسرع بالحضور فور سماعه وقع الحوافر على الجسر، فاغتنم الحصان تلك الفرصة ليغطس في القناة. همس الفارس في أذن القهرمان بكلمة سرية، ففتحت له الأبواب فوراً، وأُعد له لقاء عاجل مع السيد روسيل، الذي أيقظوه من قيلولته دون تردد، وبعد ذلك اللقاء أمر السيد بإعداد ما يلزم من أجل إقامة حفلة رقص كبرى في تلك الليلة: (في هذه الليلة بالذات!) على شرف ضيف كبير لم يكشف، مع ذلك، عن اسمه للخدم. وعلى الفور غادر الموفد، وقالت خازنة المؤونة التي ربما كانت أمي: وخرج بعده مباشرة رسل مكلفون بتبليغ الدعوات شفوياً. فسألتها بفضول سني الغض الذي لا يرتوي: ولكن، من هو ذلك الضيف؟ فردت أمي بأنها لا تستطيع أن تخبرني، وأنه سر، وأنها حتى لو وافقت على أن تخبرني، فإنني لن أخرج من حيرتي، لأن ذلك الاسم الذي سمعته بنفسها من وراء الأبواب، والتقطت مقاطع متفرقة حملتها إليها الريح، هو على حد قولها مجهول تماماً

بالنسبة لي. ولكنني ألحفت عليها كثيراً، مستعيناً بعاطفتها الأمومية، مفترضاً أن صلتنا الحقيقية تسوّغ ذلك، وأنها تتمتع بتلك العاطفة. واضطرت أخيراً إلى التنازل وإبلاغي أن الشخص الذي تجري تلك الاستعدادات على شرفه لم يكن سوى الدوق أرتشيبالدو ماريا الذي تؤيد أسرة روسيل منذ سنوات عدة تطلعاته إلى عرش إسبانيا.

كان هناك قليل من الأوراق اليابسة في الطابق الأول؛ ولكن الأوساخ كانت أكثر عمقاً، وتبدو وكأنها ناجمة عن الحاجات نفسها. وفكر أونوفري بوفيلا: كم من الأوساخ يمكن أن تتراكم! لا أدري ماذا سيحدث عموماً لو أن الجميع، أو معظم الناس لا ينظفون قليلاً في كل يوم الجانب الذي منحهم إياه القدر من هذا الكوكب. ربما كان هذا هو في الواقع قدر البشرية الحقيقي، وربما وضع اللهُ الإنسان على الأرض لكي يبقيها نظيفة بعض الشيء ومقبولة المظهر، وربما لهذا السبب كان كل ما سوى ذلك وهماً.

وواصل الرجل قائلاً:

- لم يكن تأييد هذا المرشح لعرش إسبانيا أو ذاك، في ذلك الحين، ثمرة ميل، أو مجرد تفضيل يشبه ما يمكن الشعور به اليوم تجاه مصارع ثيران، على سبيل المثال، وإنما حصيلة موقف سياسي ملتزم، يمكن أن تكون له نتائج مدمرة، إذا ما أسفرت تحولات الحروب الأهلية التي كانت تنشب آنذاك عن نتائج غير مواتية. - ثم أضاف بعد هنيهة صمت:- حسن، لقد كان المرشح للعرش الذي نحن بصدده، ذاك الذي أعلن عن زيارته، قد وعد في وثيقة غامضة، هي مزيج من المذهبية الفكرية والخطابة الحماسية والبرنامج العملي، سميت «المرسوم» دون أن يدري أحد سبب تلك التسمية، وصدرت في مدينة مونبيليه، وعد فيها بمنح كتالونيا استقلالاً مقيداً، أو شيئاً من هذا القبيل، أو ما يبدو نظاماً مستنسخاً عن ذلك النظام الذي كان وما زال يربط الهند بالتاج البريطاني. ومن أجل هذا الوعد الغامض، جازفت أسرة روسيل بحياتها وبثروتها. وها هو هذا المرشح للعرش يعلن فجأة الآن عن زيارته، مما يولّد في البيت خياراً لا يمكن الفصل فيه، فعليهم من جهة، تكريم الضيف كما يتطلب مقامه الحقيقي أو المحتمل، ويتوجب من جهة أخرى الحفاظ بأي ثمن على السرية التي تحيط بالضرورة برحلته، لا سيما أن السلطات القائمة

والجماعات المنافسة قد اتفقت على وضع ثمن لرأسه، وهي مصاعب تضاف إلى التسرع الملّح، لوضع مخيلة الأسرة ودقتها، وحسن تصرفها موضع الاختبار.

بدت الأرض الآن مغطاة بفتات من قطع الخزف التي يُسمع صريرها تحت أقدام الرجلين. عندما التقط إحدى تلك القطع وقرّبها من عينيه، تبين له أنها، كبقية الفتات، من خزف «سيفرز» أو «ليموج»، وأنها جزء من طقم سفرة يكفي لما لا يقل عن مئتي مدعو دون حساب الأواني الكبيرة المخصصة للحساء، والصلصات، والفواكه. وقال: إذا كانت قاعة الطعام في الطابق الأرضي، فكيف جاءت هذه الأواني إلى هنا؟ وكان يمكن له أن يسأل أيضاً عمن كسرها، لو وجد من يتوجه إليه بالسؤال. لكن الرجل لم يجبه، لأنه كان غارقاً في ذكرياته.

– وما أن رأيناه حتى أدركنا أنه لا يمكن لذلك الرجل أن يجلب لهذا البيت سوى النكبة – قال –. كان الدوق أرتشيبيالدو ماريا في الأربعين أو الخامسة والأربعين من العمر يومذاك، وكان قد عاش حياته كلها في المنفى. وقد جعلت منه حياة التخفي والتنقل تلك رجلاً متهتكاً بلا أخلاق. ولدى عبوره الجسر، سقط عن الجواد بسبب حالة السكر التي جاء بها. ولا أظن أنه تمكن حتى من رؤية الزوارق التي كانت تمخر القناة وفيها الخدم يرفعون عالياً الشموع والشمعدانات ليشكلوا دائرة أنوار متحركة. وقد قفز مرافقه، وكان يدعى فليتان، وله مظهر غجري، عن صهوة حصانه برشاقة بهلوان سيرك، وساعد الدوق على النهوض، واقتاده جرجرة إلى حاجز الجسر، حيث اتكأ سموه بصدره وراح يتقيأ، بينما كانت الآنسة كلارابيلا، تنفيذاً لتعليمات أبيها، وبالحركات التي أمضى معلم الرقص المساء كله في تعليمها إياها، تجثو على ركبتيها في أظرف حركة احترام، وتقدم له على وسادة حريرية ذات مربعات شطرنجية، نسخة من مفتاح البيت مصنوعة من الذهب أو من معدن مذهب آخر، وزنبقة بيضاء... ولا أدري إذا ما كنتُ قد أخبرتك يا سيدي، بأن ذلك كان في ليلة صيف حارة جداً، ليلة رهيبة. ولم يكن الدوق قد حلق لحيته منذ عدة أيام، ولم يستحم منذ عدة شهور، فكانت تفوح من ملابسه رائحة حريفة، ويتدلى من أنفه مخاط متجمد، وعندما يضحك، وهو

ما يفعله لإظهار القسوة أكثر منه لإظهار البهجة والسرور، يكشف عن أسنان حادة ومنخورة: لم يسبق لأسرة ملكية أن حظيت بأسوأ من ذلك التمثيل. راز بحركة تثمين المفتاح الذهبي، ثم ناوله بعد ذلك لمرافقه، ورمى الزنبقة على الأرض، وقرص خد الآنسة كلارابيلا فاحمرّ وجهها في الحال، فكررت انحناءة الاحترام بصورة آلية، واستدارت لتركض وتختبئ وراء أمها.

صعدا إلى الطابق الثاني على درج لم يبق من حاجزه سوى بعض القطع الخشبية المشروخة التي تبرز متعامدة مع درجاته. وعندما وصلا إلى أعلى، تبدل سلوك الرجل الذي كان، حتى ذلك الحين، يتنقل في البيت بتثاقل، مجرجراً قدميه، ومتمهلاً في كل حجرة، إذ إنه انسل ووقف أمام أونوفري بوفيلا، وكأنه يريد أن يقطع عليه الطريق.

- هنا كانت غرف النوم في المنزل - أوضح ذلك دون مناسبة: إذ لم يكن قد قدم حتى تلك اللحظة أي توضيح حول التوزيع القديم للغرف. ثم أضاف مسرعاً، خوفاً من أن يكون قد ارتكب خطأ :- أعني غرف نوم السادة؛ فالمستخدمون بالطبع كانوا ينامون فوق، في ملحق على السطح، وهو أشد أقسام المنزل حراً في الصيف وأشدها برودة في الشتاء، إنما كانت له، مقابل هذه الازعاجات الكبيرة، أفضل إطلالة تشرف على الإقطاعية كلها. وهناك كنت أنام أنا أيضاً. كانت غرفتي منفصلة عن الغرف الأخرى.:. ولا أقول هذا لأرفع من قيمتي: فالواقع أنني كنتُ أنام مع كلاب الآنسة كلارابيلا السبعة؛ ولكن الصحيح أنني لم أكن أتقاسم الغرفة مع خدم آخرين، مثلما كان متبعاً، وكان ذلك يضعني بمنجى من المداعبات، والجلد بالسوط، وعمليات اللواط، ولكن ليس بالكامل طبعاً، إنما في معظم الأيام؛ وأظن أنه يمكنني القول إجمالاً إنني خلال حياتي هنا، لم أتعرض للمداعبات، وللجلد بالسوط واللواط سوى مرة واحدة في الأسبوع تقريباً، وهو ما لا يستطيع أن يقوله آخرون كانوا في مثل وضعي. وأما بقية الوقت فكانوا يتركونني وشأني. وكان من عادتي آنذاك الجلوس على حافة النافذة، وأنا أدلي قدميّ إلى الخارج، وأنظر إلى النجوم؛ وفي أحيان أخرى كنت أنظر نحو الأسفل. إلى برشلونة، آملاً أن أرى حريقاً ما، لأن المدينة، دون ذلك، كانت تغرق في الظلام، وكان من المستحيل علي أن أتبين من مرصدي وجود مدينة مأهولة

فـي البعيد. ثم جاء نور الكهرباء بعد ذلك وتبدلت الأحوال، ولكن لـم يكـن هناك حينئذ أحد يقيم فـي هذا المنزل. – ثم قال فجأة وهو يشد أونوفري من كمه:– تعال يا سيدي، فلنصعد إلى الملحق على السطح وسأريك أين كانت غرفتي، هذه التي حدثتك عنها. ولنترك الآن هذه الغرف لأنه ليس لها أدنى أهمية، صدقني.

كان سقف العلية منهاراً في عدة أماكن: ومن هناك كانت تظهر السماء. ومن خلال الثقوب كانت الخفافيش التي تسكن العلية الآن، تدخل وتخرج في طيرانها المتعرج. وتلك التي لم تكن تحوّم منها، كانت تنام معلقة بدعامات السقف ورؤوسها إلى أسفل. وعلى الأرض تتراكض جرذان كبيرة، وبرها قاس كأنه الشوك، يمكنها أن تواجه هراً، وأن تقضي عليه أيضاً. فحمل الرجل كلبه بين يديه تحسباً.

– لم أستطع النوم في تلك الليلة – واصل الكلام وكأنه لم يقطع حكايته في أي لحظة:– كانت تصل إلى غرفتي موسيقى الأوركسترا التي تحيي حفلة الرقص. وكنتُ أنظر من النافذة، وفق عادتي التي حدثتك عنها. وفي الأسفل، على الجانب الآخر من الجسر، في الفسحة التي كانت هناك، كنت أستطيع أن أرى تحت ضوء آلاف مؤلفة من النجوم التي تملأ سماء تلك الليلة الصيفية، تلك الليلة الرهيبة يا سيدي، العربات التي جاء فيها المدعوون المصطفون، ولا حاجة إلى القول إنهم جميعهم من مؤيدي الدوق المتحمسين، وفي البعيد، على سفوح الجبل، كانت هناك أضواء صغيرة لا حصر لها تتحرك ببطء، مثل سرب من الحباحب المتكاسلة، ولكنها لم تكن حباحب، ويا للذكرى المؤلمة، وإنما هي المصابيح التي تستضيء بها قوات الجنرال إيسبارتيرو الذي أمر بتطويق الإقطاعية، بعد أن نبهه أحد الخونة، لتحل عليه اللعنة، إلى وجود الدوق فيها. ومن سخريات القدر أن أحداً سواي لم ينتبه إلى تلك المكيدة، وكنت آنذاك طفلاً بريئاً لم يتجاوز السادسة من العمر، فما الذي أفهمه من شؤون الخيانة والحرب؟ دعني ألتقط أنفاسي يا سيدي، وسأكمل قصتي في الحال. – فعل ما طلبه، ومسح عينيه بمنديل ذي مربعات أخرجه من جيبه، وبعد ذلك، ودون أي مبرر مفهوم، قام أيضاً بمسح عيني كلبه الصغير، الذي أزاح رأسه جانباً. ثم أعاد بعد ذلك المنديل إلى جيبه،

وقال:- واصلتُ الاستماع إلى الموسيقى إلى أن أويت إلى فراشي بعد أن غلبني النعاس. ولا أدري كم كانت الساعة عندما استيقظت مذعوراً. كانت الكلاب التي تنام معي قد استيقظت قبلي وراحت تتجول في الغرفة قلقة، تخدش الأبواب، وتعض الحصيرة التي تغطي الأرض، وتئن كما لو أنها تتشمم أخطاراً غامضة في الجو. وكان الظلام مطبقاً في الخارج. ألقيت نظرة من النافذة ورأيت أن العربات قد ذهبت، وأن الأضواء الصغيرة التي تسليت بتأملها من قبل قد انطفأت. فأشعلت عقب شمعة وخرجت إلى الممر برداء النوم وقدمين حافيتين، بعد أن أقفلت ورائي باب الغرفة على الكلاب، كي لا تهرب وتتراكض في أنحاء البيت الذي يبدو هاجعا. وعلى هذا الدرج نفسه الذي تراه يا سيدي، نزلتُ إلى الطابق الثاني. دون أن أدري ما الفكرة التي دفعتني إلى ذلك. وفجأة، أمسكت يدٌ بذراعي، وكممت أخرى فمي، فمُنعتُ بذلك من الهرب ومن طلب النجدة، وسقطت الشمعة مني على الأرض، فالتقطها أحدهم على الفور. وعندما عدت من ذهولي، رأيت أن من يمسك بي ليس سوى الدوق أرتشيبالدو ماريا، وأن من التقط الشمعة، التي كانت تضيء الآن وجهه الشيطاني، هو الهمجي فليتان، الذي كان يحمل خنجراً بين أسنانه، وهو ما أغرقني في قلق لا يوصف. وسمعت الدوق يهمس في أذني: لا تخشَ شيئاً، وكان يقذف في وجهي أنفاساً لزجة تعبق برائحة الكحول خشيت معها من أن يغمى علي. ثم سألني: أتعرف من أنا؟ فأجبت بإيماءة خفيفة من رأسي. وقد أرضته هذه الإجابة، ذلك أنه أضاف عندئذ: إذا كنت تعرف من أنا، فأنت تعرف أيضاً أن عليك أن تطيعني في كل شيء. ولأني عدت إلى إظهار امتثالي بالإيماء، فقد سألني مجدداً إذا ما كنت أعرف أين هي غرفة نوم الآنسة كلارابيلا. فأثارت إجابتي الإيجابية بين الرجلين تبادلاً سريعاً لنظرات وابتسامات لم أفهم أي شيء من مغزاها. وقال الدوق: أوصلني إذن إلى هناك دون إضاعة للوقت، لأن الآنسة كلارابيلا تنتظرني. ثم أضاف بعد لحظة مرفقاً كلماته بقهقهة سمجة حاكاه المرافق بمثلها. وانصعت له بالطبع. وأمام باب غرفة النوم، أعادا إلي الشمعة وأمراني بالعودة فوراً إلى غرفتي. وحذرني الدوق: نم في الحال، ولا تخبر أحداً بما حدث، وإلا فإني سأطلب من فليتان أن يقطع لسانك! فعدت بأقصى سرعة إلى غرفتي،

دون أن ألتفت مرة واحدة إلى الوراء. وتوقفت أمام الباب: لقد خلّف اللقاء في نفسي قلقاً عميقاً لم أتوصل إلى تفسير له. وفي نهاية ممر الملحق، حيث كنت أقف، كانت تنام خازنة المؤن التي يمكن لها أن تكون أو لا تكون أمي. دخلتُ على رؤوس أصابعي إلى غرفتها التي تتقاسمها، كما قلتُ سابقاً، مع خادمات أخريات. دنوت من سريرها ورحت أهزها. ففتحت عينيها قليلاً ونظرت إليّ بغضب، وقالت بصوت من بين أسنانها: أيُّ شياطين تفعلها هنا أيها المنحط اللعين؟ فخشيت عندئذ ألا تكون أمي، ولا يمكنني في هذه الحال أن أتوقع منها إلا الضرب. ولكنني أجبتها مع ذلك: إنني خائف يا أماه. فقالت مستبعدة موقفها الغاضب: حسن، ابق هنا إذا شئت، ولكن ليس في فراشي. ثم أضافت وهي تضع إصبعها السبابة على شفتيها: ألا ترى أن هناك من يشاطرني الفراش هذه الليلة؟ وأشارت إلى رجل كان يشخر بجانبها، ولنقل بشكل عابر، إنه لم يكن أبي حارس الغابات، وهذا كلام لا يُثبت أي شيء كذلك بالطبع. وحيال ذلك استلقيتُ على الحصير، عند قدمي السرير، ورحت أعد المباول التي كنت أراها من موقعي. واستيقظتُ مرة أخرى بعنف: كانت أمي تهزني. وكانت جميع الخادمات وجميع الرجال الموجودين في تلك الغرفة أيضاً لأي سبب كان، يتراكضون من جهة إلى أخرى بحثاً عن ملابسهم على الضوء الخافت المتسلل من كوة الإنارة في السقف. سألتُ عما يحدث، كان توضيح أمي الوحيد هو صفعة وجهتها إلي، ثم قالت: لا تسأل كثيراً، ولنذهب بسرعة. وكانت قد ألقت شالاً على قميص نومها، وخرجت من الغرفة وهي تقتادني جرجرة. كان الدرج يهتز ويتزعزع تحت الأقدام المتسارعة للخدم الذين ينزلون عليه ويتجمعون في القبو. وهناك رأينا السيد والسيدة روسيل. وكان هو ما يزال يرتدي بدلة الحفلة، أو أنه أعاد ارتداءها من جديد. وكان يحمل في يده اليمنى سيفاً مجرداً من غمده، بينما ذراعه اليسرى تضم كتفي السيدة روسيل لحمايتها، كانت هي تبكي مستندة إلى صدره. وكانت ترتدي رداءً طويلاً من المخمل الأزرق. وعندما مررتُ بجانبهما سمعتُ السيد يتمتم: *Povera Cataogna!* «مسكينة أنت يا كتالونيا!». نظرتُ في كل الاتجاهات لأرى إذا ما كانت الآنسة كلارابيلا بين الحشد، ولكن قصر قامتي جعل ذلك صعباً جداً. وسمعت من حولي يقولون إن قوات الجنرال

إيسبارتيرو قد انتهت من عبور الجسر وإنها لن تتأخر في تحطيم بوابة المدخل. وكتعزيز لهذا التأكيد، دوت طرقات مريعة في الطابق السفلي، فوق رؤوسنا بالضبط. فخبأت رأسي وسط غابة السيقان والركب التي كانت تحيط بي. وقال السيد روسيل بصوت هادئ: أسرعوا، أسرعوا، لا تضيعوا الوقت، فعليه تعتمد حياتنا. وكنا نمضي جميعنا للدخول إلى خزانة حائط حيث كنت أرى على الدوام أنهم يخزنون فيها الفاصولياء، والعدس، والحمص، المعبأة ببراميل من خشب فاتح اللون تزنرها أحزمة حديدية. استولى عليّ الذهول: إذ إنني لم أتصور من قبل قط أنه يمكن حشر كل أولئك الناس في ذلك المكان الضيق. وحين اقتربت، أدركت ما الذي يحدث: الحقيقة أنه كان هناك باب سري يبقى مخبأ تحت البراميل عادة، ولكنه كُشف الآن، وراح الحشد ينسل منه إلى خزانة الحائط. وكان ذلك الباب يؤدي إلى ممر سري، لا يعلم أحد بوجوده إلا السادة، يمكن الهرب عبره عندما يحاصر المنزل حصاراً محكماً، مثلما هي الحال التي كنا عليها. أومأت لي أمي بيدها وكأنها تريد أن تقول لي: لا تبق واقفاً كالأبله، هيا، أسرع. وكان يمكن لي أن أتبعها لولا أنني تذكرت فجأة الكلاب السبعة التي تركتها محبوسة في غرفتي قبل ساعات، حين خرجت في جولتي الأولى التي انتهت بلقائي مع الدوق. فقلت لنفسي: يجب أن أذهب لأبحث عن الكلاب، وإلا ستزعل مني الآنسة كلارابيلا. وعدت أدراجي دون أن أفكر في هذا الأمر مرتين، وصعدت راكضاً الطوابق الأربعة التي تفصل القبو عن ملحق السطح.

أطل أونوفري بوفيلا من النافذة ونظر إلى أسفل: كانت الآجام والشجيرات قد محت حدود الإقطاعية: كانت هناك الآن كتلة خضراء تمتد من تحت قدميه حتى تخوم المدينة. وهناك تبدو بوضوح حدود القرى التي راحت المدينة تبتلعها، وتليها منطقة التوسع «الإنسانتشي»، بأشجارها، وشوارعها، وبيوتها الفخمة. وأكثر انخفاضاً منها، المدينة القديمة التي ما زال، بالرغم من مرور سنوات طويلة، يشعر بتوحده معها. وأخيراً، رأى البحر. وعلى أطراف المدينة، كانت مداخن المناطق الصناعية تنفث دخانها نحو سماء المساء القاتمة. وكانت مصابيح الشوارع قد بدأت تضاء على إيقاع مشعلي الفوانيس البطيء.

– لا تهمني بقية القصة – قال ذلك بجفاء وهو يوجه إلى الرجل نظرة متسلطة من فوق كتفه، وأضاف: أما البيت فقد اشتريته.

– 2 –

سواء أكان ذلك مصادفة محضة أم ترتيباً متعمداً، فقد توافق انهيار إمبراطورية أونوفري بوفيلا السينمائية مع الانتهاء من ترميم المنزل الذي اشتراه. فبتصميم لا يلين، ودون اهتمام بوقته أو طاقته أو ماله، قام بهدم المنزل من الداخل، ثم أعاد بعد ذلك كل شيء إلى ما كان عليه، أو إلى ما كان ينبغي أن يكون عليه. ولم يكن لديه من أجل ذلك توصيف أو مخططات أو دليل آخر سوى ما يمليه منطق الرجل صاحب الكلب وذاكرته الواهنة. كان يصغي بصبر غير محدود إلى آراء المهندسين المعماريين، والمؤرخين، ومهندسي الديكور، ونجاري الأثاث، والفنانين، وخبراء الموسيقى، والمشعوذين الذين كانوا يتوافدون لحل المشكلات المحددة التي تظهر باستمرار: فيقدمون حول كل مسألة فتاوى متناقضة. وبعد أن يستمع إلى تلك الفتاوى التي يكافئها بسخاء، يتخذ ما يُقدّر أنه القرار الأفضل، دون أن يسمح لنفسه بالانقياد لما يفضلونه هم. وهكذا راح يرى الانبعاث البطيء والمتأني للبيت والحديقة، للإسطبلات والعنابر، للبحيرة والقناة، للجسور والجواسق، لأحواض الزهور والبستان. وفي داخل المنزل، جرى ترميم السقوف والأرضيات عندما كان ما بقي منها يسمح بذلك، أو ابتكرت حيث نخر الزمن ما عمله الإنسان إلى أن ضاعت معالمه ولم يعد تبيّنها ممكناً. ووزع على عملائه نتفاً من الخزف والبورسلين والكريستال، وبعث بهم إلى جميع أركان العالم ليبحثوا عن أشياء مطابقة لأصول تلك القطع؛ وهؤلاء العملاء الذين كانوا قد جابوا قبل سنوات قليلة تلك المدن نفسها عارضين القذائف والمدافع على من يقدم أفضل سعر لها، راحوا يهزون الآن الأجراس الصغيرة المعلقة عند مداخل الأقبية الرطبة، حيث يقيم صائغو الذهب وصانعو التحف. وأحضر إلى برشلونة رسامين ونحاتين من جميع ورش ومراسم الفن، ومرممين من كل متاحف ومشاغل الترميم في العالم. وقد سافرت قطعة إناء

خزفي لا يزيد حجمها عن راحة اليد، مرتين إلى شنغهاي. وجلب خيولاً من الأندلس ومن دوفونشير وأسرجها وكدّنها على عربات مماثلة للعربات القديمة، صُنعت له خصيصاً في ألمانيا. فظن الجميع أنه مجنون، وأنه فقد عقله: ولم يفهم أحد السبب الذي يدفعه للتورط في تلك المهمة المعقدة التي لا حلّ لها. ولم يكن هناك من هو قادر على معارضته في هذه النقطة، لم يكن التعلل بالجدوى، ولا بالراحة، ولا بالاقتصاد، يشكل حججاً يتقبلها ويأخذها في الحسبان: فكل شيء يجب أن يعود بالضبط، مثلما كان في السابق، في زمن أسرة روسيل التي لم يهتم، من جهة أخرى، في تقصي أثرها. وعندما يعرب أحدهم عن دهشته، ويسأله كيف يمكن له، هو الذي حاول أن يستبدل بالديانة السلفية السينماتوغراف، أن ينهمك الآن في إعادة إحياء شيء يخالف التقدم، شيء خلّفه التقدم نفسه وراءه دون رجعة، كان يكتفي بالابتسام، ويجيب: بالضبط! ولم تكن هناك وسيلة لصرفه عن ذلك. وقد استغرق ذلك العمل الضخم عدة سنوات.

وفي أحد الأيام، أثناء زيارته للمنزل، تحدث مع مهندس ديكور. وقد قال له المهندس إنه بحث دون جدوى عن دمية خزفية صغيرة وضئيلة القيمة؛ وقد سمع أثناء بحثه، مع ذلك، أنه يمكن العثور عليها في محل معين في باريس، ولكنه فضل التخلي عن مواصلة بذل المال والجهد بصورة لا تتناسب، في رأيه، مع أهمية تلك الدمية الخزفية. طلب منه أونوفري عنوان ذلك المتجر في باريس، ثم صرفه من العمل، وصعد إلى السيارة التي تنتظره على الجسر، وقال للسائق: إلى باريس. لم يكن قد غادر كتالونيا من قبل قط. ولم يكن قد ذهب حتى إلى مدريد، حيث له الكثير من الأعمال. وفي أثناء الرحلة، نام على مقعد السيارة. وعند اجتياز الحدود، ولأن الجو كان بارداً، أراد أن يشتري دثاراً يغطي به ساقيه، ولكنهم رفضوا أن يبيعوه إياه: لأنه لا يحمل نقوداً فرنسية. وواصل الرحلة دون الدثار حتى بيربينيان: وهناك أقرضه أحد المصارف ما يحتاجه، وسلّمه رسالة تتيح له سحب مبالغ غير محددة في أي مكان يمر منه. ولدى مغادرته بيربينيان، بدأ المطر يهطل؛ ولم يتوقف عن الهطل طوال الرحلة. ناما في بلدة وجداها في طريقهما عند غروب الشمس. وفي صباح اليوم التالي واصلا الرحلة. وعندما وصلا إلى

باريس، توجها مباشرة إلى العنوان الذي أعطاه إياه مهندس الديكور غير الكفء: ووجد هناك بالفعل الدمية الخزفية، واشتراها بثمن زهيد. وحين صارت الدمية الصغيرة في جيبه، أمر السائق بالتوجه إلى أقرب فندق فخم، ونزل هناك في «الجناح الملكي». وكان في حوض الحمام عندما دخل مدير الفندق مرتدياً بدلة التشريفات. وكان يضع في عروة ياقته زهرة غردينيا. لقد جاء ليسأل السيد بوفيلا إذا ما كان يرغب في شيء خاص. فأمره بأن يقدموا له العشاء في جناحه، وأن يوفروا للسائق، الذي يشغل غرفة أخرى في طابق آخر، مرافقة نسائية. وقال معلقاً: لأن يوماً قاسياً جداً ينتظره غداً. فأومأ مدير الفندق بإشارة تفهم، ثم قال: وسيادتك، ألا تحتاج كذلك إلى قليل من المرافقة؟ فقال أونوفري وهو يحاول أن يتصور ما الذي كان سيفعله في مثل هذا الوضع صديقه مركيز أوت: على أن تكون متكتمة وخدومة. فرفع المدير يديه نحو السقف، وهتف: *C'est l'especialité de la*[1] *maison! Elle s'appelle Ninette*. وعندما حضرت نينيت فيما بعد إلى الجناح، وجدته مستلقياً على السرير بملابسه، مستغرقاً في نوم عميق. فنزعت له حذاءه، وفكت أزرار صدريته وياقة قميصه، وغطته باللحاف. وعندما أرادت إطفاء النور، رأت على الكوميدينو مغلفاً كتب عليه: *Pour vous* «هذا لك». وكانت في المغلف حزمة من الأوراق النقدية. فأعادت نينيت المغلف والنقود إلى الكوميدينو، ثم أطفأت النور وخرجت من الجناح بهدوء.

السفر ممل فضلاً عن أنه لا يعلّم، على خلاف ما يقولون، فكر في ذلك في اليوم التالي. فنصحه مدير الفندق باختصار زمن رحلة العودة بالسفر إلى برشلونة بالطائرة: لم يكن هناك بعد خدمات طيران منتظمة بين المدينتين، وقد أشار عليه المدير: إذا لم تكن النقود عائقاً، فكل شيء له تدبير في هذا العالم. فطلب من السائق أن يأخذه إلى المطار، وتفاوض هناك مع طيار بلجيكي لاستئجار طائرة. انطلق السائق إلى برشلونة بالسيارة وصعد أونوفري والطيار إلى الطائرة. دفعتها رياح معاكسة إلى غرونوبل. ومن هناك

---

[1] بالفرنسية في الأصل: «هذا هو اختصاص محلنا. وهي تدعى نينيت.»

تمكنا من الوصول إلى ليون، حيث تزودا بالوقود، وتناولا بضع كؤوس من الكونياك في كانتين المطار، ليدفئا جسديهما. ولدى اجتيازهما جبال البيرنيه، كانا على وشك التعرض لحادث جديّ. وأخيراً حطا في مطار ساباديل سليمين معافيين. ورأى بدهشة كبيرة إفرين كاستيلس ومركيز أوت بانتظاره عند مدرج الهبوط.

– عجباً! كم أشعر بالامتنان لمجيئكما – قال لهما. وكانا يكلمانه صارخين، ولكنه لم يكن يسمع شيئاً: فساعات الطيران الطويلة أصابته بصمم مؤقت. كما أنه كان يمشي متعثراً، فكان مارد كاليّا يسنده كما لو أنه يحمله.
– وقد أضاف قائلاً لهما: – ما لا أفهمه هو كيف عرفتما أني سأصل إلى هنا اليوم.

لقد بحثا عنه في كل مكان. وقد تتبعوا أثره من خلال المصارف حتى باريس؛ ومن هناك أطلعهما مدير الفندق برقياً على مغامراته، وقد كتب في البرقية: *Bibelot acheté monsieur baigné Ninette deçue monsieur volé*[1]. والثلاثة يتوجهون الآن نحو برشلونة في سيارة إفرين كاستيلس الذي كان يجلس على المقعد القابل للطي ويطلب من السائق أن يزيد السرعة. فسأل أونوفري عن سبب كل هذه السرعة. وقال وهو يريد أن يعرف: ما الذي حدث؟ فقال إفرين كاستيلس: حدث شيء مهم؛ وقد أضعنا وقتاً ثميناً بسبب هروبك الأحمق. وقد قال ذلك بجدية غريبة عن مزاجه وأسلوبه.

– فلنرتد العباءات – قال المركيز ذلك، وأخرج من تحت المقعد علبة مستطيلة مصنوعة من خشب مطعم، ثم أخرج من العلبة ثلاث عباءات سوداء مزينة بصليب مالطا، ولها قلنسوات تغطي الرأس كله باستثناء العينين. وصار عليهم الآن أن يحنوا رؤوسهم كي لا تصطدم قمة القلنسوة بسقف السيارة. وقد هدأت السيارة أخيراً من سرعتها الجنونية عند سفوح التبيدابو، لتتوقف أمام مبنى من الآجر الأحمر تعلوه أبراج مزيفة، وشرفات وفتحات رماية كما في القلاع. وفتح رجلان يتنكبان بندقيتيهما البوابة الحديدية، ثم أعادا إغلاقها بعد أن مرت السيارة. نزلوا منها أمام الباب الرئيسي للمبنى،

---

[1] بالفرنسية في الأصل: «التحفة اشتريت. السيد استحم. نينيت خاب ظنها. السيد طار.»

وصعدوا الدرجات مثنى مثنى، ودخلوا إلى بهو دائري عالي السقف، تعالى فيه دوي وقع خطواتهم السريعة. وكانت الأبواب تفتح لدى مرورهم وتغلق؛ وينحني لهم محيين خدم يرتدون سراويل قصيرة وتغطي وجوههم أقنعة من الساتان الأبيض، ويشيرون لهم إلى الطريق الذي يجب أن يسلكوه. وهكذا انتهى بهم المطاف إلى صالة تتوسطها منضدة طويلة وضيقة. وكان يجلس حولها عدد من لابسي العباءات ذات القلنسوات. وعلى ثلاثة مقاعد كهنوتية شاغرة جلس أونوفري بوفيلا ومركيز أوت وإفرين كاستيلس. وسأل الجالس في الصدر بصوت متقطع: هل حضر الجميع؟ وردت همهمة تأكيد على هذا السؤال. فقال الرئيس وهو يرسم إشارة الصليب: فلنبدأ إذن. فحذا جميع الحاضرين حذوه في هذه الحركة، ثم قال الرئيس بعد ذلك:

– لقد جاء إلى هذا الاجتماع الاستثنائي ممثلون عن اخوتنا في مدريد وفي بيلباو، ويشرفني أن أرحب بهم في برشلونة. – وتلت عبارة الترحيب هذه همهمة خافتة. ثم ضرب الرئيس المنضدة بمطرقة خشبية، وواصل كلامه قائلاً:– أظن أنكم مطلعون جميعكم على الوضع.

كان الوضع الاجتماعي في سنة 1923 قد تدهور حتى وصل إلى نقطة قال بعضهم إنه «لم يعد ممكناً الرجوع منها». وكان أونوفري بوفيلا هو الوحيد الذي يخالف هذا التشخيص المتشائم. وكان يقول: لقد عشنا على الدوام في وضع اجتماعي حرج؛ فهكذا هي البلاد، ولا حاجة إلى مزيد من تقليب الأمر دون طائل. وكان يرى أنه ليس هناك شيء خطير، على الرغم من كل شيء. ويقول: فلندع الأمور تأخذ مجراها، وستترتب من تلقاء نفسها بصورة طبيعية، دون اللجوء إلى العنف إلا في الحدود الضرورية القصوى. وكانت الأمور كما هي عليه، في اضطرابها وتعقيدها، تبدو له مواتية، ولم يكن عبثاً أنه ارتقى إلى الوضع الذي يحتله الآن مستفيداً من تلك الأوضاع. أما مركيز أوت وجماعته بالمقابل، فيرون عكس ذلك: لقد ورثوا الوضع الذي يتمتعون به، وهم يعيشون في خوف دائم من أن يفقدوه؛ وأي إجراء متطرف يبدو لهم مبرراً ما دام الهدف منه ضمان استقرارهم. وكان شبح البلشفية يؤرق أحلامهم. وكلما دفع مثل هذا الجدال أونوفري بوفيلا إلى تصور مثل ذلك

الاحتمال، فإنه يفكر في سره: آه، إذا ما انتصرت البلشفية هنا كما في روسيا، فسوف أكون «لينين». كان يثق ثقة غير محدودة بقدرته على تجاوز أي عقبة، وعلى استخلاص الفوائد من أي عائق. ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يقول هذا الكلام لمركيز أوت وجماعته الذين يجتمع معهم الآن، ولهذا اكتفى بالقول:

- لا بد أننا سنكون أغبياء جداً إذا ما تركنا الأمور تصل إلى تلك الحدود القصوى التي لا رجعة عنها.

ورد المركيز وهو يرفع صوته كثيراً:

- إن الوضع الحالي أشبه بحكاية الجدجد والنملة. فالطبقات الدنيا تطلب شيئاً فنقدمه نحن إليها، وفي اليوم التالي تطلب شيئاً آخر، فنعطيها إياه أيضاً. هكذا إلى أن ينتهي الأمر بالرعاع إلى التفكير: فلينصرفوا عنا. وعندئذ ينتفضون بالسلاح، فيذبحوننا، ويضعون رؤوسنا على رماح القصب، وكل هذا تفوح من رائحة سردين.

قوبل هذا التحليل للوضع بهمهمات موافقة. وأضاف ذو القلنسوة الجالس إلى يمين إفرين كاستيلس أن العامل خرج عن طوره، ولم يعد يرضيه أي شيء. وقال محدداً: إن ما يريده الآن هو قطع رؤوسنا، واغتصاب بناتنا، وإحراق الكنائس، وتدخين سيجارنا. فضرب ذوو القلنسوات كلهم المنضدة بقبضاتهم، واستمرت تلك الضجة لوقت قصير، وعندما توقفت عاد أونوفري بوفيلا إلى الكلام.

- أنا أعرف ما الذي يريده العمال - قال بعذوبة - ما يريدونه هو أن يتحولوا إلى برجوازيين، وما هو السيئ في ذلك؟ لقد كان البرجوازيون على الدوام أفضل زبائننا - وسُمعت تمتمات استهجان. لم يكن مصير الطبقة العاملة يشغل باله؛ ولكنه لم يكن يحب أن يعارضه أحد. فقرر خوض معركة، بالرغم من أنه يعلم بأن القرار النهائي قد اتخذ مسبقاً، وقال:- انظروا، أنتم تظنون أن العامل هو نمر متعطش للدماء، يترصد منتظراً لحظة الانقضاض على أعناقكم؛ وأنه وحش يجب إبقاؤه بعيداً بكل الوسائل. وأنا أقول لكم بالمقابل، إن الواقع ليس كذلك: فهم في أعماقهم أناس مثلنا. ولو كان لديهم بعض المال لهرعوا إلى شراء ما يصنعونه هم أنفسهم، وعندئذ يزداد الإنتاج في تصاعد رائع. - فقاطعه أحد ذوي القلنسوات عند هذه النقطة ليقول إنه

سمع في مناسبة أخرى هذه النظرية الاقتصادية. وقال: لم أفهمها، ولكنها بدت لي مشؤومة؛ ثم علمتُ بعد ذلك أنها آتية من إنكلترا، وبهذا يتضح كل شيء. فأشار أحدهم إلى أن الوقت غير مناسب للدخول في مناقشات أكاديمية، وقال: يمكن لكل شخص أن يؤيد النظرية الاقتصادية التي تناسبه، ولكن ما يجب عمله لا بد من عمله. وأضاف مركيز أوت أن الوضع يبقى على الدوام مشابهاً لحكاية الجدجد والنملة. وأضاف بعد هنيهة، عندما لم يعد هناك من يصغي إليه: أو ربما أشبه بحكاية الحمار عازف المزمار. فتدخل أونوفري بوفيلا مرة أخرى قائلاً:– إن الوضع بين أيدينا تماماً؛ فإذا ما لبّينا مطالب العامل ضمن الحدود المعقولة، فإن العامل سيكون وديعاً يأكل من يدنا، أما إذا تصلبنا بالمقابل، ولم نعمد إلى المرونة، فما هو الضمان بألا يكون ردّ فعله عنيفاً وجامحاً؟

– الضمان هو الجيش – قال ذلك شخص آخر من ذوي القلنسوات، لم يكن قد تدخل في النقاش حتى هذه اللحظة. وكان يتكلم بنبرة جلفة لم تبد مجهولة لأونوفري، وتابع الرجل:– فالجيش موجود تحديداً من أجل التدخل عند الضرورة. عندما يكون الوطن في خطر، على سبيل المثال. – أفلت أونوفري المقلمة التي كان يلهو بها وتركها تسقط على الأرض، وعندما انحنى ليلتقطها، اغتنم الفرصة لينظر من تحت المنضدة. ورأى أن المتكلم ينتعل جزمة عسكرية طويلة الساق. ففكر: لا بأس، لقد عرفتُ الآن من هو. – وواصل ذو القلنسوة ذاك القول:– وعندما تعم الفوضى يتوجب على الجيش أن يفرض النظام والانضباط، لأن الفوضى خطر حقيقي على الوطن، ومهمة الجيش المقدسة هي الإسراع إلى نجدة الوطن، عندما يحتاجه الوطن. – وكان في صوته كذلك مكابرة أخلاقية تجعل آراءه غير قابلة للدحض. – فليكن شعارنا الانضباط ضد الفوضى، والنظام ضد الإخلال بالنظام، والنظام والانضباط ضد الانحراف وسوء القيادة – بهذا النداء أنهى مداخلته التي تلاها صمت مهيب. وأخيراً قال أونوفري بوفيلا:

– أعتقد أنه علينا الآن أن نحك جيوبنا للتبرع.

التفت الجنرال من فوق ركاب عربة القطار ليحيّي ذوي القلانس الذين قدموا إلى المحطة لوداعه. وعندما رأى رصيف المحطة يغص بذوي القلانس، فرك

عينيه وأومأ بإشارة تنم عن عدم تصديق ما يرى. وفكر: لا يمكن أن يكون الاضطراب الخطير، فهو لم يحن بعد. ثم تذكر ما كان يفعله هنا، وسبب وجود ذوي القلانس. فشدّ ظهره، وفي اللحظة نفسها صفر القطار.

– أيها السادة، إما أنهم سيجعلون مني كفتة، وإمّا أنني سأحكم إسبانيا غداً – قال ذلك بصوت وقور. وكان ذوو القلنسوات يبتسمون: فقد أبرقوا إلى مصارفهم، وكانوا يشكون في إمكانية إخفاق الانقلاب. لم يكن هناك مسافرون ولا حمالو حقائب على رصيف المحطة التي كانت قد حوصرت بحزام من قوات المشاة؛ وكانت وحدات من الخيالة تقوم بأعمال الدورية في المدينة. وقد نُصبت الرشاشات وقطع مدفعية خفيفة في الأحياء العمالية وفي المناطق والمراكز الحساسة. وكان السكون يخيم الآن على برشلونة. ولدى الخروج من المحطة طلبَ أونوفري من إفرين كاستيلس أن يوصله إلى منزله، لأنه لا تتوفر لديه سيارة. فتردد مارد كاليّا قبل أن يجيب:

– بالطبع – قال أخيراً – هذا أقل ما يمكن؛ اصعد!

تنهد أونوفري بوفيلا بارتياح: ما كان ليروقه أن يقتلوه هناك على درج المحطة برصاصة صائبة. وعندما صار في السيارة أحس بأمان نسبي. واعترف لإفرين كاستيلس: ظننت للحظة أنك ستتركني على الأرض. فرد عليه العملاق: نحن صديقان. نزعا قلنسوتيهما، ونظر كل منهما إلى وجه الآخر. أحس بوخزة أسى في صدره: فقد تذكر الدب الملتحي الذي تعرف إليه في المعرض الدولي، بينما هو يرى الآن التقاطيع المنقبضة لمتمول أصلع، شاخ قبل الأوان. وفكر وهو يسوي شعره بأصابعه: ينبغي رؤية المظهر الذي صرت أنا إليه. وأشار عليه إفرين كاستيلس الذي لم تخطر له تلك الذكريات، بأنه من الأفضل أن يختبئ لبضعة أيام. فسأله أونوفري: أتعتقد أنت أيضاً، بأني معرض للخطر؟ فهز إفرين كاستيلس رأسه مؤكداً. وقال إنه ليس ذكياً جداً، ولكن يرى أنه يجب عدم استبعاد ذلك الاحتمال. وأضاف:

– بريمو[1] ليس دموياً؛ ولو أن الأمر بيده لما كانت هناك إراقة دماء.

---

[1] ميغيل بريمو دي ريفيرا: جنرال إسباني (1870–1930)، أطاح بالحكومة في عام 1925 وتسلم رئاستها حتى عام 1929.

الاحتمال الأكبر هو أن يتم كل شيء على ما يرام، بل قد لا يُلحظ التغيير. - ثم قال المارد بوجه مكفهر ليس بسبب القلق بقدر ما هو بسبب الجهد الذي تكلفه في ذلك الشرح المسهب:- وقد يحدث، لدى وصوله إلى مدريد، أن يواجه مقاومة، ليس من جانب المدنيين، وإنما من بعض العسكريين الآخرين المتطلعين مثله إلى السلطة. بل إن حرباً أهلية يمكن أن تندلع. وأنت متنفذ جداً، وبريمو يعرف أنه لا يستطيع أن يعتمد على ولائك دون أي تحفظ. – وعاتبه قائلاً – لقد بدوت في هذه الليلة كشخص قليل التعقل؛ ولست أدري لماذا تفوهت في الاجتماع بتلك الحماقات.

– لأنني أفكر بها – قال أونوفري بوفيلا وهو ينظر إلى صديقه بعذوبة، وأضاف:- ولأنني صرت مسناً ولم يعد بإمكاني مواصلة التكتم. ولكن مهما يكن من أمر، فأنت محق في هذه المرة: سوف أذهب إلى فرنسا. لقد تعرفت للتو على باريس؛ وقد بدت لي مكاناً فظيعاً، ولكني سأعتاد عليها إذا اقتضى الأمر ذلك.

فقال إفرين كاستيلس:

– لن يسمحوا لك باجتياز الحدود.

– الطائرة التي جئت بها لن تنطلق حتى الفجر، فإذا ما أوصلتني إلى ساباديل، بعد أن نمر على بيتي، دون أن تخبر أحداً بذلك، فإنك ستقدم لي خدمة عظيمة.

– حسن – قال المارد – ولكني سأوصلك مباشرة إلى ساباديل: فمن غير المناسب إضاعة الوقت. فقد يكون بريمو أو غيره قد بدؤوا البحث عنك.

– ربما، ولكننا سنمر أولاً على مكتبي: فعلينا، أنت وأنا، أن ننجز بعض الأمور. – وبما أن إفرين كاستيلس قال له إن الوقت غير مناسب، فقد رد عليه من جديد:- لم يعد لدينا وقت آخر. ترجل من السيارة أمام منزله وأشار بيده إلى المارد ليمنعه من النزول من السيارة وهو يقول له:- اذهب وأحضر حماي، اسحبه من السرير وجئ به جرجرة إذا تطلب الأمر. صحيح أن وضعه لم يعد يحتمل، ولكننا بحاجة إلى محام.

دخل إلى البيت بمنتهى الحذر: فهو لا يريد إيقاظ زوجته ولا ابنتيه، فمجرد تصوره لوداع متضمخ بالدموع شنج أعصابه مسبقاً. وفكر وهو

يتلمس باحثاً عن حبل الجرس: والأسوأ هو أن يحاولن اللحاق بي إلى المنفى. وما ان شد حبل الجرس حتى حضر القهرمان وهو بقميص وطاقية النوم، فقال له: لا حاجة بك إلى ارتداء ملابسك، أشعل المدفأة في المكتب. فحك القهرمان قذاله: أقلت المدفأة يا سيدي؟ ولكننا ما نزال في بداية شهر أيلول (سبتمبر)! وبينما كان القهرمان يضع بعض العيدان الرفيعة في المدفأة ويدني منها عود ثقاب، خلع هو سترته وشمر كمّي قميصه، ثم أخرج مسدساً من الدرج، وتأكد من أنه محشو بالرصاص. وبعد ذلك وضعه على المنضدة وصرف القهرمان قائلاً له: اصنع لي فنجاناً من القهوة، ولكن حاذر من أن يستيقظ أحد: لا أريد أن يقاطعني أحد. ثم قال مستوقفاً القهرمان الذي بدأ بالانصراف: آه، سيأتي بعد قليل دون إفرين كاستيلس ودون هومبرت فيغا إي موريرا. أدخلهما مباشرة إلى مكتبي. وعندما صار وحيداً، راح يفتح أدراجاً وملفات بحركات منهجية. ويخرج أوراقاً، فيتصفحها ويلقي بها إلى النار، حسب الحالة. وبين حين وآخر، كان يقلب الرماد بالمسعِّر. دقت ساعة حائط في أحد صالونات البيت معلنة الثانية عشرة. ودخل القهرمان ليخبره بوصول إفرين كاستيلس ودون هومبرت فيغا إي موريرا، فقال له:

- فليدخلا.

دخل حموه وهو يجهش بالبكاء. كان يرتدي معطفاً قاتماً تظهر من تحته بيجامة مخططة. كان الوهن قد أصاب دماغه منذ موت زوجته: فلم يعد يدرك شيئاً مما يدور حوله. وما حاول إفرين كاستيلس أن يشرحه له في الطريق لم يستقر تماماً في ذهنه: وكل ما سمعه هو أنه لا بد لصهره من أن يغادر البلاد هارباً، فراح يبكي مفكراً بالمصير الذي قد تتعرض له ابنته وحفيدتاه.

- أونوفري، أونوفري، هل صحيح ما قاله لي هذا الحيوان؟ هل صحيح أن حكومة غارسيا بريتو سقطت، وأنه عليك أن تذهب إلى فرنسا قبل أن يردوك قتيلاً بالرصاص؟ آه، يا رب السماء، يا رب السماء، وماذا سيحل الآن بابنتي المسكينة وحفيدتيّ الصغيرتين؟ لقد قلتُ ذلك لزوجتي، فلترقد روحها بسلام، قلتُ لها إننا لا نحسن صنعاً بتزويجك ابنتنا، وإنه من الأفضل لها أن تتزوج ذلك الأحدب الصغير، هل تتذكر من أعني يا أونوفري؟ ذلك الفتى

المهذب جداً والخجول جداً، الذي كان يعيش في باريس، ماذا كان يدعى؟

طمأن أونوفري حماه بالقول له: لن يحدث شيء، والقائد العسكري العام لمنطقة كتالونيا قد توجه إلى مدريد قبل بضع ساعات. وواصل إخبار حماه: جميع حاميات كتالونيا وأراغون تؤيده. وبقي أن نرى ما الذي سيحصل في مدريد. فإذا لاقى معارضة هناك، سيكون نشوب الحرب ممكناً، ولكنني أعتقد في الواقع أن القضية مضمونة وناجزة: فلا يمكن لهيئة أركان الجيش ولا الملك مواجهته. وأكد دون سخرية: صفوة البلاد وقشدتها تؤيده. ثم أضاف بحزن: وأنا معهم ولا بد أنهم يعرفون ذلك، ولكنهم لا يثقون بي. والحقيقة أنهم يخشونني أكثر مما يخشون الطبقة العاملة؛ إنهم يكرهونني أكثر من الجميع. وأشعل سيجاراً بينما هو يفكر، ثم قال: هذا الذي يحدث كان عليّ أن أتوقع حدوثه مسبقاً. ففي الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1922، قام ذوو القمصان السوداء بدخولهم الشهير إلى روما. والآن، بعد عام تقريباً، وفي الثالث عشر من أيلول (سبتمبر)، سنة 1923، يريد دون ميغيل بريمو دي ريفيرا إي أوربانيخا أن يسير على خطى موسوليني. وهو لا يعتمد في ذلك على ملايين المؤيدين؛ ولهذا عليه أن يستعين بالجيش. وأضاف أونوفري: هذا هو الفرق بين الاثنين. وبريمو ليس بالرجل السيئ، ولكنه أحمق بعض الشيء، ومثل كل الحمقى، يظل متشككاً وجلاً. لن يستمر في الحكم طويلاً. ولكن مادام مستمراً، يجب عليّ أن أنجو بنفسي إلى ملجأ آمن. وختم كلامه بالقول: اجلس إلى المنضدة يا دون هومبرت، وخذ ورقة وقلماً وحرر عقد تنازل: أريد نقل أعمالي إلى إفرين كاستيلس الحاضر هنا.

– أي تخريف هذا الذي تقوله؟ – صاح دون هومبرت فيغا إي موريرا. وطرق القهرمان الباب: وكان يحمل القهوة التي أوصى عليها أونوفري، ولكنه سمح لنفسه بإضافة فنجانين آخرين تحسباً إذا ما كان دون إفرين ودون هومبرت يرغبان في تناولها أيضاً، وهمس: يبدو أن هذه الليلة ستكون طويلة. فقد كانت بعض الشائعات قد بلغت مسامعه. فجو التوتر يخيم على الشوارع مثل ضباب منخفض؛ والحمام الزاجل يجوب السماء؛ وقادة الحركات الثورية يتراكضون في المجاري بحثاً عن ملاذ لهم: وعند تقاطع

مجرورين تفوح منهما الروائح النتنة، يلتقي فوضويون، واشتراكيون، وانفصاليون كتلانيون، فيتعرفون بعضهم إلى بعض على ضوء مصابيحهم اليدوية المائل إلى الخضرة، فيتبادلون التحية باقتضاب ويواصلون سيرهم.

قال أونوفري بوفيلا:

– إنها الطريقة الوحيدة لتجنب المصادرة المحتملة.

فاعترض دون هومبرت فيغا إي موريرا:

– ولكن ما تطلبه مني مستحيل، كيف يمكننا تقدير قيمة كل أملاكك؟

– قدر لها أي قيمة: ثمن رمزي، ما أهمية ذلك؟ – قال أونوفري – المهم أن يبقى كل شيء في أيد أمينة.

وبعد أن قاموا ببعض الحسابات، وناقشوا الأمر قليلاً، حددوا باتفاقهم جميعاً مبلغاً بالجنيهات الإسترلينية، تعهد مارد كاليّا بتحويله اليوم بالذات إلى أحد حسابات أونوفري المصرفية في سويسرا. وكان دون هومبرت فيغا إي موريرا يجهش بالبكاء وهو يضفي على الاتفاق صبغة قانونية. وقد قطع عمله عدة مرات ليقول إنه يشعر كما لو أنه يشهد تجزئة الإمبراطورية العثمانية، وهو الحدث الذي لم يكن قد مضى عليه وقت طويل وملأه بالغم. وقد أوضح بأنه كان يشعر على الدوام بميل عميق نحو تلك الإمبراطورية؛ وهو شعور يصعب تفسيره، لأنه لم يكن يعرف أين تقع الإمبراطورية العثمانية، ويجهل كل ما يتعلق بها، ولكن الاسم كان يبعث فيه، على حد قوله، أصداء الأبهة والجلال. حثه أونوفري على مواصلة العمل دون مزيد من الشرود في الخيال قائلاً له: عما قريب سيطلع النهار، وينبغي أن أكون قد مضيتُ بعيداً قبل ذلك. عليك أن تأخذ العقد إلى الكاتب بالعدل لتسجيله ومنحه الصفة القانونية، هذا ما قاله لحميه، ثم أضاف بنبرة حيادية: وأوصيكما أنتما الاثنين برعاية أسرتي وحمايتها. فلم يستطع دون هومبرت منع نفسه من البكاء من جديد. وأخيراً جرى توقيع وثائق التنازل من قبل الطرفين المتعاقدين، ووقّع عليها كذلك دون هومبرت والقهرمان كشاهدين على الواقعة. وبعد ذلك، اصطحب إفرين كاستيلس أونوفري إلى ساباديل. أما دون هومبرت، فتركاه في البيت: لأن عليه، عندما تستيقظ ابنته أن يتولى

تبرير تغيب أونوفري، وأن يهدئ المخاوف التي قد تساورها. كانت السيارة تمضي الآن مسرعة في الشوارع المقفرة: وكان الضياء قد بدأ ينتشر، ولكن مشعلي مصابيح الإنارة لم يتجرؤوا على الخروج للقيام بجولتهم، فظلت المصابيح مضاءة كما لو كان الظلام يخيم. ولم يلتقيا في الطريق إلا صبياً يحمل الصحف: فقد صدر الأمر بتوزيعها كالعادة؛ وهكذا تعرف البلاد أخبار ما حدث في مدريد قبل ساعات. فقد كان العسكريون هناك قد هتفوا لبريمو دي ريفيرا، وقدمت الحكومة استقالتها إلى الملك الذي كلف بريمو دي ريفيرا بتشكيل حكومة جديدة. وقد نشرت الصحيفة في صفحتها الأولى قائمة بأسماء الجنرالات الذين تتألف منهم الوزارة، وأعلنت أن جميع الضمانات الدستورية قد عُلّقت في الوقت الراهن. وكانت الرقابة قد منعت طباعة أجزاء كبيرة من بقية صفحات الجريدة.

كان عليهما لدى وصولهما إلى المطار أن ينتظرا لبعض الوقت، ريثما يحضر الطيار، الذي جاء مرتبكاً: فمن الفندق الذي أمضى فيه ليلته حتى المطار، أوقفته الدوريات الكثيرة ثماني مرات، ثم رافقته أخيراً عناصر من الحرس المدني حتى الطائرة. وقد صاح غاضباً عندما رأى أونوفري بوفيلا: *Parbleu, on aime pas les belges ici*[1]. فقال له أونوفري إنه يريد العودة إلى باريس مما أبهج كثيراً الطيار الذي كان قد استسلم لضرورة قيامه بالرحلة وحيداً. تعانق إفرين كاستيلس وأنوفري، وصعد الأخير إلى الطائرة التي أقلعت دون تأخير. وبعد نصف ساعة من الطيران، طلب أونوفري من الطيار أن ينحرف قليلاً نحو اليسار. فقال له الطيار إن ذلك الاتجاه لا يؤدي إلى باريس.

فردّ أونوفري:

– أعرف ذلك، ولكننا لن نذهب إلى باريس: نفذ ما أطلبه منك وسأدفع لك الضعف.

أقنعت هذه الحجة الطيار: فراحت الطائرة ترسم دوائر بين الجبال، فوق واد يكتنفه الضباب. وكلما كانا ينخفضان أكثر، كان أونوفري يعطي

---

[1] بالفرنسية في الأصل: «لا أحد يحب البلجيكيين هنا».

تعليمات للطيار: انتبه لذلك السفح، هناك توجد أشجار سنديان طويلة جداً؛ من الأفضل أن تنحرف إلى تلك الجهة، فلنرَ إذا كان بإمكاننا متابعة مجرى النهر، وتعليمات من هذا القبيل. وأخيراً لمحا عبر فجوات الضباب بيدراً دُرس قمحه حديثاً. وعندما حطت الطائرة على الأرض تطاير سرب طيور سوداء كانت تنقر الحب من الحصيد الذي على البيدر. وكانت تلك الطيور كثيرة إلى حد أنها حجبت الشمس للحظة. قدم أونوفري بوفيلا للطيار سنداً مصرفياً لأمره يمكنه قبض قيمته من أي مصرف فرنسي، ثم قفز من الطائرة إلى الأرض، ومن هناك أشار إلى الطيار كيف يمكنه مواصلة رحلته دون أن يضيع. دار الطيار بطائرته نصف دورة، ولم يكن قد أوقف محركها، وانطلق بها قليلاً على البيدر ثم أقلع مخلفاً وراءه زوبعة من الغبار والقش. بعد ساعة من ذلك كان أونوفري بوفيلا قد وصل إلى باب البيت الذي ولد فيه؛ وكان يعيش فيه الآن فلاح وزوجته وأطفالهما الثمانية. وقد ردوا على أسئلته بأن السيد العمدة يقيم في منزل جديد، بجوار الكنيسة. ظن أونوفري أنه قد عرف القروي وزوجته، أما هما فلم يعرفاه.

– 3 –

هرعت على النداء امرأة تبدو في الثلاثين من عمرها، ذات ملامح ذكية، تقاطيعها خشنة بعض الشيء، ولكنها لا تخلو من جاذبية. كانت تعقد منديلاً على شعرها لتقيه من الغبار، وتحمل في يدها اليسرى منفضة غبار من شرائط جلدية كانت تعمل بها. فكر أونوفري بأن أخاه ربما يكون قد تزوج دون أن يخبره بذلك. وكان في نظرة المرأة إليه من الاستغراب أكثر مما فيها من التخمين. ففكر: هذا يعني أنه لم يحدثها عني قط. ثم قال بصوت عالٍ: أنا أونوفري بوفيلا. فرفت أهداب المرأة. وأضاف هو: أخو جوان. تبدلت ملامح المرأة، وقالت له: السيد جوان نائم، ولكنني سأخبره في الحال بأنك هنا. بدا من لهجتها أنها ليست زوجة جوان. وفكر: ربما هي عشيقته، أو خليلة له. وهي لا تبدو عازبة كذلك؛ ربما تكون أرملة شابة. تحتاج بلهفة إلى رجل؛ إلى حماية، إلى أمان اقتصادي وكل هذه الأمور. ولأنها تركته وحيداً

عند الباب، فقد دخل إلى الردهة. فوق الباب المقنطر المؤدي إلى الممر، كانت توجد قطعة بورسلين محوطة بإطار كُتب عليها: «يا قديسة مريم». كانت الردهة تعبق برائحة الغبار، وهو بلا شك الغبار الذي أثارته المرأة وهي تنظف بمنفضة الشرائط الجلدية. كان هناك مصباح، ومسند مظلات من الحديد، وأربعة كراسي ذات مساند مستقيمة، هي كل ما في الردهة من أثاث. وكانت تنفتح على الممر أربعة أبواب: بابان في كل جانب. وكانت المرأة تطرق أحد تلك الأبواب؛ وقد قالت بعد طرقها الباب: أخوك هنا يا سيد جوان. كانت تتكلم بصوت خافت، ولكنها لم تحاول عدم إسماع أونوفري. وردّ عليها بعد هنيهة صوت أجش من داخل الغرفة. أنصتت المرأة بانتباه وهي تلصق أذنها بالباب، ثم استدارت نحو أونوفري قائلة: يقول إنه سينهض في الحال، ويطلب أن تنتظر قليلاً. وأومأت إيماءة خفيفة بيدها التي تحمل منفضة الغبار؛ مشيرة بذلك إلى غرفة الطعام التي في أقصى الجهة الأخرى من الممر. فاستجاب أونوفري لإشارتها واجتاز الممر. ووقفت المرأة جانباً لتفسح له الطريق. كان هناك في غرفة الطعام مائدة مربعة، عليها مصباح زجاجي ملمع. وكانت الكراسي مصفوفة بمحاذاة الجدار. وكانت هناك أيضاً خزانة لأدوات المائدة ذات لون قاتم، ومنضدة تقطيع سطحها من الرخام الأبيض، ومدفأة، وكانت هذه المدفأة من الحديد، ولكن جزءاً منها مكسو بالخزف: فكان ذلك يضفي على غرفة الطعام مسحة من البحبوحة المادية. وفوق منضدة التقطيع، عُلق على الجدار لوحة حفر على الخشب تمثل العشاء الأخير. وقبالة الباب المقنطر، هناك باب زجاجي بمصراعين يؤدي إلى فناء مستطيل، يوجد في أقصاه مرحاض صغير. وكانت تنمو في الفناء شجيرتا مانوليا وآضاليا. وإلى يمين غرفة الطعام كان يقوم المطبخ. وقد بدا كل شيء نظيفاً ومرتباً وبارداً. وبينما كان أونوفري يتأمل تلك الأشياء، دوى قريباً جداً ناقوس الكنيسة مما جعله ينتفض بصورة واضحة. فضحكت المرأة التي كانت تراقبه من الممر. فقال:

- أظن أنها مسألة تتعلق بالتعود. - فهزت المرأة كتفيها. وسألها: أتقيمين في هذا البيت؟ - فأشارت إلى أحد الأبواب. ولم يكن الباب نفسه الذي طرقته قبل قليل، ففكر: ولكن ذلك لا ينفي ولا يثبت أي شيء.

وفـي هـذه اللحظـة، بدا أخوه فـي الممـر. كـان حافــي القدمـين، يرتـدي بنطـالاً باليـاً مـن المخمـل وقميصـاً ذا لـون أزرق بحــري مـزرراً حتــى منتصفـه. وكان يحك رأسه بكلتا يديه. اجتاز غرفة الطعام دون أن يقول شيئاً، وكأنـه لـم ير أخاه ولا المرأة؛ وخرج إلى الفنـاء، ودخـل هنـاك إلـى المرحـاض. كـانت المرأة قد دخلت إلى المطبخ. وراحت تملأ الآن دلواً معدنياً بمـاء يتدفـق مـن صنبـور. ومع أنه كان قد نام الليلة السابقة فـي أحـد أفخـم فنـادق باريس، فإن وصـول مياه الشرب إلى بيوت قريته منحـه إحساسـاً غـامراً بالرخـاء المادي. وعندما امتلأ الدلو، حملته المرأة من ذراعه وأخرجته إلى الفناء؛ ثم عادت إلـى المطبـخ وبدأت تشـعل النـار بفتـات مـن الحطـب والفحـم والثقـاب ومروحـة مـن القـش المجدول. وواصل أونوفري التفكير: كـم هـو بطـيء كل شـيء هنـا. ففـي نصـف الوقـت الـذي أمضـاه فـي ذلك البيـت، توصـل فـي بعـض الأحيـان إلـى عقـد صفقات مهمة. وقـال لنفسـه: أمـا هنـا، بالمقـابل، فليس للوقت أي قيمـة. خـرج أخوه من المرحاض وهو يزرّ بنطاله، وغسل يديه ووجهـه بمـاء الدلـو؛ ثم حمـل الدلو وألقى بالماء فـي المرحاض. وبعد الانتهاء من ذلك، أفلت الدلو فـي الفناء ودخل إلى غرفة الطعام في الوقت الذي كانت المرأة تغادر المطبـخ لتخـرج إلـى الباحة وتحضر الدلو.

وسأل جوان أخاه:

- هل جئت بالسيارة؟

- بل بالطـائرة. - أجابه أونوفري وهو يبتسم.

فنظر إليه جوان لبضع ثوان وهو يزم شفتيه، وقال متنهداً:

- بما أنك تقول ذلك، فلا بد من أن يكون صحيحاً. هل تناولت الفطور؟

- فهز أونوفري رأسه نافياً. وقال جوان:- ولا أنـا، فقد استيقظت للتو مثلمـا رأيت؛ لقد نمت متأخراً الليلة الماضية. وبدا كما لو أنه سيخبره بسبب تـأخره فـي السـهر، ولكنـه بقـي فـاغراً فمـه دون أن يقـول شـيئاً. كـانت تـأتي مـن جهـة المطبخ رائحة الخبز المحمص. ووضعت المرأة على المائدة قطعة مـن الخشـب عليها عدة أنواع من السجق وسكيناً جبلية مغروسة فـي الخشـب. وحـين رأى السـجق أحس بخواء مؤلـم فـي معدتـه، وانتبـه إلـى أنـه لـم يـأكل شـيئاً منـذ ساعات طويلة. وقـال لـه جوان معبراً بدقـة عمـا يحس بـه:- إلـى الـهجوم ولا تخش شيئاً، فـأنت فـي بيتـك. وتسـاءل أونوفـري إذا مـا كـانت هـذه الجملـة

الأخيرة صحيحة. فهو يتمنى الآن أكثر من أي وقت مضى بأن تكون كذلك. فقد أحس بأنه يرجع، بعد سنوات طويلة من الكفاح، إلى نقطة الانطلاق: وقد قال ذلك لأخيه. كانت المرأة قد أخرجت من المطبخ صينية ممتلئة بالخبز المحمص. وأحضرت على طبق من الفخار إناء زيت ومملحة وعدة فصوص من الثوم لتتبيل الخبز المحمص. ثم أحضرت أخيراً زجاجة نبيذ أحمر وكأسين. وقد رفع ذلك النبيذ من معنويات جوان، ومنحه قدرة على المحادثة لم يعهدها أخوه فيه. وعندما انتهيا من تناول الفطور كان النهار قد انتصف تقريباً، وبدأت عيناه تنطبقان من شدة النعاس. فقال له أخوه إنه يستطيع أن يشغل إحدى الغرف؛ وكان الثلاثة يعرفون، مع أنهم لم يتكلموا في الأمر، بأنه جاء للبقاء مدة غير محددة. وكانت الغرفة التي خصصها له هي نفسها التي أشارت إليها المرأة سابقاً، عندما سألها إذا ما كانت تقيم في البيت؛ وقد جعلته هذه المصادفة ينام وهو يقلب الأمر في ذهنه. كانت هناك في الغرفة خزانة ذات أدراج خشنة وقديمة، تعرف عليها فوراً: إنها الخزانة التي كانت تحفظ فيها أمه الملابس. فكر بفتح أحد الأدراج، ولكنه لم يجرؤ على عمل ذلك في تلك اللحظة، خوفاً من أن يسمعاه من غرفة الطعام. وكانت تفوح من الملاءات رائحة الصابون.

كان يعيش في الأيام التي تلت وصوله على هواه: يأكل وينام عندما يرغب في ذلك، ويقوم بنزهات طويلة في البرية، ويتبادل الحديث مع الناس أو يتجنبهم؛ ولم يكن هناك من يتدخل في شؤونه. وسرعان ما تحول وجوده في القرية إلى أمر عادي، ولم يعد حدثاً. فقد كان الجميع قد سمعوا أحاديث عنه؛ وهم يعرفون أنه ذهب منذ سنوات عديدة ليعيش في برشلونة، وقيل عنه إنه صار ثرياً جداً هناك، وحتى هذا الأمر لم يكن يثير الفضول الشعبي، فجميعهم سمعوا، إلى هذا الحد أو ذاك، أو أنهم يتذكرون بأنفسهم قصة جوان بوفيلا، والد الأخوين، فكانوا يقولون: إذا كان ذلك الأب قد ذهب إلى كوبا وعاد منها مدعياً أنه يملك ثروة ضخمة، تبين بعد ذلك أنه لا وجود لها، فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ابنه لا يفعل الآن ما فعله أبوه من قبل. وكانت هذه الشكوك تروق لأونوفري الذي راح ينميها. ثم إنه لم يكن متأكداً من عدم صحة رأي أولئك الذين يعتقدون أنه لا يملك شيئاً: فهو

نفسه يعتقد في أعماقه أن إفرين كاستيلس وحماه قد استغلا غيابه لتجريده من كل شيء، ومن المحتمل أن يكون حموه دون هومبرت فيغا إي موريرا قد زوّر العقود مثلما فعل، بتحريض منه، قبل بضع سنوات بأملاك أوسوريو، حاكم لوزون السابق. وكان يقول مفلسفاً الأمر: لقد كان دوره آنذاك، واليوم جاء دوري. وكان أخوه ينظر إليه بسخرية حين يسمعه يتكلم بتلك الطريقة، ويقول له: كل تلك الحياة من الجهد تنتهي إلى هذه النتيجة. فيرد عليه: دع عنك، لقد كنت سأتكلف الجهد نفسه لأصير كناساً أو متسولاً. فالآن فقط بدأ يدرك الطابع الحقيقي للمجتمع القاسي الذي كان يتحرك فيه بتسلط وطلاقة ظاهرين. لقد حل الآن تشاؤم النضوج المرعب محل صفاقة سنوات الشباب الساذجة.

– لقد كنتَ مغفلا على الدوام – كان أخوه يقول له في لحظات القلق تلك:– وأنا أستطيع الآن أن أقول لك هذا في وجهك.

كانت تلك النزهات اليومية التي يقوم بها بلا مناسبة تبعث فيه، عموماً، الإحساس بعدم المبالاة، ولم تكن تستحوذ الآن على اهتمامه سوى بعض التفاصيل التافهة في الظاهر: المدفأة المطفأة في أحد أركان الغرفة، وتبدلات الضوء بسبب مرور سحابة فوق مستطيل السماء الذي يغطي فناء البيت، وقع بعض الخطوات في الشارع، ورائحة الحطب المحترق، والنباح البعيد لأحد الكلاب، وأشياء من هذا القبيل. وفي مناسبات أخرى كان عدم المبالاة الفلسفي الذي يحتفل به يتراخى ليحل محله سخط مفاجئ: فكان يشتم أخاه عندئذ. وكان جوان لا يكاد يلحظ نوبات الغضب تلك: فقد كان كحولياً مدمناً، لا يصحو نسبياً من السكر سوى ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم؛ وينجز خلال هذا الوقت مهام وظيفته كعمدة بمكر وعدم نزاهة. وكان أهل القرية قد استسلموا لهذا الوضع وتقبلوه: فهم يرون أن ذلك هو التقدم ويحاولون أن يصيبهم أقل ما يمكن من أذيته. ولم يحاول جوان بوفيلا قط أن يجعل من منصبه شيئاً آخر سوى وسيلة للعيش دون أداء أي عمل، ولكن الواقع السياسي، حتى في ذلك المجتمع الصغير، انتهى إلى تجاوز طموحاته المتواضعة: فهو يجد نفسه الآن على رأس القوى الحية في القرية. وقد كانت هذه القوى الحية أكثر عدداً مما ظنه أونوفري في البداية؛ فهناك الكاهن،

والطبيب، والطبيب البيطري، والصيدلاني، ومعلم المدرسة، وصاحب المطعم والحانة. لقد توسعت القرية منذ أن غادرها أونوفري وكبرت بصورة معتبرة. وكان أولئك الوجهاء يعرفون من يكون، فيحاول كل منهم، على طريقته، كسب ثقته؛ فكانوا يتملقونه بدناءة ويسمحون له بأن يبدي بصورة سافرة احتقاره لهم. ولم تكن تمر ليلة دون أن يستقبل في البيت زيارة واحد أو أكثر من أولئك الماكرين الصغار. وكانت تلك الزيارات تسبب آلاماً لا توصف للكاهن، وهو خوري شاب، بليد، وجشع، ومنافق، كان قد انتقد خلال الموعظة المرأة التي تعيش مع جوان. ولكنه الآن، بسبب وجود أونوفري في البيت نفسه، يجد نفسه مضطراً، ليس إلى الحضور مثل الآخرين وحسب، وإنما إلى التطرف في إبداء مظاهر اللطف تجاهها أيضاً. وكان أونوفري وأخوه يتسليان بالسخرية منه.

– انظر أيها الخوري – كان أونوفري يقول له – لقد قرأت الإنجيل عدة مرات بتأنٍ، ولم أجد في أي مكان فيه ما يشير إلى أن يسوع المسيح كان مضطراً لأن يشتغل من أجل تأمين قوته، فأي نوع من التعليم هذا؟ – وحيال هذا التجديف، كان ذلك الخوري يعض شفتيه، ويخفض بصره، ويفكر بانتقام لا رحمة فيه. فلا يستطيع عندئذ أونوفري الذي يمكنه أن يقرأ أفكاره دون صعوبة، أن يمنع نفسه من الضحك. أما الآخرون، فكانوا يبدون قدراً أكبر من المهارة: فالصيدلاني والطبيب البيطري كانا يهويان الصيد: وكانا يملكان معاً عدة كلاب سلوقية وكلاباً أخرى من سلالات جيدة، ونصف دزينة من بنادق الصيد. وفي بعض الأحيان كانا يدعوان أونوفري وجوان لمرافقتهما في خروجهما إلى الصيد. ولأن جوان يظل مخموراً طوال الوقت، فإن مرافقته إلى الصيد بالغة الخطورة. وكان صاحب الحانة، من جهته، يتلقى كل أسبوع بعض الصحف، تحضرها له الشاحنة التي تقوم الآن بالرحلة بين القرية وباسورا. ومن خلال الصحف، كان أونوفري بوفيلا يتابع مسار الأحداث السياسية التي أدت إلى نفيه؛ وكانت تلك الصحف التي تحصل على أخبارها من صحف أخرى، تقدم على الدوام أخباراً متأخرة، وغالباً ما تكون أخباراً زائفة. ويبدو أن ذلك لم يكن يزعج القراء؛ وكانت الأخبار السياسية فوق ذلك تحتل مكانة ثانوية في تلك الصحف التي كانت تعطي الأفضلية للأحداث

المحلية ولأخبار عادية أخرى. وكان هذا التبديل في القيم يثير سخط أونوفري، ولكنه بدأ يفكر مع مرور الوقت بأنه ربما لم يكن ذلك الترتيب للأولويات مخالفاً للصواب إلى الحد الذي ظنه في البدء. وصار هو الآن بالمقابل من يرى التفاهة في كل ما كان يبدو له عظيم الأهمية إلى ما قبل وقت قصير. وكان يستغرق في هذه التأملات في لحظات الهدوء، عندما كان يتمكن من تجنب الطفيليين المتملقين الذين يحاصرونه ويلوذ بأحد مخابئ طفولته. وكان كثير من تلك المخابئ قد اختفى من الوجود الآن؛ وربما كان بعضها الآخر ما يزال موجوداً، ولكنه لم يستطع الاهتداء إليه؛ وهناك مخابئ طفولة أخرى في أمكنة صارت غير عملية لمن هو في مثل سنه. وحتى تلك التي وجدها كانت ضيقة وحقيرة؛ ومخيلته الطفولية هي التي جعلت منها أمكنة سحرية، مثقلة بالمخاطر والعجائب. أما الآن بالمقابل، فهو يراها على حقيقتها؛ وهي تغيظه وتحبطه بدل أن تؤثر فيه وتثير انفعالاته. وكان الجدول وحده هو الذي احتفظ، بنظره، بكل أسرار ذكرياته. فهناك كان يذهب كل يوم تقريباً مع أبيه، بعد أن عاد من كوبا؛ والآن أيضاً، لم يعد يمر يوم دون أن يذهب إلى الجدول: فيجلس هناك على حجر وينظر إلى جريان الماء وتقافز أسماك الترويت، ويصغي إلى ذلك الخرير الصافي الذي يبدو كما لو أنه يوشك أن يكون كلاماً. وعلى الشجيرات التي تنمو على الضفة الأخرى، كانت تظهر ملاءات منشورة في أغلب الصباحات؛ تُنشر هناك لتجف تحت الشمس التي تُبرز بياضها على الخلفية القاتمة للشجيرات، مما يبهر النظر. وكان ينتشي كذلك بروائح الريف. فالروائح في المدينة، مثلها مثل الناس، تبدو له فردية وعدوانية؛ أشدها قوة هناك تفرض نفسها على الروائح الأخرى: الرائحة المنبعثة من أحد المعامل، أو عطر سيدة، وغيرها. أما في الريف، فعلى العكس من ذلك، إذ تختلط مختلف الروائح لتشكل رائحة واحدة تملأ الهواء: فالشم والتنفس هنا هما الشيء نفسه. كانت الأوراق اليابسة قد غطت الدرب المؤدي إلى الجدول، وبدأت تنبت على لحاء الأشجار فطور متنوعة الأشكال والألوان: إنه الخريف. وكان أونوفري يستسلم لتلك الأحاسيس التي تستحضر إلى ذهنه ذكريات بعيدة جداً ومشوشة؛ فتعبر تلك الذكريات في ذاكرته بصورة سريعة وخاطفة، مثلما تعبر ظلال العصافير

وهي تطير. وعندما يريد تتبع أثر إحدى تلك الذكريات، يجد نفسه تائهاً وسط ضباب كثيف؛ وعندئذ يراوده نوع من الأحلام الجوالة: فيخيل إليه التعرف إلى يد أمه أو يد أبيه وهما يحاولان جاهدين إرشاده إلى نقطة أكثر ضياء وأمناً. ولكن تلك الأيدي لا تتوصل أبداً إلى الإمساك بيده. لقد وجد في أحد أدراج خزانة الغرفة التي خصصت لإقامته في بيت أخيه، قطعة قماش صوفي سميكة كانت تخص أمه. فقد كانت تستعملها كشال في أيام الخريف الغادرة تحديداً. لقد صار ذلك القماش الصوفي الآن قاسياً وخشناً، تنبعث منه رائحة الرطوبة والغبار. وعندما كانت الذكريات وأحلام اليقظة تهيم على أونوفري، كان يُخرج من الخزانة الشال الذي كان يخص أمه ويجلس وهو يفرده على ركبتيه. ويظل على تلك الحال عدة ساعات، يداعب الشال وهو ساه. وفي تلك اللحظات، كان يفكر بأنه ربما أمكن له أن يتمتع بحياة مفعمة بالحب والحنان لو لم يختر حياة المغامرة التي عاشها. لم يكن يشعر بالندم على ما سببه من أذى، وإنما لأنه أخضع لغايات أخرى ما كان يمكن له أن يُعدّ الآن ذكريات حميمة. لقد كان هذا الألم أنانياً، فضلاً عن أنه جاء متأخراً وبعد فوات الأوان.

– 3 –

في مساء أحد الأيام، بينما كان عائداً من نزهته إلى الجدول، رأى رجلاً مستنداً إلى جذع شجرة على حافة الدرب الذي يسير عليه؛ وكان رأسه متهدلاً فوق صدره وكأنه نائم، ولكن شيئاً غير طبيعي في وضعه ذاك دفعه إلى الابتعاد عن الدرب والاقتراب من الرجل. ومن ثوبه السابغ الذي يرتديه عرف أنه الكاهن، ذلك الخوري الذي كان يستمتع بتوجيه النقد اللاذع له. وقبل أن يصل إليه عرف أنه ميت؛ ثم كشف له فحص أكثر دقة أن تلك الميتة لم تكن لأسباب طبيعية: فقد وجّه أحدهم طلقةً إلى صدره من سلاح ذي عيار كبير، يحتمل أن تكون بندقية صيد؛ وفي الموضع الذي أصابته فيه الطلقة، كان قماش الرداء قد تيبس بفعل الدم المتخثر. وكان هناك دم على اليد اليمنى، وعلى الجبين والخد، مع أنه لا وجود في هذه المواضع لأيّ

جروح: لا شك في أنه رفع يده إلى صدره عندما تلقى الرصاصة، ووضعها بعد ذلك على وجهه؛ ثم مات بعد ذلك واقفاً. ومع أن رؤية العنف لم يكن بالأمر الجديد الذي يمكن له أن يفاجئ أونوفري، إلا أن اكتشاف هذه الجريمة سبب له ارتباكاً كبيراً؛ وبدا له أن اكتشافه هو بالذات تلك الجثة، إنما هو إنذار من القدر أو ثمرة مكيدة خبيثة تريد أن تربط بينه وبين اغتيال الخوري. لقد انكسر الآن إلى غير رجعة ذلك السلام الداخلي الذي ظن أنه قد وجده في القرية. غادر موقع الجريمة راكضاً ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى باب بيت أخيه. وكان أخوه جالساً في غرفة الطعام يشرب النبيذ، بينما كانت المرأة تُعدّ العشاء في المطبخ. وعندما التقط أنفاسه وأخبر أخاه بما حدث، انتبه إلى أن المرأة قد تركت عملها وراحت تستمع إلى القصة باهتمام وهي تستند إلى إطار باب المطبخ. وكان هناك تبادل نظرات بين أخيه وبينها لم يفته الانتباه إليها. لقد أتيحت له منذ يوم وصوله فرصة التعامل مع المرأة وقد اكتشف دون استغراب أنها هي من تمارس السلطة في ذلك البيت في الواقع. وفي كل ليلة تقريباً، بعد أن تقود جوان الثمل إلى فراشه، ونادراً ما كان الكحول يتيح له البقاء محافظاً على وعيه حتى منتصف الليل، ولأن تأثير الشراب على أونوفري كان معاكساً لذلك، ويبقيه في حالة من الجزع لا يجد معها إلى النوم سبيلاً، فقد كانا يجلسان في المطبخ معاً، أونوفري والمرأة، التي يبدو أنها لم تكن تحتاج إلى الراحة، أو على الأقل تلك الراحة المنهجية التي يحتاج إليها معظم الناس في جميع مراحل حياتهم، ولاسيما الرجال، إذا ما كان الجو حاراً وأقل رطوبة من المعتاد، يجلسان في الفناء الذي يعبق في تلك الساعات بشذى أزهار الأضاليا، ويتبادلان الحديث هناك بهدوء، ويبقيان أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل. ومع أن المرأة لم تكن شديدة الذكاء، فإنها تتمتع بتلك الموهبة النسائية التي تتيح لها أن تعرف، دون نية مسبقة، بعض الأشياء التي يظل الرجال يجهلونها دوماً مهما بذلوا من جهد لمعرفتها؛ فهي قادرة، من خلال المظاهر، على رؤية حقيقة مجردة كانت تُطلع الآن أونوفري عليها. فبفضلها راح يتعرف أنه تحت الانسجام التخيلي الذي يسود القرية، كانت تفور أهواء منحطة وأحقاد متجذرة منذ القديم، وأشكال من الحسد والخيانة. وقرويو ذلك الوادي، حسب رأيها، هم كائنات حطّت من

مكانتها أمراض خَلقيّة، كائنات باردة وقاسية، فهم يتركون شيوخهم يموتون جوعاً، ويمارسون قتل الأطفال، ويعذبون الحيوانات الأهلية لمجرد المتعة. فكان هو يرفض، مبدئياً، تصديق تلك الأمور، ويفترض أن ما يوحي بها هو الاستياء العام الذي يبدو واضحاً لديها؛ ولم يكن يستبعد كذلك احتمال أن تكون تلك المكاشفات المكفهرة هي استجابة لخطة متعمدة من قبلها إلى هذا الحد أو ذاك. وما كانت تقوله له، على أي حال، كان يسبب له انزعاجاً يزيد من حالة الغم العامة التي يعانيها. فكان يقتدي بأخيه في بعض الأحيان، ويبحث في الشراب عن الراحة التي يبدو أن ضميره مصر على عدم منحها لجسده. وفي إحدى تلك المرات، استيقظ في سريره مع صياح الديك واكتشف بذعر أن المرأة تنام بهدوء إلى جانبه: لم يكن يتذكر ما حدث في الليلة السابقة. وعندما أيقظ المرأة ليسألها عن ذلك، قطبت وجهها، ولكنها لم تجبه. أخرجها من السرير أولاً ثم من الغرفة بعد ذلك بخشونة، وبقي يفكر بالنتائج المحتملة لذلك الحادث غير المتوقع: وسواء أكان قد ارتكب حماقة طائشة أم كان ضحية خدعة، فالواقع هو أن الأمور قد اتخذت مساراً غير مرغوب فيه. ولكنه لم يستطع مع ذلك إلا أن يقدر جرأة المرأة، التي بدأ يشعر نحوها بانجذاب هو أكثر خطورة، على المدى الطويل، من الحماقات الآنية العابرة التي يمكن للكحول أن يدفعه إلى ارتكابها. لم يكن هناك بالطبع أدنى قدر من العفوية في سلوك المرأة؛ ولم يكن ذلك السلوك يتفق مع أي نوع من البراءة الطبيعية: فهي تعرف جيداً حقيقة وضعها في ذلك البيت وما هو رد الفعل الذي يحدثه ذلك الوضع في القرية؛ ولكنها لم تكن كذلك من النوع الذي يحسب الأمور ويدبر المكائد: فهي تكتفي بالاستفادة من المزايا الضئيلة التي تتمتع بها، إذا حكمنا من خلال أوراقها الرابحة الشحيحة بالمقارنة مع البرود الظاهر للاعب المحترف الذي يعرف أن بقاءه على قيد الحياة يعتمد على الحظ وعلى مهارته بدرجة متساوية. وخلال كل ذلك الوقت، وعلى الرغم من الثقة المتبادلة بينهما، لم يتوصل أونوفري إلى استجلاء الطبيعة الحقيقية للعلاقة بين أخيه والمرأة. فهو يعرف أنها أرملة، مثلما افترض في البداية، وأنها دخلت في خدمة جوان بدافع الحاجة؛ أما ما تبقى فقد ظل غارقاً في الغموض. كل شيء كان يشير كما يبدو إلى أن تسمم أخيه

الكحولي ينفي عن هذه العلاقة عنصر الشهوانية. ولكن ما هو السبب، في هذه الحالة، للمحافظة أمام القرية على هذا الوضع الملتبس الذي يلحق بها الضرر، والذي يبدو مع ذلك أنها تتقبله؟ وفكر أونوفري: من المحتمل أنها تنتظر الفرصة المناسبة لاقتناصه، وهي تعرف أنه سيقع في شباكها عاجلاً أم آجلاً؛ عند ذلك ستصبح زوجة العمدة وتعوض عن كل سنوات المهانة والمرارة هذه. وكلما فكر في هذه الأمور، تداهمه أشد الأفكار سواداً، فيقول لنفسه: ليس لدينا نحن الفقراء سوى خيار واحد، الاستقامة والمذلة أو الشرور وتأنيب الضمير. هذا ما كان يفكر به أغنى رجل في إسبانيا. وقد اكتشف فيما بعد بأن زوج تلك المرأة قد مات أيضاً بطريقة عنيفة؛ ولكن المرأة رفضت، على الرغم من إلحاحه، أن تطلعه على أية تفاصيل أخرى في هذا الشأن. وقد دفع هذا الكشف الجزئي بتوارد كل أنواع التخيلات إلى ذهنه: ربما لم تكن بعيدة تماماً عن تلك الميتة العنيفة، مع أنه لا يبدو أنها حصلت منها على أي فائدة مادية؛ وربما كان أخوه متورطاً في جريمة قيدته إلى تلك المرأة بصورة لا فكاك منها. صارت حياته في هذا البيت تزداد ضيقاً. ثم وقع بعد ذلك الحادث الذي رويناه، فأحس بقلق أشد من السابق؛ فكان يقول لنفسه إنها حين بدأت علاقة معه، وهي تعرف مسبقاً أنها غير قابلة للاستمرار، وعابرة بالضرورة، فإنما كانت تحاول فقط الضغط على جوان لحل الغموض الذي يحيط بوضعها، ولكن هذا التفسير المنطقي لم يبدد خوفه المتزايد من أن يكون ضحية مؤامرة مبيتة. وقد غابت عن ذهنه تماماً الآن تلك النظرة التي تبادلها أخوه والمرأة بعد أن سمعا ما أخبرهما به. وعندما أخبر أخاه بأن الكاهن قد قُتل بطلقة من بندقية صيد، مما يقصر قائمة القتلة المحتملين على الصيدلاني والطبيب البيطري، اللذين يملكان ترخيصاً باقتناء أسلحة صيد، ردّ عليه أخوه بقهقهة مدوية، وقال له إنه لا يوجد بيت في الوادي إلا وفيه ترسانة صغيرة من الأسلحة غير المرخصة. أقلقته هذه الزيادة المفاجئة في عدد المشبوهين: فسوف تبدأ الآن الشائعات والتخمينات، وسيجد نفسه متورطاً فيها دون شك. فمجادلاته مع الكاهن كانت معروفة للجميع؛ ومع أن تلك المجادلات لم تكن تكتسي طابع الجدية قط، وكانت مجرد تمضية الوقت في نظره، إلا أنه من الممكن جداً أن تعمد

ألسنة السوء إلى تحريف مغزاها؛ ويمكن للتقوّلات أن تعزوها إلى عداوة متبادلة. كما يمكن للشبهات التي ستحوم حوله أن تتعزز كذلك من خلال الكراهية المعروفة والقائمة بين الكاهن والمرأة: وهذا التفرع المحتمل للقضية سيُقر رابطة أخرى بينه وبينها. إن الوضع معقد جداً. ولم يكن قلقاً في الواقع من خطر أن يجد نفسه متورطاً في جريمة لم يرتكبها؛ فقد كان معتاداً على التملص من الإدانة في جرائم اقترفها بالفعل، ولا يمكن الآن لموت خوري ريفي صغير أن يسلبه شهيته للطعام. أما ما كان يشوشه فهو الآتي: التفكير بأن هذه الجريمة ما كان يمكن لها أن تحدث أبداً لولا وجوده؛ فهو الذي وفر للجاني الدافع والحلم بإثبات عدم وجوده في مكان الجريمة. ففي بحثه عن الأمن جلب للوادي الشقاق والعنف؛ وسمم الأجواء. لا يمكنه الهرب من قدره: فبعد أن انطلق في تلك الطريق لم يعد أمامه مفر من مواصلتها حتى النهاية. وفي اليوم التالي، غادر القرية في الشاحنة الصغيرة الذاهبة إلى باسورا. وكان قد عُثر في صبيحة ذلك اليوم على جسد الكاهن الذي فارقته الحياة، ولكن لم يخطر لأحد احتجازه في القرية، أو مناقشة حقه بمغادرتها؛ وكان هذا في نظره دليلاً ملموساً على أن الجميع يعتقدون أنه المذنب. ودّعه أخوه بعدم المبالاة نفسها التي التقاه بها عند مجيئه؛ وقد قرأ أونوفري في ذلك التهاون تخلياً مطلقاً عنه. ولم تُبدِ المرأة كذلك أيَّ مشاعر حيال رحيله، ولكن بدا في عينيها ذلك الجفاف الذي يخلفه البكاء الشديد، والذي يؤدي إلى أعمق أشكال اليأس. وراح يفكر وهو متوجه في الشاحنة إلى باسورا: أيكون ممكناً في نهاية المطاف أن الدافع الوحيد لكل تصرفاتها هو بداية حب بلا مستقبل فقط، وأن كل ما عدا ذلك هو نتاج مخيلتي المضطربة؟

– 4 –

حين رجع إلى البيت، وجد أسرته ضحية قلق شديد. فهم يبحثون عنه بيأس منذ عدة أيام؛ ولاعتقادهم بأنه في باريس، فقد اتصلوا بالقنصلية وبالسفارة الإسبانية في تلك المدينة، وبكل فنادقها التي من درجة رفيعة

معينة، كما اتصلوا بالسلطات الفرنسية أيضاً. والاضطراب الذي تسببت به إجراءات البحث المحمومة تلك خسفت الآن المفاجأة الناجمة عن عودته: فلم يكن هناك من يعير هذه العودة أي اهتمام. وتوصل أخيراً من جعل أحدهم يفسر له سبب ذلك الاهتمام الغريب بالبحث عنه: فقد أتى شاب ذو مظهر لائق، ومن أسرة محترمة جداً، ليطلب دون سابق إنذار، يد ابنته الصغرى التي أكملت قبل وقت قصير ثمانية عشر عاماً من العمر. ففكر: ها قد بدأ الصراع على غنائمي. فالعريس لا يقدر ابنته كثيراً: ولا بد أنه افترض بأن تكون لهما دوطة كبيرة. ولكنه كان قد استسلم لهذا الاحتمال وتقبله. ومع ذلك، لم يكن بإمكانه أخذ الأمر باستخفاف، ولهذا أصدر تعليماته بدعوة الشاب هذا المساء إلى مكتبه. ثم انسحب ليستريح. أيقظه القهرمان ليخبره بمجيء إفرين كاستيلس لزيارته. ودخل المارد إلى مكتبه حاملاً محفظة ممتلئة بالأوراق: لقد جاء للبحث في أمور العمل. وأخمدت هذه الفكرة عزيمته.

– لقد أحسنت صنعاً بالاختفاء – بدأ إفرين الكلام – فقد كانوا يريدون رأسك فعلاً – وقام مارد كاليّا بحركة تشير إلى الحيرة، وأطلق زفرة عميقة. فقد انقضت لحسن الحظ فترة الاندفاع الأولى تلك، وقال:– لقد انقضت مثلما جاءت – فهو نفسه لم يكن يشعر بالأمان خلال بضعة أيام. لقد كانت تجوب الشوارع سيارات غامضة في ساعات متأخرة من الليل؛ وفي أحيان أخرى يخيم الصمت والسكون على المدينة بصورة مفاجئة في أشد ساعات الصخب؛ ويتكلم الناس بصوت خافت، وقد عاد بعد ذلك كل شيء إلى طبيعته. فتح المارد المحفظة وبدأ يُخرج منها رزماً من الأوراق، وبادر إلى القول:– لقد جئت لأقدم لك كشفاً بالحساب. فقاطعه أونوفري بوفيلا بإيماءة من يده، ثم قال: هناك متسع من الوقت لهذا فيما بعد. فأصر إفرين كاستيلس على إطلاعه على الوضع الاقتصادي الذي هما فيه، وقال المارد:– لقد أرادوا انتزاع كل أملاكك في البداية؛ ثم ظهرت لهم العقود التي كنا قد وقّعناها، فلم يعودوا يعرفون ما يفعلون: وكان يمكن قراءة الذهول والغيظ المرسومين على وجوههم – فأولئك الأشخاص الذين ما كانوا ليتورعوا عن إصدار الأمر بقتله، وقفوا مشلولين أمام بعض الوثائق القانونية، ولم يفاجئهم

ذلك التناقض الظاهري، وواصل إفرين:- استدعوا محاميهم إلى اجتماع وبقوا يناقشون المسألة لعدة أيام بلياليها؛ فلم يجدوا طريقة لينقضوا عليه بأنيابهم. فطلبوا مني بيأس أن أتعاون معهم. فبقيت ثابتاً في موقفي. وأخيراً توصلنا إلى اتفاق: تعهدت لهم بمقتضاه بأن أواصل إدارة أعمالك؛ مقابل أن يتعهدوا هم باحترام استقلاليتي؛ وكان عليّ أن أعدهم أيضاً بالحصول على موافقتك على هذا الاتفاق: وكل شيء يتوقف الآن على موافقتك هذه – قال المارد ذلك، ثم لزم الصمت باحترام.

فقال أونوفري بوفيلا:

– هذا يعني إحالتي إلى التقاعد، أليس كذلك؟

– إنها فترة وستمضي – قال إفرين كاستيلس.

في الساعة الثامنة حضر طالب يد ابنته إلى المكتب مرتبكاً. كان يبدو شخصاً مهزوزاً وقليل الذكاء، يحتاج إلى بذل الجهد من أجل صياغة جملتين متماسكتين؛ ولا يبدو عليه أنه وغد، ولا أنه نزيه كذلك. بدأ أونوفري بمعاملته بمودة؛ وقد أربكت هذه المودة غير المتوقعة الشاب؛ ذلك أن أباه كان قد قال له: إياك أن تفقد تماسكك مهما حدث، وإذا ما شتمك أو أساء إلى أسرتك، فتظاهر بأنك لم تسمع. وكان أونوفري أيضاً يتصرف على غير هدى. فبعد قليل من انصراف إفرين كاستيلس، زاره حموه. وقد كرر دون هومبرت فيغا إي موريرا الحجج نفسها التي عرضها مارد كاليّا من قبل. فقد أوصاه: من الأفضل لك أن تعتصم الآن بالصبر، وأن تعتبر هذه الفترة إجازة تستحقها بجدارة، وأن تتفرغ لحياتك الأسرية، وللمتع البيتية والمآكل الشهية. فوعده أونوفري بوفيلا بأخذ نصائحه بعين الاعتبار. ثم دخلت عليه بعد ذلك ابنته وزوجته، وقالت له الزوجة: لقد أطلعني أبي على الوضع، ويسعدني أنك قررت تقبل الأمر بهدوء. وقد شعر أن هناك في صوتها إحساساً بالرضى، وبدا كما لو أنها تريد أن تقول: إذا كانت هذه المشكلات ستسمح لي ولابنتي باستعادتك إلينا، فأهلاً وسهلاً بها. وتوجهت ابنته إلى الموضوع مباشرة، وقالت له متوسلة: كن متساهلاً معه يا أبي، فأنا أحبه بكل جوارحي؛ وسعادتي كلها متوقفة عليك الآن. وبينما هو يرى الشاب الذي جاء يطلب

يدها الآن، كان يتذكر تلك الكلمات. وراح يفكر: سيكون دمية بين يدي ابنتي، وكلبها المسالم، وربما كان هذا هو ما تريده، فهذه الأمور تكون واضحة لمن هي في سنها؛ حسن، سأمنحه موافقتي وأنال امتنان أسرتي كلها، وخلال بعض الوقت سيمتلئ البيت بالأحفاد، وربما كان حموي على حق، وأنه قد آن الأوان للتمتع بالحياة البيتية. ثم قال بصوت عالٍ: لستُ أعارض معارضة قاطعة هذا الزواج السخيف وحسب، وإنما أمنعك كذلك من رؤية ابنتي مرة أخرى؛ وإذا ما حاولت بأي طريقة أن تتصل بها أو بأي شخص من هذا البيت، سواء من أفراد الأسرة أو الخدم، فإنني سأرسل رجالي لتكسير عظامك في أحد الأزقة المظلمة. لقد أمده القدر بضحية يصب عليها غضبه الذي تراكم طوال اليوم؛ وهو لن يفوت مثل هذه الفرصة. وفكر: فليخز الله أسرتي. ثم توجه إلى طالب الزواج الذي لم يكن يصدق أذنيه، وواصل القول له: هذا المنع الذي عبرتُ عنه قاطع ونهائي ولا تراجع عنه، فلا تأمل بأن أغير موقفي مع مرور الوقت؛ فهذا شيء لم أفعله قط، ولن أقدم عليه أبداً. وإذا ما بقيت مصراً على رؤية ابنتي بالرغم من تحذيراتي، أو على إيصال رسالة إليها، فإنني سأجد نفسي، للأسف، مضطراً إلى أن أرسل من يطلق رصاصة على عنقك. وأظن أنني تكلمت بما يكفي من الوضوح. القهرمان سيرافقك حتى الباب. أعادت إليه هذه المقابلة شيئاً من طيب مزاجه المفقود؛ بل إنه قام بلفتة طمأنة لزوجته حين قال لها: إذا كانا متحابين حقاً، وكان هو جديراً بها بالفعل، فسوف يأتي من أجلها على الرغم من كل تهديداتي؛ وعندئذ لن أنفذ ما قلته؛ بل على العكس، سأقيم لهما حفلة زفاف ضخمة وسأسعى إلى ألا يفتقرا إلى شيء مدى الحياة؛ ولكنني أعتقد بأننا لن نعود إلى سماع شيء عن هذا الشاب؛ صدقيني يا امرأة، إنه شخص مهزوز، وما كان يمكن له أن يُسعد صغيرتنا. سيأتي آخرون غيره. هيا، دعك من البكاء واذهبي لمواساتها؛ وسترين كيف أنها ستنسى هذا التكدر. ولكنه على هامش هذه التسليات المتفرقة، لم يكن يجد في الحياة الأسرية أية متعة.

صار يكرس كل وقته الآن لمواصلة ترميم البيت الذي توقف العمل فيه منذ سفره. وشاءت المصادفة أن ينتهي إنجاز ذلك العمل الضخم في أواسط شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة 1924، بعد أيام قليلة من بلوغ أونوفري

بوفيلا الخمسين من عمره. لقد فقدت الحديقة الآن مظهر الغابة المختلطة الذي كانت عليه، واستعادت تناسقها السابق؛ وكانت الزوارق التي طُليت بالورنيش حديثاً تتهادى في القناة، كما كانت عدة أزواج من البجع تعكس صورها البديعة على صفحة الماء؛ وكانت الأبواب في داخل البيت تُفتح وتُغلق بنعومة، والمصابيح تنعكس على المرايا، ويمكن أن تُرى على السقوف صور ملائكة وحوريات رُسمت حديثاً، وكانت السجاجيد تكتم وقع الأقدام، والأثاث يمتص في سطوحه البراقة الضوء المتسرب من خلال ستائر النوافذ. وحلّ موعد الانتقال إلى المنزل. حاولت ابنتاه الاعتراض على ذلك: فقد كانتا ترفضان مغادرة المدينة. وتعللتا: من الذي سيأتي لزيارتنا في ذلك المكان البعيد الذي تخلت عنه يد الرب؟ فرد عليهما: ما دمتُ غنياً سيأتون لزيارتنا حتى في الجحيم إذا تطلب الأمر. والحقيقة أن زوجته وابنتيه كن يخشين العيش في عزلة مع ذلك الرجل المستبد الذي يبدو أنه يستمتع بتعذيبهن. كما أن ذلك المنزل يبعث فيهن الرهبة والاستياء. فعلى الرغم من أن الترميم كان يبدو متقناً، إلا أنه كان هناك شيء مثير للقلق في تلك النسخة الأمينة جداً للماضي، شيء من الأبهة في تلك الزينة المفرطة، شيء جنوني في ذلك السعي لاستنساخ وجود غابر وغريب، شيء فج في تلك اللوحات، والفازات، والساعات، والتماثيل المقلدة التي لم تكن مهداة أو موروثة، والتي لم يكن وجودها ثمرة هواية وتصيد متوالٍ للقى، ولم تكن تختزن ذكرى اللحظة التي اقتُنيت فيها، أو المناسبة التي صارت فيها جزءاً من البيت: فكل شيء هناك هو استجابة لإرادة صارمة، وكل شيء مزيف وتعسفي. فبعد أن هدأت جلبة العمل، واختفى البناؤون، والعمال، والمجصصون، والنقاشون، واستُعيد النظام والنظافة، اكتسبت الدارة وقاراً جنائزياً. وحتى بجعات البحيرة كان يلفها نوع من البلاهة هي من طبيعتها. وكان الفجر يطلع ليلقي ضوءاً مشؤوماً ومختلفاً على البيت. وكانت هذه السمات تروق لأونوفري بوفيلا. فهناك يمكنه أن يعيش على هواه، دون أن يرى أو يسمع زوجته وابنتيه خلال أسابيع عديدة. لم يكن يخرج إلى الحديقة مطلقاً، ونادراً ما كان يخرج خلال النهار إلى الغرف التي احتفظ بها لاستخدامه الحصري. لم يكن يتلقى زيارات؛ وعلى خلاف تنبؤاته، لم يكن هناك من يأتي لزيارتهم بمبادرته الخاصة. وبعد

حوالي شهرين من الانتقال، غادرت ابنتاه البيت نهائياً. الصغرى هي من ذهبت أولاً. وقد استقرت في باريس بمساعدة جدها دون هومبرت فيغا إي موريرا الذي كان يحبها إلى حد جازف معه، بالرغم من كبر سنه ووهنه، بإمكانية تعرضه لغضب صهره؛ وقد تزوجت بعد بعض الوقت من عازف بيانو هنغاري ضئيل الشهرة وغامض المستقبل، وله ضعف عمرها؛ وهاما معاً على وجهيهما من مدينة إلى أخرى منذ ذلك الحين، يلاحقهما الدائنون. ولم تتأخر الكبرى عن الحذو حذو أختها. ومع أنها كانت تعترف علناً بأنها لا تشعر بأي ميل إلى ذلك، فقد انضمت إلى جمعية علمانية تمارس التعليم والتمريض في أماكن نائية ومتخلفة. وبعد أن أمضت عدة سنوات في إكيتوس، بمنطقة الأمازون البيروية، محاولة الجمع كيفما اتفق بين ممارسة عمليات التوليد وإفراطها في استهلاك الويسكي، أعادتها سلطات البيرو إلى بلادها؛ وتطلب ذلك رشوة عدة موظفين حكوميين وتعويض ضحايا إهمالها وإدمانها وجهلها. ثم عاشت بعد ذلك بهدوء، تحيط بها أبخرة الكحول في جناح خاص بفندق ريتز المدريدي حتى وفاتها سنة 1981. وشهد أونوفري بوفيلا انحلال أسرته بعدم المبالاة نفسها التي شهد بها تشكّلها بعد موت ابنه الثاني: أسرةٌ كونتها الفضلات والخيبات. كانت زوجته تمضي النهار كله وجزءاً من الليل في مصلى الطابق الأول من البيت: وتطلّب أن يحملوا إليها هناك علب الكمأ المثلجة وسكاكر الليكور التي كانت تتناولها طوال الوقت وهي تحاول التوجه في متاهة الصلوات التساعية، والثلاثية، وصلاة محنة الصليب، والاستغراق، وصلاة الأربعين ساعة، والشموع التي كانت تعيش غارقة فيها. صار البيت يبدو الآن مقفراً حقاً. وإذا كان الأثاث وأشياء البيت قد بدت من قبل خالية من الحياة الفعلية، فإنها سرعان ما اكتسبت حياة أخرى شبحية: فقد صارت تُسمع في الليل جلبة في الحجرات الخاوية، وفي صباح اليوم التالي تكون الخزائن قد أزيحت من أماكنها، والسجاجيد قد طويت، وكأن كل تلك الأشياء الضخمة والثقيلة كانت تجوب صالونات البيت في كنف الظلام. والواقع أنه لم يكن هناك أي شيء خارق في ذلك كله: فمن كان يفعل ذلك هم الخدم، ليعربوا بذلك عن استيائهم وضجرهم. وكانوا يقولون: فلنر إذا ما كنا سنتمكن أخيراً من جعل السيدة تصاب بالجنون؛

وينـهمكون دون مـبرر فـي قـرع القـدور وجرجـرة الأثـاث وضـرب الجـدران بالسلاسل. فكان أونوفري بوفيلا يتظاهر بأنه لا يلحظ شيئاً من ذلك؛ ولكي يتخلص من الجو الكئيب الذي يخيم على البيت، اكتسب عادة الخروج كل ليلة. وكان يتردد بمرافقة سائقه وحارسه الشخصي على أشد الأوكار تهتكاً؛ ويهرب من الأناقة والنظافة بحثاً عن صحبة القوادين والأشقياء والعاهرات: وكان يظن أنه يستعيد بذلك برشلونة تلك التي توصل فيها إلى الارتقاء والصعود، ولكنه يرى الآن أنه نعم فيها بالسعادة. والحقيقة أنه كان يحنّ بذلك إلى شبابه الضائع. وكان يحاول أن يقنع نفسه بأنه يشعر وهو في تلك الأجواء التي تنضح بالخزي والبؤس، كما لو أنه في بيته؛ ولكنه كان يعرف في أعماق نفسه بأنه يشمئز من تلك الحظائر الدنسة، سيئة التهوية، ومن تلك الأسرّة المتضمخة بالعرق والنتانة التي يستيقظ مذعوراً بعد أن ينام فيها. وكان النبيذ الرخيص، والشمبانيا المزيفة، والكوكائين الذي يستهلكه للحفاظ على مرحه طوال الليل، تعكر مزاجه: فكثيراً ما كان يتقيأ في الشارع أو في السيارة وهو عائد إلى بيته مع انبلاج الصبح. وكان يعرف كذلك أن أولئك الدجالين، والمهربين، والعاهرات إنما يتهالكون سعياً وراء نقوده. وعندما يُخرجه السائق محمولاً تقريباً من المواخير، تتبدل في طرفة عين حال المومسات اللواتي استقبلنه بمظاهر اللطف والمداعبات المتهتكة، إذ يبدأ القوادون بضربهن لينتزعوا منهن النقود التي يقدمها لهن دون حساب، ويتلاشى الانبساط والشبق: ويسود هناك عندئذ الجشع والعنف والحقد. لقد كان يعرف كل ذلك، ولكنه يسمح لهم بأن يخدعوه؛ فبهذا الخداع، وليس بما يبذره من المال، يرى أنه يدفع ثمن حقه في أن يستنشق مجدداً هواء المرفأ، ورائحة الملوحة البحرية والنفط والفواكه الناضجة والموشكة على التعفن في عنابر السفن، كما لو أنه ما زال ينتمي إلى ذلك العالم الذي فقده إلى الأبد منذ سنوات طويلة.

استيقظ في إحدى الليالي في غرفة ضيقة، جدرانها مغطاة بورق متسخ كان في الأصل برتقالي اللون؛ وكان هناك مصباح يرتعش متدلياً من السقف بسلك كهربائي. أحس بالتجمد في قدميه ويديه، وبتنميل مزعج يجوب جانبه الأيسر. عرف أنه سيموت واستغرب الدقة التي ما زال قادراً

على تمييز التفاصيل الدقيقة بها. وسمع إلى جانبه صراخ مومس لا يذكر أنه رأى وجهها من قبل. وببذل جهد كبير تمكن من الإمساك بمعصمها: كان يعرف أنها إذا ما أفلتت منه فسوف تسلبه كل ما معه وتهرب دون أن تخبر أحداً بأي شيء. ستتركه يموت هناك. وفكر: سأمنيها بعطاء سخي إذا ما ساعدتني. ولكنه اختنق بالكلمات ولم يعد قادراً على التنفس. وفكر: ليس هذا بالمكان السيئ للموت، يا للفضيحة التي ستحدث. ولكن، ما هذا الذي أقوله؟ أنا لا أريد أن أموت هنا ولا في أي مكان آخر. شدت الغانية يدها بقوة وأفلتت منه؛ وسارعت تلتقط ملابسها المبعثرة على أرض الحجرة وخرجت إلى الممر وهي تحمل الملابس بين ذراعيها. وحين رأى نفسه وحيداً ناضل كي لا يسمح للخوف بالتغلب عليه. وفكر: إنها النهاية. وسمع صراخاً وركضاً في الممر قبل أن يغيب عن الوعي.

لقد تصرف الجميع في الحقيقة بصورة صائبة. فالغانية هرعت تبحث عن السائق فور ارتدائها ملابسها، ولخوف السائق من المسؤولية التي قد تقع عليه إذا ما أسفر الحادث عن نهاية وخيمة، فقد ذهب بدوره بحثاً عن إفرين كاستيلس. وعندما حضرا معاً إلى الماخور، كانت المومسات وقوادوهن قد تمكنوا من إلباسه ثيابه كيفما اتفق؛ ولم يتمكنوا بالمقابل من جعله يشرب جرعة كونياك بالرغم من أنهم حاولوا فتح فمه بذراع ملعقة. وزع إفرين كاستيلس الإكراميات عليهم؛ بمن في ذلك الحارس الليلي والخفير الشرطي اللذان كانا حاضرين؛ فأبدى الجميع رضاهم وأقسموا على التزام الصمت. وكانت الساعة تعلن الرابعة فجراً عندما مددوه في سريره وأخبروا زوجته. فكانت هي على مستوى الأحداث، وتصرفت كسيدة: تقبّلت بجفاء التفسيرات المرتجلة وغير المعقولة التي قدمها إليها إفرين كاستيلس بخراقة، ثم حرّكت كل الخدم. فتحول البيت بعد ساعات إلى خلية تضج بالحركة: فقد هرع إليه أطباء اختصاصيون وممرضات، وجاء كذلك، تحسباً من نهاية مفجعة، محامون وكتاب بالعدل مع مساعديهم، وعملاء بورصة وصرافة، ومسجلو ممتلكات، وموظفون من المالية، وقناصل وملحقون تجاريون، وأوغاد وسياسيون (وكان هؤلاء يحاولون عدم لفت الأنظار إلى وجودهم هناك)، وصحفيون ومراسلون، وعدد كبير من الكهنة المزودين بما يلزم لتقديم

الخدمات الدينية حسب الحالة: الاعتراف، والقربان المقدس، والمسحة الأخيرة. وكان هذا الحشد يتسكع الآن في أنحاء الحديقة والبيت، يدخل إلى كل الأقسام الملحقة بالمنزل، ينبش الخزائن، يفتح الأدراج، يقلّب الأثاث، يلمس اللوحات الفنية، ويلحق الضرر ببعض الأشياء دون قصد أو عن قصد، وكان المصورون الصحفيون ينصبون مساند آلات التصوير في وسط القاعات، ويجرحون عيون الجميع بوميض مصابيح المغنيزيوم، ويبددون صفائح الأفلام في التقاط صور يضيع معناها عند تظهيرها. ويتقبل الخدم الرشاوى ليكشفوا عن أسرار حقيقية أو متخيلة لمن يدفع لهم أكثر. ولم يخل الأمر من محتالين يتظاهرون بأنهم من أصدقاء الأسرة أو من معاوني المريض المقربين؛ فيدفع لهم الصحفيون والتجار المستجدون مقابل الحصول منهم على أشد أنواع المعلومات اضطراباً والتباساً. فتهبط نتيجة ذلك أسعار البورصة في كل مكان تقريباً. ولم يكن هو يعلم بهذه الأمور، أو أنه يعلم بها بصورة غامضة: فبسبب الأدوية التي يتلقاها، كان يبدو وكأنه معلق في الهواء: لم يكن يشعر بأي ألم، كما أنه لم يكن يشعر بجسده نفسه، اللهم إلا تلك البرودة المستقرة في أطرافه. فكان يفكر: لولا هذه البرودة لكنتُ أفضل حالاً من أي وقت مضى. فكان شيء من هذا الإحساس بالعافية يعيده إلى طفولة سابقة لأقدم ذكرياته. لقد فقد الإحساس بالزمن: وعلى الرغم من انعدام حركته المطلق، لم تكن الساعات تبدو له طويلة، ولم يكن يُثقل عليه الشلل وعدم النشاط. وكان الأشخاص الذين يدخلون إلى غرفته ويخرجون منها، كالأطباء الذين يفحصونه باستمرار، والمرضات اللواتي يقدمن له الأدوية والمسكنات والحقن، ويسحبن منه الدم ويساعدنه في قضاء حاجاته التي لم يعد يتحكم بها، ويغسلنه ويعطرنه؛ وزيارات زوجته الدورية التي يسمحون لها فيها بالبقاء معه على انفراد للحظات قصيرة تقضيها في البكاء إلى جوار السرير؛ ودخول من تمكنوا بحيلة ما من التسلل إلى مخدعه ليطلبوا منه معروفاً يحصلون عليه بعد وفاته، أو ليحثوه على تطهير روحه ومصالحتها مع الرب، أو ليسألوه عن معلومة جوهرية حول مشروع أو صفقة تجارية مهمة، أو ربما ليسمعوا من بين شفتيه، على سبيل الوصية، سرّ نجاحه؛ فكان هؤلاء جميعهم يبدون له صوراً وهمية، وشخوصاً هاربة من رسوم طفولية، يتحركون الآن في

بضعة مستويات ثابتة في الفضاء الذي يحيط به. كما أن التمتمات والهمسات ووقع الأصوات والخطوات التي تصله عبر الحواجز، وتتضخم عندما ينفتح باب وتخمد عند إغلاقه، كانت تحيره أيضاً؛ لم يكن قادراً على إقرار فروقات واضحة بين الأصوات، والروائح، والأشكال، والأحاسيس: فكل منها تستدعي تفسيرات معقدة، دون أن يعني ذلك أنها خاطئة أو متجانسة على الدوام. فملامسة يد طبيب أو ممرضة، ورائحة الكينا، وبياض بلوزة، ووجه متفحص بالقرب من وجهه، يمكن لها أن تشكل كلاً واحداً يصعب عليه سبر معناه. فكان يقول: ما معنى هذا؟ ما الذي تفعله هذه الأشياء غير المتجانسة بقربي؟ لماذا هي هنا؟ وحين يلامس خياله المنفلت من عقاله تلك المؤثرات، ينقله في لحظة دوارية عبر فضاء بلا حدود ويضعه بعد ذلك على ضفة لحظة ضائعة من ماضيه، فيعيشها من جديد عند تلك النقطة، وبدقة تبدو الرؤيا معها مشوشة ومؤلمة. ثم يتلاشى كل شيء في ما بعد ببطء، مثلما يتلاشى دخان السجائر في الهواء الدافئ في أحد الصالونات، ولا يبقى في وعيه عندئذ سوى الرعب الذي توحي به يقينية الموت. فيرغب في مثل هذه المناسبات في تقديم أي شيء مقابل استمراره في العيش لبعض الوقت وكيفما كان؛ ولكنه يعلم أنه لا نفع في ذلك المأزق لأي نوع من الصفقات، فكان ذلك يبعث فيه اليأس والقنوط، فيقول لنفسه: كيف يمكن أن أكون عاجزاً بالمطلق عن عمل أي شيء لتجنب مثل هذا الأمر الفظيع؟. ولقناعته بأن حياته توشك على الانطفاء كما ينطفئ ضوء لدى الضغط على قاطعة كهربائية، وأنه سيختفي في أي لحظة إلى الأبد ودون خلاص، فقد كان ينفجر في البكاء بيأس طفل حديث الولادة؛ ولم يكن هناك من ينتبه إلى ذلك، لأن هيئته تظل كما هي دون تغيير، لا تعبر إلا عن السكون والقوة.

ولم يكن الأمر يخلو كذلك من مناسبات يفسح فيها ذلك الدوار، وتلك الذكريات والمخاوف، المجال لرؤى خيالية ومحببة. وقد خيل إليه في إحدى تلك الرؤى بأنه في مكان غير محدد، مضاء ببياض رتيب، كما في ظهيرة ضبابية. وبينما هو موجود هناك دون أن يعرف سبب وجوده، رأى شخصاً يتجه نحوه، وأحس بأنه قد تعرف إليه وهو لا يزال بعيداً. وعندما اقترب منه، احتفى بالفرصة التي جعلت هذا اللقاء ممكناً، وقال: كم من الوقت

مضى دون أن نلتقي يا أبي! فابتسم الأمريكي. وكان قد تغير قليلاً من الناحية الجسدية منذ ذلك اليوم الذي عاد فيه من كوبا ببدلته القطنية، وقبعة البنما وقفص القرد، غير أنه الآن يطلق لحية طويلة وحسنة التشذيب. فسأله: وما هذه اللحية يا أبي؟ فهز الأمريكي كتفيه، وبدا كما لو أنه يريد أن يقول بتلك الحركة: لا أدري يا بني. ثم فتح فمه بعد ذلك، وحرك شفتيه ببطء، وكأنه يريد أن يقول له شيئاً، ولكنه ظل على تلك الحال، دون أن يصدر أي صوت. كان أونوفري يحبس أنفاسه، منتظراً أن يكشف له أبوه في أي لحظة عن شيء خطير. ولكن أباه بقي صامتاً؛ وأخيراً أطبق فمه وعاد يبتسم؛ وكانت ابتسامته الآن مشوبة بشيء من الكآبة. وفكر أونوفري وقد انتابته قشعريرة: ربما كان هذا هو كون المرء ميتاً في الواقع، إنه الثبات والسكون. فعندما يكون المرء ميتاً لا يعود قادراً على الذهاب إلى أي مكان حقاً، وفكر: كل شيء يصير ثباتاً؛ وحيث لا يوجد تغيير، لا وجود للألم، ولكن لا وجود للفرح كذلك، وإنما فقط هذا الجهل المُحيِّر الذي أراه مكتوباً على وجه أبي. وواصل التفكير: إنه ميت حقاً، وهذا واضح دون أي نوع من الشكوك، ولهذا فإن صحبته التي بدت لي لطيفة في البدء، لم تعد تؤدي الآن إلا إلى امتلائي بالحزن؛ وكل هذا يشير إلى أنني لستُ ميتاً، وإلا لما كنتُ فكرت مثلما أفكر الآن. ولكنني يجب ألا أكون حياً كذلك، وإلا لما كنتُ رأيت هذه الرؤيا. إنني دون شك في حالة انتقالية، أضع قدماً في كل جانب من جانبي الخط الفاصل، مثلما يقال في العالم الذي أنا على وشك مغادرته. وفكر: إنني مستعد لإعطاء أي شيء مقابل أن أعود للعيش؛ لستُ أطلب البدء من جديد: فهذا مستحيل، ولأنني من جهة أخرى سأعود للعيش بالتأكيد مثلما عشتُ من قبل. لا، إنني لا أطلب إلا مواصلة العيش، وسأقنع بذلك. آه، لو أنني أعود إلى العيش، فإنني سأنظر إلى كل شيء بعينين مختلفتين.

– 5 –

– لا أدري إذا ما كان السماح لك برؤيتها صائباً – قالت الراهبة – أعني

أن ندعها تراك.

- أنت تعرفين إذن من أنا؟ سألها.

فزّمت الراهبة شفتيها؛ ولم تخفف بسبب ذلك من الفتور الذي كانت تتفحص به محدّثها. ولم يكن في ذلك الفتور أثر من النفور: وإنما الفضول والحذر بمقدارين متساويين.

- الجميع يعرفون من أنت يا سيد بوفيلا - قالت بصوت خافت جداً، وبما يشبه التغنج. وكان كل تفصيل من تقاطيع وجهها يكشف عن سمة من طبعها: الانطلاق، العذوبة، الصبر، الصلابة، الخ...، لقد كان وجهها كله رمزاً. ثم أضافت مبدلة نبرة صوتها:- لقد تألمت المسكينة كثيراً. وهي تقضي الآن معظم الوقت هادئة؛ ولا تنتكس إلا في أوقات متباعدة، ولأيام قليلة فقط. وعندئذ تظن نفسها من جديد ملكة وقديسة. هز أونوفري بوفيلا رأسه علامة الموافقة، وقال: إنني مطلع على وضعها. والحقيقة أنه اطلع على ذلك منذ وقت قريب جداً. فخلال شهور النقاهة الطويلة، وخلال المرحلة التي انتُزع فيها، في اللحظة الحرجة، من براثن الموت، وكانت حياته تبدو معلقة بشبكة عنكبوت واهية، أخفوا عنه بعض الحقائق، فقد قال الأطباء: يمكن لأي إزعاج يتعرض له أن يودي بحياته. ولكنهم لم يستطيعوا الحيلولة دون أن يطلع أخيراً على الأمر بصورة غير مباشرة. ففي أحد أيام الخريف، وبينما هو يقاوم الضجر بتصفح بعض المجلات في أحد جنبات الصالون، إلى جانب النافذة المغلقة، وبينما ساقاه ملفوفتان بحرام من صوف الألبكة، قرأ خبر حفلة الزفاف. وقد مر على معناه مرور الكرام في ذلك الوقت. ثم جاءت خادمة والتقطت المجلات التي كانت قد سقطت منه على الأرض، وأسدلت الستائر كي لا تصفع وجهه شمس الأصيل التي بدأت تنفذ من خلال الزجاج. وبعد أن ذهبت الخادمة، أسند خده إلى غطاء مسند الكرسي: وكان مكوياً للتو وما يزال يحتفظ برائحة الحبق الندي. واستسلم للنوم وهو على تلك الحال. فللمرة الأولى في حياته صار ينام الآن لساعات طويلة؛ وكان القيام بأي نشاط بسيط يرهقه؛ ولحسن الحظ أن إغفاءاته تلك كانت لطيفة على الدوام. ولكنه استيقظ في هذه المرة مذعوراً. لم يكن يدري كم من الوقت قد نام، ولكن لا بد أنه نام قليلاً بالنظر إلى موضع الخط الذي ترسمه الشمس

على البلاط الرخامي. وحاول خلال دقائق أن يحدد سبب قلقه، وتساءل: أيكون شيئاً مما قرأته في المجلات؟ قرع الجرس الصغير الذي يستبقيه دائماً بجانبه: فهرعت الخادمة والممرضة وقد بدت عليهما ملامح الذعر. فقال لهما بنزق حيال ملامح الاهتمام الوظيفي ذاك: يا للعنة، لم يحدث لي شيء؛ إنني أريد فقط أن تعيدوا لي المجلات التي كنتُ أقرأ فيها قبل قليل. وبينما ذهبت الخادمة لإحضار المجلات، انهمكت الممرضة في قياس نبضه: كانت امرأة جافة وحادة الطبع. وقد اعتاد أن يقول لإفرين كاستيلس عندما يأتي لزيارته: إن زوجتي تعاقبني بإحضار هؤلاء المسترجلات. فيرد عليه المارد بصرامة: وما الذي تريده؟ فتاة جميلة تسبب لك الإغماء ثانية؟ ثم يتلفت في كل الاتجاهات ليتأكد من أنه ليس هناك من يسمعهما، ويضيف: لو أنك رأيت نفسك مثلما رأيتك أنا عندما ذهبت لالتقاطك من الماخور لما قلتَ هذه الكلام. ويتذمر وهو يجذب يده من الممرضة قائلاً لها: ياه، دعك من النظر إذا ما كنتُ حياً أو ميتاً وامسحي نظارتي بقطعة الشاش هذه التي تطل من جيبك. تبادل هو والممرضة نظرات التحدي للحظة، وفكر: هذا هو ما وصلتُ إليه.. المشاجرة مع العوانس. ثم أمر بأن يفتحوا الستائر ويتركوه وشأنه. وبحث بصورة محمومة عن خبر الزفاف. لقد صرحت النجمة السينمائية لمراسل المجلة: إنني سعيدة جداً. وسنعيش أنا وجيمس معظم أيام السنة في اسكتلندا؛ فجيمس يملك قلعة هناك. وجيمس المعني هو أرستقراطي إنكليزي رشيق وثري. وقد تعارفا في عابرة محيطات فاخرة؛ وقد اعترفا كلاهما فيما بعد: أجل، لقد كان حباً من النظرة الأولى. وقد فضلا طوال بضعة شهور الحفاظ على سرية خطوبتهما ليتجنبا مضايقات الصحافة؛ وكان هو يرسل إليها يومياً خلال تلك الشهور زهرة أوركيديا إلى غرفتها: فكانت الزهرة هي أول ما تراه عندما تفتح عينيها. وحفلة الزفاف ستقام قبل الشتاء في مكان لا يريدان الكشف عنه، وقد حددت النجمة: أما شهر العسل فسنقضيه في بلدان إكزوتيكية. وكررت: إنني سعيدة جداً. وأعلنت بالمناسبة أنها اعتزلت السينما نهائياً.

– أين هي الآن؟ – توجه بالسؤال بصوت خافت في ذلك المساء بالذات إلى إفرين كاستيلس. فسيطر الارتباك على المارد. ثم قال له:

- إنها في أحسن حال يمكن أن تكون عليها، صدقني. المكان لطيف جداً؛ ولا يبدو أنه مصح. - ثم أحس بعد ذلك بأنه محاصر ضمنياً بصمت صديقه المكفهر، فقال مدافعاً عن نفسه بغضب:- لا تنظر إليّ بهذا الوجه يا أونوفري، بحق أحب شيء إليك؛ لو كنتَ مكاني لفعلت الشيء نفسه، فأي مخرج آخر بقي لنا؟ أنت كنت تعرف منذ البداية أكثر من أي شخص آخر أن هذه المغامرة ستنتهي على هذه النحو، فالأمور بدأت منذ زمن بعيد. - وروى له كيف أن الأمور راحت تمضي من سيئ إلى أسوأ منذ أن تنازل له عن الاستوديوهات السينمائية. إذ سرعان ما تبينوا أن هونيستا لابرو لم تكن مستعدة لتقبل الأوامر من أحد سواه؛ وكان هو قد ذهب مقرراً ألا يعود. وصار الفيلم الذي كان تصويره يتم في أربعة أو خمسة أيام، يتطلب الآن عدة أسابيع من التصوير: ثم تضاعفت المشكلات. وقد حاولت في نهاية المطاف قتل زوكرمان. ففي أحد الأيام التي عاملها فيها بقسوة أكثر مما هو معهود، أخرجت مسدساً من حقيبتها وأطلقت النار على المخرج. وكان المسدس قديماً. الله أعلم من أين جاءت به؛ فانفجر في يدها: ولم يطح برأسها بأعجوبة. بعد هذا الحادث اقتنع الجميع بأنه لم يعد هناك من سبيل سوى الحجز عليها. فهز أونوفري رأسه بتكدر. وباختفاء هونيستا لابرو بدأت صناعة السينما التي أنشأها هو نفسه بالانهيار. حاولوا مع ممثلات أخريات، ولكنهن أخفقن جميعهن؛ ولم تعد الأفلام تجتذب الناس بعد أن كانت تدر أرباحاً طائلة في السابق. فالجمهور صار يفضل دون ريب الأفلام التي تأتي من الولايات المتحدة؛ وحتى إفرين كاستيلس نفسه كان يتحدث بحماس عن ماري بيكفورد وعن شارلي شابلن. وهكذا قرروا إغلاق الاستوديوهات، وتصفية الشركة والانصراف إلى استيراد أفلام أجنبية. وقال إفرين كاستيلس: فلنترك أولئك الأجانب يرهقون أدمغتهم ويجازفون بأموالهم. رفع أونوفري بوفيلا دثار فرو الألبكة حتى صدره وهز كتفيه: لم يعد يهمه أي شيء.

- تعال - قالت له الراهبة فجأة. وكانت قد استغرقت في التفكير، وهذا القرار هو حصيلة تفكيرها ذاك: بدا واضحاً من طريقتها في الكلام أنها معتادة على التعامل مع أناس لا تحدد مدى فهمهم لها. وصل في اثر

الراهبة إلى قاعة منتظمة الأبعاد؛ مفروشة ببساطة، وتبدو نظيفة ومريحة، ولكنها تعبق برائحة المرض والانحطاط. كان الضوء الباهت لظهيرة شتائية يدخل من النافذة. وكان الجو بارداً في القاعة. ورأى ثلاثة رجال بأعمار لا يمكن تحديدها يلعبون الورق حول طاولة نقالة؛ وكان اثنان من أولئك الرجال يعتمرون قبعتي بيريه، وثلاثتهم يضعون لفاعات حول أعناقهم. وعلى طاولة أخرى ملتصقة بالجدار ومغطاة بشرشف أزرق يتدلى حتى يلامس الأرض، يوجد مشهد يمثل ولادة المسيح: الجبال مصنوعة من الفلين؛ والنهر من ورق القصدير؛ والنباتات من رقائق طحلبية؛ والشخوص من الطين دون أن يكون هناك تناسب في أحجامهم. وإلى جانب الطاولة يوجد بيانو صغير مغطى بغطاء من قماش سميك.

- المرضى أنفسهم صنعوا هذا المشهد للولادة في بيت لحم - قالت الراهبة. وحين سمع الرجال الثلاثة ذلك توقفوا عن اللعب وابتسموا باتجاه أونوفري بوفيلا، بينما واصلت الراهبة:- في ليلة عيد الميلاد، بعد قداس منتصف الليل سيُقدم عشاء مشترك؛ أعني أنه يمكن لذوي المرضى وأقربائهم حضوره أيضاً إذا رغبوا في ذلك. ولستُ أظن أن هذا الأمر يهمك، ولكنني أخبرك به.

لاحظ أونوفري أن النوافذ كلها مزودة بقضبان حديدية. خرجا من هناك عبر باب آخر؛ وكان ذلك الباب يؤدي إلى ممر آخر. ولدى وصولهما إلى نهاية هذا الممر الثاني توقفت الراهبة، وقالت:

- عليك الآن أن تنتظر للحظة هنا. لا يمكن للرجال الدخول إلى جناح النساء والعكس بالعكس: فنحن لا نعرف في أي حال سنجدهن.

تركته الراهبة هناك وحيداً. راح يفتش في كل جيوبه، وهو يعلم عدم جدوى هذه الحركة؛ فالأطباء منعوه من التدخين، ولم يكن يحمل معه سجائر. فكر بالعودة إلى القاعة وطلب سيجارة من لاعبي الورق. وقال لنفسه: لا بد أن أجد معهم سيجارة، وهم لا يبدون خطرين. وماذا يمكن لهم، في نهاية المطاف، أن يفعلوا بي؟ وبينما هو يفكر بذلك، نظر نظرة ناقدة إلى انعكاس صورته على زجاج نافذة الممر. رأى هناك شيخاً ضئيلاً، شاحباً، وأحدب، يلتف بمعطف أسود ذي ياقة من الفرو، ويستند إلى عكاز قبضته من العاج.

وبيده التي لا تستند إلى قبضة العكاز، كان يحمل قبعته المرنة وقفازيه. كل ذلك كان يجعله يبدو أشبه بدمية سلكية لا تخلو مما يثير الضحك. قطع عليه مجيء الراهبة هذه التأملات المحزنة. قالت له: يمكنك الآن أن تأتي.

كانت ديلفينا قد شاخت كثيراً أيضاً؛ وقد هزلت فضلاً عن ذلك، بصورة تبعث على القلق: لقد استعادت نحولها الطبيعي الذي كانت عليه؛ وما كان يمكن لأحد أن يتعرف فيها الآن على الممثلة الشهيرة التي بهرت العالم، وهو وحده من يستطيع الآن أن يتعرف في تلك الرمة، على الفتاة الفظة التي عرفها في زمن آخر. كانت ترتدي رداء من الصوف السميك فوق قميص نوم من الفانيلا، وجرابين صوفيين أيضاً، وخفاً مبطناً بفرو أرنب. وقالت لها الراهبة: انظري من جاء يزورك يا سيدة ديلفينا. فلم تُبدِ أي تأثر بهذا الكلام أو بوجود أونوفري؛ كانت تنظر إلى نقطة بعيدة، فيما وراء جدران الممر: فأحدث ذلك صمتاً بدا له مزعجاً. اقترحت عليهما الراهبة أن يتمشيا قليلاً بمفردهما قائلة: الجو بارد اليوم، ولكن الشمس لا بأس بها؛ اخرجا إلى الحديقة: فالمشي مفيد لكليكما. لا بد أنه لا يمكن لأي ممثلة سينمائية أن تكون، في نظر الراهبة، أفضل كثيراً من عاهرة، إن لم تكن مثلها تماماً؛ وإذا كانت قد سمحت لهما بالخروج منفردين فلأن عجزهما أضفى عليهما براءة متجددة، هذا ما فكر به أونوفري وهو يقود ديلفينا عبر الممر في طريقهما إلى الحديقة. وكانت هذه العملية شاقة وطويلة جداً: فهي تمشي بصعوبة شديدة وبأقصى ما يمكن من بطء؛ فكل حركة تقوم بها تبدو وكأنها حصيلة حسابات شديدة التعقيد، وقرار متزن لا يخلو من المجازفة. وكانت تبدو كما لو أنها تقول مع كل حركة: ها قد قمت بنصف خطوة، حسن، وسأقوم بالنصف الآخر. وبسبب هذا التأني، كانت الحديقة، وهي غير كبيرة، تبدو هائلة الاتساع. وكان أونوفري يفكر: ولماذا تسرع في المشي، مادامت لن تتخطى جدار الحديقة أبداً؟ كان هو من يشعر بالضيق من ذلك البطء الذي يستثير الحفيظة.

– سنكون هنا على ما يرام – قال لها بعد أن جلسا على مقعد حجري؛ وصارت الحاجة إلى فتح حديث تبدو ملحة الآن. كانت الأشجار قد فقدت أوراقها وبدأت تنمو إلى جوار سور المصح بعض البقع الطحلبية. سألها كيف

حالها، هل يؤلمها شيء؟ وهل يعاملونها معاملة حسنة في المصح؟ وهل تحتاج إلى شيء يستطيع أن يوفره لها؟ ولم تجب بشيء، بل واصلت النظر إلى الأمام وعلى وجهها ملامح عدم المبالاة نفسها؛ وكان يبدو عليها أنها لا تدرك أين هي أو مع من. أثقل ذلك الصمت على أونوفري أكثر مما كان يمكن له أن يتصور. فقال بصوت خافت: كم من الأمور جرت، ومع ذلك لم يتغير شيء؛ فكلانا ما زلنا نفسينا. ألا ترين ذلك؟ التبدل الوحيد هو أن الحياة قد أفسدت الآن بعضاً مما كنا عليه. حطّ عصفور أسود على الحصى في الحديقة، وبقي هناك هنيهة، ثم انطلق في طيرانه من جديد. وواصل أونوفري الكلام بعد ذهاب العصفور: أتتذكرين الوقت الذي تعارفنا فيه يا ديلفينا؟ لست أعني اللحظة التي تعارفنا فيها، وإنما تلك الفترة. كان ذلك سنة 1887، في قرن آخر، ولم يكن هنالك شيء: كانت برشلونة مجرد قرية، لم يكن هناك نور كهربائي، ولا ترام، ولا هاتف؛ وكان ذلك هو زمن المعرض الدولي. هل تعلمين أن هناك حديثاً يدور الآن عن إقامة معرض آخر؟ وربما كانت هذه هي الفرصة المناسبة للعودة إلى مغامراتنا، ما رأيك؟ آه، لقد كنت أشعر في ذلك الحين بأنني وحيد تماماً، وكنت خائفاً جداً؛ وأنا لم أتغير من هذه الناحية كما ترين. ولكنني كنت أشعر آنذاك بأنك معي؛ لم تكن علاقتنا جيدة قط، ولكني كنت أعرف أنك موجودة، وكان ذلك يكفيني، مع أنني لم أكن أعي ذلك آنذاك. ولأنها ظلت ساكنة دون حراك، فقد خشي أن تكون قد تجمدت، بالرغم من أن الهواء كان دافئاً، وكانت الشمس تُبعد الرطوبة. وفكر: إنها تمثال جليدي، لقد كانت على الدوام تمثالاً من الجليد، باستثناء تلك الليلة التي ضممتها فيها بين ذراعي. أمسك بإحدى يديها ووجدها باردة، ولكنها غير متجمدة مثلما كان يخشى. فقال لها: ستبردين، خذي، ضعي هذا القفاز. ونزع قفازيه وألبسهما لديلفينا التي لم تساعده في ذلك ولم تقاومه. وفوجئ حين وجد أن القفازين يناسبانها تماماً: فتذكر عند ذلك بأن يديها كانتا كبيرتين دوماً. وفكر: بهاتين اليدين تشبثت بكتفي بيأس. ثم قال بصوت عال: يمكنك الاحتفاظ بالقفازين، فأنت ترين أنهما يناسبانك تماماً. وعندما رفع رأسه رأى الرجال الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق قبل قليل، يطلون الآن من نافذة القاعة؛ ومن هناك كانوا يراقبون الثنائي الذي على المقعد، دون أي

تكتم، بل بشيء من التركيز والجدية. ومع أنهم كانوا بعيدين، ومجرد ثلاثة مرضى، فقد أفلت أونوفري يد ديلفينا التي كانت بين يديه. فضمت يدها هذه إلى الأخرى ووضعتهما على ركبتيها. وواصل كلامه: لم تعد ثمة جدوى مع ذلك من التفكير في هذه الأمور. وإذا كنت أتحدث عنها، فلأنني كنت على شفا الموت، ولأني أشعر بالخوف. ولا يضيرني أن أخبرك أنت بذلك: لأنني كنت أعرف على الدوام أنك الشخص الوحيد الذي استطاع أن يفهمني. وكنت تتفهمين دائماً سبب أعمالي. أما الآخرون فلا يفهمونني، حتى ولا أولئك الذين يكرهونني. فهؤلاء لديهم أيديولوجيتهم وامتيازاتهم: وبهذين الأمرين يفسرون كل شيء؛ وبفضل ذلك يبررون كل شيء، سواء النجاح أو الإخفاق؛ وأنا حالة شاذة ضمن النظام، ونقطة التقاء طارئة ونادرة لأشياء كثيرة لا يمكن تحديد وزنها. ليست أعمالي هي التي يلومونني عليها، وليس طموحي أو الوسائل التي استخدمتها لإشباعه، وللتسلق والثراء: فهذا هو ما نريده جميعنا؛ وكان يمكن لهم هم أن يتصرفوا بالطريقة نفسها لو أن الحاجة دفعتهم إلى ذلك، أو لو لم يصرفهم الخوف عنه. والحقيقة هي أنني أنا الذي خسرت. فقد كنت أعتقد أنني بكوني شريراً سأمسك العالم بين يدي، ولكنني كنت مخطئاً: فالعالم أسوأ مني.

في وقت متقدم من فصل الربيع تلقى رسالة؛ تحمل توقيع راهبة، ربما كانت هي نفسها التي استقبلته يوم ذهب إلى المصح. وفي هذه الرسالة تخبره الراهبة بوفاة ديلفينا؛ ***لقد فاجأها الموت وهي نائمة***. هذا ما تقوله الرسالة. وهم يخبرونه الآن بهذا النبأ المحزن بالرغم من معرفتهم بأنه ليس من ذويها، وإنما ***نظراً إلى العلاقة الوجدانية الخاصة التي كانت تربطه بالمرحومة***. وبالرغم من أن ديلفينا لم تستعد النطق أو الوعي، منذ اليوم الذي ذهب فيه لزيارتها، إلا أنه ليس من المبالغة التأكيد، كما تقول الرسالة، أنها ***ماتت واسمك على شفتيها***. وقد عُثر في حجرة المتوفاة على أوراق مخطوطة، يحتمل أن تكون موجهة إليه، وتنتهي الرسالة إلى القول إن تلك الأوراق ومعها ***كتابات أخرى ذات مضمون حميم ومُحرج قدرنا أنه من المناسب إتلافها***. أما رسالة ديلفينا فتقول ما يلي: ***الواقع الذي يحيط بنا ليس سوى ستارة ملونة،***

وفي الجانب الآخر من هذه الستارة لا توجد حياة أخرى، وإنما هي الحياة نفسها، فليس الغيب إلا ذلك الجانب الآخر من الستارة، وعندما ندقق النظر في الستارة، لا نرى الجانب الآخر، الذي هو الشيء نفسه، وعندما ندرك أن الواقع ليس سوى ظاهرة بصرية فإننا نتمكن من اجتياز هذه الستارة الملونة، وحين نجتاز هذه الستارة الملونة، نجد أنفسنا في عالم آخر مماثل لهذا، وفي ذلك العالم يوجد كذلك من ماتوا ومن لم يولدوا بعد، ولكننا لا نراهم الآن لأنهم مفصولون عنا بالستارة الملونة التي نخلط بينها وبين الواقع، وما ان يتم اجتياز الستارة في أحد الاتجاهات، حتى يصبح من السهل جداً اجتيازها دوماً في هذا الاتجاه نفسه وفي الاتجاه المعاكس أيضاً، ويصير بالإمكان العيش في الوقت نفسه في هذا الجانب وفي الجانب الآخر ليس في الوقت نفسه، واللحظة المعلومة لاجتياز الستارة الملونة هي ساعة الغسق نحو ذاك الجانب، وساعة الفجر نحو هذا الجانب، وهكذا يمكن الحصول على المفعول كله بصورة أفضل، أما ما تبقى فلا نفع منه، لا نفع من الابتهالات أو من الدفع، ففي الجانب الآخر من الستارة الملونة لا وجود للتقسيم المضحك للمادة إلى ثلاثة أبعاد، فكل بُعد في هذا الجانب فيه جزء مضحك أمام نظرنا، ومن هم في الجانب الآخر من الستارة يعرفون ذلك ويضحكون، ومن لم يولدوا بعد يظنون أن الأموات هم آباؤهم. ثم يصبح الخط في الرسالة غير مقروء.

الفصل السابع

- 1 -

دون أن تكون كبيرة مثل **كولينام** أو مثل **الإكسيلسيور**، ودون أن تتمتع بشهرة **كوي-إي-نُور** (التي يرد ذكرها في المهابهاراتا) أو بشهرة **الموغول الأكبر** (التي يملكها شاه إيران) أو مثل **أورلوف** (التي تزين الصولجان الروسي)، كانت الماسة المسماة **الريجنت** تعدّ الأكثر كمالاً. إنها تنحدر من مناجم غولكوندا الهندية الأسطورية، وكانت ملكاً لدوق أورليانز الذي اضطر إلى رهنها في برلين أثناء الثورة الفرنسية. وعند استعادتها ممن رُهنت لديه، رُصع بها مقبض سيف نابليون بونابرت. وكان أونوفري بوفيلا يضعها في راحة يده في الليلة التي جاء فيها سنتياغو بيلتال لمقابلته؛ كان يستعين بعدسة مكبرة ليتمعن بإعجاب بنقائها وتألقها. فحين اضطرته الدكتاتورية إلى الانسحاب من الحياة العملية الفاعلة، قرر توظيف ثروته: الأموال التي حوّلها له إفرين كاسيلس إلى سويسرا، في سوق الماس العالمي؛ وراح عملاؤه يتوغلون الآن في جبال ديكان الهندية وفي غابات جزيرة بورنيو الإندونيسية، ويتسكعون في حانات ومواخير مناجم جيرايس البرازيلية وكيمبرلي الجنوب أفريقية. وأخذ يتحول من جديد، ودون قصد منه، إلى أحد أغنى أغنياء العالم. لقد صار بإمكانه الآن أن يطيح بحكم بريمو دي ريفيرا بكل سهولة، وأن يثأر للإهانة التي ألحقها به الدكتاتور، ولكنه لم يكن يشعر بأي رغبة في عمل ذلك: فقد كان ينظر إلى السياسة بازدراء على الدوام، ويعتبرها شبكة معقدة من التحالفات التي لا يرى ضرورة للدخول فيها. والواقع أن عدم المبالاة قد سيطر عليه. وكان يفكر وهو ينظر إلى الماسة: لم يعد مرور الزمن يحمل إليّ سوى أفكار الموت: فقد تلا موت ديلفينا سنة 1925، وفاة حميه دون هومبرت فيغا إي موريرا في مطلع سنة 1927، ثم تبعه موت أخيه جوان في ظروف غامضة، في أواخر تلك السنة نفسها. وكانت كل ميتة من هذه الميتات تبدو له نذير شؤم. كما أنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى النضال ضد دكتاتورية

آخذة بالانهيار من تلقاء نفسها. فقد اتخذ بريمو دي ريفيرا من موسوليني قدوة له، وشكل حزباً وحيداً أطلق عليه اسم **الاتحاد الوطني**؛ وكان يظن عندما أسسه أن شخصيات من مختلف الاتجاهات ستنضم إلى صفوفه، وأنه سيتمكن في أحضان هذا الحزب من تحقيق المصالحة بين صفوة البلاد وقشدتها؛ ولكنه لم يستطع أن يجتذب إليه سوى علق النظام القديم وحفنة من الشباب الوصوليين؛ وانتهى الأمر بالجيش إلى التخلي عن الدكتاتور الذي كان قد هتف له قبل سنوات قليلة، وحتى الملك نفسه كان يبحث بلهفة عن طريقة لإزاحته من الطريق. وراحت المؤامرات تتوالى ضده داخل إسبانيا وخارجها؛ فكان يرد عليها بزج الناس في السجون ونفيهم، ولكنه لم يكن دموياً ولم يشأ أن يقتل أحداً. وكان عجز المعارضة، والرقابة الحديدية التي فرضها، والفساد الإداري، والخوف الشعبي المبرر من أي تغيير، هي وحدها العوامل التي تُبقيه في السلطة التي يتشبث بها كمجنون: لم يكن يدرك أنه مدين بهذه السلطة إلى التوافق العابر بين طبيعته الخاصة ونقطة التحول القصوى في بندول التاريخ. لم يكن يحكم بصورة سيئة: فقد نشّط خلال وقت قصير المشروعات العامة؛ فخفف بذلك من البطالة الواسعة، وحدّث البلاد. لقد كان جيداً للشعب. وكان سجل أعماله الإيجابي يزيد من صعوبة تفهمه العزلة التي يجد نفسه غارقاً فيها الآن. وعندما رأى أنه فقد تأييد العرش أيضاً، أراد الحصول على دعم أونوفري بوفيلا: وبوساطة من مركيز أوت الذي كان لا يزال موالياً له، حاول القيام بمناورة للتقرب منه، ولكن بعد فوات الأوان.

كان سنتياغو بيلتال، الذي سيظل اسمه مرتبطاً باسم أونوفري بوفيلا إلى الأبد، في الثالثة والأربعين من عمره في الليلة التي ذهب فيها لمقابلته. وبالرغم من أن ملابسه كانت رديئة جداً، إلا أنه ذهب نظيفاً، فقد استحم وحلق ذقنه في ذلك اليوم بالذات، وقص له أحدهم شعره بطريقة توحي بطيب النية أكثر مما توحي بالإتقان والخبرة. فكان هذا التزوق يزيد من إبراز مظهره كمقترض؛ وكانت عيناه الغاضبتان وحدهما في وجهه المنهوك تنقذانه من أن يكون مُضحكاً. وعندما أخبره القهرمان أن السيد لا يستقبل أحداً ما لم يكن هو نفسه قد أرسل له دعوة للحضور، أخرج من جيبه بطاقة

مصفرة ومجعدة عرضها على القهرمان قائلاً: لقد أعطاني إياها السيد بوفيلا شخصياً، وأظن أنها بمثابة دعوة نظامية. تفحص القهرمان البطاقة بارتباك، ثم سأله: متى أعطاك السيد هذه البطاقة؟ فقال سنتياغو بيلتال بهدوء: منذ أربعة عشر عاماً. فعلق القهرمان: إذا كانت دعوة، فلا بد أنك تمنعت طويلاً في تلبيتها. ثم سأله ثانية: ما هو اسمك الذي قلته لي؟ فأخبره سنتياغو باسمه، وأضاف: مع أنني لا أظن أنه ما زال يتذكرني. فوضع القهرمان يده على جبينه متردداً؛ وأخيراً قرر أن يخبر السيد بحضور هذا الشخص الذي يبدو غير مرغوب فيه من مظهره: فعلى الرغم من كل خشيته من أن يزعج السيد، إلا أنه يعرف جيداً ميله إلى الأشخاص الغريبين. وقد تأكدت توقعاته في هذه الحالة، إذ قال له أونوفري بوفيلا: أدخله. ومع أن الليلة كانت دافئة، فقد كانت بعض جذوع الحطب تشتعل في مدفأة المكتبة وأحس سنتياغو بيلتال أن الحر يخنقه.

– لا أظن أنك تتذكرني – كرر القول فور دخوله. وكان في نبرة صوته شيء من المداهنة، فبدا كما لو أنه أراد القول بكلماته وموقفه: لا يمكن لرجل بمثل أهميتك أن يتذكر شخصاً تافهاً مثلي. فابتسم أونوفري بوفيلا بازدراء وقال: لو أن ذاكرتي ضعيفة إلى الحد الذي تظنه أنت وحمقى آخرون، لما كنتُ ما أنا عليه. وحين قال ذلك رفع قبضته اليمنى. وللحظة، خشي سنتياغو بيلتال من أن يوجه إليه لكمة، ولكن الحركة لم تكن تنم عن التهديد. وعاد إلى الكلام لكي يبرر شكوكه: لقد مضى على تعارفنا أربعة عشر عاماً.

– ليس أربعة عشر – قال بوفيلا – بل خمسة عشر عاماً. في سنة ألف وتسعمئة واثنتي عشرة، في مدينة باسورا، واسمك سنتياغو بيلتال، وأنت مخترع، ولك ابنة تدعى ماريا، وهي طفلة عنيدة. ما الذي جئت تبيعني إياه؟

أصاب البكم سنتياغو بيلتال: فبهذا الجفاء قطع عليه محدثه الطريق لما سيقوله، وجعل خطبته التي أعدها وتدرب عليها لساعات على انفراد، خالية من أي معنى. فاحمر وجهه رغماً عنه. وتمتم كما لو أنه يقول ذلك لنفسه، وليس لكي يُسمع: أرى أنني ارتكبت خطأ بمجيئي. المعذرة. وحوّلت ابتسامة أونوفري بوفيلا الساخرة ارتباكه إلى غضب: فنهض عن مقعده بسرعة واتجه نحو الباب قائلاً بصوت عالٍ: أنت الذي ستخسر.

– وما هو هذا الذي سأخسره؟ – سأله أونوفري بوفيلا بهدوء متهكم.
فعاد المخترع أدراجه وواجه المتمول المتنفذ: صار حديثهما الآن حديث الند للند. وقال: إنها أعجوبة حقيقية. ففتح أونوفري بوفيلا قبضته التي أبقاها مطبقة حتى تلك اللحظة. وتعلقت عينا المخترع بسطوح ماسة «**الريجنت**» التي كان ألقها يُرقِّط رداء الحرير الدمشقي الذي يرتديه أونوفري، وقال هذا الأخير بصوت هامس: أي أعجوبة يمكن أن تقارن بهذه؟
– الطيران – ردّ عليه المخترع في الحال.

كان الطيران في العقد الثاني من القرن العشرين قد بلغ، دون جدال، ما سمّته الصحافة آنذاك سن الرشد. لم يكن هناك من يخامره الشك بتفوق تلك الأجهزة الأثقل من الهواء، على أي شكل آخر من أشكال النقل الجوي. ولم يكن يمر يوم كذلك دون حدوث مأثرة جديدة تعزز التقدم في هذا المجال. وكانت هناك مع ذلك بعض المشكلات التي تحتاج إلى حلول. أصغر تلك المشكلات وأقلها أهمية، مهما بدا ذلك غريباً في أيامنا هذه، هي أمن الرحلات الجوية: فالحوادث كانت قليلة، وعدد محدود جداً منها كان خطراً أو مميتاً؛ أضف إلى ذلك أنه لم يكن بالإمكان نسبة قدر كبير من تلك الحوادث إلى أسباب ميكانيكية بالتحديد، وإنما بصورة عامة إلى مساعي الطيارين الصبيانية لإثبات استقرار الطائرات وتوازنها، وإظهار مهارتهم في الطيران ورؤوسهم إلى أسفل، أو رسمهم أشكالاً دائرية أو حلزونية، وقيامهم بالشقلبات والحركات المتعرجة والمتقلبة في الفضاء. وكانت سرعة استجابة الحواس والشروط الرياضية التي يجب أن يتحلى بها الطيارون في تلك المرحلة البدائية من تاريخ الطيران، تتطلب بالضرورة أن يكونوا في مطلع الشباب (سن الخامسة عشرة كانت تعدّ السن المثالية للبدء بالتحليق التجريبي) مما يوضح بعض قلة الوعي لديهم. وهكذا، يمكن لنا أن نقرأ في صحيفة برشلونية تعود إلى سنة 1925 ما يلي: ***وإن أولئك الذين تلقّبهم بعض صحف الإثارة في باريس ولندن «أبطال الطيران»، يتحدّون بعضهم بعضاً في تنفيذ ذلك النوع من الأعمال: المرور بالطائرات، في طيران منخفض، من تحت جسور نهري السين والتايمز على التوالي، مع ما يتبع ذلك من رعب***

وملامسة للماء. وبما أنه لا يوجد نهر في برشلونة، ولا وجود بالتالي للجسور، فقد عمد طيارونا، بالرغم من منع بلدية المدينة الصريح، إلى اختراع لعبة مماثلة لتلك المذكورة أعلاه، بل أكثر خطورة منها: وذلك بجعل جناحي الطائرة يشكلان خطاً عمودياً مع الأرض، والمرور بها هكذا، كمن يُدخل الخيط في ثقب إبرة، بين أبراج كنيسة «العائلة المقدسة». ويواصل التحقيق الصحفي القول إنه يظهر عادة في هذه المناسبات، في أعلى تلك الأبراج، رجل مسن ذو جسم نحيل وملابس مهملة، يلوح بقبضته وكأنه يحاول بسذاجة أن يُسقط الطائرة المتمادية بلكمة من قبضته، موجهاً في الوقت نفسه الشتائم إلى الطيار. بطل هذا المشهد الغريب (الذي سيوحي بعد سنوات بمشهد مماثل، صار اليوم كلاسيكياً، في فيلم كينغ كونغ) لم يكن سوى أنطوني غاودي إي كورنيت[1]، وهو آنذاك في الأشهر الأخيرة من حياته، وقد كان في تلك المجابهة غير المتكافئة شيء من الرمزية: فالاتجاه المعماري الحداثي الذي كان يمثله في كتالونيا ذلك المهندس المعماري الشهير، تلته آنذاك حركة ذات ملامح مختلفة جذرياً سُميت «النوثينتيسمو»؛ وكانت الحركة الأولى تضع عينها على الماضي، وخاصة على القرون الوسطى؛ أما الثانية فتضع عينها على المستقبل؛ فكانت الأولى مثالية وورمانسية، بينما الثانية مادية وارتيابية. وكان أنصار حركة «النوثينتيسمو» يسخرون من غودي وأعماله المعمارية، ويتهكمون منها في رسوم كاريكاتورية ومقالات لاذعة. وكان العبقري العجوز يتألم، ولكن ليس بصمت؛ ومع مرور السنين، صار شخصيته نزقة ومهزوزة: وكان يعيش آنذاك وحيداً في قبو كنيسة «العائلة المقدسة» الذي تحول بصورة مؤقتة إلى ورشة له، حيث كانت تحيط به تماثيل ضخمة، ونقوش وزينات حجرية لم يكن ممكناً وضعها في أماكنها المخصصة في المدينة بسبب الافتقار إلى الأرصدة المالية اللازمة. وكان ينام هناك دون أن يخلع ملابسه، التي تتحول بعد ذلك إلى أسمال بالية؛ ويتنفس ذلك الهواء

---

[1] Antoni Gaudí i Cornet: (1852-1926) مهندس معماري اسباني، صاحب أسلوب جريء يبرز فيه الفخامة والزخارف المهيبة، من أبرز أعماله كنيسة «العائلة المقدسة» في برشلونة التي لم تكتمل.

المشبع بالإسمنت والجص. كان يمارس في الصباح التمارين الرياضية السويدية؛ ثم يستمع إلى القداس ويتناول خبز القربان، وبعد ذلك يتناول فطوره المؤلف من حفنة من البندق، وحزمة من البرسيم أو بعض الثمار العنبية، ثم يستغرق في ذلك العمل المخالف للزمن والمستحيل. وعندما يرى أن هناك من هو آت لزيارة الكنيسة، أو يرى جماعة من الفضوليين، يقفز عن السقالة برشاقة لا تتناسب مع سنه، ويهرع لاستقباله وقبعته في يده: كان يطلب صدقة كمتسول لكي يستطيع متابعة عمله ولو لبضعة أيام أخرى. وفي هذا الحلم كان يحرق أيامه الأخيرة. ومن أجل الحصول على بيزتا واحدة، كان يقذف في الهواء إحدى حبات البندق التي تشكل غذاءه الأساسي، ويلتقطها بفمه، قافزاً قفزة عجيبة إلى الوراء، بظهر مقوس وركبتين منثنيتين. كانت ملامح وجهه تتبدل، ويصير حماسه معدياً. وكانوا يضطرون أحياناً إلى إخراجه من بركة من الطين البارد. ولم يكن يخفي يأسه في مجالسه الخاصة، بين أصدقائه، فيقول لهم: إنني في حالة حرب مع التقدم، وأخشى كثيراً من أنني سأكون المهزوم. وقد صدمه أخيراً ترام كهربائي عند تقاطع شارع بيلين مع جادة غران بيّا. ومات نتيجة هذا الحادث العبثي في مستشفى سانتا كروث. إحدى المشكلات الأخرى التي كانت تشغل بال مهندسي الطيران هي التي عُرفت فيما بعد باسم استقلالية الطيران، فكانوا يقولون: ما جدوى الطيران، إذا كان من يطير لا يستطيع الوصول إلى أي مكان؟ ومن أجل حل هذه المشكلة، زُودت الطائرات بخزانات وقود كبيرة كان وزنها يثقل الطائرات ويمنعها من الإقلاع؛ وقد عولجت هذه المشكلة بدورها، بتخفيف وزن هيكل الطائرة: وأخيراً صار الطيارون يطيرون جالسين، بكل معنى الكلمة، على خزانات مواد سريعة الاشتعال. فلم يعودوا يخشون الآن من الصدمات التي قد تصيب رؤوسهم أو من الكسور، وإنما من الحروق المؤلمة التي لا يمكن إخفاء آثارها. وكانت نوعية الوقود أيضاً تتحسن بخطوات جبارة: فقد صار يتم تكرير البنزين وتُصنع خلائط تزيد مردوديته. ولم تكن هذه التجارب عقيمة: ففي السابع والعشرين من أيار (مايو) سنة 1927، قام طيار أمريكي يدعى شارل ليندبيرغ بالطيران، وحيداً ودون توقف، من نيويورك إلى باريس. وكانت الإمكانات التي تتيحها هذه المأثرة بلا حدود.

وبعد وقت قصير، في التاسع من أيار (مايو) سنة 1928، خرجت امرأة هي الليدي بيلي من كرويدون في إنكلترا، وراء مقود طائرة صغيرة من طراز هافيلاند موث مزودة بمحرك قوته مئة حصان؛ ومرت بباريس، ونابولي، ومالطة، والقاهرة، والخرطوم، وتابورا، وليفنكستون، وبلويمفونتين، ووصلت إلى مدينة الكاب في الثلاثين من نيسان (أبريل)؛ فاستراحت هناك عدة أيام، وفي الثاني عشر من أيار (مايو) بدأت رحلة العودة، وبعد أن مرت بـ باندوندو، ونيامي، وغاو، وداكار، والدار البيضاء، ومالغا، وبرشلونة، ثم باريس مرة ثانية، حطت بطائرتها في العاشر من كانون الثاني (يناير) سنة 1929 في كرويدون التي كانت قد انطلقت منها قبل عشرة أشهر. ولم تبق صناعة الطائرات في إسبانيا في المؤخرة: ذلك أن الحرب في مراكش دفعت تطورها، كما فعلت **الحرب الكبرى** بصناعة الطيران من قبل في البلدان المتحاربة. ففي سنة 1926 قطع فرانكو، ورويث دي ألديا، ودوران، ورادا على متن طائرة **البلوس أولترا**، المسافة من بالوس دي موغير إلى بوينس ايرس، بين 22 كانون الثاني (يناير) و10 شباط (فبراير)؛ وفي تلك السنة نفسها طار كل من لوريغا وغايّارثا من مدريد إلى مانيلا في طائرة سيسكيبلانو بين الخامس من نيسان (أبريل) والثالث عشر من أيار (مايو). وكانت دورية **الأتلانتيدا** بقيادة يورنتي تقوم في أثناء ذلك برحلة الذهاب والعودة من مليلة إلى غينيا الإسبانية خلال خمسة عشر يوماً، من العاشر من كانون الأول (ديسمبر) حتى الخامس والعشرين من الشهر نفسه. وكل رحلة كانت خطوة جبارة نحو غد زاخر بالوعود، ولكن كانت تبرز مع كل خطوة أيضاً، مشكلات جديدة: فالبوصلات تصاب بالجنون عند الانتقال المفاجئ من أحد نصفي الكرة الأرضية إلى النصف الآخر، ورسم الخرائط التقليدي لم يعد يتناسب مع احتياجات الملاحة الجوية؛ وكان لا بد من التحسين المتواصل لأجهزة قياس الارتفاع، والضغط الجوي، وسرعة الرياح، واتجاه الإشعاعات، وغيرها؛ ولم تكن الضرورة تتطلب تكييف الأجهزة وحسب، وإنما كذلك الألبسة والتغذية وأشياء كثيرة أخرى لتتلاءم مع الظروف الجديدة. وصار لا بد كذلك من التنبؤ بدقة بالتغيرات الجوية: إذ يمكن لعاصفة أو زوبعة غبار أن تكون وخيمة العواقب على الطائرات وملاحيها. فلو تعرض قطار أو سيارة بصورة

مفاجئة لمثل تلك العوامل الجوية، فإنه يستطيع التوقف، كما يمكن للسفينة أن تصارع الأنواء، أما الطائرة المحلقة في الجو، على بُعد مئات الفراسخ من أقرب مطار، وبكمية محدودة من الوقود، فما الذي يمكنها أن تفعله في حالات طارئة من هذا النوع؟ وما الذي يمكن أن يحدث أيضاً إذا ما تعطل المحرك بينما الطائرة في منتصف طريقها؟ وراح العلماء يعصرون أدمغتهم في مواجهة ما هو غير قابل للوزن. فكانوا يدرسون باهتمام متجدد تشريح بعض الحشرات الطيارة، التي يحسدونها على مهارتها في النزول دون مصاعب على السطح الدقيق جداً لمئبر زهرة: أما الطائرة بالمقابل، فتحتاج إلى سطح متطاول وأفقي ومستو لكي تتمكن من الهبوط دون أن تتحطم. والسبب في ذلك أن هبوط الطائرة لا يمكن أن يتم بسرعة تقل عن مئة كيلومتر في الساعة: فقد كان آلية انتقال الحركة في الطائرة مستقلة تماماً عن آلية التوازن فيها.

انتهى أونوفري بوفيلا من الاستماع وهو ساه، لشروحات المخترع؛ وبعد ذلك ضغط على الجرس. وعندما حضر القهرمان إلى المكتبة، طلب منه أن يضيف بعض قطع الحطب إلى تلك التي تشتعل في المدفأة. وراح يتابع حركات القهرمان بالشرود نفسه.

– أرى أن اقتراحي لم يقنعك تماماً – قال ذلك سنتياغو بيلتال عندما غادر القهرمان وتركهما وحدهما. وبدا كما لو أن هذا التعليق العادي قد أخرج أونوفري بوفيلا فجأة من تأملاته. نظر إلى المخترع وكأنه يراه آنذاك أول مرة.

– إنه بكل بساطة لا يهمني – قال بفتور؛ كانت مناجاته الداخلية قد أخذته بعيداً؛ ولم يعد يرغب الآن إلا بالتخلص من حضور المخترع. ولكنه أضاف عندما قرأ القلق في وجه الآخر، إذ ان انتباهه الظاهري في البداية جعل المخترع يمني نفسه بآمال زائفة:– لستُ أعني أن الفكرة ليست مشوقة. ثم أضاف بصورة آلية: بل يمكن أن أعمد أنا نفسي في المستقبل... ولم يكلف نفسه عناء إكمال جملته.

تلقى خلال الأسابيع التي تلت هذه المقابلة، في عدة مناسبات، أخباراً

عن سنتياغو بيلتال. فقد عرض المخترع مشروعه على أشخاص آخرين؛ كما تردد على بعض المؤسسات والهيئات الحكومية. ولم يحصل في أي مكان إلا على كلمات التشجيع والوعود الغائمة، كالقول: سندرس الموضوع بالاهتمام الذي هو جدير به دون شك. وعرف من خلال رجاله بأن أسرة بيلتال، أي الأب وابنته، يعيشان في غرفة مستأجرة من بيت مُستأجر في شارع سيبولبيدا. وكان يقال في الجوار إنهما ليسا بكامل قواهما العقلية، ولا ينفعان في شيء، ولا يملكان ريالاً واحداً. ولأنه كان يعرف أن شيئاً سوف يحدث عاجلاً أو آجلاً، فقد قرر الانتظار. وأخيراً حمل إليه القهرمان خبر زيارة في مساء يوم مكفهر؛ وكان يُسمع صدى دوي الرعد في البعيد. وقال القهرمان بلهجة محايدة: إنها آنسة، وهي تقول إنها ترغب في التحدث إلى السيد على انفراد. ولم تحل تلك النبرة المحايدة دون القشعريرة التي جابت نخاعه الشوكي؛ فقال وهو يدير ظهره للباب، وكأنه يريد أن يخفي اضطرابه: أدخلها، واحرص على ألا يزعجني أحد. ثم أضاف بينما القهرمان ينصرف لينفذ تعليماته: انتظر، قل للسائق ألا ينام قبل أن أسمح له بذلك، وأن يجهز سيارة لاستخدامها إذا ما احتجت إليها في أي وقت. وحين أيقن القهرمان من أنه لن يتلقى أية أوامر أخرى، خرج من المكتبة وأغلق الباب وراءه، وتوجه نحو البهو. وهناك قال لها:

- تفضلي بمرافقتي، السيد سيستقبلك في الحال.

ولم تستطع هي أيضاً تجنب قشعريرة انتابتها. وفكرت وهي تتبع القهرمان: أعرف ما سيحدث، وأرجو من الله ألا يحدث ما هو أكثر من ذلك.

تعرف إليها في اللحظة نفسها التي رآها فيها تدخل إلى مكتبه، يسبقها القهرمان، وتذكرها بدقة مثيرة، كما لو أن السنوات التي كانت تفصل ذلك اللقاء الأول العابر عن هذا اللقاء قد انضغطت تلسكوبياً بفعل حضورها؛ وكما لو أنه لم تمر منذ ذلك الحين سوى بضع لحظات... اللحظات الضرورية لكي يشعر الآن بهذا الإحساس الاسترجاعي لغياب مؤلم، وفكر: إنه مجرد حلم قصير وخفيف، هذا هو ما تبدو عليه الآن حياتي بكاملها. وقالت هي: أنا ماريا بيلتال.

- أعرفُ جيداً من أنت - قال ذلك، ثم أضاف ليقاوم الصمت:- الجو

حار فـي هـذه الغرفة، فأنـا أستبقـي المدفـأة مشـتعلة طـوال الوقت؛ لقد كنـتُ مريضـاً منذ بضعـة شهور، وأجبرنـي الأطبـاء علـى الإفـراط بالعنايـة بنفســي. اجلسي وأخبريني ما هو سبب زيارتك.

اختارت هي كرسياً بعد تردد قصير: بما أنها ترتدي تنورة قصيرة جداً، فإن الوضع الذي ستضطر إلى اتخاذه لـو جلسـت على إحدى أرائك المكتبـة، سيكون متكلفاً، بل ومضحكاً. ففي ذلك الحين كان ذيل التنـورة قـد ارتفـع عـن مستوى سطح الحذاء سـنة 1916، ليتـابع صعـوده عـبر ربلـة السـاق بمثـابرة حلزون، حتى وصل إلى الركبتـين؛ وبقـي متوقفاً عند تلك المحطـة حتـى عقـد الستينيات. هذا التقصير فـي طـول التنـورة أثـار نوعـاً مـن الذعـر فـي أوسـاط الصناعة النسيجية، وهـي العمود الفقري لصناعة كتالونيـا. وقـد تبـين أن تلك المخـاوف لا تسـتند إلـى أسـاس: فـإذا صـارت الملابس تحتـاج الآن قماشـاً أقـل لصنعها، فـإن الخزائـن النسـائية قـد اتسـعت بصــورة مفرطـة نتيجـة لمشـاركة المـرأة المتزايدة فـي الحياة العامـة، والعمـل، والرياضـة، وغيرهـا. لقـد تغيـرت الأزياء من كل النواحي: حقائب اليد، القفازات، الأحذيـة، القبعـات، الجـوارب، وتسـريحة الشـعر. تضـاءل الـتزين بـالحلي والمجوهـرات، واسـتبعد اسـتخدام المـراوح اليدويـة مؤقتـاً. وعندمـا قـاطعت ماريـا سـاقيها واضعـة إحداهمـا علـى الأخـرى، لـم يسـتطع الامتنـاع عـن النظـر إلـى جوربيـها اللذيـن مـن الشـاش الشفاف، ولا عن التساؤل عن مغزى حركتها تلك.

– لا تظـن أننـي جئـت مقتفيـة خطـى أبـي – بـدأت ماريـا بيلتـال كلامـها – فأنا وهو لا نشكل ثنائياً منسجماً، أو لا ننفـع لدراجـة براكبـين، كمـا يقـال عـن الأشـخاص الذيـن هـم مثلنـا. أعـرفُ بكل بسـاطة أنـه جـاء لمقـابلتك، أتوقـع أنـه فعل ذلك ليعرض عليك اختراعه الأخير. وقد جئتُ فقط لكي أقـول لـك هـذا: إن أبي ليس محتالاً ولا مشعوذاً، ولا هو أبله مثلما يمكن لمظهره أن يوحي. إنه عالِم حقيقي فـي الواقـع، كوّن نفسه علمياً بصـورة ذاتيـة، ولكنـه تكويـن علمـي متين وصحيح، وهو عامل شريف ولا يكل، ورجل موهـوب. واختراعاتـه ليسـت أوهامـاً أو مبالغـات. وأنـا أعـرف أن قـول هـذا الكـلام هـو شـيء، وإثباتـه شـيء آخر؛ وأن ما أقوله لن يكون جديراً بثقتك لأنه آت مني، أنا ابنته. الواقـع أننـي هنا خلاف لكل منطق، وذلك بكل بساطة لأن أمورنا لا تسير على ما يرام؛ لـم

يسبق أن كانت حسنة قط، ولكن وضعنا في الفترة الأخيرة صار ميئوساً منه تقريباً. فلم نعد قادرين على دفع تكاليف السكن أو الطعام، ولا على تأمين عيشنا بكل بساطة. ولن أخفي عنك: لقد جئت إليك متوسلة. فقد تقدم أبي في السن، وليس هذا هو ما يقلقني في الواقع: فأنا أستطيع أن أعمل، وقد عملت أحياناً بالفعل؛ ويمكنني تأمين معيشتنا نحن الاثنين. ولكني أظن أن الوقت قد حان لكي تتاح له فرصة في حياته، وألا يضطر إلى مواجهة الشيخوخة وهو يشعر بأن حياته قد مضت هباء بلا جدوى. لا تنظر إلي دسخرية: فأنا أعرفُ جيداً أن هذا هو قدر الجميع؛ ولكن ألا تسمح لي بأن أثور باسم أبي؟ وبعد قولها هذا نهضت عن الكرسي، ومشت بضع خطوات قصيرة على السجادة. وكان هو يرى من أريكته جذوع الحطب تحترق في المدفأة، من خلال ساقيها. وأخيراً جلست وتابعت التكلم بنبرة أكثر هدوءاً:- لقد أتيت إليك لأني أعرف أنك الشخص الوحيد الذي يستطيع في هذا الوقت أن يُخرج أبي من الحفرة التي يتخبط فيها منذ زمن طويل. ولستُ أقول هذا تملقاً: وإنما ببساطة لأني أعرف أنك لا تتهرب من المجازفة؛ وما يثبت صحة ما أقول هو أنك أعطيته بنفسك بطاقتك قبل سنوات: فأنت لا تخاف من المجهول ولا من الجديد. منذ ذلك اليوم - واصلت الكلام وقد احمر وجهها قليلاً - وأنا أتذكر طوال الوقت لفتتك تلك. وأنا لا أطالبك بشيء في الواقع: لا أريد سوى أن تنعم النظر بقرارك. وألا ترفض مباشرة ما يمكن أن يكون والدي قد عرضه عليك: تناوله بعين الاعتبار، واعرضه على اختصاصي ليدرس المخططات؛ واستشر عدة خبراء في الموضوع، واطلب منهم المشورة والرأي، وليقولوا هم إذا ما كان الأمر يستحق العناء أم لا.

سكتت فجأة وظلت ساكنة، متيبسة، متهدجة الأنفاس. وكان سبب ذلك الاضطراب هو الجزء الذي يُحدثه تصورها لرد الفعل المحتمل من محدثها: كانت تخشى أن يطردها بخشونة، والأسوأ من ذلك هو أن يطلب منها، دون أي تمهيد، استسلاماً مُهيناً. الواقع أنها لم تكن تجهل الخطر الذي تنطوي عليه هذه الزيارة؛ وقد صممت على تحمل ذلك عن سابق إصرار. وما كان يخيفها هو الأسلوب الذي ستتم به الأمور. ومع أنها كانت مقتنعة منذ سنوات بأنه مقدر لها بحكم الظروف أن تصل إلى هذه النهاية، فإنها لم تكن تدري

كيف ينبغي عليها أن تتصرف عندما يحين الوقت، ولا بأي طريقة ستتدخل عواطفها في هذه الحالة. والحقيقة أنها كانت تجاهد لتبعد من ذهنها صورة لجوجة متسلطة: كانت أمها قد غادرت المنزل منذ زمن طويل، وهي لا تحتفظ منها بأي ذكرى. ومنذ ذلك الحين، كانت تلك الأم التي لا وجود لها، تمثل حضوراً دائماً في مخيلتها؛ وقد أمضت حياتها كلها برفقة شخص لا وجود له. ولكنه هو وحده من ينظر إليها الآن بثبات. وهي تذكر أنها رأت هذه النظرة حين كانت طفلة؛ وقد أحست في تلك المناسبة بالخجل من كل شيء: من جسدها الهزيل، ومن ملابسها الرثة، ومن الأوضاع المزرية التي تعيشها مع أبيها. ومع ذلك، فقد دققت آنذاك في تلك النظرة. وكان هو يفكر الآن: إنني أتذكر هاتين العينين العسليتين، وأرى الآن أنهما رماديتان.

- 2 -

تقول أسطورة حديثة العهد ما يلي: في السنوات الأولى من هذا القرن، اختطف الشيطان ذات يوم، متمولاً برشلونياً من مكتبه وحمله محلقاً به فوق جبل مونتجويك؛ ولأن السماء كانت صافية، فقد كانت برشلونة كلها تظهر من هناك، من الميناء إلى سلسلة جبال كويسيرولا، ومن البرات حتى البيسوس؛ ومعظم الـ 13989943 متراً مربعاً التي يضمها مخطط ثيردا كانت قد عُمِّرت: وصارت منطقة التوسع الآن تلامس أطراف القرى المجاورة (تلك القرى التي كان سكانها يتسلون في ما مضى برؤية البرشلونيين وهم يتحركون كالنمل في أزقة مدينتهم الصغيرة، محتجزين وراء الأسوار ومراقبين من هيكل القلعة المخيف) وكان دخان المصانع يشكل ستارة رقيقة كأنها التول يحركها النسيم: وعبر هذه الستارة، كان بالإمكان رؤية حقول ماريسمي ذات اللون الزمردي، والشواطئ الذهبية والبحر الأزرق الوديع، المنقط بزوارق الصيد. وبدأ الشيطان بالقول: هذا كله سأعطيك إياه إذا ما ركعت عند قدمي ... فلم يتركه المتمول يكمل كلامه: فهو معتاد على الصفقات التي يعقدها كل يوم في «اللونخا»، وقد بدت له هذه الصفقة رابحة جداً، ولم يتردد في إبرامها فوراً. ولا بد أن ذلك المتمول كان أخرق، حسير النظر أو أصم، لأنه لم يفهم جيداً

ما الذي يقدمه إليه الشيطان مقابل روحه؛ وظن أن موضوع المقايضة هو قمة الجبل التي يقفان عليها تحديداً، وما ان انتهت تلك الرؤيا أو فور استيقاظه من نومه، بدأ يفكر بكيفية الاستفادة من الجبل. فقد كان الجبل، وما يزال إلى الآن، وعر السفوح، ولكنه على العموم لطيف ووارف؛ تنمو فيه أشجار البرتقال والغار والياسمين؛ وعندما لا تقذف القلعة المريعة المشؤومة التي تتوج قمته، النار والرصاص والقنابل على المدينة، لسبب أو لآخر، كان البرشلونيون يذهبون جماعات إلى الجبل: فتتناول أسر العمال، والخادمات، والجنود وجبات برية عند ينابيعه. ولكثرة ما فكر ذلك المتمول، خطرت له أخيراً فكرة اعتبرها عبقرية، وقال لنفسه: فلنُقم في مونتجويك معرضاً دولياً. ثم قال: معرض دولي يحقق نجاحاً كبيراً ويأتي بفوائد كثيرة مثل معرض 1888. وكانت في ذلك الحين قد تمت، بالتضحيات، تغطية العجز الذي سببه ذلك المعرض، ولم تعد المدينة تتذكر سوى الألق والاحتفالات. وقد احتضن العمدة المبادرة بحماسة لا تخلو من الحسد. فقد كان يفكر بينما المتمول يعرض عليه خطته: يا للعنة، يا لها من فكرة رائعة، لماذا لم تخطر لي أنا أولاً؟ وتم إقرار معونة مالية للمشروع فوراً. أُغلق جبل مونتجويك في وجه الجمهور؛ وقُطعت الغابات، وحُوّلت الينابيع إلى قنوات، أو سُدّت بالديناميت؛ وجرت تسوية بعض المنحدرات، ووضعت أسس المباني التي ستصبح سرايات المعرض وأجنحته. وسرعان ما بدأت المصاعب، كما في المرة السابقة: فاندلاع الحرب الكبرى أولاً، وتحفظات حكومة مدريد الدائمة، شلّت العمَل. وعندما كان المتمول مشرفاً على الموت، تمكن من استرداد روحه من براثن الرجيم بشفاعة القديس أنطونيو ماريا كلاريت، أما المعرض فلم يستعد الحياة. وكان لا بد من انقضاء عشرين سنة قبل أن تأتي سياسة الجنرال بريمو دي ريفيرا في رعاية الأشغال العامة لتنفخ نفساً جديداً في تلك الفكرة. ليس جبل مونتجويك وحده الآن، وإنما المدينة بأسرها، ستكون مسرحاً لمشروعاته الجبارة: مبان كثيرة قُوضت، وأحجار تبليط الشوارع انتزعت لكي تمر من هناك سكك المترو. وصار منظر برشلونة يُذكّر بخنادق تلك الحرب الكبرى التي أدت من قبل إلى إلغاء المعرض. كان يعمل في ورش المعرض آلاف مؤلفة من العمال: عمال مياومون وبناؤون قادمون من كل أنحاء

شبه الجزيرة الإيبيرية، ولاسيما من الجنوب. كانوا يأتون في قطارات مزدحمة إلى أرصفة «محطة فرنسا» التي كان قد جرى توسيعها حديثاً. وكالعادة، لم يكن بإمكان المدينة استيعاب هذا السيل العارم. فكان المهاجرون يقيمون في أكواخ، لعدم توفر البيوت. وكان يطلق على تلك الأكواخ اسم «برّاكات». وكانت أحياء البرّاكات تبرز إلى الوجود بين عشية وضحاها على أطراف المدينة، على سفوح مونتجويك، على ضفة نهر بيسوس، أحياء مشؤومة سُميت: «لامينا»، «مخيم البوتا»، «بكين». والمثير للقلق في هذه الظاهرة، وأسوأ ما في أحياء البراكات، هو طابعها الدائم: فقد كانت بادية بوضوح مشيئة البراكيين، أي سكانها، في الاستقرار. وعلى نوافذ أشد البراكات بؤساً، كانت هناك ستائر مصنوعة من خرق بالية؛ وكانوا يحددون بواسطة أحجار مطلية بالكلس حدائق أمام البراكات، يزرعون فيها أشتال البندورة. ومن صفائح البترول الفارغة كانوا يصنعون أصصاً يزرعون فيها أزهاراً حمراء وبيضاء، وبقدونس وحبق. ومن أجل معالجة هذا الوضع، أخذت السلطات تشجع وتمول بناء كتل سكنية كبيرة سميت: «البيوت الرخيصة». ولم يكن الإيجار وحده هو الرخيص في تلك البيوت: فالمواد المستخدمة في بنائها كانت رديئة النوعية، والإسمنت مخلوط بالرمل أو بالأنقاض، والعوارض الحديدية المستخدمة أحياناً هي من مخلفات السكك الحديدية الصدئة والمتآكلة. أما الجدران الداخلية فكانت من الكرتون أو الورق المضغوط. وكانت هذه المساكن تشكل مدناً أفلاكاً تحيط بالمدينة، لا تصلها مياه الشفة، ولا الكهرباء، ولا الهاتف أو الغاز؛ ولم تكن هناك مدارس، ولا مراكز صحية أو ترفيهية، ولا أي نوع من المناطق الخضراء. ولأنها كانت تخلو كذلك من وسائط النقل العامة، فقد كان سكانها يتنقلون على الدراجات. وكان ميلان شوارع برشلونة الصاعد مرهقاً للدراجين، مما يجعلهم يصلون مستنفدي القوى سلفاً إلى أماكن عملهم التي يموتون فيها أحياناً. وكانت النساء، وكذلك الرجال قصار القامة، يفضلون استخدام الدراجات ثلاثية العجلات، لأنها مريحة وآمنة، وإن كانت أقل خفة وعملية. وكانت التجهيزات في المساكن الرخيصة معدومة الفعالية إلى حد أن الحرائق والفيضانات صارت أمراً يومياً روتينياً. فكانت صحف تلك الفترة

تغص بأخبار تبين الحال، مثلما هو هذا الخبر: ***مساء يوم أمس، الثلاثاء، وبعد نقاش بين المدعو بانتاغرويل كريادو إي تشوبو، المولود في مولا، بإقليم مرسية، والبالغ من العمر ثلاث وعشرين سنة، ويعمل حالياً مساعد بنّاء في ورشة بناء الجناح الألماني في المعرض الدولي، تقول بعد نقاش حاد بينه وبين زوجته وحماته، وجه لكمة إلى جدار غرفة الطعام والمعيشة في منزله، فانهار الجدار، ووجد المدعو بانتاغرويل كريادو نفسه في غرفة نوم جيرانه: خوان دي لا كروث ماركيث إي لوبيز، ونيسيفورا غارسيا دي ماركيث، اللذين وجها إليه عبارات جارحة. وفي أثناء المشاجرة التي تلت ذلك، راحت تنهار على التوالي جميع الجدران الفاصلة بين غرف ذلك الطابق، فتدخل الجيران الآخرون، وما جرى هناك كان أشبه بحرب طروادة!*** وبإيجاز أكبر يقول عنوان تحقيق صحفي عن الحوادث منشور سنة 1926: ***مقتل طفل لدى شدّ جار الطابق العلوي سلسلة سيفون المرحاض.*** وفضلاً عن هؤلاء الذين يعيشون في حال مزرية في البراكات أو في المنازل الرخيصة، يجب أن نضيف أولئك الذين يعيشون في ما يسمى «إعادة الاستئجار». وهم أناس يسمح لهم المستأجرون الشرعيون لأحد البيوت بالإقامة في غرفة منه (وهي الأسوأ دائماً) وباستخدام مقنن للمطبخ والحمام، لقاء أجرة استئجار فرعي. وهؤلاء المستأجرون الفرعيون الذين كان عددهم يزيد على مئة ألف في برشلونة سنة 1927، وربما كانوا يعيشون في أوضاع أفضل بالمقارنة مع آخرين، ولكنهم كانوا كذلك، ما عدا بعض الاستثناءات المعدودة، يعانون أكثر من سواهم من المذلة والخجل. وعلى هذه القاعدة من الاحتضار، والفقر، والحقد، كانت برشلونة تشيد المعرض الذي سيفاجئ العالم. وبعيداً عن جبل مونتجويك، في كنيستها المسودة بدخان الشموع، كانت القديسة إولاليا تتأمل ذلك المشهد وتفكر: رباه، ما هذه المدينة! والحقيقة أنه لا يمكن القول إن برشلونة كانت كريمة مع القديسة إولاليا. ففي القرن الرابع من تقويمنا، ولم يكن عمرها آنذاك أكثر من اثنتي عشرة سنة، تعرضت للتعذيب ثم الحرق، لأنها رفضت تقديس آلهة وثنية. ويروي لنا الشاعر اللاتيني برودنسيو أنه عند موت القديسة، خرجت محلقة من فمها حمامة بيضاء، وغطى ثلج كثيف مفاجئ جسمها. ولهذا ظلت شفيعة المدينة لسنوات طويلة؛ وكان لا بد بعد ذلك من

تنازلها عن هذا اللقب إلى عذراء المرسيد التي لا تزال تحمله حتى اليوم. ثم تقرر في ما بعد - وكأن تلك الإهانة لم تكن كافية - أن القديسة إولاليا، العذراء والشهيدة التي ظلت شفيعة لبرشلونة طوال قرون، لم يكن لها وجود في الواقع؛ وأنها لم تكن سوى نسخة مكرورة، أو تزييفاً لقديسة أخرى تدعى إولاليا ولدت في ميريدا سنة 304، وأُحرقت مع مسيحيين آخرين أثناء المطاردات التي أمر بها مكسيميانوس. وقد قال البرشلونيون حينئذ: إن القديسين يسخرون منا. وأخيراً طُرحت على بساط البحث حقيقة وجود إولاليا، قديسة ميريدا الحقيقية، التي يُحتفل بعيدها في العاشر من كانون الأول (ديسمبر). وما زال تمثال القديسة التي فقدت مكانتها موجوداً حتى الآن في مصلى جانبي في كاتدرائية برشلونة، ومن هناك كانت تمعن التفكير بما يجري من حولها، وقالت لنفسها ذات يوم: لا يمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال، وبما أن اسمي إولاليا فلا بد لي من عمل شيء ما. ثم طلبت من القديسة لوسي، ومن مسيح ليبانتو أن يغطيا غيابها بمعجزة، ونزلت عن قاعدتها، ثم خرجت إلى الشارع وتوجهت بتصميم إلى البلدية، حيث استقبلها العمدة بمشاعر متعارضة: فهو سعيد من جهة لأنه رأى أنه يستطيع الاعتماد على تضامن القديسة معه، ولكنه يخشى، من جهة أخرى، الحكم الذي قد يقابل به مسعاه. قالت له القديسة إولاليا: آه يا داريوس، أرى أنكم قد غرقتم جميعكم في الجنون! كان داريوس روميو إي فريكسا، بارون دي فيفير، يشغل منصب العمدة منذ سنة 1924. فقال على سبيل الاعتذار: عندما توليت المنصب كان العمل في المشروع قد انطلق، ولو كان الأمر بيدي لما كان هناك معرض. لم يكن هذا العمدة، ولا يمكنه أن يكون، رجلاً مندفعاً مثلما كان سلفه الشهير ريوس إي توليت: لقد صارت برشلونة الآن مدينة كبيره معقدة. وتابع العمدة قائلاً: إنه الجنرال بريمو وهوسه بتنشيط الأشغال العامة، وهذه سياسة شعبية سندفع ثمنها جميعنا شئنا أم أبينا. وبسياسته هذه راح يملأ لي المدينة بالمهاجرين، جائحة غزو من الجنوب. ثم تذكر فجأة أن القديسة نفسها حسب رأي المطلعين، تنحدر من الجنوب، فأضاف بسرعة: أرجو ألا تسيئي فهمي يا إولاليا، فليس لدي شيء ضد أحد؛ فنحن جميعنا متساوون أمام الله؛ ولكن روحي تتشطر حين أرى الأوضاع البائسة التي يعيش فيها

أولئك التعساء، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ فهزت القديسة إولاليا رأسها بفم. وقالت أخيراً: لا أدري، لا أدري. ثم تنهدت بعمق وأضافت: لو أننا نستطيع على الأقل الاعتماد على أونوفري بوفيلا. ولكن لم يكن ممكناً الاعتماد عليه في ذلك الوقت.

- ربما كان من المناسب أن أرافقك يا سيدي - هذا ما اقترحه عليه السائق.

ينتهي شارع سيبولبيدا في ساحة إسبانيا التي تحولت الآن إلى ما يشبه فوهة بركان رهيبة: فقد بدأت العمل هناك ورش بناء المعرض الدولي؛ ومن هناك تبدأ جادة الملكة ماريا كريستينا التي تحف بجانبيها سرايات المعرض وأجنحته الجاري العمل في بنائها؛ وفي وسط الساحة كان يجري تشييد نافورة هائلة، إلى جانب النافورة محطة المترو الجديدة. وكان يشتغل في تلك الورش ألوف العمال الذين يعودون في الليل إلى براكاتهم، أو بيوتهم الرخيصة، أو غرفهم الكئيبة التي يعيشون فيها كمستأجِرين من مستأجِرين، وكان بعضهم، ممن لا مسكن لهم، يمضون الليل في الشوارع القريبة من الساحة، في العراء، والمحظوظون منهم يتدثرون ببطانيات، وأقلهم حظاً بأوراق الصحف؛ وينام الأطفال في أحضان آبائهم أو اخوتهم؛ ويُوسد المرضى بجانب جدران المنازل، بانتظار فرج غير مؤكد قد يحمله إليهم اليوم الجديد. وفي البعيد، يُلمح بريق موقد، وظلال المتحلقين حوله. وتحمل سحابة دخان منخفضة رائحة أطعمة مقلية، فتتغلغل الرائحة في الملابس والشعور؛ وتتردد في أحد الأركان أنغام جيتار. أمر أونوفري بوفيلا السائق بالبقاء إلى جانب السيارة، وقال له: لن يحدث لي شيء. كان يعرف أن أولئك المنبوذين ليسوا عنيفين. كان يتخفى في معطف أسود بياقة من الفرو، وقبعة تشريفات وقفازين من جلد الجدي، ويمضي باطمئنان في وسط الشارع. كان أولئك المنبوذون يتأملونه بنظرات استغراب أكثر مما هي نظرات عداء، وكأنهم يرون استعراضاً. وأخيراً، توقف لحظة أمام بيت في الشارع، وهو بيت عادي وخال تماماً من مظاهر الزينة؛ ثم طرق الباب عدة مرات بالمقرعة. وبإظهاره قطعة نقدية للشخص الذي كان يسترق النظر إليه من خلال منظار الباب، تمكن من جعله يفتح له دون تأخير. وعندما صار في المدخل، تبادل

الهمس للحظات مع العجوز التي أدخلته. لم تكن هناك سن واحدة في لثتها التي كشفت عنها حين ضحكت بصمت. بدأ الصعود بينما كانت العجوز الشاكرة ترهق نفسها بانحناءات الاحترام، وترفع عالياً القنديل الذي بيدها لكي يستطيع تبين درجات السلم. وكان عليه، ابتداء من أول منعطف في الدرج، أن يتابع الصعود متلمساً طريقه، ولكن ذلك لم يجعله يبطئ في صعوده ولم يُفقده توجهه: فقد كان ما يزال يحتفظ بعادته القديمة في التسكع ليلاً. وأخيراً توقف على إحدى بسطات الدرج وأشعل عود ثقاب، وعلى ضوء تلك الشعلة ضئيلة وسريعة التلاشي، قرأ رقماً وطرق باباً ما لبث أن فتحه رجل نحيل، بذقن غير حليقة، يرتدي ثوباً مهترئاً فوق بيجامة وسخة ومجعدة. «إنني آت لرؤية دون سنتياغو بيلتال»، قال ذلك قبل أن يتمكن الرجل من استجوابه عن سبب وجوده هناك. فرد عليه الرجل: ليس هذا بالوقت المناسب للزيارات. وبدأ بإغلاق الباب، ولكن أونوفري بوفيلا فتحه بركلة قوية من قدمه؛ ثم ضرب الرجل بطرف عصاه على أضلاعه، فأوقعه على مسند المظلات الخزفي الذي تهشم نتفاً لدى سقوطه، وقال له دون أن يرفع صوته: لم أطلب رأيك ولا أريد سماعه. اذهب وقل لدون سنتياغو أن يخرج، ثم انصرف بعد ذلك إلى حيث لا أراك. نهض الرجل الضعيف بصعوبة؛ وكان يبحث، في الوقت نفسه، وراء ظهره عن الطرفين المنفلتين لحزام ثوبه الذي انحلت عقدته لدى وقوعه؛ ثم اختفى بعد ذلك دون أن يقول شيئاً، وراء ستار يفصل ذلك المدخل عن بقية البيت. ومن هناك بالذات ظهر بعد قليل سنتياغو بيلتال الذي ذاب في الاعتذار: لم أكن أتوقع أي زيارة، ناهيك عن زيارة بمثل هذه الأهمية. ثم إن الأوضاع التي نعيش فيها... أضاف ذلك دون أن يكمل جملته. مشى أونوفري بوفيلا وراء المخترع عبر ممر مظلم، حتى وصلا غرفة ضيقة. كان جو الغرفة كثيفاً، فالتهوية الوحيدة تأتيها من كوة صغيرة تطل على فناء داخلي مسقوف. وكان في الغرفة سريران معدنيان صغيران، ومنضدة صغيرة وكرسيان ومصباح ركن عمودي. وفي عدة صناديق كرتونية مركونة بجانب الجدار، كان المستأجرون الفرعيون يضعون ملابسهم وحاجاتهم. وكانت الجدران مغطاة بمخططات ثبتها عليها المخترع بدبابيس. وكانت ماريا بيلتال تجلس على أحد الكرسيين بجانب المنضدة، وهي ترفو

جورباً على الضوء الخافت، مستعينة في عملها ببيضة خشبية. ولكي تحتمي من البرد والرطوبة اللذين يسودان كل أرجاء البيت، كانت تضع حول عنقها شالاً فوق فستان صوفي عادي وقديم، ويكمل لباسها البائس جوربان مشغولان بالسنارة وخف من اللباد. بهذه الملابس كان يبرز نحول جسدها، ولون بشرتها المائل إلى الزرقة، الذي كانت أصبغة التجميل قد أخفته في لقائهما قبل أيام. وكان شحوب وجهها يبرز احمرار أنفها بسبب إصابة بالرشح، رشح البرشلونيين المزمن. عندما دخل أونوفري إلى الغرفة، رفعت نظرها للحظة عن خياطتها ثم خفضته من جديد؛ وكان لعينيها في هذه المرة اللون العسلي الذي يعتقد أنه يتذكره من لقائهما الأول.

- اعذرنا على هذه الفوضى الرهيبة. - قال المخترع ذلك وهو يتنقل بعصبية بين محتويات الحجرة، مساهماً بحركاته الحماسية وارتباكه في زيادة الإحساس العام بالفوضى السائدة هناك. ثم أضاف: لو أننا علمنا مسبقاً بأنك تفكر في تشريفنا لكنا نزعنا على الأقل هذه الأوراق القديمة عن الجدران؛ آه، يا لي من مغفل: فأنا لم أعرّفك بعد إلى ابنتي التي لا تعرفها. هذه ابنتي ماريا يا سيدي. وهذا السيد يا ماريا هو دون أونوفري بوفيلا، الذي سبق وحدثتك عنه؛ لقد ذهبتُ قبل بضعة أيام إلى بيته لأقدم له عرضاً، وقد تكرم بالنظر إليه بعين العطف.

تبادلا نظرة خاطفة يمكن لها أن تثير شكوك أي شخص، ولكنها مرت على المخترع مرور الكرام دون أن يلحظها. فقد كان غير واع لأي شيء وهو يتناول قبعة، وعكاز، وقفازي، ومعطف زائره ويضعها بحذر فوق أحد السريرين. ثم قرب أحد الصناديق من المنضدة، وقدم الكرسي الشاغر إلى أونوفري بوفيلا، وجلس فوراً على الصندوق وهو يشبك أصابعه، مستعداً لسماع ما جاء الآخر ليقوله له. وقد دخل أونوفري، كعادته، في الموضوع مباشرة، وبدأ بالقول:

- لقد قررت قبول هذا العرض الذي تحدثت عنه - وأوقف بإيماءة من يده عبارات الشكر والحماس التي كان المخترع على وشك النطق بها بعد تجاوزه ذهول اللحظة الأولى. وأضاف:- ما أعنيه ببساطة هو أنني أرى أن هناك مجازفة معقولة في وضع مبلغ محدد من المال تحت تصرفك لكي

تتمكن من استكمال تجاريك التي حدثتني عنها. ولكن هذا الاتفاق لا يخلو من بعض الشروط بالطبع. وعن هذه الشروط بالتحديد جئت لأتحدث معك الآن.

فقال المخترع:

- كلي آذان مصغية.

إذا كان البارون فيفير، وهو ملكي، يتلقى زيارة القديسة إولاليا، فإن الجنرال بريمو دي ريفيرا الذي تخلى عن كونه ملكياً بسبب الاستياء، كان يظهر له بين وقت وآخر سرطان يعتمر قبعة تيروليس. فقد تخلى عنه الجميع، ولكنه بقي متمنعاً عن ترك السلطة في أيد أخرى، وكان الدكتاتور يضع أمله الآن في معرض برشلونة الدولي. وقد قال: عندما توليتُ مسؤولية الحكم، كانت إسبانيا أشبه بطنجرة تملؤها المشكلات، وبلاد إرهابيين ومتسولين ولصوص، فحوّلتها خلال سنوات قليلة إلى دولة مزدهرة ومحترمة؛ هناك الآن عمل وأمن، وسيظهر ذلك بصورة جلية لا تقبل الدحض في المعرض الدولي. فهناك ستُذل جباه من ينتقدونني اليوم. وسمح وزير الأشغال العامة لنفسه بإبداء ملاحظة: إن مخطط سيادتكم رائع، ولكنه لسوء الحظ يتطلب نفقات تفوق إمكاناتنا. وكان كلامه صحيحاً: فالاقتصاد الوطني عانى من انحدار مخيف في السنوات الأخيرة، فاستنفد الاحتياطي النقدي، وصار سعر صرف البيزتا في الأسواق الخارجية مثيراً للضحك. فحك الدكتاتور أنفه وتلعثم: يا للعنة! كنت أظن أن كتالونيا هي التي ستتحمل نفقات المعرض. ثم أضاف من بين أسنانه، وكأنه يحدث نفسه: سلالة بخلاء! فأوضح له وزير الأشغال العامة، بلفتة مهذبة، أن الكتالانيين، بصرف النظر عن فضائلهم وعيوبهم، يرفضون إنفاق بيزتا واحدة لتحقيق مزيد من الأمجاد لمن يسيء معاملتهم دون هوادة. فصاح بريمو دي ريفيرا: سحقاً لهم! المسألة ليست سهلة إذن! وماذا لو نفينا أولئك المعارضين؟ فقال له وزير الداخلية: إنهم عدة ملايين يا سيدي الجنرال. فابتهج وزير الأشغال العامة لأن ثقل النقاش وقع الآن على كاهل زميله في الوزارة. عندئذ ضرب بريمو دي ريفيرا المنضدة بقبضته، وقال: خراي على كل الحقائب الوزارية! ولكنه لم يكن غاضباً، إذ إنه كان قد

توصل للتوّ إلى فكرة ستنقذ الموقف، فقال: حسن، إليكم ما سنفعله: سنمول معرضاً دولياً آخر، في مدينة إسبانية أخرى: في بورغس أو بامبلونا مثلاً، أو أي مدينة أخرى، فالأمر سيان. وحين رأى أن الوزراء ينظرون إليه بذهول، ابتسم بخبث وأضاف: لا حاجة بنا لأن ننفق كثيراً على ذلك؛ فعندما يعلم الكتلانيون بالخطة فسوف يتخلون عن حذرهم، وينفقون دون حساب لكي يكون معرض برشلونة هو الأفضل. وكان وزير الزراعة وحده هو الذي تجرأ على إظهار شيء من الاعتراض: سيخرج لنا من يكشف أمرنا، ويفضح هذه المناورة. فزمجر الدكتاتور: «من يفعل ذلك سننفيه». كانت الأعمال في المعرض العالمي تتقدم الآن بأقصى سرعة؛ ومرة أخرى أخذت الديون تنخر مالية البلدية. وصار جبل مونتجويك هو الجرح الذي ينزف منه اقتصاد المدينة. وقد نحي العمدة جانباً، واستُبعد كل من أبدوا التحفظ حيال الفكرة، وكل من عارضوا تبديد الأموال، وأقيلوا من وظائفهم دون تروٍ، وأسندت مناصبهم إلى أشخاص موالين للجنرال بريمو دي ريفيرا. وكان بين هؤلاء الأشخاص بعض المضاربين الذين استغلوا فرصة انعدام الرقابة ليجنوا ثروات فاحشة. ولم يكن بمقدور الصحف أن تنشر سوى أخبار مشجّعة وتعليقات مؤيدة حول ما يجري، وإلا فإنها تُمنع، وتُسحب من أكشاك البيع، ويُغرم مدراؤها غرامات قاسية. وبفضل ذلك أخذ مونتجويك بالتحول إلى جبل سحري. فكانت تشيد هناك الآن سرايا الكهرباء والقوة المحركة، وسرايات الملابس الجاهزة وفن النسيج، والفنون الصناعية والتطبيقية، والعروض السينمائية، وفنون الطباعة، وسرايا صناعة البناء (وسميت سرايا ألفونسو الثالث عشر)، وسرايا العمل، وسرايا المواصلات والنقل، وغيرها. وكان العمل في بناء هذه السرايات قد بدأ قبل عقود من ذلك، في زمن تيار الحداثة؛ فكان مظهرها الآن يصدم عيون الخبراء المطلعين، فهي تبدو متكلفة، معقدة، وسيئة الذوق. وعلى النقيض منها، كانت تشيد إلى جوارها الأجنحة الأجنبية، وهي أجنحة وُضعت تصاميمها قبل وقت قصير، وكانت تعكس الاتجاهات المعاصرة في الهندسة المعمارية وعلم الجمال. وقد كتب أحد الصحفيين في العام 1927، قبل وقت قصير من نفيه إلى جزيرة غوميرا: *إذا كانت معارض أخرى قد تخصصت في شؤون محددة، مثل الصناعة، أو الطاقة الكهربائية،*

او النقل، فإنه يمكن لهذا المعرض ان يخصص بكامله للسوقية والابتذال. وختم مقالته بالقول: *وفضلاً عن الإفلاس الذي سيحيق بنا، سوف نبدو أمام الرأي العام العالمي وكأننا من ساكني الكهوف البدائيين.* ولكن هذه الملاحظات القاسية لم تكن تؤثر مع ذلك في منظمي التظاهرة.

بينما كانت هذه الأمور تجري بشأن المعرض الدولي، كان أونوفري بوفيلا على رابية أخرى، تفصلها المدينة كلها عن جبل مونتجويك، يقوم بمواجهة مع نفسه في حديقة دارته، فكان يقول لنفسه: كيف؟ أعاشق أنا؟ في هذه السن! لا، لا، هذا غير ممكن... ومع ذلك، بلى، إنه ممكن، وكونه ممكناً يملؤني بالسعادة. آه، من كان سيصدق ذلك! وحين يفكر في الأمر، يضحك بخفوت؛ فهو ينظر إلى نفسه بحنان للمرة الأولى في حياته: وهذا يسمح له أن يضحك من محنه. ثم تنمحي الابتسامة عن شفتيه ويقطب حاجبيه: فهو لا يفهم كيف أمكن أن يحدث له ذلك، تلك المعجزة التي يبدو أنها حدثت في روحه أغرقته في الحيرة. وكان يتساءل: أي تأثير لا يقاوم استطاعت أن تمارسه عليّ هذه المرأة الضئيلة؟ ويواصل التأمل وكأنه يناقش محاوراً غير مرئي: ليس الأمر أنها ليست جذابة من الناحية الجسدية، ولكن عليّ أن أعترف بصراحة أيضاً بأنها ليست بالمرأة الراية. وحتى لو كانت كذلك، لماذا علي أن أتحرق بهذه الطريقة؟ لم تنقصني في حياتي النساء المثيرات، إناث حقيقيات تتوقف حركة المرور لدى مرورهن؛ ولم أجد يوماً أي صعوبة في شراء الجمال بنقودي، والحصول على أفضل الأفضل. ومع ذلك لم أشعر نحوهن قط إلا بالازدراء. أما هذه، على العكس من ذلك، فإنها تبعث فيّ شعوراً بالخضوع يفاجئني، ولا أجد له تفسيراً: فعندما تكلمني، أو تبتسم لي، أو تنظر إلي، تغمرني سعادة كبيرة، وما أشعر به نحوها هو الامتنان أكثر من أي شيء آخر. وعندما كان يفكر بهذه الأمور، يخيل إليه أن ذلك الخضوع يخلصه من أنانيته كلها. وكان يقول لنفسه حين يستعرض مسيرة حياته: صحيح أني تصرفت في بعض المناسبات بطريقة هرطوقية؛ والله يعلم أن هناك صفحات في حياتي سيطلب مني أن أقدم عنها حساباً مفصلاً، ومع أنه لا يمكن لأحد أن يدعي بأني قتلت كائناً بشرياً بيديّ بالذات، فإن هناك

أشخاصاً ماتوا بسببي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وأن أشخاصاً آخرين حل بهم الشقاء ويمكن لهم أن ينسبوا إلي سبب شقائهم. آه، كم هو رهيب فتح حساب كل ذلك الآن، بعد أن فات أوان الندم والتصالح! وعندما انتبه فجأة إلى ذلك، انهار على الأرض وكأن صاعقة قد أصابته. كان الهواء ساكناً، وعلى سطح البحيرة الاصطناعية الهادئ كانت الشمس تتلألأ، فيعكس ذلك الألق على ريش البجعات الأبيض نوراً يبهر الأبصار. وكان مستعداً، بسبب اضطراب معنوياته، لأن يرى في تلك البجعات المشعة رسلا من الله يحملون إليه رسالة الرحمة والأمل. وكأنهم آتون ليذكروه بأن سعادة السماء بخاطئ واحد تائب تكون أكبر من سعادتها بتسعة وتسعين عادلاً لا يحتاجون إلى التوبة. ولشدة تأثره بهذه الفكرة، ألصق جبهته بالعشب، وغمغم: المغفرة، المغفرة؛ لقد كنت غبياً وقاسياً، وليس لي من عذر، وليس هناك ما يخفف إثمي. وأمام عيني ضميره، كما لو أنه يتصفح ألبوم صور، راحت تمر الوجوه المتهمة، وجوه أودون موستاثا، ودون ألكساندري كانالس إي فورميغا وابنه المسكين نيكولو، ووجه جوان سيكارت، وأرناو بونثيّا، والجنرال أوسوريو الحاكم السابق لجزيرة لوزون، كذلك وجوه زوجته وابنتيه، ووجه ديلفينا ووجه أبيها السيد براوليو، ووجه أبيه وأمه، وحتى وجه آخيه جوان: كل هؤلاء الأشخاص وكثيرون غيرهم ممن لم ير وجوههم ولن يراها أبداً، ضحى بهم من أجل طمعه وخبله. جميعهم كانوا ضحايا تعطّشه غير المبرر للانتقام، وكلهم تعذبوا دون أن يكون هناك حاجة لعذابهم إلا أن يوفروا له مؤقتاً طعم الانتصار الكاذب. وفكر وهو يشعر بالدموع تتزاحم لتتدفق بغزارة من بين جفونه المطبقة: أيكون هناك في السماء كلها ما يكفي من الأريحية لتغفر لمسخ كالذي كنته طوال هذه السنين؟ وما كاد ينتهي من صياغة هذا السؤال حتى أحس بضربات خفيفة على كتفه. وقد سببت له تلك الملامسة الذعر لأنه يعرف أنه وحده في الحديقة: لم يعد يجرؤ الآن على فتح جفونه، فقد خشي، إذا ما فعل ذلك، أن يجد نفسه أمام ملاك مهيب يحمل سيفاً من اللهب. وعندما فتح عينيه أخيراً، رأى أن تلك الضربات الخفيفة إنما وجهتها إليه في الواقع إحدى البجعات بمنقارها؛ فقد استغربت البجعة وجود هذا الشخص المجهول القابع مكوراً وساكناً على ضفة البحيرة، فخرجت من الماء

ودنت منه، ربما موفدة من بقية البجعات، لترى ما الذي يعنيه ذلك. نهض أونوفري بفظاظة، فبدأت البجعة المذعورة الهرب. وبرؤيتها من الخلف لم يكن بالإمكان تصور مشية أكثر خراقة من تلك؛ وكانت الصرخات التي تطلقها أيضاً منفرة وقبيحة. ولشدة سخطه من الذعر الذي سببه له ذلك الحيوان التافه، فقد لحق بالبجعة قبل أن تصل إلى الماء وتنجو، ووجه إليها ركلة بكل ما فيه من قوة. رسمت البجعة خطاً منحنياً في الهواء وسقطت في الماء، رأسها وعنقها إلى أسفل غارقين في الماء، وذيلها طاف على السطح، بينما كانت المياه التي حركتها الصدمة، آخذة باستعادة ركودها شيئاً فشيئاً، وطفا على السطح ريش أبيض فقدته البجعة من الضربة وهي في طريقها للسقوط. نفض أونوفري بوفيلا نتف العشب التي علقت بملابسه، وواصل نزهته دون أن يتوقف ليتأكد مما إذا كانت البجعة قد بقيت على قيد الحياة أم أنها ماتت. لقد أعاده الحادث إلى الواقع؛ فقد انتهت الرؤيا المؤلمة لأخطائه، وحل محلها الآن من جديد المنطق الحتمي والمنحاز الذي كان يطبقه دوماً على كل شيء، وقال لنفسه: ياه، أي مسؤوليات أحملها لنفسي؟ لو أن أحداً سمعني لاعتقد أنه لا وجود في العالم لسبب آخر للكروب إلا أنا. دعك من هذا، ليس هناك ما هو أشد منه زيفاً، قال ذلك رداً على محاوره المتخيَّل، وأضاف: لقد كان الناس تعساء قبل أن أولد، وسيظلون كذلك بعد موتي. صحيح أنني تسببت في نكبة بعضهم، ولكن هل كنت أنا المسبب الحقيقي لتلك النكبات أم أنني كنت مجرد وسيلة من القدر المحتوم؟ فلو أنني لم أظهر في طريق أودون موستاش، أكانت نهاية ذلك القواد القاتل ستصبح أقل مأساوية؟ أولم يكن مقدراً له منذ مولده أن ينتهي إلى منصة الإعدام؟ وما الذي كان يمكن للقدر أن يعده لديلفينا لو لم أكن قد وصلت ذات يوم إلى نزل أبويها؟ كانت ستبقى دون شك مجرد ممسحة للأرض طوال أيام حياتها، ربما تزوجت في أحسن الحالات من رجل كسول قاس وسكير، يضربها باستمرار ويهلكها بالعمل والإنجاب. يا للشيطان! لقد وجد جميع جرذان المجاري هؤلاء فرصتهم على الأقل وهم معي، وتوصلوا إلى التمتع على حسابي بلحظة مجيدة. وقطع عليه سلسلة أفكاره صوت انفجار مكتوم، لكنه قريب. ثم تلت ذلك الانفجار انفجارات أخرى متتالية. تطايرت العصافير التي كانت مختبئة

فـي أشجار الغابـة: واختلطت فـي سـرب مـن أنـواع غـير متجانسـة، وراحـت ترسم دوائر على ارتفاع عال وهي تُصدر جلبة كبيرة. فابتسم أونوفري بوفيلا من جديد، وأضاف بصوت خافت: مثل هذا البائس المسكين، دون الذهاب بعيداً. وفقدت ابتسامته الآن تلك الغبطة التي كانت تميزها قبل قليل.

خلّف البحيرة وراء ظهره ومضى في اتجاه المكان الذي تأتي منه الانفجارات. تعمد الابتعاد عن المرج المستوي والمعتنى به وتوغل في الغابة: فالأشجار تتيح له التقدم خفية. ولدى وصوله إلى حدّ الغابة، توقف ليراقب – دون أن يُرى – النشاط الذي يجرى على مقربة من مخبئه: كانت هناك خيمة سيرك يدخل إليها ويخرج منها باستمرار أشخاص بملابس الميكانيكيين وهيئتهم. وعند فوهة النفق المصنوع من قماش خيم سميك، والمؤدي إلى الخيمة التي ما زال بالإمكان رؤية بقايا البيارق والأعلام عليها، كان هناك حارسان مسلحان يراقبان دخول وخروج أولئك الميكانيكيين. لقد كان يعرف – مع أن الخيمة تحجب ذلك عنه – أن هناك في الجانب الآخر منها توجد عنابر تضم في داخلها آلات شديدة التعقيد. ولم يكن لتلك الآلات من هدف سوى تأمين الطاقة المحركة لمجموعة آلات كهربائية تعج وتصر الآن داخل الخيمة. لقد كان من الأسهل والأقل كلفة بالطبع الحصول على تلك الطاقة من الشركة المختصة بتوفير السيالة الكهربائية، ولكن ذلك سيجعل من المستحيل الحفاظ على سرية النشاطات التي تدور هناك. ولهذا أقيمت تلك العنابر التي تحمي من فضول الغرباء الآن، المولدات التي اشتُريت بدورها من بلدان مختلفة بواسطة شركات مغفلة شُكلت لهذه الغاية فقط، وأُدخلت تهريباً إلى كتالونيا، ونُقلت إلى مستقرها قطعة قطعة، وبصورة متكتمة. وبالطريقة نفسها أُحضر الفحم الذي يغذيها بكميات قليلة متتالية، حتى صارت هناك الآن كميات احتياطية منه مطمورة في حفر تحت المرج، والغابة، والبحيرة. وهكذا جرى تجميع الآلات والمواد اللازمة للمشروع. أما التعاقد مع العاملين الذين يعملون هناك الآن فكان أشد حساسية. فإذا كان تدفق المهاجرين قد أتاح اختيار العمال وتجنيدهم بطريقة خفية ومتكتمة، فإن تأمين الاختصاصيين والفنيين والمهندسين الذين يصعب تفسير اختفائهم المفاجئ من أماكن عملهم، ومن

الحياة العامة عموماً، طرح عقبات كان لا بد من حلّها في كل حالة على حدة. فقد جرى التعاقد مع بعضهم في الخارج، وسُحب آخرون من التقاعد الذي اضطرتهم إليه ظروف مختلفة؛ وهناك غيرهم أخيراً، أرسلت إليهم عروض عمل مزيفة من جامعات أمريكية. ومن تقبلوا تلك العروض، تلقوا بعد وقت قصير بطاقة سفر في الدرجة الأولى على متن سفن نظامية. ولكن ما أن تتجاوز السفينة التي يسافرون فيها المياه الإقليمية الإسبانية، حتى يُنتزع المهندسون المشهورون من قمراتهم تحت تهديد السلاح، ويُنقلون إلى زورق سريع يعيدهم ثانية إلى اليابسة. ومن هناك تقلهم سيارة إلى الدار الكبيرة، حيث يجري اطلاعهم على سبب تلك الخدعة والاختطاف، وعلى طبيعة العمل الذي خصص لهم، وعلى الطابع المؤقت لذلك الوضع غير الطبيعي، وعلى المكافآت السخية التي ستُقدم إليهم لقاء تعاونهم وللتعويض عن المضايقة التي لحقت بهم. وحيال هذه النهاية السعيدة للمغامرة، كان الجميع يعربون عن سعادتهم بالتعاون. وقد كان هذا الأسلوب بطيئاً، ومعقداً، وباهظ التكاليف. ولكن لم يكن هناك أي اهتمام بالنفقات في سبيل إنجاز المشروع. وكانت الخيمة، بأبعادها المناسبة، هي الشيء الوحيد الذي أمكن شراؤه بثمن مناسب من سيرك كان معظم العاملين فيه قد ماتوا بجائحة كوليرا في جنوبي إيطاليا. وقد أرغم ذلك الموت الجماعي من بقوا على قيد الحياة: وهم امرأة ملتحية، ومدربة خيول، وشمشون السيرك، على حل الشركة وبيع المعدات بأرخص الأسعار. وهؤلاء الأشخاص الثلاثة، الذين كان لا بد من التعاقد معهم وإحضارهم لكي يشرفوا على نصب الخيمة وصيانتها، يتسكعون الآن أيضاً في أنحاء الموقع، وهم يرتدون ملابس شبكية، ومئزراً يستر العورة، وثوباً مزيناً بالبرق، ويمارسون كيفما استطاعوا مهاراتهم، وينشرون بين الجميع القلق إن لم يكن الخوف.

وبينما هو يتذكر الآن تلك الطرائف الغريبة، رآها تخرج من الخيمة. كانت ترتدي تنورة وردية اللون، واسعة وقصيرة جداً إلى حد تظهر معه ركبتاها وهي ماشية؛ وترسم ثنيات القماش في الأعلى، حدود الفخذين. فكان ذلك يجذب أنظار الميكانيكيين ويستثير جنون أونوفري بوفيلا. أما بقية ملابسها فكانت بسيطة ورصينة. ففكر وقد تسرع قلبه وهو ينظر إليها تارة

وإلى الميكانيكيين تارة أخرى: لا بد لي من أن أوجه إليها ملاحظة بهذا الخصوص. بهر نور الشمس بصرها لدى الخروج، فتوقفت للحظة عند مدخل الخيمة وهي تغمض عينيها قليلاً؛ راحت ترتب شعرها بأصابعها، ووضعت على رأسها قبعة عريضة الحواف. ثم توجهت نحو الغابة حيث كان مختبئاً دون سبب ظاهر. ففكر وهو يحاول الاختباء جيداً وراء جذع شجرة سنديان: يا للسماء! عساها لا تراني. خلال شهور إقامة ماريا بيلتال وأبيها ضمن الملكية الملحقة بدارته، لم يتبادل معها أكثر من جملتين أو ثلاث جمل بروتوكولية. وكان يسعى بذلك لأن يُثبت بوضوح أن كل اهتمامه يدور حول مشروع المخترِع الذي كان ذلك المجمع الصناعي الخاص جداً يتوسع بناء على تعليماته، والذي كان يتبادل معه بالمقابل أحاديث مطولة. لقد استقر سنتياغو بيلتال وابنته منذ البداية في واحد من أجنحة الصيد المشيدة منذ القديم في الحديقة، والمنفصلة تماماً عن المنزل. وقد تم تأهيل ذلك الجناح وتحويله إلى مسكن مستقل مزود بوسائل الراحة، ولكن ليس بوسائل الرفاهية، لأنه يمكن لذلك أن يكشف عن دوافع أونوفري بوفيلا الخفية، وعن السبب الحقيقي الذي قرر من أجله الانخراط بعد هذه السن في مثل ذلك المشروع الجنوني. ومنذ أقام سنتياغو بيلتال وابنته في ذلك المسكن، لم يعد يدخل إليه أبداً، مع أنه هو الذي اختار بنفسه، وبأقصى دقة، أثاثه وديكوره. فقد كان يرسل خادماً لدعوة المخترع إلى مكتبه عندما تستدعي الحاجة لقاءهما. وكان الطابع السري للمشروع يقتضي عدم مغادرة العاملين فيه الإقطاعية المحيطة بالدارة: فكان يعرف بفضل ذلك أنها موجودة دائماً هناك. وأنها لا تنتمي إلى أحد سواه، على الرغم من عدم وجود علاقة بينهما؛ وأنهما يتقاسمان قطعة من الأرض مشتركة، ويسكنان متجاورين في عقار من ممتلكاته. وكان ذلك يكفي لجعله يشعر بأنها هي أيضاً له، وكان سعيداً بذلك حالياً. فهو يراقب خلسة، مثلما يفعل الآن، كل حركاتها. وراح يفكر وهو مختبئ وراء شجرة السنديان: يا للغرابة! وكان يتأمل بإعجاب في أثناء ذلك مشيتها الرشيقة، وقامتها المشوقة، وهيئتها المهيبة، ويقول لنفسه: يا للغرابة، عندما كنت شاباً والحياة كلها أمامي؛ كان كل شيء يبدو لي مُستعجَلاً. أما الآن بالمقابل، بينما الوقت يفلت مني طيراناً، فإنني لستُ متعجلاً. وفكر: لقد تعلمت ولم أعد

أجد معنى إلا للانتظار. ومع ذلك، فإن الأشياء هي التي تتعجل الآن. نظر إلى السماء ورآها زرقاء بصورة غريبة، بلا غيوم. فتذكر أنه زار بالأمس ورش العمل في المعرض الدولي. والتقى هناك مصادفة مع مركيز أوت الذي لم يره منذ وقت طويل. كان المركيز عضواً في مجلس إدارة المعرض، ورجل بريمو دي ريفيرا الموثوق في برشلونة. وهو من يتلقى التعليمات من مدريد وينفذها من وراء ظهر العمدة. ومقابل هذا الولاء، كان يعقد صفقات ليست نظيفة تماماً وهو في مأمن تام من العقاب.

وعندما رأى المركيز ظهور أونوفري بوفيلا في حرم المعرض، لوى شفتيه: فالصداقة التي قامت بينه وبين أونوفري في زمن آخر، تحولت إلى استياء من جانب أونوفري، وإلى عدم ثقة متبادل من الجانبين. ولكن كليهما كان يراعي الشكليات والمظاهر.

– ما هذا يا فتى، أراك بصحة جيدة ومظهر رائع! – هتف المركيز وهو يعانقه – لقد سمعت أنك أصبت بوعكة، ولكني سعيد برؤيتك وأنت بكامل عافيتك. وبحيويتك الشبابية المعهودة!

– وأنت أيضاً تبدو معافى وبصحة جيدة. – قال له أونوفري.

فقال المركيز:

– لا تصدق، لا تصدق المظهر...

سارا معاً وقد أمسك كل منهما الآن بذراع الآخر، متجنبين الحفر وأكوام الحصى، ومجتازين الخنادق على ألواح خشبية تنحني تحت ثقل جسديهما. وأثناء مسيرهما كان المركيز يبين لمرافقه أبرز سمات ذلك كله: السرايات، الأجنحة، المطاعم، والخدمات، الخ... وأراه كذلك، دون أن يخفي زهوه، ورشة بناء الستاد الرياضي. وأوضح المركيز أن هذه المنشأة التي أضيفت لاحقاً إلى المخطط العام، تبلغ مساحتها 46225 متراً مربعاً، وهي مخصصة للعروض الرياضية. فمنذ انتشار الأيديولوجية الفاشية في أوروبا، صارت جميع الحكومات تشجع ممارسة الرياضة، والحضور المكثف للمنافسات الرياضية. وكانت الدول تحاول بهذه البدعة أن تقلد الإمبراطورية الرومانية، التي كانت أساليبها تُتخذ كنموذج عريق يحتذى به. لقد صارت الانتصارات الرياضية الآن ترمز إلى عظمة الشعوب. ولم تعد الرياضة

نشاطاً تمارسه الطبقات المترفة التي لا تعمل، ولا امتيازاً للأغنياء وحدهم، وإنما وسيلة التسلية الطبيعية لسكان المدن؛ وكان السياسيون والمفكرون يعتمدون عليها كوسيلة لتحسين النسل. وقال المركيز: الرياضي هو معبود عصرنا، والمرآة التي يرى فيها الشباب أنفسهم. فأبدى أونوفري بوفيلا موافقته على هذه النظرية، قائلاً بنعومة: إنني مقتنع بذلك. ثم زارا المسرح اليوناني، والقرية الإسبانية، والشبكة المعقدة من الأنابيب والكابلات، والمولدات، التي ستغذي النافورة المضيئة وتحركها. وكان مقرراً لتلك النافورة أن تكون وسيلة الجذب الرئيسية، ومحط الإعجاب ومثار التعليقات في المعرض، مثلما كانت النافورة السحرية في المعرض السابق. كانت تقوم في موقع مرتفع من الجبل، بحيث يمكن رؤيتها من أي مكان في المعرض؛ وتتألف من بركة مستديرة قطرها خمسون متراً، وسعتها 3200 متر مكعب، ومن عدة نوافير إضافية أخرى. وسيتدفق من النوافير كلها في الواقع 3000 لتر من الماء، تدفعها خمس مضخات بقوة 1175 حصاناً، ويضيئها 1300 كيلووات من الطاقة الكهربائية: وهو ما سيتيح تبدلاً متواصلاً في الأشكال والألوان. وقال المركيز: النافورة الرئيسية والنوافير المصفوفة على جانبي طريق التنزه المركزي في المعرض، تستهلك من الماء كل ساعتين بقدر ما تستهلكه برشلونة بأسرها في يوم كامل. ثم تساءل: متى وأين شوهد شيء بمثل هذه العظمة؟ وكان أونوفري بوفيلا متفقاً أيضاً مع مركيز أوت دون أدنى تحفظ. ولكن كل تلك الموافقات غير المشروطة، وكل ذلك الاهتمام أثار شكوك المركيز، فراح يتساءل في سره: ما الذي جاء يفعله هنا حقاً هذا الثعلب؟ وما هو السبب الحقيقي لهذا الحماس المفاجئ؟ ولكنه مهما فكر لن يصل إلى مفاتيح حل ذلك اللغز. فهو لا يستطيع أن يعرف أن وفداً غريباً قد جاء قبل أسبوعين إلى أحد مكاتب إدارة تنظيم المعرض. وكان ذلك الوفد مؤلفاً من سيد وسيدة يلبسان بأناقة رصينة، ويتصرفان بدقة، ويتكلمان بلكنة أجنبية. وقالا للموظف الذي استقبلهما إنهما يمثلان شركة صناعية واسعة النطاق، بل هي اتحاد دولي لمجموعة شركات لم يسمع الموظف باسمها من قبل، ولكن الوثائق التي قدماها قبل أن يطلبها منهما، لم تدع لديه مجالاً للشك في قانونية تلك الشركة. ولكن هذا لم يمنعه من أن يلاحظ باستغراب أنه تحت الخمار الذي

أبقته السيدة يغطي وجهها طوال المقابلة، كانت تطل لحية كثيفة. وقد امتنع بالطبع عن التعليق على ذلك. أما الرجل الذي لم يكد يقول شيئاً، فلم يكن يتوقف عن مراقبة حركات الموظف وردود أفعاله، بملامح صارمة. ولا بد أن الموظف سيتذكر في ما بعد أن الرجل كان ضخم البنية، مما يشير إلى أنه ذو قوة خارقة. ولكن مجمل هذه التفاصيل لم تثر أي شكوك لدى الموظف: فقد تعامل منذ تسلمه هذه الوظيفة مع أجانب كثيرين، واعتاد على رؤية الوجوه والملامح التي لا مثيل لها، وعلى التصرفات الغريبة. وفي تنفيذ صارم لمهام وظيفته، سألهما عما يمكنه أن يقدمه إليهما من خدمات. فأجاباه بأنهما قادمان للحصول على الترخيص اللازم لبناء جناح في حرم المعرض الدولي. وقالت السيدة: تنوي شركتنا أن تعرض في هذا الجناح آلاتها ومصنوعاتها. ثم أضافت: وستكون هناك أيضاً بعض اللوحات الخشبية أو الأبواب المتحركة، نعرض عليها للجمهور معلومات حول هيكلية الشركة. فأوضح لهما الموظف أنه لا يمكن للشركات الأجنبية أن تشارك بالمعرض إلا ضمن أجنحة بلدانها، وقال: إذا ما منحنا ترخيصاً لإحدى الشركات، فسوف نضطر إلى منحه أيضاً لجميع الشركات التي تطلبه. وانتهى الموظف إلى القول: تنظيم معرض دولي هو عمل شديد التعقيد، ولا مجال فيه للاستثناءات أو الامتيازات. ولكي يثبت لهما بأنه لا يتكلم لمجرد الكلام، أشار إلى كتاب موضوع على المنضدة؛ وهو كتالوج العارضين ويتألف من 984 صفحة. فتناول الرجل الكتاب بيده ومزقه إلى نصفين دون أي جهد يذكر، وقالت السيدة في الوقت نفسه: إنني واثقة من أننا سنتمكن في النهاية من تذليل كل الصعوبات. وكانت تمسد لحيتها بإحدى يديها، وبينما يدها الأخرى تفتح حقيبة يدها السوداء ثم تغلقها. وقد لاحظ الموظف أن الحقيبة مترعة بالأوراق النقدية وأدرك أن من الأفضل له أن يلزم الصمت. وقد انتصب الآن هيكل جناح تلك الشركة المجهولة على أحد جوانب منطقة المعرض، وكان الموقع مخصصاً في البدء لجناح الإرساليات التبشيرية، الذي توجب نقله إلى موقع آخر. وكان جناح الشركة الجديد يتخذ مع تقدم العمل فيه شكل خيمة سيرك، وكان يقع في ساحة الكون، بجانب جادة ريوس إي توليت تحديداً. وهو موقع ممتاز، لأنه كان يتيح الدخول إلى الجناح والخروج منه، بأقصى

قدر من السرية، من الجهة الخلفية، عبر الأرض الخلاء (التي صارت اليوم شارع ليريدا). وكان هناك أشخاص ذوو مظهر متجبر يحومون طوال الوقت حول الجناح؛ ومهمتهم هي عدم السماح لأحد بالاقتراب منه؛ وكان مظهرهم المتوعد يُبعد عنه الفضوليين، ويردع حتى مفتشي المعرض عن القيام بعملهم. ولم تكن هذه الأمور تخطر لمركيز أوت، الذي كان يجهلها، أو أنه كان يعرفها ولكنه لا يقيم أي علاقة بينها وبين أونوفري بوفيلا وزيارته للمعرض. وكان أونوفري يفكر الآن بهذه الأمور، وهو مختبئ وراء شجرة سنديان، ويقول لنفسه: أجل، يجب أن يتم كل شيء مثلما خططت له، ومن المستحيل أن يؤدي خطأ إلى تقويض خططي المحكمة: إنها جميلة جداً، وأنا ذكي ومتقد جداً، وكل شيء يجب أن يسير على ما يرام بالقوة. آه، يا لنعومة حركاتها، ويا لكبريائها الغريزي؟ يبدو أكثر من واضح أنها ولدت لتكون ملكة. أجل، أجل، كل شيء سيسير على ما يرام، ولا يمكن أن يتم بصورة أخرى. وبينما هو يقول ذلك، كان ينظر نظرة تطيّر نحو السماء: فبالرغم من تفاؤله، خيل إليه أنه يرى في تلك القبة الزرقاء التي لا تشوبها سحابة واحدة، تعليقاً ساخراً من تمنياته الجنونية.

وبالفعل، فكل شيء كان يبدو مهيأ للوصول إلى نهاية خبيثة. ففي كانون الثاني (يناير) سنة 1929، وصل العجز الذي سببه معرض برشلونة الدولي إلى مئة وأربعين مليون بيزيتا، ورأى البارون دي فيفير هوة بلا قرار تنفتح أمام قدميه. فصرخ: هذا الوضع يتطلب حلاً نهائياً. وكان قد سكب البنزين في أنحاء مكتبه وهمَّ بإشعال عود الثقاب عندما فُتح الباب على مصراعيه ودخلت القديسة إولاليا، والقديسة إنيس، والقديسة مرغريتا، والقديسة كاترين. لقد خرجت القديسات الأربع معاً هذه المرة من منحوتة خشبية ما زال بالإمكان رؤيتها في متحف أبرشية سولسونا؛ وكانت القديسات الأربع قد لقين ميتة عنيفة، وكن يعرفن، بالتالي، ما الذي تعنيه هذه الأمور: فانتزعن علبة الثقاب من يد العمدة المنكوب، وأرغمنه على التعقل. كانت القديسة إينيس قد جاءت ومعها خروف، والقديسة مرغريتا معها تنين نقال. وانتزعت القديسات من رأسه الأفكار السخيفة التي راح يغذيها في كربه: ففضلاً عن الانتحار، كان قد فكر بإمكانية إشعال ثورة شعبية، دون أن يلاحظ أنه لا

يمكن التوفيق بين الأمرين. وقالت له القديسات: أيام بريمو دي ريفيرا صارت معدودة. وهذا البذخ هو حشرجة الوحش الأخيرة، وذكرنه بأسطورة الضفدع التي ظلت تنتفخ إلى أن انفجرت. وقالت القديسة مرغريت، التي يُحتفل بعيدها في العشرين من تموز (يوليو): ثم إن المعروف عن الثورات الشعبية أنه يمكن معرفة متى تبدأ، ولكن لا يمكن معرفة كيف تنتهي. وقالت القديسة إينيس التي يُحتفل بعيدها في الحادي والعشرين من كانون الثاني (يناير): اجلس أمام باب بيتك، وسوف ترى مرور جثة عدوك من أمامك. فوعدهن العمدة بأن ينتظر، وألا يرتكب مزيداً من الحماقات. وكان هذا هو أفضل موقف يمكن اتخاذه في ذلك الوقت: إذ لم يعد هناك من يؤمن بالدولة النقابية التي أراد الدكتاتور إقامتها، ولم يعد هناك من يريد الدكتاتورية التي صارت تهدد بتوليد الفوضى، وبالغرق في الثورة. وكانت الأشغال العامة قد أدت إلى حدوث تضخم نقدي لا يمكن تقويمه، وراحت قيمة البيزتا تتدنى دون كابح. فكان عدم وجود جنرال طموح هو العائق الوحيد الذي يمنع وقوع انقلاب عسكري. أضف إلى ذلك أنه في السادس من شباط (فبراير)، قبل ثلاثة أشهر من موعد افتتاح المعرض الدولي، توفيت الملكة ماريا كريستينا بذبحة صدرية. وكانت هي، باعتبارها وصية على العرش، قد دشنت معرض عام 1888، الذي يتذكره الجميع الآن بحنين؛ واعتبر موتها فأل شؤم. وكان الناس في مدريد يقولون إن الملكة قد نصحت ابنها، وهي على فراش الموت، بأن يتخلص في أسرع وقت من بريمو دي ريفيرا. وكان لا بد من أن يشكل ذلك ضغطاً على الملك. وفي هذا الجو القلق، حان موعد افتتاح المعرض.

- 3 -

– عليك أن تذهب لتنام يا أبي، فغداً ينتظرنا يوم هائج: ستكون بحاجة لكل طاقتك. – قالت ماريا بيلتال لأبيها.

فنهض المخترع عن الأريكة. وكان يدخن غليونه هناك بعد أن تناول العشاء. وبدلاً من أن يتجه نحو غرفة نومه، كما اقترحت عليه ابنته أن يفعل، سار نحو الباب. فسألته: إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟ ودون أن يجيبها، خرج

سنتياغو بيلتال من جناح الصيد. ومع أنه من المنطقي أن يبدو مشغول البال في هذه الليلة بالذات، إلا أنها قررت أن ترافقه: فقد اكتسبت على امتداد سنوات طويلة عادة عدم تركه يغيب عن بصرها. وقبل أن تخرج، ذهبت للبحث عن شال تتقي به برودة الليل. كانت الرياح تعصف في الحديقة محملة بنذر هطول المطر. ففكرت: هذا لا، كل شيء سوى المطر. رأته يسير بصورة آلية نحو الخيمة؛ وكان في كل ليلة يقوم بهذا المشوار. فهو لا يذهب إلى النوم أبداً دون أن يذهب قبل ذلك إلى الخيمة. وكان لا بد بعد ذلك من الإلحاح عليه لكي يعود إلى جناح الصيد، وتأنيبه لمنعه من قضاء الليل ساهراً هناك. ومع ذلك، فإن زيارته للخيمة في هذه المرة رمزية محض، لأن الآلات والمحروقات قد نُقلت إلى الجناح في المعرض، في مونتجويك، وقد أعيد هناك تركيب الآلة بكاملها. والرجل الذي ما زال يقوم بالحراسة عند مدخل الخيمة، بحكم العادة أو لإفراط بالحيطة، حيّاه بلطف عندما رآه: عمت مساء يا بروفسور سنتياغو. فبادله المخترع التحية دون أن يهتم بما يفعله. وأضاف الحارس: غداً هو اليوم العظيم، أليس كذلك يا بروفسور؟ فهز المخترع رأسه عند سماعه هذه الكلمات، وسأله: ماذا تقول؟ فأسند الحارس عقب البندقية على العشب، وكرر بحماس وهو يبتسم: اليوم العظيم. ثم أضاف بصوت خافت: أرجو من الله أن يتم كل شيء على ما يرام. فهز المخترع رأسه موافقاً، وفكر وهو يدخل إلى الخيمة: يا للغرابة، الجميع منفعلون عشية الحدث، وكلهم يشعرون بأنهم شركاء، حتى هذا الفتوة الذي لم يكن لمساهمته أدنى علاقة بالعلم، وهو أبعد ما يكون حتى عن فهم مغزى مشروعنا؛ مع ذلك، يمكن القول الآن إن سعادته متوقفة على نجاح المشروع. وكان الحارس يفكر بدوره: طبعه صعب، ولكن لا شك في أنه عالم حقيقي، ومن الطبيعي أن يكون مثقلاً بالهموم في هذه الليلة؛ وابنته، كم هي جيدة! لم يبق في داخل الخيمة سوى النفايات، وبعض الأدوات المبعثرة هنا وهناك، وبقايا أخشاب استخدمت في التعليب، وبعض الصناديق الفارغة، وبقية من الاثنين وتسعين طناً من النشارة التي استخدمت لحماية قطع الآلات الحساسة من الصدمات. ولم يكن هناك ما هو أكثر غماً مما يوحي به منظر تلك الفوضى المحزن، وذلك الحيز الفسيح الخاوي. وفكر سنتياغو بيلتال: أما أنا بالمقابل،

من تمكنتُ أخيراً من تحقيق حلم حياتي، فإنني لا أشعر مع ذلك إلا بالحنين والغم. وبدا له الفراغ الذي يحيط به في الخيمة نسخة مطابقة لحالته المعنوية. وصارت سنوات الكفاح الطويلة بالمقابل تبدو له الآن سعيدة. وفكر للحظة: لقد كنت أعيش آنذاك على الأوهام. ثم أدرك أنه ليس هناك ما هو أكثر زيفاً من هذه الفكرة، وقال لنفسه: لقد ضحيت بحياتي كلها من أجل تلك الأوهام. وتساءل عما إذا كانت تلك التضحية تستحق العناء فعلاً. وقطع عليه صوت الحارس تأملاته عندما سمعه يقول: مساء الخير يا آنسة. ففكر: إنها ماريا، لقد أتت بحثاً عني. لقد كانت هي الضحية الرئيسية لجنوني، فقد كنت أضع على الدوام جنون عظمتي فوق سعادتها؛ وبدلاً من أن أوفر لها ما كان لها الحق في أن تنتظره مني، اضطرت هي إلى أن تحيطني برعايتها. وبسببي كانت حياتها تنازلاً متواصلاً عن حقوقها ومذلة بلا نهاية. ولمح بطرف عينه ظل ابنته على ضوء مصباح البترول الباهت الذي ينير داخل الخيمة. وفكر: وها هي الآن، إنها هنا في هذه اللحظة بالذات من أجلي، لقد جاءت تبحث لأنه يجب عليّ أن أستريح؛ وربما كانت هذه الفرصة المناسبة لأخبرها بهذه الأمور؛ لن نستطيع إصلاح شيء بذلك، ولن أعوضها عن الضرر الذي سببته لها، ولن نستعيد الزمن الضائع، ولكن ربما ستجد العزاء حين تعرف أنني كنت أشعر ببؤسها.

– يجب أن تذهب لتنام يا أبي. فالوقت متأخر، ولم يعد لدينا ما نفعله هنا. – قالت ماريا بيلتال – انظر، كل شيء صار الآن هناك، في مونتجويك. وحتى المهندسون قد ذهبوا. لقد عادوا جميعهم إلى بيوتهم.

وما قالته كان صحيحاً: فمع انتهاء العمال والفنيين من أعمالهم، جرى تسريحهم، وكان أونوفري بوفيلا يرسل الخبراء في علوم الحركة الهوائية إلى بيوتهم بعد أن يعدهم بمكافآت كبيرة إذا هم حافظوا على سرية ما عملوه وما رأوا آخرين يعملونه هناك. ولم يبق الآن في المشروع سوى سنتياغو بيلتال ومهندس عسكري بروسي، خبير في القذائف الباليستية، سبق أن تعامل أونوفري بوفيلا معه بكثرة خلال الحرب الكبرى، وكان بقاؤه ضرورياً من أجل إنجاز المشروع.

– هناك أمر أريد أن أحدثك عنه يا بنتي – قال سنتياغو بيلتال.

- لقد تأخر الوقت الآن يا أبي. ستخبرني بما تشاءه في الغد.

فقال المخترع:

- لا، غداً سيكون قد فات الأوان.

وقطع عليهما هذا الحوار دخول رجل إلى الخيمة. وكان الرجل هو قهرمان المنزل: وقد ذهب، بأمر من أونوفري بوفيلا إلى جناح الصيد ووجده خاوياً، فخطرت له فكرة المرور على الخيمة، وقال:

- السيد ينتظر في المكتبة.

فتنهد سنتياغو بيلتال، وقال لابنته: لا يجوز أن أجعل من أحسن إلينا ينتظر. ثم قال للقهرمان:- سأنضم إليك بعد لحظة.

فهز القهرمان رأسه، وقال بجفاء: عفواً، ولكن السيد لا ينتظرك أنت، وإنما ينتظر الآنسة. تبادل المخترع وابنته النظرات مدهوشين. وقال سنتياغو بيلتال أخيراً: اذهبي يا بنتي، وأنا سأذهب للنوم حالاً، لا تقلقي. وفكرت ماريا بيلتال: ربما يجب علي أن أمرّ للحظة على جناح الصيد لأستبدل ملابسي.

لم يقل شيئاً، بل إنه لم يرفع نظره عن المنضدة عندما أخبره القهرمان بوصول ماريا بيلتال، ثم قال بصوت خافت: أدخلها، ثم أغلق الباب وانصرف، لن أحتاج إليك هذه الليلة. وعندما صارت معه على انفراد، ودون أن تعرف ماذا يريد منها، اقتربت من المنضدة، وحين رأى أونوفري بوفيلا أنها صارت قريبة منه، قال لها: انظري، أتعرفين ما هذا؟ لم يسبق له أن خاطبها دون كلفة من قبل، ولم تفتها ملاحظة هذا التفصيل. كانت الريح تصفع زجاج النوافذ. ففكرت: هل ستمطر غداً؟ وقال هو: إنها **الريجنت**، الماسة الأكثر كمالاً في العالم. وهي لي، وبها أستطيع شراء بلدان بكاملها. ومع ذلك، يمكن لراحة اليد أن تضمها، لاحظي. ووضع الماسة في يد ماريا بيلتال، وأجبرها على أن تطبق أصابعها. قرأت خلال لحظة البريق الذي ترسله سطوح الماسة؛ بدا ذلك كما لو أن في الماسة سلكاً متوهجاً. وقال هو: كل شيء له ثمن. فتحت يدها، فتناول هو الماسة، ولفها في منديل أبيض، ووضعها في أحد جيوب السترة البيتية التي يرتديها. وتوقفت فجأة الرعشة الخفيفة التي كان بالإمكان ملاحظتها على شفتيه، وقال دون تمهيد: أود أن أعرف طبيعة عواطفك نحوي. وأضاف: إذا كنتُ لا أوحي لك إلا بالامتنان أو الخوف، فلا

تقولي شيئاً. فأغمضت ماريا بيلتال عينيها وقالت بصوت خافت: منذ عشرين سنة وأنا أعيش من أجل هذه اللحظة فقط. فنهض واقفاً على الفور، وقال: لا تخافي، كل شيء سيسير على ما يرام.

استيقظ سنتياغو بيلتال مبللاً بالعرق. لقد حلم أنه فقد ابنته إلى الأبد، وأنه لن يراها أبداً. وفكر وهو يشعل الضوء الذي على الكوميدينو: هذا خاطر سخيف، ولا بد أن هناك سبباً آخر يبرر قلقي. نظر إلى الساعة، ورأى أنها الرابعة فجراً. كانت الرياح قد هدأت وبدت السماء صافية. وكان الظلام ما يزال مخيماً، ولكن خطاً رمادياً كان قد بدأ يظهر في الأفق، ويجعل النجوم تشحب تدريجياً. وفكر: سيكون النهار مشرقاً، الحمد لله. ولكن هذا التوقع لم يكن كافياً لتبديد انزعاجه بالكامل. وكرر بينه وبين نفسه: هناك شيء لا يسير على ما يرام. نهض وخرج من الغرفة وهو بالبيجامة وحافي القدمين. كان جناح الصيد غارقاً في الصمت، ورأى باب غرفة ابنته موارباً، فأطل باحتراس. وعندما تعوّدت عيناه على العتمة، لاحظ أن السرير لم يمس وأن ماريا غير موجودة. فقال لنفسه: هل هذا ممكن؟ ألم تعد بعد من مقابلتها مع أونوفري بوفيلا؟ عم تراهما يتحدثان؟ دنا من النافذة ونظر في اتجاه المنزل؛ فلم ير فيه بريق أي ضوء. ففكر: ما الذي يحدث في ذلك المنزل الآن؟ وخرج من جناح الصيد دون إضاعة لحظة واحدة في انتعال حذائه أو في ارتداء معطفه. فاعترض طريقه ثلاثة رجال في الحديقة: أحد أولئك الرجال هو الحارس الذي حياه قبل بضع ساعات عند مدخل الخيمة؛ والثاني هو رجل السيرك الضخم الذي أتى مع الخيمة المذكورة؛ أما الثالث، الذي لا يتذكر أنه رآه من قبل، فكان عجوزاً، له بشرة مائلة إلى الحمرة، وعيناه زرقاوان، يرافقه كلب صغير ذو حركات خرقاء. وكان يبدو أن هذا العجوز هو الآمر.

– تفضل واتبعني يا سيد بيلتال، – قال له – وأرجوك ألا ترفع صوتك: فمن الواجب أن نتصرف بتكتم وبسرعة.

– ما هذا؟ – صرخ المخترع – أي شيطان أنت لتتجرأ وتصدر لي الأوامر؟ وما الذي يعنيه هذا الاعتداء؟

- لا تغضب يا سيد بيلتال - رد عليه الرجل صاحب الكلب الصغير - إننا نفعل ما طلبه منا السيد بوفيلا وحسب. وابنتك لم تتعرض لأي أذى.

- ابنتي! - غمغم المخترع وهو يضغط على أسنانه ويهدد العجوز صاحب الكلب بقبضتيه - ما هذا الذي تقوله؟ ولماذا تتعرض ابنتي للأذى يا عجوز السوء؟ - وبينما هو يقول ذلك حاول الاعتداء على العجوز، ولكن هرقل السيرك استبق الأحداث، فوقف وراء المخترع وثبت ذراعيه جيداً، فراح يصرخ عندئذ بملء رئتيه:- إليّ، أيتها الشرطة! النجدة، إنهم يختطفونني!

فقال العجوز صاحب الكلب:

- لن يسمعك أحد هنا. أما في البيت فعليك أن تلزم الصمت إذا كنت لا تريد إيقاظ الجميع. ولا تجبرنا على استخدام الكلوروفورم.

أعاده هذه التحذير إلى صوابه؛ وفضل أن يلزم الصمت. وراح يتساءل: أيمكن أن يكون كل ذلك وهماً؟ وأن نكون أنا وابنتي مجرد بيدقين في لعبة نجهل قواعدها؟ وكانت أشد الإجابات فظاعة تتزاحم في رأسه، ولكن نفسه كانت ترفضها بيأس من يرفض الواقع الفظ حين يستيقظ من حلم بديع. وكان يقول لنفسه: لا، لا، لماذا يكون كل ذلك مجرد كذبة قاسية؟ وفي أثناء ذلك كانت السماء قد تلونت بألوان قوس قزح؛ وظهرت فوق المدينة أحزمة قرمزية، تشع بوميض حريق. فتساءل: ما هذا؟ أتحترق برشلونة من جهاتها الأربع؟ وفي الوقت نفسه كانت ماريا بيلتال تتأمل أيضاً هذا الفجر المهيب والمذهل. وهمست: يبدو وكأن الأفق يشتعل. وكما لو أن الجحيم يزورنا. كانت تقف بجانب نافذة المكتبة؛ وتلف جسمها بالستارة المخملية الحمراء. وعندما التفتت بنظرها إلى داخل الغرفة، رأت من جديد الملابس المبعثرة على السجادة، وأحست بقشعريرة حين صوبت بصرها مرة أخرى نحو السماء المريعة. وفكرت: ماذا سيحدث لي الآن؟ وتعالت عندئذ صرخة انتزعتها من تأملاتها بصورة مفاجئة. سألت: ما هذا الصراخ؟ كان أونوفري قد انتهى من ارتداء ملابسه، وراح يشعل سيجارة بهدوء مقصود. وقبل أن يجيب على سؤالها، نفخ على عود الثقاب، ووضعه في المنفضة، وأخذ عدة أنفاس متتالية من السيجار، ثم قال: لا أدري، إنه خادم، أو حوذي يحث بغاله، ما أهمية ذلك؟ وسُمعت الصرخة مرة أخرى، فأحست ماريا بيلتال بالقشعريرة من

جديد.

- إنه أبي - قالت ذلك دون أن ترفع صوتها.

- ياه، ما الذي تقولينه؟ - ردّ عليها - إنها تخيلات، فأنت متوترة.

لم تهتم بكلماته، وقالت متوسلة:

- أرجوك أن تناولني ملابسي: يجب أن أذهب لأرى ما الذي يحدث.

لكنه لم يتحرك من مكانه. كان ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين من خلال الدخان الذي يطلقه السيجار؛ وكان يلين لمرأى كتفيها وعنقها غير المغطيين بالستارة؛ ولمرأى هشاشتها الظاهرة، وشعرها المشعث، ولهاثها الذي يحرك ثنيات مخمل الستارة.

- لن أدعك تذهبين أبداً - قال لها أخيراً. وفكر بينه وبين نفسه: لن أسمح لك بأن تفارقيني. إنني أحبك يا ماريا، أحببتك بجنون منذ اللحظة الأولى. وأنا أعاني بسبب حبك منذ عشرين سنة دون أن أعرف ذلك.

- وأبي؟ - سمعها تسأله - ماذا ستفعل بأبي؟

- لن يصيبه مكروه. - قال. فألحت ماريا بيلتال:

- أين هو الآن؟ ما الذي يفعله به رجالك؟

- إنهم يأخذونه إلى مكان آمن، لا تقلقي. وهل تظنين أني قادر على عمل شيء مخالف لرغبتكِ؟ - قال ذلك بوجه يفتر عن ابتسامة مطمئنة. وفي تلك اللحظة سُمعت طَرقات على الباب، فقال لها: اختبئي جيداً، لا أريدهم أن يروك. - ثم رفع صوته قائلاً:- ادخل! ففُتح الباب قليلاً وأطل منه رأس العجوز صاحب الكلب، فسأله: هل كل شيء على ما يرام؟ فهز العجوز صاحب الكلب رأسه دون أن يصدر عنه أي صوت. وقال أونوفري بوفيلا: حسن، سننطلق فوراً.

عندما انصرف العجوز، وأُغلق الباب، مضى بخطوات واسعة نحو المنضدة، وقال لها: يمكنك أن تخرجي؛ هيا ارتدي ملابسك، لا وقت لدينا نضيعه. وحين لاحظ أنها مترددة في الخروج، أضاف بتحفظ: أوه، لا بأس، لن أنظر إليك. وما هو الهدف من هذه الوساوس بعد أن بلغت الأمور ما وصلت إليه؟ وأدار لها ظهره بينما راحت تجمع ملابسها المبعثرة عن الأرض؛ ولكنه لم يكف مع ذلك عن مراقبة حركاتها بطرف عينه: فقد كان يخشى من

أن تستغل لحظة سهو لتهرب، أو لتعتدي عليه بضربه بشيء ما، ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك. وفي تلك الأثناء، كان قد أخرج من أحد أدراج المنضدة رسالة مكتوبة بخط يده، فمهرها بتوقيعه، وطواها ووضعها في مغلف. ثم كتب بعد ذلك عنواناً على المغلف، وألصقه بلحس حافته المصمغة، وتركه على المنضدة، حيث يظهر وجوده بوضوح، ثم التفت نحوها، وكانت تنهي تثبيت مشابك أحزمة جوربيها التي تحيط بفخذيها، وقال لها: هل أنت جاهزة؟ فهزت رأسها إيجاباً. فهتف أونوفري بوفيلا: هيا بنا إذن!

خرجا إلى الممر وكل منهما يمسك بيد الآخر. وعندما بدءا بنزول الدرج المؤدي إلى الطوابق السفلى، وضع إصبعه على شفتيه، وقال بصوت هامس: صمتاً! ليس من المناسب أن تستيقظ زوجتي. ووصلا على رؤوس أصابعهما إلى المدخل الرئيسي للمنزل. وهناك كان القهرمان ينتظرهما ومعه سترة تتدلى على ساعده. خلع أونوفري بوفيلا الروب البيتي وارتدى السترة التي قدمها إليه القهرمان. ثم دس يده في جيب الروب البيتي الذي خلعه، وأخرج منه المنديل الذي يلف به الماسة، ووضع تلك اللفافة في جيب السترة، وقال للقهرمان وهو يربت على كتفه: أنت تعرف ما عليك أن تفعله. فقال القهرمان: أجل. ثم أضاف بعد ذلك بصوته المحايد الذي لا يكشف عن أي نوع من التأثر: توخَ الحذر يا سيدي. وأمسك أونوفري بوفيلا بيد ماريا بيلتال دون أن يرد عليه، وخرجا معاً إلى الحديقة، حيث كان العشب مبللاً بالندى. وفي الجانب الآخر من الجسر، على خلفية ستارة الفجر الحمراء، كانت هناك سيارة تنتظرهما. صعد إليها أونوفري بوفيلا وماريا بيلتال، وقال هو للسائق: أنت تعرف إلى أين عليك أن تذهب. فانطلقت السيارة مخترقة الضباب بمصباحيها المضيئين.

على الرغم من كل التملق الذي أبدته السلطات المحلية، ومن كل التودد الذي بالغ أعيان المدينة بإظهاره، وبالرغم من القرار المعلن مسبقاً والقاضي بأن المناسبة احتفالية، فإن جلالة ألفونسو الثالث عشر، كان يرفض التخلي عن مزاجه المتجهم. فمنذ أن استقر في قصر بيدرالبيس، المخصص لإقامته في برشلونة، وهو يتذكر بإلحاح ذلك الحدث الرهيب الذي جرى قبل ثلاث

وعشرين سنة. كان لا يزال في مطلع شبابه حينذاك، وقد تزوج لتوه من الأميرة فيكتوريا أوجينيا دي بتنبيرغ. وكانت الحشود تتزاحم في شوارع مدريد، بالرغم من هطول المطر، لرؤية مرور الموكب؛ فقد كان الزوجان الجليلان قد خرجا من كنيسة سان خيرونيمو، حيث أقيمت مراسم الزفاف، وكانا يتجهان الآن في العربة الملكية إلى قصر أورينتي. ولدى المرور في شارع مايور، أُلقيت قنبلة من أحد الطوابق، وسقطت أمام العربة: وانفجرت هناك بالذات. وعلى الرغم من رعبهما العظيم، فإنهما لم يصابا بأية جروح. وعندما تأكد الملك من سلامته، التفت نحو عروسه وقال لها: هل أنت بخير؟ كان ثوب العروس قد اصطبغ بالأحمر، ملطخاً بدماء الجمهور وجنود الحراسة. فأحنت الأميرة فيكتوريا أوجينيا رأسها بوقار، واكتفت بالقول: *Yes*. لقد قتل في الاعتداء بين عشرين وثلاثين شخصاً. وعندما وصل الملكان إلى القصر، سارعا إلى استبدال ملابسهما. ووجد الملك ألفونسو الثالث عشر إصبعاً بين ثنيات عباءته؛ فدسها بحركة سريعة في جيب بنطاله كي لا تراها زوجته. وبعد ذلك، في أثناء حفل الاستقبال، ناولها للكونت دي رومانونيس قائلا له: خذ، ألق بها في المرحاض. فهتف الكونت: ولكنها من الرفات الخالد لشخص مسيحي يا صاحب الجلالة. فرد عليه الملك: فلتدفن إذن في مقبرة ألمودينا، على ألا أراها بعد الآن. وبينما كان النبلاء وأعضاء السلك الدبلوماسي يرقصون، كان هناك آلاف من رجال الشرطة يبحثون عمن حاول قتل الملك في كل أنحاء مدريد. وقد وجدوا جثته بعد بضعة أيام في توريخون دي أردوث. كان قد أوقفه حارس إحدى المزارع، وعندما رأى الهارب أنه قد وقع، قتل الحارس أولاً ثم انتحر بعد ذلك. وكانت هذه الرواية تعاني شيئاً من عدم الانسجام، ولكن الجميع كانوا يريدون نسيان الحادث، فتقبلوا تلك الرواية دون جدال. وسرعان ما جرى تحديد هوية المعتدي على الملك: فهو يدعى ماتيو مورال، وهو ابن أحد الصناعيين في سابادل (بالقرب من برشلونة)، وهناك كان يعمل أستاذاً أو وكيلاً في مدرسة فيرير غوارديا الحديثة. ومنذ ذلك الحين صار ألفونسو الثالث عشر يعتبر الكتلانيين أناساً معادين، ذوي سلوك مندفع ومفاجئ. وبينما هو الآن في قصر بيدرالبيس، كان يضع عند رأس السرير الملكي بنادقه التي يستخدمها في الصيد «تحسباً

للطـوارئ» كمـا قـال لزوجتـه. ولـم يكـن هنـاك مـن يسـتطيع منافسـته فـي استخدام تلك البنادق. فعندمـا يخـرج إلـى الصيد، وهـو مـا يفعلـه بكثرة، كـان يحمل معه دائماً ثلاث بنادق محشوة. ويتمكن بتلك البنـادق مـن أن يقتـل، فـي لحظـة خاطفـة، طـائري حجـل يحلقـان أمامـه، واثنـين فـوق رأسـه، واثنــين وراء ظـهره. ولا يمكـن لأحـد التنـافس معـه فـي هـذا المجـال سـوى الملـك جـورج الخامس. وبالرغم من كل ذلك، فقد كان نومـه مكدراً هـذه الليلـة. وكـان قـد نهض قبل أن يأتوا لإيقاظه، وراح يتأمل بزوغ الفجـر مـن خـلال النـافذة: كـانت السماء تبدو كأنها المحرقة. وفكر الملك: إنـه منظـر بديـع. ولكـن، هـل هـو فـأل طيب؟ الله أعلم!

وفـي مكان آخر من المدينة نفسها، كان الجنـرال بريمـو دي ريفـيرا يمعـن النظر إلى السماء أيضاً لعله يجد بعض الإشارات. وكان يقول لنفسـه: لا شـك فـي أنه فجر قطبي شمالي. وفكـر: «هناك مصائب آخذة بالاقتراب. وأنا هنا، مثل دمية». فهو أيضـاً لـم ينـم جيـداً، وكـانت أفكـاره مضطربـة بعـض الشـيء. اسـتدعى مسـاعده وأمـره بـأن يذهـب ليأتيـه بالقـهوة. وعندمـا رجـع المسـاعد، وجد الدكتاتور يحاول بمشـقة انتعـال جزمتـه عاليـة السـاق. فقـال لـه المسـاعد وهو يجثو على ركبتيه: اسمح لي أن أساعدك يا سيدي الجنرال. سكب بريمـو دي ريفيرا لنفسه فنجاناً من القهوة، وقرّبه من شفتيه. وقـال: فـي مسـاء أحـد الأيام، منذ زمن طويل، دخلتُ إلى حانة فـي طنجـة... لا لشـيء، وأنـت تعـرف، كنتُ أريد أن أتناول كأساً، ومن تظنني التقيت عنـد دخولـي؟ فلنـر، خمـن أنـت بمـن التقيت؟ هـز المسـاعد كتفيـه: ليسـت لـدي أي فكـرة يـا سـيدي الجنـرال. فقـال الدكتـاتور: قل اسـماً مـا يـا رجـل. حـك المسـاعد رأسـه، وقـال أخـيراً: لا يمكنني أن أتصور من يكون مهما فكـرتُ يـا سـيدي الجنـرال. فـألح الدكتـاتور: اذكر اسماً، أول اسم يخطر على بالك. ثم أضـاف مبتسـماً: ولكنـك لـن تحـزره مهما ذكرت من أسماء. تناول رشـفة مـن القـهوة وتنـهد بصخـب، وهتـف: ليـس هناك ما يعادل فنجاناً من القهوة الثقيلـة مـن أجـل بـدء النـهار. دوى مـن بعيـد صـوت بوق مخنوق، وتلاه قرع طبـول، ثـم جوقـة عسـكرية كاملـة أخـيراً تتـدرب على عزف مارش عسكري. فتأفف الدكتاتور: آه، إنهم يعزفون الألحان نفسـها على الدوام؛ يعزفونـها بصـورة سـيئة علـى الـدوام. أيـن هـي أوسـمتي؟ قـدم لـه

المساعد علبة من خشب قاتم؛ وهذه العلبة التي نُقش تاج على غطائها، كانت من ممتلكات عمه، مركيز إستيّا الأول. فتح بريمو دي ريفيرا العلبة وتفحص الأوسمة بمزيج الكبرياء والحنين. ثم سأل المساعد: حسن، ألن تقول لي بمن التقيتُ في تلك الحانة في طنجة؟ فوقف المساعد متأهباً قبل أن يقول: «بوفالو بيل يا سيدي الجنرال». حدق فيه بريمو دي ريفيرا مذهولاً: يا للعنة! كيف حزرته؟ فاعتذر المساعد وقد احمرّ وجهه: المعذرة يا سيدي الجنرال، لقد كانت ضربة حظ، أقسم بأمي. فطمأنه الدكتاتور: لا حاجة بك إلى الاعتذار يا بني، فأنت لم تفعل شيئاً سيئاً.

كان البارون دي فيفير يستعد أيضاً في أثناء ذلك للقيام بواجباته، مع أنه كان يفور غضباً في أعماقه: فقد كان قد استقبل في مكتبه في البلدية، في اليوم السابق، رئيس مراسم التشريفات في القصر الملكي الذي أطلعه على بعض المخططات غير المفهومة، ووجه إليه تعليمات صارمة بمنتهى الصفاقة. وقد كان يزمجر الآن وهو بمفرده في مقر إقامته كعمدة: يا للوقاحة! أيقال لي أنا ما يجب علي أن أعمل، وأين، ومتى، وكيف! هل شوهد مثل هذا؟ أين يظنون أنفسهم؟ هذه مدينتي أيها السادة الصغار! وحين يقول هذا يرفع صوته أكثر، ويومئ برفع يديه وهزهما فوق القبعة، ويمشي بصورة دائرية في غرفة الملابس. ويسأل الفراغ: ومن الذي خطر له ذلك التنظيم؟ جلالته أولا، ثم العائلة المالكة، ثم بريمو دي ريفيرا ووزراؤه، وبعدهم المفوض الملكي لشؤون المعرض، والسيد الأسقف؛ والسادة السفراء والمندوبون... وأنا، أين مكاني؟ في العربة الأخيرة في ذيل القطار؟ وكان يسارع عندئذ نحو الباب، يضع يده على مقبضه وكأنه يريد الخروج من هناك، ثم يتوقف في ذلك الوضع دون حراك، ثم يترك بعد ذلك مقبض الباب ويعود ليذرع الغرفة في الاتجاه المعاكس. ويقول لنفسه وقد هدأ فجأة: لا، لا يمكن لمثل هذا الأمر الجلي أن يكون مصادفة أو بسبب الجهل أو عدم الكفاءة. إنها إهانة مقصودة لشخصي ولمنصبي؛ ومن خلال منصبي، إلى برشلونة بأسرها. فتلهب هذه الأفكار غضبه من جديد، وتكتسب مناجاته لنفسه مسحة هذيانية: سأنتقم، أقسم بالرب القدير إنني سأنتقم. وكان يقول ذلك بصوت مكتوم وهو يضغط على أسنانه. ويضيف: في ذروة حفل الافتتاح سأُنزل بنطالي، وسأبول على

جزمته العسكرية، وليعدمني رمياً بالرصاص هناك بالذات إذا كان يجرؤ! كانت هذه النوبات تدوم لوقت قصير، ثم يهوي بعد ذلك مباشرة في حالة من الإعياء، فيرى كل شيء قاتماً ومشوشاً. ويفكر عندئذ: أتكون الأمور حقاً مثلما أراها؟ أم أن السبب في كل ذلك هو شعوري بجنون العظمة؟ بأي حق يمكنني التأكيد بأن المدينة تتمثل بشخصي؟ أولست أنا خادمها الأخير، وأشد الموظفين مذلة؟ فأنا لم أتجرأ حتى على المعارضة؛ وبريمو دي ريفيرا نفسه هو الذي عينني. وبموقفي هذا الآن، ألست ألحق الضرر بالمصلحة العامة؟ آه، لم أعد أدري بماذا أفكر؛ فكل شيء يدور بي. وأخيراً نفذت الشمس من بين الغيوم، وانتهى ذلك الفجر العظيم: وراحت تلك الحمرة المتوهجة تتبدد في الجو لتتلألأ مكانها الزرقة الصافية والهادئة التي تبشّر بصباح ربيعي؛ فتساءل وهو يطلق زفرة مريرة: ما هي الحياة؟

كان جلالة ألفونسو الثالث عشر منهمكاً في لبس قفازه وهو يذرع صالونات وممرات قصر بيدرالبيس متوجهاً نحو الباب الخارجي برفقة حاجب دليل. وكان يفكر: يا للفظاعة! بناء قصر بهذه الضخامة من أجل أن نمضي فيه ليلتين وحسب. كانت خطواته الواسعة تضطر مرافقيه إلى المشي بخطوات سريعة، وكانت الملكة وحدها، وهي إنكليزية، تستطيع مجاراته في مشيته ودون جهد ظاهر، بل والتحدث إليه وهما يمشيان. كان يقول لها دون أن يخفف من مشيته: هل تلاحظين؟ إنه المعرض الدولي الثاني الذي أفتتحه في برشلونة. في المعرض السابق كنت ما أزال طفلاً صغيراً في السنة الثانية من عمري؛ ولستُ أتذكر بالطبع أي شيء منه، ولكن أمي تعوّدت أن تروي لي تلك الأمور. لقد كانت ذكريات طفولته، هي ذكريات رسمية على الدوام: فقد مات أبوه، ألفونسو الثاني عشر، قبل أن يكون هو قد ولد. فكان من عادته أن يقول: لقد ولدتُ ملكاً على إسبانيا. وعند ولادته، انحنت له إجلالاً القابلات والممرضات اللواتي كن يعتنين بأمه، قبل أن يضربنه على مؤخرته كي يطلق بكاءه الأول. وهذا ما جعله يتعلق بأمه كثيراً منذ البداية. وقد ماتت هي قبل وقت قريب. وقال وهو يصعد إلى سيارة البيرلينا المصفحة التي ستوصله إلى مونتجويك: مع بلوغ المرء الرابعة والأربعين من العمر، تتكرر الأحداث نفسها للمرة الثانية على الأقل.

قال بريمو دي ريفيرا لمساعده: يمكن لك أنت أن تقول ما تشاء، ولكنني أؤكد لك أن من رأيتَه كان ممثلاً، والاستعراض مجرد خدعة. فقال المساعد: بما أن حضرتك تقول ذلك، فلا بد أن يكون صحيحاً يا سيدي الجنرال، ولكن الإعلان كان يقول ذلك بوضوح. يخيل لي أني ما زلت أراه حتى الآن: «**بوفالو بيل، الوحيد والحقيقي**». فرد عليه الدكتاتور: ما هي إلا ترّهات: لأن بوفالو بيل توفي سنة 1917، وأنا أؤكد لك ذلك. ثم أضاف بتهكم: قل لي، ما الذي رأيته في ذلك الاستعراض، هل كان هناك هنود؟ كانت السيارة التي تقلهما تمضي مخترقة برشلونة بأقصى سرعة. فقد تأخر الوقت وعليهما أن يسرعا لكي يصلا إلى المعرض قبل وصول الملكين. فلو اضطر الملكان إلى انتظار الدكتاتور، فإنه يمكن لذلك أن يخل بالتوازن شديد الهشاشة الذي تستند إليه اللعبة السياسية في البلاد، ويمكن لهذا الحادث العادي أن يؤدي إلى عواقب يصعب تقديرها. أشرق الآن وجه المساعد:

- هل قلت هنوداً؟ أجل، يا سيدي الجنرال! ويا لأبناء العاهرة كيف كانوا يصرخون!

- حسن، وهل كان هناك *cowboys*؟

- أجل، يا سيدي الجنرال.

- هل أنت متأكد؟ كاوبوي يقذفون الأنشوطة؟

- أجل يا سيدي الجنرال.

كان هناك على طول طريقهما صف متصل، ولكنه غير كثيف، من الفضوليين. وكان بعض المارة ينضمون إلى ذلك الصف في اللحظة الأخيرة، تجذبهم أصوات صفارات الإنذار التي يطلقها راكبو الدراجات النارية الذين يشقون الطريق لموكب الدكتاتور. ولكن أحداً، مع ذلك، لم يكن يصفق أو يلوح بمنديل، وكثيرون ممن ظنوا مخطئين أن من يمر هو الملك، لم يمنعهم من الإعراب عن خيبة أملهم إلا وجود رجال الشرطة في كل مكان.

- وهل كانت هناك عربة بريد كذلك؟

اكتسى وجه المساعد بأمارات الذهول:

- عربة بريد؟ أي عربة بريد يا سيدي الجنرال؟

- ها، ها، لقد قلت لك ذلك... - هتف الدكتاتور. ولكن توقف السيارة

فجأة كاد أن يوقعه على سجادة أرضية السيارة:- أهلاً، ما الذي يحدث؟ ونظر من النافذة فرآها مغطاة بوجوه مبتسمة، فقال: لقد وصلنا. والحمد لله أن جلالته ما زال في الطريق. ثم وبخ مساعده: هيا، انزل، ماذا تنتظر؟

قوبل ترجله من السيارة بالاحترام والتصفيق. ودوّت أصوات أبواق وطبول. وكان البارون دي فيفير الضائع بين حشد الشخصيات المتزاحمة حوله، يقف على رؤوس أصابعه ويمطّ عنقه، وهو يصوب نحو عدوه اللدود، عينيه المحمرتين من السهر والغضب. وقال لنفسه وهو يتفحصه: إنه يبدو في حالة سيئة، وأستطيع أن أقسم إنه مريض. وقد جعلت هذه الفكرة كل حقده على الدكتاتور يتبدد. وفي هذه اللحظة بالذات دوت قذيفة مدفع، وتبعتها أخرى وأخرى ثم أخرى، إلى أن اكتمل عدد طلقات التحية: فهكذا كانت بطاريات مدفعية القلعة تحيي وصول الملك إلى مونتجويك. ووجد البارون دي فيفير نفسه مدفوعاً وسط الحشد نحو القصر الوطني حيث سيقام حفل الافتتاح في قاعة الاحتفالات الرئيسية فيه. كانت هناك جموع لا تحصى في حرم المعرض. وكان يمكن، من القصر، رؤية ذلك البحر من الرؤوس الذي يغمر كل شيء. وبعد انتهاء حفل الاحتفال، أطل الملكان من الشرفة، فهتفت لهما الجماهير لبعض الوقت. وكان بعض من يعتقدون أن كثرة الجموع تجعلهم غير معروفين، يطلقون صيحات الاستنكار ضد بريمو دي ريفيرا. ورأى مركيز أوت أنها مؤشرات على السقوط المحتم للدكتاتور الذي يحميه، فتوصل إلى الاقتراب من الملك والوقوف بجانبه، في مسعى منه لاستعادة الحظوة لديه. أشار بحركة مسرحية إلى المشهد العظيم الذي تراه عيون من هم على الشرفة، وقال بمبالغة في التفخيم:

– انظر يا صاحب الجلالة إلى ما تستطيع كتالونيا أن تقدمه إليكم: رجالها، وعبقريتها، وعملها.

– وقنابلها – أجابه الملك الذي تذكر على الفور محاولة ماتيو مورال لاغتياله. أراد المركيز أن يرد على ذلك، ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة. أضف إلى ذلك أن ظاهرة غير متوقعة استرعت في تلك اللحظة انتباه الملك وجميع الحاضرين: فإلى يمين الشرفة، وفي أقصى ساحة الكون، إلى جانب جادة ريوس إي توليت، كان هناك جناح مستدير الشكل، يُذكّر بشكل خيمة

سيرك بصورة غريبة. وعلى خلاف كل الأجنحة الأخرى، لم تكن فوقه أي راية أو إشارة. ولم يكن هناك من انتبه من قبل إلى هذا التفصيل، أو إلى الظروف التي أحاطت ببناء ذلك الجناح. وقد بدأت تصدر من هناك الآن قرقعة متواصلة، راحت تزداد متحولة إلى دوي كدوي محرك طائرة. وسرعان ما تحول ذلك الدوي إلى هدير أسكت دمدمات الحشود. ولم يعرف المسؤولون ماذا عليهم أن يفعلوا: فقد كانوا كثيرين إلى حد أن أياً منهم لم يكن يعرف طبيعة مهامه، ناهيك عن معرفة مجال مسؤوليته. فكانوا يتبادلون التساؤلات بعصبية فيما بينهم بالنظرات، وحاول كثيرون منهم التسلل هاربين. وأخيراً، ونظراً لأن الهدير لم يتوقف، ولم يتخذ أحد أي إجراء بشأنه، بدأ بريمو دي ريفيرا نفسه بإصدار الأوامر العاجلة إلى العسكريين المحيطين به؛ فينقلها هؤلاء بدورهم إلى ضباط وحداتهم. وتوجهت نحو الجناح بعد قليل القوات التالية: فصيلة من حرس المدينة بقيادة الملازم دون ألفارو بلاناس غازويّا، فصيلة من كتيبة مشاة بداخوث بقيادة النقيب دون أوغسطين ميرينو دل كوردونثيّو، سرية من الحرس المدني بقيادة النقيب دون أنخل دل أولمو منديث، سرية خيالة من قوى الأمن بقيادة الملازم دون أنطونيو خوليا كوبيّس، سرية من جهاز مخابرات الأمن المحلي بقيادة الملازم دون خوسيه ماريا بيراليس فاورا، سرية من كتيبة خيالة مونتيسا بقيادة القومندان دون مانويل خيمينث سانتاماريا، سرية من الشبان المجندين بقيادة الرقيب دون توماس بينيول إي مايوفري وعدد غير محدد من رجال الشرطة الذين بالملابس المدنية. فكان هنالك الآن ما يزيد على ألفي رجل يحاولون شق طريق لهم بين الحشود الغفيرة التي بدأ الهلع يدب بينها؛ فكثيرون منهم يتذكرون الاعتداءات الدامية التي وقعت في السنوات السابقة، والقنابل التي ألقيت على موكب كوريوس الديني، وظنوا عندئذ أنهم في ظروف مماثلة لتلك، وراحوا يحاولون النجاة بكل الوسائل. وقد حدث في بعض الأماكن تزاحم أشد خطورة من القنابل. ولسبب لا يمكن تفسيره، سُمع دوي عيار ناري تلاه صراخ جهنمي، مثل ذاك الذي يسبق عادة الكوارث الشهيرة. أما على شرفات القصر الوطني، حيث كان يتجمع رجال السلطة، فقد بقيت العيون كلها مصوبة نحو ذلك الجناح الذي بدأت جدرانه تهتز كما لو أن البناء بكامله

مفرقعـة متفجّـرة ضخمـة. وجـدت القـوات التـي كـانت تتحـرك إلـى هنـا أن تقدمها مستحيل بسبب الحشود التـي تتحـرك باتجاه معاكس للاتجاه الـذي يمضي فيه الشرطيون والحراس والجنود، محاولة الابتعاد بصورة جنونية عن الجناح. وكان المسؤولون عن المعرض يصيحون بالإجماع: يا للفضيحة! ويا للسمعة المهينة التي ستلحق بالمدينة! وكانوا يتصورون فـي دخيلتهم، ما الـذي ستقوله صحف العالم بأسره في صباح اليوم التالي، بل ربما فـي هـذا اليوم بالذات، فـي طبعـة استثنائية، ويقـرؤون بعيـون التخيـل: **برشلونة تكتسي بالحداد**، وتحت هذا العنوان: **السبب في المأساة هو خطأ في إجراءات الأمن، وهذا الخطأ يعزى إلى السيد**... وهنا كان كل واحد منهم يقـرأ اسمه مكتوباً بحروف كبيرة. ولكن الأحداث كانت تتسارع ولا تسمح بالاستغراق في تلك التقديرات: فقد بدأ سقف الجناح الآن يتحرك منفتحـاً بآليـة هيدروليكيـة، وكأنه مكون من بابين منزلقين، حوافهما معشقة فـي سكتين محفورتين فـي الجدران الجانبية للجناح. وبدأت تخرج من الفتحة زوبعة ساخنة راحت تشكل عموداً مرئياً بفعل انعكاس وهـج الحـرارة فـي الجـو، وتواصـل صعـود ذلـك العمود إلـى حيث يصل البصـر. وأخيراً، اختفـى نصفا السقف بالكامل فـي الجدارين الجانبيين، وتحول الجناح بذلك إلى اسطوانة مفتوحة من طرفها العلوي، مما جعلها تبدو أشبه بقاذفة قنابل. وأيقن الجميع بأنه سوف تخرج من هناك بين لحظة إلى أخرى، آلة لم يُر لها مثيل من قبل. وقد بدأت تلك الآلة بالخروج فعلاً بعد بضع ثوان، وسرعان ما صارت كلها خارج الجناح، مستقرة من تلقاء نفسها فـي الفضاء، وكأنها أحد الكواكب السيارة. وكان بالإمكان الآن رؤيتها من أي بقعة فـي المعـرض، وحتـى مـن خارجـه. أصاب البكم الحشود التي فارقها الذعر، ثم راحت تطلق بعد ذلك صرخات الدهشة والإعجاب. ولم يكن ذلك دون مسوّغ: كانت الآلة بيضاوية الشكل، يجب أن يكون طولها عشرة أمتار وعرضها الأقصى أربعة أمتار. وهذه الأبعاد قُدّرت هناك بالذات، بالنظر، وما زالت حتى اليوم موضع خلاف: والواقع أنه لم يكن ممكناً على الإطلاق التأكد من تلك الأبعاد، لأن أحداً لم ير الآلـة ثانية أو المخططات التي صنعت بموجبها. كان نصف الآلة الخلفي من معدن مصقول ولامع؛ ونصفها الأمامي مـن زجاج تحميه عروق مـن الفولاذ أو الخشب

المطاوع. وكان النصفان كلاهما متحدين بصورة ظاهرة، بطوق حديدي عرضه نصف متر، من تلك الأطواق التي تستعمل في صناعة البراميل. وكان على ذلك الطوق بضع مئات من المصابيح المضيئة تحيط الآلة بهالة من النور. من الواضح أن النصف الخلفي يضم المحرك الذي يدفعها ويحملها، بينما النصف الآخر مخصص للركاب الذين كان يمكن تبين أشكالهم بصورة مشوشة وسط سحابة الغبار التي ترافق الآلة في صعودها. كانت الحشود مبهورة برؤية ذلك الاختراع العجيب، حتى جلالة الملك، تخلى عن مظهر الازدراء والفتور الذي اتخذه في هذا اليوم، وأطلق صفير إعجاب وتمتم بصوت خافت: أكيد! وكان الجميع يتساءلون ما هو ذلك الشيء، فلا يكبح البعض روح مبادرتهم عند البحث عن جواب لهذا السؤال، فيقولون: إنهم المريخيون، لا شك في ذلك، وقد اختاروا برشلونة بالذات لكي يعرضوا على العالم تقدمهم التقني الفريد. وكان البرشلونيون يفكرون بفرح ينطوي على الخبث، بأن هذا الاختيار لمدينتهم سيجعل باريس، وبرلين، ونيويورك، وغيرها من المدن المزهوة بنفسها، تصرّ على أسنانها من الحسد. فقد كان وجود كائنات في كواكب أخرى أمراً لا يخامر الشكُّ به أحداً في تلك السنوات. وكانت تنتشر بهذا الشأن أشد الخرافات غرابة، ولم يكن يبدو على العلماء أنهم مهتمون بوضع حد لها. وقد أوكلت مهمة وضع تصور لشكل تلك الكائنات، أو «غير الأرضيين»، كما سمّوهم فيما بعد، إلى رسامي القصص المصورة حصراً، فكانوا يقدمونهم على الدوام بجسم إنسان ووجه سمكة. ويكونون في معظم الأحيان عراة تماماً، وهو ما لم يكن يخدش الحياء، لأن الأعضاء التناسلية لم تكن تظهر لديهم، فضلاً عن أن جلودهم حرشفية؛ وإذا ما ارتدوا ملابس، فإنها تقتصر على البنطال القصير المشدود على الساق والسترة الطويلة التي كانت شائعة في العصور الوسطى. أما رسم الأنف لديها على شكل البوق الصوتي فلم يُضف إلى صورتها حتى عقد الأربعينيات، عندما أتاحت السينما، مستعينة بالمجهر، اظهار صور مكبرة للبعوض وحشرات أخرى. وبالنسبة للزائرين من عوالم أخرى، الذين درج العامة آنذاك على إطلاق تسمية «المريخيين» عليهم، كانت هناك قناعة راسخة بأن ذكاءهم يفوق كثيراً ذكاء الأرضيين؛ وكان يفترض أن نيّاتهم مسالمة، لأن

طبعهم أقرب إلى الطيبة. ولكن كل هذه التكهنات لم تستغرق سوى لحظة وجيزة، لأن الآلة، بعد أن ارتفعت فوق قباب القصر الوطني، رسمت نصف دائرة، وبدأت تهبط ببطء فوق بحيرة النافورة السحرية. وتبين عندئذ أن ملاحي الآلة هم أشخاص من لحم وعظم، وأن تلك الآلة هي تنويع لما يعرف بالمروحية، أو مستقيمة الأجنحة، أو الهليوكبتر، أي الطائرات التي تقلع وتهبط عمودياً.

وكانت التجارب تجري على تلك الطائرات في السنوات الأخيرة، ولكن النتائج لم تكن مشجعة بعد. ففي الثامن عشر من نيسان (أبريل) سنة 1924، تمكن مركيز بيسكارا من الإقلاع والهبوط عمودياً، في ايسي-لي-مولينو، ولكن المسافة التي قطعها كانت قصيرة: 136 متراً فقط. وكان المهندس الإسباني خوان دي لاثيرفا من جهته، قد اخترع في السنة السابقة، أي سنة 1923، آلة أقل طموحاً ولكنها أكثر فعالية. وسُميت «أوتوخيرو»، وكانت طائرة عادية بكل شيء فيها (الجناحان، الذيل، الجُنيحان، والهيكل العام) وقد أضيفت إليها مروحة حرة من عدة شفرات، تدور حول محور مثبت في أعلى الطائرة، تحركه الرياح التي تزيحها الطائرة أثناء طيرانها؛ وبعد ذلك، عندما توقف الطائرة محركها وتسقط عمودياً، كانت كتلة الهواء المنزاحة بسبب السقوط، تولد هيجاناً في الهواء يجعل شفرات تلك المروحة الحرة تدور بقوة أكبر؛ وفي دورانها تخفف من سرعة نزول الطائرة. وبعد حل بعض المشكلات الاضافية، مثل الاحتكاك، والاستقرار، وغيرها، تبين أن «الأوتوخيرو» هي اختراع آمن وواعد: فكانت تقوم في عقد الثلاثينيات برحلات دورية بين مدريد ولشبونة دون توقف. ولكن كانت ما تزال هناك هوة كبيرة بين الإقلاع العمودي وإمكانية إيقاف الطائرة ثابتة في الجو. وهي الهوة التي اجتازتها دون صعوبة الآلة التي تحلق الآن فوق حرم المعرض الدولي. فقد كانت الآلة تعلو وتنخفض وفق مشيئة ملاحها، وتظل معلقة بثبات على أي ارتفاع كأنها مصباح سقف، وتتحرك أفقياً دون أي خضخضة أو ارتجاج. لقد كانت أعجوبة، والأعظم من ذلك هو أنها تقوم بتلك المناورات وغيرها دون وجود مراوح تدفعها.

– 4 –

كانت قد نشأت في أراضي الخلاء المتاخمة للمعرض، بلدة كاملة من البراكات؛ وكان آلاف الوافدين يعيشون في ظروف سيئة في تلك الضاحية. ولم يكن هناك من يعرف من الذي رتب البراكات بحيث تشكل شوارع، ولا من خطط تلك الشوارع لتتقاطع في ما بينها في زوايا قائمة. وكانت هناك صناديق خشبية عند أبواب بعض البراكات، تُربى فيها أرانب أو دجاج؛ وقد استُبدلت بأغطية تلك الصناديق قطع شِباك معدنية؛ وهكذا كان يمكن رؤية تلك الحيوانات مكدسة فيها. وعند أبواب براكات أخرى، كانت تتناوم كلاب جائعة ومضطربة النظرات. توقفت السيارة أمام أحد تلك الأبواب، وترجل منها أونوفري بوفيلا وماريا بيلتال. فأصدر الكلب زمجرة عندما مرا بجانبه، ثم عاد للنوم. ومن داخل البراكة، أزاحت امرأة ستارة الخيش التي على الباب، بعد أن نبهها دوي السيارة إلى وجودهم، وكانت منفوشة الشعر، تغطيها أسمال بالية. ولم تكن البراكة سوى أربعة ألواح خشبية مسمرة إلى بعضها ومغروسة في الأرض؛ وسقف من القصب والخوص الجاف، يسمح بتسلل ضوء الفجر من فجواته. أسدلت المرأة الستارة بعد أن دخل أونوفري وماريا. ثم راحت تنظر بعد ذلك إلى أونوفري بوفيلا نظرات فيها ملامح البلاهة. وبدا واضحاً أنها قد استيقظت للتو من نوم هادئ. قال لها: أين زوجك؟ لماذا هو غير موجود؟ فوضعت المرأة ذراعيها كأذني جرة، وردت رأسها إلى الوراء، ولكن لم يكن في اتخاذها ذلك الوضع أي أثر للعدوانية أو السفاهة. وأجابته: لقد ذهب مساء الأمس، ولم يعد حتى الآن. وبدا كما لو أنها ستطلق قهقهة مزدرية. ثم أضافت وهي تنظر شزراً إلى ماريا بيلتال: إنه ينفق النقود التي تعطيه إياها على الخمر والعاهرات. فقال أونوفري بوفيلا دون أن يلتفت إلى نظراتها: هذا شأنه، وليس من اختصاصي التحكم بإنفاقه لما أدفعه له. تحركت ستارة الخيش عندما دخل الكلب إلى البراكة. راح يتشمم ببوزه الرطب ساقي ماريا بيلتال، ويعطس بصخب من وقت لآخر. وقال أونوفري موجهاً كلامه، دون مسوّغ، إلى ماريا التي ما زال يمسك يدها بين يديه:

حسن، ماذا ننتظر؟ فجثت المرأة على ركبتيها؛ وأزاحت بحد يدها تراب الأرضية إلى أن ظهر غطاء سرداب في الأرض. نهرت الكلب الذي كان يتشمم الآن الغطاء، ثم رفعت غطاء فتحة السرداب بشده من حلقة مثبتة فيه. فظهرت في الحفرة التي انفتحت بضع درجات محفورة في الأرض. أخرج أونوفري بوفيلا بعض النقود من جيبه وقدمها للمرأة، ونصحها بالقول: خبئيها حيث لا يستطيع زوجك العثور عليها. فابتسمت المرأة بنصف فمها، وسألت وهي تحيط بنظرها تلك الغرفة-العلبة التي هم فيها: وأين يمكنني ذلك؟ ولكنه لم يكن يعير اهتماماً لكلماتها: فقد بدأ ينزل تلك الدرجات ساحباً معه ماريا بيلتال. أنار بمصباح يدوي السرداب الذي سارا فيه قرابة مئة متر إلى أن وجدا درجاً مشابهاً للدرج السابق. وكانت هناك في أعلى هذا الدرج فتحة مغلقة، فُتحت لهما عندما طرق على غطائها ثلاث مرات بمقبض المصباح اليدوي. إنهما الآن داخل الجناح في المعرض. وهو بناء من الإسمنت المسلح مشابه في كل شيء للخيمة التي كانوا يعملون فيها إلى ما قبل أيام قليلة، الخيمة التي ما زالت منتصبة وخاوية، في حديقة المنزل. وعلى خلاف تلك الخيمة، كان الجناح مع ذلك بلا أبواب أو نوافذ: لا يمكن الدخول إليه والخروج منه إلا من تلك الفتحة السرية. والرجل الذي فتحها لهما كان متقدماً في السن، وذا بشرة متوردة؛ وكان يرتدي فوق بدلته روب جراحين أبيض. وقد قطب حاجبيه حين رأى أونوفري بوفيلا، وأشار بإصبعه السبابة إلى ساعة معصمه، وكأنه يريد أن يقول: أهذا هو الموعد؟ كان أونوفري بوفيلا قد تعرف إليه في سنوات **الحرب الكبرى**؛ وكان آنذاك مهندساً عسكرياً مشهوراً، وخبيراً في القذائف الباليستية. وقد تركته هزيمة الإمبراطوريات الوسطى دون عمل؛ فكان يقيم أوده خلال عشر سنوات بإعطاء دروس في الفيزياء والهندسة في مدينة توبنجين، في معهد للرهبان المريميين. وقد تلقى هناك في مطلع سنة 1928 رسالة من أونوفري بوفيلا يدعوه فيها إلى القدوم إلى برشلونة، **للمساهمة في مشروع له علاقة باختصاصك**. وكانت قد أُودعت باسمه في أحد مصارف توبنجين الأموال اللازمة لتغطية نفقات السفر. وتنتهي الرسالة المذكورة إلى القول: ويؤسفني أنني لا أستطيع التوضيح أكثر، بسبب طبيعة المشروع، وأسباب مهمة أخرى.

وقد ذكّرت هذه اللغة المهندس البروسي بالأزمنة الطيبة الغابرة، فاستقل القطار في توبنجين ووصل إلى برشلونة بعد رحلة استمرت أربعة أيام وخمس ليال دون انقطاع. وخلال هذه الرحلة كان تعكر مزاجه المعهود يزداد حدة. وعندما أوضح له أونوفري المسألة، وعرض عليه المخططات، وأخبره بما يأمله منه، ألقى نظارته على أرض المكتبة، حيث جرى اللقاء بينهما، وداسها بقدمه وقال: المشروع سخيف، ومن وضع مخططاته سخيف، وأنتَ أشد منه سخفاً؛ بل إنك في الواقع أسخف رجل عرفته. فابتسم أونوفري وتركه يُفرّج عن نفسه. فهو يعرف أن حياته في معهد توبنجين كانت عذاباً متواصلاً: فقد كان الطلاب يلقبونه «الجنرال بوم-بوم» ويتخذون منه هدفاً لأشد السخريات قسوة. وقد أخذت أفكار سنتياغو بيلتال المشوشة تتطور الآن، وتتحول إلى شيء علمي. لقد حوّل سفسفة العبقرية إلى آلة قادرة على الطيران. وكان لا بد لأونوفري بوفيلا، من جهته، من الاستعانة بكل ما لديه من الصبر والسلطة لتسوية الخلافات الحامية التي كانت تنشب طوال الوقت بين المخترع الكتلاني والمهندس البروسي؛ وهو وحده من استطاع أن يجعل التعاون بينهما مثمراً. وها هي الآلة تحتل الآن وسط الجناح، مستندة إلى سقالة متشابكة أشبه بطرحة من الدانتيلا. وهتف أونوفري: آلة فريدة، إنها رائعة! فتنهد المهندس: لقد كان يتألم لتكريس كل تلك المواهب، والجهود، والأموال، من أجل صنع جهاز للتسلية فقط. ولكن أونوفري الذي كان يعرف جيداً سبب غمه، لم يعبأ به: فالوقت ليس مناسباً للدخول في مناقشات أكاديمية. ففي الخارج تدوي طلقات المدفعية معلنة وصول الملكين إلى المعرض. قال: هيا بنا! وكان يتحرك في الجناح عدة رجال يرتدون أفرهولات زرقاء ملطخة بالشحم؛ وكل واحد منهم يؤدي عمله دون أن يلتفت إلى ما يعمله الآخرون. ولم يكن أي منهم يتكلم أو يتوقف عن عمله ليدخن سيجارة أو ليشرب كأساً: لقد تمكن المهندس البروسي من فرض انضباطه الصارم على هذا الفريق، وكان هؤلاء هم نخبة الميكانيكيين، الذين لا يرفعون نظرهم عن أدواتهم حتى عندما تمر ماريا بيلتال من جانبهم. وكانت هي قد أدركت الآن لماذا جاء بها إلى هناك، وبدرت منها حركة للهرب. فأمسك بها بقوة، ولكن دون عنف. وقرأ الرعب في عينيها، ففكر: إنها لا تثق باختراع أبيها،

وتعتبرني مجنوناً. وربما لا تكون مخطئة في ذلك. إنه يرى الآن حرم المعرض الدولي كله تحت قدميه، وراح يفكر: يا للغرابة، فكل شيء يبدو غير واقعي عند النظر إليه من هنا؛ وربما كانت ديلفينا المسكينة محقة في هذا الأمر: فالعالم في الحقيقة مثل السينما. وفكر: هيا، سأنخفض قليلاً لكي أرى وجوه الناس. ثم حرك بعض أذرع لوحة القيادة، فأخذت الآلة بالانخفاض. كانت الحشود قد استعادت هدوءها، وراحت تتابع تلك التطورات دون أن يفوتها شيء منها؛ وراح بعضهم يقول للبعض عندما صارت المسافة التي تفصلهم عن المركبة تسمح لهم برؤية راكبيها: انظر، انظر، إنه أونوفري بوفيلا!، أجل إنه هو، إنه هو، ومن هي هذه الفتاة التي ترافقه؟ إنها تبدو شابة وجميلة، ياه، إنها ترتدي تنورة قصيرة جداً، يا لها من وقحة! كانت هذه التعليقات وأخرى مماثلة لها تخرج مضمخة بشعور من المحبة يقارب التأليه. فالقصص المتداولة عن ثروته الأسطورية والوسائل التي لجأ إليها في جمعها، جعلت منه شخصية شعبية: فعندما يمشي في الشارع، يتوقف الناس لينظروا إليه خفية، ولكن بإلحاح واهتمام، محاولين أن يقرؤوا في ملامحه تأكيداً أو نفياً للشائعات التي سمعوها عنه. وكان الجميع يتساءلون وهم يرون وجهه الوقور والجاد، ذا المسحة الخفيفة من الجلافة: أيكون صحيحاً أنه كان في شبابه فوضوياً، ولصاً، وقاتلاً؟ وأنه كان يهرب الأسلحة خلال الحرب؟ وأنه استمال بالرشوة عدداً من السياسيين المشهورين، والعديد من الوزارات بكامل أعضائها؟ وأنه توصل إلى كل ذلك بمفرده ودون مساعدة من أحد، منطلقاً من الصفر، ومعتمداً على الجرأة وقوة الإرادة؟ وجميعهم كانوا مستعدين في أعماقهم لأن يصدقوا أنه كان هكذا بالفعل: ففيه كانت تتحقق أحلامهم جميعاً، ومن خلاله ينفذ انتقام جماعي. وكانوا يقولون: وحتى لو سبق له أن كان شريراً، ما أهمية ذلك؟ وهل يجد المرء اليوم مخرجاً آخر في هذه البلاد؟ ولهذا راحوا يحيّونه عندما عرفوه، ويوجهون إليه الهتافات التي كانوا يحيّون بها الملك. فقال موجهاً كلامه إلى ماريا بيلتال التي تكاد لا تجرؤ على فتح عينيها: انظري، انظري كيف يهتفون لي، وأضاف وهو يرفع صوته كثيراً ليطغى على دوي المحركات: الناس طيبون جداً، أوتعلمين؟ إنهم طيبون جداً، لا بد من ملاحظة ما يسمحون بحدوثه لهم دون أن يعترضوا. وبينما هو

يقول ذلك، ضغط زراً فانفتحت كوة في مؤخرة الآلة؛ وخرجت من هناك عشرات الحمائم المحلقة، وما أن وجدت تلك الحمائم نفسها طليقة من حبسها، وبسبب ذعرها من هدير المحركات، حتى ابتعدت في سرب متماسك. فلم يستطع أحد كبح هتاف البهجة لدى رؤية هذا المشهد، بمن في ذلك الملك نفسه. ولشدة رضاه عن التأثير الذي أحدثه ذلك المشهد، جعل أونوفري بوفيلا الآلة تدنو ببطء إلى أن أصبحت على بعد أمتار قليلة من شرفات القصر الوطني، التي صار يُخشى من انهيارها بسبب ثقل الشخصيات المتجمعة عليها. وصار بإمكانه الآن أن يرى وجوه الجميع بوضوح، مثلما استطاعوا هم أيضاً رؤية وجهه. وقال: انظري، انظري! ها هو ذا الملك. ثم صرخ وهو يعلم بأن أحداً لن يستطيع أن يسمعه باستثناء ماريا بيلتال: يحيا الملك! تحيا الملكة! يحيا دون ألفونسو الثالث عشر! وواصل القول: آه، ها هو ذا بريمو دي ريفيرا، هيا، فلتذهب إلى الجحيم أيها السكير! وهكذا راح يكتشف وجود بعض الوجوه المعروفة، ويريها لمرافقته بصورة حالمة، وقال لها أخيراً: أترين ذاك الشخص الطويل الذي يبرز فوق رؤوس الآخرين؟ إنه إفرين كاستيلس: الصديق المخلص الوحيد الذي عرفته في حياتي. حسن، ربما كان لي أكثر من صديق مخلص، ولكنهم رحلوا جميعهم ولم يبق سواه الآن. ثم أضاف مبدلاً نبرة صوته: ياه، فلنترك الحزن جانباً، هيا بنا، فلنذهب من هنا، لقد رأينا هذا المشهد كفاية. وحرك أحد الأذرع إلى أقصى مداه، فاندفعت الآلة بقوة إلى أعلى وإلى الوراء. صارا يريان الآن تحتهما المدينة كلها، وسلسلة جبال كولسيرولا، ونهري لوبريغات والبيسوس، والبحر الفسيح المتلألئ. وقال بصوت متهدج من شدة التأثر: آي، برشلونة! كم هي جميلة! عندما رأيتها أول مرة، لم يكن هناك أي شيء تقريباً من كل هذا الذي نراه الآن! كانت البرية تبدأ هناك بالذات، وكانت البيوت صغيرة جداً، وهذه الأحياء المزدحمة بالسكان كانت قرى، وواصل الكلام بصوت متبدل: وفي منطقة التوسع كانت ترتع الأبقار؛ ربما انك لا تصدقين. لقد كنت أعيش هناك، في زقاق ما زال على حاله التي كان عليها، وفي نزل أغلق أبوابه منذ قرون. وكان يعيش هناك أيضاً أناس رائعون. وأتذكر أنه كانت هناك مُنجِّمة قرأت لي في إحدى الليالي مستقبلي. لم أعد أتذكر شيئاً مما

قالته لي بالطبع. وفكر: وحتى لو تذكرتُه، ما أهميته؟ فذلك المستقبل الذي قرأته لي صار الآن ماضياً.

من كانوا يتابعون حركة الآلة من جبل مونتجويك، ومن استثارهم هدير المحركات فخرجوا إلى الشرفات أو صعدوا على الأسطح، رأوا كيف انحرفت الآلة الطيارة باتجاه البحر، كما لو أن ريحاً غريبة دفعتها فجأة. وبعيداً عن الشاطئ، قللت من ارتفاعها، ثم ارتفعت ثانية للحظات، وهوت أخيراً إلى البحر. وروى الصيادون الذين كانوا يعملون في مكان قريب آنذاك بأنهم رأوا، بهلع شديد، الآلة وهي تتجه نحوهم، ولم يعرفوا ماذا يمكن لذلك الشيء أن يكون. ظن بعضهم أن ما يهوي باتجاههم هو نيزك، أو كرة من نار؛ ولكنهم لم يتأكدوا مع ذلك مما إذا كانت ألسنة اللهب تلف الآلة فعلاً، أم أنه انطباع سببه انعكاس أشعة الشمس على سطحها المعدني والزجاجي. ولكنهم اتفقوا جميعهم بالمقابل، على أنها عندما وصلت فوق النقطة التي سقطت فيها، توقفت محركاتها عن العمل فجأة. وقال الصيادون في تصريحاتهم للصحافة: توقف دوي الآلة، وأعاد هدير الأمواج إلى البحر طبيعته الأزلية. وبدا كل شيء ثابتاً، كما لو أن الزمن قد توقف. ثم هوت الآلة إلى الماء باندفاع شديد، وكأنها قذيفة منطلقة من مدفع. ومن هرعوا إلى المكان الذي ظنوا أنهم رأوها تسقط فيه، قالوا إنهم لم يجدوا لها أثراً. حتى ولا بقعة زيت أو نفط طافية على سطح الماء. واختلفوا فيما بينهم حول النقطة التي سقطت فيها بالضبط: إذ لم يكن هناك في قواربهم البدائية تلك أجهزة لقياس المسافات. وقد أرسلت القيادة البحرية عدة سفن على الفور. وعرضت بعض البلدان مساعدتها، ورغبتها في المساهمة في عمليات الإنقاذ. والحقيقة أن الجميع كانوا مهتمين بانتشال الآلة الطائرة لكي يستحوذوا على أسرار آلية عملها. ولكن تلك الجهود المشتركة لم تؤد إلى أية نتيجة. كان الغواصون يغوصون ويخرجون صفر اليدين، ولم تكن آلات السبر تُخرج من القاع سوى الرمل والطحالب. وأخيراً أجبرتهم عاصفة قوية على وقف عمليات البحث، ولم يعودوا إلى استئنافها من جديد بعد عودة الهدوء. ولأن جثث ركاب الآلة لم تظهر، فقد أقيم قداس لراحة أرواحهم في الكاتدرائية. وبعد ذلك ألقيت أكاليل زهور في مياه المرفأ القاتمة؛ فحملها التيار إلى

عرض البحر. ونشرت الصحف مقالات النعي المعهودة في مثل هذه الحالات، وهي نصوص متخمة بالبلاغة اللفظية. كما ظهرت ملخصات منقحة بصورة مناسبة لسيرة حياة أونوفري بوفيلا، من أجل إطلاع القراء. وقد اتفقت جميعها على أن رجلاً عظيماً قد رحل. فكتبت إحدى صحف تلك الأيام: **ستبقى المدينة مدينة له بالجميل إلى الأبد.** وقالت صحيفة أخرى: **لقد كان خير رمز لروح عصر مات إلى حد ما معه اليوم.** ولاحظت جريدة ثالثة: **لقد بدأت حياته العملية مع المعرض الدولي لعام 1888 وانتهت مع معرض 1929 الحالي.** واختتمت قائلة بخبث واضح: **كيف ينبغي علينا تفسير هذه المصادفة؟** وبالفعل، فالمعرض الذي أسهم أونوفري بوفيلا بشذوذه في إضفاء الحيوية على حفل افتتاحه، كان يحمل دلائل تحوله إلى كارثة مدوية. ففي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من تلك السنة، وبعد أربعة أشهر من موعد التدشين، حدث انهيار بورصة نيويورك. وبين عشية وضحاها، ودون إنذار مسبق، راح النظام الرأسمالي يترنح. وتبع تلك الظاهرة إفلاس آلاف الشركات. فصار ممثلوها يهرعون كالمجانين إلى أجنحة وسرايات المعرض ويأخذوا المعروضات قبل مجيء موظفي العدالة ومعهم أوامر الحجز على تلك المعروضات. وقد انتحر عارضون كثيرون: فلكي يتخلصوا من العار ومن معاناة الإفلاس، كانوا يقفزون من نوافذ مكاتبهم، في أعلى طوابق ناطحات السحاب في وول ستريت. ولكي لا تبقى الأجنحة خاوية بصورة مفاجئة، مما سيترك انطباعاً سيئاً لدى زوار المعرض، قامت الحكومة الإسبانية بالتعويض عن المواد التي كانت تُسحب، بأول شيء يقع تحت يدها. وسرعان ما صارت هناك أجنحة لا تُعرض فيها سوى بعض الأشياء التافهة. وقد طغت هذه الظروف المؤثرة على شائعات بلا أساس، انتشرت في برشلونة، وتقول إن أونوفري لم يمت في الواقع، وإن الحادث كان مدبراً، وإنه يعيش الآن حياة مترفة في مكان ناءٍ برفقة ماريا بيلتال التي وجد إلى جانبها أخيراً، الحب الحقيقي، وإنه يكرس كل ساعات الليل والنهار لحبها. ويوردون عدة تفاصيل لدعم هذه الفرضية الرومانسية. وبالفعل، فقبل الحادث كان أونوفري بوفيلا نفسه قد رتب الأمور بطريقة لا يكون من المستحيل معها معرفة مكان الآلة وحسب، وإنما الوصول كذلك إلى مخططات تصميمها أو إلى التقنيين الذين

شاركوا في صنعها، مثلما تبين فيما بعد. فعندما تمكن مهندسو الجيش أخيراً من الدخول إلى الجناح في المعرض، بفتح ثغرة في الجدار، لم يجدوا فيه سوى الألواح الخشبية التي شكلت سقالة إسناد الآلة. وحتى لو اكتشفوا الفتحة السرية، فإن السرداب الذي تؤدي إليه لن يقود إلا إلى برّاكة مهجورة. والأمر الذي لم يكن أقل إثارة للشكوك من كل ما تقدم، هو أن أونوفري بوفيلا قد أخذ معه الريجنت، تلك الماسة العجيبة، عند وقوع الحادث المشؤوم. وهذا الأمر، فضلاً عن أحداث تلك السنة، جعل البعض يجازفون بطرح النظرية القائلة إن أونوفري بوفيلا كان وراء الانهيار الاقتصادي العالمي، مع أن أحداً لم يستطع أن يجد المبررات التي يمكن لها أن تكون قد دفعته لعمل ذلك. عندئذ تحولت جميع الأنظار إلى أرملته، ولكن لم يكن ممكناً الحصول منها على أي توضيح. وقد بيع المنزل إلى مجلس نواب برشلونة المحلي الذي أهمله، فتسبب الإهمال في خرابه وتحوله مجدداً إلى الأطلال التي كان عليها. وانسحبت الأرملة في أثناء ذلك إلى شاليه في «يافانيراس» كان فيما مضى ملكاً للجنرال أوسوريو كليمنتي، حاكم جزيرة لوزون السابق. وبقيت هناك في عزلة تامة حتى موتها في الرابع من آب (أغسطس) سنة 1940. وقد خلّفت عند موتها بعض الأوراق، ولم تكن بينها الرسالة التي تركها أونوفري بوفيلا على منضدة مكتبه قبل خروجه متوجهاً إلى مونتجويك، قبل إحدى عشرة سنة. وشيئاً فشيئاً، راحت هذه الشائعات، وأخرى مشابهة لها، تتلاشى مع مرور الزمن دون أن يأتي أي حدث ليثبت صحتها، فضلاً عن أن مشكلات أخرى أكثر أهمية كانت تستحوذ على اهتمام البرشلونيين. ففي أثناء ذلك كان المعرض الدولي يلفظ أنفاسه الأخيرة. وكان الرأي العام يسخر علناً من منظميه، وبصورة غير مباشرة، من حكومة بريمو دي ريفيرا. وكان الناس يُعربون بهذه الذريعة عن رفضهم للدكتاتور. وعلى الرغم من الرقابة، لم يكن هناك من يتورع عن تشبيه معرض سنة 1929 بمعرض سنة 1888: فكانت توجه الانتقادات اللاذعة لمعرض الـ 29؛ أما معرض 88 بالمقابل، فكان الجميع يطرون عليه، ولم يكن هناك من يريد أن يتذكر المشكلات التي سببها في حينه، والخلافات والمشادات التي جرت آنذاك، والعجز الذي أرهق به المدينة. وندم البارون دي فيفير الآن لأنه لم يُبدِ

تشدداً أكبر، وقد اعتاد أن يقول بنبرة متباكية: لقد رهنا مدينتنا لكي ننتهي إلى هذا التهريج الذي سيضعنا جميعنا موضع السخرية. ولم يتأخر كثيراً في التخلي عن منصبه. وكذلك بريمو دي ريفيرا الذي كان المشجع الرئيسي للمعرض، وكان يعقد الآمال الواسعة على نجاحه، وجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بوضعه المزعزع، وإلى تفهم عدم شعبيته. وفي كانون الثاني (يناير) 1930 قدم استقالته إلى الملك، الذي قبلها دون أن يكتم سعادته. ونفى الدكتاتور المستقيل نفسه إلى باريس، حيث عاش بضعة شهور فقط: فقد مات هناك في السادس عشر من أيار (مايو) 1930، قبل أيام قليلة من الذكرى الأولى لافتتاح معرض برشلونة الدولي. وبعد أربع سنوات من ذلك، سيتنازل ألفونسو الثالث عشر نفسه عن عرش إسبانيا ويرحل إلى المنفى. وقد تلت هذه الأحداث، أحداث أخرى لا تقل عنها أهمية. بعضها سعيد وبعضها الآخر مشؤوم؛ ثم اندمجت هذه وتلك في الذاكرة المشتركة، وصارت شيئاً واحداً في هذه الذاكرة، صارت سلسلة أو منحدراً يؤدي حتماً إلى الحرب والمجازر. وعندما صار الناس يبدون رأيهم في التاريخ، قالوا في الواقع إنه في السنة التي اختفى فيها أونوفري بوفيلا من برشلونة، دخلت المدينة في الانحدار الصريح.

الفهرس

● ولد إدواردو ميندوثا في برشلونة (إسبانيا) سنة ١٩٤٣.

● عمل مترجماً في مقر الأمم المتحدة في نيويورك منذ سنة ١٩٧٣ حتى ١٩٨٢.

● برز كأحد أهم الروائيين الإسبان المعاصرين، إضافة إلى خوضه ميدان الكتابة المسرحية.

● تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية، ونُقل بعضها إلى السينما.

● من أبرز أعماله الروائية: «الحقيقة حول قضية سافولتا» (صدرت سنة ١٩٧٥، ونالت جائزة النقد)، و«سرّ القبو المسحور» ١٩٧٨، و«متاهة حبات الزيتون» ١٩٨٢، و«كوميديا خفيفة» ١٩٩٧.

● تعدّ «مدينة الأعاجيب» أكثر رواياته اتساعاً وطموحاً، وأحد أنجح الأعمال الروائية في السنوات الأخيرة في إسبانيا. فقد توالت طبعاتها بالإسبانية منذ ظهورها في أيار ١٩٨٦، حتى زادت على الثلاثين طبعة، وسرعان ما تجاوزت شهرتها حدود بلاد المؤلف، فتُرجمت إلى إحدى وعشرين لغة أجنبية، ونالت إعجاب القراء والنقاد، وحازت جوائز عديدة، مثل جائزة أفضل رواية أجنبية في إيطاليا، وجائزة أفضل كتاب لعام ١٩٨٨ التي تقدمها مجلة «لير» الفرنسية.

ISBN:2-84305-621-X

